Bibliotheca Alexandrina
0018925

تفسير أبى السعود

أو

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم

لقاضى القضاة أبى السعود بن محمد العمادى الحنفى

٩٠٠هـ — ٩٨٢هـ

تحقيق

عبد القادر أحمد عطا

الجزء الأول

يطلب من الناشر
مكتبة الرياض الحديثة
بالرياض

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

مطبعة السعادة
ميدان أحمد ماهر — شارع الجنداري رقم ١٢
ت ٩٠٧٣٧٩ س.ت ١١٩٩٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

عالم الروم أبو السعود العمادى

من دلائل عظمة القرآن الكريم ، وعزة سلطانه ، وعالمية دعوته ، أن كان له فى كل قطر من أقطار الأرض ، وبين كل جنس من أجناس الناس فقهاء يأخذون بطرف من أسراره المنيمة ، ويكشفون عن سمات إعجازه الرفيع ، على اختلاف ثقافاتهم وبيئاتهم ، وتباين تراثهم الحضارى ، فاختلفت مآخذهم ، واتحدت سرائرهم جميعا على التبتل فى محرابه ، والاستسلام لجلاله فى إطار من التوحيد والإسلام المأثور عن إبراهيم الخليل عليه السلام ، والمتدرج فى مراتبه حتى الكمال على يد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم تسليما كثيراً .

فكما كان الإسلام دين الله منذ بدء الخليقة ، يعلنه الرسل عبر العصور والدهور باسمه ومعناه ، كان القرآن كتاب الإسلام المتكامل فى المناهج والقوانين ، كتاب العالم ودستوره الذى ينسجم مع بيئاته وثقافاته وأجناسه وحضاراته ، لا يتنافر مع جنس ، ولا يتضارب مع بيئة ، ولا يتعارض مع زمان ، فهو هو الجديد المتفاعل مع جميع العقليات على اختلاف تكوينها على مدى القرون والأجيال .

وكان ممن حاول اجتلاء أسرار القرآن ودلالات إعجازه عالم من علماء الروم هو : أبو السعود محمد بن مصطفى العمادى ، فأبدع وأجاد فى الميدان الذى اختاره لنفسه وارتضاه لكتاب الله تعالى ، ألا وهو سر لغة القرآن فى إعجاز القرآن .

والرجل وإن لم يكن عربى المنبت والأرومة فإنه بلغ قمة الإجادة فى استكشاف أسرار العربية لغة الكتاب الكريم ، شأنه فى ذلك شأن غيره

من العلماء المسلمين من غير العرب ، ولكنه زاد عليهم بشمول بحثه لجوانب القرآن الكريم كله ، ولم يكتف بمواضع معينة منه يركز عليها دراسته لأسرار الإعجاز القرآنى المنيع .

لقد سبقه من غير العرب عبد القاهر الجرجانى فى كتابيه : دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، ولكن بحث عبد القاهر عن إعجاز القرآن من الجانب اللغوى لم يكن متكاملا ، بل كان مجرد قواعد وأصول يمكن أن يحتذيها الباحث فى هذا الميدان . وسبقه كذلك جار الله الزمخشرى فى كتابه « الكشاف » ولكنه انتحى جانب الكشف عن أسرار المجاز والاستعارة فى القرآن ، أما جانب التركيب الأسلوبى للقرآن فقد كان فيه قليل البضاعة . أما فخر الدين الرازى فى كتابه « أنوار التنزيل » فمع جلالة قدره لم ينتهج منهج التخصص ، بل أخذ بأطراف من وجوه الإعجاز القرآنى فى اللغة والفلسفة والتشريع .

وأما خطيب المفسرين أبو السعود فقد كان متخصصا ، وكان إلى جانب ذلك رجلا لا يفترق عن العلماء المخترعين فى معاملهم فالقارىء المتدبر لكتابه هذا الذى نقدم له يأخذه الدهش ملء جميع أقطاره ، لأنه يجد نفسه بالفعل أمام رجل بينه وبين علماء المعامل المخترعين شبه وثيق .

فإذا كان علماء المعامل الكيمائية يؤلفون بين العناصر والمواد ليبتكروا للناس ما فيه ترف أو نعيم أو علاج لأبدانهم ، أو ليخترعوا سلاحا من أسلحة الدفاع عن النفس والوطن ، أو وسيلة من وسائل تيسير الحياة على الناس ، فإن إمامنا أبا السعود ماهو إلا رجل يضع عناصر اللغة القرآنية تحت منظار بصيرته المتألقة ، ونور عقله الروحى العميق ، ويستكشف من خلالها كل ما يخدم قوى الإنسان الإيمانية ، فإذا الإنسان موقن بأنه آوى إلى ركن شديد ، وآمن برب عزيز ، وأن مواهبه الباطنة قد بدأت تتفتح عن وعى جديد يؤكد أن الله هو القاهر فوق عباده ، وأن العمل على هدى الإيمان به هو الخير والقوة والسيادة العزيزة المنال . وعلى أى حال فمعامل الأصوات اللغوية منهج جديد من مناهج البحث اللغوى لها فى أوربا شأن عظيم فى عصرنا الحاضر .

ولد الإمام أبو السعود العمادى المولى الرومى فى قرية قريبة من القسطنطينية عام تسعمائة من الهجرة ، وقال صاحب العقد المنظم فى تاريخ علماء الروم إن مولده كان فى عام ثمان وتسعين وثمانمائة . واتفق الجميع على أن وفاته كانت فى اثنتين وثمانين وتسعمائة . أى إنه عاش ثمانين عاما أو اثنين وثمانين عاما على خلاف فى عام ولادته .

وكان والده رجلا من أهل العلم والفضل فأخذ عليه الفتى أبو السعود أصول العلوم الشرعية ، ودرس عليه اللغة العربية والفارسية والتركية ، فكان مجيداً لها جميعاً . ثم تنقل فى مدارس العلم التى انتشرت فى بلاده ، وانتهى به المطاف إلى ملازمة العلامة المولى سعدى جلبي فتخرج به ، ونضج على يديه .

تولى أبو السعود عددا من المناصب كلها تدل على تفوقه فى علوم الشريعة وإلمامه بها إلماما يدل على وثاقة شأنه فيها . فقد تولى قضاء مدينة « بروسا » ثم قضاء « القسطنطينية » ثم قضاء العسكر ودام فيه ثمانى سنين ، ثم عين مفتيا عاما للقسطنطينية وهو أعلى منصب دينى فى الخلافة العثمانية ، وعين له السلطان كل يوم مائتين وخمسين درهما .

وكانت فكرة هذا التفسير قد راودته فى شبابه وفى أثناء دراسته ، وبدأ فى إعداده ، ولكن عمله فى القضاء عوق من تيار نشاطه فى سبيل إنهائه ، ولما تقدم به العمر جد فى إعداده خوفا من أن يحول الموت بينه وبين تمامه ، وأهداه إلى السلطان سليمان خان بن بايزيد . ويقول الشوكانى فى البدر الطالع : إن السلطان أعجب بالكتاب فأنعم على مؤلفه نعما عظيمة ، وزاد فى معلومه اليومى زيادة واسعة ، إلى جانب ما تناهت به عظمته فى جميع الممالك الرومية حتى صار المرجع لعلمائها فى جميع العلوم كما يقول صاحب الكواكب السائرة وصاحب البدر الطالع أيضا .

وأبو السعود حنفى المذهب سنى المعتقد ، روحى الوجدان ، وكان له من دراسة مذهب الإمام أبى حنيفة قدرة هائلة على مناقشة القضايا والخروج من

ذلك بأحكام لاتقبل الجدل ، كما كان له من سنية معتقده ، وروحية وجدانه إحساس ببواطن لغة القرآن ، وعمق تشريع الإسلام ، أضفى على بحثه العلمى البحث روحا جديدة بثها فى أنحائه فأصبح شهيا للقارىء لايمل من شدته ، ولا من عمق فلسفته .

ولأبى السعود العمادى مؤلفات أخرى غير التفسير هى :

١ — بضاعة القاضى فى الصكوك .

٢ — تهافت الأمجاد فى فروع الفقه الحنفى .

٣ — تحفة الطلاب فى المناظرة .

ولكن أبرعها وأمجدها كلها هى التفسير الذى يعتبر بحق معجزة العقل البشرى فى كله فى كشف أسرار لغة القرآن الكريم ، والاسترشاد بتلك الأسرار اللغوية فى تقرير أصل عظيم هو إعجاز القرآن لغويا وأدبيا لقوم كانت بضاعتهم الأولى والأخيرة هى الشعر والأدب ، وان يأتى بعدهم من الأجيال ، ثم بالنسبة لجميع اللغات فى العالم كله .

ومن يمن طالع أبى السعود أنه لما مات بالقسطنطينية دفن بجوار صحابى جليل هو أبو أيوب الأنصارى وكان ذلك فى الخامس من جمادى الأولى عام ٩٨٢ من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

مناهج فهم القرآن

الواقع أن القرآن الكريم لم يكن تحديا لغوياً وأدبياً للعرب من أهل الجاهلية حسب كما يظن بعض الباحثين ، وإنما كان تحديا للعالم كله فى جميع أنحاء النشاط البشرى والإنسانى جميعاً .

ولئن كان فى إبان نزوله يشكل تحديا تعجيزيا لعرب الجاهلية من ناحية الأسلوب الأدبى والتركيب اللغوى وغير ذلك من خصائص الأدب العربى فإن إعجازه فى هذا الجانب ما زال قائماً لكل من يتخذون العربية لغة تخاطب وتعليم لهم ، ولو كان إعجاز القرآن مقصوراً على هذا الجانب وحده لما كان الإسلام دينا عالميا ، أو لكان على أى قابل للإسلام أن يتعلم العربية حتى يدرك المعجزة القرآنية التى تقنعه بالإيمان بدين الإسلام ، والواقع لا يدل على ذلك .

فالقرآن بنصه يقرر أن النبى صلى الله عليه وسلم مبعوث إلى الناس كافة ، وأن خلفاءه مأمورون بالجهاد الدائم حتى يكون الدين كله لله ، وأن القرآن فيه تبيان لكل شىء ، وأن الله تعالى لم يفرط فيه فى شىء من شئون الدنيا ولا الآخرة ، على أن هناك نصوصا قرآنية تثبت أن إعجاز القرآن ليس كامنا فى لغته وأدبه حسب ، وإنما هو كامن فى إنسانياته وقانونه ودستوره العالمى ، ومبادئه المحكمة التى لاتحتاج إلى تعديل باختلاف الزمان أو المكان . فالله تعالى قد تحدى الإنس والجن جميعاً أن يأتوا بمثله . ومعلوم لنا أنه لم يتحد الإنجليزى ولا الألمانى بعربيته ، بل بأنواع أخرى من التحدى لاتقل عن تحدى الناطقين بالعربية ببيانه وأسلوبه المعجز . فهو الان يتحدى فقهاء الدستور بقوانينه ، ويتحدى المنظمات العالمية بإنسانياته ، ويتحدى العلماء المعمليين بإشاراته ، ويتحدى الأطباء بمنهاجه الصحى الأصيل ، والزراع والصناع وغيرهم

بما بث من أصول ترك للعقل البشرى توسيعها وتعميقها ، حتى يستحق الإنسان لقب الإنسان .

فلو آمن ناس من غير العرب بالإسلام ، ثم ترجموا آياته إلى لغتهم لكان لهم من تلك الترجمة جانب من جوانب الإعجاز على أى حال ، وقديما انبهر ناس من غير العرب بالعدل الإسلامى النابع من تطبيق القرآن فآمنوا به معجبين عاجزين عن مثل العدل المقرر فيه .

لهذا كله آتى القرآن الكريم ثماره فى كل بيئة وبين كل جنس تماما كما آتى ثماره فى جزيرة العرب مع اختلاف فى المنهج وتقابل فى الفهم ، فأثره فى الفرس مقابل لأثره فى بلاد الروم وهكذا كان القرآن ولا يزال إكسيرا عجيبا يمس أى بيئة من البيئات فتتحول معارف تلك البيئة وثقافتها إلى ثقافة قرآنية على وجه من الوجوه تعتبر قمة فى مجال الثقافة والحضارة العالمية .

وكانت النتيجة الحتمية لهذا الشمول فى مناهج فهم القرآن أن يتخصص العرب فى الجانب اللغوى ، وأن يتخصص غيرهم فى الجوانب الأخرى من الإعجاز ، وكان لذلك حكمة عليا هى نفسها من دلائل الإعجاز وإن كانت من نتائجها .

فالإسلام والقرآن قانون وتطبيق وعلم وثقافة ، والقانون كما هو معروف فى أرجاء العالم يحتاج إلى دقة فى الصياغة ، وفهم عميق لمدلولات الألفاظ ومراميها ، حتى يكون استنباط الأحكام منها قائما على أسس دقيقة لا تجنح إلى الظن ، ولا تميل نحو الخطأ ، ولذلك كان تفسير السلف من العرب للقرآن يتجه إلى هذا الاتجاه ، ومنه اتجه المجتهدون إلى أصول التشريع ، ثم استنباط الأحكام على ضوء هذه الأصول فكان العرب بذلك أول العلماء المنهجيين ، وسبقوا غيرهم فى هذا المجال ، كما كانوا أعظم العلماء فى تحقيق نص القرآن عند تدوينه على الوجه المعروف للدارسين جميعاً .

وهذا المنهج هو الأساس الذى تنطلق منه جذوة الإيمان الصحيح إلى أرجاء العالم بحيث تسلم العقيدة من كل عبث فى أى بيئة غير البيئة التى ولد فيها الإسلام وهو ما كان بحمد الله حينما نشأت البدع والأهواء والفرق الزائفة فما لبثت أن تحطمت على صخرة الحق الصلبة بفضل الفهم الدقيق لمعانى القرآن على أيدى السلف من العرب فى عصر الصحابة والتابعين .

وهكذا تفاعل القرآن فى بيئته وفى كل زمان مع العقلية الجديدة فلم يحد العقل عن الأصل المرسوم. فقد اتسعت مطالب الحياة باتساع البلدان المفتوحة وبادر العلماء إلى استنباط أحكام شرعية للحالات الناشئة على هدى من الكتاب والسنة ، ومن ثم نشأ التفسير التشريعى ، وتفاعل مع بيئة الفرس التى ورثت ثقافات عريقة وخيالات أدبية قديمة فنشأ التفسير الإشارى ، وتفاعل مع عقلية الروم وارثة الفلسفات فنشأ فهم فلسفى للقرآن مختلف الاتجاهات ، ومنه الفهم الفلسفى اللغوى الذى تزعمه أبو السعود دون منازع له على الإطلاق

تفسير أبى السعود

والواقع أن منهج أبى السعود يعتبر لازما لأى بيئة إسلامية عربية كانت أو غير عربية ، فهو محاولة لإقناع العالم بتفاعل كلمات القرآن بعضها مع بعض تقديما وتأخيرا ، أو إجمالا وتفصيلا . حتى الحرف يؤثره القرآن دون غيره من الحروف ، فينتج من هذا التفاعل فهم مذهل لآياته ومعانيه ، فهو مع كل وجه من الوجوه يعطى معنى غير سابقه ، وتكون النتيجة أن كلاما يعطى مع التقديم والتأخير والإجمال والتفصيل والالتفات وغير الالتفات معانى كلها قمم من الإعجاز والقوة والرصانة لا يمكن أن يكون كلام بشر ، فما من كلام البشر ما يعطى تلك الوجوه المتعددة مع الاحتفاظ بدرجة القوة والمتانة . ومن هنا كان أساس الإيمان صلبا متينا لا تؤثر فيه العواصف ولا الأهواء .

وهو ناقد فذ لآراء من سبقوه من علماء اللغة ، فكثيرا ما تراه يرفض آراءهم ويقيم الدليل على أنها لاتليق بجزالة النظم الكريمة ، ولا بسباق الأسلوب ولا سياقه .

وهو مع ذلك عالم فحل بفنون الإعراب القرآنى وآرائه السابقة ، فتراه يعرضها كلها عرضا سريعا ، ثم يبدأ فى تحليلها ، فإما رجح أحدها أو بعضها ، ثم يبدأ رحلته التحليلية الدقيقة صاعدا إلى قمة الإعجاز ، فيدعك وقد احتواك الإيمان بالقرآن من كل أقطارك لا تبغى به بدلا ، ولا بدين الإسلام دينا .

وهو مع ذلك خبير بالقراءات المأثورة للقرآن ، يعرضها ليستنبط منها معانى للكلمات منفردة ومجموعة .

ولا ينسى أبو السعود أن يتعرض لمذاهب الفقهاء فى فهم القرآن واستنباط الأحكام منه ، وهو يستوعبها أحيانا منذ عهد الصحابة إلى المجتهدين الأربعة وأصحابهم ، وأحيانا يقتصر على مذاهب المجتهدين الأربعة بحيث يبرز رأى الحنفية

بشيء من التفصيل والاحتجاج ، مع تحقيق فاحص ، وبحث دقيق قل أن نجده في غيره من التفاسير .

ثم هو لا يغفل الآثار الواردة فى أسباب النزول ، أو الموضحة لبعض المعانى من الحديث الصحيح والأثر المروى عن الصحابة والتابعين ، كما لا يغفل الوقائع التاريخية ، فتراه يتعرض لها بشيء من التفصيل والبحث ، ويورد آراء السابقين فيها دون تعرض لنقدها إلا فيما يتصل بدعاوى بنى إسرائيل .

وقد عنى كذلك بالناسخ والمنسوخ وتمحيص الرأى فيه ، وبفضائل السور دائماً ، والأذكار القرآنية أحيانا ، فأورد فى كل مناسبة حديثا دون تخريج ولكنها على أى حال لا تخرج عن دائرة الصحة أو الحسن .

أما مصادره فى كتابه هذا فهى كما قال الجمع بين الكشاف وأنوار التنزيل، وإضافة الشوارد من مطالعاته ودراسته الخاصة . فهو ينقل عن الواحدى فى تفاسيره : « البسيط » و « الوجيز » و « الوسيط » . وكلها لا تزال مخطوطة وينقل كذلك عن معانى القرآن لمكى بن إبراهيم وهو مخطوط أيضاً ، كما ينقل عن سيبويه والفراء والفارسى وغيرهم من أساطين العربية إلى غير ذلك من المصادر التى يمكن استقراؤها من كتابه ، فهو أمين فى النقل يعزو كل رأى إلى صاحبه ، وما كان له من الرأى فهو واضح من السياق .

ولا شك فى أن كتاب أبى السعود هذا يعتبر قمة شامخة فى الفكر اللغوى وفلسفته وأسراره فاق به عبد القاهر الجرجانى وغيره ممن تعرضوا لهذا الشأن فهو فوق أنه تفسير للقرآن يعتبر كتابا لإعجاز القرآن ، ومصدرا غنيا من مصادر العربية فى شواردها ومسائلها النادرة التى اختلف فيها علماؤها ، ولاسيما أهل البصرة وأهل الكوفة ، كما يعتبر مصدرا جامعا من مصادر إعراب القرآن الذى ألفت فيه كتب مستقلة ، فأصبح كتابه بحق موسوعة لعلوم القرآن من جميع جوانبها .

وأخيرا يعتبر مصدرا أصيلا من مصادر الإيمان . فهو يقنعك بالإعجاز

اللغوى بطريقة لم يسبق إليها ، وهو منهج شامل متكامل يدعك أشد استمساكا بالقرآن ، وأكثر رغبة فى مصاحبته ، واستجلاء أسراره بالتأمل والفكر والذوق ، إذ هو الكتاب الأوحد الذى لا تنقضى عجائبه ، ولا تنفد غرائبه .

منهج العمل

تفسير أبى السعود طبع مرتين بمصر ولكن طبعاته لم تعن بوضع الهمزات على الألفات حتى إنه ليتعذر على القارىء العادى أن يفرق بين إما وأما ، أو بين إن وأن ، وما شابه ذلك ، كما أن المطبوعات خلطت آيات القرآن التى أوردها المؤلف للاستشهاد بكلام المؤلف فلا يميز القارىء بينهما بسهولة ، كما أن فيها أخطاء لم تثبت فى نهاية الطبع لتصحيحها .

ولذلك قمنا بإكمال هذا النقص ، ثم راجعناه على أقدم نسخه المخطوطة ، وهى رقم ٤٨٥،١٠ . واستعنا فيما هو غير واضح بنسخ أخرى، وأثبتنا الفروق بالهامش . أما مسائله اللغوية وتحقيقاته فهى أكبر من أن تنالها يد محقق بالتصحيح ولا التمحيص، فهو عالم فحل أوتى من الذكاء قدرا عظيما لا يستهان به .

ثم وضعنا عناوين لموضوعات السور تسهيلا للقارىء الباحث وقمنا بعمل فهارس موضوعية لكل جزء من التفسير، إذ أن الفهرس الموجود فى المطبوعة لا يسمن ولا يغنى ودققنا فى مراجعة تجارب الطبع فجاء بحمد الله متقنا إلا مواضع يسيرة جداً سننبه عليها كما أن عنوان الكتاب فى المطبوعة غير مطابق للإسم الذى وضعه المؤلف . فقد جاء فى المطبوعة : إرشاد العقل للسليم فى مزايا القرآن الكريم . بينما سماه المؤلف : إرشاد العقل السليم فى مزايا الكتاب الكريم .

كلمة أخيرة

يقول المستشرق الكندى «سمث» فى كتابه «الإسلام فى العصر الحديث»: إن الإسلام هو المحور الرئيسى الذى تقوم من أجله الصراعات الدولية الحديثة،

فالدول الكبرى تتصارع على مناطق يغلب فيها الإسلام ، لأنها فزعة قلقة من سر خلود الإسلام حتى وصل سليما على مدى تلك القرون المتطاولة لم يمسه سوء .

وأفاض « سمث » فى التدليل على نظريته ، وأهاب بالمسلمين أن يحاولوا تفهم دينهم على منهج يتفق مع تلك الصراعات الرهيبة التى تتخذ أهبتها من أجل الإسلام .

ونقول : إن القرآن لا زال يحتاج إلى بحوث وجهود ضخمة من الباحثين ليكون مستعدا دائما لغزو أقطار بعيدة عن المحيط العربى غزوا ثقافيا ودستوريا وعلميا .

وهذا العمل فى الحقيقة فرض على أمم الإسلام التى فرض عليها الجهاد حتى يكون الدين كله لله ، والجهاد يشمل أنواع القوة كلها : العسكرية ، والثقافية ، والاقتصادية ، وغيرها من صنوف القوى . وأهمها الغزو القرآنى للعالم فى العصر الحاضر ، استجابة لأمر الله ورسوله ، وقياما بما له من حق فى عنق كل مسلم .

وأبو السعود العمادى قد قام بعمل مجيد فى عصر من عصور التقهقر والانخذال فكان من الواجب ولا زال أن تتضافر الجهود فى سبيل التعريف بالإسلام على المستوى العالمى على أساس من الدراسات القرآنية الواعية التى تتسم بتأصيل الإيمان فى قلوب الشباب وفتح مسالك جديدة للبحوث القرآنية .

ولكننا نحذر من ورطة خطيرة وقع فيها الكثيرون ، هى تلمس وجوه شبه بين بعض النصوص القرآنية وبعض المخترعات الحديثة ، فيسارع الكتاب إلى تأكيد أنها تنطبق تمام الانطباق على ما تنبأ به القرآن ، وهو عكس للأصل المقرر وهو معرفة الرجال بالحق ، لا معرفة الحق بالرجال ، فلا يجوز أن يحكم هؤلاء على الكتاب مع سلامة مقصدهم لأنهم يحكمون الرجال فى القرآن وهو خطأ شنيع ، فالنظريات العلمية الحديثة ليست مستقرة ، ولا تلبث أن يثبت خطؤها أو نقصها ، أما القرآن فهو القول الثابت الذى لا يعتريه خلل ولا نقص .

ولئن كان هناك تشابه بين بعض نصوص القرآن وبعض المبتكرات والمخترعات الحديثة ، فإن تلك المخترعات لم تصل بعد إلى التطابق مع نص القرآن .

والقرآن على أى حال قد وضع أصول العلم والبحث ، وأشار إلى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان فى هذا المجال إشارة أساسية لاتفصيل فيها ، فأحرى بمن ينهج ذلك المنهج أن ينبه إلى تلك الأحوال ويثير العزائم إلى بحثها والسير على نهجها .

وقديما كتب الشيخ طنطاوى جوهرى تفسيرا علميا للقرآن من هذا القبيل ولكن لم يكتب له الخلود ، لأنه منهج خاطىء كما قلنا .

ونسأل الله أن يكون قد آن للذين آمنوا أن يتفهموا ما أراد الله منهم فى كتابه على المستوى المحلى والمستوى العالمى جميعاً ، وأن يوفقهم إلى مراضيه . وأن يخلص نوايانا جميعا لوجهه ، ربنا إنك سميع الدعاء ؟

القاهرة { ٢٤ من رجب ١٣٩١ هـ
١٤ من سبتمبر ١٩٧١ م

عبد القادر أحمد عطا

رموز التحقيق

(   ) أو [   ] = كلمات سقطت من المطبوعة وزيدت من المخطوطات
ط : = المطبوعة .
الأرقام = أرقام المطبوعات فى فهرس التفسير بدار الكتب المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان من أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، وبين له من شعائر الشرائع كل ما جل ودق ، أنزل عليه أظهر بينات وأبهر حجج ، قرآنا عربيا غير ذى عوج ، مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ، ناطقاً بكل أمر رشيد ، هاديا إلى صراط العزيز الحميد ، آمراً بعبادة الصمد المعبود ، كتاباً متشابها مثانى تقشعر منه الجلود ، تكاد الرواسى لهيبته تمور ، ويذوب منه الحديد وتميع الصم الصخور ، حقيقاً بأن تسير به الجبال ويتيسر به كل صعب محال ، معجزا ألجم كل مصقع من مهرة قحطان ، وبكت كل مفلق من سحرة البيان ، بحيث لو اجتمعت الإنس والجن على معارضته ومباراته ، لعجزوا عن الإتيان بمثل آية من آياته ، نزله عليه على فترة من الرسل ليرشد الأمة إلى أقوم السبل ، فهداهم إلى الحق وهم فى ضلال مبين ، فاضمحل دجى الباطل وسطع نور اليقين ، فمن اتبع هداه فقد فاز بمناه ، وأما من عانده وعصاه ، واتخذ إلهه هواه ، فقد هام فى موامى الردى ، وتردى فى مهاوى الزور ، ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور . صلى الله عليه وعلى آله الأخيار ، وصحبه الأبرار ، ما تناوبت الأنواء ، وتعاقبت الظلم والأضواء ، وعلى من تبعهم بإحسان ، مدى الدهور والأزمان . وبعد :

فيقول العبد الفقير إلى رحمة ربه الهادى ، أبو السعود بن محمد العمادى : إن الغاية القصوى من تحرير نسخة العالم وما كان حرف منها مسطوراً ، والحكمة الكبرى فى تخمير طينة آدم ولم يكن شيئاً مذكوراً ، ليست إلا معرفة الصانع المجيد ، وعبادة البارىء المبدىء المعيد ، ولا سبيل إلى ذاك المطلب الجليل ، سوى الوقوف على مواقف التنزيل فإنه عز سلطانه ، وبهر برهانه ، وإن سطر آيات قدرته فى صحائف الأكوان ، ونصب رايات وحدته فى

صفائح الأعراض والأعيان ، وجعل كل ذرة من ذرات العالم ، وكل قطرة من قطرات العيلم ، وكل نقطة جرى عليها قلم الإبداع وكل حرف رقم فى لوح الاختراع ، مرآة لمشاهدة جماله ، ومطالعة صفات كماله ، حجة نيرة واضحة المكنون ، وآية بينة لقوم يعقلون ، برهانا جليا لاريب فيه ، ومنهاجا سويا لايضل من ينتحيه ، بل ناطقا يتلو آيات ربه فهل من سامع واع ، ومجيباً صادقا فهل له من داع ، يكلم الناس على قدر عقولهم ، ويرد جوابهم بحسب مقولهم ، يحاور تارة بأوضح عبارة ، ويلوح أخرى بألطف إشارة .

لكن الاستدلال بتلك الآيات والدلائل ، والاستشهاد بتلك الأمارات والمخايل ، والتنبه لتلك الإشارات السريه ، والتفطن لمعانى تلك العبارات العبقرية ، وما فى تضاعيفها من رموز أسرار القضاء والقدر وكنوز آثار التعاجيب والعبر مما لايطيق به عقول البشر إلا بتوفيق خلاق القوى والقدر فإذن مدار المراد ، ليس إلا كلام رب العباد ، إذ هو المظهر لتفاصيل الشعائر الدينيه ، والمفسر لمشكلات الايات التكوينيه ، والكاشف عن خفايا حظائر القدس ، والمطلع على خبايا سرائر الأنس ، وبه تكتسب الملكات الفاخره وبه يتوصل إلى سعادة الدنيا والاخره ، خلا أنه أيضاً من علو الشأن ، وسمو المكان ، ونهاية الغموض والإعضال ، وصعوبة المأخذ وعزة المنال ، فى غاية الغايات القاصية ، ونهاية النهايات النائية ، أعز من بيض الأنوق ، وأبعد من مناط العيوق لايتسنى العروج إلى مبارجة الرفيعة ، ولايتأتى الرقى إلى مدارجه المنيبه ، كيف لا وإنه مع كونه متضمنا لدقائق العلوم النظرية والعمليه ، ومنطويا على رقائق الفنون الخفية والجليه ، حاويا لتفاصيل الأحكام الشرعية ومحيطا بمناط الدلائل الأصلية والفرعيه ، ومنبئاً عن أسرار الحقائق والنعوت مخبراً بأطوار الملك والملكوت ، عليه يدور فلك الأوامر والنواهى ، وإليه تستند معرفة الأشياء كما هى ، قد نسخ على أبدع منوال وأغرب طراز(١)

---

(١) فى المطبوعة : أغرب منوال وأبدع طراز .

واحتجبت طلعته بسبحات الإعجاز ، وطويت حقائقه الأبية عن العقول ، وزويت دقائقه الخفية عن أذهان الفحول ، يرد عيون العقول سبحانه ، ويخطف أبصار البصائر بريقه ولمعانه .

ولقد تصدى لتفسير غوامض مشكلاته أساطين أئمة التفسير فى كل عصر من الأعصار وتولى تيسير عويصات معضلاته سلاطين أسرة التقرير والتحرير فى كل قطر من الأقطار ، فغاصوا فى لججه ، وخاضوا فى ثبجه ، فنظموا فرائده فى سلك التحرير ، وأبرزوا فوائده فى معرض التقرير ، وصنفوا كتباً جليلة الأقدار وألفوا زبراً جميلة الآثار ، أما المتقدمون المحققون فاقتصروا على تمهيد المعانى ، وتشييد المبانى ، وتبيين المرامى(١) وترتيب الأحكام ، حسبما بلغهم من سيد الأنام ، عليه شرائف التحية والسلام ، وأما المتأخرون المدققون ، فراموا مع ذلك إظهار مزاياه الرائقة ، وإبداء خباياه الفائقة ، ليعاين الناس دلائل إعجازه ويشاهدوا شواهد فضله وامتيازه عن سائر الكتب الكريمة الربانية ، والزبر العظيمة السبحانية ، فدونوا أسفاراً بارعة ، جامعة لفنون المحاسن الرائعة ، يتضمن كل منها فوائد شريفة تقر بها عيون الأعيان، وعوائد لطيفة تتشنف(٢) بها آذان الأذهان، لا سيما الكشاف وأنوار التنزيل، المتفردان بالشأن الجليل ، والنعت الجميل ، فإن كلا منهما قد أحرز قصب السبق أى إحراز، كأنه مرآة لاجتلاء وجوه الإعجاز(٣) ، صحائفهما مرايا المزايا الحسان ، وسطورهما عقود الجمان وقلائد العقيان .

ولقد كان فى سوابق الأيام وسوالف الدهر والأعوام . أوان اشتغالى بمطالعتهما وممارستهما ، وزمان اتصالى لمفاوضتهما ومدارستهما ، يدور فى خلدى على استمرار ، آناء الليل وأطراف النهار ، أن أنظم درر فوائدهما فى نمط(٤)

---

(١) فى المطبوعة : وتبيين المرام .
(٢) فى المطبوعة : يتشنف .
(٣) فى المطبوعة : وجه الإعجاز .
(٤) فى المطبوعة : فى سمط .

دقيق ، وأرتب غرر فرائدهما على ترتيب أنيق ، وأضيف إليهما ما ألفيته فى تضاعيف الكتب الفاخرة من جواهر الحقائق ، وصادفته فى أصداف العيالم الزاخرة من زواهر الدقائق ، وأسلك خلالها بطريق الترصيع على نسق أنيق وأسلوب بديع ، حسبما يقتضيه جلاله شأن التنزيل ، ويستدعيه جزالة نظمه الجليل ، ماسنح للفكر العليل بالعناية الربانية ، وسمح به النظر الكليل بالهداية السبحانية ، من عوارف معارف تمتد إليها أعناق الهمم من كل ماهر لبيب ، وغرائب رغائب ترنو إليها أحداق الأمم من كل نحرير أريب ، وتحقيقات رصينة تقيل عثرات الأفهام فى مداحض الأقدام ، وتدقيقات متينة تزيل خطرات الأوهام ، من خواطر الأنام ، فى معارك أفكار تشتبه فيها الشؤون ، ومدارك أنظار تختلط فيها الظنون ، وأبرز من وراء أستار الكمون ، من دقائق السر المخزون ، فى خزائن الكتاب المكنون ، ماتطمئن إليه النفوس وتقر به العيون ، من خفايا الرموز ، وخبايا الكنوز ، وأهديها إلى الخزانة العامرة الغامرة للبحار الزاخرة ، لجناب من خصه الله تعالى بخلافة الأرض ، واصطفاه لسلطنتها فى الطول والعرض ، ألا وهو السلطان الأسعد الأعظم ، والخاقان الأمجد الأفخم ، مالك الإمامة العظمى ، والسلطان الباهر ، وارث الخلافة الكبرى كابرا عن كابر ، رافع رايات الدين الأزهر ، موضح آيات الشرع الأنور ، مرغم أنوف الفراعنة والجبابرة ، معفر جباه القياصرة والأكاسره ، فاتح بلاد المشارق والمغارب ، بنصر الله العزيز وجنده الغالب ، الهمام الذى شرق عزمه المنير فانتهى إلى المشرق الأسنى ، وغرب حتى بلغ مغرب الشمس أو أدنى ، بخميس عرمرم متزاحم الأفواج ، وعسكر كخضم متلاطم الأمواج ، فأصبح ما بين أفقى الطلوع والغرب ، وما بين نقطتى الشمال والجنوب ، منتظما فى سلك ولاياته الواسعة ، ومندرجا تحت ظلال راياته الرائقة ، فأصبحت منابر الربع المسكون مشرفة بذكر اسمه الميمون ، فيا له من ملك استوعب ملكه البر البسيط ، واستغرق فلكه وجه البحر المحيط ، فكأنه فضاء ضربت فيه خيامه ، أو نصبت عليه ألويته وأعلامه ، مالك ممالك العالم ، ظل الله الظليل على كافة الأمم ،

قاصم القياصرة وقاهر القروم ، سلطان العرب والعجم والروم ، سلطان المشرقين ، وخاقان الخافقين ، الإمام المقتطد بالقدرة الربانية ، والخليفة المعتز بالعزة السبحانية . المفتخر بخدمة الحرمين الجليلين المعظمين ، وحماية المقامين الجميلين المفخمين ، ناشر القوانين السلطانية ، عاشر الخواقين العثمانية السلطان ابن السلطان سليمان خان ابن السلطان المظفر المنصور ، والخاقان الموقر المشهور ، صاحب المغازى المشهورة فى أقطار الأمصار ، والفتوحات المذكورة فى صحائف الأسفار ، السلطان سليم خان ، ابن السلطان السعيد والخاقان المجيد السلطان بايزيد خان ، لا زالت سلسلة سلطنته متسلسلة إلى انتهاء سلسلة الزمان وأرواح أسلافه العظام متنزهة فى روضة الرضوان .

وكنت أتردد فى ذلك بين إقدام وإحجام ، لقصور شأنى وعزة المرام . أين الحضيض من الذرى ، شتان بين الثريا والثرى ، وهيهات اصطياد العنقاء بالشباك ، واقتياد الجوزاء من بروج الأفلاك ، فمضت عليه الدهور والسنون ، وتغيرت الأطوار ، وتبدلت الشؤون . فابتليت بتدبير مصالح العباد برهة فى قضاء البلاد ، وأخرى فى قضاء العساكر والأجناد ، فحال بينى وبين ما كنت إخال تراكم المهمات ، وتزاحم الأشغال ، وجموم العوارض والعلائق ، وهجوم الصوارف والعوائق ، والتردد إلى المغازى والأسفار ، والتنقل من دار إلى دار .

وكنت فى تضاعيف هاتيك الأمور أقدر فى نفسى أن أنتهز نهزة من الدهور ، ويتسنى لى القرار ، وتطمئن بى الدار ، وأظفر حينئذ بوقت خال أتبتل فيه إلى جناب ذى العظمة والجلال ، وأوجه إليه وجهى ، وأسلم له سرى وعلانيتى ، وأنظر إلى كل شيء بعين الشهود ، وأتعرف سر الحق فى كل موجود تلافيا لما قد فات ، واستعداداً لما هو آت ، وأتصدى لتحصيل ما عزمت عليه ، وأتولى لتكميل ما توجهت إليه ، برفاهة واطمئنان ، وحضور قلب وفراغ جنان ، فبينما أنا فى هذا الخيال ، إذ بدا لى ما لم يخطر بالبال ، تحولت الأحوال

والدهر حول ، فوقعت فى أمر أشق من الأول ، أمرت بحل مشكلات الأنام فيما شجر بينهم من النزاع والخصام ، فلقيت معضلة طويلة الذيول ، وصرت كالهارب من المطر إلى السيول ، فبلغ السيل الزبى ، وغمرنى أى غمر ، غوارب ماجرى بين زيد وعمرو ، فأضحيت فى ضيق المجال ، وسعة الأشغال ، أشهر ممن يضرب بها الأمثال » فجلعت أتمثل بقول من قال :

لقد كنت أشكوك الحوادث برهة　　وأستمرض الأيام وهى صحائح
إلى أن تغشتنى - وقيت - حوادث　　تحقق أن السالفات منائح

فلما انصرمت عرى الآمال ، عن الفوز بفراغ البال ، ورأيت أن الفرصة على جناح الفوات ، وشمل الأسباب فى شرف الشتات ، وقد مسنى الكبر ، وتضاءلت القوى والقدر ، ودنا الأجل من الحلول ، وأشرفت شمس الحياة على الأفول عزمت على إنشاء ما كنت أنويه ، وتوجهت إلى إملاء ما ظللت أبتغيه ، ناويا أن أسميه عند تمامه بتوفيق الله تعالى وإنعامه «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم فشرعت »(١) فيه مع تفاقم المكاره على ، وتزحم المشادة بين يدى ، متضرعا إلى رب العظمة والجبروت ، خلاق عالم الملك والملكوت فى أن يعصمنى عن الزيغ والزلل ، ويقينى مصارع السوء فى القول والعمل ، ويوفقنى لتحصيل ما أرومه وأرجوه ، ويهدينى إلى تكميله على أحسن الوجوه ويجعله خير عدة وعتاد ، أتمتع به يوم المعاد .

فيامن توجهت وجوه الذل والابتهال نحو بابه المنيع ، ورفعت أيدى الضراعة والسؤال إلى جنابه الرفيع ، أفض علينا شوارق أنوار التوفيق ، وأطلعنا على دقائق أسرار التحقيق ، وثبت أقدامنا على مناهج هداك ، وأنطقنا بما فيه أمرك ورضاك ، ولا تكلنا إلى أنفسنا فى لحظة ولا آن ، وخذ بناصيتنا

---

(١) فى ١١ ، وشرعت .

إلى الخير حيث كان ، جئناك على جباه الاستكانة ضارعين ، ولأبواب فيضك قارعين ، أنت الملاذ فى كل أمر مهم ، وأنت المعاذ فى كل خطب ملم ، لارب غيرك ولاخير إلا خيرك ، بيدك مقاليد الأمور ، لك الخلق والأمر وإليك النشور .

سورة فاتحة الكتاب سبع آيات

معنى فاتحة الكتاب وأسمائها

الفاتحة فى الأصل : أول مامن شأنه أن يفتح ، كالكتاب والثوب ، أطلقت عليه لكونه واسطة فى فتح الكل ، ثم أطلقت على أول كل شىء فيه تدريج بوجه من الوجوه كالكلام التدريجى حصولا ، والسطور والأوراق التدريجية قراءة وعداه والتاء للنقل من الوصفية إلى الإسمية ، أو هى مصدر بمعنى الفتح ، أطلقت عليه تسمية للمفعول باسم المصدر ، إشعارا بأصالته كأنه نفس الفتح ، فإن تعلقه به بالذات ، وبالباقى بواسطته ، لكن لا على معنى أنه واسطة فى تعلقه بالباقى ثانيا . حتى يرد أنه لايتسنى فى الخاتمة ، لما أن ختم الشىء عبارة عن بلوغ آخره ، وذلك إنما يتحقق بعد انقطاع الملابسة عن أجزائه الأول ، بل على معنى أن الفتح المتعلق بالأول فتح له أولا وبالذات ، وهو بعينه فتح للمجموع(١) بواسطته ، لكونه جزءا منه ، وكذا الكلام فى الخاتمة فإن بلوغ آخر الشىء يعرض للآخر أولا وبالذات ، وللكل بواسطته ، على الوجه الذى تحققته .

والمراد بالأول ما يعم الإضافى فلا حاجة إلى الاعتذار بأن إطلاق الفاتحة على السورة الكريمة بتمامها باعتبار جزئها الأول ، والمراد بالكتاب هو المجموع الشخصى ، لا القدر المشترك بينه وبين أجزائه ، على ما(هو)(٢) اصطلاح

---

(١) فى ١١ أولا وبالذات وللكل بواسطته (٢) سقطت من المطبوعة

أهل الأصول ، ولا ضير فى اشتهار السورة الكريمة بهذا الاسم فى أوائل عهد النبوة ، قبل تحصيل المجموع بنزول الكل ، لما أن التسمية من جهة الله عز اسمه أو من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم بالإذن ؛ فيكفى فيها تحصله باعتبار تحققه فى علمه عز وجل أوفى اللوح أو باعتبار أنه أنزل جملة إلى السماء الدنيا ، وأملاه جبريل(١) على السفرة ، ثم كان ينزله على النبى صلى الله عليه وسلم نجوما فى ثلاث وعشرين سنة كما هو المشهور والإضافة بمعنى اللام كما فى جزء الشئ لا بمعنى من كما فى خاتم فضة ، لما عرفت أن المضاف جزء من المضاف إليه ، لا جزئى له ، ومدار التسمية كونه مبدأ للكتاب على الترتيب المعهود ، لا فى القراءة فى الصلاة ، ولا فى التعليم ولا فى النزول كما قيل .

أما الأول فبين ، إذ ليس المراد بالكتاب القدر المشترك الصادق على ما يقرأ فى الصلاة حتى تعتبر فى التسمية مبدئيتها له . وأما الأخيران فلأن اعتبار المبدئية من حيث التعليم ، أو من حيث النزول يستدعى مراعاة الترتيب فى بقية أجزاء الكتاب من تينك الحيثيتين ؛ ولا ريب فى أن الترتيب التعليمى والنزولى ليسا على نسق الترتيب المعهود .

وتسمى أم القرآن لكونها أصلا ومنشأ له ، إما لمبدئيتها له ، وإما لاشتمالها على ما فيه من الثناء على الله عز وجل ، والتعبد بأمره ونهيه ، وبيان وعده ووعيده أو على جملة معانيه من الحكم النظرية ، والأحكام العملية ، التى هى سلوك الصراط المستقيم ، والاطلاع على معارج السعداء ومنازل الأشقياء ، والمراد بالقرآن هو المراد بالكتاب .

وتسمى أم الكتاب أيضاً كما يسمى بها اللوح المحفوظ ، لكونه أصلا لكل الكائنات ، والآيات الواضحة الدالة على معانيها لكونها بينة تحمل عليها

---

(١) فى ١١ وإملاء جبريل .

المتشابهات ، ومناط التسمية ما ذكر فى أم القرآن لاما أو رده الإمام البخارى فى صحيحه من أنه يبدأ بقراءتها فى الصلاة ، فإنه مما لاتعلق له بالتسمية كما أشير إليه ، وتسمى سورة الكنز ، لقوله عليه السلام : « إنها أنزلت من كنز تحت العرش »(١) أو لما ذكر فى أم القرآن ، كما أنه الوجه فى تسميتها الأساس ، والكافية ، والوافية ، وتسمى سورة الحمد والشكر والدعاء وتعليم المسألة ، لاشتمالها عليها ، وسورة الصلاة لوجوب قراءتها فيها ، وسورة الشفاء والشافية لقوله عليه السلام : « هى شفاء من كل داء » ، والسبع المثانى لأنها سبع آيات تثنى فى الصلاة ، أو لتكرر نزولها على ماروى أنها نزلت مرة بمكة حين فرضت الصلاة(٢) وبالمدينة أخرى حين حولت القبلة ، وقد صح أنها مكية لقوله تعالى : « ولقد آتيناك سبعا من المثانى » وهو مكى بالنص .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

هل البسملة من القرآن

اختلف الأئمة فى شأن التسمية فى أوائل السور الكريمة فقيل إنها ليست من القرآن أصلا ، وهو قول ابن مسعود رضى الله عنه ومذهب مالك ، والمشهور من مذهب قدماء الحنفية ، وعليه قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها . وقيل إنها آية مفردة(٣) من القرآن أنزلت للفصل والتبرك بها ؛ وهو الصحيح من مذهب الحنفية . وقيل هى آية تامة من سورة صدرت بها ، وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما ، وقد نسب إلى ابن عمر أيضاً رضى الله عنهم ، وعليه يحمل إطلاق عبارة ابن الجوى فى زادالمسير(٤) حيث قال: روى

---

(١) أخرجه الحافظ الدمياطى فى المتجر الرابح من طريق لمسلم فى ثواب الفاتحة .

(٢) انظر ملشا بالفاتحة فى إرشاد الرحمن للاجهورى

(٣) (فذة) هكذا فى ٤٨٦ ، وما اخترناه من ١١ أوضح

(٤) هو التفسير الصغير لابن الجوزى طبع أخيراً فى دمشق

عن ابن عمر رضى الله عنهما أنها أنزلت(١) مع كل سورة ، وهو أيضاً مذهب سعيد بن جبير والزهرى وعطاء وعبد الله بن المبارك ، وعليه قراء مكة والكوفة وفقهاؤهما ، وهو القول الجديد للشافعى رحمه الله ، ولذلك يجهر بها عنده ، فلا عبرة بما نقل عن الجصاص من أن هذا القول من الشافعى لم يسبقه إليه أحد ، وقيل : إنها آية من الفاتحة مع كونها قرآناً فى سائر السور أيضاً من غير تعرض لكونها جزءاً منها أولا ، ولا لكونها آية تامة أولا ، وهو أحد قولى الشافعى على ماذكره القرطبى. ونقل عن الخطابى أنه قول ابن عباس وأبى هريرة رضى الله عنهم . وقيل إنها آية تامة فى الفاتحة وبعض فى البواقى : وقيل بعض آية فى الفاتحة وآية تامة فى البواقى ، وقيل إنها بعض آية فى الكل ، وقيل إنها آيات من القرآن متعددة بعدد السور المصدرة بها من غير أن تكون جزءاً منها ، وهذا القول غير معزو(٢) فى الكتاب إلى أحد ، وهناك قول آخر ذكره بعض المتأخرين ولم ينسبه إلى أحد وهو أنها آية تامة فى الفاتحة وليست بقرآن فى سائر السور ، ولو لا اعتبار كونها آية تامة لكان ذلك أحد محلى تردد الشافعى ، فإنه قد نقل عنه أنها بعض آية فى الفاتحة ، وأما فى غيرها فقوله فيها متردد ، فقيل بين أن يكون قرآناً أولا ، وقيل بين يكون آية تامة أولا ، قال الإمام الغزالى: والصحيح من الشافعى هوالتردد الثانى. وعن أحمد بن حنبل فى كونها آية كاملة وفى كونها من الفاتحة روايتان ذكرهما ابن الجوزى ، ونقل أنه مع مالك ، وغيره ممن يقول إنها ليست من القرآن .

هذا والمشهور من هذه الأقاويل هى الثلاث (٣) الأول ، والاتفاق على إثباتها فى المصاحف مع الإجماع على أن ما بين الدفتين كلام الله عز وجل يقضى بنفى القول الأول ، وثبوت القدر المشترك بين الأخيرين

---

(١) فى ١١ نزلت .

(٢) فى المطبوعة : معزى خطأ .

(٣) فى المطبوعة : الثلاث .

من غير دلالة على خصوصية أحدهما ، فإن كونها جزءا من القرآن لايستدعى كونها جزءا من كل سورة منه ، كما لا يستدعى كونها آية منفردة منه . وأما ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أن من تركها فقد ترك مائة وأربع عشرة آية من كتاب الله تعالى : وما روى عن أبى هريرة من أنه عليه السلام قال : « فاتحة الكتاب سبع آيات أولاهن بسم الله الرحمن الرحيم » .

وما روى عن أم سلمة من أنه عليه السلام قرأ سورة الفاتحة وعد بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين آية . وإن دل كل واحد منها على نفى القول الثانى فليس بشىء منها نصا فى إثبات القول الثالث ، أما الأول فلأنه لايدل إلا على كونها آيات من كتاب الله تعالى متعددة بعدد السور المصدرة بها ، لاعلى ما هو المطلوب من كونها آية تامة من كل واحدة منها ، إلا أن يلتجأ إلى أن يقال إن كونها آية متعددة بعدد السور المصدرة بها من غير أن تكون جزأ منها قول لم يقل به أحد ، وأما الثانى فساكت عن التعرض لحالها فى بقية السور ، وأما الثالث فناطق بخلافه مع مشاركته للثانى فى السكوت المذكور . والباء فيها متعلقة بمضمر ينبىء عنه الفعل المصدر بها ، كما أنها كذلك فى تسمية المسافر عند الحلول والارتحال ، وتسمية كل فاعل عند مباشرة الأفعال .

تفسيرها البسملة

ومعناها الاستعانة أوالملابسة تبركا ، أى باسم الله أقرأ ، أو أتلو . وتقديم المعمول للاعتناء به والقصد إلى التخصيص ، كما فى إياك نعبد ، وتقدير أبدأ لاقتضائه اقتصار التبرك على البداية مخل بما هو المقصود ، أعنى شمول البركة للكل ، وادعاء أن فيه امتثالا للحديث(١) الشريف من جهة اللفظ والمعنى معاً ،

---

(١) فى المطبوعة : الحديث .

وفى تقدير أقرأ من جهة المعنى فقط ليس بشىء ، فإن مدار الامتثال هو البدء بالتسمية لا تقدير فعله ، إذلم يقل فى الحديث الكريم : «كل أمر ذى بال لم يقل فيه أو لم يضمر فيه أبداً ، وهذا إلى آخر السورة الكريمة مقول على ألسنة العباد تلقيناً لهم ، وإرشاداً إلى كيفية التبرك باسمه تعالى ، وهداية إلى منهاج الحمد وسؤال الفضل ، ولذلك سميت السورة الكريمة بما ذكر من تعليم المسألة ، وإنما كسرت ومن حق الحروف المفردة أن تفتح لاختصاصها بلزوم الحرفية والجر ، كما كسرت لام الأمر ، ولام الإضافة داخلة على المظهر للفصل بينهما وبين لام الابتداء . والاسم عند البصريين من الأسماء المحذوفة الأعجاز . المبنية الأوائل على السكون قد أدخلت(١) عليها عند الابتداء همزة ، لأن من دأبهم البدء بالمتحرك والوقف على الساكن ، ويشهد له تصريفهم على أسماء ويسمى(٢) وسميت ، وسمى كهدى لغة فيه قال :

والله أسماك سمى مباركا آثرك الله به إيثاركا

والقلب بعيد غير مطرد ، واشتقاقه من السمو لأنه رفع للمسمى وتنويه له ، وعند الكوفيين من السمة ، وأصله وسم ، حذفت الواو وعوضت عنها همزة الوصل ليقل إعلالها ، ورد عليه بأن الهمزة لم تعهد داخلة على ماحذف صدره فى كلامهم ، ومن لغاتهم سيم(٣) وسم قال :

* باسم الذى فى كل سورة سمه *

وإنما لم يقل بالله للفرق بين اليمين والتيمن ، أو لتحقيق ماهو المقصود بالاستعانة ههنا ، فإنها تكون تارة بذاته تعالى . وحقيقتها طلب المعونة على إيقاع الفعل وإحداثه ، أى إفاضة القدرة المفسرة عند الأصوليين من أصحابنا

---

(١) فى ٤٨٦ ، دخلت .

(٢) فى المطبوعة ، وسمى .

(٣) فى المطبوعة : سم وسم

بما يتمكن به العبد من أداء مالزمه ، المنقسمة إلى ممكنة وميسرة ، وهى المطلوبة بإياك نستعين ، وتارة أخرى باسمه عز وجل وعلا . وحقيقتها طلب المعونة فى كون الفعل معتداً به شرعاً فإنه مالم يصدر باسمه تعالى يكون بمنزلة المعدوم . ولما كانت كل واحدة من الاستعانتين واقعة وجب تعيين المراد بذكر الاسم ، وإلا فالمتبادر من قولنا بالله عند الإطلاق لاسيما عند الوصف بالرحمن الرحيم هى الاستعانة الأولى .

إن قيل : فليحمل الباء على التبرك وليستغن عن ذكر الاسم ، لما أن التبرك لا يكون إلا به ، قلنا : ذاك فرع كون المراد بالله هو الاسم ، وهل التشاجر إلا فيه ، فلا بد من ذكر الاسم لينقطع احتمال إرادة المسمى . ويتعين حمل الباء على الاستعانة الثانية أو التبرك ، وإنما لم يكتب الألف لكثرة الاستعمال قالوا : وطولت الباء عوضا عنها .

والله أصله الإله ، فحذفت همزته على غير قياس كما ينبىء عنه وجوب الإدغام ، وتعويض الألف واللام عنها ، حيث لزماه وجردا من معنى التعريف ، ولذلك قيل يا ألله بالقطع ، فإن المحذوف القياسى فى حكم الثابت ، فلا يحتاج إلى التدارك بما ذكر من الإدغام والتعويض . وقيل : على قياس تخفيف الهمزة ، فيكون الإدغام والتعويض من خواص الاسم الجليل ، ليمتاز بذلك عما عداه امتياز مسماه عما سواه بما لا يوجد فيه من نعوت الكمال . والإله فى الأصل اسم جنس يقع على كل معبود بحق أو باطل ، أى مع قطع النظر عن وصف الحقية والبطلان ، لا مع اعتبار أحدهما لا بعينه ، ثم غلب على المعبود بالحق كالنجم والصعق . وأما الله بحذف الهمزة فعلم مختص بالمعبود الحق(١) لم يطلق على غيره أصلا ، واشتقاقه من الألاهة والألوهة .

والألوهية بمعنى العبادة حسبما نص عليه الجوهرى ، على أنه اسم منها بمعنى المألوه ، كالكتاب بمعنى المكتوب ، لاعلى أنه (اسم)(٢) صفة منها ، بدليل أنه

---

(١) فى المطبوعة : بالحق .

(٢) سقطت من المطبوعة

يوصف ولا يوصف به ، حيث يقال إله واحد ، ولا يقال شيء إله ، كما يقال كتاب مرقوم ، ولا يقال شيء كتاب . والفرق بينهما أن الموضوع له فى الصفة هو الذات المبهمة باعتبار اتصافها بمعنى معين وقيامه بها . فمدلولها مركب من ذات مبهمة لم يلاحظ معها خصوصية أصلا ، ومن معنى معين قائم بها على أن ملاك الأمر تلك الخصوصية ، فبأى ذات يقوم ذلك المعنى يصح إطلاق الصفة عليها ، كما فى الأفعال . ولذلك تعمل عملها كاسمى الفاعل والمفعول . والموضوع له فى الاسم المذكور هو الذات المعينة . والمعنى الخاص ، فمدلوله مركب من ذينك المعنيين من غير رجحان للمعنى على الذات كما فى الصفة . ولذلك لم يعمل عملها .

وقيل اشتقاقه من أله بمعنى تحير ، لأنه سبحانه تحار فى شأنه العقول والأفهام . وأما أله كعبد وزنا ومعنى فمشتق من الإله المشتق من أله بالكسر ، وكذا تأله واستأله اشتقاق استنوق واستحجر من الناقة والحجر . وقيل : من أله إلى فلان أى سكن إليه ، لاطمئنان القلوب بذكره تعالى وسكون الأرواح إلى معرفته . وقيل من أله إذا فزع من أمر نزل به ، وآلهه غيره إذا أجاره ، إذ العائذ به تعالى يفزع إليه وهو يجيره حقيقة أو فى زعمه . وقيل : أصله لاه على أنه مصدر من لاه يليه بمعنى احتجب وارتفع ، أطلق على الفاعل مبالغة . وقيل هو اسم علم للذات الجليل ابتداء ، وعليه مدار أمر التوحيد فى قولنا « لا إله إلا الله » .

ولا يخفى أن اختصاص الاسم الجليل بذاته سبحانه بحيث لا يمكن إطلاقه على غيره أصلا كاف فى ذلك ، ولا يقدح فيه كون ذلك الاختصاص بطريق الغلبة بعد أن كان اسم جنس فى الأصل ، وقيل : هو وصف فى الأصل لكنه لما غلب عليه بحيث لا يطلق على غيره أصلا صار كالعلم ، ويرده امتناع الوصف به .

واعلم أن المراد بالمنكر فى كلمة التوحيد هو المعبود بالحق ، فمعناها : لافرد(١) من أفراد المعبود بالحق إلا ذلك المعبود بالحق . وقيل : أصله لاها بالسريانية فعرب بحذف الألف الثانية ، وإدخال الألف واللام عليه وتفخيم لامه إذا لم ينكسر ماقبله سنة ، وقيل مطلقا ، وحذف ألفه لحن تفسد به الصلاة ، ولا ينعقد به صريح اليمين ، وقد جاء لضرورة الشعر فى قوله :

ألا لابارك الله فى سهيل إذا ما الله بارك فى الرجال

و (الرحمن الرحيم) صفتان مبنيتان من رحم « بعد جعله لازما » بمنزلة الغرائز ، بنقله إلى رحم بالضم كما هو المشهور . وقد قيل : إن الرحيم ليس بصفه مشبهة ، بل هى صيغة مبالغة ، نص عليه سيبويه فى قولهم : هو رحيم فلانا . والرحمة فى اللغة رقة القلب والانعطاف ، ومنه الرحم لانعطافها على ما فيها . والمراد ههنا التفضل والإحسان ، وإرادتهما بطريق إطلاق اسم السبب بالنسبة إلينا على مسببه البعيد أو القريب ، فإن أسماء الله تعالى تؤخذ باعتبار الغايات التى هى أفعال ؛ دون المبادىء التى هى انفعالات . والأول من الصفات الغالبة حيث لم يطلق على غيره تعالى ، وإنما امتنع صرفه إلحاقا له بالأغلب فى بابه من غير نظر إلى الاختصاص العارض ، فإنه كما حظر وجود فعلى حظر وجود فعلانة ، فاعتباره يوجب اجتماع الصرف وعدمه ، فلزم الرجوع إلى أصل هذه الكلمة قبل الاختصاص ، بأن تقاس إلى نظائرها من باب فعل يفعل ، فإذا كانت(٢) كلها ممنوعة من الصرف لتحقق وجود فعلى فيها علم أن هذه الكلمة أيضاً فى أصلها مما تحقق فيها وجود فعلى ، فتمنع(٣) من الصرف ، وفيه من المبالغة ماليس فى الرحيم ؛ ولذلك قيل يارحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا وتقديمه مع كون القياس تأخيره رعاية لأسلوب الترقى إلى الأعلى كما فى قولهم

---

(١) فى المطبوعة : لافراد . خطأ

(٢) فى المطبوعة : كان

(٣) فى المطبوعة : فتمتنع

فلان عالم نحرير وشجاع باسل وجواد فياض ، لأنه باختصاصه به عز وجل صار حقيقاً بأن يكون قرينا للاسم الجليل الخاص به تعالى ، ولأن ما يدل على جلائل النعم وعظائمها وأصولها أحق بالتقديم مما يدل على دقائقها وفروعها ، وإفراد الوصفين الشريفين بالذكر لتحريك سلسلة الرحمة .

الحمد والمدح والشكر

(الحمد لله) الحمد هو : النعت بالجميل على الجميل ، اختياريا كان أو مبدأ له ، على وجه يشعر (٣) بتوجيه إلى المنعوت وبهذه الحيثية يمتاز عن المدح ، فإنه خال عنها ، يرشدك إلى ذلك ماترى بينهما من الاختلاف فى كيفية التعلق بالمفعول فى قولك : حمدته ومدحته ، فإن تعلق الثانى بمفعوله على منهاج تعلق عامة الأفعال بمفعولاتها ، وأما الأول فتعلقه بمفعوله منبىء عن معنى الإنهاء ، كما فى قولك كلمته ، فإنه معرب عما تفيده لام التبليغ فى قولك قلت ونظيره ، وشكرته وعبدته وخدمته ، فإن تعلق كل منها منبىء عن المعنى المذكور وتحقيقه أن مفعول كل فعل فى الحقيقة هو الحدث الصادر عن فاعله ولا يتصور فى كيفية تعلق الفعل به — أى فعل كان — اختلاف أصلا . وأما المفعول به الذى هو محله وموقعه فلما كان تعلقه به ووقوعه عليه على أنحاء مختلفة حسبما تقتضيه خصوصيات الأفعال بحسب معانيها المختلفة ، فإن بعضها يقتضى أن يلابسه ملابسة تامة مؤثرة فيه كعامة الأفعال ، وبعضها يستدعى أن يلابسه أدنى ملابسة . إما بالانتهاء إليه كالإعانة مثلا ، أو بالابتداء منه كالاستعانة مثلا ، اعتبر فى كل نحو من أنحاء تعلقه به كيفية لائقة بذلك النحو ، مغايرة لما اعتبر فى النحوين الأخيرين .

فنظم القسم الأول من التعلق فى سلك التعلق بالمفعول الحقيقى مراعاة لقوة الملابسة ، وجعل كل واحد من القسمين الأخيرين من قبيل التعلق بواسطة

---

(٣) فى ٤٨٦ يشعر ذلك

الجار المناسب له ، فإن قولك أعنته مشعر بانتهاء الإعانة إليه ، وقولك استعنته بابتدائها منه ، وقد يكون لفعل واحد مفعولان يتعلق بأحدهما على الكيفية الأولى ، وبالآخر على الثانية أو الثالثة ، كما فى قولك حدثنى الحديث ، وسألنى المال ، فإن التحديث مع كونه فعلا واحدا قد تعلق بك على الكيفية الثانية ، وبالحديث على الأولى ، وكذا السؤال فإنه فعل واحد ، وقد تعلق بك على الكيفية الثالثة (١) وبالمال على الأولى .

ولاريب فى أن اختلاف هذه الكيفيات الثلاث وتباينها واختصاص كل من المفاعيل المذكورة بما نسب إليه منها مما لا يتصور فيه تردد ولا نكير وإن كان لا يتضح حق الاتضاح إلا عند الترجمة والتفسير ، وأن مدار ذلك الاختلاف ليس إلا اختلاف الفعل أو اختلاف (٢) المفعول ، وإذ لا اختلاف فى مفعول الحمد والمدح تعين أن اختلافهما فى كيفية التعلق لا لاختلافهما فى المعنى قطعا . هذا وقد قيل المدح مطلق عن قيد الاختيار ، يقال مدحت زيدا على حسنه ورشاقة قده ، وأيا ما كان فليس بينهما ترادف ، بل أخوة من جهة الاشتقاق الكبير ، وتناسب تام فى المعنى كالنصر والتأييد فإنهما يتناسبان (٣) معنى من غير ترادف لما ترى بينهما من الاختلاف فى كيفية التعلق بالمفعول ، وإنما مرادف النصر الإعانة ، ومرادف التأييد التقوية ، فتدبر .

ثم إن ما ذكر من التفسير هو المشهور من معنى الحمد ، واللائق بالإرادة فى مقام التعظيم ، وأما ما ذكر فى كتب اللغة من معنى الرضى مطلقا كما فى قوله تعالى « عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » وفى قولهم : لهذا الأمر عاقبة حميدة ، وفى قول الأطباء ، بحران محمود ، مما لا يختص بالفاعل فضلا عن الاختيار

---

(١) فى المطبوعة الثانية : خطا .

(٢) فى ٢٩٦٠ : لاختلاف .

(٣) فى المطبوعة : متناسبان

فبمعزل من(١) استحقاق الإرادة ههنا استقلالا أو استتباعا بحمل الحمد على ما يعم المعنيين ، إذ ليس فى إثباته له عز وجل فائدة يعتد بها . وأما الشكر فهو مقابلة النعمة بالثناء وآداب الجوارح ، وعقد القلب على وصف المنعم بنعت الكمال كما قال من قال :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة   يدى ولسانى والضمير المحجبا

فإذن هو أعم منهما من جهة ، وأخص من أخرى . ونقيضه الكفران ، ولما كان الحمد من بين شعب الشكر أدخل فى إشاعة النعمة والاعتداد بشأنها ، وأدل على مكانها لما فى عمل القلب من الخفاء ، وفى أعمال الجوارح من الاحتمال جعل الحمد رأس الشكر ، وملاكا لأمره فى قوله عليه السلام : « الحمد رأس الشكر ، ما شكر الله عبد لم يحمده » ، وارتفاعه بالابتداء ، وخبره الظرف ، وأصله النصب كما هو شأن المصادر المنصوبة بأفعالها المضمرة التى لا تكاد تستعمل معها ، نحو شكراً وعجباً ، كأنه قيل : نحمد الله حمدا بنون الحكاية ، ليوافق ما فى قوله تعالى (إياك نعبد وإياك نستعين) لاتحاد الفاعل فى الكل ، وأما ما قيل من أنه بيان لحمدهم له تعالى ، كأنه قيل : كيف تحمدون فقيل إياك نعبد فمع أنه لا حاجة إليه مما لا صحة له فى نفسه ، فإن السؤال المقدر لا بد أن يكون بحيث يقتضيه انتظام الكلام وتنساق إليه الأذهان والأفهام ، ولا ريب فى أن الحامد بعد ما ساق حمده تعالى على تلك الكيفية اللائقة لا يخطر ببال أحد أن يسأل عن كيفيته على أن ما قدر من السؤال غير مطابق للجواب ، فإنه مسوق لتعيين المعبود ، لا لا لبيان العبادة ، حتى يتوهم كونه بيانا لحمدهم(١) والاعتذار بأن المعنى نخصك بالعبادة وبه كيفية الحمد تعكيس للأمر ، وتمحل لتوفيق المنزل المقرر بالموهوم المقدر .

وبعد اللتيا والتى إن فرض السؤال من جهته عز وجل فاتت نكتة الالتفات التى أجمع عليها السلف والخلف ، وإن فرض من جهة الغير يختل النظام لابتناء الجواب على خطابه تعالى ، وبهذا يتضح فساد ما قيل إنه استئناف جوابا لسؤال

---

(١) فى ١١ «عن» واخترنا ما فى ٤٨٦   (٢) فى ١١ لكيفية حمدهم

يقتضيه إجراء تلك الصفات العظام على الموصوف بها ، فكأنه قيل: ما شأنكم معه وكيف توجهكم إليه ، فأجيب بحصر العبادة والاستعانة فيه ، فإن تناسى جانب السائل بالكلية وبناء الجواب على خطابه عز وعلا مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله .

والحق الذى لا محيد عنه استئناف صدر عن الحامد بمحض ملاحظة اتصافه تعالى بما ذكر من النعوت الجليلة الموجبة للإقبال الكلى عليه ، من غير أن يتوسط هنالك شيء آخر كما ستحيط به خبرا ، وإيثار الرفع على النصب الذى هو الأصل الإيذان بأن ثبوت الحمد له تعالى لذاته لا لإثبات مثبت ، وأن ذلك أمر دائم مستمر لا حادث متجدد كما تفيده قراءة النصب ، وهو السر فى كون تحية الخليل للملائكة عليهم التحية والسلام أحسن من تحيتهم له فى قوله تعالى: (قالوا سلاما قال سلام) وتعريفه للجنس ، ومعناه الإشارة إلى الحقيقة من حيث هى حاضرة فى ذهن السامع ، والمراد تخصيص حقيقة الحمد به تعالى المستدعى لتخصيص جميع أفرادها به سبحانه على الطريق البرهانى ، لكن لا بناء على أن أفعال العباد مخلوقة له تعالى ، فتكون الأفراد الواقعة بمقابلة ما صدر عنهم من الأفعال الجميلة راجعة إليه تعالى ، بل بناء على تنزيل تلك الأفراد ودواعيها فى المقام الخطابى منزلة العدم كيفا وكما .

وقد قيل للاستغراق الحاصل بالقصد إلى الحقيقة من حيث تحققها فى ضمن جميع أفرادها ، حسبما يقتضيه المقام ، وقرىء: الحمد لله بكسر الدال إتباعا لها باللام ، وبضم اللام إتباعا لها بالدال ، بناء على تنزيل الكلمتين لكثرة استعمالهما مقترنتين منزلة كلمة واحدة ، مثل المغيرة ومنحدر الجبل .

(رب العالمين) بالجر على أنه صفة لله ، فإن إضافته حقيقية مفيدة للتعريف على كل حال ، ضرورة تعين إرادة الاستمرار ، وقرىء منصوبا على المدح ، أو بما دلت عليه الجملة السابقة ، كأنه قيل: نحمد الله رب العالمين ولا مساغ لنصبه بالحمد لقلة إعمال المصدر المحلى باللام ، وللزوم الفصل بين العامل والمعمول بالخبر ، والرب فى الأصل مصدر بمعنى التربية وهى تبليغ الشيء إلى كماله شيئا فشيئا ، وصف به الفاعل مبالغة كالعدل .

وقيل : صفة مشبهة ، من ربه يربه ، مثل نمه ينمه ، بعد جعله لازما بنقله إلى فعل بالضم ، كما هو المشهور ، سمى به المالك لأنه يحفظ ما يملكه ويربيه ، ولا يطلق على غيره تعالى إلا مقيدا كرب الدار ورب الدابة ، ومنه قوله تعالى (فيسقى ربه خمراً) وقوله تعالى (فارجع إلى ربك) وما فى الصحيحين من أنه عليه السلام قال : « لا يقل أحدكم أطعم ربك ، وضىء ربك ، ولا يقل أحدكم ربى ، وليقل سيدى ومولاى » .

فقد قيل إن النهى فيه للتنزيه ، وأما الأرباب فحيث لم يمكن(١) إطلاقه على الله سبحانه جاز فى إطلاقه الإطلاق والتقييد ، كما فى قوله (أأرباب متفرقون خير) الآية . والعالم اسم لما يعلم به ، كالخاتم والقالب . غلب فيما يعلم به الصانع تعالى من المصنوعات أى فى القدر المشترك بين أجناسها وبين مجموعها ، فإنه كما يطلق على كل جنس جنس منها فى قولهم عالم الأفلاك ، وعالم العناصر ، وعالم النبات ، وعالم الحيوان ، إلى غير ذلك ، يطلق على المجموع أيضاً ، كما فى قولنا العالم بجميع أجزائه محدث ، وقيل : هو اسم لأولى العلم من الملائكة والثقلين وتناوله لما سواهم بطريق الاستتباع .

وقيل : أريد به الناس فقط ، فإن كل واحد منهم من حيث اشتماله على نظائر ما فى العالم الكبير من الجواهر والأعراض يعلم بها الصانع ، كما يعلم بما فى كل(٢) عالم على حياله ، ولذلك أمر بالنظر فى الأنفس كالنظر فى الآفاق ، فقيل (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) والأول هو الأحق الأظهر ، وإيثار صيغة الجمع لبيان شمول ربوبيته تعالى بجميع(٣) الأجناس ، والتعريف لاستغراق أفراد كل منها بأسرها ، إذ لو أفرد لربما توهم أن المقصود بالتعريف هو الحقيقة من حيث هى ، أو استغراق أفراد جنس واحد على الوجه الذى أشير إليه فى

---

(١) فى المطبوعة لم يكن . خطأ

(٢) فى المطبوعة بما فيه عالم . خطأ

(٣) فى المطبوعة : جميع الاجناس .

تعريف الحمد ، وحيث صح ذلك بمساعدة التعريف نزل العالم — وإن لم ينطلق على آحاد مدلوله — منزلة الجمع ، حتى قيل إنه جمع لا واحد له من لفظه ، فكما أن الجمع المعرف يستغرق آحاد مفرده وإن لم يصدق عليها كما فى مثل قوله تعالى (والله يحب المحسنين) أى كل محسن ، كذلك العالم يشمل أفراد الجنس المسمى به ، وإن لم ينطلق عليها ، كأنها آحاد مفرده التقديرى ، ومن قضية هذا التنزيل تنزيل جمعه منزلة جمع الجمع ، فكما أن الأقاويل تتناول كل واحد من آحاد الأقوال ، يتناول لفظ العالمين كل واحد من آحاد الأجناس التى لا تكاد تحصى .

روى عن وهب بن منبه أنه قال « لله تعالى ثمانية عشر ألف عالم ، والدنيا عالم منها » وإنما جمع بالواو والنون مع اختصاص ذلك بصفات العقلاء وما فى حكمها من الأعلام لدلالته على معنى العلم ، مع اعتبار تغليب العقلاء على غيرهم ، واعلم أن عدم انطلاق اسم العالم على كل واحد من تلك الآحاد ليس إلا باعتبار الغلبة والاصطلاح ، وأما باعتبار الأصل فلا ريب فى صحة الإطلاق قطعاً لتحقق المصداق حتما فإنه كما يستدل على الله سبحانه بمجموع ما سواه ، وبكل جنس من أجناسه يستدل عليه تعالى بكل جزء من أجزاء ذلك المجموع ، وبكل فرد من أفراد تلك الأجناس ، لتحقق الحاجة إلى المؤثر الواجب لذاته فى الكل ، فإن كل ما ظهر فى المظاهر مما عز وهان وحضر فى هذه المحاضر كائنا ما كان دليل لائح على الصانع المجيد ، وسبيل واضح إلى عالم التوحيد ، وأما شمول ربوبيته عز وجل للكل فمما لا حاجة إلى بيانه ، إذ لا شىء مما أحدق به نطاق الإمكان والوجود من العلويات والسفليات والمجردات والماديات والروحانيات والجثمانيات(١) إلا وهو فى حد ذاته بحيث لو فرض انقطاع آثار التربية عنه آنا واحداً لما استقر له القرار ، ولا اطمأنت به الدار ، إلا فى مطمورة العدم

---

(١) فى المطبوعة : والجسمانيات .

ومهاوى البوار ، لكن يفيض عليه من الجناب الأقدس ، تعالى شأنه وتقدس ، فى كل زمان يمضى ، وكل آن يمر وينقضى ، من فنون الفيوض المتعلقة بذاته ، ووجوده وصفاته وكمالاته مما لا يحيط به فلك التعبير ولا يعلمه إلا العليم الخبير ، ضرورة أنه كما لا يستحق شيء من الممكنات بذاته الوجود ابتداء لا يستحقه بقاء ، وإنما ذلك من جناب المبدىء الأول(١) عز وعلا ، فكما لايتصور وجوده ابتداء ما لم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الأصلى ، لايتصور بقاؤه على الوجود بعد تحققه بعلته ، ما لم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الطارىء ، لما أن الدوام من خصائص الوجود الواجبى ، وظاهر أن ما يتوقف عليه وجوده من الأمور الوجودية التى هى علله وشرائطه وإن كانت متناهية لوجوب تناهى ما دخل تحت الوجود ، لكن الأمور العدمية التى لها دخل فى وجوده وهى المعبر عنها بارتفاع الموانع ليست كذلك ، إذ لااستحالة فى أن يكون لشيء واحد موانع غير متناهية يتوقف وجوده أو بقاؤه على ارتفاعها ، أى بقائها على العدم مع إمكان وجودها فى أنفسها(٢) فإبقاء تلك الموانع التى لاتتناهى على العدم تربية لذلك الشيء من وجوه غير متناهية .

وبالجملة فآثار تربيته عز وجل الفائضة على كل فرد من أفراد الموجودات فى كل آن من آنات الوجود غير متناهية فسبحانه ما أعظم شأنه(٣) لاتلاحظه العيون بأنظارها ، ولا تطالعه العقول بأفكارها ، شأنه لايضاهى ، وإحسانه لايتناهى ، ونحن فى معرفته حائرون . وفى إقامة مراسم شكره قاصرون ، نسألك اللهم الهداية إلى مناهج معرفتك ، والتوفيق لأداء حقوق نعمتك ، لانحصى ثناء عليك لا إله إلا أنت ، نستغفرك ونتوب إليك .

---

(١) فى المطبوعة المبدأ الأول .

(٢) فى المطبوعة : فى نفسها .

(٣) فى المطبوعة : سلطانة .

(الرحمن الرحيم) صفتان لله ، فإن أريد بما فيهما من الرحمة ما يختص بالعقلاء من العالمين ، أو ما يفيض على الكل بعد الخروج إلى طور الوجود من النعم ، فوجه تأخيرهما عن وصف الربوبية ظاهر ، وإن أريد ما يعم الكل فى الأطوار كلها حسبما فى قوله تعالى (ورحمتى وسعت كل شىء) فوجه الترتيب أن التربية لاتقتضى المقارنة للرحمة ، فإيرادها فى عقيبها[1] للإيذان بأنه تعالى متفضل فيها فاعل بقضية رحمته السابقة من غير وجوب عليه ، وبأنها واقعة على أحسن ما يكون والاقتصار على نعته تعالى بهما فى التسمية لما أنه الأنسب بحال المتبرك المستعين باسمه الجليل ، والأوفق لمقاصده .

(مالك يوم الدين) صفة رابعة له تعالى ، وتأخيرها عن الصفات الأول مما لا حاجة إلى بيان وجهه ، وقرأ أهل الحرمين المحترمين (ملك) من الملك الذى هو عبارة عن السلطان القاهر ، والاستيلاء الباهر ، والغلبة التامة ، والقدرة على التصرف الكلى فى أمور العامة ، بالأمر والنهى وهو الأنسب بمقام الإضافة إلى يوم الدين ، كما فى قوله تعالى (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) وقرئ (ملك) بالتخفيف و (ملك) بلفظ الفعل ، (ومالك) النصب على المدح ، أو الحال ، وبالرفع منونا ومضافا على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وملك مضافا وبالرفع والنصب ، واليوم فى العرف عبارة عما بين طلوع الشمس وغروبها من الزمان ، وفى الشرع عما بين طلوع الفجر الثانى وغروب الشمس والمراد ههنا مطلق الوقت ، والدين الجزاء خيرا كان أو شرا ، ومنه الثانى فى المثل السائر كما تدين تدان ، والأول فى بيت الحماسة :

ولم يبق سوى العدوا ن دناهم كما دانوا

وأما الأول فى الأول والثانى فى الثانى فليس بجزاء حقيقة ، وإنما سمى به

---

(١) فى المطبوعة : فإيرادها فى عقبها .

مشاكلة . أو تسمية للشيء باسم مسببه كما سميت إرادة القيام والقراءة باسمهما فى قوله عز اسمه (إذا قمتم إلى الصلاة) وقوله تعالى (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله) ولعله هو السر فى بناء المفاعلة من الأفعال التى تقوم أسبابها بمفعولاتها ، نحو عاقبت اللص ونظائره ، فإن قيام السرقة التى هى سبب للعقوبة باللص نزل منزلة قيام المسبب به ، وهى العقوبة ، فصار كأنها قامت بالجانبين ، وصدرت عنهما ، فبنيت صيغة المفاعلة الدالة على المشاكلة بين(١) اثنين وإضافة اليوم إليه لأدنى ملابسة كإضافة سائر الظروف الزمانية إلى ما وقع فيها من الحوادث ، كيوم الأحزاب وعام الفتح ، وتخصيصه من بين سائر ما يقع فيه من القيامة والجمع والحساب لكونه أدخل فى الترغيب والترهيب ، فإن ما ذكر من القيامة وغيرها من مبادىء الجزاء ومقدماته وإضافة مالك إلى اليوم إضافة اسم الفاعل إلى الظرف ، على نهج الاتساع المبنى على إجرائه مجرى المفعول به ، مع بقاء المعنى على حاله ، كقولهم : يا سارق الليلة أهل الدار . أى : مالك أمور العالمين كلها فى يوم الدين . وخلو إضافته عن إفادة التعريف المسوغ لوقوعه صفة للمعرفة إنما هو إذا أريد به الحال ، أو الاستقبال ، وأما عند إرادة الاستمرار الثبوتى كما هو اللائق بالمقام فلا ريب فى كونها إضافة حقيقية كإضافة الصفة المشبهة إلى غير معمولها فى قراءة (ملك يوم الدين) .

ويوم الدين وإن لم يكن مستمرا فى جميع الأزمنة إلا أنه لتحقق وقوعه وبقائه أبدا أجرى مجرى المتحقق المستمر . ويجوز أن يراد به الماضى بهذا الاعتبار ، كما تشهد به القراءة على صيغة الماضى ، وما ذكر من إجراء الظرف مجرى المفعول به إنما هو من حيث المعنى ، لا من حيث الإعراب ، حتى يلزم كون الإضافة لفظية ، ألا ترى أنك تقول فى مالك عبده أمس إنه مضاف إلى المفعول به ، على أنه كذلك معنى ، لا أنه منصوب محلا ، وتخصيصه بالإضافة إما

---

(١) فى المطبوعة : على المشاركة بين الاثنين .

لتعظيمه وتهويله ، أو لبيان تفرده تعالى بإجراء الأمر فيه ، وانقطاع العلائق الجارية(١) بين الملاك والأملاك حينئذ بالكلية ، وإجراء هاتيك الصفات الجليلة عليه سبحانه تعليل لما سبق من اختصاص الحمد له تعالى ، المستلزم لاختصاص استحقاقه به تعالى ، وتمهيد لما لحق من اقتصار العبادة والاستعانة عليه ، فإن كل واحدة منها مفصحة عن وجوب ثبوت كل واحد منها له تعالى، وامتناع ثبوتها لما سواه .

أما الأولى والرابعة فظاهر ، لأنهما متعرضتان صراحة لكونه تعالى ربا مالكا وما سواه مربوبا مملوكا له تعالى .

وأما الثانية والثالثة فلأن اتصافه تعالى بهما ليس إلا بالنسبة إلى ما سواه من العالمين وذلك يستدعى أن يكون الكل منعما عليهم ، فظهر أن كل واحدة من تلك الصفات كما دلت على وجوب ثبوت الأمور المذكورة له تعالى دلت على امتناع ثبوتها لما عداه على الإطلاق ، وهو المعنى بالاختصاص .

(إياك نعبد وإياك نستعين) .

سر وجوب الفاتحة فى الصلاة

التفات من الغيبة إلى الخطاب ، وتلوين للنظم من باب إلى باب ، جار على نهج البلاغة فى افتنان الكلام ، ومسلك البراعة حسبما يقتضى المقام ، لما أن التنقل من أسلوب إلى أسلوب ، أدخل فى استجلاب النفوس واستمالة القلوب يقع من كل واحد من التكلم والخطاب ، والغيبة إلى كل واحد من الآخرين ، كما فى قوله عز وجل (الله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا) الآية ، وقوله تعالى (حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم) إلى غير ذلك من الالتفاتات الواردة

---

(١) فى المطبوعة : المجازية . خطأ

فى التنزيل لأسرار تقتضيها ، ومزايا تستدعيها . ومما استأثر به هذا المقام الجليل من النكت الرائقة الدالة على أن تخصيص العبادة والاستعانة به تعالى لما أجرى عليه من النعوت الجليلة التى أوجبت له تعالى أكمل تميز ، وأتم ظهور ، بحيث تبدل خفاء الغيبة بجلاء الحضور ، فاستدعى استعمال صيغة الخطاب ، والإيذان بأن حق التالى بعد ما تأمل فيما سلف من تفرده تعالى بذاته الأقدس ، المستوجب للمعبودية ، وامتيازه بذاته عما سواه بالكلية ، واستبداده بجلائل الصفات وأحكام الربوبية المميزة له عن جميع أفراد العالمين ، وافتقار الكل إليه فى الذات والوجود ابتداء وبقاء ، على التفصيل الذى مرت إليه الإشارة أن يترقى من رتبة البرهان إلى طبقة البيان[١] وينتقل من عالم الغيبة إلى معالم الشهود ، ويلاحظ نفسه فى حظائر القدس حاضرا فى محاضر الأنس ، كأنه واقف لدى مولاه ماثل بين يديه ، وهو يدعو بالخضوع والإخبات ، ويقرع بالضراعة باب المناجاة قائلا : يامن هذه شؤون ذاته وصفاته ، نخصك بالعبادة والاستعانة ، فإن ما سواك كائنا ما كان بمعزل من استحقاق الوجود ، فضلا عن استحقاق أن يعبد ويستعان ، ولعل هذا هو السر فى اختصاص السورة الكريمة بوجوب القراءة فى كل ركعة من الصلاة التى هى (من)[٢] مناجاة العبد لمولاه ومنته للتبتل إليه بالكلية ، وإيا ضمير منفصل منصوب ، وما يلحقه من الكاف والياء والهاء حروف زيدت لتعيين الخطاب ، والتكلم والغيبة لا محل لها من الإعراب ، كالتاء فى أنت والكاف فى أرأيتك ، وما ادعاه الخليل من الإضافة محتجاً عليه بما حكاه عن بعض العرب : إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب ، فمما لا يعول عليه . وقيل هى : الضمائر ، وإيا دعامة لها لتصيرها منفصلة ، وقيل الضمير هو المجموع ، وقرى (إياك) بالتخفيف وبفتح الهمزة والتشديد ، وهياك بقلب الهمزة هاء .

---

[١] فى ٤٨٦ : العيان .

[٢] سقطت من المطبوعة

العبادة والعبودية والاستعانة

والعبادة أقصى غاية التذلل والخضوع ، ومنه طريق معبد أى مذلل ، والعبودية أدنى منها ، وقيل : العبادة فعل ما يرضى به الله ، والعبودية الرضى بما فعل الله تعالى ، والاستعانة طلب المعونة على الوجه الذى مر بيانه ، وتقديم المفعول فيهما لما ذكر من القصر والتخصيص كما فى قوله تعالى (وإياى فارهبون) مع ما فيه من التعظيم والاهتمام به ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : معناه نعبدك ولا نعبد غيرك ، وتكرير الضمير المنصوب للتنصيص على تخصيصه تعالى بكل واحدة من العبادة والاستعانة ، ولإبراز الاستلذاذ بالمناجاة والخطاب ، وتقديم العبادة لما أنها من مقتضيات مدلول الاسم الجليل ، وإن ساعدته(١) الصفات المجراة عليه أيضاً ، وأما الاستعانة فمن الأحكام المبنية على الصفات المذكورة ولأن العبادة من حقوق الله تعالى ، والاستعانة من حقوق المستعين ، ولأن العبادة واجبة حتما ، والاستعانة تابعة للمستعان فيه فى الوجوب ، وعدمه ، وقيل لأن تقديم الوسيلة على المسئول أدعى إلى الإجابة والقبول ، هذا على تقدير كون إطلاق الاستعانة على المفعول فيه ليتناول كل مستعان فيه ، كما قالوا وقد قيل : إنه لما كان المسئول هو المعونة فى العبادة والتوفيق لإقامة مراسمهما على ما ينبغى ، وهو اللائق بشأن التنزيل ، والمناسب لحال الحامد ، فإن استعانته مسبوقة بملاحظة فعل من أفعاله ، ليستعينه تعالى فى إيقاعه ، ومن البين أنه عند استغراقه فى ملاحظة شؤونه تعالى ، واشتغاله بأداء ما توجبه تلك الملاحظة من الحمد والثناء ، لا يكاد يخطر بباله من أفعاله وأحواله إلا الإقبال الكلى عليه ، والتوجه التام إليه ، ولقد فعل ذلك بتخصيص العبادة به تعالى أولا ، وباستدعاء الهداية إلى ما يوصل إليه آخراً فكيف يتصور أن يشتغل فيما بينهما بما لا يعنيه من أمور دنياه أو بما يعمها وغيرها ، كأنه قيل : وإياك

---

(١) فى المطبوعة : ساعده خطأ .

نستعين فى ذلك ، فإنا غير قادرين على أداء حقوقك(١) من غير إعانة منك فوجه الترتيب حينئذ واضح ، وفيه من الإشعار بعلو رتبة عبادته تعالى وعزة منالها ، وبكونها عند العابد أشرف المباغى والمقاصد وبكونها من مواهبه تعالى لا من أعمال نفسه ، ومن الملاءمة(٢) لما يعقبه من الدعاء ما لا يخفى .

وقيل الواو للحال ، أى إياك نعبد مستعينين بك ، وإيثار صيغه المتكلم مع الغير فى الفعلين للإيذان بقصور نفسه ، وعدم لياقته للوقوف(٣) فى مواقف الكبرياء منفرداً ، وعرض العبادة ، واستدعاء المعونة والهداية مستقلا ، وأن ذلك إنما يتصور من عصابة هو من جملتهم ، وجماعة هو من زمرتهم ، كما هو ديدن الملوك ، أو للإشعار باشتراك سائر الموحدين له فى الحالة العارضة له ، بناء على تعاضد الأدلة الملجئة إلى ذلك ، وقرىء (نستعين) بكسر النون على لغة بنى تميم .

(إهدنا الصراط المستقيم) إفراد لمعظم فراد المعونة المسئولة بالذكر ، وتعيين لما هو الأهم أو بيان لها ، كأنه قيل : كيف أعينكم فقيل : اهدنا .

أجناس الهداية

والهداية دلالة بلطف على ما يوصل إلى البغية ، ولذلك اختصت بالخير ، وقوله تعالى (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) وارد على نهج التهكم ، والأصل تعديتها(٤) بإلى واللام ، كما فى قوله تعالى : (قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق) فعومل معاملة اختار فى قوله تعالى (واختار موسى

---

(١) فى المطبوعة : حقوقه . خطأ .

(٢) فى المطبوعة : الملائمة . خطأ

(٣) فى المطبوعة : بالوقوف .

(٤) فى المطبوعة : تعديته .

قومه) وعليه قوله تعالى : (لنهدينهم سبلنا) وهداية الله تعالى مع تنوعها إلى أنواع لا تكاد تحصر منحصرة فى أجناس مترتبة ، منها أنفسية ، كإفاضة القوى الطبيعية والحيوانية التى بها يصدر عن المرء فاعيله الطبيعية الحيوانية ، والقوى المدركة ، والمشاعر الظاهرة والباطنة التى بها يتمكن من إقامة مصالحه المعاشية والمعادية ، ومنها آفاقية فإما تكوينية معربة عن الحق بلسان الحال ، وهى نصب الأدلة المودعة فى كل فرد من أفراد العالم حسبما لوح به فيما سلف ، وإما تنزيلية مفصحة عن تفاصيل الأحكام النظرية والعملية بلسان المقال ، بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب المنطوية على فنون الهدايات التى من جملتها الإرشاد إلى مسلك الاستدلال بتلك الأدلة التكوينية الآفاقية والأنفسية ، والتنبيه على مكانها ، كما أشير إليه مجملا فى قوله تعالى : (وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون) وفى قوله عز وعلا : (إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون) ومنها الهداية الخاصة وهى كشف الأسرار على قلب المهدى بالوحى ، أو الإلهام .

ولكل مرتبة من هذه المراتب صاحب ينتحيها ، وطالب يستدعيها ، والمطلوب إما زيادتها كما فى قوله تعالى (والذين اهتدوا زادهم هدى) وإما الثبات عليها كما روى عن على وأبى رضى الله عنهما : إهدنا ثبتنا ، ولفظ الهداية على الوجه الأخير(١) مجاز قطعاً ، وأما على الأول فإن اعتبر مفهوم الزيادة داخلا فى المعنى المستعمل فيه كان مجازا أيضاً ، وإن اعتبر خارجاً عنه مدلولا عليه بالقرائن كان حقيقة ، لأن الهداية الزائدة هداية ، كما أن العبادة الزائدة عبادة ، فلا يلزم الجمع بين الحقيقة والمجاز ، وقرىء أرشدنا ، والصراط الجادة وأصله السين ، قلبت صاداً لمكان الطاء كمصيطر فى مسيطر ، من سرط الشىء إذا ابتلعه ، سميت به لأنها تسترط السابلة إذا سلكوها ، كما سميت لقما لأنها

---

(١) فى المطبوعة الآخر .

لأنها تلتقمهم وقد تشم الصاد صوت الزامى تحريا للقرب من المبدل منه . وقد قرىء بهن جميعاً ، وفصحاهن إخلاص الصاد ، وهى لغة قريش ، وهى الثابتة فى الإمام ، وجمعه صرط ككتاب وكتب ، وهو كالطريق والسبيل فى التذكير والتأنيث ، والمستقيم المستوى ، والمراد به طريق الحق وهى الملة الحنيفة السمحة المتوسطة بين الإفراط والتفريط .

﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ بدل من الأول بدل الكل ، وهو فى حكم تكرير العامل من حيث إنه المقصود بالنسبة ، وفائدته التأكيد والتنصيص على أن طريق الذين أنعم الله عليهم وهم المسلمون هو العلم فى الاستقامة ، والمشهود له بالاستواء بحيث لا يذهب الوهم عند ذكر الطريق المستقيم إلا إليه.

النعم ومن الذين أنعم الله عليهم

وإطلاق الإنعام لقصد الشمول ، فإن نعمة الإسلام عنوان النعم كلها ، فمن فاز بها فقد حازها بحذافيرها : وقيل : المراد بهم الأنبياء عليهم السلام ولعل الأظهر أنهم المذكورون فى قوله عز قائلا (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) بشهادة ما قبله من قوله تعالى (ولهديناهم صراطا مستقيما) وقيل : هم أصحاب موسى وعيسى عليهما (الصلاة(١) و)السلام قبل النسخ والتحريف وقرىء صراط من أنعمت عليهم والإنعام إيصال النعمة وهى فى الأصل الحالة التى يستلذها الإنسان من النعمة وهى اللين ثم أطلقت على ما تستلذه النفس من طيبات الدنيا.

ونعم الله تعالى مع استحالة إحصائها تنحصر(٢) أصولها فى دنيوى وأخروى والأول قسمان : وهبى وكسبى ، والوهبى أيضاً قسمان : روحانى كنفخ الروح

---

(١) سقطت من المطبوعة .

(٢) فى ١١ : تستحضر .

فيه ، وإمداده بالعقل ، وما يتبعه من القوى المدركة ؛ فإنها مع كونها من قبيل الهدايات نعم جليلة فى أنفسها ، وجسمانى كتخليق البدن والقوى الحالة فيه ، والهيئات العارضة له من الصحة وسلامة الأعضاء ، والكسبي تخلية النفس عن الرذائل ، وتحليتها بالأخلاق السنية ، والملكات البهية ، وتزيين البدن بالهيئات المطبوعة والحلى المرضية ، وحصول الجاه والمال .

والثانى(١) مغفرة مافرط منه ، والرضى عنه ، وتبوئته فى أعلى عليين ، مع المقربين والمطلوب هو القسم الأخير ، وماهو ذريعة إلى نيله من القسم الأول ، اللهم ارزقنا ذلك بفضلك العظيم ، ورحمتك الواسعة .

﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ : صفة للموصول على أنه عبارة عن إحدى الطوائف المذكورة المشهورة بالإنعام عليهم ، وباستقامة المسلك ، ومن ضرورة هذه الشهرة شهرتهم بالمغايرة لما أضيف إليه كلمة غير من المتصفين بضدى الوصفين المذكورين ، أعنى مطلق المغضوب عليهم والضالين ، فاكتسبت بذلك تعرفا مصححا لوقوعها صفة للمعرفة كما فى قولك : عليك بالحركة غير السكون ، وصفوا بذلك تكملة لما قبله وإيذانا بأن السلامة مما ابتلى به أولئك نعمة جلية فى نفسها ، أى الذين جمعوا بين النعمة المطلقة التى هى نعمة الإيمان ونعمة السلامة من الغضب والضلال . وقيل المراد بالموصول طائفة من المؤمنين لا بأعيانهم ، فيكون بمعنى النكرة كذى اللام إذا أريد به الجنس فى ضمن بعض الأفراد لا بعينه ، وهو المسمى بالمعهود الذهنى ، و(المراد)(٢) بالمغضوب عليهم والضالين اليهود والنصارى ، كما ورد فى مسند أحمد والترمذى فيبقى لفظ غير على إبهامه نكرة مثل موصوفة ، وأنت خبير بأن جعل الموصول عبارة عما ذكر من طائفة غير معينة مخل ببدلية ما أضيف إليه مما قبله ؛ فإن مدارها كون صراط المؤمنين

---

(١) المراد النعم الأخروية .

(٢) سقطت من المطبوعة

علما فى الإستقامة مشهوداً له بالاستواء على الوجه الذى تحققته فيم سلف ، ومن البين أن ذلك من حيث إضافته وانتسابه إلى كلهم لا إلى بعض مبهم منهم ، وبهذا تبين ألا سبيل إلى جعل غير المغضوب عليهم بدلا من الموصول(١) لما عرفت من أن شأن البدل أن يفيد متبوعه مزيد تأكيد وتقرير ، وفضل إيضاح وتفسير ، ولا ريب فى أن قصارى أمر مانحن فيه أن يكتسب بما أضيف إليه نوع تعرف مصحح لوقوعه صفة للموصول ، وأما استحقاق أن يكون مقصودا بالنسبة مفيداً لما ذكر من الفوائد فكلا ، وقرىء بالنصب على الحال ، والعامل أنعمت ، أو على المدح ، أو على الاستثناء إن فسر النعمه بما يعم القليل .

والغضب هيجان النفس لإرادة الإنتقام وعند اسناده إلى الله سبحانه يراد به غايته بطريق إطلاق اسم السبب بالنسبة إلينا على مسببه القريب إن أريد به إرادة الإنتقام ، وعلى مسببه البعيد إن أريد به نفس الانتقام ، ويجوز حمل الكلام على التمثيل ، بأن تشبه الهيئة المنتزعة من سخطه تعالى للعصاة وإرادة الانتقام منهم لمعاصيهم بما ينتزع من حال الملك إذا غضب على الذين عصوه ، وأراد أن ينتقم منهم ويعاقبهم ، وعليهم مرتفع بالمغضوب ، قائم مقام فاعله والعدول عن إسناد الغضب إليه تعالى كالإنعام جرى على منهاج الآداب التنزيلية فى نسبة النعم والخير إليه عز وجل ، دون أضدادها ، كما فى قوله تعالى : (الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين) ، وقوله تعالى : (وإنا لاندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً) ولا مزيدة لتأكيد ما أفاده غير من معنى النفى كأنه قيل : إن ولا المغضوب عليهم ولا الضالين ، ولذلك جاز إن زيداً(٢) غير ضارب ، جواز إن زيداً لاضارب وإن امتنع إن زيداً مثل ضارب ، والضلال هو

---

(١) فى ١١ . الموصوف .

(٢) فى المطبوعة ، أن زيداً فى الفقرة كلها خطأ .

العدول عن الصراط السوى ، وقرىء وغير الضالين ، وقرىء ولا الضألين ، بالهمزة على لغة من جد فى الهرب عن التقاء الساكنين .

﴿ آمين ﴾ اسم فعل هو : استجب ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى آمين ، فقال : «افعل» بنى على الفتح كأين لالتقاء الساكنين ، وفيه لغتان مد ألفه وقصرها قال :

* ويرحم الله عبداً قال آمينا * وقال : * أمين فزاد الله ما بيننا بعداً *

عن النبى صلى الله عليه وسلم : « لقننى جبريل آمين عند فراغى من قراءة فاتحة الكتاب ، وقال : إنه كالختم على الكتاب » .

حكم قراءة آمين فى الصلاة

وليست من القرآن وفاقا ، ولكن يسن ختم السورة الكريمة بها والمشهور عن أبى حنيفة رحمه الله أن المصلى يأتى بها مخافتة ، وعنه أنه لا يأتى بها الإمام لأنه الداعى وعن الحسن مثله ، وروى الإخفاء عبد الله بن مغفل وأنس بن مالك عن النبى عليه الصلاة والسلام ، وعند الشافعى رحمه الله يجهر بها ، لما روى وائل بن حجر أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ ولا الضالين قال آمين ، ورفع بها صوته . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبى بن كعب « ألا أخبرك بسورة لم ينزل فى التوراة والإنجيل والقرآن مثلها؟ قلت بلى يا رسول الله قال : فاتحة الكتاب إنها السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته (١) » وعن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن القوم ليبعث الله عليهم العذاب حتما مقضيا ، فيقرأ صبى من صبيانهم فى الكتاب الحمد لله رب العالمين ، فيسمعه الله تعالى فيرفع عنهم بذلك العذاب أربعين سنة » (٢) .

---

(١) أخرجه الحافظ الدمياطى فى المتجر الرابح لمسلم وأحمد والطبرانى فى الأوسط .

(٢) الطبرانى فى الصغير وفى إسناده كلام

سورة البقرة مدنية وهى مائتان وسبع وثمانون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

آراء فى الحروف المقطعة

﴿ الم ﴾ الألفاظ التى يعبر بها عن حروف المعجم التى من جملتها المقطعات المرقومة فى فواتح السور الكريمة أسماء لها، لاندراجها تحت حد الاسم، ويشهد به ما يعتريها من التعريف والتنكير والجمع والتصغير وغير ذلك من خصائص الاسم، وقد نص على ذلك أساطين أئمة العربية، وما وقع فى عبارات المتقدمين من التصريح بحرفيتها محمول على المسامحة، وأما ماروى عن ابن مسعود رضى الله عنه من أنه عليه السلام قال: «من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول الم حرف بل ألف حرف ولام حرف وميم حرف» وفى رواية الترمذى والدارمى: «لا أقول الم حرف ذلك الكتاب حرف ولكن الألف حرف واللام حرف والميم حرف والذال حرف والكاف حرف» فلا تعلق له بما نحن فيه قطعا، فإن إطلاق الحرف على ما يقابل الاسم والفعل عرف جديد اخترعه أئمة الصناعة. وإنما الحرف عند الأوائل ما يتركب منه الكلام من الحروف المبسوطة، وربما يطلق على الكلمة أيضا تجوزا وأريد(١) بالحديث الشريف دفع توهم التجوز، وزيادة تعيين إردة المعنى الحقيقى ليتبين بذلك أن الحسنة الموعودة ليست بعدد الكلمات القرآنية، بل بعدد حروفها المكتوبة فى المصاحف، كما يلوح به ذكر كتاب الله دون كلام الله أو القرآن، وليس هذا من تسمية الشىء باسم مدلوله فى شىء كما قيل كيف لا والمحكوم عليه بالحرفية واستتباع الحسنة إنما هى المسميات البسيطة الواقعة فى كتاب الله عز وعلا(٢)، سواء عبر عنها بأسمائها المؤلفة كما إذا قلنا(٣) الألف مؤلف من ثلاثة أحرف، فكما أن الحسنات فى قراءة قوله تعالى

---

(١) فى المطبوعة: فأريد.

(٢) فى المطبوعة: وجل.

(٣) فى المطبوعة: قلت.

(ذلك الكتاب) بمقابلة حروفه البسيطة ، وموافقة لعددها كذلك فى قراءة قوله تعالى (الم) بمقابلة حروفه الثلاثة المكتوبة وموافقة لعددها ، لابمقابلة أسمائها الملفوظة ، والألفات الموافقة فى العدد ، إذ الحكم بأن كلا منها حرف واحد مستلزم للحكم بأنه مستتبع لحسنة واحدة ، فالعبرة فى ذلك بالمعبر عنه دون المعبر به ، ولعل السر فيه أن استتباع الحسنة منوط بإفادة المعنى المراد بالكلمات القرآنية . فكما أن سائر الكلمات الشريفة لاتفيد معانيها إلا بتلفظ حروفها بأنفسها ، كذلك الفواتح المكتوبة لاتفيد المعانى المقصودة بها إلا بالتعبير عنها بأسمائها ، فجعل ذلك تلفظا بالمسميات كالقسم الأول من غير فرق بينهما .

ألا ترى إلى ما فى الرواية الأخيرة من قوله عليه السلام « والذال حرف والكاف حرف » كيف عبر عن طرفى ذلك باسميهما ، مع كونهما ملفوظين باسميهما(١) ، ولقد روعيت فى هذه التسمية نكتة رابعة(٢) ، حيث جعل كل مسمى لكونه من قبيل الألفاظ صدراً لاسمه ، ليكون هو المفهوم منه إثر ذى أثير ، خلا أن الألف حيث تعذر الابتداء بها استعيرت مكانها الهمزة ، وهى معربة إذ لا مناسبة بينها وبين مبنى الأصل ، لكنها مالم تلها العوامل ساكنة الأعجاز على الوقف كأسماء الأعداد وغيرها ، حين خلت عن العوامل ، ولذلك قيل : صاد ، وقاف ، مجموعا فيهما بين الساكنين ، ولم تعامل معاملة أين وكيف وهؤلاء وإن وليها عامل مسها الإعراب ، وتقصر ما آخره ألف عند التهجى لابتغاء الخفة لا لأن وزانه وزان لا تقصر تارة فتكون حرفا وتمد أخرى فتكون اسما لها كما فى قول حسان رضى الله عنه :

ما قال لا قط إلا فى تشهده لولا التشهد لم تسمع له لاء

هذا وقد تكلموا فى شأن هذه الفواتح الكريمة وما أريد بها فقيل : إنها

---

(١) فى المطبوعة : بأنفسهما . (٢) فى ط : رائعة

من العلوم المستورة ، والأسرار المحجوبة ، روى عن الصديق أنه قال « فى كل كتاب سر ، وسر القرآن أوائل السور » وعن على رضى الله عنه « إن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجى » وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال « عجزت العلماء عن إدراكها » وسئل الشعبى عنها فقال « سر الله عز وجل فلا تطلبوه » وقيل : إنها من أسماء الله تعالى وقيل : كل حرف منها إشارة إلى اسم من أسماء الله تعالى ، أو صفة من صفاته تعالى . وقيل : إنها صفات الأفعال ، الألف آلاؤه ، واللام لطفه ، والميم مجده وملكه ، قاله محمد ابن كعب القرظى. وقيل : إنها من قبيل الحساب ، وقيل الألف من الله ، واللام من جبريل ، والميم من محمد ، أى الله أنزل(١) الكتاب بواسطة جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام . وقيل هى أقسام من تعالى بهذه الحروف المعجمة ، لشرفها من حيث إنها أصول اللغات ومبادىء كتبه المنزلة ، ومبانى أسمائه الكريمة ، وقيل : إشارة إلى انتهاء كلام وابتداء كلام آخر ، وقيل ، وقيل .

ولكن الذى عليه التعويل : إما كونها أسماء للسور المصدرة بها ، وعليه إجماع الأكثر ، وإليه ذهب الخليل وسيبويه ، قالوا سميت بها إيذانا بأنها كلمات عربية معروفة التركيب من مسميات هذه الألفاظ ، فيكون فيه إيماء إلى الإعجاز والتحدى على سبيل الإيقاظ. فلولا أنه(٢) وحى من الله عز وجل لما عجزوا عن معارضته ، ويقرب منه ما قاله الكلبى والسدى وقتادة من أنها أسماء للقرآن والتسمية بثلاثة أسماء فصاعداً إنما تستنكر فى لغة العرب إذا ركبت وجعلت اسماً واحداً ، كما فى حضرموت ، فأما إذا كانت منثورة فلا استنكار فيها ، والمسمى هو المجموعة لا الفاتحة فقط ، حتى يلزم اتحاد الاسم والمسمى ، غاية الأمر دخول الاسم فى المسمى ، ولا محذور فيه ، كما لا محذور فى عكسه حسبما

---

(١) فى المطبوعة : أنزل الله .

(٢) فى ا ا : أنها .

تحققته آنفا ، وإنما كتبت فى المصاحف صور المسميات دون صور الأسماء لأنه أدل على كيفية التلفظ بها ، وهى أن يكون على نهج التهجى دون التركيب ولأن فيه سلامة من التطويل لاسيما فى الفواتح الخماسية ، على أن خط المصحف مما لا يناقش فيه بمخالفة القياس ، وإما كونها مسرودة على نمط التعديد ، وإليه جنح أهل التحقيق .

قالوا إنما وردت هكذا ليكون إيقاظا لمن تحدى بالقرآن ، وتنبيها لهم على أنه منتظم من عين ما ينظمون منه كلامهم ، فلولا أنه خارج عن طوق البشر ، نازل من عند خلاق القوى والقدر ، لما تضاءلت قوتهم ، ولا تساقطت قدرتهم ، وهم فرسان حلبة الحوار ، وأمراء الكلام فى نادى الفخار ، دون الإتيان بما يدانيه ، فضلا عن المعارضة بما يساويه ، مع تظاهرهم فى المضادة والمضاره ، وتهالكهم على المعازة والمعاره .

أو ليكون مطلع ما يتلى عليهم مستقلا بضرب من الغرابة أنموذجا لما فى الباقى من فنون الإعجاز ، فإن النطق بأنفس الحروف فى تضاعيف الكلام ، وإن كان على طرف التمام ، يتناوله الخواص والعوام ، من الأعراب والأعجام لكن التلفظ بأسمائها إنما يتأتى ممن درس وخط ، وأما ممن لم يحم حول ذلك قط ، فأعز من بيض الأنوق ، وأبعد من مناط العيوق ، لاسيما إذا كان على نمط عجيب ، وأسلوب غريب ، منبىء عن سر سرى ، مبنى على نهج عبقرى ، بحيث يحار فى فهمه أرباب العقول ، ويعجز عن إدراكه ألباب الفحول .

كيف لا وقد وردت تلك الفواتح فى تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم ، مشتملة على نصفها تقريبا ، بحيث ينطوى على أنصاف أصنافها تحقيقا أو تقريبا ، كما يتضح عند الفحص والتنقير ، حسبما فصله بعض أفاضل أئمة التفسير .

فسبحان من دقت حكمته من أن تطالعها الأنظار ، وجلت قدرته عن أن تنالها أيدى الأفكار ، وإيراد بعضها فرادى وبعضها ثنائية إلى الخماسية جرى

على عادة الافتنان ، مع مراعاة أبنية الكلم وتفريقها على السور ، دون إيراد كلها مرة لذلك ولما فى التكرير والإعادة من زيادة إفادة ، وتخصيص كل منها بسورتها مما لاسبيل إلى المطالبة بوجهه ، وعد بعضها آية دون بعض ، مبنى على التوقيف البحت .

هل الحروف آيات ؟ إعرابها

أما الم فآية حيثما وقعت ، وقيل فى آل عمران ليست بآية ، والمص آية ، والمر لم تعد آية ، والر ليست بآية فى شىء من سورها الخمس ، وطسم آية فى سورتيها ، وطه ويس آيتان ، وطس ليست بآية ، وحم آية فى سورها كلها ، وكهيعص آية ، وحم عسق آيتان . وص وق ون لم تعد واحدة منها آية . هذا على رأى الكوفيين .

وقد قيل : إن جميع الفواتح آيات عندهم فى السور كلها بلا فرق بينها ، وأما من عداهم فلم يعدوا شيئاً منها آية ، ثم إنها على تقدير كونها مسرودة على نمط التعديد لا تشم رائحة الإعراب ، ويوقف عليها وقف التمام ، وعلى تقدير كونها أسماء للسور أو للقرآن كان لها حظ منه إما الرفع على الابتداء أو على الخبرية ، وإما النصب بفعل مضمر ، كاذكر ، أو بتقدير فعل القسم على طريقة الله لأفعلن ، وإما الجر بتقدير حرفه حسبما يقتضيه المقام ، ويستدعيه النظام ، ولاوقف فيما عدا الرفع على الخبرية والتلفظ بالكل على وجه الحكاية ساكنة الأعجاز إلا أن ما كانت منها مفردة مثل ص وق ون يتأتى فيها الإعراب اللفظى أيضا ، وقدقرئت بالنصب على إضمار فعل ، أى اذكر أواقرأ صاد وقاف ونون ، وإنما لم تنون لامتناع الصرف ، وكذا ما كانت منها موازنة لمفرد نحو حم ويس وطس الموازنة لقابيل وهابيل ، حيث أجاز سيبويه فيها مثل ذلك قال فى باب أسماء السور من كتابه : وقد قرأ بعضهم

ياسين والقرآن ، وقاف والقرآن ، فكأنه جعله اسما أعجميا ، ثم قال اذكر ياسين ، انتهى .

وحكى السيرافى أيضا عن بعضهم قراءة ياسين ويجوز أن يكون ذلك فى الكل تحريكا لالتقاء الساكنين ، ولا مساغ للنصب بإضمار فعل القسم ؛ لأن ما بعدها من القرآن والقلم محلوف بهما ، وقد استكرهوا الجمع بين قسمين على مقسم عليه واحد قبل انقضاء الأول ، وهو السر فى جعل ما عدا الواو الأولى فى قوله تعالى (والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى . وما خلق الذكر والأنثى) عاطفة ، ولا مجال للعطف ههنا للمخالفة بين الأول والثانى فى الإعراب ، نعم يجوز ذلك بجعل الأول مجرورا بإضمار الباء القسمية ، مفتوحا لكونه غير منصرف ، وقرىء ص وق بالكسر على التحريك لالتقاء الساكنين ، ويجوز فى طاسين ميم أن تفتح نونها ، وتجعل من قبيل دارابجرد ذكره سيبويه فى كتابه . وأما ما عدا ذلك من الفواتح فليس فيها إلا الحكاية وسيجىء تفاصيل سائر أحكام كل منها مشروحة فى مواقعها بإذن الله عز سلطانه أما هذه الفاتحة الشريفة فإن جعلت اسما للسورة أو للقرآن فمحلها الرفع ، إما على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير هذا الم أى مسمى به ، وإنما صحت الإشارة إلى القرآن بعضاً أو كلا مع عدم سبق ذكره لأنه باعتبار كونه بصدد الذكر صار فى حكم الحاضر المشاهد ، كما يقال هذا ما اشترى فلان .

وإما على أنه مبتدأ ، أى المسمى به والأول هو الأظهر ، لأن ما يجعل عنوان الموضوع حقه أن يكون قبل ذلك معلوم الانتساب إليه عند المخاطب وإذ لا علم بالتسمية قبل لحقها الإخبار بها وادعاء شهرتها يأباه التردد فى أن المسمى هى السورة أو كل القرآن .

﴿ ذلك ﴾ ذا اسم إشارة واللام كناية عما جىء به للدلالة على بعد المشار إليه ، والكاف للخطاب ، والمشار إليه هو المسمى ، فإنه منزل منزلة المشاهد بالحس البصرى ، وما فيه من معنى البعد ، مع قرب العهد بالمشار إليه ، للإيذان

بعلو شأنه ، وكونه فى الغاية القاصية من الفضل والشرف ، إثر تنويهه بذكر اسمه ، وما قيل من أنه باعتبار التقضى أو باعتبار الوصول من المرسل إلى المرسل إليه فى حكم المتباعد ، وإن كان مصححا لإيراده ، لكنه بمعزل من ترجيحه على إيراد ما وضع للإشارة إلى القريب ، وتذكيره على تقدير كون المسمى هى السورة ، لأن المشار إليه هو المسمى بالاسم المذكور من حيث هو مسمى به ، لامن حيث هو مسمى بالسورة ، ولئن ادعى اعتبار الحيثية الثانية فى الأول بناء على أن التسمية لتمييز السور بعضها من بعض ، فذلك لتذكير ما بعده ، وهو على الوجه الأول مبتدأ على حدة ، وعلى الوجه الثانى مبتدأ ثان .

وقوله عز وعلا (الكتاب) إما خبر له ، أوصفة ، أما إذا كان خبرا له فالجملة على الوجه الأول مستأنفة مؤكدة ، لما أفادته الجملة الأولى من نباهة شأن المسمى ، لامحل لها من الإعراب ، وعلى الوجه الثانى فى محل الرفع على أنها خبر للمبتدأ الأول . واسم الإشارة مغن عن الضمير الرابط ، والكتاب إما مصدر سمى به المفعول مبالغة كالخلق والتصوير للمخلوق والمصور ، وإما فعل بنى للمفعول كاللباس ، من الكتاب الذى هو ضم الحروف بعضها إلى بعض وأصله الجمع والضم فى الأمور البادية للحس البصرى ، ومنه الكتيبة للعسكر ، كما أن أصل القراءة الجمع والضم فى الأشياء الخافية عليه ، وإطلاق الكتاب على المنظوم عبارة لما أن مآله الكتابة ، والمراد به على تقدير كون المسمى هى السورة جميع القرآن الكريم ، وإن لم يتم نزوله نزول السورة إما باعتبار تحققه فى علم الله عز وجل ، أو باعتبار ثبوته فى اللوح ، أو باعتبار نزوله جملة إلى السماء الدنيا ، حسبما ذكر فى فاتحة الكتاب المعهود ، الغنى عن الوصف بالكمال لاشتهاره به فيما بين الكتب على طريقة قوله عليه السلام : « الحج عرفة » ، وعلى تقدير كون المسمى كل القرآن .

فالمراد بالكتاب الجنس ، واللام للحقيقة ، والمعنى أن ذلك هو الكتاب الكامل الحقيق بأن يخص به اسم الكتاب لتفوقه على بقية الأفراد فى

حيازة كمالات الجنس ، كأن ماعداه من الكتب السماوية خارج منه بالنسبة إليه كما يقال هو الرجل ، أى الكامل فى الرجولية الجامع لما يكون فى الرجال من مراضى الخصال ، وعليه قول من قول :

* هم القوم كل القوم يا أم خالد *

فالمدح كما ترى من جهة حصر كمال الجنس فى فرد من أفراده ، وفى الصورة الأولى من جهة حصر كمال الكل فى الجزء ، ولا مساغ هناك لحمل الكتاب على الجنس ، لما أن فرده المعهود هو مجموع القرآن المقابل لسائر أفراده من الكتب السماوية ، لا بعضه الذى ينطلق عليه اسم الكتاب باعتبار كونه جزءا لهذا الفرد ، لا باعتبار كونه جزئيا للجنس على حياله ، ولأن حصر الكمال فى السورة مشعر بنقصان سائر السور ، وإن لم يكن الحصر بالنسبة إليها لتحقق المغايرة بينهما ، هذا على تقدير كون الكتاب خبرا لذلك ، وأما إذا كان صفة له فذلك الكتاب على تقدير كون ألم خبر مبتدأ محذوف ، إما خبر ثان أو بدل من الخبر الأول ، أو مبتدأ مستقل خبره ما بعده ، وعلى تقدير كونه مبتدأ إما خبر له ، أو مبتدأ ثان خبره ما بعده ، والجملة خبر للمبتدأ الأول ، والمشار إليه على كلا التقديرين هو المسمى ، سواء كان هى السورة أو القرآن ، ومعنى البعد ما ذكر من الإشعار بعلو شأنه ، والمعنى ذلك الكتاب العجيب الشأن ، البالغ أقصى مراتب الكمال .

وقيل المشار إليه هو الكتاب الموعود ، فمعنى البعد حينئذ ظاهر ، خلا أنه إن كان المسمى هى السورة ينبغى أن يراد بالوعد ما فى قوله تعالى : (إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا) كما قيل ، وإن كان هو القرآن فهو ما فى التوراة والإنجيل ، هذا على تقدير كون (الم) اسما للسورة أو القرآن ، وأما على تقدير كونها مسرودة على نمط التعديد فذلك مبتدأ ، والكتاب إما خبره أو صفته ، والخبر ما بعده على نحو ما سلف ، أو يقدر مبتدأ ، أى المؤلف من هذه الحروف ذلك الكتاب ، وقرىء (الم تنزيل الكتاب) .

وقوله تعالى : ﴿ لاريب فيه ﴾ إما فى محل الرفع على أنه خبر لذلك

الكتاب على الصور الثلاث المذكورة ، أو على أنه خبر ثان لألف لام ميم أو لذلك على تقدير كون الكتاب خبره ، أو للمبتدأ المقدر آخرا على رأى من يجوز كون الخبر الثانى جملة ، كما فى قوله تعالى : (فإذا هى حية تسعى) وإما فى محل النصب على الحالية من ذلك ، أو من الكتاب ، والعامل معنى الإشارة ، وإما جملة مستأنفة لامحل لها من الإعراب مؤكدة لما قبلها ، وكلمة لا نافية للجنس مفيدة للاستغراق ، عاملة عمل إن بحملها عليها ، لكونها نقيضا لها ، ولازمة للاسم لزومها ، واسمها مبنى على الفتح لكونه مفردا نكرة لامضافا ولا شبيها به ، وأما ما ذكره الزجاج من أنه معرب وإنما حذف التنوين للتخفيف فمما لا تعويل عليه ، وسبب بنائه تضمنه لمعنى من الاستغراقية لأنه مركب معها تركيب خمسة عشر كما توهم ، وخبرها محذوف ، أى لاريب موجود أو نحوه ، كما فى قوله تعالى : (لا عاصم اليوم من أمر الله) والظرف صفة لاسمها ، ومعناه نفى الكون المطلق وسلبه عن الريب المفروض فى الكتاب ، أو الخبر هو الظرف ، ومعناه سلب الكون فيه عن الريب المطلق وقد جعل الخبر المحذوف ظرفا ، وجعل المذكور خبرا لما بعده .

وقرىء لاريب فيه على أن لا بمعنى ليس ، والفرق بينه وبين الأول أن ذلك موجب للاستغراق ، وهذا مجوز له ، والريب فى الأصل مصدر رابنى إذا حصل فيك الريبة ، وحقيقتها قلق النفس واضطرابها ، ثم استعمل فى معنى الشك مطلقا ، أو مع تهمة ، لأنه يقلق النفس ويزيل الطمأنينة ، وفى الحديث « دع ما يريبك إلى مالا يريبك » . ومعنى نفيه عن الكتاب أنه فى علو الشأن وسطوع البرهان بحيث ليس فيه مظنة أن يرتاب فى حقيته ، وكونه وحيا منزلا من عند الله تعالى ، لا أنه لايرتاب فيه أحد أصلا ، ألا ترى كيف جوز ذلك فى قوله تعالى : (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا) الخ . فإنه فى قوة أن يقال : وإن كان لكم ريب فيما نزلنا ، أو إن ارتبتم فيما نزلنا ، الخ إلا أنه خولف فى الأسلوب حيث فرض كونهم فى الريب لا كون الريب فيه لزيادة تنزيه ساحة التنزيل عنه ، مع نوع إشعار بأن ذلك من جهتهم ، لا من جهته.

العالية ، ولم يقصد ههنا ذلك الإشعار ، كما لم يقصد الإشعار بثبوت الريب فى سائر الكتب ، ليقتضى المقام تقديم الظرف ، كما فى قوله تعالى : (لا فيها غول) .

الهدى والضلال

﴿ هدى ﴾ مصدر من هداه كالسرى والبكا ، وهو الدلالة بلطف على ما يوصل إلى البغية ، أى ما من شأنه ذلك ، وقيل : هى الدلالة الموصلة إليها ، بدليل وقوع الضلالة فى مقابلته ، فى قوله تعالى : (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) وقوله تعالى : (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) ولا شك فى أن عدم الوصول معتبر فى مفهوم الضلال ، فيعتبر الوصول فى مفهوم مقابله ، ومن ضرورة اعتباره فيه اعتباره فى مفهوم الهدى المتعدى ، إذ لا فرق بينهما إلا من حيث التأثير ، والتأثر ، ومحصله أن الهدى المتعدى هو التوجيه الموصل ، لأن اللازم هو التوجه الموصل ، بدليل أن مقابله الذى هو الضلال توجه غير موصل قطعا ، وهذا كما ترى مبنى على أمرين اعتبار الوصول وجوبا فى مفهوم اللازم ، واعتبار وجود اللازم وجوبا فى مفهوم المتعدى ، وكلا الأمرين بمعزل من الثبوت ، أما الأول فلأن مدار التقابل بين الهدى والضلال ليس هو الوصول وعدمه على الاطلاق ، بل هما معتبران فى مفهوميهما على وجه مخصوص به ، ليتحقق التقابل بينهما .

وتوضيحه أن الهدى لا بد فيه من اعتبار توجه عن علم إلى ما من شأنه الإيصال إلى البغية ، كما أن الضلال لا بد فيه من اعتبار الجور عن القصد إلى ما ليس من شأنه الإيصال قطعا ، وهذه المرتبة من الاعتبار مسلمة بين الفريقين ، ومحققة للتقابل بينهما ، وإنما النزاع فى أن إمكان الوصول إلى البغية هل هو كاف فى تحصيل مفهوم الهدى ، أو لا بد فيه من خروج الوصول من القوة إلى الفعل ، كما أن عدم الوصول بالفعل معتبر فى مفهوم الضلال قطعا .

إذا تقرر هذا فنقول إن أريد باعتبار الوصول بالفعل فى مفهوم الهدى اعتباره مقارناله فى الوجود زمانا حسب اعتبار عدمه فى مفهوم مقابله فذلك بين البطلان ، لأن الوصول غاية للتوجه المذكور ، فينتهى به قطعا ، لاستحالة التوجه إلى تحصيل الحاصل ، وما يبقى بعد ذلك فهو إما توجه إلى الثبات عليه ، وإما توجه إلى زيادته ، ولأن التوجه إلى المقصد تدريجى ، والوصول إليه دفعى ، فيستحيل اجتماعهما فى الوجود ضرورة ، وأما عدم الوصول فحيث كان أمرا مستمرا مثل ما يقتضيه من الضلال وجب مقارنته له فى جميع أزمنة وجوده . إذ لو فارقه فى آن من آنات تلك الأزمنة لقارنه فى ذلك الآن مقابله الذى هو الوصول ، فما فرضناه ضلالا لا يكون ضلالا ، وإن أريد اعتباره من حيث أنه غاية له واجبة الترتب عليه لزم أن يكون التوجه المقارن لغاية الجد فى السلوك إلى ما من شأنه الوصول عند تخلفه عنه لمانع خارجى كاخترام المنية مثلا من غير تقصير ولا جور من قبل المتوجه ، ولا خلل من جهة المسلك ضلالا ، إذ لا واسطة بينهما ، مع أنه لا جور فيه عن القصد أصلا ، فبطل اعتبار وجوب الوصول فى مفهوم اللازم قطعا ، وتبين منه عدم اعتباره فى مفهوم المتعدى حتما ، وأما اعتبار وجود اللازم فيه وجوبا وهو الأمر الثانى ، فبيانه مبنى على تمهيد أصل . وهو أن فعل الفاعل حقيقة هو الذى يصدر عنه ويتم من قبله ، لكن لما لم يكن له فى تحققه فى نفسه بد من تعلقه بمفعوله اعتبر ذلك فى مدلول اسمه قطعا ، ثم لما كان له باعتبار كيفية صدوره عن فاعله ، وكيفية تعلقه بمفعوله ، وغير ذلك آثار شتى مترتبة عليه متمايزة فى أنفسها ، مستقلة بأحكام مقتضية لإفرادها بأسماء خاصة ، وعرض له بالقياس إلى كل أثر من تلك الآثار إضافة خاصة ممتازة عما عداها من الإضافات العارضة له بالقياس إلى سائرها ، وكانت الآثار تابعة له فى التحقق غير منفكة عنه أصلا إذ لا مؤثر لها سوى فاعله عدت من متمماته ، واعتبرت الإضافة العارضة له بحسبها داخلة فى مدلوله كالاعتماد المتعلق بالجسم مثلا ، وضع له باعتبار الإضافة العارضة له من انكسار ذلك الجسم الذى هو أثر خاص لذلك الاعتماد اسم

الكسر ، وباعتبار الإضافة العارضة له من انقطاعه الذى هو أثر آخر له اسم القطع ، إلى غير ذلك من الإضافات العارضة له بالقياس إلى آثاره اللازمة له وهذا أمر مطرد فى آثاره الطبيعية .

وأما الآثار التى له مدخل فى وجودها فى الجملة من غير إيجاب لها تترتب عليه تارة وتفارقه أخرى ، بحسب وجود أسبابها الموجبة لها وعدمها ، كالآثار الاختيارية الصادرة عن مؤثراتها بواسطة كونه داعيا إليها فحيث كانت تلك الآثار مستقلة فى أنفسها مستندة إلى مؤثراتها غير لازمة له لزوم الآثار الطبيعية التابعة له لم تعد من متمماته ، ولم تعتبر الإضافة العارضة له بحسبها داخلة فى مدلوله كالإضافة العارضة للأمر بحسب امتثال المأمور والإضافة العارضة للدعوة بحسب إجابة المدعو ، فإن الامتثال والإجابة وإن عدا من آثار الأمر والدعوة باعتبار ترتبهما عليهما غالبا ، لكنهما حيث كانا فعلين اختياريين للمأمور والمدعو مستقلين فى أنفسهما غير لازمين للأمر والدعوة ، لم يعدا من متمماتهما ولم تعتبر الإضافة العارضة لهما بحسبهما داخلة فى مدلول اسم الأمر والدعوة بل جعلا عبارة عن نفس الطلب المتعلق بالمأمور والمدعو سواء وجد الامتثال والإجابة أو لا . إذا تمهد هذا فنقول كما أن الامتثال والإجابة فعلان مستقلان فى أنفسهما صادران عن المدعو والمأمور باختيارهما غير لازمين للأمر والدعوة لزوم الآثار الطبيعية التابعة للأفعال الموجبة لها ، وإن كانا مترتبين عليهما فى الجملة ، كذلك هدى المهدى أى توجهه إلى ما ذكر من المسلك فعل مستقل له صادر عنه باختياره ، غير لازم للهداية ، أعنى التوجيه إليه لزوم ما ذكر من الآثار الطبيعية ، وإن كان مترتبا عليها فى الجملة ، فلما لم يعدا من متممات الأمر والدعوة ولم يعتبر الإضافة العارضة لهما بحسبهما داخلة فى مدلولها علم أنه لم يعد الهدى اللازم من متممات الهداية ، ولم يعتبر الإضافة العارضة لها بحسبه داخلة فى مدلولها ، إن قيل ليس الهدى بالنسبة إلى الهداية كالامتثال والإجابة بالقياس إلى أصليهما ، فإن تعلق الأمر والدعوة بالمأمور والمدعو لا يقتضى

إلا اتصافهما بكونهما مأمورا ومدعوا ، وليس من ضرورته اتصافهما بالامتثال والإجابة ، إذ لاتلازم بينهما وبين الأولين أصلا ، بخلاف الهدى بالنسبة إلى الهداية ، فإن تعلقها بالمهدى يقتضى اتصافه به ، لأن تعلق الفعل المتعدى المبنى للفاعل بمفعوله يدل على اتصافه بمصدره المأخوذ من المبنى للمفعول قطعاً ، وهو مستلزم لاتصافه بمصدر الفعل اللازم ، وهل هو الاعتبار وجود اللازم فى مدلول المتعدى حتما ؟ قلنا كما أن تعلق الأمر والدعوة بالمأمور والمدعو لا يستدعى إلا اتصافهما بما ذكر من غير تعرض للامتثال والإجابة إيجابا وسلبا ، كذلك تعلق الهداية التى هى عبارة عن الدلالة المذكورة بالمهدى لايستدعى إلا اتصافه بالمدلولية ، التى هى عبارة عن المصدر المأخوذ من المبنى للمفعول ، من غير تعرض لقبول تلك الدلالة ، كما هو معنى الهدى اللازم ، ولا لعدم قبوله ، بل الهداية عين الدعوة إلى طريق الحق ، والاهتداء عين الإجابة ، فكيف يؤخذ فى مدلولها ، واستلزام الاتصاف بمصدر الفعل المتعدى المبنى للمفعول للاتصاف بمصدر الفعل اللازم مطلقا إنما هو فى الأفعال الطبيعية كالمكسورية والانكسار ، والمقطوعية والانقطاع ، وأما الأفعال الاختيارية فليست كذلك كما حققته فيما سلف .

وإن قيل : التعلم من قبيل الأفعال الاختيارية مع أنه معتبر فى مدلول التعليم قطعا ، فليكن الهدى مع الهداية كذلك ، قلنا : ليس ذلك لكونه فعلا اختياريا على الاطلاق ، ولا لكون التعليم عبارة عن تحصيل العلم للمتعلم ، كما قيل ، فإن المعلم ليس بمستقل فى ذلك ، ففى إسناده إليه ضرب تجوز ، بل لأن كلاهما مفتقر فى تحصله إلى الآخر ، فإن التعليم عبارة عن إلقاء المبادىء العلمية على المتعلم وسوقها إلى ذهنه شيئاً فشيئاً على ترتيب يقتضيه الحال ، بحيث لا يساق إليه بعض منها إلا بعد تلقيه لبعض آخر ، فكل منهما متمم للآخر ؛ معتبر فى مدلوله . وأما الهدى الذى هو عبارة عن التوجه المذكور ففعل اختيارى يستقل به فاعله لا دخل للهداية فيه سوى كونها داعية إلى إيجاده باختياره ، فلم يكن من متمماتها ولامعتبرا فى مدلولها .

إن قيل : التعليم نوع من أنواع الهداية ، والتعلم نوع من أنواع الاهتداء فيكون اعتباره فى مدلول التعليم اعتبارا للهدى فى مدلول الهداية ، قلنا إطلاق الهداية على التعليم إنما هو عند وضوح المسلك ، واستبداد المتعلم بسلوكه من غير دخل للتعليم فيه ، سوى كونه داعيا إليه ، وقد عرفت جلية الأمر على ذلك التقدير ، إن قيل : أليس تخلف الهدى عن الهداية كتخلف التعلم عن التعليم ، بحيث لم يكن ذلك تعليما فى الحقيقة فلتكن الهداية أيضا كذلك ، وليحمل تسمية مالا يستتبع الهدى بها على التجوز ، قلنا : شتان بين التخلفين ، فإن تخلف التعلم عن التعليم يكون لقصور فيه ، كما أن تخلف الانكسار عن الضرب الضعيف لذلك .

وأما تخلف الهدى عن الهداية فليس لشائبة قصور من جهتها ، بل إنما هو لفقد سببه الموجب له من جهة المهدى ، بعد تكامل ما يتم من قبل الهادى .

وبهذا التحرير اتضح طريق الهداية ، وتبين أنها عبارة عن مطلق الدلالة على ما من شأنه الايصال إلى البغية بتعريف معالمه وتبيين مسالكه ، من غير أن يشترط فى مدلولها الوصول ولا القبول ، وإن الدلالة المقارنة لهما أو لأحدهما والمفارقة عنهما ، كل ذلك مع قطع النظر عن قيد المقارنة وعدمها أفراد حقيقية لها ، وأن ما فى قوله تعالى : (إنك لاتهدى من أحببت) وقوله تعالى : (ولو شاء لهداكم) ونحو ذلك مما اعتبر فيه الوصول من قبيل المجاز ، وانكشف أن الدلالات التكوينية المنصوبة فى الأنفس والآفاق والبيانات التشريعية الواردة فى الكتب السماوية على الإطلاق بالنسبة إلى كافة البرية برها وفاجرها هدايات حقيقية ، فائضة من عند الله سبحانه ، والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

﴿ للمتقين ﴾ أى أى المتصفين بالتقوى حالا أو مآلا ، وتخصيص الهدى بهم لما أنهم المقتبسون من أنواره المنتفعون بآثاره ، وإن كان ذلك شاملا

لكل ناظر ، من مؤمن وكافر ، وبذلك الاعتبار قال الله (هدى للناس) والمتقى اسم فاعل من باب الافتعال من الوقاية وهى فرط الصيانة .

معانى التقوى ومراتبها

والتقوى فى عرف الشرع عبارة عن كمال التوقى عما يضره فى الآخرة قال عليه السلام : « جماع التقوى فى قوله تعالى : إن الله يأمر بالعدل والإحسان » الآية ، وعن عمر بن عبد العزيز أنه ترك ما حرم الله ، وأداء مافرض الله ، وعن شهر بن حوشب : المتقى من يترك مالا بأس به حذرا من الوقوع فيما فيه بأس ، وعن أبى يزيد : أن التقوى هو التورع عن كل ما فيه شبهة ، وعن محمد بن حنيف : أنها مجانبة كل ما يبعدك عن الله تعالى ، وعن سهل المتقى من تبرأ عن حوله ، وقدرته . وقيل التقوى : ألا يراك الله حيث نهاك ، ولا يفقدك حيث أمرك . وعن ميمون بن مهران : لا يكون الرجل تقيا حتى يكون أشد محاسبة لنفسه من الشريك الشحيح والسلطان الجائر ، وعن أبى تراب : بين يدى التقوى خمس عقبات لا ينالها من لايجاوزهن : إيثار الشدة على النعمة ، وإيثار الضعف على القوة ، وإيثار الذل على العزة ، وإيثار الجهد على الراحة ، وإيثار الموت على الحياة ، وعن بعض الحكماء أنه لايبلغ الرجل سنام التقوى إلا أن يكون بحيث لوجعل ما فى قلبه فى طبق فطيف به فى السوق لم يستحى ممن ينظر إليه : وقيل : التقوى أن تزين ، سرك للحق ، كما تزين علانيتك للخلق .

والتحقيق أن للتقوى ثلاث مراتب : الأولى : التوقى عن العذاب المخلد بالتبرؤ عن الكفر ، وعليه قوله تعالى (وألزمهم التقوى) كلمة الثانية التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك ، حتى الصغائر عند قوم ، وهو المتعارف بالتقوى فى الشرع ، وهو المعنى بقوله تعالى (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا) والثالثة أن يتنزه عن كل ما يشغل سره عن الحق عز وجل ، ويتبتل إليه بكليته ، وهى

التقوى الحقيقية المأمور بها فى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته) ولهذه المرتبة عرض عريض يتفاوت فيه طبقات أصحابها حسب تفاوت درجات استعداداتهم الفائضة عليهم بموجب المشيئة الإلهية ، المبنية على الحكم الأبية ، أقصاها ما انتهى إليه همم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، حيث جمعوا بذلك بين رياستى النبوة والولاية ، وما عاقهم التعلق بعالم الأشباح عن العروج إلى معالم الأرواح ، ولم تصدهم الملابسة بمصالح الخلق عن الاستغراق فى شئون الحق ، لكمال استعداد نفوسهم الزكية المؤيدة بالقوة القدسية ، وهداية الكتاب المبين شاملة لأرباب هذه المراتب أجمعين ، فإن أريد بكونه هدى للمتقين إرشاده إياهم إلى تحصيل المرتبة الأولى ونيلها ، فالمراد بهم المشارفون للتقوى مجازا ، لاستحالة تحصيل الحاصل ، وإيثاره على العبارة المعربة عن ذلك للإيجاز ، وتصدير السورة الكريمة بذكر أوليائه تعالى وتفخيم شأنهم وإن أريد به إرشاده إلى تحصيل إحدى المرتبتين الأخيرتين ، فإن عنى بالمتقين أصحاب الطبقة الأولى تعينت الحقيقة ، وإن عنى بهم أصحاب إحدى الطبقتين الأخيرتين تعين المجاز ، لأن الوصول إليهما إنما يتحقق بهدايته المترقبة ، وكذا الحال فيما بين المرتبة الثانية والثالثة ، فإنه إن أريد بالهدى الإرشاد إلى تحصيل المرتبة الثالثة ، فإن عنى بالمتقين أصحاب المرتبة الثانية تعينت الحقيقة ، وإن عنى بهم أصحاب المرتبة الثالثة تعين المجاز ، ولفظ الهداية حقيقة فى جميع الصور ، وأما إن أريد بكونه هدى لهم تثبيتهم على ماهم عليه أو إرشادهم إلى الزيادة فيه على أن يكون مفهومها داخلا فى المعنى المستعمل فيه فهو مجاز لامحالة ، ولفظ المتقين حقيقة على كل حال واللام متعلقة بهدى أو بمحذوف وقع صفة له ، أو حالا منه ، ومحل هدى الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى هو هدى ، أو خبر مع لاريب فيه لذلك الكتاب ، أو مبتدأ خبره الظرف المقدم ، كما أشير إليه ، أو النصب على الحالية من ذلك ، أو من الكتاب ، والعامل معنى الإشارة ، أو من الضمير فى فيه ، والعامل ما فى الجار والمجرور من معنى

الفعل المنفى ، كأنه قيل : لم يحصل فيه الريب حال كونه هاديا ، على أنه قيد للنفى لا للمنفى ، وحاصله انتفاء الريب فيه حال كونه هاديا ، وتنكيره للتفخيم وحمله على الكتاب إما للمبالغة ، كأنه نفس الهدى ، أو لجعل المصدر بمعنى الفاعل ، هذا والذى يستدعيه جزالة التنزيل فى شأن ترتيب هذه الجمل أن تكون متناسقة تقرر اللاحقة منها السابقة ، ولذلك لم يتخلل بينها عاطف ، (فألم) جملة برأسها على أنها خبر لمبتدأ مضمر ، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها دالة على أن المتحدى به هو المؤلف من جنس ما يؤلفون منه كلامهم ، وذلك الكتاب جملة ثانية مقررة لجهة التحدى لما دلت عليه من كونه منعوتا بالكمال الفائق ، ثم سجل على غاية فضله بنفى الريب فيه ، إذ لافضل أعلى مما للحق ، واليقين ، وهدى للمتقين مع ما يقدر له من المبتدأ جملة مؤكدة لكونه حقا لا يحوم حوله شائبة شك ما ، ودالة على تكميله بعد كماله ، أو يستتبع السابقة منها اللاحقة استتباع الدليل للمدلول ، فإنه لما نبه أولا على إعجاز المتحدى به من حيث أنه من جنس كلامهم ، وقد عجزوا عن معارضته بالمرة ، ظهر أنه الكتاب البالغ أقصى مراتب الكمال ، وذلك مستلزم لكونه فى غاية النزاهة عن مظنة الريب ، إذ لا أنقص مما يعتريه الشك ، وما كان كذلك كان لا محالة هدى للمتقين ، وفى كل منها من النكت الرائقة والمزايا الفائقة مالا يخفى جلالة شأنه حسبما تحققته .

﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ إما موصول بالمتقين ، ومحله الجر على أنه صفة مقيدة له إن فسر التقوى بترك المعاصى فقط ، مترتبة عليه ترتب التحلية على التخلية ، وموضحة إن فسر بما هو المتعارف شرعا والمتبادر عرفا ، من فعل الطاعات وترك السيئات معا ، لأنها حينئذ تكون تفصيلا لما انطوى عليه اسم الموصوف إجمالا ، وذلك لأنها مشتملة على ما هو عماد الأعمال وأساس الحسنات ، من الإيمان والصلاة والصدقة ، فإنها أمهات الأعمال النفسانية والعبادات البدنية والمالية المستتبعة لسائر القرب الداعية إلى التجنب

عن المعاصى غالبا ألا ترى إلى قوله تعالى : (إن الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وقوله عليه السلام . « الصلاة عماد الدين والزكاة قنطرة الإسلام» أو مادحة للموصوفين بالتقوى المفسر بما مر من فعل الطاعات وترك السيئات وتخصيص ما ذكر من الخصال الثلاث بالذكر لإظهار شرفها وإنافتها على سائر ما انطوى تحت اسم التقوى من الحسنات ، أو النصب على المدح بتقدير أعنى أو الرفع عليه بتقديرهم ، وإما مفصول عنه مرفوع بالابتداء خبره الجملة المصدرة باسم الإشارة كما سيأتى بيانه ، فالوقف على المتقين حينئذ وقف تام لأنه وقف على مستقل ما بعده أيضا مستقل ، وأما على الوجه الأول فحسن لاستقلال الموقوف عليه غير تام لتعلق ما بعده به وتبعيته له ، أما على تقدير الجر على الوصفية فظاهر ، وأما على تقدير النصب أو الرفع على المدح فلما تقرر من ان المنصوب والمرفوع مدحا وإن خرجا عن التبعية لما قبلهما صورة حيث لم يتبعاه فى الإعراب ، وبذلك سميا قطعا لكنهما تابعان له حقيقة ، ألا ترى كيف التزموا حذف الفعل والمبتدأ فى النصب والرفع روما لتصوير كل منهما بصورة متعلق من متعلقات ما قبله وتنبيها على شدة الاتصال بينهما ، قال أبو على : إذا ذكرت صفات للمدح وخولف فى بعضها الإعراب فقد خولف للافتنان ، أى للتفنن الموجب لإيقاظ السامع وتحريكه إلى الجد فى الإصغاء ، فإن تغيير الكلام المسوق لمعنى من المعانى وصرفه عن سننه المسلوك ينبىء عن اهتمام جديد بشأنه من المتكلم ، ويستجلب مزيد رغبة فيه من المخاطب .

إن قيل : لاريب فى أن حال الموصول عند كونه خبرا لمبتدأ محذوف كحاله عند كونه مبتدأ خبره أولئك على هدى فى أنه ينسبك به جملة اسمية مفيدة ، لاتصاف المتقين بالصفات الفاضلة ، ضرورة أن كلا من الضمير المحذوف والموصول عبارة عن المتقين . وأن كلا من اتصافهم بالإيمان وفروعه ، وإحرازهم للهدى والفلاح من النعوت الجليلة ، فما السر فى أنه

جعل ذلك فى الصورة الأولى من توابع المتقين ، وعد الوقف غير تام ، وفى الثانية مقتطعا عنه ، وعد الوقف تاما ، قلنا : السر فى ذلك أن المبتدأ فى الصورتين وإن كان عبارة عن المتقين ، لكن الخبر فى الأولى لما كان تفصيلا لما تضمنه المبتدأ إجمالا حسبما تحققته معلوم الثبوت له بلا اشتباه ، غير مفيد للسامع سوى فائدة التفصيل والتوضيح ، نظم ذلك فى سلك الصفات مراعاة لجانب المعنى ، وإن سمى قطعاً مراعاة لجانب اللفظ ، كيف لا وقد اشتهر فى الفن أن الخبر إذا كان معلوم الانتساب إلى المخبر عنه فحقه أن يكون وصفا له ، كما أن الوصف إذا لم يكن معلوم الانتساب إلى الموصوف حقه أن يكون خبرا له ، حتى قالوا إن الصفات قبل العلم بها أخبار ، والأخبار بعد العلم بها صفات . وأما الخبر فى الثانية فحيث لم يكن كذلك بل كان مشتملا على مالا ينبيء عنه المبتدأ من المعانى اللائقة كما ستحيط به خبرا مفيدا للمخاطب فوائد رائقة ، جعل ذلك مقتطعا عما قبله محافظة على الصورة والمعنى جميعاً .

الإيمان

والإيمان إفعال من الأمن المتعدى إلى واحد ، يقال آمنته ، وبالنقل تعدى إلى اثنين ، يقال آمننيه غيرى ، ثم استعمل فى التصديق ، لأن المصدق يؤمن المصدق ، أى يجعله أمينا من التكذيب والمخالفة ، واستعماله بالباء لتضمينه معنى الاعتراف ، وقد يطلق على الوثوق . فإن الواثق يصير ذا أمن وطمأنينة ، ومنه ما حكى عن العرب ما أمنت أن أجد صحابة ، أى ماصرت ذا أمن وسكون ، وكلا الوجهين حسن هنا وهو فى الشرع لايتحقق بدون التصديق بما علم ضرورة أنه من دين نبينا عليه الصلاة والسلام ، كالتوحيد والنبوة والبعث والجزاء ونظائرها ، وهل هو كاف فى ذلك أولابد من انضمام الإقرار إليه للتمكن منه ؟

والأول : رأى الشيخ الأشعرى ومن شايعه ، فإن الإقرار عنده منشأ

لإجراء الأحكام ، والثانى مذهب أبى حنيفة ومن تابعه وهو الحق ، فإنه جعلهما جزأين له ، خلا أن الإقرار ركن محتمل للسقوط بعذر ، كما عند الإكراه ، وهو مجموع ثلاثة أمور : اعتقاد الحق ، والإقرار به ، والعمل بموجبه عند جمهور المحدثين والمعتزلة والخوارج ، فمن أخل بالاعتقاد وحده فهو منافق ، ومن أخل بالاقرار فهو كافر ، ومن أخل بالعمل فهو فاسق اتفاقا وكافر عند الخوارج ، وخارج عن الإيمان غير داخل فى الكفر عند المعتزلة .

وقرىء يومنون بغير همزة ، والغيب إما مصدر وصف به الغائب مبالغة كالشهادة فى قوله تعالى : (عالم الغيب والشهادة) أو فعيل خفف كقتل فى قتيل وهين فى هين ، وميت فى ميت ، لكن لم يستعمل فيه الأصل كما استعمل فى نظائره . وأياما كان فهو ما غاب عن الحس والعقل غيبة كاملة ، بحيث لايدرك بواحد منهما ابتداء بطريق البداهة ، وهو قسمان : قسم لا دليل عليه ، وهو الذى أريد بقوله سبحانه : (وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو) وقسم نصب عليه دليل كالصانع وصفاته ، والنبوات ومايتعلق بها من الأحكام والشرائع ، واليوم الآخر وأحواله من البعث والنشور والحساب والجزاء ، وهو المراد ههنا ، فالباء صلة للإيمان ، إما بتضمينه معنى الاعتراف ، أو بجعله مجازا من الوثوق ، وهو واقع موقع المفعول به ، وإما مصدر على حاله كالغيبة فالباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من الفاعل كما فى قوله تعالى : (الذين يخشون ربهم بالغيب) وقوله تعالى : (ليعلم أنى لم أخنه بالغيب) أى يؤمنون ملتبسين بالغيبة ، إما عن المؤمن به ، أى غائبين عن النبى صلى الله عليه وسلم غير مشاهدين لما فيه من شواهد النبوة ، لما روى أن أصحاب ابن مسعود رضى الله عنه ، ذكروا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإيمانهم فقال رضى الله عنه : إن أمر محمد عليه الصلاة والسلام كان بينا لمن رآه ، والذى لا إله غيره ما آمن مؤمن أفضل من الإيمان بغيب ، ثم تلا هذه الآية . وإما عن الناس أى غائبين عن المؤمنين ، لا كالمنافقين الذين إذ لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم .

وقيل المراد بالغيب القلب ، لأنه مستور ، والمعنى يؤمنون بقلوبهم لا كالذين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، فالباء حينئذ للآلة ، وترك ذكر المؤمن به على التقادير الثلاثة إما للقصد إلى إحداث نفس الفعل كما فى قولهم فلان يعطى ويمنع ، أى يفعلون الإيمان ، وإما للاكتفاء بما سيجىء ، فإن الكتب الإلهية ناطقة بتفاصيل مايجب الإيمان به .

﴿ ويقيمون الصلاة ﴾ إقامتها عبارة عن تعديل أركانها ، وحفظها من أن يقع فى شىء من فرائضها وسننها وآدابها زيغ ، من إقامة العود إذا قومه وعدله . وقيل عن المواظبة عليها ، مأخوذ من قامت السوق إذا نفقت ، وأقمتها إذا جعلتها نافقة ، فإنها إذا حوفظ عليها كانت كالنافق الذى يرغب فيه ، وقيل عن التشمر لأدائها عن غير فتور ولا توان من قولهم قام بالأمر وأقامه إذا جد فيه واجتهد وقيل عن أدائها ، عبر عنه بالإقامة لاشتماله على القيام كما عبر عنه بالقنوت الذى هو القيام وبالركوع والسجود والتسبيح ، والأول هو الأظهر ، لأنه أشهر ، وإلى الحقيقة أقرب ، والصلاة فعلة من صلى إذا دعا ، كالزكاة من زكى ، وإنما كتبتا بالواو مراعاة اللفظ المفخم ، وإنما سمى الفعل المخصوص بها لاشتماله على الدعاء ، وقيل أصل صلى حرك الصلوين ، وهما العظمان الناتئان فى أعلى الفخذين ، لأن المصلى يفعله فى ركوعه وسجوده. واشتهار اللفظ فى المعنى الثانى دون الأول لا يقدح فى نقله عنه ، وإنما سمى الداعى مصليا تشبيها له فى تخشعه بالراكع والساجد (١).

﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ والرزق فى اللغة العطاء ، ويطلق على الحظ المعطى ، نحو ذبح ورعى للمذبوح والمرعى . وقيل : هو بالفتح مصدر ، وبالكسر اسم ، وفى العرف ما ينتفع به الحيوان .

---

(١) انظر بحثا فى معنى الصلاة لغة فى (القول البديع) للحافظ السخاوى .

هل يدخل الحرام فى الرزق ؟

والمعتزلة لما أحالوا تمكين الله تعالى من الحرام لأنه منع من الانتفاع به وأمر بالزجر عنه قالوا الرزق لا يتناول الحرام ، ألا ترى أنه تعالى أسند الرزق إلى ذاته إيذانا بأنهم ينفقون من الحلال والصرف ، فإن إنفاق الحرام بمعزل من إيجاب المدح ، وذم المشركين على تحريم بعض ما رزقهم الله تعالى بقوله (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا) جعلوا الإسناد المذكور للتعظيم والتحريض على الإنفاق ، والذم لتحريم مالم يحرم ، واختصاص ما رزقناهم بالحلال للقرينة ، وتمسكوا لشمول الرزق لهما بما روى عنه عليه السلام فى حديث عمرو بن قرة حين أتاه فقال : يا رسول الله ، إن الله كتب على الشقوة ، فلا أرى أرزق إلا من دفى بكفى ، فأذن لى فى الغناء من غير فاحشة ، من أنه قال عليه السلام : « لا آذن لك ولا كرامة ، ولا نعمة ، كذبت أى عدو الله ، والله لقد رزقك الله حلالا طيبا ، فاخترت ما حرم الله عليك من رزقه مكان ما أحل الله لك من حلاله ، وبأنه لو لم يكن الحرام رزقا لم يكن المتغذى به طول عمره مرزوقا ، وقد قال الله تعالى : (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها) والإنفاق والإنفاد أخوان ، خلا أن فى الثانى معنى الإذهاب بالكلية دون الأول ، والمراد بهذا الإنفاق الصرف إلى سبيل الخير ، فرضا كان أو نفلا ، ومن فسر بالزكاة ذكر أفضل أنواعه ، الأصل فيه ، أو خصصه بها لاقترانه بما هو شقيقها ، والجملة معطوفة على ما قبلها من الصلة ، وتقديم المفعول للاهتمام والمحافظة على رءوس الآى ، وإدخال من التبعيضية عليه للكف عن التبذير .

هذا وقد جاز أن يراد به الإنفاق من جميع المعاون التى منحهم الله تعالى من النعم الظاهرة والباطنة ، ويؤيده قوله عليه السلام : « إن علما لا ينال به ككنز لا ينفق منه » وإليه ذهب من قال : ومما خصصناهم من أنوار المعرفة يفيضون ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾ معطوف

على الموصول الأول ، على تقدير وصله بما قبله ، وفصله عنه مندرج معه فى زمرة المتقين من حيث الصورة والمعنى معا ، أو من حيث المعنى فقط ، اندراج خاصين تحت عام ، إذ المراد بالأولين الذين آمنوا بعد الشرك والغفلة عن جميع الشرائع كما يؤذن به التعبير عن المؤمن به بالغيب ، وبالآخرين الذين آمنوا بالقرآن بعد الإيمان بالكتب المنزلة قبله ، كعبد الله بن سلام وأضرابه أو على المتقين على أن يراد بهم الأولون خاصة ، ويكون تخصيصهم بوصف الاتقاء للإيذان بتنزههم عن حالتهم الأولى بالكلية ، لما فيها من كمال القباحة والمباينة للشرائع كلها ، الموجبة للاتقاء عنها ، بخلاف الآخرين ، فإنهم غير تاركين لما كانوا عليه بالمرة ، بل متمسكون بأصول الشرائع التى لا تكاد تختلف باختلاف الأعصار ، ويجوز أن يجعل كلا الموصولين عبارة عن الكل مندرجا تحت المتقين ، ولا يكون توسيط العاطف بينهما لاختلاف الذوات ، بل لاختلاف الصفات كما فى قوله :

إلى الملك القرم وابن الهمام   وليث الكتيبة فى المزدحم

وقوله :

* يالهف زيابة للحارث الصابح فالغانم فالآيب *

للإيذان بأن كل واحد من الإيمان بما أشير إليه من الأمور الغائبة والإيمان بما يشهد بثبوتها من الكتب السماوية نعت جليل على حياله ، له شأن خطير مستتبع لأحكام جمة ، حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل ، ولا يجعل أحدهما تتمة للآخر ، وقد شفع الأول بأداء الصلاة والصدقة اللتين هما من جملة الشرائع المندرجة تحت تلك الأمور المؤمن بها تكملة له ، فإن كمال العلم بالعمل ، وقرن الثانى بالإيقان بالآخرة مع كونه منطويا تحت الأول تنبيها على كمال صحته ، وتعريضا بما فى اعتقاد أهل الكتابين من الخلل كما سيأتى ، هذا على تقدير تعلق الباء بالإيمان ، وقس عليه الحال عند تعلقها

بالمحذوف ، فإن كلا من الإيمان الغيبى المشفوع بما يصدقه من العبادتين مع قطع النظر عن المؤمن به والإيمان بالكتب المنزلة الشارحة لتفاصيل الأمور التى يجب الإيمان بها مقرونا بما قرن به فضيلة باهرة ، مستدعية لما ذكر ، والله تعالى أعلم .

وقد حمل ذلك على معنى أنهم الجامعون بين الإيمان بما يدركه العقل جملة والإتيان بما يصدقه من العبادات البدنية والمالية وبين الإيمان لا طريق إليه غير السمع ، وتكرير الموصول للتنبيه على تغاير القبيلين ، وتباين السبيلين فليتأمل ، وأن يراد بالموصول الثانى بعد اندراج الكل فى الأول فريق خاص منهم ، وهم مؤمنوا أهل الكتاب ، بأن يخصوا بالذكر تخصيص جبريل وميكائيل به إثر جريان ذكر الملائكة عليهم السلام تعظيما لشأنهم وترغيبا لأمثالهم ، وأقرانهم فى تحصيل مالهم من الكمال .

إنزال الكتب

والإنزال النقل من الأعلى إلى الأسفل ، وتعلقه بالمعانى إنما هو بتوسط تعلقه بالأعيان المستتبعة لها ، فنزول ماعدا الصحف من الكتب الإلهية إلى الرسل عليهم السلام والله تعالى أعلم بأن يتلقاها الملك من جنابه عز وجل تلقيا روحانيا ، أو يحفظها من اللوح المحفوظ ، فينزل بها إلى الرسل فيلقيها عليهم عليهم السلام ، والمراد بما أنزل إليك هو القرآن بأسره ، والشريعة عن آخرها والتعبير عن إنزاله بالماضى مع كون بعضه مترقبا حينئذ لتغليب المحقق على المقدر ، أو لتنزيل مافى شرف الوقوع لتحققه منزلة الواقع كما فى قوله تعالى : (إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى) مع أن الجن ما كانوا سمعوا الكتاب جميعا ولا كان الجميع إذ ذاك نازلا ، وبما أنزل من قبلك التوراة والإنجيل وسائر الكتب السالفة ، وعدم التعرض لذكر من أنزل إليه من الأنبياء عليهم السلام ، لقصد الإيجاز مع عدم تعلق الغرض بالتفصيل حسب تعلقه به فى قوله تعالى : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل)

الآية . والإيمان بالكل جملة فرض ، وبالقرآن تفصيلا من حيث أنا متعبدون بتفاصيله فرض كفاية ، فإن فى وجوبه على الكل عينا حرجا بينا ، وإخلالا بأمر المعاش ، وبناء الفعلين للمفعول للإيذان بتعين الفاعل ، والجرى على سنن الكبرياء ، وقد قرئا على البناء للفاعل .

﴿ وبالآخرة هم يوقنون ﴾ الإيقان إتقان العلم بالشىء بنفى الشك والشبهة عنه ، ولذلك لا يسمى علمه تعالى يقينا ، أى يعلمون علما قطعيا مزيحا لما كان أهل الكتاب عليه من الشكوك والأوهام التى من جملتها زعمهم أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هودا أو نصارى ، وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات ، واختلافهم فى أن نعيم الجنة هل هو من قبيل نعيم الدنيا أو لا ، وهل هو دائم أو لا ، وفى تقديم الصلة وبناء يوقنون على الضمير تعريض بمن عداهم من أهل الكتاب ، فإن اعتقادهم فى أمور الآخرة بمعزل من الصحة فضلا عن الوصول إلى مرتبة اليقين ، والآخرة تأنيث الآخر ، كما أن الدنيا تأنيث الأدنى ، غلبتا على الدارين فجرتا مجرى الأسماء ، وقرىء بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام ، وقرىء يؤقنون بقلب الواو همزة ، إجراء لضم ما قبلها مجرى ضمها فى وجوه ووقتت ، ونظيره مافى قوله :

لحب المؤقدان إلى مؤسى   وجعدة إذ أضاءهما الوقود

وقوله تعالى : ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الذين حكيت خصالهم الحميدة من حيث اتصافهم بها ، وفيه دلالة على أنهم متميزون بذلك أكمل تميز ، منتظمون بسببه فى سلك الأمور المشاهدة ، وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم فى الفضل ، وهو مبتدأ ، وقوله عز وعلا ﴿ على هدى ﴾ — خبره ، وما فيه من الإبهام المفهوم من التنكير لكمال تفخيمه ، كأنه قيل : على أى هدى لا يبلغ كنهه ، ولا يقادر قدره . وإيراد كلمة الاستعلاء بناء على تمثيل حالهم فى ملابستهم بالهدى بحال من يعتلى الشىء ويستولى عليه

يتصرف فيه كيفما يريد ، أو على استعارتها لتمسكهم بالهدى استعارة تبعية ، متفرعة على تشبيهه باعتلاء الراكب واستوائه على مركوبه ، أو على جعلها قرينة للاستعارة بالكناية بين الهدى والمركوب للإيذان بقوة تمكنهم منه وكمال رسوخهم فيه ، وقوله تعالى : ﴿ من ربهم ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة له مبينة لفخامته الإضافية إثر بيان فخامته الذاتية ، مؤكدة لها ، أى على هدى كائن من عنده تعالى ، وهو شامل لجميع أنواع هدايته تعالى ، وفنون توفيقه والتعرض لعنوان الربوبية ، مع الإضافة إلى ضميرهم لغاية تفخيم الموصوف والمضاف إليهم ، وتشريفهما ، ولزيادة تحقيق مضمون الجملة ، وتقريره ببيان ما يوجبه ويقتضيه ؛ وقد أدغمت النون فى الراء بغنة أو بغير غنة ، والجملة على تقدير كون الموصولين موصولين بالمتقين مستقلة لامحل لها من الإعراب ، مقررة لمضمون قوله تعالى : (هدى للمتقين) مع زيادة تأكيد له وتحقيق .

كيف لا وكون الكتاب هدى لهم فن من فنون ما منحوه واستقروا عليه من الهدى ، حسبما تحققته ، لاسيما مع ملاحظة ما يستتبعه من الفوز والفلاح وقيل هى واقعة موقع الجواب عن سؤال ربما ينشأ مما سبق ، كأنه قيل ما للمنعوتين بما ذكر من النعوت اختصوا بهداية ذلك الكتاب العظيم الشأن ، وهل هم أحقاء بتلك الأثرة ؟ فأجيب بأنهم بسبب اتصافهم بذلك مالكون لزمام أصل الهدى الجامع لفنونه ، المستتبع للفوز والفلاح ، فأى ريب فى استحقاقهم لما هو فرع من فروعه ؟

ولقد جار عن سنن الصواب من قال فى تقرير الجواب : بأن أولئك الموصوفين غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلا ، وبالفلاح آجلا .

وأما على تقدير كونهما مفصولين عنه فهى فى محل الرفع على أنها خبر للمبتدأ الذى هو الموصول الأول ، والثانى معطوف عليه ، وهذه الجملة استئناف

وقع جوابا عن سؤال ينساق إليه الذهن من تخصيص ما ذكر بالمتقين قبل بيان مبادىء استحقاقهم لذلك ، كأنه قيل : ما بال المتقين مخصوصين به ، فأجيب بشرح ما انطوى عليه اسمهم إجمالا من نعوت الكمال ، وبيان ما يستدعيه من النتيجة ، أى الذين هذه شئونهم أحقاء بما هو أعظم من ذلك ، كقولك : أحب الأنصار الذين قارعوا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبذلوا مهجتهم فى سبيل الله ، أولئك سواد عينى ، وسويداء قلبى .

واعلم أن هذا المسلك يسلك تارة بإعادة اسم من استؤنف عنه الحديث ، كقولك أحسنت إلى زيد ، زيد حقيق بالإحسان ، وأخرى بإعادة صفته ، كقولك أحسنت إلى زيد صديقك القديم أهل لذلك ، ولا ريب فى أن هذا أبلغ من الأول لما فيه من بيان الموجب للحكم وإيراد اسم الإشارة بمنزلة إعادة الموصوف بصفاته المذكورة ، مع ما فيه من الإشعار بكمال تمييزه بها ، وانتظامه بسبب ذلك فى سلك الأمور المشاهدة ، والإيماء إلى بعد منزلته ، كما مر ، هذا وقد جوز أن يكون الموصول الأول يجرى على المتقين حسبما فصل ، والثانى مبتدأ ، وأولئك الخ خبره ، ويجعل اختصاصهم بالهدى والفلاح تعريضاً بغير المؤمنين من أهل الكتاب حيث كانوا يزعمون أنهم على الهدى ، ويطمعون فى نيل الفلاح .

﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ تكرير اسم الإشارة لإظهار مزيد العناية بشأن المشار إليهم ، وللتنبيه على أن اتصافهم بتلك الصفات يقتضى نيل كل واحدة من تينك الأثرتين ، وأن كلا منهما كاف فى تميزهم بها عمن عداهم ، ويؤيده توسيط العاطف بين الجملتين، بخلاف ما فى قوله تعالى (أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) فإن التسجيل عليهم بكمال الغفلة عبارة عما يفيده تشبيههم بالبهائم ، فتكون الجملة الثانية مقررة للأولى ، وأما الإفلاح الذى هو عبارة عن الفوز بالمطلوب فلما كان مغايراً للهدى نتيجة له وكان كل منهما فى نفسه أعز مرام يتنافس فيه المتنافسون فعل ما فعل ، وهم ضمير فصل يفصل

الخبر عن الصفة ويؤكد النسبة ، ويفيد اختصاص المسند بالمسند إليه ، أومبتدأ خبره المفلحون ، والجملة خبرلأولئك ، وتعريف المفلحين للدلالة على أن المتقين هم الناس الذين بلغك أنهم المفلحون فى الآخرة ، أو إشارة إلى ما يعرفه كل أحد من حقيقة المفلحين وخصائصهم ، هذا وفى بيان اختصاص المتقين بنيل هذه المراتب الفائقة على فنون من الاعتبارات الرائقة اللائقة حسبما أشير إليه فى تضاعيف تفسير الآية الكريمة من الترغيب فى اقتفاء أثرهم والإرشاد إلى اقتداء سيرهم مالايخفى مكانه والله ولى الهداية والتوفيق .

أحوال الكفر والكفار

﴿ إن الذين كفروا ﴾ كلام مستأنف سيق لشرح أحوال الكفرة الغواة المردة العتاة ، إثر بيان أحوال أضدادهم المتصفين بنعوت الكمال الفائزين بمباغيهم فى الحال والمآل ، وإنما ترك العاطف بينهما ولم يسلك به مسلك قوله تعالى (إن الأبرار لفى نعيم ، وإن الفجار لفى جحيم) لما بينهما من التنافى فى الأسلوب ، والتباين فى الغرض ، فإن الأولى مسوقة لبيان رفعة شأن الكتاب فى باب الهداية والإرشاد ، وأما التعرض لأحوال المهتدين به فإنما هو بطريق الاستطراد ، سواء جعل الموصول موصولا بما قبله ، أو مفصولا عنه ، فإن الاستئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام المتقدم ، فهو من مستتبعاته لامحالة وأما الثانية فمسوقة لبيان أحوال الكفرة أصالة ، وترامى أمرهم فى الغواية والضلال إلى حيث لايجديهم الإنذار والتبشير ، ولا يؤثر فيهم العظة والتذكير فهم ناكبون فى تيه الغى والفساد عن منهاج العقول ، وراكبون فى مسلك المكابرة والعناد متن كل صعب وذلول ، وإنما أوثرت هذه الطريقة ولم يؤسس الكلام على بيان أن الكتاب هاد للأولين وغير مجد للآخرين لأن العنوان الأخير ليس مما يورثه كمالا حتى يتعرض له فى أثناء تعداد كمالاته ، وإن من الحروف التى تشابه الفعل فى عدد الحروف والبناء على الفتح ولزوم

الأسماء ودخول نون الوقاية عليها ، كأنني ولعلني ونظائرهما ، وإعطاء معانيه ، والتعدى خاصة فى الدخول على اسمين ، ولذلك أعملت عمله الفرعى وهو نصب الأول ورفع الثانى إيذانا بكونه فرعا فى العمل دخيلا فيه ، وعند الكوفيين لا عمل لها فى الخبر ؛ بل هو باق على حاله بقضية الاستصحاب . وأجيب بأن ارتفاع الخبر مشروط بالتجرد عن العوامل ، وإلا لما انتصب خبر كان وقد زال بدخولها ، فتعين إعمال الحرف وأثرها تأكيد النسبة وتحقيقها ، ولذلك يتلقى بها القسم ، وتصدر بها الأجوبة ، ويؤتى بها فى مواقع الشك والإنكار لدفعه ورده ، قال المبرد : قولك عبد الله قائم إخبار عن قيامه وإن عبد الله قائم جواب سائل عن قيامه شاك فيه ، وإن عبد الله لقائم جواب منكر لقيامه .

وتعريف الموصول إما للعهد والمراد به ناس بأعيانهم كأبى لهب وأبى جهل والوليد بن المغيرة وأضرابهم وأحبار اليهود ، أو للجنس وقد خص منه غير المصرين بما أسند إليه من قوله تعالى : سواء عليهم الخ ، والكفر فى اللغة ستر النعمة ، وأصله الكفر بالفتح أى الستر . ومنه قيل للزارع والليل كافر ، قال تعالى (كمثل غيث أعجب الكفار نباته) وعليه قول لبيد :

* فى ليلة كفر النجوم ، غمامها *

ومنه المتكفر بسلاحه وهو الشاكى الذى غطى السلاح بدنه ، وفى الشريعة إنكار ما علم بالضرورة مجىء الرسول عليه الصلاة والسلام به ، وإنما عد لبس الغيار وشد الزنار بغير اضطرار ونظائرهما كفراً لدلالته على التكذيب ، فإن من صدق النبى عليه السلام لايكاد يجترىء على أمثال ذلك ، إذ لاداعى إليه كالزنى وشرب الخمر ، واحتجت المعتزلة على حدوث القرآن بما جاء فيه بلفظ الماضى على وجه الإخبار ، فإنه يستدعى سابقة المخبرعنه لامحالة ، وأجيب بأنه من مقتضيات التعلق وحدوثه لايستدعى

حدوث الكلام ، كما أن حدوث تعلق العلم بالمعلوم لا يستدعى حدوث العلم ﴿ سواء ﴾ هو اسم بمعنى الاستواء ، نعت به كما ينعت بالمصادر مبالغة ، قال تعالى (تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم) وقوله تعالى ﴿ عليهم ﴾ متعلق به ، ومعناه عندهم وارتفاعه على أنه خبر ، لأن قوله تعالى ﴿ أأنذرتهم أم لم تنذرهم ﴾ مرتفع به على الفاعلية ؛ لأن الهمزة وأم مجردتان عن معنى الاستفهام ، لتحقيق الاستواء بين مدخوليهما ، كما جرد الأمر والنهى لذلك عن معنييهما فى قوله تعالى: (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم) وحرف النداء فى قولك : اللهم اغفر لنا أيتها العصابة عن معنى الطلب لمجرد التخصيص ، كأنه قيل : إن الذين كفروا مستو عليهم إنذارك وعدمه ، كقولك ، إن زيدا مختصم أخوه وابن عمه ، أو مبتدأ وسواء عليهم خبر قدم عليه اعتناء بشأنه ، والجملة خبر لأن ، والفعل إنما يمتنع الإخبار عنه عند بقائه على حقيقته .

وأما لو أريد به اللفظ أو مطلق الحدث المدلول عليه ضمنا على طريقة الاتساع فهو كالاسم فى الإضافة والإسناد إليه ، كما فى قوله تعالى (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) وقوله تعالى (وإذا قيل لهم لا تفسدوا) وفى قولهم : تسمع بالمعيدى خير من أن تراه ، كأنه قيل : إنذارك وعدمه سيان عليهم ، والعدول إلى الفعل لما فيه من إيهام التجدد والتوصل إلى إدخال الهمزة ومعادلها عليه لإفادة تقرير معنى الاستواء وتأكيده ، كما أشير إليه ؛ وقيل : سواء مبتدأ وما بعده خبره وليس بذاك ؛ لأن مقتضى المقام بيان كون الإنذار وعدمه سواء ، لا بيان كون المستوى الإنذار وعدمه ، والإنذار إعلام المخوف للاحتراز عنه ، إفعال من من نذر بالشيء إذا علمه فحذره ، والمراد ههنا التخويف من عذاب الله وعقابه على المعاصى ، والاقتصار عليه لما أنهم ليسوا بأهل للبشارة أصلا ، ولأن الإنذار أوقع فى القلوب ، وأشد تأثيرا فى النفوس فإن دفع المضار أهم من جلب المنافع ، فحيث لم يتأثروا به فلألا يرفعوا للبشارة رأسا أولى ، وقرىء بتوسيط ألف بين الهمزتين مع تحقيقهما وبتوسيطها والثانية

بين بين وبتخفيف الثانية بين بين بلا توسيط ، وبحذف حرف الاستفهام ، وبحذفه وإلقاء حركته على الساكن قبله ، كما قرىء قد أفلح ، وقرىء بقلب الثانية ألفا ، وقد نسب ذلك إلى اللحن .

﴿ لا يؤمنون ﴾ جملة مستقلة مؤكدة لما قبلها ، مبينة لما فيه من إجمال ما فيه الاستواء ، فلا محل لها من الإعراب ، أو حال مؤكدة له ، أو بدل منه أو خبر لأن ، وما قبلها اعتراض بما هو علة للحكم ، أو خبر ثان على رأى من يجوزه عند كونه جملة ، والآية الكريمة مما استدل به على جواز التكليف بما لا يطاق ، فإنه تعالى قد أخبر عنهم بأنهم لا يؤمنون ، فظهر استحالة إيمانهم لاستلزامه المستحيل الذى هو عدم مطابقة إخباره تعالى للواقع مع كونهم مأمورين بالإيمان ، باقين على التكليف ، ولأن من جملة ما كلفوه الإيمان بعدم إيمانهم المستمر ، والحق أن التكليف بالممتنع لذاته وإن جاز عقلا من حيث أن الأحكام لا تستدعى أغراضا لاسيما الامتثال ، لكنه غير واقع للاستقراء ، والإخبار بوقوع الشىء أو بعدمه لا ينفى القدرة عليه ، كإخباره تعالى عما يفعله هو ، أو العبد باختياره ، وليس ما كلفوه الإيمان بتفاصيل ما نطق به القرآن حتى يلزم أن يكلفوا الإيمان بعدم إيمانهم المستمر ، بل هو الإيمان بجميع ما جاء به النبى عليه السلام إجمالا ، على أن كون الموصول عبارة عنهم ليس معلوما لهم .

وفائدة الإنذار بعد العلم بأنه لا يفيد إلزام الحجة وإحراز الرسول صلى الله عليه وسلم فضل الإبلاغ ، ولذلك قيل سواء عليهم ، ولم يقل عليك ، كما قيل لعبدة الأصنام سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون ، وفى الآية الكريمة إخبار بالغيب على ما هو به إن أريد بالموصول أشخاص بأعيانهم فهى من المعجزات الباهرة ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾ استئناف تعليلى لما سبق الحكم ، وبيان لما يقتضيه ، أو بيان وتأكيد له ، والمراد بالقلب محل القوة العاقلة من الفؤاد ، والختم على الشىء الاستيثاق منه بضرب الخاتم عليه صيانة

له ، أو لما فيه من التعرض له كما فى البيت الفارغ والكيس المملوء ، والأول هو الأنسب بالمقام ، إذ ليس المراد به صيانة ما فى قلوبهم ، بل إحداث حالة تجعلها بسبب تماديهم فى الغى وانهماكهم فى التقليد ، وإعراضهم عن منهاج النظر الصحيح ، بحيث لا يؤثر فيها الإنذار ، ولا ينفذ فيها الحق أصلا ، إما على طريقة الاستعارة التبعية ، بأن يشبه ذلك بضرب الخاتم على نحو أبواب المنازل الخالية المبنية للسكنى تشبيه معقول بمحسوس بجامع عقلى هو الاشتمال على منع القابل عما من شأنه وحقه أن يقبله ، ويستعار له الختم ثم يشتق منه صيغة الماضى ، وإما على طريقة التمثيل بأن يشبه الهيئة المنتزعة من قلوبهم وقد فعل بها ما فعل من إحداث تلك الحالة المانعة من أن يصل إليها ما خلقت لأجله من الأمور الدينية النافعة ، وحيل بينها وبينه بالمرة بهيئة منتزعة من محال معدة لحلول ما يحلها حلولا مستتبعا لمصالح مهمة وقد منع من ذلك بالختم عليها وحيل بينها وبين ما أعدت لأجله بالكلية ، ثم يستعار لها ما يدل على الهيئة المشبه بها فيكون كل من طرفى التشبيه مركبا من أمور عدة قد اقتصر من جانب المشبه به على ما عليه يدور الأمر فى تصوير تلك الهيئة وانتزاعها وهو الختم ، والباقى منوى مراد قصدا بألفاظ متخيلة بها يتحقق التركيب ، وتلك الألفاظ وإن كان لها مدخل فى تحقيق وجه الشبه الذى هو أمر عقلى منتزع منها وهو امتناع الانتفاع بما أعد له بسبب مانع قوى ، ليس فى شىء منها على الانفراد تجوز باعتبار هذا المجاز ، بل هى باقية على حالها من كونه حقيقة أو مجازا أو كناية ، وإنما التجوز فى المجموع ، وحيث كان معنى المجموع مجموع معانى تلك الألفاظ التى ليس فيها التجوز المعهود ، ولم تكن الهيئة المنتزعة منها مدلولا وضعيا لها ليكون ما دل على الهيئة المشبه بها عند استعماله فى الهيئة المشبهة مستعملا فى غير ما وضع له ، فيندرج تحت الاستعارة التى هى قسم من المجاز اللغوى ، الذى هو عبارة عن الكلمة المستعملة فى غير ما وضع له ذهب قدماء المحققين كالشيخ عبد القاهر وأضرابه إلى جعل التمثيل قسما برأسه ، ومن رام

تقابل الأقسام عد تلك الهيئة المشبه بها من قبيل المدلولات الوضعية ، وجعل الكلام المفيد لها عند استعماله فيما يشبه بها من هيئة أخرى منتزعة من أمور أخر من قبيل الاستعارة ، وسماه استعارة تمثيلية ، وإسناد إحداث تلك الحالة فى قلوبهم إلى الله تعالى لاستناد جميع الحوادث عندنا من حيث الخلق إليه سبحانه وتعالى ، وورود الآية الكريمة ناعية عليهم سوء صنيعهم ووخامة عاقبتهم لكون أفعالهم من حيث الكسب مستندة إليهم ، فإن خلقها منه سبحانه ليس بطريق الجبر بل بطريق الترتيب على ما اقترفوه من القبائح كما يعرب عنه قوله تعالى (بل طبع الله عليها بكفرهم) ونحو ذلك .

وأما المعتزلة فقد سلكوا مسلك التأويل ، وذكروا فى ذلك عدة من الأقاويل منها أن القوم لما أعرضوا عن الحق وتمكن ذلك فى قلوبهم حتى صار كالطبيعة لهم شبه بالوصف الخلقى المجبول عليه ، ومنها أن المراد به تمثيل قلوبهم بقلوب البهائم التى خلقها الله تعالى خالية عن الفطن ، أو بقلوب قد ختم الله تعالى عليها كما فى : سال به الوادى إذا هلك ، وطارت به العنقاء إذا طالت غيبته ، ومنها أن ذلك فعل الشيطان أو الكافر ، وإسناده إليه تعالى باعتبار كونه بإقداره تعالى وتمكينه ، ومنها أن أعراقهم لما رسخت فى الكفر واستحكمت بحيث لم يبق إلى تحصل إيمانهم طريق سوى الإلجاء والقسر ثم لم يفعل ذلك محافظة على حكمة التكليف عبر عن ذلك بالختم ، لأنه سد لطريق إيمانهم بالكلية ، وفيه إشعار بترامى أمرهم فى الغى والعناد ، وتناهى انهماكهم فى الشر والفساد ، ومنها أن ذلك حكاية لما كانت الكفرة يقولونه مثل قولهم (قلوبنا فى أكنة مما تدعوننا إليه ، وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) تهكما بهم ، ومنها أن ذلك فى الآخرة ، وإنما أخبر عنه بالماضى لتحقق وقوعه ويعضده قوله تعالى (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما) ومنها أن المراد بالختم وسم قلوبهم بسمة يعرفها الملائكة فيبغضوهم وينفروا عنهم .

﴿ وعلى سمعهم ﴾ عطف على ما قبله داخل فى حكم الختم لقوله عز وجل

(وختم على سمعه وقلبه) وللوفاق على الوقف عليه لا على قلوبهم ، ولاشتراكهما فى الإدراك من جميع الجوانب ، وإعادة الجار للتأكيد والإشعار بتغاير الختمين وتقديم ختم قلوبهم للإيذان بأنها الأصل فى عدم الإيمان وللإشعار بأن ختمها ليس بطريق التبعية بختم سمعهم ، بناء على أنه طريق إليها ، فالختم عليه ختم عليها بل هى مختومة بختم على حدة ، لو فرض عدم الختم على سمعهم فهو باق على حاله حسبما يفصح عنه قوله تعالى (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) والسمع إدراك القوة السامعة ، وقد يطلق عليها وعلى العضو الحامل لها وهو المراد ههنا ، إذ هو المختوم عليه أصالة ، وتقديم حاله على حال أبصارهم للاشتراك بينه وبين قلوبهم فى تلك الحال ، أو لأن جنايتهم من حيث السمع الذى به يتلقى الأحكام الشرعية ، وبه يتحقق الإنذار أعظم منها من حيث البصر الذى به يشاهد الأحوال الدالة على التوحيد ، فبيانها أحق بالتقديم ، وأنسب بالمقام .

قالوا : السمع أفضل من البصر ، لأنه عز وعلا حيث ذكرهما قدم السمع على البصر ، ولأن السمع شرط النبوة ولذلك ما بعث الله رسولا أصم ، ولأن السمع وسيلة إلى استكمال العقل بالمعارف التى تتلقف من أصحابها وتوحيده للأمن عن اللبس ، واعتبار الأصل ، أو لتقدير المضاف ، أى وعلى حواس سمعهم ، والكلام فى إيقاع الختم على ذلك كما مر من قبل ﴿ وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ الأبصار جمع بصر ، والكلام فيه كما سمعته فى السمع ، والغشاوة فعالة من التغشية أى التغطية ، بنيت لما يشتمل على الشىء كالعصابة والعمامة ، وتنكيرها للتفخيم والتهويل ، وهى على رأى سيبويه مبتدأ خبره الظرف المقدم والجملة معطوفة على ماقبلها ، وإيثار الاسمية للإيذان بدوام مضمونها ، فإن ما يدرك بالقوة الباصرة من الآيات المنصوبة فى الآفاق والأنفس حيث كانت مستمرة كان تعاميهم من ذلك أيضا كذلك .

وأما الآيات التى تتلقى بالقوة السامعة فلما كان وصولها إليها حينا فحينا

أوثر فى بيان الختم عليها وعلى ماهى أحد طريق معرفته أعنى القلب الجملة الفعلية ، وعلى رأى الأخفش مرتفع على الفاعلية بما تعلق به الجار ، وقرىء بالنصب على تقدير فعل ناصب ، أى وجعل على أبصارهم غشاوة ، وقيل على حذف الجار وإيصال الختم إليه ، والمعنى وختم على أبصارهم بغشاوة وقرىء بالضم والرفع وبالفتح والنصب ، وهما لغتان فيها ، و(غشوة) بالكسر مرفوعة وبالفتح مرفوعة ومنصوبة ، وعشاوة بالعين غير المعجمة والرفع ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ وعيد وبيان لما يستحقونه فى الآخرة والعذاب كالنكال بناء ومعنى يقال أعذب عن الشيء إذا أمسك عنه ومنه الماء العذب لما أنه يقمع العطش ويردعه ، ولذلك يسمى نقاخا ، لأنه ينقخ العطش ويكسره ، وفراتا لأنه يرفته على القلب ويكسره ، ثم اتسع فيه فأطلق على كل ألم فادح ، وإن لم يكن عقابا يراد به ردع الجانى عن المعاودة ، وقيل اشتقاقه من التعذيب الذى هو إزالة العذاب ، كالتقذية والتمريض . والعظيم نقيض الحقير ، والكبير نقيض الصغير ، فمن ضرورة كون الحقير دون الصغير كون العظيم فوق الكبير . ويستعملان فى الجثث والأحداث . تقول رجل عظيم وكبير تريد جثته أو خطره ، ووصف العذاب به لتأكيد ما يفيده التنكير من التفخيم والتهويل والمبالغة فى ذلك .

والمعنى : أن على أبصارهم ضربا من الغشاوة خارجا عما يتعارفه الناس ، وهى غشاوة التعامى عن الآيات ، ولهم من الآلام العظام نوع عظيم لا يبلغ كنهه ولا يدرك غايته ، اللهم إنا نعوذ بك من ذلك كله يا أرحم الراحمين .

من علامات النفاق

﴿ ومن الناس ﴾ شروع فى بيان أن بعض من حكيت أحوالهم السالفة ليسوا بمقتصرين على ما ذكر من محض الإصرار على الكفر والعناد ، بل يضمون إليه فنونا أخر من الشر والفساد وتعديد لجناياتهم الشنيعة المستتبعة

لأحوال هائلة عاجلة وآجلة ، وأصل ناس أناس ، كما يشهد له إنسان وأناسى وإنس ، حذفت همزته تخفيفا كما قيل لوقة فى ألوقة ، وعوض عنها حرف التعريف ، ولذلك لا يكاد يجمع بينهما وأما مافى قوله :

إن المنايا يطلعن   على الأناس الآمنينا

فشاذ ، سموا بذلك لظهورهم وتعلق الإيناس بهم كما سمى الجن جنا لاجتنانهم وذهب بعضهم إلى أن أصله النوس وهو الحركة انقلبت واوه ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، وبعضهم إلى أنه مأخوذ من نسى ، نقلت لامه إلى موضع العين فصار نيسا ، ثم قلبت ألفا سموا بذلك لنسيانهم ، ويروى عن ابن عباس أنه قال : سمى الإنسان إنسانا لأنه عهد إليه فنسى ، واللام فيه إما للعهد ، أو للجنس المقصور على المصرين حسبما ذكر فى الموصول ، كأنه قيل : ومنهم أو من أولئك ، والعدول إلى الناس للإيذان بكثرتهم ، كما ينبىء عنه التبعيض ، ومحل الظرف الرفع على أنه مبتدأ باعتبار مضمونه . أو نعت لمقدر هو المبتدأ ، كما فى قوله عز وجل (ومنا دون ذلك) أى وجمع منا الخ ، ومن فى قوله تعالى ﴿ من يقول ﴾ موصولة أو موصوفة ، ومحلها الرفع على الخبرية ، والمعنى وبعض الناس ، أو وبعض من الناس الذى يقول ، كقوله تعالى : (ومنهم الذين يؤذون النبى) الآية ، أو فريق يقول ، كقوله تعالى : (من المؤمنين رجال) الخ ، على أن يكون مناط الإفادة والمقصود بالإصالة اتصافهم بما فى حيز الصلة أو الصفة ، وما يتعلق به من الصفات جميعا ، لا كونهم ذوات أولئك المذكورين .

وأما جعل الظرف خبرا كما هو الشائع فى موارد الاستعمال فيأباه جزالة المعنى ، لأن كونهم من الناس ظاهر فالإخبار به عار عن الفائدة كما قيل ، فإن مبناه توهم كون المراد بالناس الجنس مطلقا ، وكذا مدار الجواب عنه بأن الفائدة هو التنبيه على أن الصفات المذكورة تنافى الإنسانية ، فحق من

يتصف بها ألا يعلم كونه من الناس ، فيخبر به ويتعجب منه ، وأنت خبير بأن الناس عبارة عن المعهودين ، أو عن الجنس المقصور على المصرين ، وأيا ما كان فالفائدة ظاهرة ، بل لأن خبرية الظرف تستدعى أن يكون اتصاف هؤلاء بتلك الصفات القبيحة المفصلة فى ثلاث عشرة آية عنوانا للموضوع مفروغا عنه ، غير مقصود بالذات ، ويكون مناط الإفادة كونهم من أولئك المذكورين ، ولا ريب لأحد فى أنه يجب حمل النظم الجليل على أجزل المعانى وأكملها وتوحيد الضمير فى يقول باعتبار لفظة من وجمعه فى قوله ﴿ آمنا بالله واليوم الآخر ﴾ وما بعده باعتبار معناها ، والمراد باليوم الآخر من وقت الحشر إلى مالا يتناهى ، أو إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، إذ لاحد وراءه ، وتخصيصهم للإيمان بهما بالذكر مع مع تكرير الباء لادعاء أنهم قد حازوا الإيمان من قطريه ، وأحاطوا به من طرفيه ، وأنهم قد آمنوا بكل منهما على الأصالة والاستحكام ، وقد دسوا تحته ماهم عليه من العقائد الفاسدة حيث لم يكن إيمانهم بواحد منهما إيمانا فى الحقيقة ، إذ كانوا مشركين بالله بقولهم (عزير ابن الله) وجاحدين باليوم الآخر بقولهم (لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) ونحو ذلك وحكاية عبارتهم لبيان كمال خبثهم ودعارتهم ، فإن ماقالوا لو صدر عنهم لا على وجه الخداع والنفاق وعقيدتهم عقيدتهم لم يكن ذلك إيمانا ، فكيف وهم يقولونه تمويها على المؤمنين واستهزاء بهم ﴿ وما هم بمؤمنين ﴾ رد لما ادعوه ونفى لما انتحلوه وما حجازية ، فإن جواز دخول الباء فى خبرها لتأكيد النفى اتفاقى بخلاف التميمية ، وإيثار الجملة الاسمية على الفعلية الموافقة لدعواهم المردودة للمبالغة فى الرد بإفادة انتفاء الإيمان عنهم فى جميع الأزمنة لا فى الماضى فقط كما يفيده الفعلية ، ولا يتوهمن أن الجملة الاسمية الإيجابية تفيد دوام الثبوت ، فعند دخول النفى عليها يتعين الدلالة على نفى الدوام ، فإنها بمعونة المقام تدل على دوام النفى قطعا ، كما أن المضارع الخالى عن حرف الامتناع يدل على استمرار الوجود وعند دخول حرف الامتناع عليه يدل على استمرار ،

الامتناع ، لا على امتناع الاستمرار ، كما فى قوله عز وجل (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم) فإن عدم قضاء الأجل لاستمرار عدم التعجيل لا لعدم استمرار التعجيل ، وإطلاق الإيمان عما قيدوه به للإيذان بأنهم ليسوا من جنس الإيمان فى شىء أصلا ، فضلا عن الإيمان بما ذكروا ، وقد جوز أن يكون المراد ذلك ، ويكون الإطلاق للظهور ، ومدلول الآية الكريمة أن من أظهر الإيمان واعتقاده بخلافه لا يكون مؤمنا ، فلا حجة فيها على الكرامية القائلين بأن من تفوه بكلمتى الشهادة فارغ القلب عما يوافقه أو ينافيه مؤمن .

﴿ يخادعون الله والذين آمنوا ﴾ بيان ليقول وتوضيح لما هو غرضهم مما يقولون ، أو استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق إليه الذهن ، كأنه قيل : ما لهم يقولون ذلك وهم غير مؤمنين ، فقيل يخادعون الله الخ أى يخدعون ، وقد قرىء كذلك وإيثار صيغة المفاعلة لإفادة المبالغة فى الكيفية ، فإن الفعل متى غولب فيه بولغ فيه قطعا أو فى الكمية كما فى الممارسة والمزاولة ، فإنهم كانوا مداومين على الخدع ، والخدع أن يوهم صاحبه خلاف ما يريد به من المكروه ليوقعه فيه من حيث لا يحتسب ، أو يوهمه المساعدة على ما يريد هو به ليغتر بذلك فينجو منه بسهولة من قولهم ضب خادع وخدع وهو الذى إذا أمر الحارس يده على باب جحره يوهمه الإقبال عليه فيخرج من بابه الآخر ، وكلا المعنيين مناسب للمقام ، فإنهم كانوا يريدون بما صنعوا أن يطلعوا على أسرار المؤمنين فيذيعوها إلى المنابذين ، وأن يدفعوا عن أنفسهم ما يصيب سائر الكفرة .

وأيا ما كان فنسبته إلى الله سبحانه إما على طريق الاستعارة والتمثيل ، لإفادة كمال شناعة جنايتهم أى يعاملون معاملة الخادعين ، وإما على طريقة المجاز العقلى ، بأن ينسب إليه تعالى ما حقه أن ينسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم إبانة لمكانته عنده تعالى ، كما ينبىء عنه قوله تعالى : (إن الذين

يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم) وقوله تعالى : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) مع إفادة كمال الشناعة كما مر ، وإما لمجرد التوطئة والتمهيد لما بعده من نسبته إلى الذين آمنوا ، والإيذان بقوة اختصاصهم به تعالى كما فى قوله تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه ، وقوله تعالى : (إن الذين يؤذون الله ورسوله) وإبقاء صيغة المخادعة على معناها الحقيقى بناء على زعمهم الفاسد ، وترجمة عن اعتقادهم الباطل ، كأنه قيل : يزعمون أنهم يخدعون الله والله يخدعهم ، أو على جعلها استعارة تبعية ، أو تمثيلا لما أن صورة صنعهم مع الله تعالى والمؤمنين وصنعه تعالى معهم بإجراء أحكام الإسلام عليهم ، وهم عنده أخبث الكفرة ، وأهل الدرك الأسفل من النار استدراجا لهم ، وامتثال الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين بأمر الله تعالى فى ذلك مجازاة لهم بمثل صنيعهم صورة صنيع المتخادعين كما قيل ، مما لا يرتضيه الذوق السليم أما الأول فلأن المنافقين لو اعتقدوا أن الله تعالى يخدعهم بمقابلة خدعهم له لم يتصور منهم التصدى للخدع ، وأما الثانى فلأن مقتضى المقام إيراد حالهم خاصة وتصويرها بما يليق بها من الصورة المستهجنة ، وبيان أن غائلتها آيلة إليهم من حيث لا يحتسبون كما يعرب عنه قوله عز وعلا ﴿ وما يخدعون إلا أنفسهم ﴾ فالتعرض لحال الجانب الآخر مما يخل بتوفية المقام حقه ، وهو حال من ضمير يخادعون ، أى يفعلون والحال أنهم ما يضرون بذلك إلا أنفسهم ، فإن دائرة فعلهم مقصورة عليهم ، أو ما يخدعون حقيقة إلا أنفسهم حيث يغرونها بالأكاذيب فيلقونها فى مهاوى الردى ، وقرىء (وما يخادعون) والمعنى هو المعنى ، ومن حافظ على الصيغة فيما قبل قال وما يعاملون تلك المعاملة الشبيهة بمعاملة المخادعين إلا أنفسهم لأن ضررها لا يحيق إلا بهم ، أو ما يخادعون حقيقة إلا أنفسهم حيث يمنونها الأباطيل ، وهى أيضا تغرهم وتمنيهم الأمانى الفارغة ، وقرىء (وما يخدعون) من التخديع ، (وما يخدعون) أى يختدعون ، ويخدعون ويخادعون على البناء للمفعول ، ونصب أنفسهم بنزع الخافض ، والنفس ذات الشىء وحقيقته وقد يقال للروح لأن نفس

الحى به وللقلب أيضاً لأنه محل الروح أو متعلقه وللدم أيضاً لأن قوامها به وللماء أيضاً لشدة حاجتها إليه والمراد هنا هو المعنى الأول لأن المقصود بيان أن ضرر مخادعتهم راجع إليهم لايتخطاهم إلى غيرهم .

وقوله تعالى ﴿ وما يشعرون ﴾ حال من ضمير ما يخدعون ، أى يقتصرون على خدع أنفسهم والحال أنهم ما يشعرون أى ما يحسون بذلك لتماديهم فى الغواية ، وحذف المفعول إما لظهوره أو لعمومه ، أى مايشعرون بشىء أصلا ، جعل لحوق وبال ما صنعوا بهم فى الظهور بمنزلة الأمر المحسوس الذى لايخفى إلا على مؤوف الحواس مختل المشاعر .

﴿ فى قلوبهم مرض ﴾ المرض عبارة عما يعرض للبدن فيخرجه عن الاعتدال اللائق به ، ويوجب الخلل فى أفاعيله ، ويؤدى إلى الموت ، استعير ههنا لما فى قلوبهم من الجهل وسوء العقيدة ، وعداوة النبي صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من فنون الكفر المؤدى إلى الهلاك الروحانى ، والتنكير للدلالة على كونه نوعا مبهما غير ما يتعارفه الناس من الأمراض والجملة مقررة لما يفيده قوله تعالى (وماهم بمؤمنين) من استمرار عدم إيمانهم ، أو تعليل له كأنه قيل مالهم لايؤمنون فقيل فى قلوبهم مرض يمنعهم(١) ﴿ فزادهم الله مرضا ﴾ بأن طبع على قلوبهم لعلمه تعالى بأنه لايؤثر فيها التذكير والإنذار ، والجملة معطوفة على ما قبلها ، والفاء للدلالة على ترتب مضمونها عليه ، وبه اتضح كونهم من الكفرة المختوم على قلوبهم مع زيادة بيان السبب ، وقيل زادهم كفرا بزيادة التكاليف الشرعية ، لأنهم كانوا كلما ازداد التكاليف بنزول الوحى يزدادون كفرا ، ويجوز أن يكون المرض مستعارا لما تداخل قلوبهم من الضعف والجبن والخور عند مشاهدتهم لعزة المسلمين ، فزيادته تعالى إياهم مرضا مافعل بهم من إلقاء الروع وقذف الرعب فى قلوبهم عند إعزاز الدين بإمداد النبى صلى الله عليه وسلم بإنزال الملائكة ، وتأييده بفنون النصر والتمكين ، فقوله تعالى

---

(١) فى ف : يمنعه

(فى قلوبهم مرض) الخ حينئذ استئناف تعليلى لقوله تعالى (يخادعون الله) الخ ، كأنه قيل مالهم يخادعون ويداهنون ولم لايجاهرون بما فى قلوبهم من الكفر ، فقيل فى قلوبهم ضعف مضاعف هذه حالهم فى الدنيا ، ﴿ ولهم ﴾ فى الآخرة ﴿ عذاب أليم ﴾ أى مؤلم يقال ألم وهو أليم كوجع وهو وجيع وصف به العذاب للمبالغة كما فى قوله :

* تحية بينهم ضرب وجيع *

على طريقة جد جده فإن الألم والوجع حقيقة للمؤلم والمضروب ، كما أن الجد للجاد ، وقيل هو بمعنى المؤلم كالسميع بمعنى المسمع وليس ذلك بثبت كما سيجىء فى قوله تعالى بديع السموات والأرض ﴿ بما كانوا يكذبون ﴾ الباء للسببية أو ومامصدرية داخلة فى الحقيقة على يكذبون ، وكلمة كانوا مقحمة للمقابلة لإفادة دوام كذبهم وتجدده أى بسبب كذبهم أو بمقابلة كذبهم المتجدد المستمر الذى هو قولهم (آمنا بالله وباليوم الآخر) وهم غير مؤمنين ، فإنه إخبار بإحداثهم الإيمان فيما مضى لا إنشاء للإيمان ولو سلم فهو متضمن للإخبار بصدوره عنهم وليس كذلك لعدم التصديق القلبى بمعنى الإذعان والقبول قطعا ويجوز أن يكون محمولا على الظاهر بناء على رأى من يجوز أن يكون لكان الناقصة مصدر ، كما صرح به فى قول الشاعر :

ببذل وحلم ساد فى قومه الفتى وكونك إياه عليك يسير

أى لهم عذاب أليم بسبب كونهم يكذبون على الاستمرار ، وترتيب العذاب عليه من بين سائر موجباته القوية إما لأن المراد بيان العذاب الخاص بالمنافقين بناء على ظهور شركتهم للمجاهرين فيما ذكر من العذاب العظيم حسب اشتراكهم فيما يوجبه من الإصرار على الكفر كما ينبىء عنه قوله تعالى : (ومن الناس) الخ وإما للإيذان بأن لهم بمقابلة سائر جناياتهم العظيمة من العذاب ما لايوصف ، وإما للرمز إلى كمال سماجة الكذب نظراً إلى ظاهر العبارة المخيلة لانفراده بالسببية ، مع إحاطة علم السامع بأن لحوق العذاب بهم

من جهات شتى ، وأن الاقتصار عليه للإشعار بنهاية قبحه والتنفير عنه . عن الصديق رضى الله عنه ويروى مرفوعا أيضاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم « إياكم والكذب فإنه مجانب للإيمان » وما روى أن إبراهيم عليه السلام كذب ثلاث كذبات(١) فالمراد به التعريض ، وإنما سمى به لشبهه به صورة ، وقيل ما موصولة والعائد محذوف أى بالذى يكذبون والمفعول محذوف ، وهو إما النبي صلى الله عليه وسلم ، أو القرآن وما مصدرية ، أى بسبب تكذيبهم إياه عليه السلام ، أو القرآن أو موصلة أى بالذى يكذبونه على أن العائد محذوف ، ويجوز أن يكون صيغة التفعيل للمبالغة كما فى بين فى بان وقلص فى قلص ، أو للتكثير كما فى موتت البهائم وبركت الإبل ، وأن يكون من قولهم كذب الوحشى إذا جرى شوطا ثم وقف لينظر ما وراءه فإن المنافق متوقف فى أمره متردد فى رأيه ولذلك قيل له مذبذب .

﴿ وإذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض ﴾ شروع فى تعديد بعض من قبائحهم المتفرعة على ما حكى عنهم من الكفر والنفاق وإذا ظرف زمن مستقبل ويلزمها معنى الشرط غالبا ، ولاتدخل إلا فى الأمر المحقق أو المرجح وقوعه ، واللام متعلقة بقيل ومعناها الإنهاء والتبليغ ، والقائم مقام فاعله جملة لاتفسدوا على أن المراد بها اللفظ ، وقيل هو مضمر يفسره المذكور والفساد خروج الشيء عن الحالة اللائقة به والصلاح مقابله ، والفساد فى الأرض هيج الحروب والفتن المستتبعة لزوال الاستقامة عن أحوال العباد واختلال أمر المعاش والمعاد والمراد بما نهوا عنه ما يؤدى إلى ذلك من إفشاء أسرار المؤمنين إلى الكفار ، وإغرائهم عليهم ، وغير ذلك من فنون الشرور ، كما يقال للرجل لاتقتل نفسك بيدك ، ولاتلق نفسك فى النار إذا أقدم على ما تلك عاقبته وهو

( ) هى قوله : إنى سقيم ، وقوله : بل فعله كبيرهم هذا ، وقوله عن سارة إنها أخته لازوجته ، وفى الأخيرة نظر .

إما معطوف على يقول ، فإن جعلت كلمة من موصولة فلامحل له من الإعراب ولا بأس بتخلل البيان أو الاستئناف وما يتعلق بهما بين أجزاء الصلة فإن ذلك ليس توسيطا بالأجنبي ، وإن جعلت موصوفة فمحله الرفع ، والمعنى ومن الناس من إذا نهوا من جهة المؤمنين عما هم عليه من الإفساد فى الأرض ﴿ قالوا ﴾ إرادة للناهين أن ذلك غير صادر عنهم مع أن مقصودهم الأصلى إنكار كون ذلك إفسادا وادعاء كونه إصلاحا محضا كما سيأتى توضيحه ﴿ إنما نحن مصلحون ﴾ أى مقصورون على الإصلاح المحض ، بحيث لا يتعلق به شائبة الإفسادوالفساد ، مشيرين بكلمة إنما إلى أن ذلك من الوضوح بحيث لاينبغى أن يرتاب فيه ، وإما كلام مستأنف سيق لتعديد شنائعهم وأما عطفه على يكذبون بمعنى ولهم عذاب أليم بكذبهم وبقولهم حين نهوا عن الإفساد إنما نحن مصلحون كما قيل ، فيأباه أن هذا النحو من التعليل حقه أن يكون بأوصاف ظاهرة العلية مسلمة الثبوت للموصوف غنية عن البيان لشهرة الاتصاف بها عند السامع أو لسبق ذكره صريحا كما فى قوله تعالى (بما كانوا يكذبون) فإن مضمونه عبارة عما حكى عنهم من قولهم (آمنا بالله وباليوم الآخر) أو لذكر ما يستلزمه استلزاما ظاهرا كما فى قوله عز وجل (إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) فإن ما ذكر من الضلال عن سبيل الله مما يوجب حتما نسيان جانب الآخرة التى من جملتها يوم الحساب وما لم يكن كذلك فحقه أن يخبر بعليته قصدا كما فى قوله تعالى (ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار) الآية وقوله (ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق) الآية إلى غير ذلك ولاريب فى أن هذه الشرطية وما بعدها من الشرطيتين المعطوفتين عليها ليس مضمون شىء منها معلوم الانتساب إليهم عند السامعين بوجه منالوجوه المذكورة ، حتى تستحق الانتظام فى سلك التعليل المذكور ، فإذن حقها أن تكون مسوقة على سنن تعديد قبائحهم على أحد الوجهين ، مفيدة لاتصافهم بكل واحدمن تلك الأوصاف قصدا واستقلالا كيف لاوقوله عز وجل ﴿ ألا إنهم هم المفسدون ﴾ ينادى بذلك نداء جليا فإنه رد من جهته

تعالى لدعواهم المحكية أبلغ رد ، وأدله على سخط عظيم حيث سلك فيه مسلك الاستئناف المؤدى إلى زيادة تمكن الحكم فى ذهن السامع (وصدرت الجملة الجملة بحرفى التأكيد ألا المنبهة على تحقق ما بعدها ، فإن الهمزة الإنكارية الداخلة على النفى تفيد تحقيق الإثبات قطعا كما فى قوله تعالى (أليس الله بكاف عبده) ولذلك لا يكاد يقع ما بعدها من الجملة إلا مصدرة بما يتلقى به القسم ، وأختها التى هى أما من طلائع القسم .

وقيل : هما حرفان بسيطان موضوعان للتنبيه والاستفتاح وإن المقررة للنسبة ، وعرف الخبر ووسط ضمير الفصل لرد ما فى قصر أنفسهم على الإصلاح من التعريض بالمؤمنين ثم استدرك بقوله تعالى ﴿ ولكن لا يشعرون ﴾ للإيذان بأن كونهم مفسدين من الأمور المحسوسة ، لكن لا حس لهم حتى يدركوه ، وهكذا الكلام فى الشرطيتين الآتيتين وما بعدهما من رد مضمونهما ، ولولا أن المراد تفصيل جناياتهم وتعديد خبائثهم وهناتهم ثم إظهار فسادها وإبانة بطلانها لما فتح هذا الباب والله أعلم بالصواب .

﴿ وإذا قيل لهم ﴾ من قبل المؤمنين بطريق الأمر بالمعروف إثر نهيهم عن المنكر إتماما للنصح وإكمالا للإرشاد ﴿ آمنوا ﴾ حذف المؤمن به لظهوره أو أريد افعلوا الإيمان ﴿ كما آمن الناس ﴾ الكاف فى محل النصب على أنه نعت لمصدر مؤكد محذوف أى آمنوا إيمانا مماثلا لإيمانهم فما مصدرية أو كافة ، كما فى ربما ، فإنها تكف الحرف عن العمل ، وتصحح دخولها على الجملة ، وتكون للتشبيه بين مضمونى الجملتين ، أى حققوا إيمانكم كما تحقق إيمانهم ، واللام للجنس ، والمراد بالناس الكاملون فى الإنسانية العاملون بقضية العقل ، فإن اسم الجنس كما يستعمل فى مسماه يستعمل فيما يكون جامعاً للمعانى الخاصة به المقصودة منه ، ولذلك يسلب عما ليس كذلك ، فيقال هو ليس بإنسان وقد جمعهما من قال :

* إذ الناس ناس والزمان زمان *

أو للعهد والمراد به الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه ، أو من آمن من أهل جلدتهم كابن سلام وأضرابه ، والمعنى آمنوا إيمانا مقرونا بالإخلاص ، متمحضا عن شوائب النفاق ، مماثلا لإيمانهم ﴿قالوا﴾ مقابلين للأمر بالمعروف بالإنكار المنكر واصفين للمراجيح الرزان بضد أوصافهم الحسان ﴿ أنؤمن كما آمن السفهاء ﴾ مشيرين باللام إلى من أشير إليهم فى الناس من الكاملين ، أو المعهودين ، أو إلى الجنس بأسره . وهم مندرجون فيه على زعمهم الفاسد ، والسفه خفة وسخافة رأى يورثهما قصور العقل ، ويقابله الحلم والأناة ، وإنما نسبوهم إليه مع أنهم فى الغاية القاصية من الرشد والرزانة والوقار ، لكمال ، انهماك أنفسهم فى السفاهة ، وتماديهم فى الغواية ، وكونهم ممن زين له سوء عمله فرآه حسنا ، فمن حسب الضلال هدى يسمى الهدى لا محالة ضلالا أو لتحقير شأنهم ، فإن كثيرا من المؤمنين كانوا فقراء ، ومنهم موال كصهيب وبلال ، أو للتجلد وعدم المبالاة بمن آمن منهم على تقدير كون المراد بالناس عبد الله بن سلام وأمثاله ، وأيا ما كان فالذى يقتضيه جزالة التنزيل ويستدعى فخامة شأنه الجليل أن يكون صدور هذا القول عنهم بمحضر من المؤمنين الناصحين لهم جوابا عن نصيحتهم ، وحيث كانوا فحواه تسفيه أولئك المشاهير الأعلام ، والقدح فى إيمانهم لزم كونهم مجاهرين لا منافقين . وذلك مما لا يكاد يساعده السباق والسياق ، وعن هذا قالوا ينبغى أن يكون ذلك فيما بينهم لا على وجه المؤمنين .

قال الإمام الواحدى : إنهم كانوا يظهرون هذا القول فيما بينهم لا عند المؤمنين ، فأخبر الله تعالى نبيه عليه السلام والمؤمنين بذلك عنهم ، وأنت خبير بأن إبراز ماصدر عن أحد المتحاورين فى الخلاء فى معرض ماجرى بينهما فى مقام المحاورة مما لا عهد به فى الكلام فضلا عما هو فى منصب الإعجاز فالحق الذى لامحيد عنه أن قولهم هذا وإن صدر عنهم بمحضر من الناصحين لايقتضى كونهم مجاهرين ، فإنه ضرب من الكفر أنيق ، وفن فى النفاق

عريق ، مصنوع على شاكلة قولهم (واسمع غير مسمع) فكما أنه كلام ذو وجهين مثلهم محتمل للشر ، بأن يحمل على معنى اسمع منا غير مسمع كلاما ترضاه ونحوه ، وللخير بأن يحمل على معنى اسمع غير مسمع مكروها كانوا يخاطبون به رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاء به ، مظهرين إرادة المعنى الأخير ، وهم مضمرون فى أنفسهم المعنى الأول ، مطمئنون به ، ولذلك نهوا عنه ، كذلك هذا الكلام محتمل للشر كما ذكر فى تفسيره ، وللخير بأن يحمل على ادعاء الإيمان كإيمان الناس وإنكار ما اتهموا به من النفاق ، على معنى أنؤمن كما آمن السفهاء والمجانين الذين لا اعتداد بإيمانهم ، لو آمنوا ولا نؤمن كإيمان الناس حتى تأمرونا بذلك ، قد خاطبوا به الناصحين استهزائهم مرائين لإرادة المعنى الأخير ، وهم معولون على الأول ؛ فرد عليهم ذلك بقوله عز قائلا ﴿ ألا إنهم هم السفهاء ، ولكن لا يعلمون ﴾ أبلغ رد وجهلوا أشنع تجهيل حيث صدرت الجملة بحرفى التأكيد حسبما أشير إليه فيما سلف ، وجعلت السفاهة مقصورة عليهم وبالغة إلى حيث لا يدرون أنهم سفهاء ، وعن هذا اتضح لك سر مامر فى تفسير قوله تعالى (إنما نحن مصلحون) فإن حمله على المعنى الأخير كما هو رأى الجمهور مناف لحالهم ضرورة أن مشافهتهم للناصحين بادعاء كون ما نهوا عنه من الإفساد إصلاحا كما مر إظهار منهم للشقاق ، وبروز بأشخاصهم من نفق النفاق .

والاعتذار بأن المراد بما نهوا عنه مداراتهم للمشركين كما ذكر فى بعض التفاسير ، وبالإصلاح الذى يدعونه إصلاح ما بينهم وبين المؤمنين ، وأن معنى قوله تعالى (ألا إنهم المفسدون) أنهم فى تلك المعاملة مفسدون لمصالح المؤمنين ، لإشعارها بإعطاء الدنية ، وإنبائها عن ضعفهم الملجىء إلى توسيط من يتصدى لإصلاح ذات البين ، فضلا عن كونهم مصلحين مما لا سبيل إليه قطعا ، فإن قوله تعالى ، ولكن لا يشعرون ناطق بفساده كيف لا وهو(١) يقتضى أن يكون المنافقون فى تلك الدعوى صادقين

---

(١) فى ط أنه .

قاصدين للإصلاح ، ويأتيهم الإفساد من حيث لايشعرون ، ولا ريب فى أنهم فيهم كاذبون لا يعاشرونهم إلا مضارة للدين ، وخيانة للمؤمنين ، فإذن طريق حل الإشكال ليس إلا ما أشير إليه ، فإن قولهم إنما نحن مصلحون محتمل للحمل على الكذب ، وإنكار صدور الإفساد المنسوب إليهم عنهم ، على معنى ، وهم معرجون على المعنى الأول ، فرد عليهم بقوله تعالى (ألا إنهم هم المفسدون) الآية ، والله سبحانه أعلم بما أودعه فى تضاعيف كتابه المكنون من السر المخزون ، نسأله العصمة والتوفيق ، والهداية إلى سواء الطريق .

وتفصيل هذه الآية الكريمة بلا يعلمون لما أنه أكثر طباقا لذكر السفه الذى هو فن من فنون الجهل ، ولأن الوقوف على أن المؤمنين ثابتون على الحق وهم على الباطل منوط بالتمييز بين الحق والباطل ، وذلك مما لا يتسنى إلا بالنظر والاستدلال ، وأما النفاق وما فيه من الفتنة والإفساد وما يترتب عليه من كون من يتصف به مفسدا فأمر بديهى يقف عليه من له شعور ، ولذلك فصلت الآية الكريمة السابقة بلا يشعرون ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ﴾ بيان لتباين أحوالهم وتناقض أقوالهم فى أثناء المعاملة والمخاطبة حسب تباين ومساق ما صدرت به قصتهم لتحرير مذهبهم والترجمة عن نفاقهم ، ولذلك لم يتعرض ههنا لمتعلق الإيمان فليس فيه شائبة التكرير .

روى أن عبد الله بن أبى وأصحابه خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من الصحابة ، فقال ابن أبى انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم ، فلما دنوا منهم أخذ بيد أبى بكر رضى الله عنه فقال : مرحبا بالصديق سيد بنى تيم ، وشيخ الإسلام ، وثانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار ، الباذل نفسه وماله لرسول الله ، ثم أخذ بيد عمر رضى الله عنه فقال : مرحبا بسيد بنى عدى ، الفاروق القوى فى دينه الباذل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذ بيد على كرم الله وجهه فقال : مرحبا بابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه ، وسيد بنى هاشم ما خلا رسول الله صلى الله عليه وسلم

فنزلت . وقيل : قال له على رضى الله عنه يا عبد الله اتق الله ، ولا تنافق ، فإن المنافقين شر خلق الله تعالى ، فقال له مهلا يا أبا الحسن أفى تقول هذا ، والله إن إيماننا كإيمانكم ، وتصديقنا كتصديقكم ثم افترقوا فقال ابن أبى لأصحابه كيف رأيتمونى فعلت ، فإذا رأيتموهم فافعلوا مثل ما فعلت ، فأثنوا عليه خيراً ، وقالوا لا نزال بخير ما عشت فينا فرجع المسلمون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبروه بذلك فنزلت ، واللقاء المصادفة ، يقال لقيته ولاقيته أى صادفته واستقبلته وقرىء إذا لاقوا ﴿ وإذا خلوا ﴾ من خلوت إلى فلان ، أى انفردت معه ، وقد يستعمل بالباء ، أو من خلا بمعنى مضى ، ومنه القرون الخالية ، وقولهم خلاك ذم أى جاوزك ومضى عنك ، وقد جوز كونه من خلوت به إذا سخرت منه ، على أن تعديته بإلى فى قوله تعالى ﴿ إلى شياطينهم ﴾ لتضمنه معنى الإنهاء ، أى وإذا أنهوا إليهم السخرية الخ .

وأنت خبير بأن تقييد قولهم المحكى بذلك الإنهاء مما لا وجه له والمراد بشياطينهم المماثلون منهم للشيطان فى التمرد والعناد ، المظهرون لكفرهم ، وإضافتهم إليهم للمشاركة فى الكفر ، أو كبار المنافقين ، والقائلون صغارهم ، وجعل سيبويه نون الشيطان تارة أصلية فوزنه فيعال ، على أنه من شطن إذا بعد ، فإنه بعيد من الخير والرحمة ، ويشهد له قولهم تشيطن ، وأخرى زائدة فوزنه فعلان ، على أنه من شاط أى هلك أو بطل ، ومن أسمائه الباطل ، وقيل معناه هاج واحترق ﴿ قالوا إنا معكم ﴾ أى فى الدين والاعتقاد لا نفارقكم فى حال من الأحوال ، وإنما خاطبوهم بالجملة الاسمية المؤكدة ، لأن مدعاهم عندهم تحقيق الثبات على ما كانوا عليه من الدين ، والتأكيد للإنباء عن صدق رغبتهم ، ووفور نشاطهم ، لا لإنكار الشياطين ، بخلاف معاملتهم مع المؤمنين ، فإنهم إنما يدعون عندهم إحداث الإيمان لجزمهم بعدم رواج ادعاء الكمال فيه أو الثبات عليه ﴿ إنما نحن ﴾ أى فى إظهار الإيمان عند المؤمنين ﴿ مستهزئون ﴾ بهم من غير أن يخطر ببالنا الإيمان حقيقة وهو استئناف مبنى على سؤال ناشىء من ادعاء المعية كأنه قيل لهم عند قولهم إنا معكم فما بالكم

توافقون المؤمنين فى الإتيان بكلمة الإيمان ، فقالوا : إنما نحن مستهزئون بهم فلا يقدح ذلك فى كوننا معكم ، بل يؤكده وقد ضمنوا جوابهم أنهم يهينون المؤمنين ، ويعدون ذلك نصرة لدينهم ، أو تأكيد لما قبله ، فإن المستهزىء بالشيء مصر على خلافه أو بدل منه ، لأن من حقر الإسلام فقد عظم الكفر والاستهزاء بالشيء السخرية منه ، يقال هزأت واستهزأت بمعنى ، وأصله الخفة من الهزؤ ، وهو القتل السريع ، وهزأ يهزأ مات على مكانه . وتهزأ به ناقته أى تسرع به وتخف .

﴿ الله يستهزىء بهم ﴾ أى يجازيهم على استهزائهم ، سمى جزاؤه باسمه كما سمى جزاء السيئة سيئة إما للمشاكلة فى اللفظ ، أو المقارنة فى الوجود ، أو يرجع وبال الاستهزاء عليهم ، فيكون كالمستهزىء بهم ، أو ينزل بهم الحقارة والهوان الذى هو لازم الاستهزاء أو يعاملهم معاملة المستهزىء بهم . أما فى الدنيا فبإجراء أحكام المسلمين عليهم ، واستدراجهم بالإمهال والزيادة فى النعمة على التمادى فى الطغيان ، وأما فى الآخرة فبما يروى أنه يفتح لهم باب إلى الجنة فيسرعون نحوه فإذا صاروا إليه سد عليهم الباب ، وذلك قوله تعالى : (فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون) وإنما استؤنف للإيذان بأنهم قد بلغوا فى المبالغة فى استهزاء المؤمنين إلى غاية ظهرت شناعاتها عند السامعين ، وتعاظم ذلك عليهم حتى اضطرهم إلى أن يقولوا ما مصير أمر هؤلاء وما عاقبة حالهم ، وفيه أنه تعالى هو الذى يتولى أمرهم ولا يحوجهم إلى المعارضة بالمثل ، ويستهزىء بهم الاستهزاء الأبلغ الذى ليس استهزاؤهم عنده من باب الاستهزاء ، حيث ينزل بهم من النكال ويحل عليهم من الذل والهوان ما لا يوصف ، وإيثار صيغة الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار ، كما يعرب عنه قوله عز قائلا : (أو لا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين) وما كانوا خالين فى أكثر الأوقات من تهتك أستار وتكشف أسرار ، ونزول فى شأنهم ، واستشعار حذر من ذلك ، كما أنبأ عنه قوله عز وجل (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما

فى قلوبهم قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون) ﴿ ويمدهم ﴾ أى يزيدهم ويقويهم من مد الجيش وأمده إذا زاده ، ومنه مددت الدواة والسراج إذا أصلحتهما بالحبر والزيت ؛ وإيثاره على يزيدهم للرمز إلى أن ذلك منوط بسوء اختيارهم لما أنه إنما يتحقق عند الاستمداد وما يجرى مجراه من الحاجة الداعية إليه ، كما فى الأمثلة المذكورة ، وقرىء يمدهم من الإمداد وهو صريح فى أن القراءة المشهورة ليست من المد فى العمر ، على أنه يستعمل باللام كالإملاء ، قال تعالى (ونمد له من العذاب مدا) وحذف الجار وإيصال الفعل إلى الضمير خلاف الأصل لا يصار إليه إلا بدليل ﴿ فى طغيانهم ﴾ متعلق بيمدهم والطغيان مجاوزة الحد فى كل أمر ، والمراد إفراطهم فى العتو ، وغلوهم فى الكفر ، وقرىء بكسر الطاء ، وهى لغة فيه كلقيان لغة فى لقيان ، وفى إضافته إليهم إيذان باختصاصه بهم ، وتأييد لما أشير إليه من ترتب المد على سوء اختيارهم ﴿ يعمهون ﴾ حال من الضمير المنصوب أو المجرور ، لكون المضاف مصدرا فهو مرفوع حكما ، والعمه فى البصيرة كالعمى فى البصر ، وهو التحير والتردد ، بحيث لا يدرى أين يتوجه ، وإسناد هذا المد إلى الله تعالى مع إسناده فى قوله تعالى (وإخوانهم يمدونهم فى الغى) محقق لقاعدة أهل الحق من أن جميع الأشياء مستندة(١) من حيث الخلق إليه سبحانه ، وإن كانت أفعال العباد من حيث الكسب مستندة إليهم .

والمعتزلة لما تعذر عليهم إجراء النظم الكريم على مسلكهم نكبوا إلى شعاب التأويل ، فأجابوا أولا بأنهم لما أصروا على كفرهم خذلهم الله تعالى ومنعهم ألطافه ، فتزايد الرين فى قلوبهم فسمى ذلك مددا فى الطغيان ، فأسند إيلاؤه إليه تعالى ، ففى المسند مجاز لغوى ، وفى الإسناد عقلى ، لأنه إسناد للفعل إلى المسبب له ، وفاعله الحقيقى هم الكفرة ، وثانيا بأنه أريد بالمد فى الطغيان ترك القسر والإلجاء إلى الإيمان كما فى قوله تعالى (ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) فالمجاز فى المسند فقط ، وثالثا بأن المراد به معناه الحقيقى وهو فعل

---

(١) فى ط : مستند

الشيطان ، لكنه أسند إليه سبحانه مجازا ، لأنه بتمكينه تعالى وإقداره ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بما ذكر من الصفات الشنيعة المميزة لهم عمن(١) عداهم أكمل تمييز . بحيث صاروا كأنهم حضار مشاهدون على ما هم عليه ، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم فى الشر وسوء الحال ، ومحله الرفع على الابتداء خبره قوله تعالى ﴿ الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ والجملة مسوقة لتقرير ما قبلها وبيان لكمال جهالتهم فيما حكى عنهم من الأقوال والأفعال بإظهار غاية سماجتها ، وتصويرها بصورة ما لا يكاد يتعاطاه من له أدنى تمييز فضلا عن العقلاء والضلالة الجور عن القصد ، والهدى التوجه إليه ، وقد استعير الأول للعدول عن الصواب فى الدين ، والثانى للاستقامة عليه ، والاشتراء استبدال السلعة بالثمن ، أى أخذها به لا بذله لتحصيلها كما قيل ، وإن كان مستلزما له ، فإن المعتبر فى عقد الشراء ومفهومه هو الجلب دون السلب ، الذى هو المعتبر فى عقد البيع ، ثم استعير لأخذ شىء بإعطاء ما فى يده عينا كان كل منهما أو معنى ، لا للإعراض عما فى يده محصلا به غيره كما قيل ، وإن استلزمه لما مر سره ومنه قوله :

أخذت بالجمة رأسا أزعرا   وبالثنايا الواضحات الدردرا
وبالطويل العمر عمرا جيدرا   كما اشترى المسلم إذ تنصرا

فاشتراء الضلالة بالهدى مستعار لأخذها بدلا منه أخذا منوطا بالرغبة فيها والإعراض عنه ، ولما اقتضى ذلك أن يكون ما يجرى مجرى الثمن حاصلا للكفرة قبل العقد وما يجرى مجرى المبيع غير حاصل لهم إذ ذاك حسبما هو فى البيت ، ولا ريب فى أنهم بمعزل من الهدى ، مستمرون على الضلالة استدعى الحال تحقيق ما جرى مجرى العوضين ، فنقول وبالله التوفيق .

وليس المراد بما تعلق به الاشتراء ههنا جنس الضلالة الشاملة لجميع أصناف الكفرة ، حتى تكون حاصلة لهم من قبل ، بل هو فردها الكامل الخاص

---

(١) فى ط : عن عداهم .

بهؤلاء ، على أن اللام للعهد ، وهو عمههم المقرون بالمد فى الطغيان ، المترتب على ما حكى عنهم من القبائح . وذلك إنما يحصل لهم عند اليأس عن اهتدائهم والختم على قلوبهم ، وكذا ليس المراد بما فى حيز الثمن نفس الهدى بل هو التمكن التام منه بتعاضد الأسباب ، وتآخذ المقدمات المستتبعة له بطريق الاستعارة كأنه نفس الهدى بجامع المشاركة فى استتباع الجدوى ، ولا مرية فى أن هذه المرتبة من التمكن كانت حاصلة لهم بما شاهدوه من الآيات الباهرة والمعجزات القاهرة من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم وبما سمعوه من نصائح المؤمنين التى من جملتها ما حكى من النهى عن الإفساد فى الأرض ، والأمر بالإيمان الصحيح ، وقد نبذوها وراء ظهورهم ، وأخذوا بدلها الضلالة الهائلة التى هى العمه فى تيه الطغيان ، وحمل الهدى على الفطرة الأصلية الحاصلة لكل أحد يأباه أن إضاعتها غير مختصة بهؤلاء ، ولئن حملت على الإضاعة التامة الواصلة إلى حد الختم على القلوب المختصة بهم فليس فى إضاعتها فقط من الشناعة ما فى إضاعتها مع ما يؤيدها من المؤيدات العقلية والنقلية ، على أن ذلك يفضى إلى كون ذكر ما فصل من أول للسورة الكريمة إلى هنا ضائعا ، وأبعد منه حمل اشتراء الضلالة بالهدى على مجرد اختيارها عليه من غير اعتبار كونه فى أيديهم ، بناء على أنه يستعمل اتساعا فى إيثار أحد الشيئين الكائنين فى شرف الوقوع على الآخر ، فإنه مع خلوه عن المزايا المذكورة بالمرة مخل برونق الترشيح الآتى ، هذا على تقدير جعل الاشتراء المذكور عبارة عن معاملتهم السابقة المحكية وهو الأنسب بتجاوب أطراف النظم الكريم .

وأما إذا جعل ترجمة عن جناية أخرى من جناياتهم فالمراد بالهدى ما كانوا عليه من معرفة صحة نبوة النبى صلى الله عليه وسلم وحقية دينه ، بما كانوا يشاهدونه من نعوته عليه الصلاة والسلام فى التوراة وقد كانوا على يقين منه حتى كانوا يستفتحون به على المشركين ويقولون اللهم انصرنا بالنبى المبعوث فى آخر الزمان الذى نجد نعته فى التوراة ، ويقولون لهم قد أظل زمان نبى يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما جاءهم

ما عرفوا كفروا به كما سيأتى ولامساغ لحمل الهدى على ما كانوا يظهرونه عند لقاء المؤمنين فإنها ضلالة مضاعفة .

﴿ فما ربحت تجارتهم ﴾ عطف على الصلة داخل فى حيزها والفاء للدلالة على ترتب مضمونه عليها ، والتجارة صناعة التجار ، وهو التصدى للبيع والشراء لتحصيل الربح ، وهو الفضل على رأس المال ، يقال ربح فلان فى تجارته أى استشف فيها وأصاب الربح وإسناد عدمه الذى هو عبارة عن الخسران إليها ، وهو لأربابها بناء على التوسع المبنى على ما بينهما من الملابسة ، وفائدته المبالغة فى تخسيرهم لما فيه من الإشعار بكثرة الخسار وعمومه المستتبع لسرايته إلى ما يلابسهم ، وإيرادهما إثر الاشتراء المستعار للاستبدال المذكور ترشيح للاستعارة ، وتصوير لما فاتهم من فوائد الهدى بصورة خسارة التجارة الذى يتحاشى عنه كل أحد للإشباع فى التخسير ، والتحسين ، ولا ينافى ذلك أن التجارة فى نفسها استعارة لانهماكهم فيما هم عليه من إيثار الضلالة على الهدى ؛ وتمرنهم عليه معرفة عن كون ذلك صناعة لهم راسخة ، إذ ليس من ضروريات الترشيح أن يكون باقيا على الحقيقة ، تابعا للاستعارة لا يقصد به إلا تقويتها ، كما فى قولك رأيت أسدا وافى البراثن ، فإنك لا تريد به إلا زيادة تصوير للشجاع ، وأنه أسد كامل من غير أن تريد بلفظ البراثن معنى آخر بل قد يكون مستعارا من ملائم المستعار منه لملائم المستعار له ومع ذلك يكون ترشيحا لأصل الاستعارة كما فى قوله :

فلما رأيت النسر عز ابن دأية   وعشش فى وكريه جاش له صدرى

فإن لفظ الوكرين مع كونه مستعارا من معناه الحقيقى الذى هو موضع يتخذه الطائر للتفريخ للرأس واللحية أو للفودين أعنى جانبى الرأس ترشيح باعتبار معناه الأصلى ، لاستعارة لفظ النسر للشيب ، ولفظ ابن دأية للشعر الأسود ، وكذا لفظ التعشيش مع كونه مستعارا للحلول والنزول المستمرين ترشيح لتينك الاستعارتين بالاعتبار المذكور ، وقرىء تجاراتهم وتعددها لتعدد المضاف إليهم ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾ أى إلى طرق التجارة ، فإن المقصود

منها سلامة رأس المال مع حصول الربح ، ولئن فات الربح فى صفقة فربما يتدارك فى صفقة أخرى لبقاء الأصل ، وأما إتلاف الكل بالمرة فليس من باب التجارة قطعا فهؤلاء الذين كان رأس مالهم الهدى قد استبدلوا بها الضلالة فأضاعوا كلتا الطلبتين ، فبقوا خائبين خاسرين نائين عن طريق التجارة بألف منزل فالجملة راجعة إلى الترشيح معطوفة على ما قبلها مشاركة له فى الترتب على الاشتراء المذكور والأولى عطفها على اشتروا الخ ﴿ مثلهم ﴾ زيادة كشف لحالهم وتصوير غب تصويرها بصورة ما يؤدى إلى الخسارة بحسب المآل بصورة ما يفضى إلى الخسار من حيث النفس تهويلا لها وإبانة لفظاعتها ، فإن التمثيل ألطف ذريعة إلى تسخير الوهم للعقل ، واستنزاله من مقام الاستعصاء عليه ، وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل الغبى ، وقمع سورة الجامع الأبى ، كيف لا وهو رفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية ، وإبراز لها فى معرض المحسوسات الجلية ، وإبداء للمنكر فى صورة المعروف ، وإظهار للوحشى فى هيئة المألوف ، والمثل فى الأصل بمعنى المثل والنظير ، يقال مثل ومثل ومثيل كشبه وشبه وشبيه ، ثم أطلق على القول السائر الذى يمثل مضربه بمورده وحيث لم يكن ذلك إلا قولا بديعا فيه غرابة صيرته جديرا بالتسيير فى البلاد وخليقا بالقبول فيما بين كل حاضر وباد ، استعير لكل حال أو صفة أو قصة لها شأن عجيب ، وخطر غريب من غير أن يلاحظ بينها وبين شىء آخر تشبيه ومنه قوله عز وجل (ولله المثل الأعلى) أى الوصف الذى له شأن عظيم وخطر جليل وقوله تعالى (مثل الجنة التى وعد المتقون) أى قصتها العجيبة الشأن ﴿ كمثل الذى ﴾ أى الذين كما فى قوله تعالى (وخضتم كالذى خاضوا) خلا أنه وحد الضمير فى قوله تعالى ﴿ استوقد نارا ﴾ نظرا إلى الصورة ، وإنما جاز ذلك مع عدم جواز وضع القائم مقام القائمين ، لأن المقصود بالوصف هى الجملة الواقعة صلة له دون نفسه ، بل إنما هو وصلة لوصف المعارف بها ولأنه حقيق بالتخفيف لاستطالته بصلته ، ولذلك بولغ فيه فحذف ياؤه ثم كسرته ثم اقتصر على اللام فى أسماء الفاعلين والمفعولين ولأنه

ليس باسم تام بل هو كجزئه ، فحقه ألا يجمع ، ويستوى فيه الواحد والمتعدد كما هو شأن إخواته ، وليس الذين جمعه المصحح بل النون فيه مزيدة للدلالة على زيادة المعنى ، ولذلك جاء بالياء أبدا على اللغة الفصيحة ، أو قصد به جنس المستوقد أو الفوج أوالفريق المستوقد ، والنار جوهر لطيف مضىء حار محرق واشتقاقها من نار ينور إذا نفر لأن فيها حركة واضطرابا واستيقادها طلب وقودها . أى سطوعها وارتفاع لهبها وتنكيرها للتفخيم ﴿ فلما أضاءت ماحوله ﴾ الإضاءة فرط الإنارة كما يعرب عنه قوله تعالى (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً) وتجىء متعدية ولازمة ، والفاء للدلالة على ترتبها على الاستيقاد أى فلما أضاءت النار ما حول المستوقد ، أو فلما أضاء ما حوله ، والتأنيث لكونه عبارة عن الأماكن والأشياء ، أو أضاءت النار نفسها فيما حوله على أن ذلك ظرف لإشراق النار المنزل منزلتها لا لنفسها ، أو ما مزيدة وحوله ظرف وتأليف الحول للدوران وقيل للعام حول لأنه يدور ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ النور ضوء كل نير ، واشتقاقه من النار ، والضمير للذى والجمع باعتبار المعنى أى أطفأ الله نارهم التى هى مدار نورهم ، وإنما علق الإذهاب بالنور دون نفس النار لأنه المقصود بالاستيقاد ، لا الاستدفاء ونحوه كما ينبىء عنه قوله تعالى (فلما أضاءت) حيث لم يقل فلما شب ضرامها أو نحو ذلك ، وهو جواب لما أو استئناف أجيب به عن سؤال سائل يقول ما بالهم أشبهت حالهم حال مستوقد انطفأت ناره ، أو بدل من جملة التمثيل على وجه البيان والضمير على الوجهين للمنافقين والجواب محذوف كما فى قوله تعالى (فلما ذهبوا به) للإيجاز والأمن من الإلباس ، كأنه قيل فلما أضاءت ما حوله خمدت فبقوا فى الظلمات خابطبن متحيرين خائبين بعد الكدح فى إحيائها ، وإسناد الإذهاب إلى الله تعالى إما لأن الكل بخلقه تعالى ، وإما لأن الانطفاء حصل بسبب خفى ، أوأمر سماوى كريح أو مطر وإما للمبالغة كما يؤذن به تعدية الفعل بالباء دون الهمزة لما فيه من معنى الاستصحاب والإمساك ، يقال ذهب السلطان بماله إذا أخذه ، وما أخذه الله عز وجل فأمسكه فلا مرسل

له من بعده ولذلك عدل عن الضوء الذى هو مقتضى الظاهر إلى النور لأن ذهاب الضوء قد يجامع بقاء النور فى الجملة لعدم استلزام عدم القوى لعدم الضعيف ، والمراد إزالته بالكلية كما يفصح عنه قوله تعالى : ﴿ وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ﴾ فإن الظلمة التى هى عدم النور وانطماسه بالمرة ، لاسيما إذا كانت متضاعفة متراكبا بعضها على بعض كما يفيده الجمع والتنكير التفخيمى وما بعدها من قوله تعالى (لايبصرون) لايتحقق إلا بعد ألا يبقى من النور عين ولا أثر ، وإما لأن المراد بالنور مالايرضى به الله تعالى من النار المجازية التى هى نار الفتنة والفساد كما فى قوله تعالى : (كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله) ووصفها بإضاءة ماحول المستوقد من باب الترشيح ، أو النار الحقيقية التى يوقدها الغواة ليتوصلوا بها إلى بعض المعاصى ، ويهتدوا بها فى طرق العبث والفساد ، فأطفأها الله تعالى ، وخيب آمالهم ، وترك فى الأصل بمعنى طرح وخلى ، وله مفعول واحد ، فضمن معنى التصيير فجرى مجرى أفعال القلوب قال :

فتركته جزر السباع ينشنه   يقضمن حسن بنانه والمعصم

والظلمة مأخوذة من قولهم : ماظلمك أن تفعل كذا ، أى مامنعك ، لأنها تسد البصر وتمنعه من الرؤية ، وقرىء فى ظلمات بسكون اللام ، وفى ظلمة بالتوحيد ، ومفعول لايبصرون من قبيل المطروح ، كأن الفعل غير متعد ، والمعنى أن حالهم العجيبة التى هى اشتراؤهم الضلالة التى هى عبارة عن ظلمتى الكفر والنفاق المستتبعتين لظلمة سخط الله تعالى ، وظلمة يوم القيامة يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، وظلمة العقاب السرمدى بالهدى ، الذى هو النور الفطرى المؤيد بما شاهدوه من دلائل الحق أو بالهدى الذى كانوا حصلوه من التوراة حسبما ذكر ، كحال من استوقد ناراً عظيمة حتى كاد ينتفع بها فأطفأها الله تعالى ، وتركه فى ظلمات هائلة لا يتسنى فيها الإبصار ﴿ صم بكم عمى ﴾ أخبار لمبتدأ محذوف هو ضمير المنافقين ، أو خبر واحد بالتأويل المشهور ، كما فى قولهم : هذا حلو حامض والصمم آفة مانعة من السماع ، وأصله الصلابة واكتناز الأجزاء ، ومنه

الحجر الأصم ، والقناة الصماء ، وصمام القارورة : سدادها ، سمى به فقدان حاسة السمع لما أن سببه اكتناز باطن الصماخ ، وانسداد منافذه بحيث لا يكاد يدخله هواء يحصل الصوت بتموجه ، والبكم الخرس ، والعمى عدم البصر عما من شأنه أن يبصر ، وصفوا بذلك مع سلامة مشاعرهم المعدودة لما أنهم حيث سدوا مسامعهم عن الإصاخة لما يتلى عليهم من الآيات والذكر الحكيم ، وأبوا أن يتلقوها بالقبول ، وينطقوا بها ألسنتهم ، ولم يجتلوا ما شاهدوا من المعجزات الظاهرة على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم ينظروا إلى آيات التوحيد المنصوبة فى الآفاق والأنفس بعين التدبر ، وأصروا على ذلك بحيث لم يبق لهم احتمال الارعواء عنه ، صاروا كفاقدى تلك المشاعر بالكلية ، وهذا عند مفلقى سحرة البيان من باب التمثيل البليغ ، المؤسس على تناسى التشبيه كما فى قول من قال :

ويصعد حتى يظن الجهول   بأن له حاجة فى السماء

لما أن المقدر فى النظم فى حكم الملفوظ ، لا من قبيل الاستعارة التى يطوى فيها ذكر المستعار له بالكلية ، حتى لو لم يكن هناك قرينة تحمل(١) على المعنى الحقيقى ، كما فى قول زهير :

لدى أسد شاكى السلاح مقذف   له لبد أظفاره لم تقلم

﴿ فهم لا يرجعون ﴾ الفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها ، أى هم بسبب اتصافهم بالصفات المذكورة لا يعودون إلى الهدى الذى تركوه وضيعوه ، أو عن الضلالة التى أخذوها ، والآية نتيجة للتمثيل ، مفيدة لزيادة تهويل وتفظيع ، فإن قصارى أمر التمثيل بقاؤهم فى ظلمات هائلة من غير تعرض لمشعرى السمع والنطق ، ولاختلال مشعر الإبصار ، وقيل الضمير المقدر وما بعده للموصول باعتبار المعنى ، كالضمائر المتقدمة .

فالآية الكريمة تتمة للتمثيل ، وتكميل له بأن ما أصابهم ليس بمجرد انطفاء نارهم وبقائهم فى ظلمات كثيفة هائلة ، مع بقاء حاسة البصر بحالها ، بل

---

(٢) فى المطبوعة : لحمل

اختلت مشاعرهم جميعا ، واتصفوا بتلك الصفات على طريقة التشبيه أو الحقيقة فبقوا جامدين فى مكاناتهم ، لايرجعون ولا يدرون أيتقدمون أم يتأخرون ، وكيف يرجعون إلى ما ابتدأوا منه والعدول إلى الجملة الاسمية للدلالة على استمرار تلك الحالة فيهم ، وقرىء صما بكما عميا ، إما على الذى كما فى قوله تعالى : (حمالة الحطب) والمخصوص بالذم هم المنافقون ، أو المستوقدون وإما على الحالية من الضمير المنصوب فى تركهم ، أو المرفوع فى لايبصرون وإما على المفعولية لتركهم ، فالضميران للمستوقدين ﴿ أو كصيب ﴾ تمثيل لحالهم إثر تمثيل ، ليعم البيان منها كل دقيق وجليل ، ويوفى حقها من التفظيع والتهويل ، فإن تفننهم فى فنون الكفر والضلال وتنقلهم فيها من حال إلى حال حقيق بأن يضرب فى شأنه الأمثال ، ويرخى فى حلبته أعنة المقال ، ويمد لشرحه أطناب الإطناب ، ويعقد لأجله فصول وأبواب ، لما أن كل كلام له حظ من البلاغة ، وقسط من الجزالة والبراعة ، لابد أن يوفى فيه حق كل من مقامى الإطناب والإيجاز ، فما ظنك بما فى ذروة الإعجاز من التنزيل الجليل ، ولقد نعى عليهم فى هذا التمثيل تفاصيل جناياتهم ، وهو عطف على الأول على حذف المضاف لما سيأتى من الضمائر المستدعية لذلك ، أى كمثل ذوى صيب ، وكلمة أو للإيذان بتساوى القصتين فى الاستقلال بوجه التشبيه وبصحة التمثيل بكل واحدة منهما وبهما معا ، والصيب فيعل من الصوب وهو النزول الذى له وقع وتأثير ، يطلق على المطر وعلى السحاب قال الشماخ :

عفا آيه نسج الجنوب مع الصبا   وأسحم دان صادق الوعد صيب

ولعل الأول هو المراد ههنا لاستلزامه الثانى ، وتنكيره لما أنه أريد به نوع منه شديد هائل كالنار فى التمثيل الأول ، وأمد به مافيه من المبالغات من جهة مادته الأولى التى هى الصاد المستعلية والياء المشددة والباء الشديدة ، ومادته الثانية أعنى الصوب المنبىء عن شدة الانسكاب ، ومن جهة بنائه الدال على الثبات ، وقرىء أو كصائب ﴿ من السماء ﴾ متعلق بصيب ، أو بمحذوف وقع صفة له ، والمراد بالسماء هذه المظلة ، وهى فى الأصل كل ما علاك من

سقف ونحوه ، وعن الحسن أنها موج مكفوف ، أى ممنوع بقدرة الله عز وجل من السيلان ، وتعريفها للإيذان بأن انبعاث الصيب ليس من أفق واحد ، فإن كل أفق من آفاقها أى كل ما يحيط به كل أفق منها سماء على حدة ، قال :

* ومن بعد أرض بيننا وسماء *

كما أن كل طبقة من طباقها سماء قال تعالى : (وأوحى فى كل سماء أمرها) والمعنى أنه صيب عام نازل من غمام مطبق آخذ بالآفاق ، وقيل المراد بالسماء السحاب ، واللام لتعريف الماهية .

﴿ فيه ظلمات ﴾ أى أنواع منها ، وهى ظلمة تكاثفه وانتساجه بتتابع القطر ، وظلمة الهلال(١) مايلزمه من الغمام الأسحم المطبق الآخذ بالآفاق مع ظلمة الليل ، وجعله محلا لها مع أن بعضها لغيره كظلمتى الغمام والليل ، لما أنهما جعلتا من توابع ظلمته مبالغة فى شدته وتهويلا لأمره ، وإيذانا بأنه من الشدة والهول بحيث تغمر ظلمته ظلمات الليل والغمام ، وهو السر فى عدم جعل الظلمات هى الأصل المستتبع للبواقى ، مع ظهور ظرفيتها للكل ، إذ لو قيل أو كظلمات فيها صيب الخ لما أفاد أن للصيب ظلمة خاصة به فضلا عن كونها غالبة على غيرها (وفيه)(٢) .

﴿ ورعد ﴾ وهو صوت يسمع من السحاب ، والمشهور أنه يحدث من اصطكاك أجرام السحاب بعضها ببعض ، أو من انقلاع بعضها عن بعض عند اضطرابها ، بسوق الرياح إياه سوقا عنيفا ﴿ وبرق ﴾ وهو ما يلمع من السحاب من برق الشىء بريقا أى لمع ، وكلاهما فى الأصل مصدر ، ولذلك لم يجمعا ، وكونهما فى الصيب باعتبار كونهما فى أعلاه ومصبه ووصول أثرهما إليه وكونهما فى الظلمات الكائنة فيه والتنوين فى الكل للتفخيم والتهويل كأنه قيل فيه ظلمات شديدة داجية ورعد قاصف وبرق خاطف ، وارتفاع الجميع بالظرف على الفاعلية لتحقيق شرط العمل بالاتفاق ، وقيل بالابتداء ، والجملة

---

(١) فى المطبوعة : أظلال .

(٢) سقطت من المطبوعة .

إما صفة لصيب أو حال منه لتخصصه بالصفة ، أو بالعمل فيها بعده من الجار أو من المستكن فى الظرف الأول على تقدير كونه صفة لصيب ، والضمائر فى قوله عز وجل : (يجعلون أصابعهم فى آذانهم) للمضاف الذى أقيم مقامه(١) المضاف إليه فإن معناه باق وإن حذف لفظه تعويلا على الدليل كما فى قوله (وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون) فإن الضمير للأهل المدلول عليه بما قام مقامه من القرية .

قال حسان رضى الله عنه :

يسقون من ورد البريص عليهم   بردى يصفق بالرحيق السلسل

فإن تذكير الضمير المستكن فى يصفق لرجوعه إلى الماء المضاف إلى بردى وإلا لأنث حتما ، وإيثار الجعل المنبىء عن دوام الملابسة ، واستمرار الاستقرار على الإدخال المفيد لمجرد الانتقال من الخارج إلى الداخل للمبالغة فى بيان سد المسامع باعتبار الزمان كما أن إيراد الأصابع بدل الأنامل للإشباع فى بيان سدها باعتبار الذات ، كأنهم سدوها بجملتها لا بأناملها فحسب كما هو المعتاد ويجوز أن يكون هذا إيماء إلى كمال حيرتهم وفرط دهشتهم وبلوغهم إلى حيث لايهتدون إلى استعمال الجوارح على النهج المعتاد ، وكذا الحال فى عدم تعيين الأصبع المعتاد أعنى السبابة ، وقيل : ذلك لرعاية الأدب والجملة استئناف لامحل لها من الإعراب ، مبنى على سؤال نشأ من الكلام ، كأنه قيل عند بيان أحوالهم الهائلة : فماذا يصنعون فى تضاعيف تلك الشدة فقيل يجعلون إلخ . وقوله تعالى :

﴿ من الصواعق ﴾ متعلق بيجعلون أى من أجل الصواعق المقارنة للرعد من قولهم سقاه من الغيمة والصاعقة قصفة رعد تنقض معها شعلة(١) نار لاتمر بشىء إلا أتت عليه . من الصعق وهو شدة الصوت ، وبناؤها إما أن يكون صفة لقصفة الرعد أو للرعد ، والتاء للمبالغة . كما فى الرواية ، أو

---

(١) فى ١٠ مقام

(١) فى ط بشقة نار .

مصدر كالعافية . وقد تطلق على كل هائل مسموع أو مشاهد ، يقال صعقته الصاعقة إذا أهلكته بالإحراق ، أو بشدة الصوت ، وسد الآذان إنما يفيد على التقدير الثانى دون الأول ، وقرىء من الصواقع وليس ذلك بقلب من الصواعق لاستواء كلا البناءين فى التصرف يقال صقع الديك ، وخطيب مصقع أى مجهر بخطبته ﴿ حذر الموت ﴾ منصوب بيجعلون على العلة وإن كان معرفة بالإضافة كقوله :

وأغفر عوراء الكريم إدخاره   وأصفح عن شتم اللئيم تكرما

ولا ضير فى تعدد المفعول له ، فإن الفعل يعلل بعلل شتى ، وقيل هو نصب على المصدرية أى يحذرون حذرا مثل حذر الموت ، والحذر والحذار هو شدة الخوف ، وقرىء حذار الموت ، والموت زوال الحياة ، وقيل عرض يضادها ، لقوله تعالى (خلق الموت والحياة) ورد بأن الخلق بمعنى التقدير والإعدام مقدرة (والله محيط بالكافرين) أى لايفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط شبه شمول قدرته تعالى لهم ، وانطواء ملكوته عليهم ، بإحاطة المحيط بما أحاط به فى استحالة الفوت أو شبه الهيئة المنتزعة من شؤونه تعالى معهم بالهيئة المنتزعة من أحوال المحيط مع المحاط فالاستعارة المبنية على التشبيه الأول استعارة تبعية فى الصفة متفرعة على ما فى مصدرها من الاستعارة والمبنية على الثانى تمثيلية قد اقتصر من طرف المشبه به على ما هو العمدة فى انتزاع الهيئة المشبه بها أعنى الإحاطة والباقى منوى بألفاظ متخيلة بها يحصل التركيب المعتبر فى التمثيل كما مر تحريره فى قوله عز وجل (ختم الله على قلوبهم) والجملة اعتراضية منبهة على أن ما صنعوا من سد الآذان بالأصابع لا يغنى عنهم شيئا فإن القدر لا يدافعه الحذر ، والحيل لا ترد بأس الله عز وجل .

وفائدة وضع الكافرين موضع الضمير الراجع إلى أصحاب الصيب الإيذان بأن مادهمهم من الأمور الهائلة المحكية بسبب كفرهم على منهاج قوله تعالى : (كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته) فإن الإهلاك الناشىء من السخط أشد ، وقيل هذا الاعتراض من جملة أحوال المشبه

على أن المراد بالكافرين المنافقون ، قد دل به على أنه لا مدفع لهم من عذاب الله تعالى فى الدنيا والآخرة ، وإنما وسط بين أحوال المشبه مع أن القياس تقديمه أو تأخيره لإظهار كمال العناية وفرط الاهتمام بشأن المشبه .

(يكاد البرق) استئناف آخر وقع جوابا عن سؤال مقدر ، كأنه قيل فكيف حالهم مع ذلك البرق ؟ فقيل يكاد ذلك (يخطف أبصارهم) أى يختلسها ويسلبها(١) بسرعة وكاد من أفعال المقاربة وضعت لمقاربة الخبر من الوجود لتآخذ أسبابه وتعاضد مباديه لكنه لم يوجد بعد لفقد شرط أو لعروض مانع ، ولا يكون خبرها إلا مضارعا عاريا عن كلمة أن ، وشذ مجيئه اسما صريحا كما فى قوله :

* فأبت إلى فهم وما كدت آيبا *

وكذا مجيئه مع أن حملا لها على عسى فى مثل قول رؤبة :

* قد كاد من طول البلى أن يمحصا *

كما تحمل هى عليها بالحذف لما بينهما من المقارنة فى أصل المقاربة وليس فيها شائبة الانشائية كما فى عسى ، وقرىء يخطف بكسر الطاء ويختطف ويخطف بفتح الياء والخاء بنقل فتحة التاء إلى الخاء وإدغامها فى الطاء ، ويخطف بكسرهما على إتباع الياء الخاء ، ويخطف من صيغة التفعيل ويتخطف من قوله تعالى : (ويتخطف الناس من حولهم) (كلما أضاء لهم) كل ظرف وما مصدرية والزمان محذوف ، أى كل زمان إضاءة ، وقيل ما نكرة موصوفة معناها الوقت والعائد محذوف ، أى كل وقت أضاء لهم فيه والعامل فى كلما جوابها ، وهو استئناف ثالث ، كأنه قيل ما يفعلون فى أثناء ذلك الهول ، أيفعلون بأبصارهم ما فعلوا بآذانهم أم لا ، فقيل كلما نور البرق لهم ممشى ومسلكا على أن أضاء

---

(١) فى ط : ويستلبها .

متعد والمفعول محذوف ، أو كلما لمع لهم على أنه لازم ، ويؤيده قراءة (كلما أضاء) ﴿ مشوا فيه ﴾ أى فى ذلك المسلك أو فى مطرح نوره خطوات يسيرة مع خوف أن يخطف أبصارهم ، وإيثار المشى على مافوقه من السعى والعدو للإشعار بعدم استطاعتهم لهما (وإذا أظلم عليهم) أى خفى البرق واستتر ، والمظلم وإن كان غيره لكن لما كان الإظلام دائراً على استتاره أسند إليه مجازا تحقيقا لما أريد من المبالغة فى موجبات تخبطهم ، وقد جوز أن يكون متعديا منقولا من ظلم الليل . ومنه ما جاء فى قول أبى تمام :

هما أظلما حالى ثمت أجليا ظلاميهما عن وجه أمرد أشيب

ويعضده قراءة أظلم على البناء للمفعول (قاموا) أى وقفوا فى أماكنهم على ما كانوا عليه من الهيئة متحيرين مترصدين لخفقة(١) أخرى عسى يتسنى لهم الوصول إلى المقصد أو الالتجاء إلى ملجأ يعصمهم ، وإيراد كلما مع الإضاءة وإذا مع الإظلام للإيذان بأنهم حراص على المشى ، مترقبون لما يصححه ، فكلما وجدوا فرصة انتهزوها . ولا كذلك الوقوف ، وفيه من الدلالة على كمال التحير وتطاير اللب ما لا يوصف (ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم) كلمة لو لتعليق حصول أمر ماض هو الجزاء بحصول أمر مفروض فيه هو الشرط لما بينهما من الدوران حقيقة أو ادعاء ، ومن قضية مفروضية الشرط دلالتها على انتفائه قطعا ، والمنازع فيه مكابر ، وأما دلالتها على انتفاء الجزاء فقد قيل وقيل . والحق الذى لا محيد عنه أنه إن كان ما بينهما من الدوران كليا أو جزئيا قد بنى الحكم على اعتباره فهى دالة عليه بواسطة مدلولها الوضعى لامحالة ، ضرورة استلزام انتفاء العلة لانتفاء المعلول ، أما فى مادة الدوران الكلى كما فى قوله عز وجل (ولو شاء لهداكم أجمعين) وقولك لو جئتنى لأكرمتك فظاهر لأن وجود المشيئة علة لوجود الهداية حقيقة ، ووجود المجىء علة لوجود الإكرام ادعاء ، وقد انتفيا بحكم المفروضية فانتفى معلولاهما حتما ، ثم إنه قد

---

(١) فى ١٠ لحقيقة .

يساق الكلام لتعليل انتفاء الجزاء بانتفاء الشرط كما فى المثالين المذكورين وهو الاستعمال الشائع لكلمة لو ، ولذلك قيل هى لامتناع الثانى لامتناع الأول وقد تساق للاستدلال بانتفاء الثانى لكونه ظاهرا أو مسلما على انتفاء(١) الأول لكونه خفيا أو متنازعا فيه ، كما فى قوله سبحانه (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وفى قوله تعالى (لو كان خيرا ما سبقونا إليه) فإن فسادهما لازم لتعدد الآلهة حقيقة وعدم سبق المؤمنين إلى الإيمان لازم لخيريته فى زعم الكفرة ولا ريب فى انتفاء اللازمين ، فتعين انتفاء الملزومين حقيقة فى الأول وإدعاء باطلا فى الثانى ضرورة استلزام انتفاء الملزوم ، لكن لا بطريق السببية الخارجية ، كما فى المثالين الأولين ، بل بطريق الدلالة العقلية الراجعة إلى سببية العلم بانتفاء الثانى للعلم بانتفاء الأول ومن لم يتنبه له زعم أنه لانتفاء الأول لانتفاء الثانى .

وأما فى مادة الدوران الجزئى كما فى قولك لو طلعت الشمس لوجد الضوء ، فلأن الجزاء المنوط بالشرط الذى هو طلوعها ليس وجود أى ضوء كان كضوء القمر الجامع لعدم الطلوع مثلا ، بل إنما هو وجود الضوء الخاص الناشىء عن(٢) الطلوع ، ولا ريب فى انتفائه بانتفاء الطلوع ، هذا إذا بنى الحكم على اعتبار الدوران ، وأما إذا بنى على عدمه فإما أن يعتبر هناك تحقق مدار آخر له أولا ، فإن اعتبر فالدلالة تابعة لحال ذلك المدار فإن كان بينه وبين انتفاء الأول منافاة تعين الدلالة كما إذا قلنا(٣) لو لم تطلع الشمس لوجد الضوء ، فإن وجود الضوء وإن علق صورة بعدم الطلوع لكنه فى الحقيقة معلق بسبب آخر له ضرورة أن عدم الطلوع من حيث هو هو ليس مدارا لوجود الضوء فى الحقيقة ، وإنما وضع موضع المدار لكونه كاشفا عن تحقق مدار آخر له ، فكأنه قيل لو لم تطلع الشمس لوجد الضوء بسبب آخر كالقمر مثلا ولا ريب فى أن هذا الجزاء منتف عند انتفاء الشرط لاستحالة وجود الضوء القمرى عند طلوع الشمس ، وإن لم يكن بينهما منافاة تعين عدم الدلالة كما فى قوله صلى الله

---

(١) فى المطبوعة ابتغاء . (٢) فى المطبوعة من (٣) فى المطبوعة قلت .

عليه وسلم فى بنت أبى سلمة : « لو لم تكن ربيبتى فى حجرى ما حلت لى لأنها لابنة أخى من الرضاعة » فإن المدار المعتبر فى ضمن الشرط أعنى كونها ابنة أخيه عليه السلام من الرضاعة غير مناف لانتفائه الذى هو كونها ربيبته عليه السلام ، بل مجامع له ، ومن ضرورته مجامعة أثريهما أعنى الحرمة الناشئة من كونها ربيبته عليه السلام ، والحرمة الناشئة من كونها ابنة أخيه من الرضاعة . وإن لم يعتبر هناك تحقق مدار آخر بل يبنى(١) الحكم على اعتبار عدمه فلادلالة لها على ذلك أصلا .

كيف لا ومساق الكلام حينئذ لبيان ثبوت الجزاء على كل حال بتعليقه بما ينافيه ليعلم ثبوته عند وقوع ما لا ينافيه بالطريق الأولى ، كما فى قوله عز وجل (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذاً لأمسكتم) وقوله عليه السلام « لو كان الإيمان فى الثريا لناله رجال من فارس » وقول على رضى الله عنه « لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا » فإن الأجزية المذكورة قد نيطت بما ينافيها ويستدعى نقائضها . إيذانا بأنها فى أنفسها بحيث يجب ثبوتها مع فرض انتفاء أسبابها أو تحقق انتفاء أسبابها(٢) ، فكيف إذا لم يكن كذلك على طريقة لو الوصلية ، فى مثل قوله تعالى (يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار) ولها تفاصيل وتفاريع حررناها فى تفسير قوله تعالى (أولو كنا كارهين) وقول عمر رضى الله عنه « نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه » إن حمل على تعليق عدم العصيان فى ضمن عدم الخوف بمدار آخر نحو الحياء والإجلال وغيرهما مما يجامع الخوف كان من قبيل حديث ابنة أبى سلمة ، وإن حمل بيان استحالة عصيانه مبالغة كان من هذا القبيل ، والآية الكريمة ، واردة على الاستعمال الشائع مفيدة لكمال فظاعة حالهم وغاية هول ما دهمهم من المشاق ، وأنها قد بلغت من الشدة إلى حيث لو تعلقت مشيئة الله تعالى بإزالة مشاعرهم لزالت ، لتحقق ما يقتضيه اقتضاء تاما ، وقيل ، كلمة لو فيها لربط جزائها بشرطها مجردا

---

(١) فى المطبوعة : بنى

(٢) فى المطبوعة : أسباب انتفائها .

عن الدلالة على انتفاء الآخر بمنزلة كلمة أن ومفعول المشيئة محذوف جريا على القاعدة المستمرة فإنها إذا وقعت شرطا وكان مفعولها مضمونا للجزاء فلا يكاد يذكر إلا أن يكون شيئاً مستغربا كما فى قوله :

فلو شئت أن أبكى دما لبكيته   عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

أى لو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لفعل ، ولكن لم يشأ لما يقتضيه من الحكم والمصالح ، وقرىء لأذهب بأسماعهم على زيادة الباء كما فى قوله تعالى (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) الآية(١) ، والإفراد فى المشهورة لأن السمع مصدر فى الأصل ، والجملة الشرطية معطوفة على ما قبلها من الجمل الاستئنافية ، وقيل على كلما أضاء إلخ وقوله عز وجل ﴿ إن الله على كل شىء قدير ﴾ تعليل للشرطية وتقرير لمضمونها الناطق بقدرته تعالى على إزالة مشاعرهم بالطريق البرهانى ، والشىء بحسب مفهومه اللغوى يقع على كل ما يصح أن يعلم ويخبر عنه كائنا ما كان ، على أنه فى الأصل مصدر شاء أطلق على المفعول واكتفى فى ذلك باعتبار تعلق المشيئة به من حيث العلم والإخبار عنه فقط ، وقد خص هنا بالممكن موجودا كان أو معدوما بقضية اختصاص تعلق القدرة به ، لما أنه عبارة عن التمكين من الإيجاد والإعدام الخاصين به ، وقيل هى صفة تقتضى ذلك التمكين والقادر هو الذى إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل ، والقدير هو الفعال لكل ما يشاء كما يشاء ، ولذلك لم يوصف به غير البارى جل جلاله (وتقدست أسماؤه)(٢) ومعنى قدرته تعالى على الممكن الموجود حال وجوده أنه إن شاء إبقاءه على الوجود أبقاه عليه ، فإن علة الوجود هى علة البقاء ، وقدمر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى (رب العالمين) وإن شاء إعدامه أعدمه ، ومعنى قدرته على المعدوم حال عدمه أنه إن شاء إيجاده أوجده وإن لم يشأ لم يوجده ، وقيل قدرة الإنسان هيئة بها يتمكن من الفعل والترك ، وقدرة الله تعالى عبارة عن نفى العجز ، واشتقاق القدرة من القدر لأن القادر يوقع الفعل بقدر ما تقتضيه

---

(١) سقط من المطبوعة .

(٢) ما بين الحاصرين سقط من المطبوعة

إرادته أو بقدر قوته ، وفيه دليل على أن مقدور العبد مقدور لله تعالى حقيقة ، لأنه شيء وكل شيء مقدور له تعالى .

واعلم أن كل واحد من التمثيلين وإن احتمل أن يكون من قبيل التمثيل المفرق كما فى قوله :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى

بأن يشبه المنافقون فى التمثيل الأول بالمستوقدين وهداهم الفطرى بالنار وتأييدهم إياها⁽¹⁾ بما شاهدوه من الدلائل باستيقادها وتمكنهم التام من الانتفاع به بإضاءتها ما حولهم وإزالته بإذهاب النور النارى ، وأخذ الضلالة بمقابلته بملابستهم الظلمات الكثيفة وبقائهم فيها ، وشبهوا⁽²⁾ فى التمثيل الثانى بالسابلة والقرآن وما فيه من العلوم والمعارف التى هى مدار الحياة الأبدية بالصيب الذى هو سبب الحياة الأرضية وما عرض لهم بنزوله من الغموم والأحزان وانكساف البال بالظلمات ، وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق وتصامهم عما يقرع أسماعهم من الوعيد بحال من يهوله الرعد والبرق فيخاف صواعقه فيسد أذنه عنها ، ولا خلاص له منها ، واهتزازهم لما يلمع لهم من رشد يدركونه أو رفد يحرزونه بمشيهم فى مطارح ضوء البرق ، كلما أضاء لهم ، وتحيرهم فى أمرهم حين عن لهم مصيبة بوقوفهم إذا أظلم عليهم لكن الحمل على التمثيل المركب الذى لا يعتبر فيه تشبيه كل واحد من المفردات الواقعة فى أحد الجانبين بواحد من المفردات الواقعة فى الجانب الآخر على وجه التفصيل ، بل ينتزع فيه من المفردات الواقعة فى جانب المشبه هيئة فتشبه بهيئة أخرى منتزعة من المفردات الواقعة فى جانب المشبه به بأن ينتزع من المنافقين وأحوالهم المفصلة فى كل واحد من التمثيلين هيئة بحيالها فتشبه كل واحدة من الأوليين بما يضاهيها من الأخريين هو الذى يقتضيه جزالة التنزيل ويستدعيه فخامة شأنه الجليل لاشتماله على التشبيه الأول إجمالا مع أمر زائد هو تشبيه الهيئة بالهيئة وإيذانه بأن

---

(1) فى ط : إياه

(2) فى ط : أو يشبهوا .

اجتماع تلك المفردات مستتبع لهيئة عجيبة حقيقة بأن تكون مثلا فى الغرابة .

التحريض على العبادة

﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم ﴾ إثر ما ذكر الله تعالى من علو طبقة كتابه الكريم وتحزب الناس فى شأنه إلى ثلاث فرق مؤمنة به محافظة على ما فيه من الشرائع والأحكام . وكافرة قد نبذته وراء ظهرها بالمجاهرة والشقاق ، وأخرى مذبذبة بينهما بالمخادعة والنفاق ونعت كل فرقة منها بمالها من النعوت والأحوال وبين ما لهم من المصير والمآل أقبل عليهم بالخطاب على نهج الالتفات هزا لهم إلى الإصغاء وتوجيها لقلوبهم نحو التلقى ، وجبرا لما فى العبادة من الكلفة بلذة الخطاب ، فأمرهم كافة بعبادته ونهاهم عن الإشراك به ، ويا حرف وضع لنداء البعيد ، وقد ينادى به القريب تنزيلا له منزلة البعيد إما إجلالا كما فى قول الداعى يا ألله ويارب ، وهو أقرب إليه من حبل الوريد استقصارا لنفسه واستبعادا لها من محافل الزلفى ومنازل المقربين ، وإما تنبيها على غفلته وسوء فهمه وقد يقصد به التنبيه على أن ما يعقبه أمر خطير يعتنى بشأنه ، وأى اسم مبهم جعل وصله إلى نداء المعرف باللام لا على المنادى أصالة بل على أنه صفة موضحة له مزيلة لإبهامه ، والتزم رفعه مع انتصاب موصوفه محلا إشعارا بأنه المقصود بالنداء . وأقحمت بينهما كلمة التنبيه تأكيدا لمعنى النداء وتعويضا عما يستحقه أى من المضاف إليه ، ولما ترى من استقلال هذه الطريقة بضروب من أسباب المبالغة والتأكيد كثر سلوكها فى التنزيل المجيد ، كيف لا وكل ما ورد فى تضاعيفه على العباد من الأحكام والشرائع وغير ذلك خطوب جليلة حقيقة بأن تقشعر منها الجلود وتطمئن بها القلوب الأبية ، ويتلقوها بآذان واعية ، وأكثرهم عنها غافلون ، فاقتضى الحال المبالغة والتأكيد فى الإيقاظ والتنبيه والمراد بالناس كافة المكلفين الموجودين فى ذلك العصر . لما أن الجموع وأسماءها المحلاة باللام للعموم بدليل صحة الاستثناء منها والتأكيد بما يفيد العموم كما فى قوله تعالى (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) واستدلال الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين بعمومها شائعا ذائعا ، وأما من عداهم ممن سيوجد منهم

فغير داخلين فى خطاب المشافهة ، وإنما دخولهم تحت حكمه لما تواتر من دينه صلى الله عليه وسلم ، ضرورة أن مقتضى خطابه وأحكامه شامل للموجودين من المكلفين ولمن سيوجد منهم إلى قيام الساعة ، ولا يقدح فى العموم ما روى عن علقمة والحسن البصرى من أن كل ما نزل فيه (يا أيها الناس) فهو مكى ، إذ ليس من ضرورة نزوله بمكة شرفها الله تعالى اختصاص حكمه بأهلها ولا من قضية اختصاصه بهم اختصاصه بالكفار ، إذ لم يكن كل أهلها حينئذ كفرة ولا ضير فى تحقق العبادة فى بعض المكلفين قبل ورود هذا الأمر لما أن المأمور به القدر المشترك الشامل لإنشاء العبادة والثبات عليها والزيادة فيها مع أنها متكررة حسب تكرر أسبابها ولا فى انتفاء شرطها فى الآخرين منهم أعنى الإيمان لأن الأمر بها منتظم للأمر بما لا تتم إلا به وقد علم من الدين ضرورة اشتراطها به فإن أمر المحدث بالصلاة مستتبع للأمر بالتوضى لا محالة .

وقد قيل المراد بالعبادة ما يعم أفعال القلب أيضاً لما أنها عبارة عن غاية التذلل والخضوع وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن كل ما ورد فى القرآن من العبادات فمعناها التوحيد وقيل معنى اعبدوا وحدوا وأطيعوا ولا شك فى كون بعض من الفرقتين الأخيرتين ممن لا يجدى فيهم الإنذار بموجب النص القاطع لما أن الأمر لقطع الأعذار ليس فيه تكليفهم بما ليس فى وسعهم من الإيمان بعدم إيمانهم أصلا ، إذ لا قطع لأحد منهم بدخوله فى حكم النص قطعاً ، وورد النص بذلك لكونهم فى أنفسهم بسوء اختيارهم كذلك لا أن كونهم كذلك لورود النص بذلك ، فلا جبر أصلا .

نعم لتخصيص الخطاب بالمشركين وجه لطيف ستقف عليه عند قوله تعالى (وأنتم تعلمون) وإيراده تعالى بعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لتأكيد موجب الأمر بالإشعار بعليتها للعبادة ﴿الذى خلقكم﴾ صفة أجريت عليه سبحانه للتبجيل والتعليل إثر التعليل وقد جوز كونها للتقييد والتوضيح بناء على تخصيص الخطاب بالمشركين ، وحمل الرب على ما هو أعم من الرب الحقيقى ، والآلهة التى يسمونها أربابا والخلق إيجاد الشىء على تقدير واستواء

وأصله التقدير يقال خلق النعل أى قدرها وسواها بالمقياس ، وقرىء خلقكم بإدغام القاف فى الكاف ﴿ والذين من قبلكم ﴾ عطف على الضمير المنصوب ومتمم لما قصد من التعظيم والتعليل ، فإن خلق أصولهم من موجبات العبادة كخلق أنفسهم ، ومن ابتدائية متعلقة بمحذوف أى كانوا من زمان قبل زمانكم وقيل خلقهم من قبل خلقكم فحذف الخلق وأقيم الضمير مقامه والمراد بهم من تقدمهم من الأمم السالفة كافة ومن ضرورة عموم الخطاب بيان شمول خلقه تعالى للكل وتخصيصه بالمشركين يؤدى إلى عدم التعرض لخلق من عداهم من معاصريهم وإخراج الجملة مخرج الصلة التى حقها أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصول عندهم أيضا مع أنهم غير معترفين بغاية الخلق وإن اعترفوا بنفسه كما ينطق به قوله تعالى (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) للإيذان بأن خلقهم للتقوى من الظهور بحيث لا يتأتى لأحد إنكاره وقرىء وخلق من قبلكم وقرىء والذين من قبلكم بإقحام الموصول الثانى بين الأول وصلته توكيدا كإقحام اللام بين المضافين فى لا أبالك ، أو بجعله موصوفا بالظرف خبرا لمبتدأ محذوف ، أى الذين هم أناس كائنون من قبلكم ﴿ لعلكم تتقون ﴾ المعنى الوضعى لكلمة لعل هو إنشاء توقع أمر متردد بين الوقوع وعدمه مع رجحان الأول إما محبوب فيسمى ترجيا ، أو مكروه فيسمى إشفاقا ، وذلك المعنى قد يعتبر تحققه بالفعل إما من جهة المتكلم كما فى قولك لعل الله يرحمنى وهو الأصل الشائع فى الاستعمال . لأن معانى الإنشاءات قائمة به وإما من جهة المخاطب تنزيلا له منزلة المتكلم فى التلبس التام بالكلام الجارى بينهما ، كما فى قوله سبحانه (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) وقد يعتبر تحققه بالقوة بضرب من التجوز إيذانا بأن ذلك الأمر فى نفسه مئنة للتوقع متصف بحيثية مصححة له من غير أن يعتبر هناك توقع بالفعل من متوقع أصلا .

فإن روعيت فى الآية الكريمة جهة المتكلم يستحيل إرادة ذلك المعنى لامتناع التوقع من علام الغيوب عز وجل فيصار إما إلى الاستعارة بأن يشبه طلبه تعالى من عباده التقوى مع كونهم مئنة لها لتعاضد أسبابها برجاء الراجى من

المرجو منه أمراً هين الحصول فى كون متعلق كل منهما مترددا بين الوقوع وعدمه مع رجحان الأول فيستعار له كلمة لعل استعارة تبعية حرفية للمبالغة فى الدلالة على قوة الطلب وقرب المطلوب من الوقوع وإما إلى التمثيل بأن يلاحظ خلقه تعالى إياهم مستعدين للتقوى وطلبه إياها منهم وهم متمكنون منها جامعون لأسبابها ، وينتزع من ذلك هيئة فتشبه بهيئة منتزعة من الراجى ورجائه من المرجو منه شيئاً سهل المنال ، فيستعمل فى الهيئة الأولى ما حقه أن يستعمل فى الثانية ، فيكون هناك استعارة تمثيلية قد صرح من ألفاظها بما هو العمدة فى انتزاع الهيئة المشبه بها أعنى كلمة الترجى والباقى منوى بألفاظ متخيلة بها يحصل التركيب المعتبر فى التمثيل كما مر مراراً وأما جعل المشبه إرادته تعالى فى الاستعارة والتمثيل فأمر مؤسس على قاعدة الاعتزال القائلة بجواز تخلف المراد عن إرادته تعالى ، فالجملة حال إما من فاعل خلقكم أى طالبا منكم التقوى أو من مفعوله ، وما عطف عليه بطريق تغليب المخاطبين على الغائبين ، لأنهم المأمورون بالعبادة أى خلقكم وإياهم مطلوبا منكم التقوى أو علة له ، فإن خلقهم على تلك الحال فى معنى خلقهم لأجل التقوى ، كأنه قيل خلقكم لتتقوا ، أوكى تتقوا ، إما بناء على تجويز تعليل أفعاله تعالى بأغراض راجعة إلى العباد كما ذهب إليه كثير من أهل السنة ، وإما تنزيلا لترتب الغاية على ما هى ثمرة له منزلة ترتب الغرض على ما هو غرض له ، فإن استتباع أفعاله تعالى لغايات ومصالح متقنة جليلة من غير أن تكون هى علة غائية لها بحيث لولاها لما أقدم عليها مما لا نزاع فيه وتقييد خلقهم بما ذكر من الحال أو العلة لتكميل عليته للمأمور به وتأكيدها ، فإن إتيانهم بما خلقوا له أدخل فى الوجوب ، وإيثار تتقون على تعبدون مع موافقته لقوله تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) للمبالغة فى إيجاب العبادة والتشديد فى إلزامها ، لما أن التقوى قصارى أمر العابد ومنتهى جهده ، فإذا لزمتهم التقوى كان ما هو أدنى منها ألزم ، والإتيان به أهون .

وإن روعيت جهة المخاطب فلعل فى معناها الحقيقى ، والجملة حال من ضمير

أعبدوا ، كأنه قيل أعبدوا ربكم راجين للانتظام فى زمرة المتقين الفائزين بالهدى والفلاح .

المراد بالتقوى

على أن المراد بالتقوى مرتبتها الثالثة ، التى هى التبتل إلى الله عز وجل بالكلية ، والتنزه عن كل ما يشغل سره عن مراقبته ، وهى أقصى غايات العبادة التى يتنافس فيها المتنافسون ، وبالانتظام القدر المشترك بين إنشائه والثبات عليه ليرتجيه أرباب هذه المرتبة وما دونها من مرتبتى التوقى عن العذاب المخلد ، والتجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك كما مر فى تفسير المتقين .

ولعل توسيط الحال من الفاعل بين وصفى المفعول لما فى التقديم من فوات الإشعار بكون الوصف الأول معظم أحكام الربوبية ، وكونه عريقا فى إيجاب العبادة وفى التأخير من زيادة طول الكلام هذا على تقدير اعتبار تحقق التوقع بالفعل ، فأما إن اعتبر تحققه بالقوة فالجملة حال من مفعول خلقكم ، وما عطف عليه على الطريقة المذكورة أى خلقكم وإياهم حال كونكم جميعاً بحيث يرجو منكم كل راج أن تتقوا ، فإنه سبحانه وتعالى لما برأهم مستعدين للتقوى ، جامعين لمباديها الآفاقية والأنفسية ، كان حالهم بحيث يرجو منهم كل راج أن يتقوا لامحالة ، وهذه الحالة مقارنة لخلقهم وإن لم يتحقق الرجاء قطعاً .

واعلم أن الآية الكريمة مع كونها بعبارتها ناطقة بوجوب توحيده تعالى وتحتم عبادته على كافة الناس مرشدة لهم بإشارتها إلى أن مطالعة الآيات التكوينية المنصوبة فى الأنفس والآفاق مما يقضى بذلك قضاء متقنا ، وقد بين فيها أولا من تلك الآيات ما يتعلق بأنفسهم من خلقهم وخلق أسلافهم لما أنه أقوى شهادة وأظهر دلالة ، ثم عقب بما يتعلق بمعاشهم فقيل .

عود إلى بواعث التقوى

﴿ الذى جعل لكم الأرض فراشا ﴾ وهو فى محل النصب على أنه صفة ثانية لربكم ، موضحة أو مادحة ، أو على تقدير أخص أو أمدح ، أو فى محل الرفع على المدح والتعظيم بتقدير المبتدأ ، قال ابن مالك : التزم حذف الفعل

فى المنصوب على المدح إشعارا بأنه إنشاء كما فى المنادى ، وحذف المبتدأ فى المرفوع إجراء للوجهين على سنن واحد ، وأما كونه مبتدأ خبره فلا تجعلوا كما قيل فيستدعى أن يكون مناط النهى ما فى حين الصلة فقط من غير أن يكون لما سلف من خلقهم وخلق من قبلهم مدخل فى ذلك مع كونه أعظم شأنا ، وجعل بمعنى صير والمنصوبان بعده مفعولاه ، وقيل هى بمعنى خلق ، وانتصاب الثانى على الحالية والظرف متعلق به على التقديرين ، وتقديمه على المفعول الصريح لتعجيل المسرة ببيان كون ما يعقبه من منافع المخاطبين ، وللتشويق إليه لأن النفس عند تأخير ما حقه التقديم لاسيما عند (١) الإشعار بمنفعته تبقى مترقبة له ، فيتمكن لديها عند وروده عليها فضل تمكن ، أولما فى المؤخر وما عطف عليه من نوع طول . فلو قدم لفات تجاوب(٢) أطراف النظم الكريم ، ومعنى جعلها فراشا جعل بعضها بارزا من الماء مع اقتضاء طبعها الرسوب ، وجعلها متوسطة بين الصلابة واللين صالحة للقعود عليها والنوم فيها كالبساط المفروش ، وليس من ضرورة ذلك كونها سطحا حقيقيا ، فإن كرية شكلها مع عظم جرمها مصحح(٣) لافتراشها ، وقرىء بساطا ومهادا .

﴿ والسماء بناء ﴾ عطف على المفعولين السابقين ، وتقديم حال الأرض لما أن احتياجهم إليها وانتفاعهم بها أكثر وأظهر ، أى جعلها قبة مضروبة عليكم والسماء اسم جنس يطلق على الواحد والمتعدد ، أو جمع سماوة أو سماءة ، والبناء فى الأصل مصدر سمى به المبنى بيتا كان أو قبة أو خباء ، ومنه قولهم بنى على امرأته لما أنهم كانوا إذا تزوجوا امرأة ضربوا عليها خباء جديدا .

﴿ وأنزل من السماء ماء ﴾ عطف على جعل أى أنزل من جهتها ، أو منها إلى السحاب ومن السحاب إلى الأرض ، كما روى ذلك عنه عليه الصلاة والسلام أو المراد بالسماء جهة العلو كما ينبىء عنه الإظهار فى موضع الإضمار ، وهو على الأولين لزيادة التقرير ، ومن لابتداء الغاية متعلقة بأنزل أو بمحذوف

---

(١) فى الأصل : بعد الإشعار (٢) فى ١١ : تجاذب (٣) فى الأصل : مصححة

وقع حالا من المفعول أى كائنا من السماء ، قدم عليه لكونه نكرة ، وأما تقديم الظرف على الوجه الأول مع أن التأخير عن المفعول الصريح فإما لأن السماء أصله ومبدؤه ، وإما لما مر من التشويق إليه مع ما فيه من مزيد انتظام بينه وبين قوله تعالى : ﴿ فأخرج به ﴾ أى بسبب الماء ﴿ من الثمرات رزقا لكم ﴾ .

وذلك بأن أودع فى الماء قوة فاعلة وفى الأرض قوة منفعلة ، فتولد من تفاعلهما أصناف الثمار ، أو بأن أجرى عادته بإفاضة صور الثمار وكيفيتها المخالفة على المادة الممتزجة منها وإن كان المؤثر فى الحقيقة قدرته تعالى ومشيئته ، فإنه تعالى قادر على أن يوجد جميع الأشياء بلا مباد ومواد كما أبدع نفوس المبادىء والأسباب ، لكن له عز وجل فى إنشائها متقلبة فى الأحوال وفى الأطوار من بدائع حكم باهرة تجدد لأولى الأبصار عبرا ومزيد طمأنينة، إلى عظيم قدرته ولطيف حكمته ما ليس فى إبداعها بغتة ، ومن للتبعيض لقوله تعالى (فأخرجنا به ثمرات) ولوقوعها بين منكرين . أعنى ماء ورزقا كأنه قيل : وأنزل من السماء بعض الماء فأخرج به بعض الثمرات ليكون بعض رزقكم ، وهكذا الواقع إذ لم ينزل من السماء كل الماء ، ولا أخرج من الأرض كل الثمرات ، ولا جعل كل المرزوق ثمارا ، أو للتبيين ورزقا مفعول بمعنى المرزوق ، ومن الثمرات بيان له ، أو حال منه كقولك أنفقت من الدراهم ألفا ، ويجوز أن يكون من الثمرات مفعولا ورزقا حالا منه أو مصدرا من أخرج ، لأنه بمعنى رزق .

وإنما شاع ورود الثمرات دون الثمار مع أن الموضع موضع كثرة لأنه أريد بالثمرات جماعة الثمرة فى قولك : أدركت ثمرة بستانه ، ويؤيده القراءة على التوحيد ، أو لأن الجموع يقع بعضها موقع بعض ، كقوله تعالى : (كم تركوا من جنات وعيون) وقوله تعالى : (ثلاثة قروء) أو لأنها محلاة باللام خارجة عن حد القلة ، واللام متعلقة بمحذوف وقع صفة لرزقا على تقدير كونه بمعنى المرزوق ، أى رزقا كائنا لكم ، أو دعامة لتقوية عمل رزقا على تقدير كونه مصدرا ، كأنه قيل رزقا إياكم .

﴿ فلا تجعلوا لله أندادا ﴾ إما متعلق بالأمر السابق مترتب عليه ، كأنه قيل : إذا أمرتم بعبادة من هذا شأنه من التفرد بهذه النعوت الجليلة والأفعال الجميلة فلا تجعلوا له شريكا ، وإنما قيل أندادا باعتبار الواقع ، لا لأن مدار النهى هو الجمعية ، وقرىء ندا ، وإيقاع الاسم الجليل موقع الضمير لتعيين المعبود بالذات إثر تعيينه بالصفات وتعيين⁽١⁾ الحكم بوصف الألوهية التى عليها يدور أمر الوحدانية واستحالة الشركة والإيذان باستتباعها لسائر الصفات ، وإما معطوف عليه كما فى قوله تعالى : اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، والفاء للإشعار بعلية ما قبلها من الصفات المجراة عليه تعالى للنهى أو الانتهاء أو لأن مآل النهى هو الأمر بتخصيص العبادة به تعالى المترتب على أصلها ، كأنه قيل : اعبدوه فخصوها به ، والإظهار فى موضع الإضمار لما مر آنفا ، وقيل هو نفى منصوب بإضمار أن جوابا للأمر ، ويأباه أن ذلك فيما يكون الأول سببا للثانى . ولاريب فى أن العبادة لا تكون سببا للتوحيد ، الذى هو أصلها ومبناها .

وقيل هو منصوب بلعل نصب (فأطلع) فى قوله تعالى : (لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى) أى خلقكم لتتقوا وتخافوا عقابه فلا تشبهوه بخلقه ، وحيث كان مدار هذا النصب تشبيه لعل فى بعد المرجو بليت كان فيه تنبيه على تقصيرهم بجعلهم المرجو القريب بمنزلة المتمنى البعيد ، وقيل هو متعلق بقوله تعالى : (الذى جعل الخ) على تقدير رفعه على المدح ، أى هو الذى خصكم بهذه الآيات العظام والدلائل النيرة ، فلا تتخذوا له شركاء ، وفيه ما مر من لزوم كون خلقهم وخلق أسلافهم بمعزل من مناطية النهى مع عراقتهما فيها . وقيل هو خبر للموصول بتأويل مقول فى حقه ، وقد عرفت مافيه مع لزوم المصير إلى مذهب الأخفش فى تنزيل الاسم الظاهر منزلة الضمير كما فى قولك زيد قام أبو عبد الله إذا كان ذلك كنيته .

---

(١) فى الأصل : وتعليل

والند المثل المساوى من ند ندودا إذا نفر ، وناددته خالفته ، خص بالمخالف المماثل بالذات كما خص المساوى بالمماثل فى المقدار ، وتسمية ما يعبده المشركون من دون الله أندادا والحال أنهم ما زعموا أنها تماثله تعالى فى صفاته ولا أنها تخالفه فى أفعاله لما أنهم لما تركوا عبادته تعالى إلى عبادتها ، وسموها آلهة شابهت حالهم حال من يعتقد أنها ذوات واجبة بالذات ، قادرة على أن تدفع عنهم بأس الله عز وجل ، وتمنحهم ما لم يرد الله تعالى بهم من خير ، فتهكم بهم وشنع عليهم أن جعلوا أندادا لمن يستحيل أن يكون له ند واحد وفى ذلك قال موحد الجاهلية زيد بن عمرو بن نفيل :

أربا واحدا أم ألف رب   أدين إذا تقسمت الأمور
تركت اللات والعزى جميعا   كذلك يفعل الرجل البصير

وقوله تعالى : ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ حال من ضمير لا تجعلوا بصرف التقييد إلى ما أفاده النهى من قبح المنهى عنه ووجوب الاجتناب عنه ، ومفعول تعلمون مطروح بالكلية كأنه قيل لا تفعلوا(١) ذلك فإنه قبيح واجب الاجتناب عنه ، والحال أنكم من أهل العلم والمعرفة بدقائق الأمور وإصابة الرأى ، أو مقدر حسبما يقتضيه المقام ، نحو وأنتم تعلمون بطلان ذلك ، أو تعلمون أنه لا يماثله شىء ، أو تعلمون ما بينه وبينها من التفاوت ، أو تعلمون أنها لا تفعل مثل أفعاله كما فى قوله تعالى : (هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء) أو غير ذلك .

وحاصله تنشيط المخاطبين وحثهم على الانتهاء عما نهوا عنه هذا هو الذى يستدعيه عموم الخطاب فى النهى بجعل المنهى عنه القدر المشترك المنتظم لإنشاء الانتهاء كما هو المطلوب من الكفرة ، وللثبات عليه كما هو شأن المؤمنين حسبما مر مثله فى الأمر ، وأما صرف التقييد إلى نفس النهى فيستدعى تخصيص الخطاب بالكفرة لا محالة إذ لا يتسنى ذلك بطريق قصر النهى على حالة العلم ضرورة شمول التكليف للعالم والجاهل والمتمكن من العلم بل إنما

---

(١) فى الأصل : لا تجعلوا

يتأتى بطريق المبالغة فى التوبيخ والتقريع ، بناء على أن تعاطى القبائح من العالمين بقبحها أقبح ; وذلك إنما يتصور فى حق الكفرة ، فمن صرف التقييد إلى نفس النهى مع تعميم الخطاب للمؤمنين أيضا فقد نآى عن التحقيق .

إن قلت : أليس فى تخصيصه بالكفرة فى الأمر والنهى خلاص من أمثال مامر من التكلفات وحسن انتظام بين السباق والسياق إذ لا محيد فى آية التحدى من تجريد الخطاب وتخصيصه بالكفرة لامحالة مع مافيه من رباء محل المؤمنين ورفع شأنهم عن حيز الانتظام فى سلك الكفرة والإيذان بأنهم مستمرون على الطاعة والعبادة حسبما مر فى صدر السورة الكريمة مستغنون فى ذلك عن الأمر والنهى ؟ قلت ، بلى إنه وجه سرى ، ونهج سوى ، لايضل من ذهب إليه ولا يزل من ثبت قدمه عليه ، فتأمل .

دلائل أن القرآن من عند الله

﴿وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا﴾ شروع فى تحقيق أن الكتاب الكريم الذى من جملته ما تلى من الآيتين الكريمتين ، الناطقتين بوجوب العبادة والتوحيد منزل من عند الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم ، كما أن ما ذكر فيهما من الآيات التكوينية الدالة على ذلك صادرة عنه تعالى لتوضيح اتصافه بما ذكر فى مطلع السورة الشريفة من النعوت الجلية التى من جملتها نزاهته عن أن يعتريه ريب ما والتعبير عن اعتقادهم فى حقه بالريب مع أنهم جازمون بكونه من كلام البشر كما يعرب عنه قوله تعالى (إن كنتم صادقين) إما للإيذان بأن أقصى ما يمكن صدوره عنهم وإن كانوا فى غاية ما يكون من المكابرة والعناد هو الارتياب فى شأنه ، وأما الجزم المذكور فخارج من دائرة الاحتمال ، كما أن تنكيره وتصديره بكلمة الشك للإشعار بأن حقه أن يكون ضعيفا مشكوك الوقوع ، وإما للتنبيه على أن جزمهم ذلك بمنزلة الريب الضعيف لكمال وضوح دلائل الإعجاز ونهاية قوتها .

وإنما لم يقل وإن ارتبتم فيما نزلنا الخ لما أشير إليه فيما سلف من المبالغة فى تنزيه ساحة التنزيل عن شائبة وقوع الريب فيه حسبما نطق به قوله تعالى :

(لاريب فيه) للإشعار بأن ذلك إن وقع فمن جهتهم لامن جهته العالية ، واعتبار استقرارهم فيه وإحاطته بهم لا ينافى اعتبار ضعفه وقلته ، لما أن ما يقتضيه ذلك هو دوام ملابستهم به لاقوته وكثرته ، ومن فى مما ابتدائية متعلقة بمحذوف وقع صفة لريب ، وحملها على السببية ربما يوهم كونه محلا للريب فى الجملة وحاشاه (من)(١) ذلك وما موصولة كانت أو موصوفة عبارة عن الكتاب الكريم لاعن القدر المشترك بينه وبين أبعاضه ، وليس معنى كونهم فى ريب منه ارتيابهم فى استقامة معانيه ، وصحة أحكامه ، بل فى نفس كونه وحيا منزلا من عند الله عز وجل ، وإيثار التنزيل المنبىء(٢) عن التدريج على مطلق الإنزال لتذكير منشأ ارتيابهم ، وبناء التحدى عليه إرخاء للعنان وتوسيعا للميدان ، فإنه كانوا اتخذوا نزوله منجما وسيلة إلى إنكاره ، فجعل ذلك من مبادى الاعتراف به ، كأنه قيل : إن ارتبتم فى شأن ما نزلناه على مهل وتدريج فهاتوا أنتم مثل نوبة فذة من نوبه ، ونجم فرد من نجومه ، فإنه أيسر عليكم من أن ينزل جملة واحدة ، ويتحدى بالكل .

وهذا كما ترى غاية ما يكون فى التبكيت وإزاحة العلل وفى ذكره صلى الله عليه وسلم بعنوان العبودية مع الإضافة إلى ضمير الجلالة من التشريف والتنويه والتنبيه على اختصاصه به عز وجل وانقياده لأوامره تعالى مالايخفى . وقرىء على عبادنا والمراد هو صلى الله عليه وسلم وأمته ، أو جميع الأنبياء عليهم السلام ، ففيه إيذان بأن الارتياب فيه إرتياب فيما أنزل (على)(٣) من قبله لكونه مصدقا له ومهيمنا عليه والأمر فى قوله تعالى ﴿ فأتوا بسورة ﴾ من باب التعجيز وإلقام الحجر ، كما فى قوله تعالى (فأت بها من المغرب) والفاء للجواب وسببية الارتياب للأمر أو الإتيان بالمأمور به لما أشير إليه من أنه عبارة عن جزمهم المذكور ، فإنه سبب للأول مطلقا ، وللثانى على تقدير الصدق ، كأنه قيل إن كان الأمر كما زعمتم من كونه كلام البشر فأتوا بمثله ، لأنكم تقدرون على

---

(١) سقطت من الأصل (٢) فى ١١ : المبق (٣) سقطت من الأصل

ما يقدر عليه سائر بنى نوعكم . والسورة الطائفة من القرآن العظيم المترجمة ، وأقلها ثلاث آيات . وواوها أصلية منقولة من سور البلد ، لأنها محيطة بطائفة من القرآن مفرزة محوزة على حيالها ، أو محتوية على فنون رائقة من العلوم احتواء سور المدينة على ما فيها ، أو من السورة التى هى الرتبة قال :

ولرهط حراب وقد سورة فى المجد ليس غرابها بمطار

فإن سور القرآن مع كونها فى أنفسها رتبا من حيث الفضل والشرف أو من حيث الطول والقصر ، فهى من حيث انتظامها مع أخواتها فى المصحف مراتب يرتقى إليها القارىء شيئاً فشيئاً . وقيل واوها مبدلة من الهمزة ، فمعناها البقية من الشيء ، ولايخفى ما فيه ومن فى قوله تعالى ﴿ من مثله ﴾ بيانية متعلقة بمحذوف وقع صفة لسورة ، والضمير لما نزلنا ، أى بسورة كائنة من مثله فى علو الرتبة وسمو الطبقة ، والنظم الرائق والبيان البديع ، وحيازة سائر نعوت الإعجاز وجعلها تبعيضية يوهم أن له مثلا محققا قد أريد تعجيزهم عن الإتيان ببعضه ، كأنه قيل ، فأتوا ببعض ما هو مثل له فلا يفهم منه كون المماثلة من تتمة المعجوز عنه فضلا عن كونها مدارا للعجز مع أنه المراد ، وبناء الأمر على المجاراة معهم بحسب حسبانهم حيث كانوا يقولون (لو نشاء لقلنا مثل هذا) أو على التهكم يأباه ما سبق من تنزيله منزلة الريب ، فإن مبنى التهكم على تسليم ذلك منهم وتسويفه ولو بغير جد ، وقيل هى زائدة كما هو رأى الأخفش ، بدليل قوله تعالى (فأتوا بسورة مثله) ، (بعشر سور مثله) وقيل هى ابتدائية ، فالضمير حينئذ للمنزل عليه حتما ، لما أن رجوعه إلى المنزل يوهم أن له مثلا محققا (بالفعال)(١) قد ورد الأمر التعجيزى بالإتيان بشيء منه ، وقد عرفت ما فيه بخلاف رجوعه إلى المنزل عليه ، فإن تحقق مثله عليه السلام فى البشرية والعربية والأمية يهون الخطب فى الجملة ، خلا أن تخصيص التحدى بفرد يشاركه عليه السلام فيما ذكر من الصفات المنافية للإتيان بالمأمور به لايدل على عجز من ليس كذلك من علمائهم ، بل ربما يوهم قدرتهم على ذلك فى

---

(١) سقط من ط .

الجملة فرادى أو مجتمعين ، مع أنه يستدعى عراء المنزل عما فصل من النعوت الموجبة لاستحالة وجود مثله ، فأين هذا من تحدى أمة جمة وأمرهم بأن يحتشدوا فى حلبة المعارضة بخيلهم ورجلهم حسبما ينطق به قوله تعالى ﴿ وادعوا شهداءكم من دون الله ﴾ على الإتيان بقدر يسير مماثل فى صفات الكمال لما أتى بجملته واحد من أبناء جنسهم .

والشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة أو الناصر ، ومعنى دون أدنى مكان من شيء ، يقال هذا دون ذاك إذا كان أحط منه قليلا ، ثم استعير للتفاوت فى الأحوال والرتب فقيل زيد دون عمرو ، أى فى الفضل والرتبة ، ثم اتسع فاستعمل فى كل تجاوز حد إلى حد وتخطى حكم إلى حكم من غير ملاحظة انحطاط أحدهما عن الآخر ، فجرى مجرى أداة الاستثناء ، وكلمة من إما متعلقة بادعوا فتكون لابتداء الغاية ، والظرف مستقر والمعنى أدعوا متجاوزين الله تعالى لاستظهار من حضركم كائنا من كان ، أو الحاضرين فى مشاهدكم ومحاضركم من رؤسائكم وأشرافكم الذين تفزعون إليهم فى الملمات ، وتعولون عليهم فى المهمات ، أو القائمين بشهاداتكم الجارية فيما بينكم من أمنائكم المتولين لاستخلاص الحقوق بتنفيذ القول عند الولاة ، أو القائمين بنصرتكم حقيقة أو زعما من الإنس والجن ليعينوكم .

وإخراجه سبحانه وتعالى من حكم الدعاء فى الأول مع اندراجه فى الحضور لتأكيد تناوله لجميع ما عداه ، لا لبيان استبداده تعالى بالقدرة على ما كلفوه فإن ذلك مما يوهم أنهم لو دعوه تعالى لأجابهم إليه ؛ وأما فى سائر الوجوه فللتصريح من أول الأمر ببراتهم منه تعالى ؛ وكونهم فى عدوة المحادة والمشاقة له قاصدين(١) استظهارهم على ما سواه ؛ والالتفات لإدخال الروعة وتربية المهابة ؛ وقيل المعنى ادعوا من دون أولياء الله شهداءكم الذين هم وجوه الناس وفرسان المقاولة والمناقلة ليشهدوا لكم أن ما أتيتم به مثله ، إيذانا بأنهم

---

(١) فى الأصل : قاصرين

يأبون أن يرضوا لأنفسهم الشهادة بصحة ما هو بين الفساد وجلى الاستحالة وفيه أنه يؤذن بعدم شمول التحدى لأولئك الرؤساء وقيل المعنى أدعوا شهداءكم فصححوا بهم دعواكم ولا تستشهدوا بالله تعالى قائلين الله يشهد أن ما ندعيه حق فإن ذلك ديدن المحجوج وفيه أنه إن أريد بما يدعون حقية ما هم عليه من الدين الباطل فلا مساس له بمقام التحدى وإن أريد مثلية ما أتوا به للمتحدى به فمع عدم ملاءمته لابتداء التحدى يوهم أنهم قد تصدوا للمعارضة وأتوا بشيء مشتبه الحال مترددين بين المثلية وعدمها ، وأنهم ادعوها مستشهدين فى ذلك بالله سبحانه ، إذ عند ذلك تمس الحاجة إلى الأمر بالاستشهاد بالناس والنهى عن الاستشهاد به تعالى ، وأنى لهم ذلك ، وما نبض لهم عرق ولا نبسوا ببنت شفة .

وإما متعلقة بشهداءكم والمراد بهم الأصنام ، ودون بمعنى التجاوز على أنها ظرف مستقر وقع حالا من ضمير المخاطبين ، والعامل ما دل عليه شهداءكم ، أى أدعوا أصنامكم الذين اتخذتموهم آلهة متجاوزين الله تعالى فى اتخاذها ، كذلك وكلمة من ابتدائية فإن الاتخاذ ابتداء من التجاوز ، والتعبير عن الأصنام بالشهداء لتعيين مدار الاستظهار بها بتذكير ما زعموا من أنها بمكان من الله تعالى وأنها تنفعهم بشهادتها لهم أنهم على الحق ، فإن ما هذا شأنه يجب أن يكون ملاذا لهم فى كل أمر مهم ، وملجأ يأوون إليه فى كل خطب ملم ، كأنه قيل : أولئك عدتكم فادعوهم لهذه الداهية التى دهمتكم ، فوجه الالتفات الإيذان بكمال سخافة عقولهم حيث آثروا على عبادة من له الألوهية الجامعة لجميع صفات الكمال عبادة ما لا أحقر منه .

وقيل لفظة دون مستعارة من معناها الوضعى الذى هو أدنى مكان من شيء لقدامه ، كما فى قول الأعشى :

* تريك القذى من دونها وهى دونه *

أى تريك القذى قدامها وهى قدام القذى ، فتكون ظرفا لغويا معمولا لشهداءكم لكفاية رائحة الفعل فيه ، من غير حاجة إلى اعتماد ولا إلى تقدير

يشهدون ، أى أدعوا شهداءكم الذين يشهدون لكم بين يدى الله تعالى ليعينوكم فى فى المعارضة ، وإيرادها بهذا العنوان لما مر من الإشعار بمناط الاستعانة بها ، ووجه الالتفات تربية المهابة وترشيح ذلك المعنى فإن ما يقوم بهذا الأمر فى ذلك المقام الخطير حقه أن يستعان به فى كل مرام ، وفى أمرهم على الوجهين بأن يستظهروا فى معارضة القرآن الذى أخرس كل منطيق بالجماد من التهكم بهم ما لا يوصف ، وكلمة من ههنا تبعيضية ، لما أنهم يقولون جلس بين يديه وخلفه بمعنى فى لأنهما ظرفان للفعل ومن بين يديه ومن خلفه لأن الفعل إنما يقع فى بعض تينك الجهتين كما تقول جئته من الليل تريد بعض الليل .

وقد يقال كلمة من الداخلة على دون فى جميع المواقع بمعنى فى كما فى سائر الظروف التى لاتنصرف ، وتكون منصوبة على الظرفية أبدا ، ولا تنجر إلا بمن خاصة ، وقيل المراد بالشهداء مداره القوم ووجوه المحافل والمحاضر ، ودون ظرف مستقر ومن ابتدائية أى ادعوا الذين يشهدون لكم أن ما أتيتم به مثله متجاوزين فى ذلك أولياء الله ، ومحصله شهداء مغايرين لهم إيذانا بأنهم أيضا لا يشهدون بذلك ، وإنما قدر المضاف إلى الله تعالى رعاية للمقابلة ، فإن أولياء الله تعالى يقابلون أولياء الأصنام ، كما أن ذكر الله تعالى يقابل ذكر الأصنام ، والمقصود بهذا الأمر إرخاء العنان والاستدراج إلى غاية التبكيت ، كأنه قيل تركنا إلزامكم بشهداء لا ميل لهم إلى أحد الجانبين كما هو المعتاد ، واكتفينا بشهدائكم المعروفين بالذب عنكم ، فإنهم أيضا لا يشهدون لكم حذرا من اللائمة(١) وأنفة من الشهادة البينة البطلان .

كيف لا وأمر الإعجاز قد بلغ من الظهور إلى حيث لم يبق إلى إنكاره سبيل قطعا ، وفيه ما مر من عدم الملاءمة لابتداء التحدى وعدم تناوله لأولئك الشهداء ، وإيهام أنهم تعرضوا للمعارضة وأتوا بشىء احتاجوا فى إثبات مثليته للمتحدى به إلى الشهادة ، وشتان بينهم وبين ذلك ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أى فى زعمكم أنه من كلامه عليه السلام . وهو شرط حذف جوابه لدلالة ما سبق

---

(١) ٤٦٥ الإثم

عليه ، أى إن كنتم صادقين فأتوا بسورة من مثله إلخ ، واستلزام المقدم للتالى من حيث أن صدقهم فى ذلك الزعم يستدعى قدرتهم على الإتيان بمثله بقضية مشاركتهم له عليه السلام فى البشرية والعربية ، مع ما بهم من طول الممارسة للخطب والأشعار وكثرة المزاولة لأساليب النظم والنثر ، والمبالغة فى حفظ الوقائع والأيام ، لا سيما عند المظاهرة والتعاون ولا ريب فى أن القدرة على الشىء من موجبات الإتيان به ودواعى الأمر به .

﴿ فإن لم تفعلوا ﴾ أى ما أمرتم به من الإتيان بالمثل بعد ما بذلتم فى السعى غاية المجهود ، وجاوزتم فى الجد كل حد معهود ، متشبثين بالذيول ، راكبين متن كل صعب وذلول ، وإنما لم يصرح به إيذانا بعدم الحاجة إليه ، بناء على كمال ظهور تهالكهم على ذلك ، وإنما أورد فى حيز الشرط مطلق الفعل وجعل مصدر المأمور به مفعولا له للإيجاز البديع المغنى عن التطويل والتكرير ، مع سر سرى استقل به المقام وهو الإيذان بأن المقصود بالتكليف هو إيقاع نفس الفعل المأمور به ، لإظهار عجزهم عنه لا لتحصيل المفعول أى المأتى به ضرورة استحالته ، وأن مناط الجواب فى الشرطية أعنى الأمر باتقاء النار هو عجزهم عن إيقاعه لا فوت حصول المفعول فإن مدلول لفظ هو أنفس الأفعال الخاصة لازمة كانت أو متعدية من غير اعتبار تعلقاتها بمفعولاتها الخاصة ، فإذا علق بفعل خاص متعد فإنما يقصد به إيقاع نفس ذلك الفعل وإخراجه من القوة إلى الفعل ، وأما تعلقه بمفعوله المخصوص فهو خارج عن مدلول الفعل المطلق وإنما يستفاد ذلك من الفعل الخاص ، ولذلك تراهم يتوسلون بذلك إلى تجريد الأفعال المتعدية عن مفعولاتها وتنزيلها منزلة الأفعال اللازمة ، فيقولون مثلا ، معنى فلان يعطى ويمنع يفعل الإعطاء ، والمنع ، يرشدك إلى هذا قوله تعالى (فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون) بعد قوله تعالى (أئتونى بأخ لكم من أبيكم) فإنه لما كان مقصود يوسف عليه السلام بالأمر ومرمى غرضه بالتكليف منه استحضار بنيامين لم يكتف فى الشرطية الداعية لهم إلى الجد فى الامتثال ، والسعى فى تحقيق المأمور به بالإشارة الإجمالية إلى الفعل الذى ورد

به الأمر بأن يقول : فإن لم تفعلوا ، بل أعاده بعينه متعلقا بمفعوله تحقيقا لمطلبه وإعرابا عن مقصده .

هذا وقد قيل أطلق الفعل وأريد به الإتيان مع ما يتعلق به إما على طريقة التعبير عن الأسماء الظاهرة بالضمائر الراجعة إليها حذرا من التكرار ، أو على طريقة ذكر اللازم وإرادة الملزوم ، لما بينهما من التلازم المصحح للانتقال بمعونة قرائن الحال فتدبر ، وإيثار كلمة إن المفيدة للشك على إذا مع تحقق الجزم بعدم فعلهم لمجاراة معهم بحسب حسبانهم قبل التجربة أو تهكم بهم .

﴿ولن تفعلوا﴾ كلمة لن لنفى المستقبل كلا ، خلا أن فى لن زيادة تأكيد وتشديد ، وأصلها عند الخليل (لا أن) وعند الفراء (لا) أبدلت ألفها نونا وعند سيبويه حرف مقتضب للمعنى المذكور ، وهى إحدى الروايتين عن الخليل والجملة اعتراض بين جزأى الشرطية مقرر لمضمون مقدمها ، ومؤكد لإيجاب العمل بتاليها ، وهذه معجزة باهرة حيث أخبر بالغيب الخاص علمه به عز وجل وقد وقع الأمر كذلك ، كيف لا ولو عارضوه بشىء يدانيه فى الجملة لتناقله الرواة خلفا عن سلف .

﴿فاتقوا النار﴾ جواب للشرط على أن اتقاء النار كناية عن الاحتراز من العناد ، إذ بذلك يتحقق تسببه عنه وترتبه عليه ، كأنه قيل : فإذا عجزتم عن الإتيان بمثله كما هو المقرر فاحترزوا من إنكار كونه منزلا من عند الله سبحانه فإنه مستوجب للعقاب بالنار ، لكن أوثر عليه الكناية المذكورة المبنية على تصوير العناد بصورة النار وجعل الاتصاف به عين الملابسة بها للمبالغة فى تهويل شأنه ، وتفظيع أمره . وإظهار كمال العناية بتحذير المخاطبين منه ، وتنفيرهم عنه ، وحثهم على الجد فى تحقيق المكنى عنه ، وفيه من الإيجاز البديع ما لا يخفى ، حيث كان الأصل ، فإن لم تفعلوا فقد صح صدقه عندكم ، وإذا صح ذلك كان لزومكم العناد وترككم الإيمان به سببا لاستحقاقكم العقاب بالنار ، فاحترزوا منه واتقوا النار (التى وقودها الناس والحجارة) صفة للنار مورثة لها زيادة هول وفظاعة أعاذنا الله من ذلك ، والوقود ما توقد به النار وترفع من الحطب .

وقرىء بضم الواو وهو مصدر وسمى به المفعول مبالغة كما يقال فلان فخر قومه وزين بلده ، والمعنى أنها من الشدة بحيث لا تمس شيئا من رطب أو يابس إلا أحرقته ، لا كنيران الدنيا تفتقر فى الالتهاب إلى وقود من حطب أو حشيش وإنما جعل هذا الوصف صلة للموصول مقتضية لكون انتسابها إلى ما نسبت هى إليه معلوما للمخاطب بناء على أنهم سمعوه من أهل الكتاب قبل ذلك ، أو الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو سمعوا قبل هذه الآية المدنية قوله تعالى (نارا وقودها الناس والحجارة) فأشير ههنا إلى ما سمعوه أولا ، وكون سورة التحريم مدنية لا يستلزم كون جميع آياتها كذلك كما هو المشهور ، وأما أن الصفة أيضاً يجب أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصوف عند المخاطب فالخطب فيه هين ، لما أن المخاطب هناك المؤمنون ، وظاهر أنهم سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمراد بالحجارة الأصنام ، وبالناس أنفسهم حسبما ورد فى قوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) الآية .

﴿أعدت للكافرين﴾ أى هيئت للذين كفروا بما نزلناه وجعلت عدة لعذابهم والمراد إما جنس الكفار والمخاطبون داخلون فيهم دخولا أوليا ، وإما هم خاصة ، ووضع الكافرين موضع ضميرهم لذمهم وتعليل الحكم بكفرهم وقرىء (أعتدت) من العتاد بمعنى العدة ، وفيه دلالة على أن النار مخلوقة موجودة الآن ، والجملة استئناف لا محل لها من الإعراب مقررة لمضمون ما قبلها ، ومؤكدة لإيجاب العمل به ، ومبينة لمن أريد بالناس دافعة لاحتمال(١) العموم وقيل حال بإضمار قد من النار ، لا من ضميرها فى وقودها ، لما فى ذلك من الفصل بينهما بالخبر ، وقيل صلة بعد صلة أو عطف على الصلة بترك العاطف .

بشارات المؤمنين

﴿وبشر الذين آمنوا﴾ أى بأنه منزل من عند الله عز وجل ، وهو معطوف على الجملة السابقة لكن لا على أن المقصود عطف نفس الأمر حتى يطلب له مشاكل يصح عطفه عليه ، بل على أنه عطف قصة المؤمنين بالقرآن ووصف

---

(١) فى ١١ : لإضمار العموم

ثوابهم ، على قصة الكافرين به وكيفية عقابهم ، جريا على السنة الإلهية من شفع الترغيب بالترهيب ، والوعد بالوعيد ، وكان تغيير السبك لتخييل كمال التباين بين حالى الفريقين ، وقرىء «وبشر» على صيغة الفعل مبنيا للمفعول عطفا على أعدت ، فيكون استئنافا وتعليق التبشير بالموصول للإشعار بأنه معلل بما فى حيز الصلة من الإيمان والعمل الصالح ، لكن لا لذاتهما ، فإنهما لا يكافئان النعم السابقة فضلا من أن يقتضيا ثوابا فيما يستقبل ، بل بجعل الشارع ، ومقتضى وعده وجعل صلته فعلا مفيدا للحدوث بعد إيراد الكفار بصيغة الفاعل لحث المخاطبين بالاتقاء على إحداث الإيمان ، وتحذيرهم من الاستمرار على الكفر ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل لكل من يتأتى منه التبشير ، كما فى قوله عليه السلام : «بشر المشائين إلى المساجد فى ظلم الليالى بالنور التام يوم القيامة» فإنه عليه السلام لم يأمر بذلك واحدا بعينه بل كل أحد ممن يتأتى منه ذلك ، وفيه رمز إلى أن الأمر لعظمه وفخامة شأنه حقيق بأن يتولى التبشير به كل من يقدر عليه . والبشارة الخبر السار الذى يظهر به أثر السرور فى البشرة ، وتباشير الصبح أوائل ضوئه ﴿وعملوا الصالحات﴾ الصالحة كالحسنة فى الجريان مجرى الاسم ، وهى كل ما استقام من الأعمال بدليل العقل والنقل واللام للجنس ، والجمع لإفادة أن المراد بها جملة من الأعمال الصالحة التى أشير إلى أمهاتها فى مطلع السورة الكريمة ، وطائفة منها متفاوتة حسب تفاوت حال المكلفين فى مواجب التكليف ، وفى عطف العمل على الإيمان دلالة على تغايرهما وإشعار بأن مدار استحقاق البشارة مجموع الأمرين ، فإن الإيمان أساس والعمل الصالح كالبناء عليه ولا غناء بأس لا بناء به .

﴿أن لهم جنات﴾ منصوب بنزع الخافض وإفضاء الفعل إليه ، أو مجرور بإضماره مثل : «الله لأفعلن» ، والجنة هى المرة من مصدر جنه إذا ستره ، تطلق على النخل والشجر المتكاثف المظل بالتفاف أغصانه قال زهير :

كأن عينى فى غربى مقتلة ... من النواضح تسقى جنة سحقا

أى نخلا طوالا كأنها لفرط تكاثفها والتفافها وتغطيتها لما تحتها بالمرة نفس

السترة وعلى الأرض ذات الشجر ، قال الفراء الجنة مافيه النخيل ، والفردوس ما فيه الكرم ، فحق المصدر حينئذ أن يكون مأخوذاً من الفعل المبنى للمفعول وإنما سميت دار الثواب بها مع أن فيها ما لا يوصف من الغرفات والقصور لما أنها مناط نعيمها ، ومعظم ملاذها ، وجمعها مع التنكير لأنها سبع على ماذكره ابن عباس رضى الله عنهما : جنة الفردوس ، وجنة عدن ، وجنة النعيم ، ودار الخلد ، وجنة المأوى ، ودار السلام ، وعليون . وفى كل واحدة منها مراتب ودرجات متفاوتة بحسب تفاوت الأعمال وأصحابها .

﴿تجرى من تحتها الأنهار﴾ فى حيز النصب على أنه صفة جنات . فإن أريد بها الأشجار فجريان الأنهار من تحتها ظاهر ، وإن أريد بها الأرض المشتملة عليها فلا بد من تقدير مضاف أى من تحت أشجارها وإن أريد بها مجموع الأرض والأشجار فاعتبار التحتية بالنظر إلى الجزء الظاهر المصحح لإطلاق اسم الجنة على الكل .

عن مسروق أن أنهار الجنة تجرى فى غير أخدود ، واللام فى الأنهار للجنس ، كما فى قولك : لفلان بستان فيه الماء الجارى والتين والعنب ، أو عوض عن المضاف إليه كما فى قوله تعالى (واشتعل الرأس شيبا) أو للعهد والإشارة إلى ما ذكر فى قوله عز وعلا : (أنهار من ماء غير آسن) الآية .

والنهر بفتح الهاء وسكونها المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر كالنيل والفرات ، والتركيب للسعة والمراد بها ماؤها على الإضمار أو على المجاز اللغوى ، أو المجارى أنفسها ، وقد أسند إليها الجريان مجازاً عقليا كما فى سال الميزاب .

﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا﴾ صفة أخرى لجنات أخرت عن الأولى لأن جريان الأنهار من تحتها وصف لها باعتبار ذاتها ، وهذا وصف لها باعتبار أهلها المتنعمين بها ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو جملة مستأنفة ، كأنه حين وصفت الجنات بما ذكر من الصفة وقع فى ذهن السامع أثمارها كثمار جنات الدنيا أولا ، فبين حالها ، و (كلما) نصب على الظرفية ، ورزقا مفعول به ، ومن الأولى والثانية للابتداء واقعتان موقع

الحال ، كأنه قيل كل وقت رزقوا مرزوقا مبتدأ من الجنات مبتدأ من ثمرة على أن الرزق مقيد بكونه مبتدأ من الجنات ، وابتداؤه منها مقيد بكونه مبتدأ من ثمرة ، فصاحب الحال الأولى رزقا ، وصاحب الثانية ضميره المستكن فى الحال ، ويجوز كون من ثمرة بيانا قدم على المبين كما فى قولك رأيت منك أسدا ، وهذا إشارة إلى ما رزقوا ، وإن وقعت على فرد معين منه كقولك مشيراً إلى نهر جار هذا الماء لا ينقطع ، فإنك إن أشرت إلى ماتعاينه بحسب الظاهر لكنك إنما تعنى بذلك النوع المعلوم المستمر ، فالمعنى هذا مثل الذى رزقناه من قبل ، أى من قبل هذا فى الدنيا ، ولكن لما استحكم الشبه بينهما جعل ذاته ذاته ، وإنما جعل ثمر الجنة كثمار الدنيا لتميل النفس إليه حين تراه ، فإن الطباع مائلة إلى المألوف متنفرة عن غير معروف ، وليتبين لها مزيته وكنه النعمة فيه إذ لو كان جنسا غير معهود لظن أنه لا يكون إلا كذلك أو مثل الذى رزقناه من قبل فى الجنة لأن طعامها متشابه الصور كما يحكى عن الحسن رضى الله عنه أن أحدهم يؤتى فيأكل منها ثم يؤتى بأخرى فيراها مثل الأولى فيقول ذلك ، فيقول الملك كل فاللون واحد والطعم مختلف ، أو كما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : (والذى نفسى بيده إن الرجل من أهل الجنة ليتناول الثمرة ليأكلها فما هى واصلة إلى فيه حتى يبدل الله تعالى مكانها مثلها) والأول أنسب لمحافظة عموم كلما ، فإنه يدل على ترديدهم هذه المقالة كل مرة رزقوا لافيما عدا المرة الأولى يظهرون بذلك التبجح ، وفرط الاستغراب لما بينهما من التفاوت العظيم من حيث اللذة مع اتحادهما فى الشكل واللون ، كأنهم قالوا هذا عين ما رزقناه فى الدنيا فمن أين له هذه الرتبة من اللذة والطيب .

ولا يقدح فيه ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أنه ليس فى الجنة من أطعمة الدنيا إلا الاسم ، فإن ذلك لبيان كمال التفاوت بينهما من حيث اللذة والحسن والهيئة لا لبيان ألا تشابه بينهما أصلا ، كيف لا وإطلاق الأسماء منوط بالاتحاد النوعى قطعا ، هذا وقد فسرت الآية الكريمة بأن

مستلذات أهل الجنة بمقابلة ما رزقوه فى الدنيا من المعارف والطاعات متفاوتة الحال ، فيجوز أن يريدوا هذا ثواب الذى رزقناه فى الدنيا من الطاعات ، ولا يساعده تخصيص ذلك بالثمرات ، فإن الجنة وما فيها من فنون الكرامات من قبيل الثواب .

﴿ وأتوا به متشابها ﴾ اعتراض مقرر لما والضمير المجرور على الأول راجع إلى مادل عليه فحوى الكلام مما رزقوا فى الدارين كما فى قوله تعالى : (إن يكن غنيا أو فقيراً فالله أولى بهما) أى بجنسى الغنى والفقير ، وعلى الثانى إلى الرزق ﴿ ولهم فيها أزواج مطهرة ﴾ أى مما فى نساء الدنيا من الأحوال المستقذرة كالحيض والدرن ودنس الطبع وسوء الخلق ، فإن التطهر يستعمل فى الأجسام والأخلاق والأفعال ، وقرىء مطهرات ، وهما لغتان فصيحتان يقال النساء فعلت وفعلن وهن فاعلة وفواعل قال :

وإذا العذارى بالدخان تقنعت   واستعجلت نصب القدور فملت

فالجمع على اللفظ ، والإفراد على تأويل الجماعة ، وقرىء (مطهرة) بتشديد الطاء وكسر الهاء بمعنى متطهرة ومطهرة أبلغ من طاهرة ومتطهرة للإشعار بأن مطهراً طهرهن ، وما هو إلا الله سبحانه وتعالى . وأما التطهر فيحتمل أن يكون من قبل أنفسهن كما عند اغتسالهن والزوج يطلق على الذكر والأنثى ، وهو فى الأصل اسم لماله قرين من جنسه ، وليس فى مفهومه اعتبار التوالد الذى هو مدار بقاء النوع حتى لا يصح إطلاقه على أزواج أهل الجنة لخلودهم فيها ، واستغنائهم عن الأولاد ، كما أن المدارية لبقاء الفرد ليست بمعتبرة فى مفهوم اسم الرزق حتى يخل ذلك بإطلاقه على ثمار الجنة .

﴿ وهم فيها خالدون ﴾ أى دائمون والخلود فى الأصل الثبات المديد دام أو لم يدم ، ولذلك قيل للأثافى والأحجار الخوالد وللجزء الذى يبقى من الإنسان على حاله خالد ، ولو كان وضعه للدوام لما قيد بالتأبيد فى قوله عز وعلا (خالدين فيها أبدا) ولما استعمل حيث لا دوام فيه لكن المراد ههنا الدوام

قطعا لما يقضى به من الآيات والسنن ، وما قيل من أن الأبدان مؤلفة من الأجزاء المتضادة فى الكيفية معرضة للاستحالات المؤدية إلى الانحلال والانفكاك مداره قياس ذلك العالم الكامل بما يشاهد فى عالم الكون والفساد على أنه يجوز أن يعيدها الخالق تعالى بحيث لايعتورها الاستحالة ، ولا يعتريها الانحلال قطعا ، بأن تجعل أجزاؤها متفاوتة فى الكيفيات متعادلة فى القوى ، بحيث لايقوى شىء منها عند التفاعل على إحالة الآخر ، متعانقة متلازمة لاينفك بعضها عن بعض ، وتبقى هذه النسبة متحفظة فيما بينها أبدا لا يعتريها التغير بالأكل والشرب والحركات وغير ذلك .

واعلم أن معظم اللذات الحسية لما كان مقصوراً على المساكن والمطاعم والمناكح حسبما يقضى به الاستقراء ، وكان ملاك جميع ذلك الدوام والثبات إذ كل نعمة وإن جلت حيث كانت فى شرف الزوال ومعرض الاضمحلال فإنها منغصة غير صافية من شوائب الألم بشر المؤمنين بها وبدوامها تكميلا للبهجة والسرور ، اللهم وفقنا لمراضيك ، وثبتنا على ما يؤدى إليها من العقد والعمل .

دفع شبهات عن القرآن الكريم

﴿ إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة ﴾ شروع فى تنزيه ساحة التنزيل عن تعلق ريب خاص اعتراهم من جهة ماوقع فيه من ضرب الأمثال وبيان لحكمته ، وتحقيق للحق إثر تنزيهها عما اعتراهم من مطلق الريب بالتحدى ، وإلقام الحجر ، وإفحام كافة البلغاء من أهل المدر والوبر روى أبو صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما أن المنافقين طعنوا فى ضرب الأمثال بالنار والظلمات والرعد والبرق ، وقالوا : الله أجل وأعلى من ضرب الأمثال . وروى عطاء رضى الله عنه أن هذا الطعن كان من المشركين .

وروى عنه أيضاً أنه لما نزل قوله تعالى : (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له) الآية ، وقوله تعالى : (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء) الآية ، قالت اليهود : أى قدر للذباب والعنكبوت حتى يضرب الله تعالى بهما وجعلوا ذلك ذريعة إلى إنكار كونه من عند الله تعالى ، مع

أنه لايخفى على أحد ممن له تمييز أنه ليس مما يتصور فيه التردد فضلا عن النكير ، بل هو من أوضح أدلة كونه خارجا عن طوق البشر ، نازلا من عند خلاق القوى والقدر ، كيف لا وإن التمثيل كما مر ليس إلا إبرازاً للمعنى المقصود فى معرض الأمر المشهود ، وتحلية المعقول بحلية المحسوس ، وتصوير أوابد المعانى بهيئة المأنوس ، لاستمالة الوهم واستنزاله عن معارضته للعقل واستعصائه عليه فى إدراك الحقائق الخفية ، وفهم الدقائق الأبية ، كى يتابعه فيما يقتضيه ويشايعه إلى ما يرتضيه ، ولذلك شاعت الأمثال فى الكتب الإلهية والكلمات النبوية وذاعت فى عبارات البلغاء وإشارات الحكماء ، ومن قضية وجوب التماثل بين الممثل والممثل به فى مناط التمثيل تمثيل العظيم بالعظيم ، والحقير بالحقير ، وقد مثل فى الإنجيل غل الصدر بالنخالة ، ومعارضة السفهاء بإثارة الزنابير ، وجاء فى عبارات البلغاء : أجمع من ذره ، وأجرأ من الذباب ، وأسمع من قراد ، وأضعف من بعوضة ، إلى غير ذلك مما لايكاد يحصر .

والحياء تغير النفس وانقباضها عما يعاب به أو يذم عليه ، يقال حيي ، الرجل وهو حيي ، واشتقاقه من الحياة اشتقاق شظى وحشى ونسى من الشظى والنسى والحشى ، يقال شظى الفرس ونسى وحشى إذا اعتلت منه تلك الأعضاء كأن من يعتريه الحياء تعتل قوته الحيوانية وتنتقص ، واشتكى بمعناه خلا أنه يتعدى بنفسه وبحرف الجر ، يقال : استحييته واستحييت منه ، والأول لا يتعدى إلا بحرف الجر ، وقد يحذف منه إحدى الياءين . ومنه قوله :

ألا يستحى منا الملوك ويتقى   محارمنا لا يبوء الدم بالدم

وقوله :

إذا مااستحين الماء يعرض نفسه   كرعن بسبت فى إناء من الورد

فكما أنه إذا أسند إليه سبحانه بطريق الإيجاب فى مثل قوله صلى الله عليه وسلم : «إن الله يستحيي من ذى الشيبة المسلم أن يعذبه» ، وقوله عليه السلام «إن الله حيي كريم يستحيي إذا رفع إليه العبد يديه أن يردهما صفرا حتى يضع فيهما خيرا» يراد به الترك الخاص على طريقة التمثيل حيث مثل فى الحديثين

الكريمين تركه تعذيب ذى الشيبة ، وتخييب العبد من عطائه بترك من يتركهما حياء ، كذلك إذا نفى عنه تعالى فى المواد الخاصة كما فى هذه الآية الشريفة ، وفى قوله تعالى : (والله لا يستحيي من الحق) يراد به سلب ذلك الترك الخاص المضاهى لترك المستحيي عنه ، لا سلب وصف الحياء عنه تعالى رأسا ، كما فى قولك إن الله لا يوصف بالحياء : لأن تخصيص السلب ببعض المواد يوهم كون الإيجاب من شأنه تعالى فى الجملة ، فالمراد ههنا عدم ترك ضرب المثل المماثل لترك من يستحيي من ضربه ، وفيه رمز إلى تعاضد الدواعى إلى ضربه وتآخذ البواعث إليه ، إذ الاستحياء إنما يتصور فى الأفعال المقبولة للنفس ، المرضية عندها ، ويجوز أن يكون وروده على طريقة المشاكلة ، فإنهم كانوا يقولون ، أما يستحيي رب محمد أن يضرب مثلا بالأشياء المحقرة كما فى قول من قال :

من مبلغ أفناء يعرب كلها أنى بنيت الجار قبل المنزل

وضرب المثل استعماله فى مضربه وتطبيقه به لا صنعه(1) وإنشاؤه فى نفسه وإلا لكان إنشاء الأمثال السائرة فى مواردها ضربا لها دون استعمالها بعد ذلك فى مضاربها ، لفقدان الإنشاء هناك . والأمثال الواردة فى التنزيل وإن كان استعمالها فى مضاربها عين إنشائها فى أنفسها ، لكن التعبير عنه بالضرب ليس بهذا الاعتبار ، بل بالاعتبار الأول قطعا ، وهو مأخوذ إما من ضرب الخاتم بجامع التطبيق ، فكما أن ضربه تطبيقه بقالبه ، كذلك استعمال الأمثال فى مضاربها تطبيقها بها ، كأن المضارب قوالب تضرب الأمثال على شاكلتها ، لكن لا بمعنى أنها تنشأ بحسبها بعد أن لم تكن كذلك ، بل بمعنى أنها تورد منطبقة عليها سواء كان إنشاؤها حينئذ كعامة الأمثال التنزيلية ، فإن مضاربها قوالبها ، أو قبل ذلك كسائر الأمثال السائرة ، فإنها وإن كانت مصنوعة من قبل إلا أن تطبيقها أى إيرادها منطبقة على مضاربها إنما يحصل عند الضرب ، وإما من ضرب الطين على الجدار ليلتزق به بجامع الإلصاق ، كأن من يستعملها يلصقها بمضاربها ويجعلها ضربة لازب(2) لا تنفك عنها لشدة تعلقها بها .

---

(1) فى ٤٦٥ : لا صنعته

(2) فى ١١ : لازمة

ومحل أن يضرب على تقدير تعدية يستحي بنفسه النصب على المفعولية ، وأما على تقدير تعديته بالجار فعند الخليل الخفض بإضمار من ، وعند سيبويه النصب بإفضاء الفعل إليه بعد حذفها ، ومثلا مفعول ليضرب ، وما إسمية إبهامية تزيد ما تقارنه من الاسم المنكر إبهاما وشياعا ، كما فى قولك أعطنى كتابا ما ، كأنه قيل مثلا ما من الأمثال ، أى مثل كان . فهى صفة لما قبلها ، أو حرفية مزيدة لتقوية النسبة وتوكيدها كما فى قوله تعالى : (فبما رحمة من الله) وبعوضة بدل من مثلا أو عطف بيان عند من يجوزه فى النكرات ، أو مفعول ليضرب ومثلا حال تقدمت عليها لكونها نكرة ، أوهما مفعولاه لتضمنه معنى الجعل والتصيير ، وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هو بعوضة .

والجملة على تقدير كون ما موصولة صلة لها محذوفة الصدر كما فى قوله تعالى : (تماما على الذى أحسن) على قراءة الرفع ، وعلى تقدير كونها موصوفة لها كذلك ، ومحل ما ، على الوجهين النصب على أنه بدل من مثلا ، أو على أنه مفعول ليضرب ، وعلى تقدير كونها إبهامية صفة لمثلا كذلك ، وأما على تقدير كونها استفهامية فهى خبر لها ، كأنه لما رد استبعادهم ضرب المثل قيل : ما بعوضة ، وأى مانع فيها حتى لا يضرب بها المثل ، بل له تعالى أن يمثل بما هو أصغر منها وأحقر كجناحها على ما وقع فى قوله صلى الله عليه وسلم : «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء» والبعوض فعول من البعض وهو القطع كالبضع والعضب غلب على هذا النوع كالخموش فى لغة هذيل من الخمش وهو الخدش .

﴿ فما فوقها ﴾ عطف على بعوضة على تقدير نصبها على الوجوه المذكورة وما موصولة أو موصوفة صلتها أو صفتها الظرف وأما على تقدير رفعها فهو عطف على ما الأولى على تقدير كونها موصولة أو موصوفة ، وأما على تقدير كونها استفهامية فهو عطف على خبرها أعنى بعوضة لا على نفسها كما قيل ، والمعنى ما بعوضة فالذى فوقها أو فشىء فوقها ، حتى لا يضرب بها المثل ، وكذا على تقدير كونها صفة للنكرة أو زائدة ، وبعوضة خبر للمضمر ،

وذكر البعوضة فما فوقها من بين أفراد المثل إنما هو بطريق التمثيل دون التعيين والتخصيص ، فلا يخل بالشيوع بل يقرره ويؤكده بطريق الأولوية والمراد بالفوقية إما الزيادة فى المعنى الذى أريد بالتمثيل أعنى الصغر والحقارة . وإما الزيادة فى الحجم والجثة لكن لا بالغا ، بل فى الجملة كالذباب والعنكبوت.

وعلى التقدير الأول يجوز أن تكون ما الثانية خاصة استفهامية إنكارية والمعنى : إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فأى شىء فوقها فى الصغر والحقارة ، فإذن له تعالى أن يمثل بكل ما يريد ، ونظيره فى احتمال الأمرين ما روى أن رجلا بمنى خر على طنب فسطاط فقالت عائشة رضى الله عنها حين ذكر لها ذلك : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة » فإنه يحتمل ما يجاوز الشوكة فى القلة كنخبة النملة بقوله عليه السلام : « ما أصاب المؤمن من مكروه فهو كفارة لخطاياه حتى نخبة النملة » وما تجاوزها من الألم كأمثال ما حكى من الحرور .

حكمة ضرب المثل فى القرآن

﴿ فأما الذين آمنوا ﴾ شروع فى تفصيل ما يترتب على ضرب المثل من الحكم إثر تحقيق حقية صدوره عنه تعالى . والفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما يدل عليه ما قبلها ، كأنه قيل : فيضرب به فأما الذين الخ ، وتقديم بيان حال المؤمنين على ما حكى من الكفرة مما لا يفتقر إلى بيان السبب ، وفى تصدير الجملتين بإما من إحماد أمر المؤمنين وذم الكفرة مالا يخفى ، وهو حرف متضمن لمعنى الشرط وفعله بمنزلة مهما يكن من شىء ، ولذلك يجاب بالفاء وفائدته توكيد ماصدر به وتفصيل مافى نفس المتكلم من الأقسام ، فقد تذكر جميعا وقد يقتصر على واحد منها ، كما فى قوله عز من قائل(١) ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ الخ قال سيبويه أما زيد معناه مهما يكن من شىء

---

(١) فى ١١ : عز قائلا

فهو ذاهب لا محالة ، وأنه منه عزيمة ، وكان الأصل دخول الفاء على الجملة لأنها الجزاء لكن كرهوا إيلاءها حرف الشرط ، فأدخلوها الخبر وعوض المبتدأ عن الشرط لفظاً ، والمراد بالموصول فريق المؤمنين المعهودين كما أن المراد بالموصول الآتى فريق الكفرة لا من يؤمن بضرب المثل ، ومن يكفر به ، لاختلال المعنى أى فأما المؤمنين .

﴿فيعلمون أنه الحق من ربهم﴾ كسائر ما ورد منه تعالى والحق هو الثابت الذى يحق ثبوته لا محاله ، بحيث لا سبيل للعقل إلى إنكاره لا الثابت مطلقا ، واللام للدلالة على أنه مشهود له بالحقية ، وأن له حكما ومصالح ، ومن لابتداء الغاية المجازية ، وعاملها محذوف وقع حالا من الضمير المستكن فى الحق ، أو من الضمير العائد إلى المثل ، أو إلى ضربه ، أى كائنا وصادراً من ربهم ، والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم لتشريفهم ، وللإيذان بأن ضرب المثل تربية لهم ، وإرشاد إلى ما يوصلهم إلى كمالهم اللائق بهم ، والجملة سادة مسد مفعولى يعلمون عند الجمهور ، ومسد مفعوله الأول والثانى محذوف عند الأخفش ، أى فيعلمون حقيته ثابتة ، ولعل الاكتفاء بحكاية علمهم المذكور عن حكاية اعترافهم بموجبه كما فى قوله تعالى : (والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) للإشعار بقوة ما بينهما من التلازم وظهوره المغنى عن الذكر .

﴿وأما الذين كفروا﴾ ممن حكيت أقوالهم وأحوالهم ﴿فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا﴾ أوثر يقولون على لا يعلمون حسبما يقتضيه ظاهر قرينه دلالة على كمال غلوهم فى الكفر ، وترامى أمرهم فى العتو ، فإن مجرد عدم العلم بحقيته ليس بمثابة إنكارها والاستهزاء به صريحا وتمهيداً لتعداد ما نعى عليهم فى تضاعيف الجواب من الضلال والفسق ونقض العهد وغير ذلك من شنائعهم المترتبة على قولهم المذكور .

على أن عدم العلم بحقيته لا يعم جميعهم ، فإن منهم من يعلم بها ، وإنما يقول ما يقول مكابرة وعنادا ، وحمله على عدم الإذعان والقبول الشامل للجهل والعناد

تعسف ظاهر . هذا وقد قيل كان من حقه وأما الذين كفروا فلا يعلمون ، ليطابق قرينه ويقابل قسيمه ، لكن لما كان قولهم هذا دليلا واضحاً على جهلهم عدل إليه على سبيل الكناية ليكون كالبرهان عليه ، فتأمل وكن على الحق المبين ، و (ماذا) إما مؤلفة من كلمة استفهام وقعت مبتدأ خبره ذا بمعنى الذى وصلته ما بعده والعائد محذوف ، فالأحسن أن يجىء جوابه مرفوعا ، وإما منزلة اسم واحد بمعنى أى شىء ، فالأحسن فى جوابه النصب والإرادة نزوع النفس وميلها إلى الفعل بحيث يحملها إليه أو القوة التى هى مبدؤه ، والأول مع الفعل ، والثانى قبله ، وكلاهما مما لا يتصور فى حقه تعالى ، ولذلك اختلفوا فى إرادته عز وجل ، فقيل إرادته تعالى لأفعاله كونه غير ساه فيه ، ولا مكره ، ولأفعال غيره أمره بها ، فلا تكون المعاصى بإرادته تعالى ، وقيل هى علمه باشتمال الأمر على النظام الأكمل ، والوجه الأصلح ، فإنه يدعو القادر إلى تحصيله والحق عبارة عن ترجيح أحد طرفى المقدور على الآخر وتخصيصه بوجه دون وجه أو معنى يوجبه ، وهى أعم من الاختيار ، فإنه ترجيح مع تفضيل ، وفى كلمة (هذا) تحقير للمشار إليه واسترذال له(١) ومثلا نصب على التمييز أو على الحال كما فى قوله تعالى : (ناقة الله لكم آية) وليس مرادهم بهذه العظيمة استفهام الحكمة فى ضرب المثل ولا القدح فى اشتماله على الفائدة مع اعترافهم بصدوره عنه جل وعلا ، بل غرضهم التنبيه بادعاء أنه من الدناءة والحقارة بحيث لا يليق بأن يتعلق به أمر من الأمور الداخلة تحت إرادته تعالى ، على استحالة أن يكون ضرب المثل به من عنده سبحانه ، فقوله عز من قائل ﴿يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا﴾ جواب عن تلك المقالة الباطلة ، ورد لها ببيان أنه مشتمل على حكمة جليلة وغاية جميلة هى كونه ذريعة إلى هداية المستعدين للهداية ، وإضلال المنهمكين فى الغواية ، فوضع الفعلان موضع الفعل الواقع فى الاستفهام مبالغة فى الدلالة على تحققهما ، فإن إرادتهما

---

(١) فى ٤٦٠ : واستنزال له

دون وقوعهما بالفعل وتجافيا عن نظم الإضلال مع الهداية فى سلك الإرادة لإيهامه تساويهما فى تعلقهما ، وليس كذلك ، فإن المراد بالذات من ضرب المثل هو التذكر والاهتداء كما ينبىء عنه قوله تعالى : (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) ونظائره .

وأما الإضلال فهو أمر عارض مترتب على سوء اختيارهم ، وأوثر صيغة الاستقبال إيذانا بالتجدد والاستمرار ، وقيل . وضع الفعلان موضع مصدر كأنه قيل : أراد إضلال كثير وهداية كثير وقدم الإضلال على الهداية مع تقدم حال المهتدين على حال الضالين فيما قبله ليكون أول ما يقرع أسماعهم من الجواب أمرا فظيعا يسوءهم ويفت فى أعضادهم وهو السر فى تخصيص هذه الفائدة بالذكر وقيل هو بيان للجملتين المصدرتين بأما وتسجيل بأن العلم بكونه حقا هدى وأن الجهل بوجه إيراده والإنكار لحسن(١) مورده ضلال وفسوق وكثرة كل فريق إنما هى بالنظر إلى أنفسها لا بالقياس إلى مقابليهم فلا يقدح فى ذلك أقلية أهل الهدى بالنسبة إلى أهل الضلال حسبما نطق به قوله تعالى : وقليل من عبادى الشكور . ونحو ذلك واعتبار كثرتهم الذاتية دون قلتهم الإضافية لتكميل فائدة ضرب المثل وتكثيرها ويجوز أن يراد فى الأولين الكثرة من حيث العدد وفى الآخرين من حيث الفضل والشرف كما فى قول من قال :

إن الكرام كثير فى البلاد وإن   قلوا كما غيرهم قل وإن كثروا

وإسناد الإضلال(٢) أى خلق الضلال إليه سبحانه مبنى على أن جميع الأشياء مخلوقة له تعالى وإن كان أفعال العباد من حيث الكسب مستندة إليهم وجعله من قبيل إسناد الفعل إلى سببه يأباه التصريح بالسبب وقرىء يضل به كثير ويهدى به كثير على البناء للمفعول وتكرير به مع جواز الاكتفاء بالأول لزيادة تقرير السببية وتأكيدها ﴿وما يضل به﴾ أى بالمثل أو بضربه ﴿إلا الفاسقين﴾ عطف على ما قبله وتكملة للجواب والرد وزيادة

---

(١) فى ١١ : بحسب

(٢) فى ١١ : الضلال

تعيين لمن أريد إضلالهم ببيان صفاتهم القبيحة المستتبعة له وإشارة إلى أن ذلك ليس إضلالا ابتدائيا بل هو تثبيت على ما كانوا عليه من فنون الضلال وزيادة فيه وقرىء وما يضل به إلا الفاسقون على البناء للمفعول والفسق فى اللغة الخروج يقال فسقت الرطبة عن قشرها والفأرة من جحرها أى خرجت قال رؤبة :

يذهبن فى نجد وغورا غائرا فواسقا عن قصدها جوائرا

وفى الشريعة الخروج عن طاعة الله عز وجل بارتكاب الكبيرة التى من جملتها الإصرار على الصغيرة وله طبقات ثلاث الأولى التغابى وهو ارتكابها أحيانا مستقبحا لها والثانية الانهماك فى تعاطيها والثالثة المثابرة عليها مع جحود قبحها وهذه الطبقة من مراتب الكفر فما لم يبلغها الفاسق لا يسلب عنه اسم المؤمن لاتصافه بالتصديق الذى عليه يدور الإيمان ولقوله تعالى (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) والمعتزلة لما ذهبوا إلى أن الإيمان عبارة عن مجموع التصديق والإقرار والعمل والكفر عن تكذيب الحق وجحوده ، ولم يتسن لهم إدخال الفاسق فى أحدهما جعلوه قسما بين قسمى المؤمن والكافر لمشاركته كل واحد منهما فى بعض أحكامه . والمراد بالفاسقين ههنا العاتون الماردون فى الكفر ، الخارجون عن حدوده ممن حكى عنهم ما حكى من إنكار كلام الله تعالى ، والاستهزاء به وتخصيص الإضلال بهم مترتبا على صفة الفسق وما أجرى عليهم من القبائح للإيذان بأن ذلك هو الذى أعدهم للإضلال وأدى بهم إلى الضلال فإن كفرهم وعدولهم عن الحق وإصرارهم على الباطل صرف وجوه أنظارهم عن التدبر فى حكمة المثل إلى حقارة الممثل به حتى رسخت به جهالتهم وازدادت ضلالتهم فأنكروه وقالوا فيه ما قالوا .

صفات الفاسقين

﴿ الذين ينقضون عهد الله ﴾ صفة للفاسقين للذم وتقرير ماهم عليه من الفسق والنقض فسخ التركيب من المركبات الحسية كالحبل والغزل ونحوهما ، واستعماله فى إبطال العهد من حيث استعارة الحبل له لما فيه من ارتباط أحد

كلامى المتعاقدين(١) بالآخر ، فإن شفع بالحبل وأريد به العهد كان ترشيحا للمجاز ، وإن قرن بالعهد كان رمزا إلى ما هو من روادفه وتنبيها على مكانه ، وأن المذكور قد استعير له كما يقال شجاع يفترس أقرانه ، وعالم يغترف منه الناس تنبيها على أنه أسد فى شجاعته وبحر فى إفاضته ، والعهد الموثق يقال عهد إليه كذا إذا وصاه به ووثقه عليه والمراد ههنا إما العهد المأخوذ بالفعل وهو الحجة القائمة على عباده الدالة على وجوده (تعالى)(٢) ووحدته وصدق رسوله عليه السلام ، وبه أول قوله تعالى (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) أو المعنى الظاهر منه أو المأخوذ من جهة الرسل على الأمم بأنهم إذا بعث إليهم رسول مصدق بالمعجزات صدقوه واتبعوه ولم يكتموا أمره وذكره فى الكتب المتقدمة ولم يخالفوا حكمه كما ينبىء عنه قوله عز وجل (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه) ونظائره ، وقيل عهود الله تعالى ثلاثة الأول ما أخذه على جميع ذرية آدم عليه السلام بأن يقروا به وبربوبيته(٣) والثانى ما أخذه على الأنبياء عليهم السلام بأن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه والثالث ما أخذه على العلماء بأن يبينوا الحق ولا يكتموه .

﴿من بعد ميثاقه﴾ الميثاق إما اسم لما يقع به الوثاقة والإحكام ، وإما مصدر بمعنى التوثقة كالميعاد بمعنى الوعد ، فعلى الأول إن رجع الضمير إلى العهد كان المراد بالميثاق ما وثقوه من القبول والالتزام وإن رجع إلى لفظ الجلالة يراد به آياته وكتبه وإنذار رسله عليهم السلام ، والمضاف محذوف على الوجهين ، أى من بعد تحقق ميثاقه ، وعلى الثانى إن رجع الضمير إلى العهد والميثاق مصدر من المبنى للفاعل فالمعنى من بعد أن وثقوه بالقبول والالتزام ، أو من بعد أن وثقه الله عز وجل بإنزال الكتب وإنذار الرسل ، وإن كان مصدرا من المبنى للمفعول فالمعنى من بعد كونه موثقا إما بتوثيقهم إياه بالقبول وإما بتوثيقه تعالى إياه بإنزال الكتب وإنذار الرسل .

---

(١) فى ط : التعاهدين (٢) سقطت من ط . (٣) فى ط : على ربوبيته .

﴿ولا يقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ يحتمل كل قطيعة لا يرضى بها الله سبحانه وتعالى كقطع الرحم وعدم موالاة المؤمنين والتفرقة بين الأنبياء عليهم السلام والكتب فى التصديق ، وترك الجماعات المفروضة وسائر ما فيه رفض خير أو تعاطى شر ، فإنه يقطع ما بين الله تعالى وبين العبد من الوصلة التى هى المقصودة بالذات من كل وصل وفصل ، والأمر هو القول الطالب للفعل مع العلو ، وقيل بالاستعلاء ، وبه سمى الأمر الذى هو واحد الأمور تسمية للمفعول بالمصدر ، فإنه مما يؤمر به كما يقال له شأن وهو القصد والطلب لما أنه أثر للشأن ، وكذا يقال له شيء وهو مصدر شاء لما أنه أثر المشيئة ، ومحل أن يوصل إما النصب على أنه بدل من الموصول أو من ضميره والثانى أولى لفظا ومعنى .

﴿ويفسدون فى الأرض﴾ بالمنع عن الإيمان والاستهزاء بالحق وقطع الوصل التى عليها يدور فلك نظام العالم وصلاحه ﴿أولئك﴾ إشارة إلى الفاسقين باعتبار اتصافهم بما فصل من الصفات القبيحة ، وفيه إيذان بأنهم متميزون بها أكمل تميز ومنتظمون بسبب ذلك فى سلك الأمور المحسوسة ، وما فيه من معنى البعد للدلالة على بعد منزلتهم فى الفساد ﴿هم الخاسرون﴾ الذين خسروا بإهمال العقل عن النظر واقتناص ما يفيدهم الحياة الأبدية واستبدال الإنكار والطعن فى الآيات بالإيمان بها والتأمل فى حقائقها والاقتباس من أنوارها واشتراء النقض بالوفاء والفساد بالصلاح والقطيعة بالصلة والعقاب بالثواب .

﴿كيف تكفرون بالله﴾ التفات إلى خطاب المذكورين مبنى على إيراث ما عد(١) من قبائحهم السابقة لتزايد السخط الموجب للمشافهة بالتوبيخ والتقريع والاستفهام إنكارى لا بمعنى إنكار الوقوع كما فى قوله تعالى (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله) الخ بل المعنى إنكار الواقع واستبعاده والتعجيب منه ، وفيه من المبالغة ما ليس فى توجيه الإنكار إلى نفس الكفر

---

(١) فى ط : ما عده

بأن يقال أتكفرون ، لأن كل موجود يجب أن يكون وجوده على حال من الأحوال قطعاً فإذا انتفى جميع أحوال وجوده فقد انتفى وجوده على الطريق البرهانى ، وقوله عز وجل ﴿ وكنتم أمواتا ﴾ إلى آخر الآية حال من ضمير الخطاب فى تكفرون مؤكدة للإنكار والاستبعاد بما عدد فيها من الشؤون العظيمة الداعية إلى الإيمان الرادعة من الكفر من حيث كونها نعمة عامة ومن حيث دلالتها على قدرة تامة كقوله تعالى (وقد خلقكم أطوارا) وكيف منصوبة على التشبيه بالظرف عند سيبويه ، وبالحال عند الأخفش ، أى فى أى حال أو على أى حال تكفرون به تعالى ، والحال أنكم كنتم أمواتا أى أجساما لا حياة لها ، عناصر وأغذية ونطفا ومضغا مخلقة وغير مخلقة ، والأموات جمع ميت كأقوال جمع قيل ، وإطلاقها على تلك الأجسام باعتبار عدم الحياة مطلقا كما فى قوله تعالى (بلدة ميتا) وقوله تعالى (وآية لهم الأرض الميتة) ، ﴿ فأحياكم ﴾ بنفخ الأرواح فيكم ، والفاء للدلالة على التعقيب فإن الإحياء حاصل إثر كونهم أمواتا وإن توارد عليهم فى تلك الحياة(١) أطوار مترتبة بعضها متراخ عن بعض كما أشير إليه آنفا ﴿ ثم يميتكم ﴾ أى عند انقضاء آجالكم ، وكون الإماتة من دلائل القدرة ظاهر ، وأما كونها من النعم فلكونها وسيلة إلى الحياة الثانية التى هى الحيوان والنعمة العظمى ، والتراخى المستفاد من كلمة ثم بالنسبة إلى زمان الإحياء دون زمان الحياة ، فإن زمان الإماتة غير متراخ عنه ﴿ ثم يحييكم ﴾ بالنشور يوم ينفخ فى الصور أو للسؤال فى القبور ، وأيا ما كان فهو متراخ من زمان الإماتة ، وإن كان إثر زمان الموت المستمر ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ بعد الحشر لا إلى غيره فيجازيكم بأعمالكم إن خيرا فخير وإن شرا فشر أو إليه تنشرون من قبوركم للحساب ، وهذه الأفعال وإن كان بعضها ماضيا وبعضها مستقبلا لا يتسنى مقارنة شىء منها لما هو حال منه فى الزمان ، لكن الحال فى الحقيقة هو العلم المتعلق بها كأنه قيل كيف تكفرون بالله وأنتم عالمون بهذه الأحوال المانعة

---

(١) فى ط : أى الحالة

منه ، ومآله التعجيب من وقوعه مع تحقق ما ينفيه ، وإنما نظم ما ينكرونه من الإحياء الأخير والرجع فى سلك ما يعترفون به من الإحياء الأول والإماتة تنزيلا لتمكنهم من العلم لما عاينوه من الدلائل القاطعة منزلة العلم بذلك بالفعل فى إزاحة العلل والأعذار .

والحياة حقيقة فى القوة الحساسة أو ما يقتضيها ، وبها سمى الحيوان حيوانا مجاز فى القوة النامية لكونها من طلائعها وكذا فيما يخص الإنسان من العقل والعلم والإيمان من حيث أنه كما لها وغايتها والموت بإزائها يطلق على ما يقابل كل مرتبة من تلك المراتب ؛ قال تعالى (قل الله يحييكم ثم يميتكم) وقال تعالى (اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها) وقال تعالى (أو من كان ميتا فأحييناه ، و جعلنا له نورا يمشى به فى الناس) وعند وصفه تعالى بها يراد صحة اتصافه تعالى بالعلم والقدرة اللازمة لهذه القوة فينا ، أو معنى قائم بذاته تعالى مقتض لذلك ، وقرىء ترجعون بفتح التاء والأول هو الأليق بالمقام .

﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ﴾ تقرير للإنكار وتأكيد له من الحيثيتين المذكورتين غير سبكه عن سبك ما قبله مع اتحادهما فى المقصود إبانة لما بينهما من التفاوت ، فإن ما يتعلق بذواتهم من الإحياء والإماتة والحشر أدخل فى الحث على الإيمان والكف عن الكفر مما يتعلق بمعايشهم ، وما يجرى مجراها ، وفى جعل الضمير مبتدأ والموصول خبرا من الدلالة على الجلالة مالا يخفى ، وتقديم الظرف على المفعول الصريح لتعجيل المسرة ببيان كونه نافعا للمخاطبين وللتشويق إليه كما سلف ، أى خلق لأجلكم جميع ما فى الأرض من الموجودات لتنتفعوا بها فى أمور دنياكم بالذات أو بالواسطة وأمور دينكم بالاستدلال بها على شئون الصانع تعالى شأنه ، والاستشهاد بكل واحد منها على ما يلائمه من لذات الآخرة وآلامها وما يعم جميع ما فى الأرض لا نفسها إلا أن يراد بها جهة السفل كما يراد بالسماء جهة العلو ، نعم يعم كل جزء من أجزائها ، فإنه من جملة ما فيها ضرورة وجود الجزء فى الكل ؛ وجميعا حال من الموصول الثانى مؤكدة لما فيه من العموم ، فإن كل فرد من

أفراد ما فى الأرض بل كل جزء من أجزاء العالم له مدخل فى استمراره على ما هو عليه من النظام اللائق الذى عليه يدور انتظام مصالح الناس .

أما من جهة المعاش فظاهر ، وأما من جهة الدين فلما أنه ليس فى العالم شىء مما يتعلق به النظر وما لا يتعلق به إلا وهو دليل على القادر الحكيم جل جلاله كما مر فى تفسير قوله تعالى (رب العالمين) وإن لم يستدل به أحد بالفعل .

﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ أى قصد إليها بإرادته ومشيئته قصدا سويا بلا صارف يلويه ولا عاطف يثنيه من إرادة خلق شىء آخر فى تضاعيف خلقها أو غير ذلك ، مأخوذ من قولهم : استوى إليه كالسهم المرسل ، وتخصيصه بالذكر ههنا إما لعدم تحققه فى خلق السفليات ، لما روى من تخلل خلق السموات بين خلق الأرض ودحوها . عن الحسن رضى الله عنه : خلق الله تعالى الأرض فى موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليها دخان يلتزق بها ، ثم أصعد الدخان وخلق منه السموات ، وأمسك الفهر فى موضعها ، وبسط منها الأرضين . وذلك قوله تعالى (كانتا رتقا ففتقناهما) وإما لإظهار كمال العناية بإبداع العلويات ، وقيل : استوى : استولى وملك ، والأول هو الظاهر ، وكلمة ثم للإيذان بما فيه من المزية والفضل على خلق السفليات لا للتراخى الزمانى ، فإن تقدمه على خلق ما فى الأرض المتأخر عن دحوها مما لا مرية فيه لقوله تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها) ولما روى عن الحسن ، والمراد بالسماء إما الأجرام العلوية فإن القصد إليها بالإرادة لا يستدعى سابقة الوجود وإما جهات العلو .

﴿ فسواهن ﴾ أى أتمهن وقومهن وخلقهن ابتداء مصونة عن العوج والفطور لا أنه تعالى سواهن بعد أن لم يكن كذلك ولا يخفى ما فى مقارنة التسوية والاستواء من حسن الموقع ، وفيه إشارة إلى ألا تغير فيهن بالنمو والذبول كما فى السلفيات ، والضمير على الوجه الأول للسماء لأنها(١) فى معنى الجنس ، وقيل هى جمع سماءة أو سماوة ، وعلى الوجه الثانى مبهم يفسره قوله تعالى (سبع

---

(١) فى ط : فإنها

سموات ﴾ كما فى قولهم : ربه رجلا ، وهو على الوجه الأول بدل من الضمير ، وتأخير ذكر هذا الصنع البديع عن ذكر خلق ما فى الأرض مع كونه أقوى منه فى الدلالة على كمال القدرة القاهرة كما نبه عليه لما أن المنافع المنوطة بما فى الأرض أكثر ، وتعلق مصالح الناس بذلك أظهر ، وإن كان فى إبداع العلويات أيضا من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يحصى هذا ما قالوا ، وسيأتى فى حم السجدة مزيد تحقيق وتفصيل بإذن الله تعالى .

﴿ وهو بكل شىء عليم ﴾ اعتراض تذييلى مقرر لما قبله من خلق السموات والأرض وما بينهما(١) على هذا النمط البديع المنطوى على الحكم الفائقة والمصالح اللائقة ، فإن علمه عز وجل بجميع الأشياء ظاهرها وباطنها بارزها وكامنها وما يليق بكل واحد منها يستدعى أن يخلق كل ما يخلقه على الوجه الرائق ، وقرىء وهو بسكون الهاء تشبيها له بعضد .

﴿ وإذ قال ربك ﴾ بيان لأمر آخر من جنس الأمور المتقدمة المؤكدة للإنكار والاستبعاد فإن خلق آدم عليه السلام وما خصه به من الكرامات السنية المحكية من أجل النعم الداعية لذريته إلى الشكر والإيمان الناهية عن الكفر والعصيان وتقرير لمضمون ما قبله من قوله تعالى (خلق لكم ما فى الأرض جميعاً) وتوضيح لكيفية التصرف والانتفاع ، بما فيها وتلوين الخطاب بتوجيهه إلى النبى صلى الله عليه وسلم خاصة للإيذان بأن فحوى الكلام ليس مما يهتدى إليه بأدلة العقل كالأمور المشاهدة التى نبه عليها الكفرة بطريق الخطاب ، بل إنما طريقه الوحى الخاص به عليه السلام ، وفى التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام من الإنباء عن تشريفه عليه السلام ما لا يخفى ، وإذا ظرف موضوع لزمان نسبة ماضية وقع فيه نسبة أخرى مثلها ، كما أن إذا موضوع لزمان نسبة مستقبلة

---

(١) فى ط : وما فيهما .

يقع فيه أخرى مثلها ، ولذلك يجب إضافتهما إلى الجمل وانتصابه بمضمر صرح فى قوله عز وجل (واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم) وقوله تعالى (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد) وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للمبالغة فى إيجاب ذكرها ، لما أن إيجاب ذكر الوقت إيجاب لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهانى ، ولأن الوقت مشتمل عليها ، فإذا استحضر كانت حاضرة بتفاصيلها ، كأنها مشاهدة عيانا ، وقيل : ليس انتصابه على المفعولية ، بل على تأويل اذكر الحادث فيه بحذف المظروف وإقامة الظرف مقامه .

وأياما كان فهو معطوف على مضمر آخر ينسحب عليه عليه الكلام كأنه قيل له عليه السلام غب ما أوحى إليه ما خوطب به الكفرة من الوحى الناطق بتفاصيل الأمور السابقة الزاجرة عن الكفر به تعالى : ذكرهم بذلك واذكر لهم هذه النعمة ليتنبهوا بذلك لبطلان ما هم عليه(٢) وينتهوا عنه ، وأما ما قيل من أن المقدر هو اشكر النعمة فى خلق السموات والأرض أو تدبر ذلك فغير سديد ضرورة أن مقتضى الكلام(٣) تذكير المخاطبين(٤) بمواجب الشكر وتنبيههم على ما يقتضيه ، وأين ذاك من مقامه الجليل صلى الله عليه وسلم ، وقيل انتصابه بقوله تعالى قالوا ، ويأباه أنه يقتضى أن يكون هو المقصود بالذات دون سائر القصة ، وقيل بما سبق من قوله تعالى وبشر الذين آمنوا ، ولا يخفى بعده وقيل بمضمر دل عليه مضمون الآية المتقدمة مثل وبدأ خلقكم إذ قال إلخ ولا ريب فى أنه لا فائدة فى تقييد بدء الخلق بذلك الوقت ، وقيل بخلقكم أو بأحياكم مضمرا ، وفيه ما فيه : وقيل إذ زائدة ، ويعزى ذلك إلى أبى عبيد ومعمر ، وقيل إنه بمعنى قد ، واللام فى قوله عز قائلا ﴿ للملائكة ﴾ للتبليغ وتقديم

---

(١) فى ١١ : به
(٢) فى ط : فيه
(٣) فى ط : المقام
(٤) فى ط : المخلين

الجار والمجرور فى هذا الباب مطرد لما فى المقول من الطول غالبا مع ما فيه من الاهتمام بما قدم والتشويق إلى ما أخر كما مر مرارا ، والملائكة جمع ملك باعتبار أصله الذى هو ملأك على أن الهمزة مزيدة كالشمائل فى جمع شمأل ، والتاء لتأكيد تأنيث الجماعة ، واشتقاقه من ملك لما فيه من معنى الشدة والقوة ، وقيل : على أنه مقلوب من مألك ، من الألوكة وهى الرسالة أى موضع الرسالة أو مرسل على أنه مصدر بمعنى المفعول ، فإنهم وسائط بين الله تعالى وبين الناس فهم رسله عز وجل ، أو بمنزلة رسله عليهم السلام ، واختلفت العقلاء فى حقيقتهم بعد اتفاقهم على أنها ذوات موجودة قائمة بأنفسها .

فذهب أكثر المتكلمين إلى أنها أجسام لطيفة قادرة على التشكل بأشكال مختلفة ، مستدلين بأن الرسل كانوا يرونهم كذلك عليهم السلام ، وذهب الحكماء إلى أنها جواهر مجردة مخالفة للنفوس الناطقة فى الحقيقة ، وأنها أكمل منها قوة وأكثر علما تجرى منها مجرى الشمس من الأضواء منقسمة إلى قسمين ، قسم شأنهم الاستغراق فى معرفة الحق والتنزه عن الاشتغال بغيره كما نعتهم الله عز وجل بقوله (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) وهم العليون المقربون ، وقسم يدبر الأمر من السماء إلى الأرض حسبما جرى عليه قلم القضاء والقدر وهم المدبرات أمرا ، فمنهم سماوية ومنهم أرضية ، وقالت طائفة من النصارى هى النفوس الفاضلة البشرية المفارقة للأبدان ، ونقل فى شرح كثرتهم أنه عليه السلام قال : « أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك ساجد أو راكع » وروى أن بنى آدم عشر الجن ، وهما عشر حيوانات البر ، والكل عشر الطيور ، والكل عشر حيوانات البحار ، وهؤلاء كلهم عشر ملائكة السماء الدنيا ، وكل هؤلاء عشر ملائكة السماء الثانية ، وهكذا إلى السماء السابعة ، ثم كل أولئك فى مقابلة ملائكة الكرسى نزر قليل ، ثم جميع هؤلاء عشر ملائكة سرادق واحد من سرادقات العرش التى عددها ستمائة ألف ، طول كل سرادق وعرضه وسمكه إذا قوبلت به السموات

والأرض وما فيهما وما بينهما لا يكون لها عنده قدر محسوس ، وما منه من مقدار شبر إلا وفيه ملك ساجد أو راكع أو قائم ، لهم زجل بالتسبيح والتقديس .

ثم كل هؤلاء فى مقابلة الملائكة الذين يحومون حول العرش كالقطرة فى البحر ، ثم ملائكة اللوح الذين هم أشياع إسرافيل عليه السلام والملائكة الذين هم جنود جبريل عليه السلام لا يحصى أجناسهم ولا مدة أعمارهم ولا كيفيات عباداتهم إلا بارئهم العليم الخبير على ما قال تعالى (وما يعلم جنود ربك إلا هو) .

وروى أنه عليه السلام حين عرج به إلى السماء رأى ملائكة فى موضع بمنزلة شرف يمشى بعضهم تجاه بعض ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام إلى أين يذهبون ؟ فقال جبريل : لا أدرى إلا أنى أراهم منذ خلقت ولا أرى واحدا منهم قد رأيته قبل ذلك ، ثم سألا واحدا منهم منذ كم خلقت ؟ فقال : لا أدرى غير أن الله عز وجل يخلق فى كل أربعمائة ألف سنة كوكبا ، وقد خلق منذ خلقنى أربعمائة ألف كوكب⁽¹⁾ فسبحانه من إله ما أعظم قدره وما أوسع ملكوته .

واختلف فى الملائكة الذين قيل لهم ما قيل ، فقيل : هم ملائكة الأرض وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما : أنهم المختارون مع إبليس حين بعثه الله عز وجل لمحاربة الجن ، حيث كانوا سكان الأرض فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء فقتلوهم إلا قليلا ، وقد أخرجوهم من الأرض وألحقوهم بجزائر البحار وقلل الجبال وسكنوا الأرض ، وخفف الله تعالى عنهم العبادة ، وأعطى إبليس ملك الأرض وملك السماء الدنيا وخزانة الجنة ، فكان يعبد

---

(١) كل تلك الأخبار لا يراد ظاهرها فى العدد ؛ وإنما يراد منها بيان عظمة الخلق وعظمة الخالق سبحانه .

الله تعالى تارة فى الأرض وتارة فى السماء ، وأخرى فى الجنة ، فأخذه العجب ، فكان من أمره ما كان ، وقال أكثر الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم إنهم(١) كل كل الملائكة لعموم اللفظ وعدم المخصص وقوله تعالى :

﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ فى حيز النصب على أنه مقول قال ، وصيغة الفاعل بمعنى المستقبل ، ولذلك عملت عمله . وفيها ما ليس فى صيغة المضارع من الدلالة على أنه فاعل ذلك لامحالة وهى من الجعل بمعنى التصيير المتعدى إلى مفعولين . فقيل أولهما خليفة وثانيهما الظرف المتقدم على ما هو مقتضى الصناعة ، فإن مفعولى التصيير فى الحقيقة اسم صار وخبره ، أولهما الأول ، وثانيهما الثانى ، وهما مبتدأ وخبر والأصل فى الأرض خليفة ثم قيل صار فى الأرض خليفة ثم مصير فى الأرض خليفة فمعناه بعد اللتيا والتى : إنى جاعل خليفة من الخلائف أو خليفة بعينه كائنا فى الأرض ، فإن خبر صار فى الحقيقة هو الكون المقدر العامل فى الظرف ، ولا ولا ريب فى أن ذلك ليس مما يقتضيه المقام أصلا ، وإنما الذى يقتضيه هو الإخبار بجعل آدم (عليه السلام)(٢) خليفة فيها كما يعرب عنه جواب الملائكة عليهم السلام ، فإذن قوله تعالى خليفة مفعول ثان ، والظرف متعلق بجاعل ، قدم على المفعول الصريح لما مر من التشويق إلى ما أخر ، أو بمحذوف وقع حالا مما بعده لكونه نكرة ، وأما المفعول الأول فمحذوف تعويلا على القرينة الدالة عليه كما فى قوله تعالى (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما) حذف فيه المفعول الأول وهو ضمير الأموال لدلالة الحال عليه وكذا فى قوله تعالى (ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم) حيث حذف فيه المفعول الأول لدلالة يبخلون عليه . أى لا يحسبن البخلاء

---

(١) فى الأصل : فى أنهم خطأ .

(٢) سقطت من ط .

بخلهم هو خيراً لهم ولا ريب فى تحقق القرينة ههنا ، أما إن حمل على الحذف عند وقوع المحكى فهى واضحة لوقوعه فى أثناء ذكره عليه السلام على ما سنفصله ، كأنه قيل : إنى خالق بشرا من طين وجاعل فى الأرض خليفة ، وإما إن حمل على أنه لم يحذف هناك بل قيل مثلا وجاعل إياه خليفة فى الأرض لكنه حذف عند الحكاية فالقرينة ما ذكر من جواب الملائكة عليهم السلام قال العلامة الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى (وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين) : إن قلت : كيف صح أن يقول لهم بشرا وما عرفوا ما البشر ولا عهدوا به ؟ قلت : وجهه أن يكون قد قال لهم : إنى خالق خلقا من صفته كيت وكيت ولكنه حين حكاه اقتصر على الاسم انتهى . فحيث جاز الاكتفاء عند الحكاية عن ذلك التفصيل بمجرد الاسم من غير قرينة تدل عليه فما ظنك بما نحن فيه ومعه قرينة ظاهرة ، ويجوز أن يكون من الجعل بمعنى الخلق المتعدى إلى مفعول واحد هو خليفة ، وحال الظرف فى التعلق والتقديم كما مر ، فحينئذ لا يكون ما سيأتى من كلام الملائكة مترتبا عليه بالذات بل بالواسطة ، فإنه روى أنه تعالى لما قال لهم : (إنى جاعل فى الأرض خليفة) قالوا : ربنا وما يكون ذلك الخليفة ؟ قال تعالى يكون له ذرية يفسدون فى الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضا فعند ذلك قالوا ما قالوا والله تعالى أعلم .

والخليفة من يخلف غيره وينوب منابه ، فعيل بمعنى الفاعل والتاء للمبالغة ، والمراد به إما آدم عليه السلام وبنوه ، وإنما اقتصر عليه استغناء بذكره عن ذكرهم كما يستغنى عن ذكر القبيلة بذكر أبيها كمضر وهاشم ومنه الخلافة فى قريش وإما من يخلف أو خلف يخلف فيعمه عليه السلام وغيره من خلفاء ذريته ، والمراد بالخلافة إما الخلافة من جهته سبحانه فى إجراء أحكامه وتنفيذ أوامره بين الناس وسياسة الخلق لكن لا لحاجة به تعالى إلى ذلك بل لقصور استعداد المستخلف عليهم ، وعدم لياقتهم لقبول الفيض بالذات فتختص بالخواص من بنيه ، وإما الخلافة ممن كان فى الأرض قبل ذلك فتعم حينئذ الجميع .

﴿ قالوا ﴾ استئناف وقع جوابا عما تنساق إليه الأذهان كأنه قيل : فماذا

قالت الملائكة حينئذ ، فقيل : قالوا ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ ؟ وهو أيضاً من الجعل المتعدى إلى اثنين ، فقيل فيهما ما قيل فى الأول ، والظاهر أن الأول كلمة من ، والثانى محذوف ثقة بما ذكر فى الكلام السابق كما حذف الأول ثمة تعويلا على ما ذكر هنا قال قائلهم :

لا تخلنا على عزائك إنا طالما قد وشى بنا الأعداء

بحذف المفعول الثانى أى لا تخلنا جازعين على عزائك : والمعنى أتجعل فيها من يفسد فيها خليفة . والظرف الأول متعلق بتجعل وتقديمه لما مر مرارا والثانى بيفسد وفائدته تأكيد الاستبعاد لما أن فى استخلاف المفسد فى محل إفساده من البعد ما ليس فى استخلافه فى غيره ، هذا وقد جوز كونه من الجعل بمعنى الخلق المتعدى إلى مفعول واحد هو كلمة من ، وأنت خبير بأن مدار تعجبهم ليس خلق من يفسد فى الأرض ، كيف لا وإن ما يعقبه من الجملة الحالية الناطقة بدعوى أحقيتهم منه يقضى ببطلانه حتما إذ لا صحة لدعوى الأحقية منه بالخلق وهم مخلوقون ، بل مداره أن يستخلف لعمارة الأرض وإصلاحها بإجراء أحكام الله تعالى وأوامره أو يستخلف مكان المطبوعين على الطاعة من من شأن بنى نوعه الإفساد وسفك الدماء وهو عليه السلام وإن كان منزها عن ذلك إلا أن استخلافه مستتبع لاستخلاف ذريته التى لا تخلو عنه غالبا ، وإنما أظهروا تعجبهم استكشافا عما خفى عليهم من الحكم التى بدت على تلك المفاسد وألغتها ، واستخبارا عما يزيح شبهتهم ويرشدهم إلى معرفة ما فيه عليه السلام من الفضائل التى جعلته أهلا لذلك ، كسؤال المعلم عما ينقدح فى ذهنه لا اعتراضا على فعل الله سبحانه ولا شكا فى اشتماله على الحكمة والمصلحة إجمالا ، ولا طعناً فيه عليه السلام ولا فى ذريته على وجه الغيبة ، فإن منصبهم أجل من أن يظن بهم أمثال ذلك ، قال تعالى (بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) وإنما عرفوا ما قالوا إما بإخبار من الله تعالى حسبما نقل من قبل ، أو بتلق من اللوح ، أو باستنباط عما ارتكز فى عقولهم من اختصاص

الحكمة(١) بهم ، أو بقياس لأحد الثقلين على الآخر .

﴿ ويسفك الدماء ﴾ السفك والسفح والسبك والسكب أنواع من الصب، والأولان مختصان بالدم ، بل لا يستعمل أولهما إلا فى الدم المحرم ، أى يقتل النفوس المحرمة بغير حق ، والتعبير عنه بسفك الدماء لما أنه أقبح أنواع القتل وأفظعه وقرىء يسفك بضم الفاء ، ويسفك ويسفك من أسفك وسفك ، وقرىء يسفك على البناء للمفعول وحذف الراجع إلى من موصولة أو موصوفة أى يسفك الدماء فيهم،

﴿ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ جملة حالية مقررة للتعجب السابق ومؤكدة له على طريقة قول من يجد فى خدمة مولاه وهو يأمر بها غيره أتستخدم العصاة وأنا مجتهد فيها ، كأنه قيل أتستخلف من شأن ذريته الفساد مع وجود من ليس من شأنه ذلك أصلا ، والمقصود عرض أحقيتهم منهم بالخلافة واستفسار عما رجحهم عليهم مع ما هو متوقع منهم من الموانع لا العجب والتفاخر ، فكأنهم شعروا بما فيهم من القوة الشهوية التى رذيلتها الإفراطية الفساد فى الأرض والقوة الغضبية التى رذيلتها الإفراطية سفك الدماء فقالوا ما قالوا وذهلوا عما إذا سخرتهما القوة العقلية ومرنتهما على الخير [فإنه] يحصل بذلك من علو الدرجة ما يقصر عن بلوغ رتبة القوة العقلية عند انفرادها فى أفاعيلها كالإحاطة بتفاصيل أحوال الجزئيات واستنباط الصناعات ، واستخراج منافع الكائنات من القوة إلى الفعل وغير ذلك مما نيط به أمر الخلافة . والتسبيح تنزيه الله تعالى وتبعيده اعتقادا وقولا وعملا عما لا يليق بجنابه سبحانه من سبح فى الأرض والماء إذا أبعد فيهما وأمعن ، ومنه فرس سبوح أى واسع الجرى وكذلك تقديسه تعالى من قدس فى الأرض إذا ذهب فيها وأبعد ، ويقال قدسه أى طهره فإن مطهر الشىء مبعده عن الأقذار ، والباء فى بحمدك متعلقة بمحذوف وقع حالا من الضمير ، أى ننزهك عن كل ما لا يليق بشأنك

---

(١) فى ط . العصمة

ملتبسين بحمدك على ما أنعمت به علينا من فنون النعم التى من جملتها توفيقنا لهذه العبادة ، فالتسبيح لإظهار صفات الجلال والحمد لتذكير صفات الإنعام ، واللام فى لك إما مزيدة والمعنى نقدسك ، وإما صلة للفعل كما فى سجدت لله وإما للبيان كما فى سقيالك ، فتكون متعلقة بمحذوف ، أى نقدس تقديسا لك أى نصفك بما يليق بك من العلو والعزة وننزهك عما لايليق بك ، وقيل المعنى نطهر نفوسنا عن الذنوب لأجلك ، كأنهم قابلوا الفساد الذى أعظمه الإشراك بالتسبيح وسفك الدماء الذى هو تلويث النفس بأقبح الجرائم بتطهير النفس عن الآثام لا تمدحا(١) بذلك ولا إظهارا للمنة بل بيانا للواقع .

﴿قال﴾ استئناف كما سبق ﴿إنى أعلم ما لا تعلمون﴾ ليس المراد به بيان أنه تعالى يعلم مالا يعلمون من الأشياء كائنا ما كان ، فإن ذلك مما لا شبهة لهم فيه حتى يفتقروا إلى التنبيه عليه لاسيما بطريق التوكيد ، بل بيان أن فيه عليه الصلاة والسلام معانى مستدعية لاستخلافه ، إذ هو الذى خفى عليهم وبنوا عليه مابنوا من التعجب والاستبعاد ، فما موصولة كانت أو موصوفة عبارة عن تلك المعانى ، والمعنى : إنى أعلم مالا تعلمونه من دواعى الخلافة فيه ، وإنما لم يقتصر على بيان تحققها فيه عليه السلام بأن قيل مثلا إن فيه ما يقتضيه من غير تعرض لإحاطته تعالى وغفلتهم عنه تفخيما لشأنه وإيذانا بابتناء أمره تعالى على العلم الرصين والحكمة المتقنة وصدور قولهم عن الغفلة ، وقيل معناه إنى أعلم من المصالح فى استخلافه ما هو خفى عليكم ، وأن هذا إرشاد للملائكة إلى العلم بأن أفعاله تعالى كلها حسنة وحكمة وإن خفى عليهم وجه الحسن والحكمة ، وأنت خبير بأنه مشعر بكونهم غير عالمين بذلك من قبل ويكون تعجبهم مبنيا على ترددهم فى اشتمال هذا الفعل لحكمة ما ، وذلك مما لا يليق بشأنهم فإنهم عالمون بأن ذلك متضمن لحكمة ما ، ولكنهم مترددون فى أنها

---

(١) فى ١١ : لاقدحا

ماذا ؟ هل هو أمر راجع إلى محض حكم الله عز وجل ، أو إلى فضيلة من جهة المستخلف ؟ فبين سبحانه وتعالى لهم أولا على وجه الإجمال والإبهام أن فيه فضائل غائبة عنهم ليستشرفوا إليها ، ثم أبرز لهم طرفا منها ليعاينوه جهرة ويظهر لهم بديع صنعه وحكمته وينزاح شبهتهم بالكلية .

﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ شروع فى تفصيل ما جرى بعد الجواب الإجمالى تحقيقا لمضمونه وتفسيراً لإبهامه وهو عطف على قال ، والابتداء بحكاية التعليم يدل بظاهره على أن ما مر من المقاولة المحكية إنما جرت بعد خلقه عليه السلام بمحضر منه وهو الأنسب بوقوف الملائكة على أحواله عليه السلام ، بأن قيل إثر نفخ الروح فيه : إنى جاعل إياه خليفة فقيل ما قيل كما أشير إليه ، وإيراده عليه السلام باسمه العلمى لزيادة تعيين المراد بالخليفة ، ولأن ذكره بعنوان الخلافه لا يلائم مقام تمهيد مباديها ، وهو اسم أعجمى والأقرب أن وزنه فاعل كشالخ وعاذر وعابر وفالغ لا أفعل . والتصدى لاشتقاقه من الأدمة أو الأدمة بالفتح بمعنى الأسوة ، أو من أديم الأرض بناء على ما روى عنه صلى الله عليه وسلم من : أنه تعالى قبض قبضة من جميع الأرض سهلها وحزنها فخلق منها آدم ، ولذلك اختلفت ألوان ذريته أو من الأدم والأدمة بمعنى الألفة تعسف كاشتقاق إدريس من الدرس ، ويعقوب من العقب ، وإبليس من الإبلاس ، والاسم باعتبار الاشتقاق ما يكون علامة للشيء ودليلا يرفعه إلى الذهن من الألفاظ والصفات والأفعال ، واستعماله عرفا فى اللفظ الموضوع لمعنى مفرداً كان أو مركبا مخبرا عنه أو خبرا أو رابطة بينهما ، واصطلاحا فى المفرد الدال على معنى فى نفسه غير مقترن بالزمان والمراد ههنا إما الأول أو الثانى ، وهو مستلزم للأول ، إذ العلم بالألفاظ من حيث الدلالة على المعانى مسبوق بالعلم بها والتعليم حقيقة عبارة فعل يترتب عليه العلم بلا تخلف عنه ولا يحصل ذلك بمجرد إفاضة المعلم ، بل يتوقف على استعداد المتعلم لقبول الفيض وتلقيه من جهته كما مر فى تفسير

الهدى ، وهو السر فى إيثاره على الإعلام والإنباء ، فإنهما إنما يتوقفان على سماع الخبر الذى يشترك فيه البشر والملك ، وبه يظهر أحقيته بالخلافة منهم عليهم السلام لما أن جبلتهم غير مستعدة للإحاطة بتفاصيل أحوال الجزئيات الجسمانية خبراً فمعنى تعليمه تعالى إياه أن يخلق فيه إذ ذاك بموجب استعداده علماً ضروريا تفصيليا بأسماء جميع المسميات وأحوالها وخواصها اللائقة بكل منها ، أو يلقى فى روعه تفصيلا أن هذا فرس ، وشأنه كيت وكيت ، وذاك بعير وحاله ذيت وذيت إلى غير ذلك من أحوال الموجودات ، فيتلقاها عليه السلام حسبما يقتضيه استعداده ويستدعيه قابليته المتفرعة على فطرته المنطوية على طبائع متباينة وقوى متخالفة وعناصر متغايرة .

قال ابن عباس وعكرمة وقتادة ومجاهد وابن جبير رضى الله تعالى عنهم: علمه أسماء جميع الأشياء حتى القصعة والقصيعة وحتى الجفنة والمحلب وحتى(١) منفعة كل شىء إلى جنسه . وقيل أسماء ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة ، وقيل : معنى قوله تعالى وعلم آدم الأسماء خلقه من أجزاء مختلفة وقوى متباينة مستعداً لإدراك أنواع المدركات من المعقولات والمحسوسات والمتخيلات والموهومات ، وألهمه معرفة ذوات الأشياء وأسمائها وخواصها ومعارفها وأصول العلم وقوانين الصناعات وتفاصيل آلاتها وكيفيات استعمالاتها ، فيكون مامر من المقاولة قبل خلقه عليه السلام . وقيل التعليم على ظاهره ولكن هناك جملا مطوية عطف عليها المذكور أى فخلقه فسواه ونفخ فيه الروح وعلمه الخ ﴿ ثم عرضهم على الملائكة ﴾ الضمير للمسميات المدلول عليها بالأسماء كما فى قوله تعالى : (واشتعل الرأس شيبا) والتذكير لتغليب العقلاء على غيرهم وقرىء عرضهن وعرضها أى عرض مسمياتهن أو مسمياتها فى الحديث : أنه تعالى عرضهم أمثال الذر ، ولعله عز وجل عرض عليهم من

---

(١) فى ط : وأنحى .

أفراد كل نوع ما يصلح أن يكون أنموذجا يتعرف منه أحوال البقية وأحكامها .

﴿ فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ﴾ تبكيتا لهم وإظهاراً لعجزهم عن إقامة ما علقوا به رجاءهم من أمر الخلافة ، فإن التصرف والتدبير وإقامة المعدلة بغير وقوف على مراتب الاستعدادات ومقادير الحقوق مما لا يكاد يمكن والإنباء إخبار فيه إعلام ، ولذلك يجرى مجرى كل منهما والمراد ههنا ماخلا عنه ، وإيثاره على الإخبار للإيذان برفعة شأن الأسماء وعظم خطرها ، فإن النبأ إنما يطلق على الخبر الخطير والأمر العظيم ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أى فى زعمكم أنكم أحقاء بالخلافة ممن استخلفته كما ينبىء عنه مقالكم ، والتصديق كما يتطرق إلى الكلام باعتبار منطوقه قد يتطرق إليه باعتبار ما يلزمه من الإخبار ، فإن أدنى مراتب الاستحقاق هو الوقوف على أسماء مافى الأرض ، وأما ما قيل من أن المعنى فى زعمكم أنى أستخلف فى الأرض مفسدين سفاكين للدماء فليس مما يقتضيه المقام ، وإن أول بأن يقال فى زعمكم أنى أستخلف من غالب أمره الإفساد وسفك الدماء من غير أن يكون له مزية من جهة أخرى ، إذ لا تعلق له بأمرهم بالإنباء . وجواب الشرط محذوف لدلالة المذكور عليه .

﴿ قالوا ﴾ استئناف واقع موقع الجواب كأنه قيل فماذا قالوا حينئذ ، هل خرجوا عن عهدة ما كلفوه أولا ؟ فقيل : قالوا ﴿ سبحانك ﴾ قيل هو علم للتسبيح ولا يكاد يستعمل إلا مضافا وقد جاء غير مضاف على الشذوذ غير منصرف للتعريف والألف والنون المزيدتين كما فى قوله :

٭ سبحان من علقمة الفاخر ٭

وأما فى قوله :

٭ سبحانه ثم سبحانا نعود له ٭

فقيل صرفه للضرورة ، وقيل إنه مصدر منكر كغفران ، لا اسم مصدر ، ومعناه على الأول نسبحك عما لا يليق بشأنك الأقدس من الأمور التى من جملتها خلو أفعالك من الحكم والمصالح وعنوا بذلك تسبيحا ناشئا عن كمال طمأنينة النفس والإيمان باشتمال استخلاف آدم عليه السلام على الحكم البالغة ، وعلى الثانى تنزهت عن ذلك ناشئا عن ذاتك ، وأرادوا به أنهم قالوه عن إذعان لما علموا إجمالا بأنه عليه السلام يكلف ما كلفوه ، وأنه يقدر على ما قد عجزوا عنه مما يتوقف عليه الخلافة ، وقوله عز وعلا (لا علم لنا إلا ما علمتنا) اعتراف منهم بالعجز عما كلفوه ، إذ معناه لا علم لنا إلا ما علمتناه بحسب قابليتنا من العلوم المناسبة لعالمنا ولا قدرة بنا على ما هو خارج عن دائرة استعدادنا حتى لو كنا مستعدين لذلك لأفضته علينا ، وما فى ما علمتنا موصولة حذف من صلتها عائدها أو مصدرية ، ولقد نفوا عنهم العلم بالأسماء على وجه المبالغة حتى(١) لم يقتصروا على بيان عدمه بأن قالوا مثلا لا علم لنا بها ، بل جعلوه من جملة ما لا يعلمونه ، وأشعروا بأن كونه من تلك الجملة غنى عن البيان ﴿إنك أنت العليم﴾ الذى لا يخفى عليه خافية ، وهذا إشارة إلى تحقيقهم لقوله تعالى : (إنى أعلم ما لا تعلمون) ﴿الحكيم﴾ أى المحكم لمصنوعاته الفاعل لها حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة وهو خبر بعد خبر ، أو صفة للأول ، وأنت ضمير الفصل لا محل له من الإعراب ، أوله محل منه مشارك لما قبله كما قاله الفراء ، أو لما بعده كما قاله الكسائى ، وقيل تأكيد للكاف كما فى قولك مررت بك أنت ، وقيل مبتدأ خبره ما بعده ، والجملة خبر إن ، وتلك الجملة تعليل لما سبق من قصر علمهم بما علمهم الله تعالى وما يفهم من ذلك من علم آدم عليه السلام بما خفى عليهم ، فكأنهم قالوا أنت العالم بكل المعلومات التى من جملتها استعداد آدم عليه السلام لما نحن بمعزل من الاستعداد له من العلوم الخفية المتعلقة بما فى الأرض من أنواع المخلوقات التى عليها يدور

---

(١) فى ط : حيث

فلك خلافة الحكيم الذى لايفعل إلا ماتقتضيه الحكمة ومن جملته تعليم آدم عليه السلام ما هو قابل له من العلوم الكلية والمعارف الجزئية المتعلقة بالأحكام الواردة على مافى الأرض وبناء أمر الخلافة عليها .

﴿قال﴾ استئناف كما سبق(١) ﴿يا آدم أنبئهم﴾ أى أعلمهم أوثر على أنبئنى كما وقع فى أمر الملائكة مع حصول المراد معه أيضاً وهو ظهور فضل آدم عليهم ، عليهم السلام ، إبانة لما بين الأمرين من التفاوت الجلى وإيذانا بأن علمه عليه السلام بها أمر واضح غير محتاج إلى مايجرى مجرى الامتحان ، وأنه عليه السلام حقيق بأن يعلمها غيره وقرىء بقلب الهمزة ياء وبحذفها أيضاً والهاء مكسورة فيهما ﴿بأسمائهم﴾ التى عجزوا عن علمها واعترفوا بتقاصر هممهم عن بلوغ مرتبتها ﴿فلما أنبأهم بأسمائهم﴾ الفاء فصيحة عاطفة للجملة الشرطية على محذوف يقتضيه المقام وينسحب عليه الكلام ، للإيذان بتقرره وغناه عن الذكر وللإشعار بتحققه فى أسرع ما يكون كما فى قوله عز وجل (فلما رآه مستقراً عنده) بعد قوله سبحانه (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) وإظهار الأسماء فى موضع(٢) الإضمار لإظهار كمال العناية بشأنها ، والإيذان بأنه عليه السلام أنبأهم بها على وجه التفصيل دون الإجمال والمعنى فأنبأهم بأسمائهم مفصلة وبين لهم أحوال كل منهم وخواصه وأحكامه المتعلقة بالمعاش والمعاد ، فعلموا ذلك لما رأوا أنه عليه السلام لم يتلعثم فى شىء من التفاصيل التى ذكرها مع مساعدة ما بين الأسماء والمسميات من المناسبات والمشاكلات وغير ذلك من القرائن الموجبة لصدق مقالاته عليه السلام ، فلما أنبأهم بذلك .

﴿قال﴾ عز وجل تقريراً لما مر من الجواب الإجمالى واستحضارا له

---

(١) فى ط : سلف

(٢) فى ط : موقع

﴿ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض﴾ ولكن لا لتقرير نفسه كما فى قوله تعالى (ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً) ونظائره بل لتقرير مايفيده من تحقق دواعى الخلافة فى آدم عليه السلام لظهور مصداقه ، وإيراد مالا يعلمون بعنوان الغيب مضافا إلى السموات والأرض للمبالغة فى بيان كمال شمول علمه المحيط وغاية سعته ، مع الإيذان بأن ما ظهر من عجزهم وعلم آدم عليه السلام من الأمور المتعلقة بأهل السموات وأهل الأرض ، وهذا دليل واضح على أن المراد بما لاتعلمون فيما سبق ما أشير إليه هناك كأنه قيل ألم أقل لكم إنى أعلم فيه من دواعى الخلافة مالاتعلمونه فيه هو هذا الذى عاينتموه ، وقوله تعالى : ﴿وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون﴾ عطف على جملة ألم أقل لكم لاعلى أعلم ، إذ هو غير داخل تحت القول ، وما فى الموضعين موصولة حذف عائدها أى أعلم ما تبدونه وما تكتمونه ، وتغيير الأسلوب للإيذان باستمرار كتمهم ، قيل المراد بما يبدون قولهم أتجعل الخ وبما يكتمون استبطانهم أنهم أحقاء بالخلافة وأنه تعالى لايخلق خلقا أفضل منهم .

روى أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام رأت الملائكة فطرته العجيبة وقالوا ليكن ما شاء فلن يخلق ربنا خلقا إلا كنا أكرم عليه منه وقيل هو ما أسره إبليس فى نفسه من الكبر وترك السجود ، فإسناد الكتمان حينئذ إلى الجميع من قبيل قولهم بنو فلان قتلوا فلانا والقاتل واحد من بينهم ، قالوا : فى الآية الكريمة دلالة على شرف الإنسان ومزية العلم وفضله على العبادة ، وأن ذلك هو المناط للخلافة ، وأن التعليم يصح إطلاقه على الله تعالى . وإن لم يصح إطلاق المعلم عليه لاختصاصه عادة بمن يحترف به ، وأن اللغات توقيفية إذ الأسماء تدل على الألفاظ بخصوص أو بعموم وتعليمها ظاهر فى إلقائها على المتعلم مبينا له معانيها وذلك يستدعى سابقة وضع وماهو إلا من الله تعالى وأن مفهوم الحكمة زائد على مفهوم العلم وإلا لزم التكرار وأن علوم الملائكة وكمالاتهم تقبل الزيادة والحكماء منعوا ذلك فى الطبقة العليا منهم وحملوا على

ذلك قوله تعالى (وما منا إلا له مقام معلوم) وأن آدم أفضل من هؤلاء الملائكة لأنه عليه السلام أعلم منهم وأنه تعالى يعلم الأشياء قبل حدوثها .

﴿ وإذ قلنا للملائكة ﴾ عطف على الظرف الأول منصوب بما نصبه من المضمر ، أو بناصب مستقل معطوف على ناصبه عطف القصة على القصة ، أى واذكر وقت قولنا لهم ، وقيل بفعل دل عليه الكلام ، أى أطاعوا وقت قولنا الخ ، وقد عرفت ما فى أمثاله ، وتخصص هذا القول بالذكر مع كون مقتضى الظاهر إيراده على منهاج ما قبله من الأقوال المحكية المتصلة به للإيذان بأن ما فى حيزه نعمة جليلة مستقلة حقيقة بالذكر والتذكير على حيالها ، والالتفات إلى التكلم لإظهار الجلالة وتربية المهابة مع ما فيه من تأكيد الاستقلال وكذا إظهار الملائكة فى موضع الإضمار ، والكلام فى اللام وتقديمها مع مجرورها على المفعول كما مر ، وقرىء بضم تاء الملائكة إتباعا لضم الجيم فى قوله تعالى : (اسجدوا لآدم) كما قرىء بكسر الدال فى قوله تعالى : الحمد لله إتباعا لكسر الكسر اللام وهى لغة ضعيفة ، والسجود فى اللغة الخضوع والتطامن وفى الشرع وضع الجبهة على الأرض على قصد العبادة ، فقيل أمروا بالسجود له عليه السلام على وجه التحية تعظيما له واعترافا بفضله وأداء الحق التعليم واعتذارا عما وقع منهم فى شأنه ، وقيل أمروا بالسجود له تعالى وإنما كان آدم قبلة لسجودهم تفخيما لشأنه أو سببا لوجوبه ، فكأنه تعالى لما برأه أنموذجا للمبدعات كلها ونسخة منطوية على تعلق العالم الروحانى بالعالم الجسمانى وامتزاجهما على نمط بديع أمرهم بالسجود له تعالى لما عاينوا من عظيم قدرته فاللام فيه كما فى قول حسان رضى الله عنه :

أليس أول من صلى لقبلتكم   وأعرف الناس بالقرآن والسنن

أو فى قوله تعالى : (أقم الصلاة لدلوك الشمس) والأول هو الأظهر ، وقوله عز وجل ﴿ فسجدوا ﴾ عطف على قلنا ، والفاء لإفادة مسارعتهم إلى

الامتثال وعدم تلعثمهم فى ذلك ، روى عن وهب أن أول من سجد جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم عزرائيل ثم سائر الملائكة عليهم السلام وقوله تعالى ﴿ إلا إبليس ﴾ استثناء متصل لما أنه كان جنيا مفردا مغمورا بألوف من الملائكة متصفا بصفاتهم فغلبوا عليه فى فسجدوا ، ثم استثنى استثناء واحد منهم أو لأن من الملائكة جنساً يتوالدون يقال لهم الجن كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وهو منهم ، أو لأن الجن أيضاً كانوا مأمورين بالسجود له لكن استغنى بذكر الملائكة عن ذكرهم ، أو منقطع : وهو اسم أعجمى ولذلك لم ينصرف ومن جعله مشتقا من الإبلاس وهو إلباس قال إنه مشبه بالعجمة حيث لم يسم به أحد فكان كالاسم الأعجمى .

واعلم أن الذى تقتضيه هذه الآية الكريمة والتى فى سورة الأعراف من قوله تعالى (ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس) الآية ، والتى فى سورة بنى إسرائيل وسورة الكهف وسورة طه من قوله تعالى : (وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا) الآية ، أن سجود الملائكة إنما ترتب على الأمر التنجيزى الوارد بعد خلقه وتسويته ونفخ الروح فيه ألبتة كما يلوح به حكاية امتثالهم بعبارة السجود دون الوقوع الذى به ورد الأمر التعليقى ، ولكن ما فى سورة الحجر من قوله عز وعلا (وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون) وما فى سورة ص من قوله تعالى : (إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين) إلى آخر الآية يستدعيان بظاهرهما ترتبه على ما فيهما من الأمر التعليقى من غير أن يتوسط بينهما شىء غير ما تفصح عنه الفاء الفصيحة من الخلق والتسوية ونفخ الروح فيه عليه السلام .

وقد روى عن وهب أنه كان السجود كما نفخ فيه الروح بلا تأخير وتأويل الآيات السابقة بحمل ما فيها من الأمر على حكاية الأمر التعليقى بعد تحقق

المعلق به إجمالا . فإنه حينئذ يكون فى حكم التنجيز يأباه ما فى سورة الأعراف من كلمة ثم المنادية بتأخر ورود الأمر عن التصوير المتأخر عن الخلق المتأخر عن الأمر التعليق والاعتذار بحمل التراخى على الرتبى أو التراخى فى الإخبار أو بأن الأمر التعليقى قبل تحقق المعلق به لما كان فى عدم إيجاب المأمور به بمنزلة العدم جعل كأنه إنما حدث بعد تحققه فحكى على صورة التنجيز يؤدى بعد اللتيا واللتى إلى أن ماجرى بينه وبينهم عليهم السلام فى شأن الخلافة وماقالوا فيه وما سمعوا إنما جرى بعد السجود المسبوق بمعرفة جلالة منزلته عليه السلام وخروج إبليس من البين باللعن المؤبد لعناده ، وبعد مشاهدتهم لذلك كله عيانا وهل هو إلا خرق لقضية العقل والنقل ، والالتجاء فى التفصى عنه إلى تأويل نفخ الروح بحمله على مايعم إفاضة ما به حياة النفوس التى من جملتها تعليم الأسماء تعسف ينبىء عن ضيق المجال .

فالذى يقتضيه التحقيق ويستدعيه النظم(١) الأنيق بعد التصفح فى مستودعات الكتاب المكنون والتفحص عما فيه من السر المخزون أن سجودهم له عليه السلام إنما ترتب على الأمر التنجيزى المتفرع على ظهور فضله عليه السلام المبنى على المحاورة المسبوقة بالإخبار بخلافته المنتظم جميع ذلك فى سلك ما نيط به الأمر التعليقى من التسوية ونفخ الروح ، إذ ليس من قضيته وجوب السجود عقيب نفخ الروح فيه ، فإن الفاء الجزائية ليست بنص فى وجوب وقوع مضمون الجزاء عقيب وجود الشرط من غير تراخ للقطع بعدم وجوب السعى عقيب النداء ، لقوله تعالى : (إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا) الآية وبعدم وجوب إقامة الصلاة غب الاطمئنان لقوله تعالى : (فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة) بل إنما الوجوب عند دخول الوقت . كيف لا والحكمة الداعية إلى ورود ما نحن فيه من الأمر التعليقى إثر ذى أثير إنما هى حمل الملائكة عليهم السلام على التأمل فى شأنه عليه السلام ليتدبروا فى أحواله طرا ، ويحيطوا

---

(١) فى الأصل : النظار

بما لديه خبراً ، ويستفهموا ما عسى يستبهم عليهم فى أمره عليه السلام لابتنائه على حكم أبية ، وأسرار خفية طويت عن علومهم ، ويقفوا على جلية الحال قبل ورود الأمر التنجيزى وتحتم الامتثال ؛ وقد قالوا بحسب ذلك ماقالوا وعاينوا ماعاينوا ؛ وعدم نظم الأمر التنجيزى فى سلك الأمور المذكورة فى السورتين عند الحكاية لايستلزم عدم انتظامه فيه عند وقوع المحكى كما أن عدم ذكر الأمر التعليق عند حكاية الأمر التنجيزى فى السورة الكريمة المذكورة لايوجب عدم مسبوقيته به ، فإن حكاية كلام واحد على أساليب مختلفة حسبما يقتضيه المقام ويستدعيه حسن الانتظام ليست بعزيزة فى الكتاب العزيز ، وناهيك بما نقل فى توجيه قوله تعالى : (بشرا) مع عدم سبق معرفة الملائكة عليهم السلام بذلك وحيث صير إليه مع أنه لم يرد به نقل فما ظنك بما قد وقع التصريح به فى مواضع عديدة فلعله قد ألقى إليهم ابتداء جميع ما يتوقف عليه الأمر التنجيزى إجمالا بأن قيل مثلا إنى خالق بشرا من كذا وكذا وجاعل إياه خليفة فى الأرض ، فهناك ذكروا فى حقه عليه السلام ما ذكروا ، فأيده الله عز وجل بتعليم الأسماء فشاهدوا منه ماشاهدوا ، فعند ذلك ورد الأمر التنجيزى اعتناء بشأن المأمور به وتعيينا لوقته ، وقد حكى بعض الأمور فى بعض المواطن وبعضها فى بعضها اكتفاء بما ذكر فى كل موطن عما ترك فى موطن آخر ، والذى يحسم مادة الاشتباه أن ما فى سورة ص من قوله تعالى (إذ قال ربك للملائكة) الخ ، بدل من قوله تعالى (إذ يختصمون) فيما قبله من قوله تعالى (ما كان لى من علم بالملإ الأعلى إذ يختصمون) أى بكلامهم عند اختصامهم والمراد بالملإ الأعلى الملائكة وآدم عليهم السلام وإبليس حسبما أطبق عليه جمهور الأمة ، وباختصامهم ماجرى بينهم فى شأن خلافة آدم عليه السلام من التقاول الذى من جملته ما صدر عنه عليه السلام من الإنباء بالأسماء ومن قضية البدلية وقوع الاختصام المذكور فى تضاعيف ما ذكر فيه تفصيلا من الأمر التعليق ، وما علق به من الخلق والتسوية ونفخ الروح فيه وما ترتب عليه من سجود الملائكة عليهم السلام وعناد إبليس وما تبعه من لعنه وإخراجه من

بين الملائكة ، وماجرى بعده من الأفعال والأقوال ، وإذ ليس تمام الاختصام بعد سجود الملائكة ومكابرة إبليس المستتبعة لطرده من بينهم لما عرفت من أنه أحد المختصمين كما أنه ليس قبل الخلق ضرورة استحالة الإنباء بالأسماء حينئذ ، فهو إذن بعد نفخ الروح وقبل السجود حتما بأحد الطريقين والله سبحانه أعلم بحقيقة الأمر .

﴿أبى واستكبر﴾ استئناف مبين لكيفية عدم السجود المفهوم من الاستثناء وأنه لم يكن للتردد والتأمل (١) والإباء الامتناع بالاختيار ، والتكبر أن يرى نفسه أكبر من غيره ، والاستكبار طلب ذلك بالتشبع ، أى امتنع عما أمر به واستكبر من أن يعظمه أو يتخذه وصلة فى عبادة ربه وتقديم الإباء على الاستكبار مع كونه مسببا عنه لظهوره ووضوح أثره واقتصر فى سورة ص على ذكر الاستكبار اكتفاء به ، وفى سورة الحجر على ذكر الإباء حيث قيل أبى أن يكون مع الساجدين ﴿وكان من الكافرين﴾ أى فى علم الله تعالى ، إذ كان أصله من كفرة الجن فلذلك ارتكب ما ارتكبه على ما أفصح عنه قوله تعالى (كان من الجن ففسق عن أمر ربه) فالجملة اعتراضية مقررة لما سبق من الإباء والاستكبار ، أو صار منهم باستقباح أمره تعالى إياه بالسجود لآدم عليه السلام زعما منه أنه أفضل منه ، والأفضل لا يحسن أن يؤمر بالخضوع للمفضول كما يفصح عنه قوله (أنا خير منه) حين قيل له (مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين) لا بترك الواجب وحده فالجملة معطوفة على ماقبلها ، وإيثار الواو على الفاء للدلالة على أن محض الإباء والاستكبار كفر لا أنهما سببان له كما تفيده الفاء .

﴿وقلنا﴾ شروع فى حكاية ماجرى بينه تعالى وبين آدم عليه السلام بعد تمام ماجرى بينه تعالى وبين الملائكة وإبليس من الأقوال والأفعال ، وقد تركت حكاية توبيخ إبليس وجوابه ولعنه واستنظاره (٢) وإنظاره اجتزاء بما

---

(١) فى ط : وللتأمل

(٢) فى ط : واستظهاره

فصل فى سائر السور الكريمة وهو عطف على قلنا للملائكة ولا يقدح فى ذلك اختلاف وقتيهما ، فإن المراد بالزمان المدلول عليه بكلمة إذ زمان ممتد واسع للقواين ، وقيل هو عطف على إذ قلنا بإضمار إذ ، وهذا تذكير لنعمة أخرى موجبة للشكر مانعة من الكفر وتصدير الكلام بالنداء فى قوله تعالى ﴿ يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ للتنبيه على الاهتمام بتلقى المأمور به ، وتخصيص أصل الخطاب به عليه السلام للإيذان بأصالته فى مباشرة المأمور به ، واسكن من السكنى وهو اللبث والإقامة والاستقرار دون السكون الذى هو ضد الحركة وأنت ضمير أكد به المستكن ليصح العطف عليه واختلف فى وقت خلق زوجه . فذكر السدى عن ابن مسعود وابن عباس وناس من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين : أن الله تعالى لما أخرج إبليس من الجنة وأسكنها آدم بقى فيها وحده وما كان معه من يستأنس به فألقى الله تعالى عليه النوم ثم أخذ ضلعا من جانبه الأيسر ووضع مكانه لحما وخلق حواء منه فلما استيقظ وجدها عند رأسه قاعدة ، فسألها : ما أنت ؟ قالت : امرأة . قال : ولم خلقت ؟ قالت : لتسكن إلى. فقالت الملائكة تجربة لعلمه : من هذه ؟ قال : امرأة، قالوا : لم سميت امرأة قال : لأنها من المرء أخذت، فقالوا ما اسمها ؟ قال : حواء، قالوا: لم سميت حواء؟ قال: لأنها خلقت من شىء حى . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بعث الله تعالى جندا من الملائكة فحملوا آدم وحواء على سرير من ذهب كما يحمل الملوك ولباسهما النور ، حتى أدخلوهما الجنة ، وهذا كما ترى يدل على خلقها قبل دخول الجنة والمراد بها دار الثواب ، لأنها المعهودة ، وقيل هى جنة بأرض فلسطين ، أو بين فارس وكرمان ، خلقها الله تعالى امتحانا لآدم عليه السلام وحمل الإهباط على النقل منها إلى أرض الهند كما فى قوله تعالى (اهبطوا مصرا) لما أن خلقه عليه السلام كان فى الأرض بلا خلاف ولم يذكر فى هذه القصة رفعه إلى السماء ولو وقع ذلك لكان أولى بالذكر والتذكير ، لما أنه من أعظم النعم ، ولأنها لو كانت دار الخلد لما دخلها إبليس . وقيل إنها كانت فى السماء السابعة ، بدليل اهبطوا ، ثم إن

الإهباط الأول كان منها إلى السماء الدنيا ، والثانى منها إلى الأرض ، وقيل الكل ممكن ، والأدلة النقلية متعارضة فوجب التوقف وترك القطع .

﴿وكلا منها﴾ أى من ثمارها ، وإنما وجه الخطاب إليهما تعميما للتشريف والترفيه ، ومبالغة فى إزالة العلل والأعذار ، وإيذانا بتساويهما فى مباشرة المأمور به ، فإن حواء أسوة له عليه السلام فى الأكل بخلاف السكنى ، فإنها تابعة له فيه ﴿رغدا﴾ صفة المصدر المؤكد أى أكلا واسعاً رافها ﴿حيث شئتما﴾ أى أى مكان أردتما منها ، وهذا كما ترى إطلاق كلى حيث أبيح لهما الأكل منها على وجه التوسعة البالغة المزيحة للعلل ولم يحظر عليهما بعض الأكل ولا بعض المواضع الجامعة للمأكولات حتى لا يبقى لهما عذر فى تناول ما منعا منه بقوله تعالى ﴿ولا تقربا﴾ بفتح الراء من قربت الشىء بالكسر أقربه بالفتح إذا التبست به وتعرضت له ، وقال الجوهرى قرب بالضم يقرب قربا إذا دنا ، وقربته بالكسر قربانا دنوت منه ﴿هذه الشجرة﴾ نصب على أنه بدل من اسم الإشارة ، أو نعت له بتأويلها بمشتق ، أى هذه الحاضرة من الشجرة أى لا تأكلا منها وإنما علق النهى بالقربان منها مبالغة فى تحريم الأكل ووجوب الاجتناب عنه والمراد بها الحنطة أو العنبة أو التينة وقيل هى شجرة من أكل منها أحدث ، والأولى عدم تعيينها من غير قاطع وقرىء هذى بالياء وبكسر شين الشجرة وتاء تقربا ، وقرىء الشيرة بكسر الشين وفتح الياء ﴿فتكونا من الظالمين﴾ مجزوم على أنه معطوف على تقربا أو منصوب على أنه جواب للنهى وأياما كان فالقرب أى الأكل منها سبب لكونهما من الظالمين أى الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المعصية . أو نقصوا حظوظهم بمباشرة مايخل بالكرامة والنعيم ، أو تعدوا حدود الله تعالى .

﴿فأزلهما الشيطان عنها﴾ أى أصدر زلتهما أى زلقهما وحملهما على الزلة بسببها ، ونظيره عن هذه ما فى قوله تعالى (وما فعلته عن أمرى) أو أزلهما عن الجنة بمعنى أذهبهما وأبعدهما عنها ، يقال زل عنى كذا إذا ذهب عنك ، ويعضده قراءة (أزالهما) وهما متقاربان فى المعنى . فإن الإزلال أى الإزلاق يقتضى زوال

الزوال عن موضعه ألبتة ، وإزلاله قوله لهما هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . وقوله مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، ومقاسمته لهما إنى لكما لمن الناصحين ، وهذه الآيات مشعرة بأنه عليه السلام لم يؤمر بسكنى الجنة على وجه الخلود بل على وجه التكرمة والتشريف لما قلد من خلافة الأرض إلى حين البعث إليها .

واختلف فى كيفية توصله إليهما بعد ما قيل له (اخرج منها فإنك رجيم) فقيل إنه إنما منع من الدخول على وجه التكرمة كما يدخلها الملائكة عليهم السلام ولم يمنع من الدخول للوسوسة ابتلاء لآدم وحواء ، وقيل قام عند الباب فناداهما وقيل تمثل بصورة دابة فدخل ولم يعرفه الخزنة ، وقيل دخل فى فم الحية فدخل معها ، وقيل أرسل بعض أتباعه فأزلهما والعلم عند الله سبحانه .

﴿ فأخرجهما مما كانا فيه ﴾ أى من الجنة إن كان ضمير عنها للشجرة ، والتعبير عنها بذلك للإيذان بفخامتها وجلالتها وملابستهما له ، أى من المكان العظيم الذى كانا مستقرين فيه أو من الكرامة والنعيم إن كان الضمير للجنة ﴿ وقلنا اهبطوا ﴾ الخطاب لآدم وحواء عليهما السلام بدليل قوله تعالى (قال اهبطا منها جميعا) وجمع الضمير لأنهما أصل الجنس ، فكأنهما الجنس كلهم ، وقيل لهما وللحية وإبليس على أنه أخرج منها ثانيا بعدما كان يدخلها الوسوسة أو يدخلها مسارقة ، وأهبط من السماء وقرىء بضم الباء ﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ حال استغنى فيها عن الواو بالضمير أى متعادين يبغى بعضكم على بعض بتضليله أو استئناف لا محل له من الإعراب ، وإفراد العدو إما للنظر إلى لفظ البعض وإما لأن وزانه وزان المصدر كالقول ﴿ ولكم فى الأرض ﴾ التى هى محل الإهباط والظرف متعلق بما تعلق به الخبر أعنى لكم من الاستقرار ﴿ مستقر ﴾ أى استقرار أو موضع استقرار ﴿ ومتاع ﴾ أى تمتع بالعيش وانتفاع به ﴿ إلى حين ﴾ هو حين الموت على أن المغيا تمتع كل فرد من المخاطبين ، أو القيامة ، على أنه تمتع الجنس فى ضمن بعض الأفراد والجملة كما قبلها فى كونها

حالا أى مستحقين للاستقرار والتمتع أو استئنافا .

﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات ﴾ أى استقبلها بالأخذ والقبول والعمل بها حين علمها ووفق لها وقرىء بنصب آدم ورفع كلمات دلالة على أنها استقبلته بلغته وهى قوله تعالى (ربنا ظلمنا أنفسنا) الآية . وقيل « سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله إلا أنت ظلمت نفسى فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال يارب ألم تخلقنى بيدك؟ قال : بلى قال يارب ألم تنفخ فى من روحك ؟ قال : بلى . قال : يارب ألم تسبق رحمتك غضبك ؟ قال : بلى . قال ألم تسكنى جنتك ؟ قال : بلى . قال : يارب إن تبت وأصلحت أراجعى أنت إلى الجنة ؟ قال : نعم . والفاء للدلالة على أن التوبة حصلت عقيب الأمر بالهبوط قبل تحقق المأمور به ، والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إليه عليه السلام للتشريف والإيذان بعليته لإلقاء الكلمات المدلول عليها(١) بتلقيها ﴿ فتاب عليه ﴾ أى رجع عليه بالرحمة وقبول التوبة والفاء للدلالة على ترتبه على تلقى الكلمات المتضمن لمعنى التوبة التى هى عبارة عن الاعتراف بالذنب والندم عليه والعزم على عدم العود إليه واكتفى بذكر شأن آدم عليه السلام لما أن حواء تبع له فى الحكم ولذلك طوى ذكر النساء فى أكثر مواضع(٢) الكتاب والسنة ﴿ إنه هو التواب ﴾ أى الرجاع على عباده بالمغفرة أو الذى يكثر إعانتهم على التوبة وأصل التوب الرجوع فإذا وصف به العبد كان رجوعا عن المعصية ، وإذا وصف به البارى عز وجل أريد به الرجوع عن العقاب إلى المغفرة ﴿ الرحيم ﴾ المبالغ فى الرحمة وفى الجمع بين الوصفين وعد بليغ للتائب بالإحسان مع العفو والغفران والجملة تعليل لقوله تعالى فتاب عليه .

﴿ قلنا ﴾ استئناف مبنى على سؤال ينسحب عليه الكلام ، كأنه قيل : فماذا وقع بعد قبول توبته فقيل : قلنا ﴿ اهبطوا منها جميعاً ﴾ كرر الأمر بالهبوط إيذانا بتحتم مقتضاه وتحققه لا محالة . ودفعاً لما عسى يقع فى أمنيته عليه

---

(١) فى ط عليه

(٢) فى ط مواقع

السلام فى استتباع قبول التوبة للعفو عن ذلك ، وإظهارا لنوع رأفة به عليه السلام لما بين الأمرين من الفرق النير ، كيف لا والأول مشوب بضرب سخط مذيل ببيان أن مهبطهم دار بلية وتعاد لا يخلدون فيها . والثانى مقرون بوعد إيتاء الهدى المؤدى إلى النجاة والنجاح ، وأما ما فيه من وعيد العقاب فليس بمقصود من التكليف قصدا أوليا ، بل إنما هو دائر على سوء اختيار المكلفين قيل وفيه تنبيه على أن الحازم يكفيه فى الردع عن مخالفة حكم الله تعالى مخافة الإهباط المقترن بأحد هذين الأمرين ، فكيف بالمقترن بهما فتأمل ، وقيل الأول من الجنة إلى السماء الدنيا ، والثانى منها إلى الأرض ، ويأباه التعرض لاستقرارهم فى الأرض فى الأول ، ورجوع الضمير إلى الجنة فى الثانى وجميعاً حال فى اللفظ وتأكيد فى المعنى ، كأنه قيل اهبطوا أنتم أجمعون ولذلك لا يستدعى الاجتماع على الهبوط فى زمان واحد كما فى قولك جاءوا جميعاً ، بخلاف قولك جاءوا معاً .

﴿ فإما يأتينكم من هدى ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على الهبوط المفهوم من الأمر به وإما مركبة من أن الشرطية وما المزيدة المؤكدة لمعناها والفعل فى محل الجزم بالشرط ، لأنه مبنى لاتصاله بنون التأكيد ، وقيل معرب مطلقا ، وقيل مبنى مطلقا ، والصحيح التفصيل . إن باشرته النون بنى وإلا أعرب ، نحو هل يقومان ، وتقديم الظرف على الفاعل لما مر غير مرة ، والمعنى أن يأتينكم منى هدى برسول أبعثه إليكم وكتاب أنزله عليكم ، وجواب الشرط قوله تعالى ﴿ فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ كما فى قولك إن جئتنى فإن قدرت أحسنت إليك ، وإيراد كلمة الشك مع تحقق الإتيان لا محالة للإيذان بأن الإيمان بالله والتوحيد لا يشترط فيه بعثة الرسل وإنزال الكتب ، بل يكفى فى وجوبه إفاضة العقل ونصب الأدلة الآفاقية والأنفسية ، والتمكين من النظر والاستدلال ، أو للجرى على سنن العظماء فى إيراد عسى ولعل فى مواقع القطع والجزم والمعنى أن من تبع هداى منكم فلا خوف عليهم فى الدارين من لحوق مكروه ولا هم يحزنون من فوات مطلوب أى لا يعتريهم ما يوجب ذلك ، لا

أنه يعتريهم ذلك لكنهم لا يخافون ولا يحزنون ولا أنه لا يعتريهم نفس الخوف والحزن أصلا بل يستمرون على السرور والنشاط ، كيف لا واستشعار الخوف والخشية استعظاما لجلال الله سبحانه وهيبته واستقصارا للجد والسعى فى إقامة حقوق العبودية من خصائص الخواص والمقربين والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيان انتفاء دوامهما كما يتوهم من كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا لما تقرر فى موضعه أن النفى وإن دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام ، وإظهار الهدى مضافا إلى ضمير الجلالة لتعظيمه وتأكيد وجوب اتباعه أو لأن المراد بالثانى ما هو أعم من الهدايات التشريعية وما ذكر من إفاضة العقل ونصب الأدلة الآفاقية والأنفسية كما قيل ، وقرىء هدى على لغة هذيل ولا خوف بالفتح ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ عطف على من تبع إلخ قسيم له كأنه قيل ومن لم يتبعه ، وإنما أوثر عليه ما ذكر تفظيعا لحال الضلالة وإظهارا لكمال قبحها ، وإيراد الموصول بصيغة الجمع للإشعار بكثرة الكفرة ، والجمع بين الكفر والتكذيب للإيذان بتنوع الهدى إلى ما ذكر من النوعين ، وإيراد نون العظمة لتربية المهابة وإدخال الروعة وإضافة الآيات إليها لإظهار كمال قبح التكذيب بها ، أى والذين كفروا برسلنا المرسلة إليهم وكذبوا بآياتنا المنزلة عليهم ، وقيل المعنى كفروا بالله وكذبوا بآياته التى أنزلها على الأنبياء عليهم السلام ، أو أظهرها بأيديهم من المعجزات ، وقيل كفروا بالآيات جنانا وكذبوا بها لسانا فيكون كلا الفعلين متوجها إلى الجار والمجرور والآية فى الأصل العلامة الظاهرة قال النابغة :

توهمت آيات لها فعرفتها   لستة أعوام وذا العام سابع

ويقال للمصنوعات من حيث دلالتها على الصانع تعالى وعلمه وقدرته ولكل طائفة من كلمات القرآن المتميزة عن غيرها بفصل لأنها علامة لانفصال ما قبلها مما بعدها ، وقيل ، لأنها تجمع كلمات منه فيكون من قولهم خرج بنو فلان بآيتهم أى بجماعتهم قال :

خرجنا من البيتين لا حى مثلنا   بآيتنا نزجى النعاج المطافلا

واشتقاقها من أى لأنها تبين أيا من أى ، أو من أوى إليه أى رجع وأصلها أوية أو أية ، فأبدلت عينها ألفا على غير قياس أو أوية أو أيية كرمكة ، فأعلت أو آئية كقائلة ، فحذفت الهمزة تخفيفا ﴿أولئك﴾ إشارة إلى الموصوف باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة من الكفر والتكذيب وفيه إشعار بتميزهم بذلك الوصف تميزا مصححا للإشارة الحسية وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم فيه وهو مبتدأ وقوله عز وجل : ﴿أصحاب النار﴾ أى ملازموها وملابسوها بحيث لا يفارقونها خبره ، والجملة خبر للموصول أو اسم الإشارة بدل من الموصول ، أو عطف بيان له ، وأصحاب النار خبر له وقوله تعالى : ﴿هم فيها خالدون﴾ فى حيز النصب على الحالية لورود التصريح به فى قوله تعالى : (أصحاب النار خالدين فيها) وقد جوز كونه حالا من النار لاشتماله على ضميرها والعامل معنى الإضافة أو اللام المقدرة أو فى محل الرفع على أنه خبر آخر لأولئك على رأى من جوز وقوع الجملة خبرا ثانيا ، وفيها متعلق بخالدون والخلود فى الأصل المكث الطويل وقد انعقد الإجماع على أن المراد به الدوام .

عناصر كفر بنى إسرائيل

﴿يا بنى إسرائيل﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى طائفة خاصة من الكفرة المعاصرين للنبى صلى الله عليه وسلم لتذكيرهم بفنون النعم الفائضة عليهم بعد توجيهه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمره بتذكير كلهم بالنعمة العامة لبنى آدم قاطبة بقوله تعالى (وإذ قال ربك) الخ (وإذ قلنا للملائكة) الخ لأن المعنى كما أشير إليه بلغهم كلامى واذكر لهم إذ جعلنا أباهم خليفة فى الأرض ومسجودا للملائكة عليهم السلام وشرفناه بتعليم الأسماء وقبلنا توبته ، والابن من البناء لأنه مبنى أبيه ولذلك ينسب المصنوع إلى صانعه ، فيقال أبو الحرب وبنت فكر ، وإسرائيل لقب يعقوب عليه السلام ومعناه بالعبرية صفوة الله ، وقيل عبد الله ، وقرىء إسرائل بحذف الياء ، وإسرائيل ،

بحذفهما وإسرايل بقلب الهمزة ياء ، واسراءل بهمزة مفتوحة ، واسرئل بهمزة مكسورة بين الراء واللام ، وتخصيص هذه الطائفة بالذكر والتذكير لما أنهم أوفر الناس نعمة وأكثرهم كفرا بها .

﴿اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم﴾ بالتفكر فيها والقيام بشكرها ، وفيه إشعار بأنهم قد نسوها بالكلية ، ولم يخطروها بالبال لا أنهم أهملوا شكرها فقط وإضافة النعمة إلى ضمير الجلالة لتشريفها وإيجاب تخصيص شكرها به تعالى ، وتقييد النعمة بهم لما أن الإنسان مجبول على حب النعمة ، فإذا نظر إلى ما فاض عليه من النعم حمله ذلك على الرضى والشكر ، قيل أريد بها ما أنعم به على آبائهم من النعم التى سيجىء تفصيلها وعليهم من فنون النعم التى أجلها إدراك عصر النبى عليه السلام ، وقرىء اذكروا من الافتعال ونعمتى بإسكان الياء وإسقاطها فى الدرج وهو مذهب من لا يحرك الياء المكسور ما قبلها ﴿وأوفوا بعهدى﴾ بالإيمان والطاعة ﴿أوف بعهدكم﴾ بحسن الإثابة ، والعهد يضاف إلى كل واحد ممن يتولى طرفيه ، ولعل الأول مضاف إلى الفاعل والثانى إلى المفعول ، فإنه تعالى عهد إليهم بالإيمان والعمل الصالح بنصب الدلائل وإرسال الرسل وإنزال الكتب ووعدهم بالثواب على حسناتهم ، وللوفاء بهما عرض عريض ، فأول مراتبه منا هو الإتيان بكلمتى الشهادة ، ومن الله تعالى حقن الدماء والأموال ، وآخرها منا الاستغراق فى بحر التوحيد بحيث نغفل عن أنفسنا فضلا عن غيرنا ، ومن الله تعالى الفوز باللقاء الدائم وأما ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أوفوا بعهدى فى اتباع محمد صلى الله عليه وسلم أوف بعهدكم فى رفع الآصار والأغلال . وعن غيره أوفوا بأداء الفرائض وترك الكبائر أوف بالمغفرة والثواب ، أو أوفوا بالاستقامة على الطريق المستقيم أوف بالكرامة والنعيم المقيم ، فبالنظر إلى الوسائط ، وقيل كلاهما مضاف إلى المفعول ، والمعنى أوفوا بما عاهدتمونى من الإيمان والتزام الطاعة أوف بما عاهدتكم من حسن الإثابة ، وتفصيل

العهدين قوله تعالى : (ولقد أخذ الله ميثاق بنى اسرائيل) إلى قوله (ولأدخلنكم جنات) الخ وقرىء أوف بالتشديد للمبالغة والتأكيد .

﴿ وإياى فارهبون ﴾ فيما تأتون وماتذرون خصوصا فى نقض العهد ، وهو آكد فى إفادة التخصيص من إياك نعبد ، لما فيه مع التقديم من تكرير المفعول والفاء الجزائية الدالة على تضمن الكلام معنى الشرط كأنه قيل إن كنتم راهبين شيئاً فارهبونى ، والرهبة خوف معه تحرز ، والآية متضمنة للوعد والوعيد ودالة على وجوب الشكر والوفاء بالعهد ، وأن المؤمن ينبغى ألا يخاف إلا الله .

﴿ وآمنوا بما أنزلت ﴾ أفرد الإيمان بالقرآن بالأمر به لما أنه العمدة القصوى فى شأن الوفاء بالعهود ﴿ مصدقا لما معكم ﴾ من التوراة ، والتعبير عنها بذلك للإيذان بعلمهم بتصديقه لها ، فإن المعية مئنة لتكرر المراجعة إليها والوقوف على ما فى تضاعيفها المؤدى إلى العلم بكونه مصدقا لها ومعنى تصديقه للتوراة أنه نازل حسبما نعت فيها أو من حيث أنه موافق لها فى القصص والمواعيد والدعوة إلى التوحيد والعدل بين الناس والنهى عن المعاصى والفواحش : وأما مايتراءى من مخالفته لها فى بعض جزئيات الأحكام المتفاوتة بحسب تفاوت الأعصار فليست بمخالفة فى الحقيقة ، بل هى موافقة لها من حيث أن كلا منها حق بالإضافة إلى عصره وزمانه ، متضمن للحكم التى عليها يدور ذلك التشريع ، وليس فى التوراة دلالة على أبدية أحكامها المنسوخة حتى يخالفها ما ينسخها ، وإنما تدل على مشروعيتها مطلقا من غير تعرض لبقائها وزوالها ، بل نقول هى ناطقة بنسخ تلك الأحكام ، فإن نطقها بصحة القرآن الناسخ لها نطق بنسخها ، فإذن مناط المخالفة فى الأحكام المنسوخة إنما هو اختلاف العصر حتى لو تأخر نزول المتقدم لنزل على وفق المتأخر ولو تقدم نزول المتأخر لوافق المتقدم قطعا ، ولذلك قال عليه السلام : « لو كان موسى حيا لما وسعه إلا اتباعى »

وتقييد المنزل بكونه مصدقا لما معهم لتأكيد وجوب الامتثال بالأمر فإن إيمانهم بما معهم مما يقتضى الإيمان بما يصدقه قطعا .

﴿ ولا تكونوا أول كافر به ﴾ أى لا تسارعوا إلى الكفر به ، فإن وظيفتكم أن تكونوا أول من آمن به لما أنكم تعرفون شأنه وحقيته بطريق التلقى مما معكم من الكتب الإلهية كما تعرفون أبناءكم ، وقد كنتم تستفتحون به وتبشرون بزمانه كما سيجىء ، فلا تضعوا موضع ما يتوقع منكم ويجب عليكم ما لا يتوهم صدوره عنكم من كونكم أول كافر به ، ووقوع أول كافر به خبرا من ضمير الجمع بتأويل أول فريق أو فوج ، أو بتأويل لا يكن كل واحد منكم أول كافر به ، كقولك كسانا حلة ، ونهيهم عن التقدم فى الكفر به مع أن مشركى العرب أقدم منهم لما أن المراد به التعريض لا الدلالة على ما نطق به الظاهر ، كقولك أما أنا فلست بجاهل ، لأن المراد نهيهم عن كونهم أول كافر به من أهل الكتاب ، أو ممن كفر بما عنده ، فإن من كفر بالقرآن فقد كفر بما يصدقه أو مثل من كفر من مشركى مكة ، وأول : أفعل لا فعل له ، وقيل أصله أوأل ، من وأل إليه إذا نجا وخلص ، فأبدلت الهمزة واوا تخفيفا غير قياسى ، أو أأول من آل فقلبت همزته واوا وأدغمت .

﴿ ولا تشتروا بآياتى ﴾ أى لا تأخذوا لأنفسكم بدلا منها ﴿ ثمنا قليلا ﴾ من الحظوظ الدنيوية ، فإنها وإن جلت قليلة مسترذلة بالنسبة إلى ما فات عنهم من حظوظ الآخرة بترك الإيمان ، قيل كانت لهم رياسة فى قومهم ورسوم وعطايا فخافوا عليها لو اتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاختاروها على الإيمان ، وإنما عبر عن الشراء الذى هو العمدة فى عقود المعاوضة والمقصود فيها بالثمن الذى شأنه أن يكون وسيلة فيها وقرنت الآيات التى حقها أن يتنافس فيها المتنافسون بالباء التى تصحب الوسائل إيذانا بتعكيسهم حيث جعلوا ما هو المقصد الأصلى وسيلة ، والوسيلة مقصدا .

﴿ وإياى فاتقون ﴾ بالإيمان واتباع الحق والإعراض عن حطام الدنيا ولما كانت الآية السابقة مشتملة على ما هو كالمبادىء لما فى الآية الثانية فصلت بالرهبة التى هى من مقدمات التقوى ، أو لأن الخطاب بها لما عم العالم والمقلد أمر فيها بالرهبة المتناولة للفريقين ، وأما الخطاب بالثانية فحيث خص بالعلماء أمر فيها بالتقوى الذى هو المنتهى .

﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل ﴾ عطف على ما قبله واللبس الخلط ، وقد يلزمه الاشتباه من المختلطين والمعنى لا تخلطوا الحق المنزل بالباطل الذى تخترعونه وتكتبونه حتى يشتبه أحدهما بالآخر ، أو لا تجعلوا الحق ملتبسا بسبب الباطل الذى تكتبونه فى تضاعيفه ، أو تذكرونه فى تأويله ﴿ وتكتموا الحق ﴾ مجزوم داخل تحت حكم النهى كأنهم أمروا بالإيمان وترك الضلال ، ونهوا عن الإضلال بالتلبيس على من سمع الحق والإخفاء عمن لم يسمع(١) أو منصوب بإضمار أن على أن الواو للجمع ، أى لا تجمعوا بين لبس الحق بالباطل وبين كتمانه ، ويعضده أنه فى مصحف ابن مسعود وتكتمون أى وأنتم تكتمون أى كاتمين ، وفيه إشعار بأن استقباح اللبس لما يصحبه من كتمان الحق وتكرير الحق إما لأن المراد بالأخير ليس عين الأول بل هو نعت النبى صلى الله عليه وسلم الذى كتموه وكتبوا مكانه غيره كما سيجىء فى قوله تعالى (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم) وإما لزيادة تقبيح المنهى عنه ، إذ فى التصريح باسم الحق ما ليس فى ضميره .

﴿ وأنتم تعلمون ﴾ أى حال كونكم عالمين بأنكم لابسون كاتمون ، أو أنتم تعلمون أنه حق أو وأنتم من أهل العلم ، وليس إيراد الحال لتقييد النهى به كما فى قوله تعالى (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) بل لزيادة تقبيح حالهم ، إذ الجاهل عسى يعذر .

﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكوة ﴾ أى صلاة المسلمين وزكاتهم فإن غيرهما بمعزل من كونه صلاة وزكاة أمرهم الله تعالى بفروع الإسلام بعد الأمر

---

(١) فى ط : يسمعه

بأصوله ﴿واركعوا مع الراكعين﴾ أى فى جماعتهم فإن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة ، لما فيها من تظاهر النفوس فى المناجاة ، وعبر عن الصلاة بالركوع احترازا عن صلاة اليهود وقيل الركوع الخضوع والانقياد لما يلزمهم الشارع قال الأضبط بن قريع السعدى :

لا تحقرن الضعيف علك أن   تركع يوماً والدهر قد رفعه

﴿أتأمرون الناس بالبر﴾ تجريد للخطاب وتوجيه له إلى بعضهم بعد توجيهه إلى الكل والهمزة فيها تقرير مع توبيخ وتعجيب والبر التوسع فى الخير من البر الذى هو الفضاء الواسع يتناول جميع أصناف الخيرات ، ولذلك قيل البر ثلاثة : بر فى عبادة الله تعالى ، وبر فى مراعاة الأقارب ، وبر فى معاملة الأجانب .

﴿وتنسون أنفسكم﴾ أى تتركونها من البر كالمنسيات عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها نزلت فى أحبار المدينة كانوا يأمرون سرا من نصحوه باتباع النبى صلى الله عليه وسلم ولا يتبعونه طمعا فى الهدايا والصلات التى كانت تصل إليهم من أتباعهم وقيل كانوا يأمرون بالصدقة ولا يتصدقون ، وقال السدى : إنهم كانوا يأمرون الناس بطاعة الله تعالى وينهونهم عن معصيته وهم يتركون الطاعة ويقدمون على المعصية ، وقال ابن جريج : كانوا يأمرون الناس بالصلاة والزكاة وهم يتركونهما ومدار الإنكار والتوبيخ هى الجملة المعطوفة دون ما عطفت هى عليه .

﴿وأنتم تتلون الكتاب﴾ تبكيت لهم وتقريع كقوله تعالى ﴿وأنتم تعلمون﴾ أى والحال أنكم تتلون التوراة الناطقة بنعوته صلى الله عليه وسلم الآمرة بالإيمان به أو بالوعد بفعل الخير والوعيد على الفساد والعناد وترك البر ومخالفة القول العمل ﴿أفلا تعقلون﴾ أى أتتلونه فلا تعقلون مافيه ، أو قبح ما تصنعون حتى ترتدعوا عنه ، فالإنكار متوجه إلى عدم العقل(١) بعد تحقق ما يوجبه فالمبالغة من حيث الكيف أو ألا تتأملون فلا تعقلون ، فالإنكار متوجه إلى

---

(١) فى ١١ : الفعل

كلا الأمرين والمبالغة حينئذ من حيث الكم ، والعقل فى الأصل المنع والإمساك ، ومنه العقال الذى يشد به وظيف البعير إلى ذراعه لحبسه عن الحراك سمى به النور الروحانى الذى به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية لأنه يحبسه عن تعاطى ما يقبح ويعقله على ما يحسن ، والآية كما ترى ناعية على كل من يعظ غيره ولا يتعظ بسوء صنيعه وعدم تأثره وإن فعله فعل الجاهل بالشرع أو الأحمق الخالى عن العقل ، والمراد بها كما أشير إليه حثه على تزكية النفس والإقبال عليها بالتكميل لتقوم بالحق فتقيم غيرها لا منع الفاسق عن الوعظ يروى أنه كان عالم من العلماء مؤثر الكلام قوى التصرف فى القلوب ، وكان كثيرا ما يموت من أهل مجلسه واحد أو اثنان من شدة تأثير وعظه ، وكان فى بلده عجوز لها ابن صالح رقيق القلب سريع الانفعال وكانت تحترز عليه وتمنعه من حضور مجلس الواعظ فحضره يوما على حين غفلة منها فوقع من أمر الله تعالى ما وقع ثم إن العجوز لقيت الواعظ يوما فى الطريق فقالت :

لتهدى الأنام ولا تهتدى ألا إن ذلك لا ينفع
فيا حجر الشحذ حتى متى تسن الحديد ولا تقطع

فلما سمعه الواعظ شهق شهقة فخر عن فرسه مغشيا عليه فحملوه إلى بيته فتوفى إلى رحمة الله سبحانه .

﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ متصل بما قبله كأنهم لما كلفوا ما فيه مشقة من ترك الرياسة والإعراض عن المال عولجوا بذلك والمعنى استعينوا على حوائجكم بانتظار النجح والفرج توكلا على الله تعالى أو بالصوم الذى هو الصبر عن المفطرات لما فيه من كسر الشهوة وتصفية النفس والتوسل بالصلاة والالتجاء إليها فإنها جامعة لأنواع العبادات النفسانية والبدنية من الطهارة وستر العورة وصرف المال فيهما والتوجه إلى الكعبة والعكوف على العبادة وإظهار الخشوع بالجوارح وإخلاص النية بالقلب ومجاهدة الشيطان ومناجاة الحق وقراءة القرآن والتكلم بالشهادة وكف النفس عن الأطيبين حتى تجابوا إلى تحصيل المآرب وجبر المصائب روى أنه عليه السلام كان إذا حزبه أمر

فزع إلى الصلاة ويجوز أن يراد بها الدعاء ﴿وإنها﴾ أى الاستعانة بهما أو الصلاة وتخصيصها برد الضمير إليها لعظم شأنها واشتمالها على ضروب من الصبر كما فى قوله تعالى (وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها) أو جملة ما أمروا بها ونهوا عنها ﴿لكبيرة﴾ لثقيلة شاقة كقوله تعالى كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ﴿إلا على الخاشعين﴾ الخشوع الإخبات ومنه الخشعة للرملة المتطامنة والخضوع اللين والانقياد ولذلك يقال الخشوع بالجوارح والخضوع بالقلب وإنما لم تثقل عليهم لأنهم يتوقعون ما أعد لهم بمقابلتها فتهون عليهم ولأنهم يستغرقون فى مناجاة ربهم فلا يدركون ما يجرى عليهم من المشاق والمتاعب ولذلك قال عليه السلام «وقرة عينى فى الصلاة» والجملة حالية أو اعتراض تذييلى ﴿الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون﴾ أى يتوقعون لقاءه تعالى ونيل ما عنده من المثوبات والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إليهم للإيذان بفيضان إحسانه إليهم أو يتيقنون أنهم يحشرون إليه للجزاء فيعملون على حسب ذلك رغبة ورهبة وأما الذين لا يوقنون بالجزاء ولا يرجون الثواب ولا يخافون العقاب كانت عليهم مشقة خالصة فتثقل عليهم كالمنافقين والمرائين فالتعرض للعنوان المذكور للإشعار بعلية الربوبية والمالكية للحكم ويؤيده أن فى مصحف ابن مسعود رضى الله عنه يعلمون وكأن الظن لما شابه العلم فى الرجحان أطلق عليه لتضمين معنى التوقع قال :

فأرسلته مستيقن الظن أنه   مخالط ما بين الشراسيف جائف

وجعل خبر إن فى الموضعين اسما للدلالة على تحقق اللقاء والرجوع وتقررهما عندهم ﴿يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم﴾ كرر التذكير للتأكيد ولربط ما بعده من الوعيد الشديد به ﴿وأنى فضلتكم﴾ عطف على نعمتى عطف الخاص على العام لكماله أى فضلت آباءكم ﴿على العالمين﴾ أى عالمى زمانهم بما منحتهم من العلم والإيمان والعمل الصالح وجعلتهم أنبياء وملوكا مقسطين وهم آباؤهم الذين كانوا فى عصر موسى عليه السلام وبعده قبل أن يغيروا ﴿واتقوا يوما﴾ أى حساب يوم أو عذاب يوم ﴿لا تجزى نفس عن

نفس شيئاً ﴾ أى لاتقضى عنها شيئا من الحقوق فانتصاب شيئاً على المفعولية أو شيئا من الجزاء فيكون نصبه على المصدرية وقرىء لاتجزى : أى لاتغنى عنها فيتعين النصب على المصدرية وإيراده منكرا مع تنكير النفس للتعميم والإقناط الكلى والجملة صفة يوما والعائد منها محذوف أى لاتجزى فيه ومن لم يجوز الحذف قال اتسع فيه فحذف الجار وأجرى المجرور مجرى المفعول به ثم حذف كما حذف فى قول من قال :

فما أدرى أغيرهم تناء وطول العهد أم مال أصابوا

أى أصابوه ﴿ ولاتقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ﴾ أى من النفس الثانية العاصية أومن الأولى والشفاعة من الشفع كأن المشفوع له كان فردا فجعله الشفيع شفعا والعدل الفدية وقيل البدل وأصله التسوية سمى به الفدية لأنها تساوى المفدى وتجزى بجزاه ﴿ ولاهم ينصرون ﴾ أى يمنعون من عذاب الله عز وجل والضمير لما دلت عليه النفس الثانية المنكرة الواقعة فى سياق النفى من النفوس الكثيرة والتذكير لكونها عبارة عن العباد والأناسى والنصرة ههنا أخص من المعونة لاختصاصها بدفع الضرر وكأنه أريد بالآية نفى أن يدفع العذاب أحد عن أحد من كل وجه محتمل فإنه إما أن يكون قهرا أولا والأول النصرة ، والثانى إما أن يكون مجانا أولا ، والأول الشفاعة والثانى إما أن يكون بأداء عين ما كان عليه وهو أن يجزى عنه أو بأداء غيره وهو أن يعطى عنه عدلا وقد تمسكت المعتزلة بهذه الآية على نفى الشفاعة لأهل الكبائر والجواب أنها خاصة بالكفار للآيات الواردة فى الشفاعة والأحاديث المروية فيها ويؤيده أن الخطاب معهم ولردهم عما كانوا عليه من اعتقاد أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون ﴾ تذكير لتفاصيل ما أجمل فى قوله تعالى (نعمتى التى أنعمت عليكم) من فنون النعماء وصنوف الآلاء أى واذكروا وقت تنجيتنا إياكم أى آباءكم فإن تنجيتهم تنجية لأعقابهم وقرىء أنجيتكم وأصل آل أهل لأن تصغيره أهيل وخص بالإضافة إلى أولى الأخطار كالأنبياء

عليهم السلام والملوك وفرعون لقب لمن ملك العمالقة ككسرى لملك الفرس وقيصر لملك الروم وخاقان لملك الترك ولعتوه اشتق منه تفرعن الرجل إذا عتا وتمرد وكان فرعون موسى عليه السلام مصعب بن ريان وقيل ابنه وليدا من بقايا عاد وقيل إنه كان عطارا أصفهانيا ركبته الديون فأفلس فاضطر إلى الخروج فلحق بالشام فلم يتسن له المقام به فدخل مصر فرأى فى ظاهره حملا من البطيخ بدرهم ، وفى نفسه بطيخة بدرهم فقال فى نفسه إن تيسر لى أداء الدين فهذا طريقه فخرج إلى السواد فاشترى حملا بدرهم فتوجه به إلى السوق فكل من لقيه من المكاسين أخذ منه بطيخة فدخل المصر ومامعه الا بطيخة فباعها بدرهم ومضى لوجهه ورأى أهل البلد متروكين سدى لايتعاطى أحد سياستهم وكان قد وقع بهم وباء عظيم فتوجه نحو المقابر فرأى ميتا يدفن فتعرض لأوليائه فقال أنا أمين المقابر فلا أدعكم تدفنونه حتى تعطونى خمسة دراهم فدفعوها إليه ومضى لآخر وآخر حتى جمع فى مقدار ثلاثة أشهر مالا عظيما ولم يتعرض له قط إلى أن تعرض يوما لأولياء ميت فطلب منهم ما كان يطلب من غيرهم فأبوا ذلك فقالوا من نصبك هذا المنصب فذهبوا به إلى فرعون فقال من أنت ومن أقامك بهذا المقام قال لم يقمنى أحد وإنما فعلت مافعلت ليحضرنى أحد إلى مجلسك فأنبهك على اختلال حال قومك وقد جمعت بهذا الطريق هذا المقدار من المال فأحضره ودفعه إلى فرعون فقال ولنى أمورك ترنى أميناً كافيا فولاه إياها فسار بهم سيرة حسنة فانتظمت مصالح العسكر واستقامت أحوال الرعية ولبث فيهم أمداً طويلا وترامى أمره فى العدل والصلاح فلما مات فرعون أقاموه مقامه فكان من أمره ما كان وكان فرعون يوسف ريان وكان بينهما أكثر من أربعمائة سنة ﴿يسومونكم﴾ أى يبغونكم من سامه خسفاً إذا أولاه ظلما وأصله الذهاب فى طلب الشيء ﴿سوء العذاب﴾ أى أفظعه وأقبحه بالنسبة إلى سائره والسوء مصدر من ساء يسوء ونصبه على المفعولية ليسومونكم والجملة حال من الضمير فى نجيناكم أو من آل فرعون أو منهما

جميعا لاشتمالها على ضميريهما ﴿ يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴾ بيان ليسومونكم ولذلك ترك العاطف بينهما وقرىء يذبحون بالتخفيف وإنما فعلوا بهم ما فعلوا لما أن فرعون رأى فى المنام أو أخبره الكهنة أنه سيولد منهم من يذهب بملكه فلم يرد اجتهادهم من قضاء الله عز وجل شيئاً قيل قتلوا بتلك الطريقة ألف مولود وتسعين ألفا وقد أعطى الله عز وجل نفس موسى عليه السلام من القوة على التصرف ما كان يعطيه أولئك المقتولين لو كانوا أحياء ولذلك كانت معجزاته ظاهرة باهرة ﴿ وفى ذلكم ﴾ إشارة إلى ما ذكر من التذبيح والاستحياء أو إلى الإنجاء منه وجمع الضمير للمخاطبين فعلى الأول معنى قوله تعالى ﴿ بلاء ﴾ محنة وبلية وكون استحياء نسائهم أى استبقائهن على الحياة محنة مع أنه عفو وترك للعذاب لما أن ذلك كان للاستعمال فى الأعمال الشاقة وعلى الثانى نعمة وأصل البلاء الاختبار ولكن لما كان ذلك فى حقه سبحانه محالا وكان ما يجرى مجرى الاختبار لعباده تارة بالمحنة وأخرى بالمنحة أطلق عليهما وقيل يجوز أن يشار بذلكم إلى الجملة ويراد بالبلاء القدر المشترك الشامل لهما ﴿ من ربكم ﴾ من جهته تعالى بتسليطهم عليكم أو ببعث موسى عليه السلام وبتوفيقه لتخليصكم منهم أو بهما معا ﴿ عظيم ﴾ صفة لبلاء وتنكيرهما للتفخيم ، وفى الآية الكريمة تنبيه على أن ما يصيب العبد من السراء والضراء من قبيل الاختبار فعليه الشكر فى المسار والصبر على المضار ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر ﴾ بيان لسبب التنجية وتصوير لكيفيتها إثر تذكيرها وبيان عظمها وهولها وقد بين فى تضاعيف ذلك نعمة جليلة أخرى هى الإنجاء من الغرق أى واذكروا إذ فلقناه بسلوككم كقوله تعالى (تنبت بالدهن) أو بسبب إنجائكم وفصلنا بين بعضه وبعض حتى حصلت مسالك وقرىء بالتشديد للتكثير لأن المسالك كانت اثنى عشر بعدد الأسباط ﴿ فأنجيناكم ﴾ أى من الغرق بإخراجكم إلى الساحل كما يصرح(١) به العدول إلى صيغة الأفعال بعد إيراد التخليص من فرعون بصيغة التفعيل وكذا قوله تعالى :

---

(١) فى ط : كما يلوح

﴿وأغرقنا آل فرعون﴾ أريد فرعون وقومه وإنما اقتصر على ذكرهم للعلم بأنه أولى به منهم وقيل شخصه كما روى أن الحسن رضى الله عنه كان يقول اللهم صل على آل محمد أى شخصه واستغنى بذكره عن ذكر قومه ﴿وأنتم تنظرون﴾ ذلك أو غرقهم وإطباق البحر عليهم أو انفلاق البحر عن طرق يابسة مذللة أو جثثهم التى قذفها البحر إلى الساحل أو ينظر بعضكم بعضا روى أنه تعالى أمر موسى عليه السلام أن يسرى ببنى اسرائيل فخرج بهم فصبحهم فرعون وجنوده وصادفوهم على شاطىء البحر فأوحى الله تعالى إليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه بها فظهر فيه اثنا عشر طريقا يابسا فسلكوها فقالوا نخاف أن يغرق بعض أصحابنا فلا نعلم ففتح الله تعالى فيها كوى فتراءوا وتسامعوا حتى عبروا البحر فلما وصل إليه فرعون فرآه منفلقا اقتحمه هو وجنوده فغشيهم ما غشيهم واعلم أن هذه الواقعة كما أنها لموسى معجزة عظيمة تخر لها أطم الجبال ونعمة عظيمة لأوائل بنى اسرائيل موجبة عليهم شكرها كذلك اقتصاصها على ما هى عليه من رسول الله صلى الله عليه وسلم معجزة جليلة تطمئن بها القلوب الأبية وتنقاد لها النفوس الغبية موجبة لأعقابهم أن يتلقوها بالإذعان فلا تأثرت أوائلهم بمشاهدتها ورؤيتها ولا تذكرت أواخرهم بتذكيرها وروايتها فيالها من عصابة ما أعصاها وطائفة ما أطغاها ﴿وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة﴾ لما عادوا إلى مصر بعد مهلك فرعون وعد الله موسى عليه السلام أن يعطيه التوراة ميقاتا ذا القعدة وعشر ذى الحجة وقيل وعد عليه السلام بني إسرائيل وهو بمصر إن أهلك الله عدوهم آتاهم بكتاب من عند الله تعالى فيه بيان ما يأتون وما يذرون فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب فأمره بصوم ثلاثين وهو شهر ذى القعدة ثم زاد عشراً من ذى الحجة وعبر عنها بالليالى لأنها غرر الشهور وصيغة المفاعلة بمعنى الثلاثى وقيل على أصلها تنزيلا لقبول موسى عليه السلام منزلة الوعد وأربعين ليلة مفعول ثان لواعدنا على حذف المضاف أى بمقام أربعين ليلة وقرىء وعدنا ﴿ثم اتخذتم العجل﴾ بتسويل السامرى إلها ومعبودا وثم للتراخى الرتبى ،

﴿من بعده﴾ أى من بعد مشيه إلى الميقات على حذف مضاف ﴿وأنتم ظالمون﴾ بإشراككم ووضعكم للشىء فى غير موضعه وهو حال من ضمير اتخذتم أو اعتراض تذييلى أى وأنتم قوم عادتكم الظلم ﴿ثم عفونا عنكم﴾ حين تبتم والعفو محو الجريمة من عفاه درسه وقد يجىء لازما قال :

عرفت المنزل الخالى   عفا من بعد أحوال
عفاه كل هتان   كثير الوبل هطال

وقوله تعالى : ﴿من بعد ذلك﴾ أى من بعد الاتخاذ الذى هو متناه فى القبح للإيذان بكمال بعد العفو بعد تلك المرتبة من الظلم ﴿لعلكم تشكرون﴾ لكى تشكروا نعمة العفو وتستمروا بعد ذلك على الطاعة ﴿وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان﴾ أى التوراة الجامعة بين كونها كتابا وحجة تفرق بين الحق والباطل وقيل أريد بالفرقان معجزاته الفارقة بين الحق والباطل فى الدعوى أو بين الكفر والإيمان وقيل الشرع الفارق بين الحلال والحرام أو النصر الذى فرق بينه وبين عدوه كقوله تعالى يوم الفرقان يريد به يوم بدر ﴿لعلكم تهتدون﴾ لكى تهتدوا بالتدبر فيه والعمل بما يحويه ﴿وإذ قال موسى لقومه﴾ بيان لكيفية وقوع العفو المذكور ﴿يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل﴾ أى معبودا ﴿فتوبوا﴾ أى فاعزموا على التوبة ﴿إلى بارئكم﴾ أى إلى من خلقكم بريئا من العيوب والنقصان والتفاوت وميز بعضكم من بعض بصور وهيئات مختلفة وأصل التركيب الخلوص عن الغير إما بطريق التفصى كما فى برىء ومن الغواية منتهاها حيث تركوا عبادة العليم الحكيم الذى خلقهم بلطيف حكمته بريئا من التفاوت والتنافر إلى عبادة البقر الذى هو مثل فى الغباوة وأن من لم يعرف حقوق منعمه حقيق بأن تسترد هى منه ولذلك أمروا بالقتل وفك التركيب ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ تماما لتوبتكم بالبخع أو بقطع الشهوات وقيل أمروا أن يقتل بعضهم بعضا وقيل أمر من لم يعبد العجل بقتل من عبده . يروى أن الرجل كان يرى قريبه فلم يقدر على

المضى لأمر الله تعالى فأرسل الله ضبابة وسحابة سوداء لايتباصرون بها فأخذوا يقتتلون من الغداة إلى العشى حتى دعا موسى وهارون عليهما السلام فكشفت السحابة ونزلت التوبة وكانت القتلى سبعين الفا والفاء الأولى للتسبيب والثانية للتعقيب ﴿ذلكم﴾ إشارة إلى ما ذكر من التوب والقتل ﴿خير لكم عند بارئكم﴾ لما أنه طهرة عن الشرك ووصلة إلى الحياة الأبدية والبهجة السرمدية ﴿فتاب عليكم﴾ عطف على محذوف على أنه خطاب منه سبحانه على نهج الالتفات من التكلم الذى يقتضيه سباق النظم الكريم وسياقه فإن مبنى الجميع على التكلم إلى الغيبة ليكون ذريعة إلى إسناد الفعل إلى ضمير بارئكم المستتبع للايذان بعلية عنوان البارئية والخلق والإحياء لقبول التوبة التى هى عبارة عن العفو عن القتل تقديره فعلتم ما أمرتم به فتاب عليكم وإنما لم يقل فتاب عليهم على أن الضمير للقوم لما أن ذلك نعمة أريد التذكير بها للمخاطبين لا لأسلافهم هذا وقد جوز أن يكون فتاب عليكم متعلقا بمحذوف على أنه من كلام موسى عليه السلام لقومه تقديره إن فعلتم ما أمرتم به فقد تاب عليكم ولا يخفى أنه بمعزل من اللياقة بجلالة شأن التنزيل كيف لا وهو حينئذ حكاية لوعد موسى عليه السلام قومه بقبول التوبة منه تعالى لا لقبوله تعالى حتما وقد عرفت أن الآية الكريمة تفصيل لكيفية القبول المحكى فيما قبل وأن المراد تذكير المخاطبين بتلك النعمة .

﴿إنه هو التواب الرحيم﴾ تعليل لما قبله أى الذى يكثر توفيق المذنبين للتوبة ويبالغ فى قبولها منهم وفى الإنعام عليهم ﴿وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك﴾ تذكير لنعمة أخرى عليهم بعد ما صدر عنهم ما صدر من الجناية العظيمة التى هى اتخاذ العجل أى لن نؤمن لأجل قولك ودعوتك أو لن نقر لك والمؤمن به إعطاء الله إياه التوراة أو تكليمه إياه أو أنه نبى أو أنه تعالى جعل توبتهم بقتلهم أنفسهم ﴿حتى نرى الله جهرة﴾ أى عيانا وهى فى الأصل مصدر قولك جهرت بالقراءة استعيرت للمعاينة لما بينهما من الاتحاد فى الوضوح والانكشاف إلا أن الأول فى المسموعات والثانى فى المبصرات

ونصبها على المصدرية لأنها نوع من الرؤية أو حال من الفاعل أو المفعول. وقرىء بفتح الهاء على أنها مصدر كالغلبة أو جمع كالكتبة فيكون حالا من الفاعل لا غير والقائلون هم السبعون المختارون لميقات التوبة عن عبادة العجل ، روى أنهم لما ندموا على ما فعلوا وقالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين أمر الله موسى عليه السلام أن يجمع سبعين رجلا ويحضر معهم الطور يظهرون فيه تلك التوبة فلما خرجوا إلى الطور وقع عليه عمود من الغمام وتغشاه كله فكلم الله موسى عليه السلام يأمره وينهاه ، وكان كلما كلمه تعالى أوقع على جبهته نورا ساطعا لا يستطيع أحد من السبعين النظر إليه وسمعوا كلامه تعالى مع موسى عليه السلام افعل ولا تفعل فعند ذلك طمعوا فى الرؤية فقالوا ما قالوا كما سيأتى فى سورة الأعراف إن شاء الله تعالى وقيل عشرة آلاف من قومه ﴿فأخذتكم الصاعقة﴾ لفرط العناد والتعنت وطلب المستحيل فإنهم ظنوا أنه سبحانه وتعالى مما يشبه الأجسام وتتعلق به الرؤية تعلقها بها على طريق المقابلة فى الجهات والأحياز ولا ريب فى استحالته إنما الممكن فى شأنه تعالى الرؤية المنزهة عن الكيفيات بالكلية وذلك للمؤمنين فى الآخرة وللأفراد من الأنبياء الذين بلغوا فى صفاء الجوهر إلى حيث تراهم كأنهم وهم فى جلابيب من أبدانهم قد نضوها وتجردوا عنها إلى عالم القدس فى بعض الأحوال فى الدنيا قيل جاءت نار من السماء فأحرقتهم وقيل صيحة وقيل جنود سمعوا بحسيسها فخروا صعقين ميتين يوما وليلة وعن وهب أنهم لم يموتوا بل لما رأوا تلك الهيئة الهائلة أخذتهم الرعدة ورجفوا حتى كادت تبين مفاصلهم وتنقض ظهورهم وأشرفوا على الهلاك فعند ذلك بكى موسى عليه السلام ودعا ربه فكشف الله عز وجل عنهم ذلك فرجعت إليهم عقولهم ومشاعرهم ولم تكن صعقة موسى عليه السلام موتا بل غشية لقوله تعالى فلما أفاق ﴿وأنتم تنظرون﴾ أى ما أصابكم بنفسه أو بآثاره ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ بتلك الصاعقة قيد البعث به لما أنه قد

يكون من الإغماء وقد يكون من النوم كما فى قوله تعالى (ثم بعثناهم لنعلم) الخ ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ أى نعمة البعث أو ما كفرتموه بما رأيتم من بأس الله تعالى .

﴿ وظللنا عليكم الغمام ﴾ أى جعلناها بحيث تلقى عليكم ظلها وذلك أنه تعالى سخر لهم السحاب يسير بسيرهم وهم فى التيه يظلهم من الشمس وينزل بالليل عمود من نار يسيرون فى ضوئه وثيابهم لا تتسخ ولا تبلى ﴿ وأنزلنا عليكم المن والسلوى ﴾ أى الترنجبين والسمانى وقيل كان ينزل عليهم المن مثل الثلج من الفجر إلى الطلوع لكل إنسان صاع وتبعث الجنوب عليهم السمانى فيذبح الرجل منه ما يكفيه ﴿ كلوا ﴾ على إرادة القول أى قائلين لهم أو قيل لهم كلوا ﴿ من طيبات ما رزقناكم ﴾ من مستلذاته وما موصولة كانت أو موصوفة عبارة عن المن والسلوى ﴿ وما ظلمونا ﴾ كلام عدل بهم عن نهج الخطاب السابق للإيذان باقتضاء جنايات المخاطبين للإعراض عنهم وتعداد قبائحهم عند غيرهم على طريق المباثة معطوف على مضمر قد حذف للإيجاز والإشعار بأنه أمر محقق غنى عن التصريح به أى فظلموا بأن كفروا تلك النعم الجليلة وما ظلمونا بذلك ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ بالكفران إذ لا يتخطاهم ضرره وتقديم المفعول للدلالة على القصر الذى يقتضيه النفى السابق وفيه ضرب تهكم بهم والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على تماديهم فى الظلم واستمرارهم على الكفر ﴿ وإذ قلنا ﴾ تذكير لنعمة أخرى من جنابه تعالى وكفرة أخرى لأسلافهم أى واذكروا وقت قولنا لآبائكم إثر ما أنقذناهم من التيه ﴿ ادخلوا هذه القرية ﴾ منصوبة على الظرفية عند سيبويه وعلى المفعولية عند الأخفش وهى بيت المقدس وقيل أريحا ﴿ فكلوا منها حيث شئتم رغدا ﴾ أى واسعا هنيئا ونصبه على المصدرية أو الحالية من ضمير المخاطبين وفيه دلالة على أن المأمور به الدخول على وجه الإقامة والسكنى فيؤول إلى ما فى سورة الأعراف من قوله تعالى اسكنوا هذه القرية ﴿ وادخلوا الباب ﴾ أى باب القرية على ما روى من أنهم دخلوا أريحاء فى زمن موسى عليه السلام كما سيجىء فى سورة المائدة أو

باب القبة التى كانوا يصلون إليها فإنهم لم يدخلوا بيت المقدس فى حياة موسى عليه السلام ﴿سجدا﴾ أى متطامنين مخبتين أو ساجدين لله شكرا على إخراجهم من التيه ﴿وقولوا حطة﴾ أى مسئلتنا أو أمرك حطة وهى فعلة من الحط كالجلسة وقرىء بالنصب على الأصل بمعنى حط عنا ذنوبنا حطة أو على أنها مفعول قولوا أى قولوا هذه الكلمة وقيل معناه أمرنا حطة أى أن نحط رحالنا فى هذه القرية ونقيم بها ﴿نغفر لكم خطاياكم﴾ لما تفعلون من السجود والدعاء وقرىء بالياء والتاء على البناء للمفعول وأصل خطايا خطايىء كخضايع فعند سيبويه أبدلت الياء الزائدة همزة بين ألفين فأبدلت ياء وعند الخليل قدمت الهمزة على الياء ثم فعل بها ما ذكر ﴿وسنزيد المحسنين﴾ ثوابا جعل الامتثال توبة للمسىء وسببا لزيادة الثواب للمحسن وأخرج ذلك عن صورة الجواب إلى الوعد إيذانا بأن المحسن بصدد ذلك وإن لم يفعله فكيف إذا فعله وأنه يفعله وأنه يفعله لا محالة ﴿فبدل الذين ظلموا﴾ بما أمروا به من التوبة والاستغفار بأن أعرضوا عنه وأوردوا مكانه ﴿قولا﴾ آخر مما لا خير فيه روى أنهم قالوا مكان حطة حنطة وقيل قالو بالنبطية حطا سمقاسا يعنون حنطة حمراء استخفافا بأمر الله عز وجل ﴿غير الذى قيل لهم﴾ نعت لقولا وإنما صرح به مع استحالة تحقق التبديل بلا مغايرة تحقيقا لمخالفتهم وتنصيصا على المغايرة من كل وجه ﴿فأنزلنا﴾ أى عقيب ذلك ﴿على الذين ظلموا﴾ بما ذكر من التبديل وإنما وضع الموصول موضع الضمير العائد إلى الموصول الأول للتعليل والمبالغة فى الذم والتقريع وللتصريح بأنهم بما فعلوا قد ظلموا أنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى ﴿رجزا من السماء﴾ أى عذابا مقدرا منها والتنوين للتهويل والتفخيم ﴿بما كانوا يفسقون﴾ بسبب فسقهم المستمر حسبما يفيده الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل وتعليل إنزال الرجز به بعد الإشعار بتعليله بظلمهم للإيذان بأن ذلك فسق وخروج عن الطاعة وغلو فى الظلم وأن تعذيبهم بجميع ما ارتكبوه من القبائح لا بعدم توبتهم فقط كما يشعر به ترتيبه على ذلك بالفاء والرجز فى الأصل ما يعاف عنه وكذلك الرجس وقرىء بالضم وهو لغة فيه والمراد به الطاعون

روى أنه مات به فى ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفا ﴿ وإذ استسقى موسى لقومه ﴾ تذكير لنعمة أخرى كفروها وكان ذلك فى التيه حين استولى عليهم العطش الشديد وتغيير الترتيب لما أشير إليه مرارا من قصد إبراز كل من الأمور المعدودة فى معرض أمر مستقل واجب التذكير والتذكر ولو روعى الترتيب الوقوعى لفرض أن الكل أمر واحد أمر بذكره واللام متعلقة بالفعل أى استسقى لأجل قومه ﴿ فقلنا اضرب بعصاك الحجر ﴾ روى أنه كان حجرا طوريا مكعبا حمله معه وكان ينبع من كل وجه منه ثلاث أعين تسيل كل عين فى جدول إلى سبط وكانوا ستمائة ألف وسعة المعسكر إثنى عشر ميلا أو كان حجرا أهبطه الله تعالى مع آدم عليه السلام من الجنة ووقع إلى شعيب عليه السلام فأعطاه موسى عليه السلام مع العصا أو كان هو الحجر الذى فر بثوبه حين وضعه عليه ليغتسل وبرأه الله تعالى به عما رموه به من الأدرة فأشار إليه جبريل عليه السلام أن يحمله أو كان حجرا من الحجارة وهو الأظهر فى الحجة قيل لم يؤمر عليه السلام بضرب حجر بعينه ولكن لما قالوا كيف بنا لو أفضينا إلى أرض لا حجارة بها حمل حجرا فى مخلاته وكان يضربه بعصاه إذا نزل فيتفجر ويضربه إذا ارتحل فييبس فقالوا إن فقد موسى عصاه متنا عطاشا ، فأوحى الله تعالى إليه أن لا تقرع الحجر وكلمه يطعك لعلهم يعتبرون وقيل كان الحجر من رخام حجمه ذراع فى ذراع والعصا عشرة أذرع على طوله عليه السلام من آس الجنة ولها شعبتان تتقدان فى الظلمة ﴿ فانفجرت ﴾ عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام قد حذف للدلالة على كمال سرعة تحقق الانفجار كأنه حصل عقيب الأمر بالضرب أى فضرب فانفجرت ﴿ منه اثنتا عشرة عينا ﴾ وأما تعلق الفاء بمحذوف أى فإن ضربت فقد انفجرت فغير حقيق بجلالة شأن النظم الكريم كما لا يخفى على أحد وقرىء عشرة بكسر الشين وفتحها وهما أيضا لغتان ﴿ قد علم كل أناس ﴾ كل سبط ﴿ مشربهم ﴾ عينهم الخاصة بهم ﴿ كلوا واشربوا ﴾ على إرادة القول ﴿ من رزق الله ﴾ هو ما رزقهم من المن والسلوى والماء وقيل هو الماء وحده لأنه يؤكل ما ينبت به من الزروع والثمار ويأباه

أن المأمور به أكل النعمة العتيدة لا ما سيطلبونه وإضافته إليه تعالى مع استناد الكل إليه خلقا وملكا إما للتشريف وإما لظهوره بغير سبب عادى وإنما لم يقل من رزقنا كما يقتضيه قوله تعالى فقلنا إلخ إيذانا بأن الأمر بالأكل والشرب لم يكن بطريق الخطاب بل بواسطة موسى عليه السلام ﴿ولا تعثوا فى الأرض﴾ العثى أشد الفساد فقيل لهم لا تتمادوا فى الفساد حال كونكم ﴿مفسدين﴾ وقيل إنما قيد به لأن العثى فى الأصل مطلق التعدى وإن غلب فى الفساد وقد يكون فى غير الفساد كما فى مقابلة الظالم المعتدى بفعله وقد يكون فيه صلاح راجح كقتل الخضر عليه السلام للغلام وخرقه للسفينة ونظيره العيث خلا أنه غالب فيما يدرك حسا ﴿وإذ قلتم﴾ تذكير لجناية أخرى لأسلافهم وكفرانهم لنعمة الله عز وجل وإخلادهم إلى ما كانوا فيه من الدناءة والخساسة وإسناد القول المحكى إلى أخلافهم وتوجيه التوبيخ إليهم لما بينهم من الاتحاد ﴿يا موسى لن نصبر على طعام واحد﴾ لعلهم لم يريدوا بذلك جمع ما طلبوا مع ما كان لهم من النعمة ولا زوالها وحصول ما طلبوا مكانها إذ يأباه التعرض للوحدة بل أرادوا أن يكون هذا تارة وذاك أخرى . روى أنهم كانوا فلاحة فنزعوا إلى عكرهم فأجمعوا ما كانوا فيه من النعمة العتيدة لوحدتها النوعية وإطرادها وتاقت أنفسهم إلى الشقاء ﴿فادع لنا ربك﴾ أى سله لأجلنا بدعائك إياه والفاء لسببية عدم الصبر للدعاء والتعرض لعنوان الربوبية لتمهيد مبادى الإجابة ﴿يخرج لنا﴾ أى يظهر لنا ويوجد والجزم لجواب الأمر ﴿مما تنبت الأرض﴾ إسناد مجازى بإقامة القابل مقام الفاعل ومن تبعيضية والتى فى قوله تعالى ﴿من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها﴾ بيانية واقعة موقع الحال أى كائنا من بقلها الخ وقيل بدل بإعادة الجار والبقل ما تنبت الأرض من الخضر والمراد به أطايبه التى تؤكل كالنعناع والكرفس والكراث وأشباهها والفوم الحنطة وقيل الثوم وقرىء قثائها بضم القاف وهو لغة فيه ﴿قال﴾ أى الله تعالى أو موسى عليه السلام إنكارا عليهم وهو استئناف وقع جوابا عن سؤال مقدر كأنه قيل فماذا قال لهم فقيل قال ﴿أتستبدلون﴾ أى أتأخذون لأنفسكم وتختارون .

﴿الذى هو أدنى﴾ أى أقرب منزلة وأدون قدرا سهل المنال وهين الحصول لعدم كونه مرغوبا فيه وكونه تافها مرذولا قليل القيمة وأصل الدنو القرب فى المكان فاستعير للخسة كما استعير البعد للشرف والرفعة فقيل بعيد المحل وبعيد الهمة وقرىء أدنأ من الدناءة وقد حملت المشهورة على أن ألفها مبدلة من الهمزة ﴿بالذى هو خير﴾ أى بمقابلة ماهو خير فإن الباء تصحب الذاهب الزائل دون الآتى الحاصل كما فى التبدل والتبديل فى مثل قوله عز وجل ﴿ومن يتبدل الكفر بالإيمان﴾ وقوله (وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط) وليس فيه ما يدل قطعا على أنهم أرادوا زوال المن والسلوى بالمرة وحصول ما طلبوا مكانه لتحقق الاستبدال فيما مر من صورة المناوبة ﴿اهبطوا مصراً﴾ أمروا به بيانا لدناءة مطلبهم أو إسعافا لمرامهم أى انحدروا إليه من التيه يقال هبط الوادى وقرىء بضم الباء والمصر البلد العظيم وأصله الحد بين الشيئين وقيل أريد به العلم وإنما صرف لسكون وسطه أو لتأويله بالبلد دون المدينة ويؤيده أنه فى مصحف ابن مسعود رضى الله عنه غير منون ، وقيل : وأصله مصرايم فعرب ﴿فإن لكم ما سألتم﴾ تعليل للأمر بالهبوط أى فإن لكم فيه ماسألتموه ولعل التعبير عن الأشياء المسئولة بما للاستهجان بذكرها كأنه قيل فإنه كثير فيه مبتذل يناله كل أحد بغير مشقة ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة﴾ أى جعلتا محيطتين بهم إحاطة القبة بمن ضربت عليه أو ألصقهما بهم وجعلهما ضربة لازب لاتنفكان عنهم مجازاة لهم على كفرانهم من ضرب الطين على الحائط بطريق الاستعارة بالكناية واليهود فى غالب الأمر أذلاء مساكين إما على الحقيقة ، وإما لخوف أن تضاعف جزيتهم ﴿وباءوا﴾ أى رجعوا ، ﴿بغضب﴾ عظيم وقوله تعالى ﴿من الله﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لغضب مؤكد لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أى بغضب كائن من الله تعالى أو صاروا أحقاء به من قولهم باء فلان بفلان أى صار حقيقاً بأن يقتل بمقابلته ومنه قول من قال بؤ بشسع نعل كليب وأصل البوء المساواة ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما سلف من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب العظيم ﴿بأنهم﴾

بسبب أنهم ﴿كانوا يكفرون﴾ على الاستمرار ﴿بآيات الله﴾ الباهرة التى هى المعجزات الساطعة الظاهرة على يدى موسى عليه السلام مما عد ومالم يعد (ويقتلون النبيين بغير الحق) كشعيا وزكريا ويحيى عليهم السلام وفائدة التقييد مع أن قتل الأنبياء يستحيل أن يكون بحق الإيذان بأن ذلك عندهم أيضا بغير الحق إذ لم يكن أحد معتقدا بحقية قتل أحد منهم عليهم السلام وإنما حملهم على ذلك حب الدنيا واتباع الهوى والغلو فى العصيان والاعتداء كما يفصح عنه قوله تعالى ﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ أى جرهم العصيان والتمادى فى العدوان إلى ما ذكر من الكفر وقتل الأنبياء عليهم السلام فإن صغار الذنوب إذا دووم عليها أدت إلى كبارها كما أن مداومة صغار الطاعات مؤدية إلى تحرى كبارها وقيل كررت الإشارة للدلالة على أن مالحقهم كما أنه بسبب الكفر والقتل فهو بسبب ارتكابهم المعاصى واعتدائهم حدود الله تعالى وقيل الإشارة إلى الكفر والقتل والباء بمعنى مع ويجوز الإشارة إلى المتعدد بالمفرد بتأويل ما ذكر أو تقدم كما فى قول رؤبة بن العجاج :

فيها خطوط من سواد وبلق   كأنه فى الجلد توليع البهق

أى كان ما ذكر والذى حسن ذلك فى المضمرات والمبهمات أن تثنيتها وجمعها ليسا على الحقيقة ولذلك جاء الذى بمعنى الذين (إن الذين آمنوا) أى بألسنتهم فقط وهم المنافقون بقرينة انتظامهم فى سلك الكفرة والتعبير عنهم بذلك دون عنوان النفاق للتصريح بأن تلك المرتبة وإن عبر عنها بالإيمان لاتجديهم نفعا أصلا ولا تنقذهم من ورطة الكفر قطعا ﴿والذين هادوا﴾ أى تهودوا من هاد إذا دخل فى اليهودية ويهود إما عربى من هاد إذا تاب سموا بذلك حين تابوا من عبادة العجل وخصوا به لما كانت توبتهم توبة هائلة وإما معرب يهوذا كأنهم سموا باسم أكبر أولاد يعقوب عليه الصلاة والسلام ﴿والنصارى﴾ جمع نصران كندامى جمع ندمان يقال رجل نصران وامرأة نصرانة والياء فى نصرانى للمبالغة كما فى أحمرى سموا بذلك لأنهم نصروا المسيح

عليه السلام أو لأنهم كانوا معه فى قرية يقال لها نصران فسموا باسمها أو نسبوا إليها والياء للنسبة وقال الخليل واحد النصارى نصرى كمهرى ومهارى ﴿والصابئين﴾ هم قوم بين النصارى والمجوس وقيل أصل دينهم دين نوح عليه السلام وقيل هم عبدة الملائكة وقيل عبدة الكواكب فهو إن كان عربيا فمن صبأ إذا خرج من دين إلى آخر وقرىء بالياء إما للتخفيف ، وإما لأنه من صبا إذا مال لما أنهم مالوا من سائر الأديان إلى ما هم فيه أو من الحق إلى الباطل ﴿من آمن بالله واليوم الآخر﴾ أى من أحدث من هذه الطوائف إيمانا خالصاً بالمبدأ والمعاد على الوجه اللائق ﴿وعمل﴾ عملا ﴿صالحاً﴾ حسبما يقتضيه الإيمان بما ذكر ﴿فلهم﴾ بمقابلة ذلك ﴿أجرهم﴾ الموعود لهم ﴿عند ربهم﴾ أىَ مالك أمرهم ومبلغهم إلى كمالهم اللائق فمن أما فى محل الرفع على الابتداء خبره جملة فلهم أجرهم والفاء لتضمن الموصول معنى الشرط كما فى قوله تعالى : (إن الذين فتنوا المؤمنين . . الآية) وجمع الضمائر الثلاثة باعتبار معنى الموصول كما أن افراد ما فى الصلة باعتبار لفظه والجملة كما هى خبر إن والعائد إلى اسمها محذوف أى من آمن منهم الخ ، وأما فى محل النصب على البدلية من اسم إن وما عطف عليه وخبرها فلهم أجرهم وعند متعلق بما تعلق به لهم من معنى الثبوت ، وفى إضافته إلى الرب المضاف إلى ضميرهم مزيد لطف بهم وإيذان بأن أجرهم متيقن الثبوت مأمون من الفوات .

﴿ولا خوف عليهم﴾ عطف على جملة أجرهم أى لا خوف عليهم حين يخاف الكفار العقاب ﴿ولا هم يحزنون﴾ حين يحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا لما مر من أن النفى وإن دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام هذا وقد قيل المراد بالذين آمنوا المتدينون بدين الإسلام المخلصون منهم والمنافقون فحينئذ لا بد من تفسير من آمن بمن اتصف منهم بالإيمان الخالص بالمبدأ والمعاد على الإطلاق سواء

كان ذلك بطريق الثبات والدوام عليه كإيمان المخلصين أو بطريق إحداثه وإنشائه كإيمان من عداهم من المنافقين ، وسائر الطوائف وفائدة التعميم للمخلصين مزيد ترغيب الباقين فى الإيمان ببيان أن تأخرهم فى الاتصاف به غير مخل بكونهم أسوة لأولئك الأقدمين فى استحقاق الأجور وما يتبعه من الأمن الدائم ، وأما ماقيل فى تفسيره من كان منهم فى دينه قبل أن ينسخ مصدقا بقلبه بالمبدأ والمعاد عاملا بمقتضى شرعه فما لاسبيل إليه أصلا لأن مقتضى المقام هو الترغيب فى دين الإسلام ، وأما بيان حال من مضى على دين آخر قبل انتساخه فلا ملابسة له بالمقام قطعاً بل ربما يخل بمقتضاه من حيث دلالته على حقيته فى زمانه فى الجملة على أن المنافقين والصابئين لايتسنى فى حقهم ما ذكر ، أما المنافقون فإن كانوا من أهل الشرك فالأمر بين ، وإن كانوا من أهل الكتاب فمن مضى منهم قبل النسخ ليسوا بمنافقين ، وأما الصابئون فليس لهم دين يجوز رعايته فى وقت من الأوقات ولو سلم أنه كان لهم دين سماوى ثم خرجوا عنه فمن مضى من أهل ذلك الدين قبل خروجهم منه فليسوا من الصابئين فكيف يمكن إرجاع الضمير الرابط بين اسم إن وخبرها إليهم أو إلى المنافقين وارتكاب إرجاعه إلى مجموع الطوائف من حيث هو مجموع لا إلى كل واحدة منها قصدا إلى درج الفريق المذكور فيه ضرورة أن من كان من أهل الكتاب عاملا بمقتضى شرعه قبل نسخه من مجموع الطوائف بحكم اشتماله على اليهود والنصارى وإن لم يكن من المنافقين والصابئين مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله على أن المخلصين مع اندراجهم فى حيز اسم إن ليس لهم فى حيز خبرها عين ولا أثر فتأمل وكن على الحق المبين ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾ تذكير لجناية أخرى لأسلافهم أى واذكروا وقت أخذنا لميثاقكم بالمحافظة على ما فى التوراة ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾ عطف على قوله أخذنا أو حال أى وقد رفعنا فوقكم الطور كأنه ظلة ، روى أن موسى عليه السلام لما جاءهم بالتوراة فرأوا مافيها من التكاليف الشاقة كبرت عليهم فأبوا قبولها فأمر جبريل عليه السلام فقلع الطور فظلله عليهم حتى قبلوا .

﴿خذوا﴾ على إرادة القول ﴿ما آتيناكم﴾ من الكتاب ﴿بقوة﴾ بجد وعزيمة ﴿واذكروا ما فيه﴾ أى احفظوه ولا تنسوه أو تفكروا فيه فإنه ذكر بالقلب أو اعملوا به ﴿لعلكم تتقون﴾ لكى تتقوا المعاصى أو لتنجوا من هلاك الدارين أو رجاء منكم أن تنتظموا فى سلك المتقين أو طلبا لذلك وقد مر تحقيقه ﴿ثم توليتم﴾ أى أعرضتم عن الوفاء بالميثاق ﴿من بعد ذلك﴾ من بعد أخذ ذلك الميثاق المؤكد ﴿فلولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ بتوفيقكم للتوبة أو بمحمد صلى الله عليه وسلم حيث يدعوكم إلى الحق ويهديكم إليه ﴿لكنتم من الخاسرين﴾ أى المفتونين بالانهماك فى المعاصى والخبط فى مهاوى الضلال عند الفترة وقيل لولا فضله تعالى عليكم بالإمهال وتأخير العذاب لكنتم من الهالكين وهو الأنسب بما بعده وكلمة لولا إما بسيطة أو مركبة من لو الامتناعية وحرف النفى ومعناها امتناع الشىء لوجود غيره كما أن لو لامتناعه لامتناع غيره والاسم الواقع بعدها عند سيبويه مبتدأ خبره محذوف وجوبا لدلالة الحال عليه وسد الجواب مسده والتقدير لولا فضل الله حاصل وعند الكوفيين فاعل فعل محذوف أى لولا ثبت فضل الله تعالى عليكم ﴿ولقد علمتم﴾ أى عرفتم ﴿الذين اعتدوا منكم فى السبت﴾ روى أنهم أمروا بأن يتمحضوا يوم السبت للعبادة ويتجردوا لها ويتركوا الصيد فاعتدى فيه أناس منهم فى زمن داود عليه السلام فاشتغلوا بالصيد وكانوا يسكنون قرية بساحل البحر يقال لها أيلة فإذا كان يوم السبت لم يبق فى البحر حوت إلا برز وأخرج خرطومه فإذا مضى تفرقت فحفروا حياضا وشرعوا إليها الجداول وكانت الحيتان تدخلها يوم السبت فيصطادونها يوم الأحد فالمعنى وبالله لقد علمتوهم حين فعلوا من قبيل جناياتكم ما فعلوا فلم نمهلهم ولم نؤخر عقوبتهم بل عجلناها ﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ أى جامعين بين صورة القردة والخسوء وهو الطرد والصغار على أن خاسئين نعت لقردة وقيل حال من اسم كونوا عند من يجيز عمل كان فى الظروف والحال وقيل من الضمير المستكن فى قردة لأنه فى معنى ممسوخين وقال مجاهد ما مسخت صورهم ولكن قلوبهم فمثلوا بالقردة كما مثلوا بالحمار فى قوله تعالى

كمثل الحمار يحمل أسفارا والمراد بالأمر بيان سرعة التكوين وأنهم صاروا كذلك كما أراده عز وجل وقرىء قردة بفتح القاف وكسر الراء وخاسين بغير همز ﴿ فجعلناها ﴾ أى المسخة والعقوبة ﴿ نكالا ﴾ عبرة تنكل المعتبر بها أى تمنعه وتردعه ومنه النكل للقيد ﴿ لما بين يديها وما خلفها ﴾ لما قبلها وما بعدها من الأمم إذ ذكرت حالهم فى زبر الأولين واشتهرت قصصهم فى الآخرين أو لمعاصريهم ومن بعدهم أو لما بحضرتها من القرى وما تباعد عنها أو لأهل تلك القرية وما حوالها أو لأجل ما تقدم عليها من ذنوبهم وما تأخر منها ﴿ وموعظة للمتقين ﴾ من قومهم أو لكل متق سمعها ﴿ وإذ قال موسى لقومه ﴾ توبيخ آخر لأخلاف بنى إسرائيل بتذكير بعض جنايات صدرت عن أسلافهم أى واذكروا وقت قول موسى عليه السلام لأجدادكم ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ وسببه أنه كان فى بنى إسرائيل شيخ موسر فقتله بنو عمه طمعاً فى ميراثه فطرحوه على باب المدينة ثم جاءوا يطالبون بديته فأمرهم الله تعالى أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها فيحيى فيخبرهم بقاتله ﴿ قالوا ﴾ استئناف وقع جوابا عما ينساق إليه الكلام كأنه قيل فماذا صنعوا هل سارعوا إلى الامتثال أو لا ؟ فقيل قالوا ﴿ أتتخذنا هزوا ﴾ بضم الزاء وقلب الهمزة واوا وقرىء بالهمزة مع الضم والسكون أى أتجعلنا مكان هزؤ أو أهل هزؤ أو مهزوءاً بنا أو الهزؤ نفسه استبعاداً لما قاله واستخفافا به ﴿ قال ﴾ استئناف كما سبق ﴿ أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ لأن الهزؤ فى أثناء تبليغ أمر الله سبحانه جهل وسفه نفى عنه عليه السلام ما توهموه من قبله على أبلغ وجه وآكده بإخراجه مخرج ما لا مكروه وراءه بالاستعاذة منه استفظاعا له واستعظاما لما أقدموا عليه من العظيمة التى شافهوه عليه السلام بها ﴿ قالوا ﴾ استئناف كما مر كأنه قيل فماذا قالوا بعد ذلك فقيل توجهوا إلى الامتثال وقالوا ﴿ ادع لنا ﴾ أى لأجلنا ﴿ ربك يبين لنا ما هى ﴾ ما مبتدأ وهى خبره والجملة فى حيز النصب بيبين أى يبين لنا جواب هذا السؤال وقد سألوا عن حالها وصفتها لما قرع أسماعهم ما لم يعهدوه من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيا فإن ما وإن شاعت فى طلب مفهوم

الاسم والحقيقة كما فى ما الشارحة والحقيقية لكنها قد يطلب بها الصفة والحال تقول ما زيد؟ فيقال طبيب أو عالم وقيل كان حقه أن يستفهم بأى لكنهم لما رأوا ما أمروا به على حالة مغايرة لما عليه الجنس أخرجوه عن الحقيقة فجعلوه جنسا على حياله ﴿قال﴾ أى موسى عليه بعد ما دعا ربه عز وجل بالبيان وأتاه الوحى ﴿إنه﴾ تعالى ﴿يقول إنها﴾ أى البقرة المأمور بذبحها ﴿بقرة لا فارض ولا بكر﴾ أى لا مسنة ولا فتية يقال فرضت البقرة فروضا أى أسنت من الفرض بمعنى القطع كأنها قطعت سنها وبلغت آخرها وتركيب البكر للأولية ومنه البكرة والباكورة ﴿عوان﴾ أى نصف لا قحل ولا ضرع قال :

طوال مثل أعناق الهوادى نواعم بين أبكار وعون

﴿بين ذلك﴾ إشارة إلى ما ذكر من الفارض والبكر ولذلك أضيف إليه بين لاختصاصه بالإضافة إلى المتعدد ﴿فافعلوا﴾ أمر من جهة موسى عليه السلام متفرع على ما قبله من بيان صفة المأمور به ﴿ما تؤمرون﴾ أى ما تؤمرونه بمعنى تؤمرون به كما فى قوله أمرتك الخير فافعل ما أمرت به فإن حذف الجار قد شاع فى هذا الفعل حتى لحق بالأفعال المتعدية إلى مفعولين وهذا الأمر منه عليه السلام لحثهم على الامتثال وزجرهم عن المراجعة ومع ذلك لم يقتنعوا به وقوله تعالى ﴿قالوا﴾ استئناف كما مر كأنه قيل ماذا صنعوا بعد هذا البيان الشافى والأمر المكرر فقيل قالوا ﴿ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها﴾ حتى يتبين لنا البقرة المأمور بها ﴿قال﴾ أى موسى عليه السلام بعد المناجاة إلى الله تعالى ومجىء البيان ﴿إنه﴾ تعالى ﴿يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها﴾ إسناد البيان فى كل مرة إلى الله عز وجل لإظهار كمال المساعدة فى إجابة مسؤلهم بقولهم يبين لنا وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة والفقوع نصوع الصفرة وخلوصها ولذلك يؤكد به ويقال أصفر فاقع كما يقال أسود حالك وأحمر قانىء وفى إسناده إلى اللون مع كونه من أحوال الملون لملابسته به ما لا يخفى من فضل تأكيد كأنه قيل صفراء شديدة الصفرة صفرتها كما فى جد جده وعن الحسن

رضى الله عنه سوداء شديدة السواد وبه فسر قوله تعالى (جمالة صفر) قيل ولعل التعبير عن السواد بالصفرة لما أنها من مقدماته وإما لأن سواد الإبل يعلوه صفرة ويأباه وصفها بقوله تعالى ﴿تسر الناظرين﴾ كما يأباه وصفها بفقوع اللون والسرور لذة فى القلب عند حصول نفع أو توقعه من السر عن على رضى الله عنه من لبس نعلا صفراء قل همه ﴿قالوا﴾ استئناف كنظائره ﴿ادع لنا ربك يبين لنا ما هى﴾ زيادة استكشاف عن حالها كأنهم سألوا بيان حقيقتها بحيث تمتاز عن جميع ما عداها مما تشاركها فى الأوصاف المذكورة والأحوال المشروحة فى أثناء البيان ولذلك عللوه بقولهم ﴿إن البقر تشابه علينا﴾ يعنون أن الأوصاف المعدودة يشترك فيها كثير من البقر ولا نهتدى إلى تشخيص ما هو المأمور بها ولذلك لم يقولوا إن البقر تشابهت إيذانا بأن النعوت المعدودة ليست بمشخصة للمأمور بها بل صادقة على سائر أفراد الجنس وقرىء إن الباقر وهو اسم لجماعة البقر والأباقر والبواقر ويتشابه بالياء والتاء ويشابه بطرح التاء والإدغام على التذكير والتأنيث وتشابهت مخففا ومشددا وتشبه بمعنى تتشبه وتشبه بالتذكير ومتشابه ومتشابهة ومتشبه ومتشبهة وفيه دلالة على أنهم ميزوها عن بعض ما عداها فى الجملة وإنما بقى اشتباه بشرف الزوال كما ينبىء عنه قولهم ﴿وإنا إن شاء الله لمهتدون﴾ مؤكدا بوجوه من التوكيد أى لمهتدون بما سألنا من البيان إلى المأمور بذبحها وفى الحديث لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد .

﴿قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث﴾ أى لم تذلل للكراب وسقى الحرث ولاذلول صفة لبقرة بمعنى غير ذلول ولاالثانية لتأكيد الأولى والفعلان صفتا ذلول كأنه قيل لاذلول مثيرة وساقية وقرىء لاذلول بالفتح أى حيث هو كقولك مررت برجل لابخيل ولا جبان أى أى حيث هو وقرىء تسقى من أسقى ﴿مسلمة﴾ أى سلمها الله تعالى من العيوب أو أهلها من العمل أو أخلص لها لونها من سلم له كذا إذا أخلص له ويؤيده قوله تعالى : ﴿لاشية فيها﴾ أى لالون فيها يخالف لون جلدها حتى قرنها وظلفها

وهى فى الأصل مصدر وشاه وشيا وشية إذا خلط بلونه لونا آخر ﴿ قالوا ﴾ عندما سمعوا هذه النعوت ﴿ الآن جئت بالحق ﴾ أى بحقيقة وصف البقرة بحيث ميزتها عن جميع ماعداها ولم يبق لنا فى شأنها اشتباه أصلا بخلاف المرتين الأوليين فإن ماجئت به فيهما لم يكن فى التعيين بهذه المرتبة ولعلهم كانوا قبل ذلك قد رأوها ووجدوها جامعة لجميع مافصل من الأوصاف المشروحة فى المرات الثلاث من غير مشارك لها فيما عد فى المرة الأخيرة وإلا فمن أين عرفوا اختصاص النعوت الأخيرة بها دون غيرها وقرىء آلآن بالمد على الاستفهام والآن بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام ﴿ فذبحوها ﴾ الفاء فصيحة كما فى فانفجرت أى فحصلوا البقرة فذبحوها ﴿ وما كادوا يفعلون ﴾ كاد من أفعال المقاربة وضع لدنو الخبر من الحصول والجملة حال من ضمير ذبحوا أى فذبحوها والحال أنهم كانوا قبل ذلك بمعزل منه أو اعتراض تذييلى ومآله استثقال استعصائهم واستبطاء لهم وأنهم لفرط تطويلهم وكثرة مراجعاتهم ما كاد ينتهى خيط استفهامهم فيها . قيل مضى من أول الأمر إلى الامتثال أربعون سنة وقيل وما كادوا يفعلون ذلك لغلاء ثمنها . روى أنه كان فى بنى إسرائيل شيخ صالح له عجلة فأتى بها الغيضة وقال اللهم إنى استودعتكها لابنى حتى يكبر وكان برا بوالديه فتوفى الشيخ وشبت العجلة فكانت من أحسن البقر وأسمنها فساوموها اليتيم وأمه حتى اشتروها بملء مسكها ذهبا لما كانت وحيدة بالصفات المذكورة وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير . واعلم أنه لا خلاف فى أن مدلول ظاهر النظم الكريم بقرة مطلقة مبهمة وأن الامتثال فى آخر الأمر إنما وقع بذبح بقرة معينة حتى لو ذبحوا غيرها ماخرجوا عن عهدة الأمر لكن اختلف فى أن المراد المأمور به إثر ذى أثير هل هى المعينة وقد أخر البيان عن وقت الخطاب أو المبهمة ثم لحقها التغير إلى المعينة بسبب تثاقلهم فى الامتثال وتماديهم فى التعمق والاستكشاف فذهب بعضهم إلى الأول تمسكا بأن الضمائر فى الأجوبة أعنى أنها بقرة إلى آخره للمعينة قطعا ومن قضيته أن يكون فى السؤال ايضا

كذلك ولا ريب فى أن السؤال إنما هو عن البقرة المأمور بذبحها فتكون هى المعينة وهو مدفوع بأنهم لما تعجبوا من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيا ظنوها معينة خارجة عما عليه الجنس من الصفات والخواص فسألوا عنها فرجعت الضمائر إلى المعينة فى زعمهم واعتقادهم فعينها الله تعالى تشديدا عليهم وإن لم يكن المراد من أول الأمر هى المعينة والحق أنها كانت فى أول الأمر مبهمة بحيث لو ذبحوا أية بقرة كانت لحصل الامتثال بدلالة ظاهر النظم الكريم وتكرير الأمر قبل بيان اللون وما بعده من كونها مسلمة الخ وقد قال صلى الله عليه وسلم «لو اعترضوا أدنى بقرة فذبحوها لكفتهم» وروى مثله عن رئيس المفسرين عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، ثم رجع الحكم الأول منسوخا بالثانى والثانى بالثالث تشديدا عليهم لكن لا على وجه ارتفاع حكم المطلق بالكلية وانتقاله إلى المعين بل على طريقة تقييده وتخصيصه به شيئاً فشيئاً كيف لا ولو لم يكن كذلك لما عدت مراجعاتهم المحكية من قبيل الجنايات بل من قبيل العبادة فإن الامتثال بالأمر بدون الوقوف على المأمور به مما لا يكاد يتسنى فتكون سؤالاتهم من باب الاهتمام بالامتثال ﴿ وإذ قتلتم نفسا ﴾ منصوب بمضمر كما مرت نظائره والخطاب لليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإسناد القتل والتدارؤ إليهم لما مر من نسبة جنايات الأسلاف إلى الأخلاف توبيخا وتقريعا وتخصيصهما بالإسناد دون ما مر من جناياتهم لظهور قبح القتل وإسناده إلى الغير أى اذكروا وقت قتلكم نفسا محرمة ﴿ فادارأتم فيها ﴾ أى تخاصمتم فى شأنها إذ كل واحد من الخصماء يدافع الآخر أو تدافعتم بأن طرح كل واحد قتلها إلى آخر وأصله تدارأتم فأدغمت التاء فى الدال واجتلبت لها همزة الوصل ﴿ والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ أى مظهر لما تكتمونه لا محالة والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على الاستمرار وإنما أعمل مخرج لأنه حكاية حال ماضية ﴿ فقلنا اضربوه ﴾ عطف على فادارأتم وما بينهما اعتراض والالتفات لتربية المهابة والضمير للنفس والتذكير باعتبار أنها عبارة عن الرجل

أو بتأويل الشخص أو القتيل ﴿ ببعضها ﴾ أى ببعض البقرة أى بعض كان وقيل بأصغريها وقيل بلسانها وقيل بفخذها اليمنى وقيل بأذنها وقيل بعجبها وقيل بالعظم الذى يلى الغضروف وهذا أول القصة كما ينبىء عنه الضمير الراجع إلى البقرة كأنه قيل وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها، فقلنا اذبحوا بقرة فاضربوه ببعضها وإنما غير الترتيب عند الحكاية لتكرير التوبيخ وتثنية التقريع فإن كل واحد من قتل النفس المحرمة والاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم والافتيات على أمره وترك المسارعة إلى الامتثال به جناية عظيمة حقيقة بأن تنعى عليهم بحيالها ولو حكيت القصة على ترتيب الوقوع لما علم استقلال كل منها بما يخص بها من التوبيخ وإنما حكى الأمر بالذبح عن موسى عليه السلام مع أنه من الله عز وجل كالأمر بالضرب لما أن جناياتهم كانت بمراجعتهم إليه عليه السلام والافتيات على رأيه ﴿ كذلك يحيى الله الموتى ﴾ على إرادة قول معطوف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى فضربوه فحيى وقلنا كذلك يحيى الخ فحذفت الفاء الفصيحة فى فحيى مع ما عطف بها وما عطف هو لدلالة كذلك على ذلك فالخطاب فى كذلك حينئذ للحاضرين عند حياة القتيل ويجوز أن يكون ذلك للحاضرين عند حياة القتيل ويجوز أن يكون ذلك للحاضرين عند نزول الآية الكريمة فلا حاجة حينئذ إلى تقدير القول بل تنتهى الحكاية عند قوله تعالى ببعضها مع ما قدر بعده فالجملة معترضة أى مثل ذلك الإحياء العجيب يحيى الله الموتى يوم القيامة ﴿ ويريكم آياته ﴾ ودلائله الدالة على أنه تعالى على كل شىء قدير ويجوز أن يراد بالآيات هذا الإحياء والتعبير عنه بالجمع لاشتماله على أمور بديعة من ترتب الحياة على عضو ميت وإخباره بقاتله وما يلابسه من الأمور الخارقة للعادة ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أى لكى تكمل عقولكم وتعلموا أن من قدر على إحياء نفس قدر على إحياء الأنفس كلها أو تعلموا على قضية عقولكم ولعل الحكمة فى اشتراط ما اشترط فى الإحياء مع ظهور كمال قدرته على إحيائه ابتداء بلا واسطة أصلا اشتماله على التقرب إلى الله تعالى وأداء الواجب ونفع اليتيم والتنبيه على بركة التوكل

على الله تعالى والشفقة على الأولاد ونفع بر الوالدين وأن من حق الطالب أن يقدم قربة ومن حق المتقرب أن يتحرى الأنفس ويغالى بثمنه كما يروى عن عمر رضى الله عنه أنه ضحى بنجيبة اشتراها بثلثمائة دينار وأن المؤثر هو الله تعالى وإنما الأسباب أمارات لا تأثير لها وأن من رام أن يعرف أعدى عدوه الساعى فى إماتته الموت الحقيقى فطريقه أن يذبح بقرة نفسه التى هى قوته الشهوية حين زال عنها شره الصبا ولم يلحقها ضعف الكبر وكانت معجبة رائقة المنظر غير مذللة فى طلب الدنيا مسلمة عن دنسها لاشية لها من قبائحها بحيث يتصل أثره إلى نفسه فيحيا بها حياة طيبة ويعرب عما به ينكشف الحال ويرتفع ما بين العقل والوهم من التدارؤ والجدال ﴿ ثم قست قلوبكم ﴾ الخطاب لمعاصرى النبى صلى الله عليه وسلم والقسوة عبارة عن الغلظ والجفاء والصلابة كما فى الحجر استعيرت لنبو قلوبهم عن التأثر بالعظات والقوارع التى تميع منها الجبال وتلين بها الصخور وإيراد الفعل المفيد لحدوث القساوة مع أن قلوبهم لم تزل قاسية لما أن المراد بيان بلوغهم إلى مرتبة مخصوصة من مراتب القساوة حادثة وإما لأن الاستمرار على شىء بعد ورود ما يوجب الإقلاع عنه أمر جديد وصنع حادث وثم لاستبعاد القسوة بعد مشاهدة ما يزيلها كقوله تعالى (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) .

﴿ من بعد ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من إحياء القتيل أو إلى جميع ما عدد من الآيات الموجبة للين القلوب وتوجهها نحو الحق أى من بعد سماع ذلك ومافيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلته وعلو طبقته وتوحيد حرف الخطاب مع تعدد المخاطبين ، إما بتأويل الفريق أو لأن المراد مجرد الخطاب لا تعيين المخاطب كما هو المشهور ، ﴿ فهى كالحجارة ﴾ فى القساوة ، ﴿ أو أشد ﴾ منها ، ﴿ قسوة ﴾ أى هى فى القسوة مثل الحجارة أو زائدة عليها فيها أو أنها مثلها أو مثل ما هو أشد منها قسوة كالحديد فحذف وأقيم المضاف إليه مقامه ويعضده القراءة بالجر عطفا على الحجارة وإيراد الجملة اسمية مع كون ما سبق فعلية للدلالة على

استمرار قساوة قلوبهم ، والفاء إما للتعليل كما فى قولك اعبد ربك فالعبادة حق له وإنما لم يقل أو أقسى منها لما فى التصريح بالشدة من زيادة مبالغة ودلالة ظاهرة على اشتراك القسوتين فى الشدة واشتمال المفضل على زيادة ، وأو للتخيير أو للترديد بمعنى أن من عرف حالها شبهها بالحجارة أو بما هو أقسى أو من عرفها شبهها بالحجارة أو قال هى أقسى من الحجارة وترك ضمير المفضل عليه للأمن من الالتباس ﴿ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ﴾ بيان لأشدية قلوبهم من الحجارة فى القساوة وعدم التأثر واستحالة صدور الخير منها يعنى أن الحجارة ربما تتأثر حتى كان منها ما يتفجر منه المياه العظيمة ﴿ وإن منها لما يشقق ﴾ أى يتشقق ﴿ فيخرج منه الماء ﴾ أى العيون ﴿ وإن منها لما يهبط من خشية الله ﴾ أى يتردى من الأعلى إلى الأسفل بقضية ما أودعه الله عز وجل فيها من الثقل الداعى إلى المركز وهو مجاز من الانقياد لأمره تعالى والمعنى إن الحجارة ليس منها فرد إلا وهو منقاد لأمره عز وعلا آت بما خلق له من غير استعصاء وقلوبهم ليست كذلك فتكون أشد منها قسوة لا محالة واللام فى لما لام الابتداء دخلت على اسم إن لتقدم الخبر وقرىء أن على أنها مخففة من الثقيلة واللام فارقة وقرىء يهبط بالضم ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ عن متعلقة بغافل ، وما موصولة والعائد محذوف أو مصدرية ، وهو وعيد شديد على ما هو عليه من قساوة القلوب وما يترتب عليها من الأعمال السيئة وقرىء بالياء على الالتفات وقوله تعالى ﴿ أفتطمعون ﴾ تلوين للخطاب وصرف له عن اليهود إثر ما عدت سيئاتهم ونعيت عليهم جناياتهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين والهمزة لإنكار الواقع واستبعاده كما فى قولك أتضرب أباك لا لإنكار الوقوع كما فى قولك أأضرب أبى والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ويستدعيه نظام الكلام لكن لا على قصد توجيه الإنكار إلى المعطوفين معا كما فى أفلا تبصرون على تقدير المعطوف عليه منفيا أى ألا تنظرون فلا تبصرون فالمنكر كلا الأمرين بل إلى ترتب الثانى على الأول مع وجوب أن يترتب عليه نقيضه كما إذا قدر الأول مثبتا أى أتنظرون فلا تبصرون فالمنكر ترتب الثانى على الأول مع

وجوب أن يترتب عليه نقيضه أى أتسمعون أخبارهم وتعلمون أحوالهم فتطمعون ومآل المعنى أبعد أن علمتم تفاصيل شئونهم المؤيسة عنهم تطمعون ﴿أن يؤمنوا﴾ فانهم متماثلون فى شدة الشكيمة والأخلاق الذميمة ، لا يتأتى من أخلافهم إلا مثل ما أتى من أسلافهم وأن مصدرية حذف عنها الجار والأصل فى أن يؤمنوا وهى مع مافى حيزها فى محل النصب أو الجر على الخلاف المعروف واللام فى لكم لتضمين معنى الاستجابة كما فى قوله عز وجل (فآمن له لوط) أى فى إيمانهم مستجيبين لكم أو للتعليل أى فى أن يحدثوا الإيمان لأجل دعوتكم وصلة الإيمان محذوفة لظهور أن المراد به معناه الشرعى وستقف على ما فيه من المزية بإذن الله تعالى ﴿وقد كان فريق منهم﴾ الفريق اسم جمع لا واحد له من لفظه كالرهط والقوم والجار والمجرور فى محل الرفع أى فريق كائن منهم وقوله تعالى ﴿يسمعون كلام الله﴾ خبر كان وقرىء كلم الله والجملة حالية مؤكدة للانكار حاسمة لمادة الطمع مثل أحوالهم الشنيعة المحكية فيما سلف على منهاج قوله تعالى (وهم لكم عدو) بعد قوله تعالى (أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى) أى والحال أن طائفة منهم قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هم قوم من السبعين المختارين للميقات كانوا يسمعون كلامه تعالى حين كلم موسى عليه السلام بالطور وما أمر به ونهى عنه ﴿ثم يحرفونه﴾ عن مواضعه لا لقصور فهمهم عن الإحاطة بتفاصيله على ما ينبغى لاستيلاء الدهشة والمهابة حسبما يقتضيه مقام الكبرياء بل ﴿من بعد ما عقلوه﴾ أى فهموه وضبطوه بعقولهم ، ولم تبق لهم فى مضمونه ولا فى كونه كلام رب العزة ريبة أصلا فلما رجعوا إلى قومهم أداه الصادقون إليهم كما سمعوا وهؤلاء قالوا سمعنا الله تعالى يقول فى آخر كلامه: إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا ، وإن شئتم فلا تفعلوا فلا بأس فثم للتراخى زمانا أو رتبة قال القفال سمعوا كلام الله وعقلوا مراده تعالى منه فأولوه تأويلا فاسدا وقيل هم رؤساء أسلافهم الذين تولوا تحريف التوراة بعد ما أحاطوا بما فيها علما وقيل هم الذين غيروا نعت النبى صلى الله عليه وسلم فى عصره وبدلوا آية الرجم ويأباه الجمع بين صيغتى

الماضى والمستقبل الدال على وقوع السماع والتحريف فيما سلف إلا أن يحمل ذلك على تقدمه على زمان نزول الآية الكريمة لا على عهده عليه الصلاة والسلام هذا والأول هو الأنسب بالسماع والكلام إذ التوراة وإن كانت كلام الله عز وعلا لكنها باسم الكتاب أشهر وأثر التحريف فيه أظهر ، ووصف اليهود بتلاوتها أكثر لاسيما رؤساؤهم المباشرون للتحريف فيه أظهر . ووصف اليهود بتلاوتها أكثر لاسيما رؤساؤهم المباشرون للتحريف فإن وظيفتهم التلاوة دون السماع فكان الأنسب حينئذ أن يقال يتلون كتاب الله تعالى فالمعنى أفتطمعون فى أن يؤمن هؤلاء بواسطتكم ويستجيبوا لكم والحال أن أسلافهم الموافقين لهم فى خلال السوء كانوا يسمعون كلام الله بلا واسطة ثم يحرفونه من بعد ما علموه يقينا ولا يستجيبون له هيهات ومن ههنا ظهر ما فى إيثار لكم على بالله من الفخامة والجزالة وقوله عز وجل ﴿وهم يعلمون﴾ جملة حالية من فاعل يحرفونه مفيدة لكمال قباحة حالهم مؤذنة بأن تحريفهم ذلك لم يكن بناء على نسيان ما عقلوه أو على الخطأ فى بعض مقدماته بل كان ذلك حال كونهم عالمين مستحضرين له أو وهم يعلمون أنهم كاذبون ومفترون ﴿وإذا لقوا﴾ جملة مستأنفة سيقت إثر بيان ما صدر عن أشباههم لبيان ما صدر عنهم بالذات من الشنائع المؤيسة عن إيمانهم من نفاق بعض وعتاب آخرين عليهم أو معطوفة على ماسبق من الجملة الحالية والضمير لليهود لما ستقف على سره لا لمنافقيهم خاصة كما قيل تحريا لاتحاد الفاعل فى فعلى الشرط والجزاء حقيقة ﴿الذين آمنوا﴾ من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ﴿قالوا﴾ أى اللاقون لكن لا بطريق تصدى الكل للقول حقيقة بل بمباشرة منافقيهم وسكوت الباقين كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا والقاتل واحد منهم وهذا أدخل فى تقبيح حال الساكتين أولا العاتبين ثانيا لما فيه من الدلالة على نفاقهم واختلاف أحوالهم وتناقض آرائهم من إسناد القول إلى المباشرين خاصة بتقدير المضاف أى قال منافقوهم ﴿آمنا﴾ لم يقتصروا على ذلك بل عللوه بأنهم وجدوا نعت النبى صلى الله عليه وسلم فى التوراة وعلموا أنه النبى المبشر به وإنما لم يصرح به تعويلا على شهادة التوبيخ

الآتى ﴿وإذا خلا بعضهم﴾ أى بعض المذكورين وهم الساكتون منهم أى إذا فرغوا من الاشتغال بالمؤمنين متوجهين ومنضمين ﴿إلى بعض﴾ آخر منهم وهم منافقوهم بحيث لم يبق معهم غيرهم ، وهذا نص على اشتراك الساكتين فى لقاء المؤمنين كما أشير إليه آنفا إذ الخلو إنما يكون بعد الاشتغال ، ولأن عتابهم معلق بمحض الخلو ولولا أنهم حاضرون عند المقاولة لوجب أن يجعل سماعهم لها من تمام الشرط ، ولأن فيه زيادة تشنيع لهم على ما أتوا من السكوت ثم العتاب ﴿قالو﴾ أى الساكتون موبخين لمنافقيهم على ما صنعوا ﴿أتحدثونهم﴾ يعنون المؤمنين ﴿بما فتح الله عليكم﴾ ماموصولة والعائد محذوف أى بينه لكم خاصة فى التوراة من نعت النبى صلى الله عليه وسلم والتعبير عنه بالفتح للايذان بأنه سر مكنون وباب مغلق لايقف عليه أحد وتجويز كون هذا التوبيخ من جهة المنافقين لأعقابهم إراءة للتصاب فى دينهم كما ذهب إليه عصابة مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل واللام فى قوله عز وجل ﴿ليحاجوكم به﴾ متعلقة بالتحديث دون الفتح والمراد تأكيد النكير وتشديد التوبيخ ، فإن التحديث بذلك وإن كان منكرا فى نفسه ، لكن التحديث به لأجل هذا الغرض مما لا يكاد يصدر عن العاقل أى أتحدثونهم بذلك ليحتجوا عليكم به فيسكتوكم والمحدثون به وإن لم يحرموا حول ذلك الغرض لكن فعلهم ذلك لما كان مستتبعا له البتة جعلوا فاعلين للغرض المذكور إظهاراً لكمال سخافة عقولهم وركاكة آرائهم .

﴿عند ربكم﴾ أى فى حكمه وكتابه كما يقال هو عند الله كذا أى فى كتابه وشرعه وقيل عند ربكم يوم القيامة ورد عليه بأن الإخفاء لا يدفعه إذ هم عالمون بأنهم محجوجون يومئذ حدثوا به أو لم يحدثوا والاعتذار بأن إلزام المؤمنين إياهم وتبكيتهم بأن يقولوا لهم ألم تحدثونا بما فى كتابكم فى الدنيا من حقية ديننا وصدق نبينا أفحش فيجوز أن يكون المحذور عندهم هذا الإلزام بإرجاع الضمير فى به إلى التحديث دون المحدث به ولا ريب فى أنه مدفوع بالإخفاء لا تساعده الآية الكريمة الآتية كما ستقف عليه بإذن الله عز وجل ﴿أفلا تعقلون﴾ من تمام التوبيخ والعتاب والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه

الكلام أى ألا تلاحظون فلا تعقلون هذا الخطأ الفاحش أو شيئاً من الأشياء التى من جملتها هذا فالمنكر عدم التعقل ابتداء أو أتفعلون ذلك فلا تعقلون بطلانه مع وضوحه حتى تحتاجون إلى التنبيه عليه فالمنكر حينئذ عدم التعقل بعد الفعل هذا وأما ما قيل من أنه خطاب من جهة الله سبحانه للمؤمنين متصل بقوله تعالى (أفتطمعون) والمعنى أفلا تعقلون حالهم وأن لامطمع لكم فى إيمانهم فيأباه قوله تعالى ﴿أو لا يعلمون﴾ فإنه إلى آخره تجهيل لهم من جهته تعالى فيما حكى عنهم فيكون إيراد خطاب المؤمنين فى أثنائه من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه على أن فى تخصيص الخطاب بالمؤمنين من التعسف وفى تعميمه للنبى أيضاً صلى الله عليه وسلم كما فى أفتطمعون من سوء الأدب ما لا يخفى والهمزة للإنكار والتوبيخ كما قبلها والواو للعطف على مقدر ينساق إليه الذهن والضمير للموبخين أى أيلومونهم على التحديث المذكور مخافة المحاجة ولا يعلمون ﴿أن الله يعلم ما يسرون﴾ أى يسرونه فيما بينهم من المؤمنين أو مايضمرونه فى قلوبهم فيثبت الحكم فى ذلك بالطريق الأولى ﴿وما يعلنون﴾ أى يظهرونه للمؤمنين أو لأصحابهم حسبما سبق فحينئذ يظهر الله تعالى للمؤمنين ما أرادوا إخفاءه بواسطة الوحى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فتحصل المحاجة ويقع التبكيت كما وقع فى آية الرجم وتحريم بعض المحرمات عليهم فأى فائدة فى اللوم والعتاب ومن ههنا تبين أن المحظور عندهم هو المحاجة بما فتح الله عليهم وهى حاصلة فى الدارين حدثوا به أم لا، لا بالتحديث به حتى يندفع بالإخفاء وقيل الضمير للمنافقين فقط أو لهم وللموبخين أو لآبائهم المحرفين أى أيفعلون ما يفعلون ولا يعلمون أن الله يعلم جميع ما يسرون وما يعلنون ومن جملته إسرارهم الكفر وإظهارهم الإيمان وإخفاء ما فتح الله عليهم وإظهار غيره وكتم أمر الله وإظهار ما أظهروه افتراء وإنما قدم الإسرار على الإعلان للإيذان بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه من أول الأمر والمبالغة فى بيان شمول علمه المحيط بجميع المعلومات كأن علمه بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه مع كونهما فى الحقيقة على السوية فإن علمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول صورها بل وجود كل

شيء فى نفسه علم بالنسبة إليه تعالى وفى هذا المعنى لا يختلف الحال بين الأشياء البارزة والكامنة ونظيره قوله عز وعلا (قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله) حيث قدم فيه الإخفاء على الإبداء لما ذكر من السر على عكس ماوقع فى قوله تعالى (وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) فإن الأصل فى تعلق المحاسبة به هو الأمور البادية دون الخافية ويجوز أن يكون ذلك باعتبار أن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن إذ ما من شيء يعلن إلا وهو مباديه قبل ذلك مضمر فى القلب يتعلق به الإسرار غالبا فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية .

﴿ ومنهم أميون ﴾ وقرىء بتخفيف الياء ، جمع أمى ، وهو من لا يقدر على الكتابة والقراءة واختلف فى نسبته فقيل إلى الأم بمعنى أنه شبيه بها فى الجهل بالكتابة والقراءة فإنهما ليستا من شؤون النساء بل من خلال الرجال بمعنى أنه على الحالة التى ولدته أمه فى الخلو عن العلم والكتابة وقيل إلى الأمة بمعنى أنه باق على سذاجتها خال عن معرفة الأشياء كقولهم عامى أى على عادة العامة روى عن عكرمة والضحاك أن المراد بهم نصارى العرب وقيل هم قوم من أهل الكتاب رفع كتابهم لذنوب ارتكبوها فصاروا أميين وعن على رضى الله تعالى عنه هم المجوس والحق الذى لا محيد عنه أنهم جهلة اليهود والجملة مستأنفة مسوقة لبيان قبائحهم إثر بيان شنائع الطوائف السالفة وقيل هى معطوفة على الجملة الحالية فإن مضمونها مناف لرجاء الخير منهم وإن لم يكن فيه ما يحسم مادة الطمع عن إيمانهم كما فى مضمون الجملة الحالية وما بعدها فإن الجهل بالكتاب فى منافاة الإيمان ليس بمثابة تحريف كلام الله بعد سماعه والعلم بمعانيه كما وقع من الفرقتين الأخريين ، أى ومنهم طائفة جهلة غير قادرين على الكتابة والتلاوة .

﴿ لا يعلمون الكتاب ﴾ أى لا يعرفون التوراة ليطالعوها ويتحققوا ما فى تضاعيفها من دلائل النبوة فيؤمنوا وحمل الكتاب على الكتابة يأباه سباق النظم الكريم وسياقه ﴿ إلا أمانى ﴾ بالتشديد وقرىء بالتخفيف جمع أمنية أصلها أمنوية أفعولة من

منى بمعنى قدر أو بمعنى تلا كتمنى فى قوله ۞ تمنى كتاب الله أول ليلة ۞ فأعلت إعلال سيد وميت ومعناها على الأول ما يقدره الإنسان فى نفسه ويتمناه وعلى الثانى ما يتلوه وعلى التقديرين فالاستثناء منقطع إذ ليس ما يتمنى وما يتلى من جنس علم الكتاب أى لايعلمون الكتاب لكن يتمنون أمانى حسبما منتهم أحبارهم من أن الله سبحانه يعفو عنهم وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم وغير ذلك من أمانيهم الفارغة المستندة إلى الكتاب على زعم رؤسائهم أو لا يعلمون الكتاب لكن يتلقونه قدر ما يتلى عليهم فيقبلونه من غير أن يتمكنوا من التدبر فيه وأما حمل الأمانى على الأكاذيب المختلفة على الإطلاق من غير أن يكون لها ملابسة بالكتاب فلا يساعده النظم الكريم ﴿وإن هم إلا يظنون﴾ ما هم إلا قوم قصارى أمرهم الظن والتقليد من غير أن يصلوا إلى رتبة العلم فأنى يرجى منهم الإيمان المؤسس على قواعد اليقين ولما بين حال هؤلاء فى تمسكهم بحبال الأمانى واتباع الظن عقب ببيان حال الذين أوقعوهم فى تلك الورطة وبكشف كيفية إضلالهم وتعيين مرجع الكل بالآخرة فقيل على وجه الدعاء عليهم ﴿فويل﴾ هو وأمثاله من ويح وويس وويب وويه وويك وعول من المصادر المنصوبة بأفعال من غير لفظها لا يجوز إظهارها البتة فإن أضيف نصب نحو ويلك وويحك وإذا فصل عن الإضافة رفع نحو ويل له ومعنى الويل شدة الشر قاله الخليل وقال الأصمعى الويل التفجع والويح الترحم وقال سيبويه ويل لمن وقع فى الهلكة وويح زجر لمن أشرف على الهلاك وقيل الويل الحزن، وهل ويح وويب وويس بذلك المعنى أو بينه وبينها فرق وقيل ويل فى الدعاء عليه وويح وما بعده فى الترحم عليه وقال ابن عباس رضى الله عنهما الويل العذاب الأليم وعن سفيان الثورى أنه صديد أهل جهنم وروى أبو سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «الويل واد فى جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره» وقال سعيد بن المسيب إنه واد فى جهنم لو سيرت فيه جبال الدنيا لماعت من شدة حره وقال ابن بريدة جبل قيح ودم وقيل صهريج فى جهنم وحكى الزهراوى أنه باب من أبواب جهنم وعلى

كل حال فهو مبتدأ خبره قوله عز وعلا ﴿للذين يكتبون الكتاب﴾ أى المحرف أو ما كتبوه من التأويلات الزائغة ﴿بأيديهم﴾ تأكيد لدفع توهم المجاز كقولك كتبته بيمينى ﴿ثم يقولون هذا﴾ أى جميعاً على الأول وبخصوصه على الثانى (من عند الله) روى أن أحبار اليهود خافوا ذهاب مآكلهم وزوال رياستهم حين قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فاحتالوا فى تعويق أسافل اليهود عن الإيمان فعمدوا إلى صفة النبي صلى الله عليه وسلم فى التوراة وكانت هى فيها حسن الوجه حسن الشعر أكحل العينين ربعة فغيروها وكتبوا مكانها طوال أزرق سبط الشعر فإذا سألهم سفلتهم عن ذلك قرأوا عليهم ما كتبوا فيجدونه مخالفا لصفته عليه السلام فيكذبونه وثم للتراخى الرتبى فإن نسبة المحرف والتأويل الزائغ إلى الله سبحانه صريحا أشد شناعة من نفس التحريف والتأويل ﴿ليشتروا به﴾ أى يأخذوا لأنفسهم بمقابلته ﴿ثمنا﴾ هو ما أخذوه من الرشا بمقابلة ما فعلوا من التحريف والتأويل وإنما عبر عن المشترى الذى هو المقصود بالذات فى عقد المعاوضة بالثمن الذى هو وسيلة فيه إيذانا بتعكيسهم حيث جعلوا المقصود بالذات وسيلة والوسيلة مقصودا بالذات ﴿قليلا﴾ لا يعبأ به فإن ذلك وإن جل فى نفسه فهو أقل قليلا عندما استوجبوا به من العذاب الخالد ﴿فويل لهم﴾ تكرير لما سبق للتأكيد وتصريح بتعليله بما قدمت أيديهم بعد الإشعار به فيما سلف بإيراد بعضه فى حيز الصلة وبعضه فى معرض الغرض والفاء للإيذان بترتبه عليه ومن فى قوله عز وجل ﴿مما كتبت أيديهم﴾ تعليلية متعلقة بويل أو بالاستقرار فى الخبر وما موصولة اسمية والعائد محذوف أى كتبته أو مصدرية والأول أدخل فى الزجر عن تعاطى المحرف والثانى فى الزجر عن التحريف ﴿وويل لهم مما يكسبون﴾ الكلام فيه كالذى فيما قبله والتكرير لما مر من التأكيد والتشديد والقصد إلى التعليل بكل من الجانبين وعدم التعرض لقولهم هذا من عند الله لما أنه من مبادىء ترويج ما كتبت أيديهم فهو داخل فى التعليل به ﴿وقالوا﴾ بيان لبعض آخر من جناياتهم وفصله عما قبله مشعر بكونه من الأكاذيب التى اختلقوها ولم يكتبوها فى الكتاب ﴿لن تمسنا النار﴾

فى الآخرة ﴿ إلا أياما معدودة ﴾ قليلة محصورة عدد أيام عبادتهم العجل أربعين يوما مدة غيبة موسى عليه السلام عنهم وحكى الأصمعى عن بعض اليهود أن عدد أيام عبادتهم العجل سبعة وروى عن ابن عباس ومجاهد أن اليهود قالوا عمر الدنيا سبعة آلاف سنة وإنما نعذب بكل ألف سنة يوما واحدا وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن اليهود زعمت أن ما وجدوا فى التوراة أن ما بين طرفى جهنم مسيرة أربعين سنة إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم وأنهم يقطعون فى كل يوم مسيرة سنة فيكملونها ﴿ قل ﴾ تبكيتا لهم وتوبيخا ﴿ أتخذتم ﴾ بإسقاط الهمزة المجتلبة لوقوعها فى الدرج وبإظهار الذال وقرىء بإدغامها فى التاء ﴿ عند الله عهدا ﴾ خبرا أو وعدآ بما تزعمون فإن ما تدعون لايكون إلا بناء على وعد قوى ولذلك عبر عنه بالعهد ﴿ فلن يخلف الله عهده ﴾ الفاء فصيحة معربة عن شرط محذوف كما فى قول من قال :

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا

أى أن الأمر كذلك فلن يخلفه والجملة اعتراضية وإظهار الاسم الجليل للإشعار بعلة الحكم فإن عدم الإخلاف من قضية الألوهية وإظهار العهد مضافا إلى ضميره عز وجل لما ذكر أو لأن المراد به جميع عهوده لعمومه بالإضافة فيدخل فيه العهد المعهود دخولا أوليا وفيه تجاف عن التصريح بتحقق مضمون كلامهم وإن كان معلقا بما لم يكد يشم رائحة الوجود قطعا أعنى اتخاذ العهد ﴿ أم تقولون ﴾ مفترين ﴿ على الله ما لا تعلمون ﴾ وقوعه وإنما علق التوبيخ بإسنادهم إليه سبحانه مالا يعلمون وقوعه مع أن ما أسندوه إليه تعالى من قبيل ما يعلمون عدم وقوعه للمبالغة فى التوبيخ والنكير فإن التوبيخ على الأدنى مستلزم للتوبيخ على الأعلى بالطريق الأولى وقولهم المحكى وإن لم يكن تصريحا بالافتراء عليه سبحانه مستلزم له لأن ذلك الجزم لا يكون إلا بإسناد سببه إليه تعالى وأم إما متصلة والاستفهام للتقرير المؤدى إلى التبكيت لتحقق العلم بالشق الأخير كأنه قيل أم لم تتخذوه بل تتقولون عليه تعالى وإما منقطعة والاستفهام لإنكار الاتخاذ ونفيه ومعنى بل فيها الإضراب.

والانتقال من التوبيخ بالإنكار على اتخاذ العهد إلى ما تفيد همزتها من التوبيخ على التقول على الله سبحانه كما فى قوله عز وجل قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون ﴿ بلى ﴾ إلى آخره جواب عن قولهم المحكى وإبطال له من جهته تعالى وبيان لحقيقة الحال تفصيلا فى ضمن تشريع كلى شامل لهم ولسائر الكفرة بعد إظهار كذبهم إجمالا وتفويض ذلك إلى النبى صلى الله عليه وسلم لما أن المحاجة والإلزام من وظائفه عليه السلام مع ما فيه من الإشعار بأنه أمر هين لا يتوقف على التوقيف وبلى حرف إيجاب مختص بجواب النفى خبرا واستفهاما ﴿ من كسب سيئة ﴾ فاحشة من السيئات أى كبيرة من الكبائر كدأب هؤلاء الكفرة والكسب استجلاب النفع وتعليقه بالسيئة على طريقة فبشرهم بعذاب أليم ﴿ وأحاطت به ﴾ من جميع جوانبه بحيث لم يبق له جانب من قلبه ولسانه وجوارحه إلا وقد اشتملت واستولت عليه ﴿ خطيئته ﴾ التى كسبها وصارت خاصة من خواصه كما تنبىء عنه الإضافة إليه وهذا إنما يتحقق فى الكافر ولذلك فسرها السلف بالكفر حسبما أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس وأبى هريرة رضى الله عنهم وابن جرير عن أبى وائل ومجاهد وقتادة وعطاء والربيع وقيل السيئة الكفر والخطيئة الكبيرة وقيل بالعكس وقيل الفرق بينهما أن الأولى قد تطلق على ما يقصد بالذات والثانية تغلب على ما يقصد بالعرض لأنها من الخطأ وقرىء خطيته وخطياته على القلب والادغام فيهما وخطيئاته وخطاياه وفى ذلك إيذان بكثرة فنون كفرهم ﴿ فأولئك ﴾ مبتدأ ﴿ أصحاب النار ﴾ خبره والجملة خبر للمبتدأ والفاء لتضمنه معنى الشرط وإيراد اسم الإشارة المنبىء عن استحضار المشار إليه بماله من الأوصاف للإشعار بعليتها لصاحبية النار ومافيه من معنى البعد للتنبيه على بعد منزلتهم فى الكفر والخطايا وإنما أشير إليهم بعنوان الجمعية مراعاة لجانب المعنى فى كلمة من بعد مراعاة جانب اللفظ فى الضمائر الثلاثة لما أن ذلك هو المناسب لما أسند إليهم فى تينك الحالتين فإن كسب السيئة وأحاطت خطيتنا به فى حالة الانفراد وصاحبية النار فى حالة

الاجتماع أى أولئك الموصوفون بما ذكر من كسب السيئات وإحاطة خطاياهم بهم أصحاب النار أى ملازموها فى الآخرة حسب ملازمتهم فى الدنيا لما يستوجبها من الأسباب التى جماتها ماهم عليه من تكذيب آيات الله تعالى وتحريف كلامه والافتراء عليه وغير ذلك وإنما لم يخص الجواب بحالهم بأن يقال مثلا بلى إنهم أصحاب النار الخ لما فى التعميم من التهويل وبيان حالهم بالبرهان والدليل مع ما مر من قصد الإشعار بالتعليل ﴿ هم فيها خالدون ﴾ دائما أبدا فأنى لهم التفصى عنها بعد سبعة أيام أو أربعين كما زعموا فلا حجة فى الآية الكريمة على خلود صاحب الكبيرة لما عرفت من اختصاصها بالكافر ولا حاجة إلى حمل الخلود على اللبث الطويل على أن فيه تهوين الخطب فى مقام التهويل ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ جرت السنة الإلهية على شفع الوعد بالوعيد مراعاة لما تقتضيه الحكمة فى إرشاد العباد من الترغيب تارة والترهيب أخرى ، والتبشير مرة والإنذار أخرى (وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل) شروع فى تعداد بعض آخر من قبائح أسلاف اليهود مما ينادى بعدم إيمان أخلافهم وكلمة إذ نصب بإضمار فعل خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ليؤديهم التأمل فى أحوالهم إلى قطع الطمع عن إيمانهم أو اليهود الموجودون فى عهد النبوة توبيخا لهم بسوء صنيع أسلافهم أى اذكروا إذ أخذنا ميثاقهم ﴿ لاتعبدون إلا الله ﴾ على إرادة القول أى وقلنا أو قائلين لاتعبدون إلخ وهو إخبار فى معنى النهى كقوله تعالى ولا يضار كاتب ولا شهيد وكما تقول تذهب إلى فلان وتقول كيت وكيت وهو أبلغ من صريح النهى لما فيه من إيهام أن المنهى حقه أن يسارع إلى الانتهاء عما نهى عنه فكأنه انتهى عنه فيخبر به الناهى ويؤيده قراءة لاتعبدوا وعطف قولوا عليه وقيل تقديره أن لاتعبدوا إلخ فحذف الناصب ورفع الفعل كما فى قوله :

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى
وأن أشهد اللذات ، هل أنت مخلدى ؟

ويعضده قراءة ألا تعبدوا فيكون بدلا من الميثاق أو معمولا له بحذف الجار وقيل إنه جواب قسم دل عليه المعنى كأنه قيل وحلفناهم لاتعبدون إلاالله وقرىء بالياء لأنهم غيب ﴿وبالوالدين إحسانا﴾ متعلق بمضمر أى وتحسنوا أو وأحسنوا ﴿وذى القربى واليتامى والمساكين﴾ عطف على الوالدين ويتامى جمع يتيم كندامى جمع نديم ، وهو قليل ومسكين مفعيل من السكون كان الفقر أسكنه من الحراك وأثخنه عن التقلب ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ أى قولا حسنا سماه حسناً مبالغة وقرىء كذلك وحسناً بضمتين ، وهى لغة أهل الحجاز وحسنى كبشرى والمراد به مافيه تخلق وإرشاد .

﴿وأقيموا الصلوة وآتوا الزكوة﴾ هما مافرض عليهم فى شريعتهم ﴿ثم توليتم﴾ أن جعل ناصب الظرف خطابا للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فهذا التفات إلى خطاب بنى إسرائيل جميعاً بتغليب أخلافهم على أسلافهم لجريان ذكر كلهم حينئذ على نهج الغيبة فإن الخطابات السابقة لأسلافهم محكية داخلة فى حين القول المقدر قبل لاتعبدون كأنهم استحضروا عند ذكر جناياتهم فنعيت هى عليهم ، وإن جعل خطابا لليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا تعميم للخطاب بتنزيل الأسلاف منزلة الأخلاف كما أنه تعميم للتولى بتنزيل الأخلاف منزلة الأسلاف للتشديد فى التوبيخ أى أعرضتم عن المضى على مقتضى الميثاق ورفضتموه ﴿إلا قليلا منكم﴾ وهم من الأسلاف من أقام اليهودية على وجهها قبل النسخ ومن الأخلاف من أسلم كعبد الله بن سلام وأضرابه ﴿وأنتم معرضون﴾ جملة تذييلية أى وأنتم قوم عادتكم الإعراض عن الطاعة ومراعاة حقوق الميثاق ، وأصل الإعراض الذهاب عن المواجهة والإقبال إلى جانب العرض ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾ منصوب بفعل مضمر خوطب به اليهود قاطبة على ما ذكر من التغليب ونعى عليهم إخلالهم بمواجب الميثاق المأخوذ منهم فى حقوق العباد على طريقة النهى إثر بيان مافعلوا بالميثاق المأخوذ منهم فى حقوق الله سبحانه وما يجرى مجراه على سبيل الأمر فإن المقصود الأصلى من النهى عن عبادة غير الله تعالى هو الأمر بتخصيص العبادة

به تعالى أى واذكروا وقت أخذنا ميثاقكم فى التوراة وقوله تعالى ﴿لاتسفكون دماءكم ولاتخرجون أنفسكم من دياركم﴾ كما قبله إخبار فى معنى النهى غير السبك لما ذكر من نكتة المبالغة والمراد به النهى الشديد عن تعرض بعض بنى إسرائيل لبعض بالقتل والإجلاء والتعبير عن ذلك بسفك دماء أنفسهم وإخراجها من ديارهم بناء على جريان كل واحد منهم مجرى أنفسهم لما بينهم من الاتصال القوى نسبا ودينا للمبالغة فى الحمل على مراعاة حقوق الميثاق بتصوير المنهى عنه بصورة تكرهها كل نفس وتنفر عنها كل طبيعة فضمير أنفسكم للمخاطبين حتما إذ به يتحقق تنزيل المخرجين منزلتهم كما أن ضمير دياركم للمخرجين قطعا إذ المحذور إنما هو إخراجهم من ديارهم لامن ديار المخاطبين من حيث أنهم مخاطبون كما يفصح عنه ماسيأتى من قوله تعالى من ديارهم وإنما الخطاب ههنا باعتبار تنزيل ديارهم منزلة ديار المخاطبين بناء على تنزيل أنفسهم منزلتهم لتأكيد المبالغة وتشديد التشنيع ، وأما ضمير دماءكم فمحتمل للوجهين مفاد الأول كون المسفوك دماء ادعائية للمخاطبين حقيقة ومفاد الثانى كونه دماء حقيقية للمخاطبين ادعاء وهما متقاربان فى إفادة المبالغة فتدبر ، وأما ماقيل من أن المعنى لاتباشروا ما يؤدى إلى قتل أنفسكم قصاصا ، أو ما يبيح سفك دمائكم وإخراجكم من دياركم ويصرفكم عن دياركم أو لا تفعلوا ما يرديكم ويصرفكم عن الحياة الأبدية فإنه القتل فى الحقيقة ولاتقترفوا ماتحرمون به عن الجنة التى هى داركم فإنه الجلاء الحقيقى فمما لا يساعده سياق النظم الكريم بل هو نص فيما قلناه كما ستقف عليه ﴿ثم أقررتم﴾ أى بالميثاق وما يوجب المحافظة عليه ، ﴿وأنتم تشهدون﴾ توكيد للإقرار كقولك أقر فلان شاهداً على نفسه ، وقيل وأنتم أيها الحاضرون تشهدون اليوم على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق ، ﴿ثم أنتم هؤلاء﴾ خطاب خاص بالحاضرين فيه توبيخ شديد واستبعاد قوى لما ارتكبوه بعد ما كان من الميثاق والإقرار به والشهادة عليه وأنتم مبتدأ وهؤلاء خبره ومناط الإفادة اختلاف الصفات المنزلة منزلة اختلاف الذات والمعنى أنتم بعد ذلك هؤلاء المشاهدون الناقضون المتناقضون حسبما تعرب عنه الجمل الآتية

فإن قوله عز وجل ﴿تقتلون أنفسكم﴾ الخ بيان له وتفصيل لأحوالهم المنكرة المندرجة تحت الإشارة ضمنا كأنهم قالوا كيف نحن فقيل تقتلون أنفسكم أى الجارين مجرى أنفسكم كما أشير إليه وقرىء تقتلون بالتشديد للتكثير ﴿وتخرجون فريقا منكم﴾ الضمير، إما للمخاطبين والمضاف محذوف أى من أنفسكم، وإما للمقتولين والخطاب باعتبار أنهم جعلوا أنفس المخاطبين وإلا فلا يتحقق التكافؤ بين المقتولين والمخرجين فى ذلك العنوان الذى عليه يدور فلك المبالغة فى تأكيد الميثاق حسبما نص عليه ولا يظهر كمال قباحة جناياتهم فى نقضه ﴿من ديارهم﴾ الضمير للفريق وإيثار الغيبة مع جواز الخطاب أيضا بناء على اعتبار العنوان المذكور كما مر فى الميثاق للاحتراز عن توهم كون المراد إخراجهم من ديار المخاطبين من حيث هى ديارهم لا من حيث هى ديار المخرجين، وقيل هؤلاء موصول والجملتان فى حيز الصلة والمجموع هو الخبر لأنتم ﴿تظاهرون عليهم﴾ بحذف إحدى التاءين وقرىء بإثباتهما وبالإدغام وتظهرون بطرح إحدى التاءين من تتظهرون ومعنى الكل تتعاونون وهى حال من فاعل تخرجون أو من مفعوله أو منهما جميعاً مبينة لكيفية الإخراج دافعة لتوهم اختصاص الحرمة بالإخراج بطريق الأصالة والاستقلال دون المظاهرة والمعاونة ﴿بالإثم﴾ متعلق بتظاهرون حال من فاعله أى ملتبسين بالإثم وهو الفعل الذى يستحق فاعله الذم واللوم وقيل هو ما ينفر عنه النفس ولا يطمئن إليه القلب ﴿والعدوان﴾ وهو التجاوز فى الظلم ﴿وإن يأتوكم أسارى﴾ جمع أسير وهو من يؤخذ قهرا فعيل بمعنى مفعول من الأسر أى الشد أو جمع أسرى وهو جمع أسير كجرحى وجريح، وقد قرىء أسرى ومحله النصب على الحالية ﴿تفادوهم﴾ أى تخرجوهم من الأسر باعطاء الفداء وقرىء تفدوهم قال السدى إن الله تعالى أخذ على بنى إسرائيل فى التوراة الميثاق أن لا يقتل بعضهم بعضاً ولا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم وأيما عبد أو أمة وجدتموه من بنى إسرائيل فاشتروه وأعتقوه، وكانت قريظة حلفاء الأوس والنضير حلفاء الخزرج حتى كان بينهما ما كان من العداوة والشنآن فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه

فإذا غلبوا خربوا ديارهم وأخرجوهم منها ثم إذا أسر رجل من الفريقين جمعوا له مالا فيفدونه فعيرتهم العرب وقالت كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم فيقولون أمرنا أن نفديهم وحرم علينا قتالهم ، ولكن نستحي أن نذل حلفاءنا فذمهم الله تعالى على المناقضة ﴿ وهو محرم عليكم إخراجهم ﴾ ضمير الشأن وقع مبتدأ ومحرم فيه ضمير قائم مقام الفاعل وقع خبرا عن إخراجهم والجملة خبر لضمير الشأن وقيل محرم خبر لضمير الشأن وإخراجهم مرفوع على أنه مفعول ما لم يسم فاعله وقيل الضمير مبهم تفسيره إخراجهم أو راجع إلى مايدل عليه تخرجون من المصدر ، وإخراجهم تأكيد أو بيان والجملة حال من الضمير فى تخرجون أو من فريقاً أومنهما كما من بعد اعتبار القيد بالحال السابقة وتخصيص بيان الحرمة ههنا بالإخراج مع كونه قرينا للقتل عند أخذ الميثاق لكونه مظنة للمساهلة فى أمره بسبب قلة خطره بالنسبة إلى القتل ، ولأن مساق الكلام لذمهم وتوبيخهم على جناياتهم وتناقض أفعالهم معا وذلك مختص بصورة الإخراج حيث لم ينقل عنهم تدارك القتلى بشيء من دية أو قصاص هو السر فى تخصيص التظاهر به فيما سبق ، وأما تأخيره من الشرطية المعترضة مع أن حقه التقديم كما ذكره الواحدى فلأن نظم أفاعيلهم المتناقضة فى سمط واحد من الذكر أدخل فى إظهار بطلانها ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب ﴾ أى التورة التى أخذ فيها الميثاق المذكور والهمزة للإنكار التوبيخى والفاء للعطف على مقدر يستدعيه المقام أى أتفعلون ذلك فتؤمنون ببعض الكتاب ، وهو المفاداة ﴿ وتكفرون ببعض ﴾ وهو حرمة القتال والإخراج مع أن من قضية الإيمان ببعضه الإيمان بالباقى لكون الكل من عند الله تعالى داخلا فى الميثاق فمناط التوبيخ كفرهم بالبعض مع إيمانهم بالبعض حسبما يفيده ترتيب النظم الكريم فإن التقديم يستدعى فى المقام الخطابى أصالة المقدم وتقدمه بوجه من الوجوه حتما وإذ ليس ذلك ههنا باعتبار الإنكار والتوبيخ عليه وهو باعتبار الوقوع قطعاً لا إيمانهم بالبعض مع كفرهم بالبعض كما هو المفهوم لو قيل أفتكفرون ببعض الكتاب وتؤمنون ببعض ولا مجرد كفرهم

بالبعض ، وإيمانهم بالبعض كما يفيده أن يقال أفتجمعون بين الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض أو بالعكس .

﴿ فما جزاء من يفعل ذلك ﴾ ما نافية ومن إن جعلت موصولة فلا محل ليفعل من الإعراب وإن جعلت موصوفة فمحله الجر على أنه صفتها وذلك إشارة إلى الكفر ببعض الكتاب مع الإيمان ببعض أو إلى مافعلوا من القتل والإجلاء مع مفاداه الأسارى ﴿ منكم ﴾ حال من فاعل يفعل ﴿ إلا خزى ﴾ استثناء مفرغ وقع خبراً المبتدأ والخزى الذل والهوان مع الفضيحة والتنكير للتفخيم وهو قتل بنى قريظة وإجلاء بنى النضير إلى أذرعات وأريحاء من الشام وقيل الجزية ﴿ فى الحيوة الدنيا ﴾ فى حيز الرفع على أنه صفة خزى أى خزى كائن فى الحياة الدنيا أو فى حيز النصب على أنه ظرف الخزى ولعل بيان جزائهم بطريق القصر على ما ذكر لقطع أطماعهم الفارغة من ثمرات إيمانهم ببعض الكتاب وإظهار أنه لا أثر له أصلا مع الكفر ببعض ﴿ ويوم القيامة يردون ﴾ وقرىء بالتاء أوثر صيغة الجمع نظرا إلى معنى من بعد ماأوثر الإفراد نظرا إلى لفظها لما أن الرد إنما يكون بالاجتماع ﴿ إلى أشد العذاب ﴾ لما أن معصيتهم أشد المعاصى وقيل أشد العذاب بالنسبة إلى ما لهم فى الدنيا من الخزى والصغار وإنما غير سبك النظم الكريم حيث لم يقل مثلا وأشد العذاب يوم القيامة للإيذان بكمال التنافى بين جزاءى النشأتين وتقديم يوم القيامة على ذكر ما يقع فيه لتهويل الخطب وتفظيع الحال من أول الأمر ، ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ من القبائح التى من جملتها هذا المنكر وقرىء بالياء على نهج يردون وهو تأكيد للوعيد ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما ذكر من الأوصاف القبيحة وهو مبتدأ خبره وقوله تعالى ﴿ الذين اشتروا ﴾ أى آثروا ﴿ الحياة الدنيا ﴾ واستبدلوها ﴿ بالآخرة ﴾ وأعرضوا عنها مع تمكنهم من تحصيلها فإن ما ذكر من الكفر ببعض أحكام الكتاب إنما كان لمراعاة جانب حلفائهم لما يعود إليهم منهم من بعض المنافع الدينية والدنيوية ﴿ فلا يخفف عنهم العذاب ﴾ دنيويا كان أو أخرويا ﴿ ولا هم ينصرون ﴾

بدفعه عنهم شفاعة أو جبرا والجملة معطوفة على ما قبلها عطف الاسمية على الفعلية أو ينصرون مفسر لمحذوف قبل الضمير فيكون من عطف الفعلية على مثلها ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ شروع فى بيان بعض آخر من جناياتهم وتصديره بالجملة القسمية لإظهار كمال الاعتناء به والمراد بالكتاب التوراة ، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن التوراة لما نزلت جملة واحدة أمر الله تعالى موسى عليه السلام بحملها فلم يطق ذلك فبعث الله بكل حرف منها ملكا فلم يطيقوا حملها فخففها الله تعالى لموسى فحملها ﴿ وقفينا من بعده بالرسل ﴾ يقال قفاه به إذا أتبعه إياه أى أرسلناهم على أثره كقوله تعالى (ثم أرسلنا رسلنا تترى) وهم يوشع وأشمويل وشمعون وداود وسليمان وشعيا وأرميا وعزير وحزقيل وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى وغيرهم عليهم الصلاة والسلام ﴿ وآتينا عيسى ابن مريم البينات ﴾ المعجزات الواضحات من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار بالمغيبات أو الإنجيل وعيسى بالسريانية إيشوع ومعناه المبارك ومريم بمعنى الخادم وهو بالعبرية من النساء كالزير من الرجال وبه فسر قول رؤبة :

قلت لزير لم تصله مريمه   ضليل أهواء الصبا تندمه

ووزنه مفعل إذ لم يثبت فعيل ﴿ وأيدناه ﴾ وقرىء وآيدناه ﴿ بروح القدس ﴾ بضم الدال وقرىء بسكونها أى بالروح المقدسة وهى روح عيسى عليه السلام كقولك حاتم الجود ورجل صدق وإنما وصفت بالقدس لكرامته أو لأنه عليه السلام لم تضمه الأصلاب ولا أرحام الطوامث وقيل بجبريل عليه السلام وقيل بالإنجيل كما قيل فى القرآن روحا من أمرنا وقيل باسم الله الأعظم الذى يحيى الموتى بذكره وتخصيصه من بين الرسل عليهم السلام بالذكر ووصفه بما ذكر من إيتاء البينات والتأييد بروح القدس لما أن بعثتهم كانت لتنفيذ أحكام التوراة وتقريرها وأما عيسى عليه السلام فقد نسخ بشرعه كثير من أحكامها ولحسم مادة اعتقادهم الباطل فى حقه عليه السلام ببيان حقيقته وإظهار كمال قبح ما فعلوا به عليه السلام

﴿أفكلما جاءكم رسول﴾ من أولئك الرسل ﴿بما لاتهوى أنفسكم﴾ من الحق الذى لا محيد عنه أى لا تحبه من هوى كفرح إذا أحب والتعبير عنه بذلك للإيذان بأن مدار الرد والقبول عندهم هو المخالفة لأهواء أنفسهم والموافقة لها لاشىء آخر وتوسيط الهمزة بين الفاء وما تعلقت به من الأفعال السابقة لتوبيخهم على تعقيبهم ذلك أو للتعجب من شأنهم ويجوز كون الفاء للعطف على مقدر يناسب المقام أى ألم تطيعوهم فكلما جاءكم رسول منهم بما لاتهوى أنفسكم ﴿استكبرتم﴾ عن الاتباع له والإيمان بما جاء به من عند الله تعالى ﴿ففريقا﴾ منهم ﴿كذبتم﴾ من غير أن تتعرضوا لهم بشىء آخر من المضار والفاء للسببية أو للتعقيب ﴿وفريقا﴾ آخر منهم ﴿تقتلون﴾ غير مكتفين بتكذيبهم كزكريا ويحيي عليهما السلام وتقديم فريقا فى الموضعين للاهتمام وتشويق السامع إلى ما فعلوا بهم لا للقصر وإيثار صيغة الاستقبال فى القتل لاستحضار صورته الهائلة أو للإيماء إلى أنهم بعد على تلك النية حيث هموا بما لم ينالوه من جهته عليه السلام وسحروه وسموا له الشاة حتى قال صلى الله عليه وسلم: «ما زالت أكلة خيبر تعاودنى فهذا أوان قطعت أبهرى» ﴿وقالوا﴾ بيان لفن آخر من قبائحهم على طريق الالتفات إلى الغيبة إشعارا بإبعادهم عن رتبة الخطاب لما فصل من مخازيهم الموجبة للإعراض عنهم وحكاية نظائرها لكل من يفهم بطلانها وقباحتها من أهل الحق والقائلون هم الموجودون فى عصر النبي عليه الصلاة والسلام ﴿قلوبنا غلف﴾ جمع أغلف الذى لم يختن أى مغشاة بأغشية جبلية لايكاد يصل إليها ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ولا تفقهه كقولهم قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وقيل هو تخفيف غلف جمع غلاف ويؤيده ما روى عن أبى عمرو من القراءة بضمتين يعنون أن قلوبنا أوعية للعلوم فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره قاله ابن عباس وعطاء وقال الكلبي يعنون أن قلوبنا لا يصل إليها حديث إلا وعته ولو كان فى حديثك خير لوعته أيضا ﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾ رد لما قالوه وتكذيب لهم فى ذلك والمعنى على الأول بل أبعدهم الله سبحانه عن رحمته بأن خذلهم

وخلاهم وشأنهم بسبب كفرهم العارض وإبطالهم لاستعدادهم بسوء اختيارهم بالمرة وكونهم بحيث لا ينفعهم الإلطاف أصلا بعد أن خلقهم على الفطرة والتمكن من قبول الحق وعلى الثانى بل أبعدهم من رحمته فأنى لهم ادعاء العلم الذى هو أجل آثارها وعلى الثالث بل أبعدهم من رحمته فلذلك لايقبلون الحق المؤدى إليها ﴿فقليلا ما يؤمنون﴾ ما مزيدة للمبالغة أى فإيمانا قليلا يؤمنون وهو إيمانهم ببعض الكتاب وقيل فزمانا قليلا يؤمنون وهو ما قالوا آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره وكلاهما ليس بإيمان حقيقة وقيل أريد بالقلة العدم والفاء لسببية اللعن لعدم الإيمان ﴿ولما جاءهم كتاب﴾ من القرآن وتنكيره للتفخيم ووصفه بقوله عز وجل ﴿من عند الله﴾ أى كائن من عنده تعالى للتشريف ﴿مصدق لما معهم﴾ من التوراة عبر عنها بذلك لما أن المعية من موجبات الوقوف على ما فى تضاعيفها المؤدى إلى العلم بكونه مصدقا لها وقرىء مصدقا على أنه حال من كتاب لتخصصه بالوصف ﴿وكانوا من قبل﴾ أى من قبل مجيئه ﴿يستفتحون على الذين كفروا﴾ أى وقد كانوا قبل مجيئه يستفتحون به على المشركين ويقولون اللهم انصرنا بالنبى المبعوث فى آخر الزمان الذى نجد نعته فى التوراة ويقولون لهم قد أظل زمان نبى يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم قال ابن عباس وقتادة والسدى نزلت فى بنى قريظة والنضير كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه وقيل معنى يستفتحون يفتحون عليهم ويعرفونهم بأن نبيا يبعث منهم قد قرب أوانه والسين للمبالغة كما فى استعجب أى يسألون من أنفسهم الفتح عليهم أو يسأل بعضهم بعضا أن يفتح عليهم وعلى التقديرين فالجملة حالية مفيدة لكمال مكابرتهم وعنادهم وقوله عز وعلا ﴿فلما جاءهم﴾ تكرير للأول لطول العهد بتوسط الجملة الحالية وقوله تعالى ﴿ما عرفوا﴾ عبارة عما سلف من الكتاب لأن معرفة من أنزل هو عليه معرفة له والاستفتاح به استفتاح به وإيراد الموصول دون الاكتفاء بالإضمار لبيان كمال مكابرتهم فإن معرفة ما جاءهم من مبادىء

الإيمان به ودواعيه لامحالة والفاء للدلالة على تعقيب مجيئه للاستفتاح به من غير أن يتخلل بينهما مدة منسية له وقوله تعالى : ﴿ كفروا به ﴾ جواب لما الأولى كما هو رأى المبرد أو جوابهما معا كما قاله أبو البقاء وقيل جواب الأولى محذوف لدلالة المذكور عليه فيكون قوله تعالى وكانوا الخ جملة معطوفة على الشرطية عطف القصة على القصة والمراد بما عرفوا النبي صلى الله عليه وسلم ، كما هو المراد بما كانوا يستفتحون به فالمعنى ولما جاءهم كتاب مصدق لكتابهم كذبوه وكانوا من قبل مجيئه يستفتحون بمن أنزل عليه ذلك الكتاب فلما جاءهم النبي الذى عرفوه كفروا به ﴿ فلعنة الله على الكافرين ﴾ اللام للعهد أى عليهم ووضع المظهر موضع المضمر للإيذان بأن حلول اللعنة بسبب كفرهم كما أن الفاء للإيذان بترتبها عليه أو للجنس وهم داخلون فى الحكم دخولا أوليا إذ الكلام فيهم وأيا ما كان فهو محقق لمضمون قوله تعالى بل لعنهم الله بكفرهم ﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم ﴾ ما نكرة بمعنى شىء منصوبة مفسرة لفاعل بئس واشتروا صفته أو بئس شيئا باعوا به أنفسهم وقيل اشتروها به فى زعمهم حيث يعتقدون أنهم بما فعلوا خلصوها من العقاب ويأباه أنه لابد أن يكون المذموم ما كان حاصلا لهم لا ما كان زائلا عنهم والمخصوص بالذم قوله تعالى ﴿ أن يكفروا بما أنزل الله ﴾ أى الكتاب المصدق لما معهم بعد الوقوف على حقيقته وتبديل الإنزال بالمجىء للإيذان بعلو شأنه الموجب للإيمان به ﴿ بغيا ﴾ حسدا وطلبا لما ليس لهم وهو علة لأن يكفروا حتما دون اشتروا لما قيل من الفصل بما هو أجنبي بالنسبة إليه وإن لم يكن أجنبيا بالنسبة إلى فعل الذم وفاعله ولأن البغى مما لاتعلق له بعنوان البيع قطعا لاسيما وهو معلل بما سيأتى من تنزيل الله تعالى من فضله على من يشاؤه وإنما الذى بينه وبينه علاقة هو كفرهم بما أنزل الله والمعنى بئس شيئا باعوا به أنفسهم كفرهم المعلل بالبغى الكائن لأجل ﴿ أن ينزل الله من فضله ﴾ الذى هو الحى ﴿ على من يشاء ﴾ أى يشاؤه ويصطفيه ﴿ من عباده ﴾ المستأهلين لتحمل أعباء الرسالة ومآله تعليل كفرهم بالمنزل عليه وإيثار

صيغة التفعيل ههنا للإيذان بتجدد بغيهم حسب تجدد الإنزال وتكثره حسب تكثره ﴿ فباؤا بغضب على غضب ﴾ أى رجعوا ملتبسين بغضب كائن على غضب مستحقين له حسب ما اقترفوا من كفر على كفر فإنهم كفروا بنبى الحق وبغوا عليه وقيل كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام بعد عيسى وقيل بعد قولهم عزير ابن الله وقولهم يد الله مغلولة وغير ذلك من فنون كفرهم ﴿ وللكافرين ﴾ أى لهم والإظهار فى موقع الإضمار للإشعار بعلية كفرهم لما حاق بهم ﴿ عذاب مهين ﴾ يراد به إهانتهم وإذلالهم لما أن كفرهم بما أنزل الله تعالى كان مبنيا على الحسد المبنى على طمع المنزول عليهم وادعاء الفضل على الناس والاستهانة بمن أنزل عليه السلام ﴿ وإذا قيل ﴾ من جانب المؤمنين ﴿ لهم ﴾ أى لليهود وتقديم الجار والمجرور قد مر وجهه لا سيما فى لام التبليغ ﴿ آمنوا بما أنزل الله ﴾ من الكتب الإلهية جميعا والمراد به الأمر بالإيمان بالقرآن لكن سلك مسلك التعميم إيذانا بتحتم الامتثال من حيث مشاركته لما آمنوا به فيما فى حيز الصلة وموافقته له فى المضمون وتنبيها على أن الإيمان بما عداه من غير إيمان به ليس بإيمان بما أنزل الله ﴿ قالوا نؤمن ﴾ أى نستمر على الإيمان ﴿ بما أنزل علينا ﴾ يعنون به التوراة وما نزل على أنبياء بنى إسرائيل لتقرير حكمها ويدسون فيه أن ما عدا ذلك غير منزل عليهم ومرادهم بضمير المتكلم إما أنفسهم فمعنى الإنزال عليهم تكليفهم بما فى المنزل من الأحكام وإما أنبياء بنى إسرائيل وهو الظاهر لاشتماله على مزية الإيذان بأن عدم إيمانهم بالفرقان لما مر من بغيهم وحسدهم على نزوله على من ليس منهم ولأن مرادهم بالموصول وإن كان هو التوراة وما فى حكمها خاصة لكن إيرادها بعنوان الإنزال عليهم مبنى على ادعاء أن ما عداها ليس كذلك على وجه التعريض كما أشير إليه فلو أريد بالإنزال عليهم ما ذكر من تكليفهم يلزم من مغايرة القرآن لما أنزل عليهم حسبما يعرب عنه قوله عز وجل ﴿ ويكفرون بما وراءه ﴾ عدم كونهم مكلفين بما فيه كما يلزم عدم كونه نازلا على واحد من بنى إسرائيل على الوجه الأخير

وتجريد الموصول عند الإضمار عما عرضوا به تعسف لا يخفى والوراء فى الأصل مصدر جعل ظرفا ويضاف إلى الفاعل فيراد به ما يتوارى به وهو خلفه وإلى المفعول فيراد به ما يواريه وهو أمامه والجملة حال من ضمير قالوا بتقدير مبتدأ أى قالوا ما قالوا وهم يكفرون بما عداه وليس المراد بمجرد بيان أن إفراد إيمانهم بما أنزل عليهم بالذكر لنفى إيمانهم بما وراءه بل بيان أن ما يدعون من الإيمان ليس بإيمان بما أنزل عليهم حقيقة فإن قوله عز اسمه ﴿وهو الحق﴾ أى المعروف بالحقيقة بأن يخص به اسم الحق على الإطلاق حال من فاعل يكفرون وقوله تعالى ﴿مصدقا﴾ حال مؤكدة لمضمون الجملة صاحبها إما ضمير الحق وعاملها ما فيه من معنى الفعل قاله أبو البقاء وإما ضمير دل عليه الكلام وعاملها فعل مضمر أى أحقه مصدقا ﴿لما معهم﴾ من التوراة والمعنى قالوا نؤمن بما أنزل علينا وهم يكفرون بالقرآن والحال أنه حق مصدق لما آمنوا به فيلزمهم الكفر بما آمنوا به ومآله أنهم ادعوا الإيمان بالتوراة والحال أنهم يكفرون بما يلزم من الكفر به الكفر بها ﴿قل﴾ تبكيتا لهم من جهة الله عز من قائل ببيان التناقض بين أقوالهم وأفعالهم بعد بيان التناقض فى أقوالهم ﴿فلم﴾ أصله لما حذفت عنه الألف فرقا بين الاستفهامية والخبرية ﴿تقتلون أنبياء الله من قبل﴾ الخطاب للحاضرين من اليهود والماضين على طريق التغليب وحيث كانوا مشاركين فى العقد والعمل كان الاعتراض على أسلافهم اعتراضا على أخلافهم وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية وهو جواب شرط محذوف أى قل لهم إن كنتم مؤمنين بالتوراة كما تزعمون فلأى شىء كنتم تقتلون أنبياء الله من قبل وهو فيها حرام وقرىء أنبياء الله مهموزا وقوله تعالى ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ تكرير للاعتراض لتأكيد الإلزام وتشديد التهديد أى إن كنتم مؤمنين فلم تقتلونهم وقد حذف من كل واحدة من الشرطيتين ما حذف ثقة بما أثبت فى الأخرى وقيل لا حذف فيه بل تقديم الجواب على الشرط وذلك لا يتأتى إلا على رأى الكوفيين وأبى زيد وقيل إن نافية أى ما كنتم مؤمنين وإلا لما قتلتموهم

﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات﴾ من تمام التبكيت والتوبيخ داخل تحت الأمر لا تكرير لما قص فى تضاعيف تعداد النعم التى من جملتها العفو عن عبادة العجل واللام للقسم أى وبالله لقد جاءكم موسى ملتبسا بالمعجزات الظاهرة التى هى العصا واليد والسنون ونقص الثمرات والدم والطوفان والجراد والقمل والضفادع وفلق البحر وقد عد منها التوراة وليس بواضح فإن المجىء بها بعد قصة العجل ﴿ثم اتخذتم العجل﴾ أى إلها ﴿من بعده﴾ أى من بعد مجيئه بها وقيل من بع ذهابه إلى الطور فتكون التوراة حينئذ من جملة البينات وثم للتراخى فى الرتبة والدلالة على نهاية قبح ماصنعوا ﴿وأنتم ظالمون﴾ حال من ضمير اتخذتم بمعنى اتخذتم العجل ظالمين بعبادته واضعين لها فى غير موضعها أو بالإخلال بحقوق آيات الله تعالى أو اعتراض أى وأنتم قوم عادتكم الظلم ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾ توبيخ من جهة الله تعالى وتكذيب لهم فى ادعائهم الإيمان بما أنزل عليهم بتذكير جناياتهم الناطقة بكذبهم أى واذكروا حين أخذنا ميثاقكم ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾ قائلين ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا﴾ أى خذوا بما أمرتم به فى التوراة واسمعوا مافيها سمع طاعة وقبول ﴿قالوا﴾ استئناف مبنى على سؤال سائل كأنه قيل فماذا قالوا فقيل قالوا ﴿سمعنا﴾ قولك ﴿وعصينا﴾ أمرك فإذا قابل أسلافهم مثل ذلك الخطاب المؤكد مع مشاهدتهم مثل تلك المعجزة الباهرة بمثل هذه العظيمة الشنعاء وكفروا بما فى تضاعيف التوبة فكيف يتصور من أخلاقهم الإيمان بما فيها .

﴿وأشربوا فى قلوبهم العجل﴾ على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه للمبالغة أى تداخلهم حبه ورسخ فى قلوبهم صورته لفرط شغفهم به وحرصهم على عبادته كما يتداخل الصبغ الثوب والشراب أعماق البدن ، وفى قلوبهم بيان لمكان الإشراب كما فى قوله تعالى (إنما يأكلون فى بطونهم نارا) والجملة حال من ضمير قالوا بتقدير قد ﴿بكفرهم﴾ بسبب كفرهم السابق الموجب

لذلك قيل كانوا مجسمة أو حلولية ، ولم يروا جسما أعجب منه فتمكن فى قلوبهم ماسول لهم السامرى ﴿قل﴾ توبيخا لحاضرى اليهود إثر مابين أحوال رؤسائهم الذين بهم يقتدون فى كل مايأتون وما يذرون ﴿بئسما يأمركم به إيمانكم﴾ بما أنزل عليكم من التوراة حسبما تدعون والمخصوص بالذم محذوف أى ما ذكر من قولهم سمعنا وعصينا وعبادتهم العجل ، وفى إسناد الأمر إلى الإيمان تهكم بهم وإضافة الإيمان إليهم للإيذان بأنه ليس بإيمان حقيقة كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ فإنه قدح فى دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم من التوراة وإبطال لها وتقريره إن كنتم مؤمنين بها عاملين فيما ذكر من القول والعمل بما فيها فبئسما يأمركم به إيمانكم بها وإذ لايسوغ الإيمان بها مثل تلك القبائح فلستم بمؤمنين بها قطعاً وجواب الشرط كما ترى محذوف لدلالة ماسبق عليه ﴿قل﴾ كرر الأمر مع قرب العهد بالأمر السابق لما أنه أمر بتبكيتهم وإظهار كذبهم فى فن آخر من أباطيلهم لكنه لم يحك عنهم قبل الأمر بإبطاله بل اكتفى بالإشارة إليه فى تضاعيف الكلام حيث قيل ﴿إن كانت لكم الدار الآخرة﴾ اى الجنة أو نعيم الدار الآخرة ﴿عند الله خالصة﴾ أى سالمة لكم خاصة بكم كما تدعون انه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ونصبها على الحالية من الدار وعند ظرف للاستقرار فى الخبر أعنى لكم وقوله تعالى : ﴿من دون الناس﴾ فى محل النصب بخالصة يقال خلص لى كذا من كذا واللام للجنس أى الناس كافة أو للعهد أى المسلمين ﴿فتمنوا الموت﴾ فإن من أيقن بدخول الجنة اشتاق إلى التخلص إليها من دارة البوار وقرارة الأكدار لاسيما إذا كانت خالصة كما قال على كرم الله وجهه لا أبالى أسقطت على الموت أو سقط الموت على وقال عمار بن ياسر بصفين :

الآن ألقى الأحبه   محمداً وحزبه

وقال حذيفة بن اليمان حين احتضر وقد كان يتمنى الموت قبل :

جاء حبيب على فاقة   فلا أفلح اليوم من قد ندم

أى على التمنى وقوله تعالى : ﴿إن كنتم صادقين﴾ تكرير للكلام لتشديد

الإلزام وللتنبيه على أن ترتب الجواب ليس على تحقق الشرط فى نفس الأمر فقط بل فى اعتقادهم أيضا وأنهم قد ادعوا ذلك والجواب محذوف ثقة بدلالة ما سبق عليه أى إن كنتم صادقين فتمنوه وقوله تعالى : ﴿ ولن يتمنوه أبدا ﴾ كلام مستأنف غير داخل تحت الأمر سيق من جهته سبحانه لبيان ما يكون منهم من الإحجام عما دعوا إليه الدال على كذبهم فى دعواهم ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ بسبب ما عملوا من المعاصى الموجبة لدخول النار كالكفر بالنبى عليه السلام والقرآن وتحريف التوراة ولما كانت اليد من بين جوارح الإنسان مناط عامة صنائعه ومدار أكثر منافعه عبر بها تارة عن النفس وأخرى عن القدرة ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ أى بهم وإيثار الإظهار على الإضمار لذمهم والتسجيل عليهم بأنهم ظالمون فى جميع الأمور التى من جملتها ادعاء ما ليس لهم ونفيه عن غيرهم والجملة تذييل لما قبلها مقررة لمضمونه أى عليم بهم وبما صدر عنهم من فنون الظلم والمعاصى المفضية إلى أفانين العذاب وبما سيكون منهم من الاحتراز عما يؤدى إلى ذلك فوقع الأمر كما ذكر فلم يتمن منهم موته أحد إذ لو وقع ذلك لنقل واشتهر وعن النبى صلى الله عليه وسلم لو تمنوا الموت لغص كل إنسان بريقه فمات مكانه ، وما بقى يهودى على وجه الأرض ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس ﴾ من الوجدان العقلى ، وهو جار مجرى العلم خلا أنه مختص بما يقع بعد التجربة ونحوها ومفعولاه الضمير وأحرص والتنكير فى قوله تعالى ﴿ على حيوة ﴾ للإيذان بأن مرادهم نوع خاص منها وهى الحياة المتطاولة وقرىء بالتعريف ﴿ ومن الذين أشركوا ﴾ عطف على ماقبله بحسب المعنى كأنه قيل أحرص من الناس ومن الذين أشركوا وافرادهم بالذكر مع دخولهم فى الناس للايذان بامتيازهم من بينهم بشدة الحرص للمبالغة فى توبيخ اليهود فإن حرصهم وهم معترفون بالجزاء لما كان أشد من حرص المشركين المنكرين له دل ذلك على جزمهم بمصيرهم إلى النار ويجوز أن يحمل على حذف المعطوف ثقة بإنباء المعطوف عليه عنه أى وأحرص من الذين أشركوا فقوله تعالى ﴿ يود أحدهم ﴾ بيان لزيادة حرصهم على طريقة الاستئناف ويجوز أن يكون فى حيز الرفع صفة لمبتدأ محذوف خبره الظرف المتقدم على أن يكون المراد بالمشركين اليهود.

لقولهم عزير ابن الله أى ومنهم طائفة يود أحدهم أيهم كان أى كل واحد منهم ﴿لو يعمر ألف سنة﴾ وهو حكاية لودادتهم كأنه قيل ليتنى أعمر وإنما أجرى على الغيبة لقوله تعالى يود كما تقول حلف بالله ليفعلن ومحله النصب على أنه مفعول يود إجراء له مجرى القول لأنه فعل قلبى ﴿وما هو بمزحزحه من العذاب﴾ ما حجازية والضمير العائد على أحدهم اسمها وبمزحزحه خبرها والباء زائدة و﴿أن يعمر﴾ فاعل مزحزحه أى وما أحدهم بمن يزحزحه أى يبعده وينجيه من العذاب تعميره وقيل الضمير لما دل عليه يعمر من المصدر وأن يعمر بدل منه وقيل هو مبهم ، وأن يعمر مفسره والجملة حال من أحدهم والعامل يود لا يعمر على أنها حال من ضميره لفساد المعنى أو اعتراض وأصل سنة سنوة لقولهم سنوات وسنية وقيل سنهة كجبهة لقولهم سانهته وسنيهة وتسنهت النخلة إذا أتت عليها السنون ﴿والله بصير بما يعملون﴾ البصير فى كلام العرب العالم بكنه الشىء الخبير به ومنه قولهم فلان بصير بالفقه أى عليم بخفيات أعمالهم فهو مجازيهم بها لا محالة وقرىء بتاء الخطاب التفاتا وفيه تشديد للوعيد ﴿قل من كان عدوا لجبريل﴾ نزل فى عبد الله بن صوريا من أحبار فدك حاج رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله عمن نزل عليه بالوحى فقال عليه السلام جبريل عليه السلام فقال هو عدونا لو كان غيره لآمنا بك وفى بعض الروايات ورسولنا ميكائيل فلو كان هو الذى يأتيك لآمنا بك ، وقد عادانا مرارا وأشدها أنه أنزل على نبينا أن بيت المقدس سيخربه بخت نصر فبعثنا من يقتله فلقيه ببابل غلاما مسكينا فدفع عنه جبريل عليه السلام . وقال إن كان ربكم آمره بهلاككم فإنه لا يسلطكم عليه وإلا فبأى حق تقتلونه وقيل أمره الله تعالى أن يجعل النبوة فينا فجعلها فى غيرنا ، وروى أنه كان لعمر رضى الله عنه أرض بأعلى المدينة ، وكان ممره على مدارس اليهود فكان يجلس إليهم ويسمع كلامهم فقالوا يا عمر قد أحببناك وإنا لنطمع فيك فقال والله ما أجيئكم لحبكم ، ولا أسألكم لشك فى دينى وإنما أدخل عليكم لأزداد بصيرة فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، وأرى آثاره فى كتابكم ثم سألهم عن

جبريل عليه السلام فقالوا ذاك هو عدونا يطلع محمداً على أسرارنا وهو صاحب كل خسف وعذاب وميكائيل يجيء بالخصب والسلام فقال لهم : وما منزلتهما عند الله تعالى قالوا جبريل أقرب منزلة هو عن يمينه وميكائيل عن يساره وهما متعاديان فقال عمر رضى الله عنه إن كانا كما تقولون فما هما بعدوين ولأنتم أكفر من الحمير ، ومن كان عدوا لأحدهما فهو عدو للآخر ومن كان عدوا لهم كان عدوا لله سبحانه ثم رجع عمر فوجد جبريل عليه السلام قد سبقه بالوحى فقال النبى صلى الله عليه وسلم ، لقد وافقك ربك يا عمر فقال عمر رضى الله عنه ، لقد رأيتنى فى دينى بعد ذلك أصلب من الحجر وقرىء جبرئيل كسلسبيل وجبرئل كجحمرش وجبريل وجبرئل وجبرائيل كجبراعيل وجبرائل كجبراعل ومنع الصرف فيه للتعريف والعجمة ، وقيل معناه عبدالله ﴿فإنه نزله﴾ تعليل لجواب الشرط قائم مقامه والبارز الأول لجبريل عليه السلام والثانى للقرآن أضمر من غير ذكر إيذانا بفخامة شأنه واستغنائه عن الذكر لكمال شهرته ونباهته لاسيما عند ذكر شيء من صفاته ﴿على قلبك﴾ زيادة تقرير للتنزيل ببيان محل الوحى فإنه القابل الأول له ومدار الفهم والحفظ وإيثار الخطاب على التكلم المبنى على حكاية كلام الله تعالى بعينه كما فى قوله تعالى ﴿قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ لما فى النقل بالعبارة من زيادة تقرير لمضمون المقالة ﴿بإذن الله﴾ بأمره وتيسيره مستعار من تسهيل الحجاب وفيه تلويح بكمال توجه جبريل عليه السلام إلى تنزيله وصدق عزيمته عليه السلام وهو حال من فاعل نزله وقوله تعالى : ﴿مصدقا لما بين يديه﴾ أى من الكتب الآلهية التى معظمها التوراة حال من مفعوله وكذا قوله تعالى ﴿وهدى وبشرى للمؤمنين﴾ والعامل فى الكل نزله والمعنى من عادى جبريل من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته بل يجب عليه محبته فإنه نزله عليك كتابا مصدقا لكتبهم أو فالسبب فى عداوته تنزيل الكتاب مصدقا لكتابهم موافق له وهم له كارهون ولذلك حرفوا كتابهم وجحدوا موافقته له لأن الاعتراف بها يوجب الإيمان به وذلك يستدعى

انتكاس أحوالهم وزوال رياستهم وقيل إن الجواب فقد خلع ربقة الإنصاف أو فقد كفر بما معه من الكتاب أو فليمت غيظا أو فهو عدو لى ، وأنا عدو له ﴿ من كان عدوا لله ﴾ أريد بعداوته تعالى مخالفة أمره عنادا والخروج عن طاعته مكابرة أو عداوة خواصه ومقربيه لكن صدر الكلام بذكره الجليل تفخيما لشأنهم وإيذانا بأن عداوتهم عداوته عز وعلا كما فى قوله عز وجل (والله ورسوله أحق أن يرضوه) ثم صرح بالمرام فقيل ﴿ وملائكته ورسله وجبريل وميكال ﴾ وإنما أفردا بالذكر مع أنهما أول من يشمله عنوان الملكية والرسالة لإظهار فضلهما كأنهما عليهما السلام من جنس آخر أشرف مما ذكر تنزيلا للتغاير فى الوصف منزلة التغاير فى الجنس وللتنبيه على أن عداوة أحدهما عداوة للآخر حسما لمادة اعتقادهم الباطل فى حقهما حيث زعموا أنهما متعاديان وللإشارة إلى أن معاداة الواحد والكل سواء فى الكفر واستتباع العداوة من جهة الله سبحانه ، وأن من عادى أحدهم فكأنما عادى الجميع وقوله تعالى ﴿ فإن الله عدو للكافرين ﴾ أى لهم جواب الشرط والمعنى من عاداهم عاداه الله وعاقبه أشد العقاب وإيثار الاسمية للدلالة على التحقق والثبات ووضع الكافرين موضع المضمر للإيذان بأن عداوة المذكورين كفر ، وأن ذلك بين لا يحتاج إلى الإخبار به ، وأن مدار عداوته تعالى لهم وسخطه المستوجب لأشد العقوبة والعذاب هو كفرهم المذكور وقرىء ميكائل كميكاعل وميكائيل كميكاعيل وميكئل كميكعل وميكئيل كميكعيل ﴿ ولقد أنزلنا إليك آيات بينات ﴾ واضحات الدلالة على معانيها ، وعلى كونها من عند الله تعالى ، ﴿ وما يكفر بها إلا الفاسقون ﴾ أى المتمردون فى الكفر الخارجون عن حدوده فإن من ليس على تلك الصفة من الكفرة لا يجترىء على الكفر بمثل هاتيك البينات قال الحسن إذا استعمل الفسق فى نوع من المعاصى وقع على أعظم أفراد ذلك النوع من كفر أو غيره وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال قال ابن صوريا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ماجئتنا بشىء نعرفه وما أنزل عليك من آية فنتبعك لها فنزلت واللام للعهد أى الفاسقون المعهودون وهم أهل الكتاب المحرفون لكتابهم

الخارجون عن دينهم أو للجنس وهم داخلون فيه دخولاً أولياً ﴿أوكلما عاهدوا عهداً﴾ الهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أكفروا بها وهى فى غاية الوضوح وكلما عاهدوا عهداً ، ومن جملة ذلك ما أشير إليه فى قوله تعالى ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾ من قولهم للمشركين قد أظل زمان نبى يخرج بتصديق ماقلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم وقرىء بسكون الواو على أن تقدير النظم الكريم ، وما يكفر بها إلا الذين فسقوا أو نقضوا عهودهم مراراً كثيرة وقرىء عوهدوا وعهدوا وقوله تعالى عهداً ، إما مصدر مؤكد لعاهدوا من غير لفظه أومفعول له على أنه بمعنى أعطوا العهد ﴿نبذه فريق منهم﴾ أى رموا بالزمام ورفضوه وقرىء نقضه وإسناد النبذ إلى فريق منهم لأن منهم من لم ينبذه ﴿بل أكثرهم لايؤمنون﴾ أى بالتوراة وهذا دفع لما يتوهم من أن النابذين هم الأقلون ، وأن من لم ينبذ جهارا فهم يؤمنون بها سرا ﴿ولما جاءهم رسول﴾ هو النبى صلى الله عليه وسلم والتنكير للتفخيم ﴿من عند الله﴾ متعلق بجاء أو بمحذوف وقع صفة لرسول لإفادة مزيد تعظيمه بتأكيد ما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية ﴿مصدق لما معهم﴾ من التوراة من حيث أنه صلى الله عليه وسلم قرر صحتها وحقق حقية نبوة موسى عليه الصلاة والسلام بما أنزل عليه أو من حيث أنه عليه السلام جاء على وفق مانعت فيها ﴿نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب﴾ أى التوراة ، وهم اليهود الذين كانوا فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ممن كانوا يستفتحون به قبل ذلك لا الذين كانوا فى عهد سليمان عليه السلام كما قيل لأن النبذ عند مجىء النبى صلى الله عليه وسلم لايتصور منهم وأفرد هذا النبذ بالذكر مع اندراجه تحت قوله عز وجل أوكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم لأنه تمهيد لذكر اتباعهم لما تتلو الشياطين وإيثارهم له عليه والمراد بإيتائها ، إما إيتاء علمها بالدراسة والحفظ ، والوقوف على ما فيها فالموصول عبارة عن علمائهم وإما مجرد إنزالها عليهم فهو عبارة عن الكل ، وعلى التقديرين فوضعه موضعه الضمير للإيذان بكمال التنافى بين ما أثبت لهم فى حين الصلة وبين ما صدر عنهم

من النبذ ﴿ كتاب الله ﴾ أى الذى أوتوه قال السدى لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم عارضوه بالتوراة والفرقان فاتفقت التوراة والفرقان فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت ، وماروت فلم يوافق القرآن فهذا قوله تعالى ﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله ﴾ الخ ، وإنما عبر عنها بكتاب الله تشريفا لها وتعظيما لحقها عليهم وتهويلا لما اجترأوا عليه من الكفر بها وقيل كتاب الله القرآن نبذوه بعد مالزمهم تلقيه بالقبول لاسيما بعد ما كانوا يستفتحون به من قبل فإن ذلك قبول له وتمسك به فيكون الكفر به عند مجيئه نبذاً له كأنه قيل كتاب الله الذى جاء به فإن مجىء الرسول معرب عن مجىء الكتاب ﴿ وراء ظهورهم ﴾ مثل لتركهم وإعراضهم عنه بالكلية مثل بما يرمى به وراء الظهر استغناء عنه وقلة التفات إليه ﴿ كأنهم لايعلمون ﴾ جملة حالية أى نبذوه وراء ظهورهم مشبهين بمن لايعلمه فإن أريد بهم أحبارهم فالمعنى كأنهم لايعلمونه على وجه الإيقان ولا يعرفون ما فيه من دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام ففيه إيذان بأن علمهم به رصين لكنهم يتجاهلون أو كأنهم لايعلمون أنه كتاب الله أو لا يعلمونه أصلا كما إذا أريد بهم الكل ، وفى هذين الوجهين زيادة مبالغة فى إعراضهم عما فى التوراة من دلائل النبوة هذا وإن أريد بما نبذوه من كتاب الله القرآن فالمراد بالعلم المنفى فى قوله تعالى ﴿ كأنهم لايعلمون ﴾ هو العلم بأنه كتاب الله ففيه ما فى الوجه الأول من الإشعار بأنهم متيقنون فى ذلك وإنما يكفرون به مكابرة وعنادا قيل إن جيل اليهود أربع فرق ففرقة آمنوا بالتوراة وقاموا بحقوقها كمؤمنى أهل الكتاب وهم الأقلون المشار إليهم بقوله عز وجل ﴿ بل أكثرهم لايؤمنون ﴾ وفرقة جاهروا بنبذ العهود وتعدى الحدود تمردا وفسوقا وهم المعنيون بقوله تعالى ﴿ نبذه فريق منهم ﴾ وفرقة لم يجاهروا بنبذها لجهلهم بها وهم الأكثرون وفرقة تمسكوا بها ظاهرا ونبذوها خفية وهم المتجاهلون ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين ﴾ عطف على جواب لما أى نبذوا كتاب الله واتبعوا كتب السحرة التى كانت تقرؤها الشياطين وهم المتمردون من الجن وتتلو حكاية حال ماضية والمراد بالاتباع التوغل والتمحض فيه والإقبال عليه

بالـكلية وإلا فأصل الاتباع كان حاصلا قبل مجىء الرسول صلى الله عليه وسلم فلا يتسنى عطفه على جواب لما ولذلك قيل هو معطوف على الجملة ، وقيل على على أشربوا ﴿ على ملك سليمان ﴾ أى فى عهد ملكه قيل كانت الشياطين يسترقون السمع ويضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها ويلقونها إلى الكهنة وهم يدونونها ويعلمونها الناس وفشا ذلك فى عهد سليمان عليه السلام حتى قيل إن الجن تعلم الغيب ، وكانوا يقولون هذا علم سليمان وما تم له ملكه إلا بهذا العلم وبه سخر الإنس والجن والطير والريح التى تجرى بأمره وقيل إن سليمان عليه السلام كان قد دفن كثيراً من العلوم التى خصه الله تعالى بها تحت سرير ملكه فلما مضت على ذلك مدة توصل إليها قوم من المنافقين فكتبوا فى خلال ذلك أشياء من فنون السحر تناسب تلك الأشياء المدفونة من بعض الوجوه ثم بعد موته واطلاع الناس على تلك الكتب أوهموهم أنه من عمل سليمان عليه السلام وأنه مابلغ هذا المبلغ إلا بسبب هذه الأشياء .

﴿ وما كفر سليمان ﴾ تنزيه لساحته عليه السلام عن السحر وتكذيب لمن افترى عليه بأنه كان يعتقده ويعمل به والتعرض لكونه للمبالغة فى فى إظهار نزاهته عليه السلام وكذب باهتيه بذلك ﴿ ولكن الشياطين ﴾ وقرىء بتخفيف لكن ورفع الشياطين والواو عاطفة للجملة الاستدراكية على ما قبلها وكون المخففة عند الجمهور للعطف إنما هو عند عدم الواو وكون ما بعدها مفردا ﴿ كفروا ﴾ باستعمال السحر وتدوينه ﴿ يعلمون الناس السحر ﴾ إغواء وإضلالا والجملة فى محل النصب على الحالية من ضمير كفروا أو من الشياطين فإن مافى لكن من رائحة الفعل كاف فى العمل فى الحال أو فى محل الرفع على خبر ثان للكن أو بدل من الخبر الأول وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرار التعليم وتجدده أو جملة مستأنفة هذا على تقدير كون الضمير للشياطين وأما على تقدير رجوعه إلى فاعل اتبعوا فهى إما حال منه وإما استئنافية فحسب واعلم أن السحر أنواع منها سحر الكلدانيين الذين كانوا فى قديم الدهر وهم قوم يعبدون الكواكب ويزعمون أنها هى المدبرة لهذا العالم ومنها

تصدر الخيرات والشرور والسعادة والنحوسة ويستحدثون الخوارق بواسطة تمزيج القوى السماوية بالقوى الأرضية وهم الذين بعث الله تعالى إبراهيم عليه الصلاة والسلام لإبطال مقالتهم وهم ثلاث فرق ففرقة منهم يزعمون أن الأفلاك والنجوم واجبة الوجود لذواتها وهم الصابئة وفرقة يقولون بإلهية الأفلاك ويتخذون لكل واحد منها هيكلا ويشتغلون بخدمتها وهم عبدة الأوثان وفرقة أثبتوا للأفلاك وللكواكب فاعلا مختارا لكنهم قالوا إنه أعطاها قوة عالية نافذة فى هذا العالم وفوض تدبيره إليها ومنها سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية فإنهم يزعمون أن الإنسان تبلغ روحه بالتصفية فى القوة والتأثير إلى حيث يقدر على الإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة وتغيير البنية والشكل ومنها سحر من يستعين بالأرواح الأرضية وهو المسمى بالعزائم وتسخير الجن ومنها التخييلات الآخذة بالعيون وتسمى الشعوذة ولا خلاف بين الأمة فى أن من اعتقد الأول فقد كفر وكذا من اعتقد الثانى وهو سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية وأما من اعتقد أن الإنسان يبلغ بالتصفية وقراءة العزائم والرقى إلى حيث يخلق الله سبحانه وتعالى عقيب ذلك على سبيل جريان العادة بعض الخوارق فالمعتزلة اتفقوا على أنه كافر لأنه لا يمكنه بهذا الاعتقاد معرفة صدق الأنبياء والرسل بخلاف غيرهم ولعل التحقيق أن ذلك الإنسان إن كان خيرا متشرعا فى كل ما يأتى ويذر وكان من يستعين به من الأرواح الخيرة وكانت عزائمه ورقاه غير مخالفة لأحكام الشريعة الشريفة ولم يكن فيما ظهر فى يده من الخوارق ضرر شرعى لأحد فليس ذلك من قبيل السحر وإن كان شريرا غير متمسك بالشريعة الشريفة فظاهر أن من يستعين به من الأرواح الخبيثة الشريرة لامحالة ضرورة امتناع تحقق التضام والتعاون بينهما من غير اشتراك فى الخبث والشرارة فيكون كافرا قطعا ، وأما الشعوذة وما يجرى مجراها من إظهار الأمور العجيبة بواسطة ترتيب الآلات الهندسية وخفة اليد والاستعانة بخواص الأدوية والأحجار فإطلاق السحر عليها بطريق التجوز أو لما فيها من الدقة لأنه فى الأصل عبارة

عن كل مالطف مأخذه وخفى سببه أو من الصرف عن الجهة المعتادة لما أنه فى أصل اللغة الصرف على ما حكاه الأزهرى عن الفراء ويونس ﴿ وما أنزل على الملكين ﴾ عطف على السحر أى ويعلمونهم ما أنزل عليهما والمراد بهما واحد والعطف لتغاير الاعتبار أو هو نوع أقوى منه أو على ماتتلو وما بينهما اعتراض أى واتبعوا ما أنزل الخ وهما ملكان أنزلا لتعليم السحر ابتلاء من الله للناس كما ابتلى قوم طالوت بالنهر أو تمييزا بينه وبين المعجزة لئلا يغتر به الناس أو لأن السحرة كثرت فى ذلك الزمان واستنبطت أبوابا غريبة من السحر وكانوا يدعون النبوة فبعث الله تعالى هذين الملكين ليعلما الناس أبواب السحر حتى يتمكنوا من معارضة أولئك الكذابين وإظهار أمرهم على الناس وأما ما يحكى من أن الملائكة عليهم السلام لما رأوا ما يصعد من ذنوب بنى آدم عيروهم ، وقالوا لله سبحانه هؤلاء الذين اخترتهم لخلافة الأرض يعصونك فيها فقال عز وجل لو ركبت فيكم ماركبت فيهم لعصيتمونى قالوا سبحانك ما ينبغى لنا أن نعصيك قال تعالى فاختاروا من خياركم ملكين فاختاروا هاروت وماروت وكانا من أصلحهم وأعبدهم فأهبطا إلى الأرض بعد ماركب فيهما ماركب فى البشر من الشهوة وغيرها من القوة ليقضيا بين الناس نهارا ويعرجا إلى السماء مساء وقد نهيا عن الإشراك والقتل بغير الحق وشرب الخمر والزنا وكانا يقضيان بينهم نهارا فإذا أمسيا ذكرا اسم الله الأعظم فصعدا إلى السماء فاختصمت إليهما ذات يوم امرأة من أجمل النساء تسمى زهرة وكانت من لخم وقيل كانت من أهل فارس ملكة فى بلدها وكانت خصومتها مع زوجها فلما رأياها افتتنا بها فراوداها عن نفسها فأبت فألحا عليها فقالت لا إلا أن تقضيا لى على خصمى ، ففعلا ، ثم سألاها ما سألا ، فقالت : لا إلا أن تقتلاه ففعلا ، ثم سألاها ماسألا فقالت لا إلا أن تشربا الخمر وتسجدا للصنم ففعلا كلا من ذلك بعد اللتيا والتى ثم سألاها ماسألا فقالت لا إلا أن تعلمانى ما تصعدان به إلى السماء فعلماها الاسم الأعظم فدعت به وصعدت إلى السماء فمسخها سبحانه كوكبا فهما بالعروج حسب عادتهما فلم تطعهما أجنحتهما

فعلما ما حل بهما ، وكان فى عهد إدريس عليه السلام فالتجأ إليه ليشفع لهما ففعل فخيرهما الله تعالى بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا الأول لانقطاعه عما قليل فهما معذبان ببابل قيل معلقان بشعورهما وقيل منكوسان يضربان بسياط الحديد إلى قيام الساعة فما لاتعويل عليه لما أن مداره رواية اليهود مع ما فيه من المخالفة لأدلة العقل والنقل ولعله من مقولة الأمثال والرموز التى قصد بها إرشاد اللبيب الأريب بالترغيب والترهيب وقيل هما رجلان سميا ملكين لصلاحهما ويعضده قراءة الملكين بالكسر ﴿ ببابل ﴾ الباء بمعنى فى وهى متعلقة بأنزل أو بمحذوف وقع حالا من الملكين أو من الضمير فى أنزل وهى بابل العراق ، وقال ابن مسعود رضى الله عنه بابل أرض الكوفة وقيل جبل دماوند ومنع الصرف العجمة والعلمية أو للتأنيث والعلمية ﴿ هاروت وماروت ﴾ عطف بيان للملكين علمان لهما ومنع صرفهما للعجمة والعلمية ، ولو كانا من الهرت والمرت بمعنى الكسر لانصرفا ، وأما من قرأ الملكين بكسر اللام أو قال كانا رجلين صالحين فقال هما أسمان لهما وقيل هما اسما قبيلتين من الجن هما المراد من الملكين بالكسر وقرىء بالرفع على هما هاروت ، وماروت ﴿ وما يعلمان من أحد ﴾ من مزيدة فى المفعول به لإفادة تأكيد الاستغراق الذى يفيده أحد لا لإفادة نفس الاستغراق كما فى قولك ما جاءنى من رجل وقرىء يعلمان من الإعلام ﴿ حتى يقولا إنما نحن فتنة ﴾ الفتنة الاختبار والامتحان وإفرادها مع تعددهما لكونها مصدرا وحملها عليهما مواطأة للمبالغة كأنهما نفس الفتنة والقصر لبيان أنه ليس لهما فيما يتعاطيانه شأن سواها لينصرف الناس عن تعلمه أى ، وما يعلمان ما أنزل عليهما من السحر أحدا من طالبيه حتى ينصحاه قبل التعليم ويقولا له إنما نحن فتنة وابتلاء من الله عز وجل فمن عمل بما تعلم منا واعتقد حقيته كفر ومن توقى عن العمل به أو اتخذه ذريعة للاتقاء عن الاغترار بمثله بقى على الإيمان ﴿ فلا تكفر ﴾ باعتقاد حقيته وجواز العمل به والظاهر أن غاية النفى ليست هذه المقالة فقط بل من جملتها التزام المخاطب بموجب النهى لكن لم يذكر لظهوره وكون

الكلام فى بيان اعتناء الملكين بشأن النصح والإرشاد والجملة فى محل النصب على الحالية من ضمير يعلمون لامعطوفة عليه كما قيل أى ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على الملكين ويحملونهم على العمل به إغواء وإضلالا ، والحال أنهما مايعلمان أحداً حتى ينهياه عن العمل به والكفر بسببه وأما ماقيل من أن مافى قوله تعالى (وما أنزل الخ) نافية والجملة معطوفة على قوله تعالى (وما كفر سليمان) جيء بها لتكذيب اليهود فى القصة أى لم ينزل على الملكين إباحة السحر ، وأن هاروت وماروت بدل من الشياطين على أنهما قبيلتان من الجن خصتا بالذكر لأصالتهما وكون باقى الشياطين أتباعا لهما وأن المعنى مايعلمان أحدا حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فتكون مثلنا فيأباه أن مقام وصف الشياطين بالكفر وإضلال الناس مما لا يلائمه وصف رؤسائهم بما ذكر من النهى عن الكفر مع مافيه من الإخلال بنظام الكلام فإن الإبدال فى حكم تنحية المبدل منه ﴿ فيتعلمون منهما ﴾ عطف على الجملة المنفية فإنها فى قوة المثبتة كأنه قيل يعلمانهم بعد قولهما إنما نحن الخ والضمير لأحد حملا على المعنى كما فى قوله تعالى (فما منكم من أحد عنه حاجزين) ﴿ مايفرقون به ﴾ أى بسببه وباستعماله ﴿ بين المرء ﴾ وقرىء بضم الميم وكسرها مع الهمزة وتشديد الراء بلا همزة ﴿ وزوجه ﴾ بأن يحدث الله تعالى بينهما التباغض والفرك والنشوز عند ما فعلوا مافعلوا من السحر على حسب جرى العادة الإلهية من خلق المسببات عقيب حصول الأسباب العادية ابتلاء لا أن السحر هو المؤثر فى ذلك وقيل فيتعلمون منهما ما يعملون به فيراه الناس ويعتقدون أنه حق فيكفرون فتبين أزواجهم ﴿ وماهم بضارين به ﴾ أى بما تعلموه واستعملوه من السحر ﴿ من أحد ﴾ أى أحدا ومن زائدة كما ذكر فى قوله تعالى ومايعلمان من أحد والمعهود وأن كان زيادتها فى معمول فعل منفى إلا أنه حملت الإسمية فى ذلك على الفعلية كأنه قيل وما يضرون به من أحد ﴿ إلا بإذن الله ﴾ لأنه وغيره من الأسباب بمعزل من التأثير بالذات وإنما هو بأمره تعالى فقد يحدث عند استعمالهم السحر فعلا من أفعاله ابتلاء ، وقد لايحدثه والاستثناء مفرغ

والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من ضمير ضارين أو من مفعوله وإن كان نكرة لاعتمادها على النفي أو الضمير المجرور في به أي وما يضرون به أحداً إلا مقرونا بإذن الله تعالى وقرىء بضاري على الإضافة بجعل الجار جزءاً من المجرور وفصل ما بين المتضايفين بالظرف ﴿ ويتعلمون ما يضرهم ﴾ لأنهم يقصدون به العمل أو لأن العلم يجر إلى العمل غالبا ﴿ ولا ينفعهم ﴾ صرح بذلك إيذانا بأنه ليس من الأمور المشوبة بالنفع والضرر بل هو شر بحت وضرر محض لأنهم لا يقصدون به التخلص عن الاغترار بأكاذيب من يدعي النبوة مثلا من السحرة أو تخليص الناس منه حتى يكون فيه نفع في الجملة وفيه أن الاجتناب عما لا يؤمن غوائله خير كتعلم الفلسفة التي لا يؤمن أن تجر إلى الغواية وإن قال من قال :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

﴿ ولقد علموا ﴾ أي اليهود الذين حكيت جناياتهم ﴿ لمن اشتراه ﴾ أي استبدل ما تتلو الشياطين بكتاب الله عز وجل واللام الأولى جواب قسم محذوف والثانية لام ابتداء علق به علموا عن العمل ومن موصولة في حيز الرفع بالابتداء واشتراه صلتها وقوله تعالى ﴿ ماله في الآخرة من خلاق ﴾ أي من نصيب جملة من مبتدأ وخبر ومن مزيدة في المبتدأ وفي الآخرة متعلق بمحذوف وقع حالا منه ولو أخر عنه لكان صفة له والتقدير ماله خلاق في الآخرة وهذه الجملة في محل الرفع على أنها خبر للموصول والجملة في حيز النصب سادة مسد مفعولي علموا إن جعل متعديا إلى اثنين أو مفعوله الواحد إن جعل متعديا إلى واحد ، فجملة ولقد علموا الخ مقسم عليها دون جملة لمن اشتراه الخ هذا ما عليه الجمهور وهو مذهب سيبويه وقال الفراء وتبعه أبو البقاء إن اللام الأخيرة موطئة للقسم ومن شرطية مرفوعة بالابتداء واشتراه خبرها ، وماله في الآخرة من خلاق جواب القسم وجواب الشرط محذوف اكتفاء عنه بجواب القسم لأنه إذا اجتمع الشرط والقسم يجاب سابقهما غالبا فحينئذ

يكون الجملتان مقسما عليهما ﴿ ولبئس ماشروا به أنفسهم ﴾ أى باعوها واللام جواب قسم محذوف والمخصوص بالذم محذوف أى وبالله لبئسما باعوا به أنفسهم السحر أو الكفر وفيه إيذان بأنهم حيث نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم فقد عرضوا أنفسهم للهلكة وباعوها بما لا يزيدهم إلا تبارا وتجويز كون الشراء بمعنى الاشتراء ما لاسبيل إليه لأن المشترى متعين وهو ما تتلو الشياطين ولأن متعلق الذم هو المأخوذ لا المنبوذ كما أشير إليه فى تفسير قوله سبحانه بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله ﴿ لوكانوا يعلمون ﴾ أى يعملون بعلمهم جعلوا غير عالمين لعدم عملهم بموجب علمهم أو لو كانوا يتفكرون فيه أو يعلمون قبحه على اليقين أو حقيقة ما يتبعه من العذاب عليه على أن المثبت لهم أولا على التوكيد القسمى العقل الغريزى أو العلم الإجمالى بقبح الفعل أو ترتب العقاب من غير تحقيق وجواب لو محذوف أى لما فعلوا مافعلوا ﴿ ولو أنهم آمنوا ﴾ أى بالرسول المومأ إليه فى قوله تعالى (ولما جاءهم رسول من عند الله) الخ أو بما أنزل إليه من الآيات المذكورة فى قوله تعالى (ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون) أو بالتورارة التى أريدت بقوله تعالى (نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم) فإن الكفر بالقرآن والرسول عليه السلام كفر بها ﴿ واتقوا ﴾ المعاصى المحكية عنهم ﴿ لمثوبة من عند الله خير ﴾ جواب لو وأصله لأثيبوا مثوبة من عند الله خيراً مما شروا به أنفسهم فحذف الفعل وغير السبك إلى ما عليه النظم الكريم دلالة على ثبات المثوبة لهم والجزم بخيريتها وحذف المفضل عليه إجلالا للمفضل من أن ينسب إليه وتنكير المثوبة للتقليل ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة تشريفية لمثوبة أى لشىء ما من المثوبة كائنة من عنده تعالى خير وقيل جواب لو محذوف أى لأثيبوا وما بعده جملة مستأنفة فإن وقوع الجملة الابتدائية جوابا للو غير معهود فى كلام العرب وقيل لو للتمنى ومعناه أنهم من فظاعة الحال بحيث يتمنى العارف إيمانهم واتقاءهم تلهفا عليهم وقرىء لمثوبة وإنما سمى الجزاء ثوابا ومثوبة لأن المحسن يثوب إليه ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أن ثواب الله خير نسبوا إلى الجهل لعدم

العمل بموجب العلم ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ خطاب للمؤمنين فيه إرشاد لهم إلى الخير وإشارة إلى بعض آخر من جنايات اليهود ﴿ لاتقولوا راعنا ﴾ المراعاة المبالغة فى الرعى وهى حفظ الغير وتدبير أموره وتدارك مصالحه وكان المسلمون إذا ألقى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من العلم يقولون راعنا يارسول الله أى راقبنا وانتظرنا وتأن بنا حتى نفهم كلامك ونحفظه وكانت لليهود كلمة عبرانية أو سريانية يتسابون بها فيما بينهم وهى راعينا قيل معناها اسمع لاسمعت فلما سمعوا بقول المؤمنين ذلك افترصوه واتخذوه ذريعة إلى مقصدهم فجعلوا يخاطبون به النبى صلى الله عليه وسلم يعنون به تلك المسبة أو نسبته صلى الله عليه وسلم إلى الرعن وهو الحمق والهوج روى أن سعد بن عبادة رضى الله عنه سمعها منهم فقال يا أعداء الله عليكم لعنة الله عليكم لعنة الله والذى نفسى بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأحتزن عنقه قالوا أو لستم تقولونها فنزلت الآية ونهى فيها المؤمنون عن ذلك قطعا لألسنة اليهود عن التدليس وأمروا بما فى معناها ولا يقبل التلبيس فقيل ﴿ وقولوا انظرنا ﴾ أى انظر إلينا بالحذف والإيصال أو انتظرنا على أنه من نظره إذا انتظره وقرىء أنظرنا من النظر ، أى أمهلنا حتى نحفظ وقرىء راعونا على صيغة الجمع للتوقير وراعنا على صيغة الفاعل أى قولا ذا رعن كدارع ولابن لأنه لما أشبه قولهم راعينا وكان سببا للسب بالرعن اتصف به ﴿ واسمعوا ﴾ وأحسنوا سماع ما يكلمكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومايلقي إليكم من من المسائل بآذان واعية وأذهان حاضرة حتى لاتحتاجوا إلى الاستعاذة وطلب المراعاة أو واسمعوا ما كلفتموه من النهى والأمر بجد واعتناء حتى لاترجعوا إلى مانهيتم عنه أو واسمعوا سماع طاعة وقبول ولايكن سماعكم مثل سماع اليهود حيث قالوا سمعنا وعصينا ﴿ وللكافرين ﴾ أى اليهود الذين توسلوا بقولكم المذكور إلى كفرياتهم وجعلوه سببا للتهاون برسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له ما قالوا ﴿ عذاب أليم ﴾ لما اجترؤا عليه من العظيمة وهو تذييل لما سبق فيه وعيد شديد لهم ونوع تحذير للمخاطبين عما نهوا عنه .

﴿ ما يود الذين كفروا ﴾ الود حب الشيء مع تمنيه ولذلك يستعمل فى كل منهما ونفيه كناية عن الكراهة ووضع الموصول موضع الضمير للإشعار بعلية ما فى حيز الصلة لعدم ودهم ولعل تعلقه بما قبله من حيث أن القول المنهى عنه كثيرا ما كان يقع عند تنزيل الوحى المعبر عنه فى هذه الآية بالخير فكأنه أشير إلى أن سبب تحريفهم له إلى ما حكى عنهم لوقوعه فى أثناء حصول ما يكرهونه من تنزيل الخير وقيل كان فريق من اليهود يظهرون للمؤمنين محبة ويزعمون أنهم يودون لهم الخير فنزلت تكذيبا لهم فى ذلك ومن فى قوله تعالى ﴿ من أهل الكتاب ولا المشركين ﴾ للتبيين كما فى قوله عز وعلا (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين) ولا مزيدة لما ستعرفه ﴿ أن ينزل عليكم ﴾ فى حيز النصب على أنه مفعول يود وبناء الفعل للمفعول للثقة بتعين الفاعل والتصريح الآتى فى قوله تعالى ﴿ من خير ﴾ هو القائم مقام فاعله ومن مزيدة للاستغراق والنفى وإن لم يباشره ظاهرا لكنه منسحب عليه معنى والخير الوحى وحمله على مايعمه وغيره من العلم والنصرة كما قيل يأباه وصفه فيما سيأتى بالاختصاص وتقديم الظرف عليه مع أن حقه التأخر عنه لإظهار كمال العناية به لأنه المدار لعدم ودهم ومن فى قوله تعالى ﴿ من ربكم ﴾ ابتدائية والتعرض لعنوان الربوبية للإشعار بعليته لتنزيل الخير والإضافة إلى ضمير المخاطبين لتشريفهم وليست كراهتهم لتنزيله على المخاطبين من حيث تعبدهم بما فيه وتعريضهم بذلك لسعادة الدارين كيف لا وهم من تلك الحيثية من جملة من نزل عليهم الخير بل من حيث وقوع ذلك التنزيل على النبى صلى الله عليه وسلم وصيغة الجمع للإيذان بأن مدار كراهتهم ليس معنى خاصا بالنبى صلى الله عليه وسلم بل وصف مشترك بين الكل هو الخلو عن الدراسة عند اليهود وعن الرياسة عند المشركين والمعنى أنهم يرون أنفسهم أحق بأن يوحى إليهم ويكرهونكم فيحسدونكم أن ينزل عليكم شيء من الوحى أما اليهود فبناء على أنهم أهل الكتاب وأبناء الأنبياء الناشئون فى مهابط الوحى وأنتم أميون وأما المشركون فإدلالا بما كان لهم من الجاه والمال زعما منهم أن رياسة الرسالة كسائر الرياسات الدنيوية منوطة

بالأسباب الظاهرة ولذلك قالوا (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) ولما كانت اليهود بهذا الداء أشهر لاسيما فى أثناء ذكر ابتلائهم به لم يلزم من نفى ودادتهم لما ذكر نفى ودادة المشركين له فزيدت كلمة لا لتأكيد النفى ﴿ والله يختص برحمته ﴾ جملة ابتدائية سيقت لتقرير ما سبق من تنزيل الخير والتنبيه على حكمته وإرغام الكارهين له والمراد برحمته الوحى كما فى قوله سبحانه (أهم يقسمون رحمة ربك) عبر عنه باعتبار نزوله على المؤمنين بالخير وباعتبار إضافته إليه تعالى بالرحمة قال على رضى الله عنه بنبوته خص بها محمدا صلى الله عليه وسلم فالفعل متعد وصيغة الافتعال للإنباء عن الاصطفاء وإيثاره على التنزيل المناسب للسياق الموافق لقوله تعالى (أن ينزل الله من فضله على من يشاء) لزيادة تشريفه صلى الله عليه وسلم وإقناطهم مما علقوا به أطماعهم الفارغة والباء داخلة على المقصور أى يؤتى رحمته ﴿ من يشاء ﴾ من عباده ويجعلها مقصورة عليه لاستحقاقه الذاتى الفائض عليه بحسب إرادته عز وعلا تفضلا لاتتعداه إلى غيره وقيل الفعل لازم ومن فاعله والضمير العائد إلى من محذوف على التقديرين وقوله تعالى ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ تذييل لما سبق مقرر لمضمونه وفيه إيذان بأن إيتاء النبوة من فضله العظيم كقوله تعالى (إن فضله كان عليك كبيرا) وأن حرمان من حرم ذلك ليس لضيق ساحة فضله بل لمشيئته الجارية على سنن الحكمة البالغة وتصدير الجملتين بالاسم الجليل للإيذان بفخامة مضمونها وكون كل منهما مستقلة بشأنها فإن الإضمار فى الثانية منبىء عن توقفها على الأولى ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان سر النسخ الذى هو فرد من أفراد تنزيل الوحى وإبطال مقالة الطاعنين فيه إثر تحقيق حقيقة الوحى ورد كلام الكارهين له رأساً قيل نزلت حين قال المشركون أو اليهود ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمر بخلافه والنسخ فى اللغة الإزالة والنقل يقال نسخت الريح الأثر أى أزالته ونسخت الكتاب أى نقلته ونسخ الآية بيان انتهاء التعبد بقراءتها أو بالحكم المستفاد منها أو بهما جميعاً وإنساؤها إذهابها من القلوب وماشرطية جازمة لننسخ منتصبة

به على المفعولية وقرىء ننسخ من أنسخ أى نأمرك أو جبريل بنسخها أونجدها منسوخة وننسأها من النسء أى نؤخرها وننسها بالتشديد وتنسها وتنسها على خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم مبنيا للفاعل وللمفعول وقرىء ما ننسخ من آية أو ننسكها وقرىء ما ننسك من آية أو ننسخها والمعنى أن كل آية نذهب بها على ماتقتضيه الحكمة والمصلحة من إزالة لفظها أو حكمها أو كليهما معاً إلى بدل أو إلى غير بدل ﴿ نأت بخير منها ﴾ أى نوع آخر هو خير للعباد وبحسب الحال فى النفع والثواب من الذاهبة وقرىء بقلب الهمزة ألفا ﴿ أو مثلها ﴾ أى فيما ذكر من النفع والثواب وهذا الحكم غير مختص بنسخ الآية التامة فما فوقها بل جار فى ما دونها أيضاً وتخصيصها بالذكر باعتبار الغالب والنص كما ترى دال على جواز النسخ كيف لا وتنزيل الآيات التى عليها يدور فلك الأحكام الشرعية إنما هو بحسب ما يقتضيه من الحكم والمصالح وذلك يختلف باختلاف الأحوال ويتبدل حسب تبدل الأشخاص والأبصار كأحوال المعاش فرب حكم تقتضيه الحكمة فى حال تقتضى فى حال أخرى نقيضه فلو لم يجز النسخ لاختل ما بين الحكمة والأحكام من النظام ﴿ ألم تعلم ﴾ الهمزة للتقرير كما فى قوله سبحانه (أليس الله بكاف عبده) وقوله تعالى (ألم نشرح لك صدرك) والخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى ﴿ إن الله على كل شىء قدير ﴾ ساد مسد مفعولى تعلم عند الجمهور ومسد مفعوله الأول والثانى محذوف عند الأخفش والمراد بهذا التقرير الاستشهاد بعلمه بما ذكر على قدرته تعالى على النسخ وعلى الإتيان بما هو خير من المنسوخ وبما هو مثله لأن ذلك من جملة الأشياء المقهورة تحت قدرته سبحانه فمن علم شمول قدرته تعالى لجميع الأشياء علم قدرته على ذلك قطعاً والالتفات بوضع الاسم الجليل موضع الضمير لتربية المهابة والإشعار بمناط الحكم فإن شمول القدرة لجميع الأشياء من أحكام الألوهية وكذا الحال فى قوله عز سلطانه ﴿ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ﴾ فإن عنوان الألوهية مدار أحكام ملكوتهما والجار والمجرور خبر مقدم وملك السموات والأرض مبتدأ والجملة خبر لأن وإيثاره على أن يقال إن لله ملك السموات

والأرض للقصد إلى تقوى الحكم بتكرر الإسناد وهو إما تكرير للتقرير وإعادة للاستشهاد على ما ذكر وإنما لم يعطف أن مع ما فى حيزها على ما سبق من مثلها وما لزيادة التأكيد وإشعارا باستقلال العلم بكل منهما وكفايته فى الوقوف على ما هو المقصود وإما تقرير مستقل للاستشهاد على قدرته تعالى على جميع الأشياء أى ألم تعلم أن الله له السلطان القاهر والاستيلاء الباهر المستلزمان للقدرة التامة على التصرف الكلى فيهما إيجاداً وإعداماً وأمراً ونهيا حسبما تقتضيه مشيئته لا معارض لأمره ولا معقب لحكمه فمن هذا شأنه كيف يخرج عن قدرته شيء من الأشياء وقوله تعالى ﴿ وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾ معطوفة على الجملة الواقعة خبراً لأن داخلة معها تحت تعلق العلم المقرر وفيه إشارة إلى تناول الخطابين السابقين للأمة أيضاً وإنما إفراده عليه السلام بهما لما أن علومهم مستندة إلى علمه عليه السلام ووضع الاسم الجليل موضع الضمير الراجع إلى اسم أن لتربية المهابة والإيذان بمقارنة الولاية والنصرة للقوة والعزة والمراد به الاستشهاد بما تعلق به من العلم على تعلق إرادته تعالى بما ذكر من الإتيان بما هو خير من المنسوخ أو بمثله فإن مجرد قدرته تعالى على ذلك لا يستدعى حصوله البتة وإنما الذى يستدعيه كونه تعالى مع ذلك وليا ونصيراً لهم فمن علم أنه تعالى وليه ونصيره على الاستقلال يعلم قطعاً أنه لا يفعل به إلا ما هو خير له فيفوض أمره إليه تعالى ولا يخطر بباله ريبة فى أمر النسخ وغيره أصلا والفرق بين الولى والنصير أن الولى قد يضعف عن النصرة والنصير قد يكون أجنبيا من المنصور وما إما تميمية لا عمل لها ولكم خبر مقدم ومن ولى مبتدأ مؤخر زيدت فيه كلمة من للاستغراق وإما حجازية ولكم خبرها المنصوب عند من يجيز تقديمه واسمها من ولى ومن مزيدة لما ذكر ومن دون الله فى حيز النصب على الحالية من اسمها لأنه فى الأصل صفة له فلما قدم انتصب حالا ومعناه سوى الله والمعنى أن قضية العلم بما ذكر من الأمور الثلاثة هو الجزم والإيقان بأنه تعالى لا يفعل بهم فى أمر من أمور دينهم أو دنياهم إلا ما هو خير لهم والعمل بموجبه من الثقة به والتوكل عليه وتفويض الأمر إليه من غير إصغاء إلى

أقاويل الكفرة وتشكيكاتهم التى من جملتها ما قالوا فى أمر النسخ وقوله تعالى ﴿ أم تريدون ﴾ تجريد للخطاب عن النبي صلى الله عليه وسلم وتخصيص له بالمؤمنين وأم منقطعة ومعنى بل فيها الإضراب والانتقال من حملهم على العمل بموجب علمهم بما ذكر عند ظهور بعض مخايل المساهلة منهم فى ذلك وأمارات التأثر من أقاويل الكفرة إلى التحذير من ذلك ومعنى الهمزة إنكار وقوع الإرادة منهم واستبعاده لما أن قضية الإيمان وازعة عنها وتوجيه الإنكار إلى الإرادة دون متعلقها للمبالغة فى إنكاره واستبعاده ببيان أنه مما لا يصدر عن العاقل إرادته فضلا عن صدور نفسه والمعنى بل أتريدون ﴿ أن تسألوا ﴾ وأنتم مؤمنون ﴿رسولكم﴾ وهو فى تلك الرتبة من علو الشأن واقترحوا عليه ما تشتهون غير واثقين فى أموركم بفضل الله تعالى حسبما يوجبه قضية علمكم بشؤنه سبحانه قيل لعلهم كانوا يطلبون منه عليه الصلاة والسلام بيان تفاصيل الحكم الداعية إلى النسخ وقيل سأله عليه السلام قوم من المسلمين أن يجعل لهم ذات أنواط كما كانت للمشركين وهى شجرة كانوا يعبدونها ويعلقون عليها المأكول والمشروب وقوله تعالى ﴿ كما سئل موسى ﴾ مصدر تشبيهى أى نعت لمصدر مؤكد محذوف وما مصدرية أى سؤالا مشبها بسؤال موسى عليه السلام حيث قيل له اجعل لنا إلها وأرنا الله جهرة وغير ذلك ومقتضى الظاهر أن يقال كما سألوا موسى لأن المشبه هو المصدر من المبنى للفاعل أعنى سؤالية المخاطبين لا من المبنى للمفعول أعنى مسئولية الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يشبه بمسئولية موسى عليه السلام فلعله أريد التشبيه فيهما معا ولكنه أوجز النظم فذكر فى جانب المشبه السائلية وفى جانب المشبه به المسئولية واكتفى بما ذكر فى كل موضع عما ترك فى الموضع الآخر كما ذكر فى قوله تعالى (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله) وقد جوز أن تكون ما موصولة على أن العائد محذوف أى كالسؤال الذى سئله موسى عليه السلام وقوله تعالى ﴿من قبل﴾ متعلق بسئل جيء به للتأكيد وقرىء سيل بالياء وكسر السين وبتسهيل الهمزة بين بين ﴿ومن يتبدل الكفر﴾ أى يختره ويأخذه

لنفسه ﴿بالإيمان﴾ بمقابلته بدلا منه وقرىء ومن يبدل من أبدل وكان مقتضى الظاهر أن يقال ومن يفعل ذلك أى السؤال المذكور أو إرادته وحاصله ومن يترك الثقة بالآيات البينة المنزلة بحسب المصالح التى من جملتها الآيات الناسخة التى هى خير محض وحق بحت واقترح غيرها ﴿فقد ضل سواء السبيل﴾ أى عدل وجار من حيث لا يدرى عن الطريق المستقيم الموصل إلى معالم الحق والهدى وتاه فى تيه الهوى وتردى فى مهاوى الردى وإنما أوثر على ذلك ما عليه النظم الكريم للتصريح من أول الأمر بأنه كفر وارتداد وأن كونه كذلك أمر واضح غنى عن الإخبار به بأن يقال ومن يفعل ذلك يكفر حقيق بأن يعد من المسلمات ويجعل مقدما للشرطية روما للمبالغة فى الزجر والإفراط فى الردع وسواء السبيل من باب إضافة الوصف إلى الموصوف لقصد المبالغة فى بيان قوة الاتصاف كأنه نفس السواء على منهاج حصول الصورة فى الصورة الحاصلة وقيل الخطاب لليهود حين سألوا أن ينزل الله عليهم كتابا من السماء وقيل للمشركين حين قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا إلخ فإضافة الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم على القولين باعتبار أنهم من أمة الدعوة ومعنى تبدل الكفر بالإيمان وهم بمعزل من الإيمان ترك صرف قدرتهم إليه مع تمكنهم من ذلك وإيثارهم للكفر عليه ﴿ود كثير من أهل الكتاب﴾ هم رهط من أحبار اليهود . روى أن فنحاص بن عازوراء وزيد بن قيس ونفرا من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر رضى الله عنهما بعد وقعة أحد ألم تروا ما أصابكم ولو كنتم على الحق ما هزمتم فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم وأفضل ونحن أهدى منكم سبيلا فقال عمار كيف نقض العهد فيكم قالوا شديد قال فإنى عاهدت أن لا أكفر بمحمد عليه الصلاة والسلام ما عشت فقالت اليهود أما هذا فقد صبأ وقال حذيفة أما أنا فقد رضيت بالله ربا وبمحمد نبيا وبالإسلام دينا وبالقرآن إماما وبالكعبة قبلة وبالمؤمنين إخوانا ثم أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبراه فقال أصبتما خيرا وأفلحتما فنزلت ﴿لو يردونكم﴾ حكاية لودادتهم ولو فى معنى التمنى وصيغة الغيبة كما فى قوله حلف ليفعلن وقيل

هى بمنزلة أن الناصبة فلا يكون لها جواب وينسبك منها ومما بعدها مصدر يقع مفعولا لودوا التقدير ودوا ردكم وقيل هى على حقيقتها وجوابها محذوف تقديره لو يردونكم كفارا لسروا بذلك و ﴿من بعد إيمانكم﴾ متعلق بيردونكم وقوله تعالى ﴿كفارا﴾ مفعول ثان له على تضمين الرد معنى التصيير أى يصيرونكم كفارا كما فى قوله :

رمى الحدثان نسوة آل سعد بمقدار سمدن له سمودا
فرد شعورهن السود بيضا ورد وجوههن البيض سودا

وقيل هو حال من مفعوله والأول أدخل لما فيه من الدلالة صريحا على كون الكفر المفروض بطريق القسر وإيراد الظرف مع عدم الحاجة إليه ضرورة كون المخاطبين مؤمنين واستحالة تحقق الرد إلى الكفر بدون سبق الإيمان مع توسيطه بين المفعولين لإظهار كمال شناعة ما أراده وغاية بعده من الوقوع إما لزيادة قبحه الصارف للعاقل عن مباشرته وإما لممانعة الإيمان له كأنه قيل من بعد إيمانكم الراسخ وفيه من تثبيت المؤمنين ما لا يخفى .

﴿حسدا﴾ علة لود أو حال أريد به نعت الجمع أى حاسدين لكم والحسد الأسف على من له خير بخيره ﴿من عند أنفسهم﴾ متعلق بود أى ودوا ذلك من أجل تشهيهم وحظوظ أنفسهم لا من قبل التدين والميل مع الحق ولو على زعمهم أو بحسدا أى حسدا منبعثا من أصل نفوسهم بالغا أقصى مراقيه ﴿من بعد ما تبين لهم الحق﴾ بالمعجزات الساطعة وبما عاينوا فى التوراه من الدلائل وعلموا أنكم متمسكون به وهم منهمكون فى الباطل ﴿فاعفوا واصفحوا﴾ العفو ترك المؤاخذه والعقوبة والصفح ترك التثريب والتأنيب ﴿حتى يأتى الله بأمره﴾ الذى هو قتل بنى قريظة وإجلاء بنى النضير وإذلالهم بضرب الجزية عليهم أو الإذن فى القتال وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه منسوخ بآية السيف ولا يقدح فى ذلك ضرب الغاية لأنها لا تعلم إلا شرعا ولا يخرج الوارد بذلك من أن يكون ناسخا كأنه قيل فاعفوا واصفحوا إلى ورود الناسخ ﴿إن الله على كل

شيء قدير﴾ فينتقم منهم إذا حان حينه وآن أوانه فهو تعليل لما دل عليه ما قبله ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ عطف على فاعفوا أمروا بالصبر والمداراة واللجأ إلى الله تعالى بالعبادة البدنية والمالية ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير﴾ كصلاة أو صدقة أو غير ذلك أى أى شيء من الخيرات تقدموه لمصلحة أنفسكم ﴿تجدوه عند الله﴾ أى تجدوا ثوابه وقرىء تقدموا من أقدم ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾ فلا يضيع عنده عمل فهو وعد للمؤمنين وقرىء بالياء فهو وعيد للكافرين ﴿وقالوا﴾ عطف على ود والضمير لأهل الكتابين جميعاً ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى﴾ أى قالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودا وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى فلف بين القولين ثقة أن السامع يرد كلا منهما إلى قائله ونحوه وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا وليس مرادهم بأولئك من أقام اليهودية والنصرانية قبل النسخ والتحريف على وجههما بل أنفسهم على ما هم عليه لأنهم إنما يقولونه لإضلال المؤمنين وردهم إلى الكفر والهود جمع هائد كعوذ جمع عائذ وبزل جمع بازل والإفراد فى كان باعتبار لفظ من والجمع فى خبره باعتبار معناه وقرىء إلا من كان يهوديا أو نصرانيا ﴿تلك أمانيهم﴾ الأمانى جمع أمنية وهى ما يتمنى كالأعجوبة والأضحوكة والجملة معترضة مبينة لبطلان ما قالوا وتلك إشارة إليه والجمع باعتبار صدوره عن الجميع وقيل فيه حذف مضاف أى أمثال تلك الأمنية أمانيهم وقيل تلك إشارة إليه وإلى ما قبله من أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم وأن يردهم كفارا ويرده قوله تعالى ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ فإنهما ليسا مما يطلب له البرهان ولا مما يحتمل الصدق والكذب قيل هاتوا أصله آتوا قلبت الهمزة هاء أى أحضروا حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة إن كنتم صادقين فى دعواكم . هذا ما يقتضيه المقام بحسب النظر الجليل والذى يستدعيه إعجاز التنزيل أن يحمل الأمر التبكيتى على طلب البرهان على أصل الدخول الذى يتضمنه دعوى الاختصاص به فإن قوله تعالى ﴿بلى﴾ إلخ إثبات من جهته تعالى لما نفوه مستلزم لنفى ما أثبتوه وإذ ليس الثابت به مجرد دخول غيرهم بالدخول

كما ستعرفه بإذن الله تعالى ظهر أن المنفى أصل دخولهم ومن ضرورته أن يكون هو الذى كلفوا إقامة البرهان عليه لا اختصاصهم به ليتحد مورد الإثبات والنفى وإنما عدل عن إبطال صريح ما ادعوه وسلك هذا المسلك إبانة لغاية حرمانهم مما علقوا به أطماعهم وإظهاراً لكمال عجزهم عن إثبات مدعاهم لأن حرمانهم من الاختصاص بالدخول وعجزهم عن إقامة البرهان عليه لا يقتضيان حرمانهم من أصل الدخول وعجزهم عن إثباته وأما نفس الدخول فحيث ثبت حرمانهم منه وعجزهم عن إثباته فهم من الاختصاص به أبعد وعن إثباته أعجز وإنما الفائز به من انتظمه قوله سبحانه :

﴿ من أسلم وجهه لله ﴾ أى أخلص نفسه له تعالى لا يشرك به شيئاً عبر عنها بالوجه أشرف الأعضاء ومجمع المشاعر وموضع السجود ومظهر آثار الخضوع الذى هو من أخص خصائص الإخلاص أو بوجهه وقصده بحيث لا يلوى عزيمته إلى شىء غيره ﴿ وهو محسن ﴾ حال من ضمير أسلم أى والحال أنه محسن فى جميع أعماله التى من جملتها الإسلام المذكور وحقيقة الإحسان الإتيان بالعمل على الوجه اللائق وهو حسنه الوصفى التابع لحسنه الذاتى وقد فسره صلى الله عليه وسلم بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ﴿ فله أجره ﴾ الذى وعد له على عمله وهو عبارة عن دخول الجنة أو عما يدخل هو فيه دخولا أوليا وأياما كان فتصويره بصورة الأجر للإيذان بقوة ارتباطه بالعمل واستحالة نيله بدونه وقوله تعالى : ﴿ عند ربه ﴾ حال من أجره والعامل فيه معنى الاستقرار فى الظرف والعندية للتشريف ووضع اسم الرب مضافا إلى ضمير من أسلم موضع ضمير الجلالة لإظهار مزيد اللطف به وتقرير مضمون الجملة أى فله أجره عند مالكه ومدبر أموره ومبلغه إلى كماله والجملة جواب من إن كانت شرطية وخبرها إن كانت موصولة والفاء لتضمنها معنى الشرط فيكون الرد بقوله تعالى بلى وحده ويجوز أن يكون من فاعلا لفعل مقدر أى بلى يدخلها من أسلم وقوله تعالى فله أجره معطوف على ذلك المقدر وأياما كان فتعليق ثبوت الأجر بما ذكر

من الإسلام والإحسان المختصين بأهل الإيمان قاض بأن أولئك المدعين من دخول الجنة بمعزل ومن الاختصاص به بألف منزل ﴿ ولا خوف عليهم ﴾ فى الدارين من لحوق مكروه ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ من فوات مطلوب أى لا يعتريهم ما يوجب ذلك لا أنه يعتريهم لكنهم لا يخافون ولا يحزنون والجمع فى الضمائر الثلاثة باعتبار معنى من كما أن الأفراد فى الضمائر الأول باعتبار اللفظ ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شىء ﴾ بيان لتضليل كل فريق صاحبه بخصوصه إثر بيان تضليله كل من عداه على وجه العموم . نزلت لما قدم وفد نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتاهم أحبار اليهود فتناظروا فارتفعت أصواتهم فقالوا لهم لستم على شىء أى أمر يعتد به من الدين أو على شىء مامنه أصلا مبالغة فى ذلك كما قالوا أقل من لاشىء وكفروا بعيسى والإنجيل ﴿ وقالت النصارى ليست اليهود على شىء ﴾ على الوجه المذكور وكفروا بموسى والتوراة لا أنهم قالوا ذلك بناء للأمر على منسوخية التوراة ﴿ وهم يتلون الكتاب ﴾ والواو للحال واللام للجنس أى قالوا ما قالوا والحال أن كل فريق منهم من أهل العلم والكتاب أى كان حق كل منهم أن يعترف بحقيقة دين صاحبه حسبما ينطق به كتابه فإن كتب الله تعالى متصادقة ﴿ كذلك ﴾ أى مثل ذلك الذى سمعت به والكاف فى محل النصب اما على أنها نعت لمصدر محذوف قدم على عامله لإفادة القصر أى قولا مثل ذلك القول بعينه لا قولا مغايرا له ﴿ قال الذين لا يعلمون ﴾ من عبدة الأصنام والمعطلة ونحوهم من الجهلة أى قالوا لأهل كل دين ليسوا على شىء وإما على أنها حال من المصدر المضمر المعروف الدال عليه قال أى قال القول الذين لايعلمون حال كونه مثل ذلك القول الذى سمعت به ﴿ مثل قولهم ﴾ إما بدل من محل الكاف وإما مفعول للفعل المنفى قبله أى مثل ذلك القول قال الجاهلون بمثل مقالة اليهود والنصارى وهذا توبيخ عظيم لهم حيث نظموا أنفسهم مع علمهم فى سلك من لايعلم أصلا ﴿ فالله يحكم بينهم ﴾ أى بين اليهود والنصارى فإن مساق النظم لبيان حالهم وإنما التعرض لمقالة غيرهم

لإظهار كمال بطلان مقالهم ولأن الحاجة المحوجة إلى حكم إنما وقعت بينهم ﴿ يوم القيامة ﴾ متعلق بيحكم وكذا ما قبله وما بعده ولا ضير فيه لاختلاف المعنى ﴿ فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ بما يقسم لكل فريق ما يليق به من العقاب وقيل حكمه بينهم أن يكذبهم ويدخلهم النار والظرف الأخير متعلق بيختلفون قدم عليه للمحافظة على رؤس الآى لا بكانوا ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله ﴾ إنكار واستبعاد لأن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك أو مساويا له وإن لم يكن سبك التركيب متعرضا لإنكار المساواة ونفيها يشهد به العرف الفاشى والاستعمال المطرد فإذا قيل من أكرم من فلان أولا أفضل من فلان فالمراد به حتما أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل وهذا الحكم عام لكل من فعل ذلك فى أى مسجد كان وإن كان سبب النزول فعل طائفة معينة فى مسجد مخصوص . روى أن النصارى كانوا يطرحون فى بيت المقدس الأذى ويمنعون الناس أن يصلوا فيه وأن الروم غزوا أهله فخربوه وأحرقوا التوراة وقتلوا وسبوا وقد نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما أن طيطيوس الرومى ملك النصارى وأصحابه غزوا بنى إسرائيل وقتلوا مقاتلتهم وسبوا ذراريهم وأحرقوا التوراة وخربوا بيت المقدس وقذفوا فيه الجيف وذبحوا فيه الخنازير ولم يزل خرابا حتى بناه المسلمون فى عهد عمر رضى الله عنه وإنما أوقع المنع على المساجد وإن كان الممنوع هو الناس لما أن فعلهم من طرح الأذى والتخريب ونحوهما متعلق بالمسجد لا بالناس مع كونه على حاله وتعلق الآية الكريمة بما قبلها من حيث أنها مبطلة لدعوى النصارى اختصاصهم بدخول الجنة وقيل هو منع المشركين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية فتعلقها بما تقدمها من جهة أن المشركين من جملة الجاهلين القائلين لكل من عداهم ليسوا على شىء .

﴿ أن يذكر فيها اسمه ﴾ ثانى مفعولى منع كقوله تعالى (وما منع الناس أن يؤمنوا) ، وقوله تعالى (ومامنعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) ويجوز أن يكون ذلك بحذف الجار مع أن وأن يكون ذلك مفعولا

له أى كراهة أن يذكر فيها اسمه ﴿ وسعى فى خرابها ﴾ بالهدم أو التعطيل بانقطاع الذكر ﴿ أولئك ﴾ المانعون الظالمون الساعون فى خرابها ﴿ ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ﴾ أى ما كان ينبغى لهم أن يدخلوها إلا بخشية وخضوع فضلا عن الاجتراء على تخريبها أو تعطيلها أو ما كان الحق أن يدخلوها إلا على حال التهيب وارتعاد الفرائص من جهة المؤمنين أن يبطشوا بهم فضلا أن يستولوا عليها ويلوها ويمنعوهم منها أو ما كان لهم فى علم الله تعالى وقضائه بالآخرة إلا ذلك فيكون وعدا للمؤمنين بالنصرة واستخلاص ما استولوا عليه منهم وقد أنجز الوعد ولله الحمد . روى أنه لا يدخل بيت بيت المقدس أحد من النصارى إلا متنكرا مسارقة وقيل معناه النهى عن تمكينهم من الدخول فى المسجد واختلف الأئمة فى ذلك فجوزه أبو حنيفة مطلقا ومنعه مالك مطلقا وفرق الشافعى بين المسجد الحرام وغيره ﴿ لهم ﴾ أى لأولئك المذكورين ﴿ فى الدنيا خزى ﴾ أى خزى فظيع لا يوصف بالقتل والسبى والإذلال بضرب الجزية عليهم ﴿ ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ﴾ وهو عذاب النار لما أن سببه أيضا وهو ماحكى من ظلمهم كذلك فى العظم وتقديم الظرف فى الموضعين للتشويق إلى مايذكر بعده من الخزى والعذاب لما مر من أن تأخير ماحقه التقديم موجب لتوجه النفس إليه فيتمكن فيها عند وروده فضل تمكن كما فى قوله تعالى (ألم نشرح لك صدرك) (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) إلى غير ذلك ﴿ ولله المشرق والمغرب ﴾ أى له كل الأرض التى هى عبارة عن ناحيتى المشرق والمغرب لا يختص به من حيث الملك والتصرف ومن حيث المحلية لعبادته مكان منها دون مكان فإن منعتم من إقامة العبادة فى المسجد الأقصى أو المسجد الحرام ﴿ فأينما تولوا ﴾ أى ففى أى مكان فعلتم تولية وجوهكم شطر القبلة ﴿ فثم وجه الله ﴾ ثم اسم إشارة للمكان البعيد خاصة مبنى على الفتح ولا يتصرف سوى الجر بمن وهو خبر مقدم ووجه الله مبتدأ والجملة فى محل الجزم على أنها جواب الشرط أى هناك جهته التى أمر بها فإن إمكان التولية غير مختص بمسجد دون مسجد

أو مكان دون آخر أو فثم ذاته بمعنى الحضور العلمى أى فهو عالم بما يفعل فيه ومثيب لكم على ذلك وقرىء بفتح التاء واللام أى فأينما توجهوا القبلة ﴿ إن الله واسع ﴾ بإحاطته بالأشياء أو برحمته يريد التوسعة على عباده ﴿ عليم ﴾ بمصالحهم وأعمالهم فى الأماكن كلها والجملة تعليل لمضمون الشرطية وعن ابن عمر رضى الله عنهما نزلت فى صلاة المسافرين على الراحلة أينما توجهوا وقيل فى قوم عميت عليهم القبلة فصلوا إلى أنحاء مختلفة فلما أصبحوا تبينوا خطأهم وعلى هذا لو أخطأ المجتهد ثم تبين له الخطأ لم يلزمه التدارك وقيل هى توطئة لنسخ القبلة وتنزيه للمعبود عن أن يكون فى جهة ﴿ وقالوا اتخذ الله ولدا ﴾ حكاية لطرف آخر من مقالاتهم الباطلة المحكية فيما سلف معطوفة على ما قبلها من قوله تعالى وقالت الخ لا على صلة من لما بينهما من الجمل الكثيرة الأجنبية والضمير لليهود والنصارى ومن شاركهم فيما قالوا من الذين لا يعلمون وقرىء بغير واو على الاستئناف نزلت حين قالت اليهود عزيز ابن الله والنصارى المسيح ابن الله ومشركو العرب الملائكة بنات الله والاتخاذ إما بمعنى الصنع والعمل فلا يتعدى إلا إلى واحد وإما بمعنى التصيير والمفعول الأول محذوف أى صير بعض مخلوفاته ولدا ﴿ سبحانه ﴾ تنزيه وتبرئة له تعالى عما قالوا وسبحان علم للتسبيح كعثمان للرجل وانتصابه على المصدرية ولا يكاد يذكر ناصبه أى أسبح سبحانه أى أنزهه تنزيها لائقا به وفيه من التنزيه البليغ من حيث الاشتقاق من السبح الذى هو الذهاب والإبعاد فى الأرض ومن جهة النقل إلى التفعيل ومن جهة العدول من المصدر إلى الاسم الموضوع له خاصة لاسيما العلم المشير إلى الحقيقة الحاضرة فى الذهن ومن جهة إقامته مقام المصدر مع الفعل مالا يخفى وقيل هو مصدر كغفران بمعنى التنزه أى تنزه بذاته تنزها حقيقا به ففيه مبالغة من حيث إسناد البراءة إلى الذات المقدسة وإن كان التنزيه اعتقاد تزاهته تعالى عما لا يليق به لا إثباتها له تعالى ﴿ بل له ما فى السموات والأرض ﴾ رد لما زعموا وتنبيه على بطلانه وكلمة بل للإضراب عما تقتضيه مقالتهم الباطلة

من مجانسته سبحانه وتعالى لشىء من المخلوقات ومن سرعة فنائه المحوجة إلى اتخاذ ما يقوم مقامه فإن مجرد الإمكان والفناء لا يوجب ذلك . ألا يرى أن الأجرام الفلكية مع إمكانها وفنائها بالآخرة مستغنيه بدوامها وطول بقائها عما يجرى مجرى الولد من الحيوان أى ليس الأمر كما زعموا بل هو خالق جميع الموجودات التى من جملتها عزير والمسيح والملائكة ﴿ كل ﴾ التنوين عوض عن المضاف إليه أى كل ما فيهما كائنا ما كان من أولى العلم وغيرهم ﴿ له قانتون ﴾ منقادون لا يستعصى شىء منهم على تكوينه وتقديره ومشيئته ومن كان هذا شأنه لم يتصور مجانسته لشىء ومن حق الولد أن يكون من جنس الوالد وإنما جىء بما المختصة بغير أولى العلم تحقيرا لشأنهم وإيذانا بكمال بعدهم عما نسبوا إلى بعض منهم وصيغة جمع العقلاء فى قانتون للتغليب أو كل من جعلوه لله تعالى ولدا له قانتون أى مطيعون عابدون له معترفون بربوبيته تعالى أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴿ بديع السموات والأرض ﴾ أى مبدعهما ومخترعهما بلا مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه فإن البديع كما يطلق على المبتدع يطلق على المبتدع نص عليه أساطين أهل اللغة وقد جاء بدعه كمنعه بمعنى أنشأه كابتدعه كما ذكر فى القاموس وغيره ونظيره السميع بمعنى المسمع فى قوله * أمن ريحانة الداعى السميع * وقيل هو من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها للتخفيف بعد نصبه على تشبيهها باسم الفاعل كما هو المشهور أى بديع سمواته من بدع إذا كان على شكل فائق وحسن رائق وهو حجة أخرى لإبطال مقالتهم الشنعاء تقريرها أن الوالد عنصر الولد المنفعل بانفصال مادته عنه والله سبحانه مبدع الأشياء كلها على الإطلاق منزه عن الانفعال فلا يكون والدا ورفعه على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى هو بديع الخ وقرىء بالنصب على المدح وبالجر على أنه بدل من الضمير فى له على رأى من يجوز الإبدال من الضمير المجرور كما فى قوله * على جوده ضن بالماء حاتم *

﴿ وإذا قضى أمرا ﴾ أى أراد شيئا كقوله إنما أمره إذا أراد شيئا وأصل القضاء الإحكام أطلق على الإرادة الإلهيه المتعلقة بوجود الشىء لإيجابها إياه البتة

وقيل الأمر ومنه قوله تعالى (وقضى ربك) الخ ﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾ كلاهما من الكون التام أى أحدث وليس المراد به حقيقة الأمر والامتثال وإنما هو تمثيل لسهولة تأتى المقدورات بحسب تعلق مشيئته تعالى وتصوير لسرعة حدوثها بما هو علم فى الباب من طاعة المأمور المطيع للآمر القوى المطاع وفيه تقرير لمعنى الإبداع وتلويح لحجة أخرى لإبطال ما زعموه بأن اتخاذ الولد شأن من يفتقر فى تحصيل مراده إلى مبادىء يستدعى ترتيبها مرور زمان وتبدل أطوار وفعله تعالى متعال عن ذلك ﴿ وقال الذين لا يعلمون ﴾ حكاية لنوع آخر من قبائحهم وهو قدحهم فى أمر النبوة بعد حكاية قدحهم فى شأن التوحيد بنسبة الولد إليه سبحانه وتعالى واختلف فى هؤلاء القائلين فقال ابن عباس رضى الله عنهما هم اليهود وقال مجاهد هم النصارى ووصفهم بعدم العلم لعدم علمهم بالتوحيد والنبوة كما ينبغى أو لعدم علمهم بموجب علمهم أو لأن ما يحكى عنهم لا يصدر عمن له شائبة علم أصلا وقال قتادة وأكثر أهل التفسير هم مشركو العرب لقوله تعالى (فليأتنا بآية كما أرسل الأولون) وقالوا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴿ لولا يكلمنا الله ﴾ أى هلا يكلمنا بلا واسطة أمرا ونهيا كما يكلم الملائكة أو هلا يكلمنا تنصيصا على نبوتك ﴿ أو تأتينا آية ﴾ حجة تدل على صدقك بلغوا من العتو والاستكبار إلى حيث أملوا نيل مرتبة المفاوضة الإلهية من غير توسط الرسول والملك ومن العناد والمكابرة إلى حيث لم يعدوا ما آتاهم من البينات الباهرة التى تخر لها صم الجبال من قبيل الآيات قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك القول الشنيع الصادر عن العناد والفساد ﴿ قال الذين من قبلهم ﴾ من الأمم الماضية ﴿ مثل قولهم ﴾ هذا الباطل الشنيع فقالوا أرنا الله جهرة وقالوا لن نصبر على طعام واحد الآية وقالوا هل يستطيع ربك الخ وقالوا اجعل لنا إلها الخ ﴿ تشابهت قلوبهم ﴾ أى قلوب هؤلاء وأولئك فى العمى والعناد وإلا لما تشابهت أقاويلهم الباطلة ﴿قد بينا الآيات﴾ أى نزلناها بينة بأن جعلناها كذلك فى أنفسها كما فى قولهم سبحان من صغر

البعوض وكبر الفيل لا أنا بيناها بعد أن لم تكن بينة ﴿ لقوم يوقنون ﴾ أى يطلبون اليقين ويوقنون بالحقائق لايعتريهم شبهة ولا ريبة وهذا رد لطلبهم الآية وفى تعريف الآيات وجمعها وإيراد التبيين المفصح عن كمال التوضيح مكان الإتيان الذى طلبوه ما لايخفى من الجزالة والمعنى أنهم اقترحوا آية فذة ونحن قد بينا الآيات العظام لقوم يطلبون الحق واليقين وإنما لم يتعرض لرد قولهم لولا يكلمنا الله إيذانا بأنه من ظهور البطلان بحيث لا حاجة له إلى الرد والجواب ﴿إنا أرسلناك بالحق﴾ أى ملتبسا بالقرآن كما فى قوله تعالى (بل كذبوا بالحق لما جاءهم) أو بالصدق كما فى قوله تعالى (أحق هو) وقوله تعالى: ﴿ بشيرا ونذيرا ﴾ حال من المفعول باعتبار تقييده بالحال الأولى أى أرسلناك ملتبسا بالقرآن حال كونك بشيرا لمن آمن بما أنزل عليك وعمل به ونذيراً لمن كفر به أو أرسلناك صادقا حال كونك بشيرا لمن صدقك بالثواب ونذيرا لمن كذبك بالعذاب ليختاروا لأنفسهم ما أحبوا لاقاسر لهم على الإيمان فلا عليك إن أصروا وكابروا ﴿ ولا تسأل عن أصحاب الجحيم ﴾ ما لهم لم يؤمنوا بعدما بلغت ما أرسلت به وقرىء لن تسأل وقرىء لا تسأل على صيغة النهى إيذانا بكمال شدة عقوبة الكفار وتهويلا لها كأنها لغاية فظاعتها لا يقدر المخبر على إجرائها على لسانه أو لا يستطيع السامع أن يسمع خبرها وحمله على نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن السؤال عن حال أبويه مما لا يساعده النظم الكريم والجحيم المتأجج من النار وفى التعبير عنهم بصاحبية الجحيم دون الكفر والتكذيب ونحوهما وعيد شديد لهم وإيذان بأنهم مطبوع عليهم لا يرجى منهم الإيمان قطعا .

وقوله تعالى : ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾ بيان لكمال شدة شكيمة هاتين الطائفتين خاصة إثر بيان ما يعمهما والمشركين من الإصرار على ما هم عليه إلى الموت وإيراد لا النافية بين المعطوفين لتأكيد النفى لما مر من أن تصلب اليهود فى أمثال هذه العظائم أشد من النصارى

والإشعار بأن رضى كل منهما مباين لرضى الأخرى أى لن ترضى عنك اليهود ولو خليتهم وشأنهم حتى تتبع ملتهم ولا النصارى ولو تركتهم حتى تتبع ملتهم فأوجز النظم ثقة بظهور المراد وفيه من المبالغة فى إقناطه صلى الله عليه وسلم من إسلامهم ما لاغاية وراءه فإنهم حيث لم يرضوا عنه عليه السلام ولو خلاهم يفعلون مايفعلون بل أملوا منه صلى الله عليه وسلم مالايكاد يدخل تحت الإمكان من اتباعه عليه السلام لملتهم فكيف يتوهم اتباعهم لملته عليه السلام وهذه حالتهم فى أنفسهم ومقالتهم فيما بينهم ، وإما أنهم أظهروها للنبى صلى الله عليه وسلم وشافهوه بذلك وقالوا لن نرضى عنك وإن بالغت فى طلب رضانا حتى تتبع ملتنا كما قيل فلا يساعده النظم الكريم بل فيه مايدل على خلافه فإن قوله عز وجل ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾ صريح فى أن ما وقع هذا جوابا عنه ليس عين تلك العبارة بل ما يستلزم مضمونها أو يلزمه من الدعوة إلى اليهودية والنصرانية وأداء أن الاهتداء فيهما كقوله عز وجل حكاية عنهم كونوا هودا أو نصارى تهتدوا أى قل ردا عليهم إن هدى الله الذى هو الإسلام هو الهدى بالحق والذى يحق ويصح أن يسمى هدى وهو الهدى كله ليس وراءه هدى وماتدعون إليه ليس بهدى بل هو هوى كما يعرب عنه قوله تعالى ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ أى آراءهم الزائغة الصادرة عنهم بقضية شهوات أنفسهم وهى التى عبر عنها فيما قبل بملتهم إذ هى التى ينتمون إليها ، وأما ماشرعه الله تعالى لهم من الشريعة على لسان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهو المعنى الحقيقى للملة فقد غيروها تغييرا ﴿ بعد الذى جاءك من العلم ﴾ أى الوحى أو الدين المعلوم صحته ﴿ مالك من الله ﴾ من جهته العزيزة ﴿ من ولى ﴾ يلى أمرك عموما ﴿ ولا نصير ﴾ يدفع عنك عقابه وحيث لم يستلزم نفى الولى نفى النصير وسط لا بين المعطوفين لتأكيد النفى وهذا من باب التهييج والإلهاب وإلا فأنى يتوهم إمكان اتباعه عليه السلام لملتهم وهو جواب للقسم الذى وطأه اللام واكتفى به عن جواب الشرط. ﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه ﴿ يتلونه

حق تلاوته ﴾ بمراعاة لفظه عن التحريف وبالتدبر فى معانيه والعمل بما فيه وهو حال مقدرة والخبر ما بعده أو خبر وما بعده مقرر له ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الموصوفين بإيتاء الكتاب وتلاوته كما هو حقه ، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم فى الفضل ﴿ يؤمنون به ﴾ أى بكتابهم دون المحرفين فإنهم بمعزل من الإيمان به فإنه لا يجامع الكفر ببعض منه ﴿ ومن يكفر به ﴾ بالتحريف والكفر بما يصدقه ﴿ فأولئك هم الخاسرون ﴾ حيث اشتروا الكفر بالإيمان ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ﴾ ومن جملتها التوراة وذكر النعمة إنما يكون بشكرها وشكرها الإيمان بجميع ما فيها ومن جملته نعت النبى صلى الله عليه وسلم ومن ضرورة الإيمان بها الإيمان به عليه الصلاة والسلام ﴿ وأنى فضلتكم على العالمين ﴾ أفردت هذه النعمة بالذكر مع كونها مندرجة تحت النعمة السالفة لإنافتها فيما بين فنون النعم ﴿ واتقوا ﴾ إن لم تؤمنوا ﴿ يوما لا تجزى ﴾ فى ذلك اليوم ﴿ نفس ﴾ من النفوس ﴿ عن نفس ﴾ أخرى ﴿ شيئاً ﴾ من الأشياء أو شيئا من الجزاء ﴿ ولا يقبل منها عدل ﴾ أى فدية ﴿ ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون ﴾ وتخصيصهم بتكرير التذكير وإعادة التحذير للمبالغة فى النصح وللإيذان بأن ذلك فذلكة القضية والمقصود من القصة لما أن نعم الله عز وجل عليهم أعظم وكفرهم بها أشد وأقبح ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات ﴾ شروع فى تحقيق أن هدى الله هو ما عليه النبى صلى الله عليه وسلم من التوحيد والإسلام الذى هو ملة إبراهيم عليه السلام ، وأن ما عليه أهل الكتابين أهواء زائغة وأن ما يدعونه من أنهم على ملة إبراهيم عليه والصلاة والسلام فرية بلا مرية ببيان ما صدر عن إبراهيم وأبنائه الأنبياء عليهم السلام من الأقاويل والأفاعيل الناطقة بحقية التوحيد والإسلام وبطلان الشرك وبصحة نبوة النبى صلى الله عليه وسلم وبكونه ذلك النبى الذى استدعاه إبراهيم وإسمعيل عليهما الصلاة والسلام بقولهما (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) الآية فإذا منصوب على المفعولية بمضمر مقدر خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين أى واذكر لهم وقت ابتلائه عليه السلام ليتذكروا بما

وقع فيه من الأمور الداعية إلى التوحيد الوازعة عن الشرك فيقبلوا الحق ويتركوا ماهم فيه من الباطل وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ماوقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات قد مر وجهه فى أثناء تفسير قوله عز وجل (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة) وقيل على الظرفية بمضمر مؤخر أى وإذا ابتلاه كان كيت وكيت وقيل بما سيجىء من قوله تعالى : قال الخ ، والأول هو اللائق بجزالة التنزيل ولا يبعد أن ينتصب بمضمر معطوف على اذكروا خوطب به بنو إسرائيل ليتأملوا فيما يحكى عمن ينتمون إلى ملة إبراهيم وأبنائه عليهم السلام من الأفعال والأقوال ليقتدوا بهم ويسيروا سيرتهم والإبتلاء فى الأصل الاختبار أى تطلب الخبرة بحال المختبر بتعريضه لأمر يشق عليه غالبا فعله أو تركه وذلك إنما يتصور حقيقة ممن لاوقوف له عواقب الأمور ، وأما من العليم الخبير فلا يكون إلا مجازا من تمكينه للعبد من اختيار أحد الأمرين قبل أن يرتب عليه شيأ هو من مباديه العادية كمن يختبر عبده ليتعرف حاله من الكياسة فيأمره بما يليق بحاله من مصالحه وإبراهيم اسم أعجمى قال السهيلى كثيراً ما يقع الاتفاق أو التقارب بين السريانى والعربى ألا ترى أن إبراهيم تفسيره أب راحم ولذلك جعل هو وزوجته سارة كافلين لأطفال المؤمنين الذين يموتون صغارا إلى يوم القيامة على ما روى البخارى فى حديث الرؤيا أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى فى الروضة إبراهيم عليه السلام وحوله أولاد الناس وهو مفعول مقدم لإضافة فاعله إلى ضميره والتعرض لعنوان الربوبية تشريف له عليه السلام وإيذان بأن ذلك الابتلاء تربية له وترشيح لأمر خطير والمعنى عامله سبحانه معاملة المختبر حيث كلفه أوامر ونواهى تظهر بحسن قيامه بحقوقها قدرته على الخروج عن عهدة الإمامة العظمى وتحمل أعباء الرسالة وهذه المقالة وتذكيرها الناس لإرشادهم إلى طريق إتقان الأمور ببنائها على التجربة وللإيذان بأن بعثة النبى صلى الله عليه وسلم أيضا مبنية على تلك القاعدة الرصينة واقعة بعد ظهور استحقاقه عليه السلام للنبوة العامة · كيف لا وهى التى أجيب بها دعوة إبراهيم عليه السلام.

كما سيأتى واختلف فى الكلمات فقال مجاهد هى المذكورة بعدها ورد بأنه يأباه الفاء فى فأتمهن ثم الاستئناف وقال طاوس عن ابن عباس رضى الله عنهما هى عشر خصال كانت فرضا فى شرعه وهن سنة فى شرعنا خمس فى الرأس المضمضة والاستنشاق وفرق الرأس وقص الشارب والسواك وخمس فى البدن الختان وحلق العانة ونتف الإبط وتقليم الأظفار والاستنجاء بالماء .

وفى الخبر أن إبراهيم عليه السلام أول من قص الشارب وأول من اختتن وأول من قلم الأظفار وقال عكرمة عن ابن عباس لم يبتل أحد بهذا الدين فأقامه كله إلا إبراهيم ابتلاه الله تعالى بثلاثين خصلة من خصال الإسلام عشر منها فى سورة براءة: التائبون إلخ وعشر فى الأحزاب: إن المسلمين والمسلمات إلخ وعشر فى المؤمنون: وسأل سائل إلى قوله عز وجل والذين هم على صلاتهم يحافظون . وقيل ابتلاه الله سبحانه بسبعة أشياء بالشمس والقمر والنجوم والاختتان على الكبر والنار وذبح الولد والهجرة فوفى بالكل وقيل هن محاجته قومه والصلاة والزكاة والصوم والضيافة والصبر عليها وقيل هى المناسك كالطواف والسعى والرمى والإحرام والتعريف وغيرهن وقيل هى قوله عليه السلام (الذى خلقنى فهو يهدين) الآيات ثم قيل إنما وقع هذا الابتلاء قبل النبوة وهو الظاهر وقيل بعدها لأنه يقتضى سابقة الوحى وأجيب بأن مطلق الوحى لا يستلزم البعثة إلى الخلق وقرىء برفع إبراهيم ونصب ربه أى دعاه بكلمات من الدعاء فعل المختبر هل يجيبه إليهن أولا ﴿ فأتمهن ﴾ أى قام بهن حق القيام وأداهن أحسن التأدية من غير تفريط وتوان كما فى قوله تعالى (وإبراهيم الذى وفى) وعلى القراءة الأخيرة فأعطاه الله تعالى ما سأله من غير نقص ويعضده ما روى عن مقاتل أنه فسر الكلمات بما سأل إبراهيم ربه بقوله (رب اجعلنى) الآيات وقوله عز وجل ﴿ قال ﴾ على تقدير انتصاب إذ بمضمر جملة مستأنفة وقعت جوابا عن سؤال نشأ من الكلام فإن الابتلاء تمهيد لأمر معظم وظهور فضيلة المبتلى من دواعى الإحسان إليه فبعد حكايتها تترقب النفس إلى ما وقع بعدهما كأنه قيل فماذا كان بعد ذلك فقيل قال ﴿ إنى جاعلك للناس إماما ﴾ أو بيان لقوله تعالى

وابتلى على رأى من يجعل الكلمات عبارة عما ذكر أثره من الإمامة وتطهير البيت ورفع قواعده وغير ذلك وعلى تقدير انتصاب إذ يقال فالجملة معطوفة على ما قبلها عطف القصة على القصة والواو فى المعنى داخلة على قال أى وقال إذا ابتلى إلخ والجعل بمعنى التصيير أحد مفعوليه الضمير والثانى إماما واسم الفاعل بمعنى المضارع وأوكد منه لدلالته على أنه جاعل له البتة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه وللناس متعلق بجاعلك أى لأجل الناس أو بمحذوف وقع حالا من إماما إذ لو تأخر عنه لكان صفة له والإمام اسم لمن يؤتم به وكل نبى إمام لأمته وإمامته عليه السلام عامة مؤبدة إذ لم يبعث بعده نبى إلا كان من ذريته مأمورا باتباع ملته .

﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا قال إبراهيم عليه السلام عنده ؟ فقيل : قال ﴿ ومن ذريتى ﴾ عطف على الكاف ومن تبعيضية متعلقة بجاعل أى وجاعل بعض ذريتى كما تقول وزيداً لمن يقول سأكرمك أو بمحذوف أى واجعل فريقا من ذريتى إماما وتخصيص البعض بذلك لبداهة استحالة إمامة الكل وإن كانوا على الحق وقيل التقدير وماذا يكون من ذريتى والذرية نسل الرجل فعولة من ذروت أو ذريت والأصل ذرووة أو ذروية فاجتمع فى الأولى واوان زائدة وأصلية فقلبت الأصلية ياء فصارت كالثانية فاجتمعت واو وياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء فى الياء فصارت ذرية أو فعيلة منهما والأصل فى الأولى ذريوة فقلبت الواو ياء لما سبق من اجتماعهما وسبق إحداهما بالسكون فصارت ذريية كالثانية فأدغمت الياء فى مثلها فصارت ذرية أو فعيلة من الذرء بمعنى الخلق والأصل ذريئة فخففت الهمزة بإبدالها ياء كهمزة خطيئة ثم أدغمت الياء الزائدة فى المبدلة أو فعيلة من الذر بمعنى التفريق والأصل ذريرة قلبت الراء الأخيرة ياء لتوالى الأمثال كما فى تسرى وتقضى وتظنى فأدغمت الياء فى الياء كما مر أو فعولة منه والأصل ذرورة فقلبت الراء الأخيرة ياء فجاء الإدغام وقرىء بكسر الذال وهى لغة فيها وقرأ أبو جعفر المدنى بالفتح وهى أيضا لغة فيها ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على سؤال

ينساق إليه الذهن كما سبق ﴿لا ينال عهدى الظالمين﴾ ليس هذا ردا لدعوته عليه السلام بل إجابة خفية لها وعدة إجمالية منه تعالى بتشريف بعض ذريته عليه السلام بنيل عهد الإمامة حسبما وقع فى استدعائه عليه الصلاة السلام من غير تعيين لهم بوصف يميز لهم عن جميع من عداهم فإن التنصيص على حرمان الظالمين منه بمعزل من ذلك التمييز إذ ليس معناه أنه ينال كل من ليس بظالم منهم ضرورة استحالة ذلك كما أشير إليه ولعل إيثار هذه الطريقة على تعيين الجامعين لمبادىء الإمامة من ذريته إجمالا أو تفصيلا وإرسال الباقين لئلا ينتظم المقتدون بالأئمة من الأمة فى سلك المحرومين وفى تفصيل كل فرقة من الإطناب مالا يخفى مع ما فى هذه الطريقة من تخييب الكفرة الذين كانوا يتمنون النبوة وقطع أطماعهم الفارغة من نيلها . إنما أوثر النيل على الجعل إيماء إلى أن إمامة الأنبياء عليهم السلام من ذريته عليه السلام كاسمعيل وإسحق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان وأيوب ويونس وزكريا ويحيى وعيسى وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا ليست بجعل مستقل بل هى حاصلة فى ضمن إمامة إبراهيم عليه السلام تنال كلا منهم فى وقت قدره الله عز وجل وقرىء الظالمون على أن عهدى مفعول قدم على الفاعل اهتماما ورعاية للفواصل وفيه دليل على عصمة الأنبياء عليهم السلام من الكبائر على الإطلاق وعدم صلاحية الظالم للإمامة . قوله تعالى ﴿وإذ جعلنا البيت﴾ أى الكعبة المعظمة غلب عليها غلبة النجم على الثريا معطوف على إذ ابتلى على أن العامل فيه هو العامل فيه أو مضمر مستقل معطوف على المضمر الأول والجعل إما بمعنى التصيير فقوله عز وجل ﴿مثابة﴾ أى مرجعا يثوب إليه الزوار بعدما تفرقوا عنه أو أمثالهم أو موضع ثواب يثابون بحجه واعتماره مفعوله الثانى وإما بمعنى الإبداع فهو حال من مفعوله واللام فى قوله تعالى ﴿للناس﴾ متعلقة بمحذوف وقع صفة لمثابة أى مثابة كائنة للناس أو بجعلنا أى جعلناه لأجل الناس وقرىء مثابات باعتبار تعدد التائبين. ﴿وأمنا﴾ أى آمنا كما فى قوله تعالى (حرما آمنا) على إيقاع المصدر موقع اسم

الفاعل للمبالغة أو على تقدير المضاف أى ذا أمن أو على الإسناد المجازى أى آمنا بحجه من عذاب الآخرة من حيث أن الحج يجب ما قبله أو من دخله من التعرض له بالعقوبة وإن كان جانيا حتى يخرج على ما هو رأى أبى حنيفة ويجوز أن يعتبر الأمن بالقياس إلى كل شىء كائنا ما كان ويدخل فيه أمن الناس دخولا أوليا وقد اعتيد فيه أمن الصيد حتى أن الكلب كان يهم بالصيد خارج الحرم فيفر منه وهو يتبعه فإذا دخل الصيد الحرم لم يتبعه الكلب ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ على إرادة قول هو عطف على جعلنا أو حال من فاعله أى وقلنا أو قائلين لهم اتخذوا إلخ وقيل هو بنفسه معطوف على الأمر الذى يتضمنه قوله عز وجل مثابة للناس كأنه قيل توبوا إليه واتخذوا إلخ وقيل على المضمر العامل فى إذ وقيل هى جملة مستأنفة والخطاب على الوجوه الأخيرة له عليه السلام ولأمته والأول هو الأليق بجزالة النظم الكريم والأمر صريحا كان أو مفهوما من الحكاية للاستحباب ومن تبعيضية والمقام اسم مكان وهو الحجر الذى عليه أثر قدمه عليه السلام والموضع الذى كان عليه حين قام ودعا الناس إلى الحج أو حين رفع قواعد البيت وهو موضعه اليوم والمراد بالمصلى إما موضع الصلاة أو موضع الدعاء روى أنه صلى الله عليه وسلم أخذ بيد عمر رضى الله عنه فقال «هذا مقام إبراهيم» فقال عمر رضى الله عنه أفلا نتخذه مصلى فقال «لم أومر بذلك» فلم تغب الشمس حتى نزلت وقيل المراد به الأمر بركعتى الطواف لما روى جابر رضى الله عنه أنه عليه السلام لما فرغ من طوافه عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين وقرأ (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وللشافعى فى وجوبهما قولان وقيل مقام إبراهيم الحرم كله وقيل مواقف الحج عرفة والمزدلفة والجمار واتخاذها مصلى أن يدعى فيها ويتقرب إلى الله عز وجل وقرىء واتخذوا على صيغة الماضى عطفا على جعلنا أى واتخذ الناس من مكان إبراهيم الذى وسم به لاهتمامه به وإسكان ذريته عنده قبلة يصلون إليها ﴿ وعهدنا إلى إبراهيم وإسمعيل ﴾ أى أمرناهما أمرا مؤكدا ﴿ أن طهرا بيتى ﴾ بأن طهراه على أن مصدرية حذف عنها الجار حذفا مطردا لجواز كون صلتها أمرا

ونهيا كما فى قوله عز وجل (وأن أقم وجهك للدين حنيفا) لأن مدار جواز كونها فعلا إنما هو دلالته على المصدر وهى متحققة فيهما ووجوب كونها خبرية فى صلة الموصول الاسمى إنما هو للتوصل إلى وصف المعارف بالجمل وهى لا يوصف بها إلا إذا كانت خبرية وأما الموصول الحرفى فليس كذلك ولما كان الخبر والإنشاء فى الدلالة على المصدر سواء ساغ وقوع الأمر والنهى صلة حسب وقوع الفعل فيتجرد عند ذلك عن معنى الأمر والنهى نحو تجرد الصلة الفعلية عن معنى المضى والاستقبال أو أى طهراه على أن «أن» مفسرة لتضمن العهد معنى القول وإضافة البيت إلى ضمير الجلالة للتشريف وتوجيه الأمر بالتطهير ههنا إليهما عليهما السلام لا ينافى ما فى سورة الحج من تخصيصه بإبراهيم عليه السلام فإن ذلك واقع قبل بناء البيت كما يفصح عنه قوله تعالى (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت) وكان إسمعيل عليه السلام حينئذ بمعزل من مثابة الخطاب وظاهر أن هذا بعد بلوغه مبلغ الأمر والنهى وتمام البناء كما ينبىء عنه إيراده إثر حكاية جعله مثابة للناس إلخ والمراد تطهيره من الأوثان والأنجاس وطواف الجنب والحائض وغير ذلك مما لا يليق به ﴿للطائفين﴾ حوله ﴿والعاكفين﴾ المجاورين المقيمين عنده أو المعتكفين أو القائمين ﴿والركع السجود﴾ جمع راكع وساجد أى للطائفين والمصلين لأن القيام والركوع والسجود من هيئات المصلى أى لتقارب الأخيرين ذاتا وزمانا ترك العاطف بين موصوفيهما أو أخلصاه لهؤلاء لئلا يغشاه غيرهم وفيه إيماء إلى أن ملابسة غيرهم به وإن كانت مع مقارنة أمر مباح من قبيل تلويثه وتدنيسه ﴿وإذ قال إبراهيم﴾ عطف على ما قبله من قوله وإذ جعلنا إلخ إما بالذات أو بعامله المضمر كما مر ﴿رب اجعل هذا بلدا آمنا) ذا أمن كعيشة راضية أو آمنا أهله كليلة نائم أى اجعل هذا الوادى من البلاد الآمنة وكان ذلك أول ما قدم عليه السلام مكة كما روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهم أنه عليه الصلاة والسلام لما أسكن إسمعيل وهاجر هناك وعاد متوجها إلى الشام تبعته هاجر فجعلت تقول إلى من تكلنا فى هذا البلقع وهو لا يرد عليها جوابا حتى قالت آلله أمرك بهذا

فقال نعم قالت إذن لا يضيعنا فرضيت ومضى حتى إذا استوى على ثنية كداء أقبل على الوادى فقال (ربنا إنى أسكنت) الآية وتعريف البلد مع جعله صفة لهذا فى سورة إبراهيم إن حمل على تعدد السؤال لما أنه عليه السلام سأل أولا كلا الأمرين البلدية والأمن فاستجيب له فى أحدهما وتأخر الآخر إلى وقته المقدر له لما تقتضيه الحكمة الباهرة ثم كرر السؤال حسبما هو المعتاد فى الدعاء والابتهال أو كان المسئول أولا البلدية ومجرد الأمن المصحح للسكنى كما فى سائر البلاد وقد أجيب إلى ذلك وثانيا الأمن المعهود أو كان هو المسؤل أولا أيضا وقد أجيب إليه لكن السؤال الثانى لاستدامته والاقتصار على سؤاله مع جعل البلد صفة لهذا لأنه المقصد الأصلى أو لأن المعتاد فى البلدية الاستمرار بعد التحقق بخلاف الأمن وإن حمل على وحدة السؤال وتكرر الحكاية كما هو المتبادر فالظاهر أن المسئول كلا الأمرين وقد حكى ذلك ههنا واقتصر هناك على حكاية سؤال الأمن اكتفاء عن حكاية سؤال البلدية بحكاية سؤال جعل أفئدة الناس تهوى إليه كما سيأتى تفصيله هناك بإذن الله عز وجل ﴿وارزق أهله من الثمرات﴾ من أنواعها بأن تجعل بقرب منه قرى يحصل فيها ذلك أو يجبى إليه من الأقطار الشاسعة وقد حصل كلاهما حتى أنه يجتمع فيه الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية فى يوم واحد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الطائف كانت من أرض فلسطين فلما دعا إبراهيم عليه الصلاة والسلام بهذه الدعوة رفعها الله تعالى فوضعها حيث وضعها رزقا للحرم وعن الزهرى أنه تعالى نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾ بدل من أهله بدل البعض خصهم بالدعاء وإظهاراً لشرف الإيمان وإبانة لخطره واهتماما بشأن أهله ومراعاة لحسن الأدب وفيه ترغيب لقومه فى الإيمان وزجر عن الكفر كما أن فى حكايته ترغيبا وترهيبا لقريش وغيرهم من الكتاب ﴿قال﴾ استئناف مبنى على السؤال كما هو مرارا وقوله تعالى ﴿ومن كفر﴾ عطف على مفعول فعل محذوف تقديره ارزق من آمن ومن كفر وقوله تعالى ﴿فأمتعه﴾ معطوف على ذلك القول أو فى محل رفع بالابتداء وقوله تعالى فأمتعه خبره أى فأنا أمتعه وإنما دخلته الفاء تشبيها له بالشرط والكفر وإن لم يكن سببا للتمتيع المطلق لكنه يصلح سببا لتقليله

وكونه موصولا بعذاب النار وقيل هو عطف على من آمن عطف تلقين كأنه قيل قل وارزق من كفر فإنه أيضا مجاب كأنه عليه السلام قاس الرزق على الإمامة فنبهه تعالى على أنه رحمة دنيوية شاملة للبر والفاجر بخلاف الإمامة الخاصة بالخواص وقرىء فأمتعه من أمتع وقرىء فنمتعه ﴿قليلا﴾ تمتيعا قليلا أو زمانا قليلا ﴿ثم أضطره إلى عذاب النار﴾ أى ألزه إليه لز المضطر لكفره وتضييعه ما متعته به من النعم وقرىء ثم نضطره على وفق قراءة فنمتعه وقرىء فأمتعه قليلا ثم أضطره بلفظ الأمر فيهما على أنهما من دعاء إبراهيم عليه السلام وفى قال ضميره وإنما فصله عما قبله لكونه دعاء على الكفرة وتغيير سبكه للإيذان بأن الكفر سبب لاضطرارهم إلى عذاب النار وأما رزق من آمن فإنما هو على طريقة التفضل والإحسان وقرىء بكسر الهمزة على لغة من يكسر حرف المضارعة وأطره بإدغام الضاد فى الطاء وهى لغة مرذولة فإن حروف (ضم شفر) يدغم فيها ما يجاورها بلا عكس ﴿وبئس المصير﴾ المخصوص بالذم محذوف أى بئس المصير النار أو عذابها ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت﴾ عطف على ما قبله من قوله عز وعلا وإذ قال إبراهيم على أحد الطريقين المذكورين فى وإذ جعلنا وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة المنبئة عن المعجزة الباهرة والقواعد جمع قاعدة وهى الأساس صفة غالبة من القعود بمعنى الثبات ولعله مجاز من مقابل القيام ومنه قعدك الله ورفعه البناء عليها لأنه ينقلها من هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع والمرتفع حقيقة وإن كان هو الذى بنى عليها لكنهما لما صارا شيئا واحدا فكأنها نمت وارتفعت وقيل المراد بها ساقات البناء فإن كل ساق قاعدة لما يبنى عليها ويرفعها بناء بعضها على بعض وقيل المراد برفعها رفع مكانة البيت وإظهار شرفه ودعاء الناس إلى حجه وفى إبهامها أولا ثم تبيينها من تفخيم شأنها ما لا يخفى وقيل المعنى وإذ يرفع إبراهيم ما قعد من البيت واستوطأ يعنى يجعل هيئة القاعدة المستوطأة مرتفعة عالية بالبناء روى أن الله عز وجل أنزل البيت ياقوتة من يواقيت الجنة له بابان من زمرد شرقى وغربى وقال لآدم أهبطت لك ما يطاف به كما يطاف به

كما يطاف حول عرشي فتوجه آدم من أرض الهند إلى مكة ماشيا وتلقته الملائكة فقالوا بر حجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام وحج آدم عليه السلام أربعين حجة من أرض الهند إلى مكة على رجليه فكان على ذلك إلى أن رفعه الله أيام الطوفان إلى السماء الرابعة فهو البيت المعمور وكان موضعه خاليا إلى زمن إبراهيم عليه السلام فأمره سبحانه ببنائه وعرفه جبريل عليه السلام بمكانه وقيل بعث الله السكينة لتدله عليه فتبعها إبراهيم عليه السلام حتى أتى مكة المعظمة وقيل بعث الله تعالى سحابة على قدر البيت وسار إبراهيم فى ظلها إلى أن وافت مكة المعظمة فوقفت على موضع البيت فنودى أن ابن على ظلها ولا تزد ولا تنقص وقيل بناه من خمسة أجبل طور سيناء وطور زيتا ولبنان والجودى وأسسه من حراء وجاء جبريل عليه السلام بالحجر الأسود من السماء وقيل تمخض أبو قبيس فانشق عنه وقد خبيء فيه فى أيام الطوفان وكان ياقوتة بيضاء من يواقيت الجنة فلما لمسته الحيض فى الجاهلية اسود وقال الفاسى فى مثير الغرام فى تاريخ البلد الحرام والذى يتحصل من جملة ما قيل فى عدد بناء الكعبة أنها بنيت عشر مرات منها بناء الملائكة عليهم السلام ذكره النووى فى تهذيب الأسماء واللغات والأزرقى فى تاريخه وذكر أنه كان قبل خلق آدم عليه السلام ومنها بناء آدم عليه السلام ذكره البيهقى فى دلائل النبوة وروى فيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بعث الله عز وجل جبريل إلى آدم عليهما السلام فقال له ولحواء ابنيا لى بيتا فخط جبريل وجعل آدم يحفر وحواء تنقل التراب حتى إذا أصاب الماء نودى من تحته حسبك آدم فلما بنياه أوحى إليه أن يطوف به فقيل له أنت أول الناس وهذا أول بيت وهكذا ذكره الأزرقى فى تاريخه وعبد الرزاق فى مصنفه ومنها بناء بنى آدم عندما رفعت الخيمة التى عزى الله تعالى بها آدم عليه السلام وكانت ضربت فى موضع البيت فبنى بنوه مكانها بيتا من الطين والحجارة فلم يزل معمورا يعمرونه هم ومن بعدهم إلى أن مسه الغرق فى عهد نوح عليه السلام ذكره الأزرقى بسنده إلى وهب بن منبه ومنها بناء الخليل عليه السلام وهو منصوص عليه فى القرآن مشهور فى

ما بين قاص ودان ومنها بناء العمالقة ومنها بناء جرهم ذكرهما الأزرقى بسنده إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه ومنها بناء قصى بن كلاب ذكره الزبير بن بكار فى كتاب النسب ومنها بناء قريش وهو مشهور ومنها بناء عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما ومنها بناء الحجاج بن يوسف وما كان ذلك بناء لكلها بل لجدار من جدارنها وقال الحافظ السهيلى إن بناءها لم يكن فى الدهر إلا خمس مرات الأولى حين بناها شيث عليه السلام انتهى والله سبحانه أعلم ﴿ واسمعيل ﴾ عطف على إبراهيم ولعل تأخيره عن المفعول للإيذان بأن الأصل فى الرفع هو إبراهيم وإسمعيل تبع له قيل إنه كان يناوله الحجارة وهو يبنيها وقيل كانا يبنيانه من طرفيه ﴿ ربنا تقبل منا ﴾ على إرادة القول أى يقولان وقد قرىء به على أنه حال منهما عليهما السلام وقيل على أنه هو العامل فى إذ والجملة معطوفة على ما قبلها والتقدير ويقولان ربنا تقبل منا إذ يرفعان أى وقت رفعهما وقيل وإسمعيل مبتدأ خبره قول محذوف وهو العامل فى ربنا تقبل منا فيكون إبراهيم هو الرافع وإسمعيل هو الداعى والجملة فى محل النصب على الحالية أى وإذ يرفع إبراهيم القواعد والحال أن إسمعيل يقول ربنا تقبل منا والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن إفاضة ما فيه صلاح المربوب مع الإضافة إلى ضميرهما عليهما السلام لتحريك سلسلة الإجابة وترك مفعول تقيل مع ذكره فى قوله تعالى ربنا وتقبل دعاء ليعم الدعاء وغيره من القرب والطاعات التى من جملتها ما هما بصدده من الثناء كما يعرب عنه جعل الجملة الدعائية حالية ﴿ إنك أنت السميع ﴾ لجميع المسموعات التى من جملتها دعاؤنا ﴿ العليم ﴾ بكل المعلومات التى من زمرتها نياتنا فى جميع أعمالنا والجملة تعليل لاستدعاء التقبل لا من حيث أن كونه تعالى سميعا لدعائهما عليما بنياتهما مصحح للتقبل فى الجملة بل من حيث أن علمه تعالى بصحة نياتهما وإخلاصهما فى أعمالها مستدع بموجب الوعد تفضلا وتأكيد الجملة لغرض كمال قوة يقينهما بمضمونها وقصر نعتى السمع والعلم عليه تعالى لإظهار اختصاص دعائهما به تعالى وانقطاع رجائهما عما سواه بالكلية واعلم أن الظاهر أن أول ما جرى من الأمور المحكية هو الابتلاء وما يتبعه ثم دعاء

البلدية والأمن وما يتعلق به ثم رفع قواعد البيت وما يتلوه ثم جعله مثابة للناس والأمر بتطهيره ولعل تغيير الترتيب الوقوعى فى الحكاية لنظم الشئون الصادرة عن جنابه تعالى فى سلك مستقل ونظم الأمور الواقعة من جهة إبراهيم وإسمعيل عليهما السلام من الأفعال والأقوال فى سلك آخر وأما قوله تعالى ومن كفر إلخ فإنما وقع فى تضاعيف الأحوال المتعلقة بإبراهيم لاقتضاء المقام واستيجاب ما سبق من الكلام ذلك بحيث لم يكن بد منه أصلا كما أن وقوع قوله عليه السلام ومن ذريتى فى خلال كلامه سبحانه لذلك ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ﴾ مخلصين لك أو مستسلمين من أسلم إذا استسلم وانقاد وأياما كان فالمطلوب الزيادة والثبات على ما كانا عليه من الإخلاص والإذعان وقرىء مسلمين على صيغة الجمع بإدخال هاجر معهما فى الدعاء أو لأن التثنية من مراتب الجمع .

﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ أى واجعل بعض ذريتنا وإنما خصهم بالدعاء لأنهم أحق بالشفقة ولأنهم إذا صلحوا صلح الأتباع وإنما خصا به بعضهم لما علما أن منهم ظلمة وأن الحكمة الإلهية لا تقتضى اتفاق الكل على الإخلاص والإقبال الكلى على الله عز وجل فإن ذلك مما يخل بأمر المعاش ولذلك قيل لولا الحمقى لخربت الدنيا وقيل أراد بالأمة أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقد جوز أن يكون من مبينة قدمت على المبين وفصل بها بين العاطف والمعطوف كما فى قوله تعالى (ومن الأرض مثلهن) والأصل وأمة مسلمة لك من ذريتنا ﴿ وأرنا ﴾ من الرؤية بمعنى الإبصار أو بمعنى التعريف أى بصرنا أو عرفنا ﴿ مناسكنا ﴾ أى متعبداتنا فى الحج أو مذابحنا والنسك فى الأصل غاية العبادة وشاع فى الحج لما فيه من الكلفة والبعد عن العادة وقرىء ارنا قياسا على فخذ فى فخذ وفيه إجحاف لأن الكسرة منقولة من الهمزة الساقطة دليل عليها وقرىء بالاختلاس ﴿ وتب علينا ﴾ استتابة لذريتهما وحكايتها عنهما لترغيب الكفرة فى التوبة والإيمان أو توبة لهما عما فرط

منهما سهوا ولعلهما قالاه هضما لأنفسهما وإرشادا لذريتهما ﴿ إنك أنت التواب الرحيم﴾ وهو تعليل للدعاء ومزيد استدعاء للإجابة قيل إذا أراد العبد أن يستجاب له فليدع الله عز وجل بما يناسبه من أسمائه وصفاته ﴿ربنا وابعث فيهم﴾ أى فى الأمة المسلمة ﴿رسولا منهم﴾ أى من أنفسهم فإن البعث فيهم لا يستلزم البعث منهم ولم يبعث من ذريتهما غير النبى صلى الله عليه وسلم فهو الذى أجيب به دعوتهما عليهما السلام روى أنه قيل له قد استجيب لك وهو فى آخر الزمان قال عليه السلام «أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ورؤيا أمى» وتخصيص إبراهيم عليه السلام بالاستجابة له أنه الأصل فى الدعاء واسماعيل تبع له عليه السلام ﴿ يتلو عليهم آياتك ﴾ يقرأ ويبلغهم ما يوحى إليه من البينات ﴿ ويعلمهم﴾ بحسب قوتهم النظرية ﴿ الكتاب ﴾ أى القرآن ﴿ والحكمة﴾ وما يكمل به نفوسهم من أحكام الشريعة والمعارف الحقة ﴿ ويزكيهم﴾ بحسب قوتهم العملية أى يطهرهم عن دنس الشرك وفنون المعاصى ﴿ إنك أنت العزيز﴾ الذى لا يقهر ولا يغلب على ما يريد ﴿ الحكيم﴾ الذى لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة والجملة تعليل للدعاء وإجابة المسئول فإن وصف الحكمة مقتض لإفاضة ما تقتضيه الحكمة من الأمور التى من جملتها بعث الرسول ووصف العزة مستدع لامتناع وجود المانع بالمرة ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم﴾ إنكار واستبعاد لأن يكون فى العقلاء من يرغب عن ملته التى هى الحق الصريح والدين الصحيح أى لا يرغب عن ملته الواضحة الغراء ﴿ إلا من سفه نفسه﴾ أى أذلها واستمهنها واستخف بها وقيل خسر نفسه وقيل أوبق أو أهلك أو جهل نفسه قال المبرد وثعلب سفه بالكسر متعد وبالضم لازم ويشهد له ما ورد فى الخبر أن تسفه الحق وتغمص الناس وقيل معناه ضل من قبل نفسه وقيل أصله سفه نفسه بالرفع فنصب على التمييز نحو غبن رأيه وألم رأسه ونحو قوله :

ونأخذ بعده بذناب عيش   أجب الظهر ليس له سنام

وقوله :

وما قومى بثعلبة بن سعد   ولا بفزارة الشعر الرقابا

ذلك لأنه إذا رغب عما لا يرغب عنه أحد من العقلاء فقد بالغ فى إذلال نفسه، وذلتها وإهانتها حيث خالف بها كل نفس عاقلة روى أن عبد الله بن سلام دعا ابنى أخيه سلمة ومهاجرا إلى الإسلام فقال لهما قد علمتما أن الله تعالى قال فى التوراة إنى باعث من ولد اسماعيل نبيا اسمه أحمد فمن آمن به فقد اهتدى ورشد ومن لم يؤمن فهو ملعون فأسلم سلمة وأبى مهاجر فنزلت ﴿ ولقد اصطفيناه فى الدنيا ﴾ أى اخترناه بالنبوة والحكمة من بين سائر الخلق وأصله اتخاذ صفوة الشىء كما أن أصل الاختيار اتخاذ خيره واللام والجواب قسم محذوف الواو اعتراضية والجملة مقررة لمضمون ماقبلها أى وبالله لقد اصطفيناه وقوله تعالى ﴿ وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ أى من المشهور لهم بالثبات على الاستقامة والخير والصلاح معطوف عليها داخل فى حيز القسم مؤكد لمضمونها مقررة لما تقرره ولا حاجة إلى جعله اعتراضا آخر أو حالا مقدرة فإن من كان صفوة للعباد فى الدنيا مشهودا له بالصلاح فى الآخرة كان حقيقا بالاتباع لايرغب عن ملته إلا سفيه أو متسفه أذل نفسه بالجهل والإعراض عن النظر والتأمل وإيثار الإسمية لما أن انتظامه فى زمرة صالحى أهل الآخرة أمر مستمر فى الدارين لا أنه يحدث فى الآخرة والتأكيد بإنه واللام لما أن الأمور الأخروية خفية عند المخاطبين فحاجتها إلى التأكيد أشد من الأمور التى تشاهد آثارها وكلمة فى متعلقة بالصالحين على أن اللام للتعريف وليست بموصولة حتى يلزم تقديم بعض الصلة عليها على أنه قد يغتفر فى الظرف ما لايغتفر فى غيره كما فى قوله :

ربيته حتى إذا تمعددا   كان جزائى بالعصا أن أجلدا

أو بمحذوف من لفظه أى وإنه لصالح فى الآخرة لمن الصالحين أو من

غير لفظه أى أعنى فى الآخرة نحو لك بعد رعيا وقيل هى متعلقة باصطفيناه على أن فى النظم الكريم تقديما وتأخيرا تقديره ولقد اصطفيناه فى الدنيا والآخرة وإنه لمن الصالحين ﴿إذ قال له﴾ ظرف لاصطفيناه لما أن المتوسط ليس بأجنبى بل هو مقرر له لأن اصطفاءه فى الدنيا إنما هو بالنبوة ومايتعلق بصلاح الآخرة أو تعليل له أو منصوب باذكر كأنه قيل اذكر ذلك الوقت لتقف على أنه المصطفى الصالح المستحق للإمامة والتقدم وأنه مانال مانال إلا بالمبادرة إلى الإذعان والانقياد لما أمر به، وإخلاص سره على أحسن ما يكون حين قال له ﴿ربه أسلم﴾ أى لربك ﴿قال أسلمت لرب العالمين﴾ وليس الأمر على حقيقته بل هو تمثيل والمعنى أخطر بباله دلائل التوحيد المؤدية إلى المعرفة الداعية إلى الإسلام من الكوكب والقمر والشمس وقيل أسلم أى أذعن وأطع وقيل اثبت على ما أنت عليه من الإسلام والإخلاص أو استقم وفوض أمورك إلى الله تعالى فالأمر على حقيقته والالتفات مع التعرض لعنوان الربوبية والإضافة إليه عليه السلام لإظهار مزيد اللطف به والاعتناء بتربيته وإضافة الرب فى جوابه عليه الصلاة والسلام إلى العالمين للإيذان بكمال قوة إسلامه حيث أيقن حين النظر بشمول ربوبيته للعالمين قاطبة لا لنفسه وحده كما هو المأمور به ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه﴾ شروع فى بيان تكميله عليه السلام لغيره إثر بيان كماله فى نفسه وفيه توكيد لوجوب الرغبة فى ملته عليه السلام والتوصية التقدم إلى الغير بما فيه خير وصلاح للمسلمين من فعل أو قول وأصلها الوصلة يقال وصاه إذا وصله وفصاه إذا فصله كان الموصى يصل فعله بفعل الوصى والضمير فى بها للملة أو قوله أسلمت لرب العالمين بتأويل الكلمة كما عبر بها عن قوله تعالى (إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى) فى قوله عز وجل (وجعلها كلمة باقية فى عقبه) وقرىء أوصى والأول أبلغ ﴿ويعقوب﴾ عطف على إبراهيم أى وصى بها هو أيضاً بنيه وقرىء بالنصب عطفا على بنيه ﴿يابنى﴾ على إضمار القول عند البصريين ومتعلق بوصى عند الكوفيين لأنه فى معنى القول كما فى قوله :

رجلان من ضبة أخبرانا   أنا رأينا رجلا عريانا

فهو عند الأولين بتقدير القول وعند الآخرين متعلق بالإخبار الذى هو فى معنى القول وقرىء أن يا بنى وبنو إبراهيم عليه السلام كانوا أربعة إسماعيل وإسحاق ومدين ومدان وقيل ثمانية وقيل أربعة وعشرين وكان بنو يعقوب اثنى عشر روبين وشمعون ولاوى ويهوذا ويشسوخور وزبولون وزوانا وتفتونا وكوذا وأوشير وبنيامين ويوسف عليه السلام ﴿ إن الله اصطفى لكم الدين ﴾ دين الإسلام الذى هو صفوة الأديان ولادين غيره عنده تعالى : ﴿ فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ ظاهره النهى عن الموت على خلاف حال الإسلام والمقصود الأمر بالثبات على الإسلام إلى حين الموت أى فاثبتوا عليه ولا تفارقوه أبدا كقولك لاتصل إلا وأنت خاشع وتغيير العبارة للدلالة على أن موتهم لا على الإسلام موت لاخير فيه وأن حقه أن لا يحل بهم وأنه يجب أن يحذروه غاية الحذر ونظيره مت وأنت شهيد روى أن اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ألست تعلم أن يعقوب أوصى باليهودية يوم مات فنزلت ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت) أم منقطعة مقدرة ببل والهمزة والخطاب لأهل الكتاب الراغبين عن ملة إبراهيم وشهداء جمع شهيد أو شاهد بمعنى الحاضر وإذ ظرف لشهداء والمراد بحضور الموت حضور أسبابه وتقديم يعقوب عليه السلام للاهتمام به إذ المراد بيان كيفية وصيته لبنيه بعد ما بين ذلك إجمالا ومعنى بل الإضراب والانتقال عن توبيخهم على رغبتهم عن ملة إبراهيم عليه السلام إلى توبيخهم على افترائهم على يعقوب عليه السلام باليهودية حسبما حكى عنهم وأما تعميم الافتراء ههنا لسائر الأنبياء عليهم السلام كما قيل فيأباه تخصيص يعقوب بالذكر وما سيأتى من قوله عز وجل (أم تقولون إن إبراهيم) الخ ومعنى الهمزة إنكار وقوع الشهود عند احتضاره عليه السلام وتبكيتهم وقوله تعالى ﴿إذ قال﴾ بدل من إذ حضر أى ما كنتم حاضرين عند احتضاره عليه السلام. وقوله ﴿ لبنيه ماتعبدون من

بعدى﴾ أى أى شيء تعبدونه بعد موتى فمن أين لكم أن تدعوا عليه عليه السلام ما تدعون رجما بالغيب وعند هذا تم التوبيخ والإنكار والتبكيت ثم بين أن الأمر قد جرب حينئذ على خلاف ما زعموا وأنه عليه السلام أراد بسؤاله ذلك تقرير بنيه على التوحيد والإسلام وأخذ ميثاقهم على الثبات عليهما إذ به يتم وصيته بقوله فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون وما يسأل به عن كل شيء ما لم يعرف فإذا عرف خص العقلاء بمن إذا سئل عن شيء بعينه وإن سئل عن وصفه قيل ما زيد أفقيه أم طبيب فقوله تعالى ﴿قالوا﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ عن حكاية سؤال يعقوب عليه السلام كأنه قيل فماذا قالوا عند ذلك فقيل قالوا ﴿نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق﴾ حسبما كان مراد أبيهم بالسؤال أى نعبد الإله المتفق على وجوده وإلهيته ووجوب عبادته وعد إسماعيل من آبائه تغليبا للأب والجد لقوله عليه الصلاة والسلام عم الرجل صنو أبيه وقوله عليه السلام فى العباس هذا بقية آبائى وقرىء أبيك على أنه جمع بالواو والنون كما فى قوله :

فلما تبين أصواتنا   بكين وفديننا بالأبينا

وقد سقطت النون بالإضافة أو مفرد وإبراهيم عطف بيان له وإسماعيل وإسحاق معطوفان على أبيك ﴿إلها واحدا﴾ بدل من إله آبائك كقوله تعالى (بالناصية ناصية كاذبة) وفائدته التصريح بالتوحيد ودفع التوهم الناشىء من تكرير المضاف لتعذر العطف على المجرور أو نصب على الاختصاص ﴿ونحن له مسلمون﴾ حال من فاعل نعبد أو من مفعوله أو منهما معا ويحتمل أن يكون اعتراضا محققا لمضمون ماسبق ﴿تلك أمة﴾ مبتدأ وخبر والإشارة إلى إبراهيم ويعقوب وبنيهما الموحدين والأمة هى الجماعة التى تؤمها فرق الناس أى يقصدونها ويقتدون بها ﴿قد خلت﴾ صفة للخبر أى مضت بالموت وانفردت عمن عداها وأصله صارت إلى الخلاء وهى الأرض التى لا أنيس بها ﴿لها ما كسبت﴾ جملة مستأنفة لامحل لها من الإعراب أو صفة أخرى لأمة أو حال

من الضمير فى خلت وما موصولة أو موصوفة والعائد إليها محذوف أى لها ما كسبته من الأعمال الصالحة المحكية لاتتخطاها إلى غيرها فإن تقديم المسند يوجب قصر المسند إليه عليه كما هو المشهور ﴿ ولكم ما كسبتم ﴾ عطف على نظيرتها على الوجه الأول ، وجملة مبتدأة على الوجهين الأخيرين إذ لا رابط فيها ولا بد منه فى الصفة ولا مقارنة فى الزمان ولا بد منها فى الحال أى لكم ما كسبتموه لا ما كسبه غيركم فإن تقديم المسند قد يقصد به قصره على المسند إليه كما قيل فى قوله تعالى (لكم دينكم ولى دين) أى ولى دينى لا دينكم وحمل الجملة الأولى على هذا القصر على معنى أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا كما قيل مما لا يساعده المقام إذ لا يتوهم متوهم انتفاعهم بكسب هؤلاء حتى يحتاج إلى بيان امتناعه وإنما الذى يتوهم انتفاع هؤلاء بكسبهم فبين امتناعه بأن أعمالهم الصالحة مخصوصة بهم لاتتخطاهم إلى غيرهم وليس لهؤلاء إلا ما كسبوا فلا ينفعهم انتسابهم إليهم وإنما ينفعهم اتباعهم لهم فى الأعمال كما قال عليه السلام يابنى هاشم لايأتينى الناس بأعمالهم وتأتونى بأنسابكم ﴿ ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ إن أجرى السؤال على ظاهره فالجملة مقررة لمضمون ما مر من الجملتين تقريرا ظاهرا وإن أريد به مسببه أعنى الجزاء فهو تتميم لما سبق جار مجرى النتيجة له وأياما كان فالمراد تخييب المخاطبين وقطع أطماعهم الفارغة عن الانتفاع بحسنات الأمة الخالية وإنما أطلق العمل لإثبات الحكم بالطريق البرهانى فى ضمن قاعدة كلية هذا وقد جعل السؤال عبارة عن المؤاخذة والموصول عن السيئات فقيل أى لا تؤاخذون بسيئاتهم كما لا تثابون بحسناتهم ولا ريب فى أنه مما لا يليق بشأن التنزيل كيف لا وهم منزهون من كسب السيئات فمن أين يتصور تحميلها على غيرهم حتى يتصدى لبيان انتفاعه ﴿ وقالوا ﴾ شروع فى بيان فن آخر من فنون كفرهم وهو إضلالهم لغيرهم إثر بيان ضلالهم فى أنفسهم والضمير لأهل الكتابين على طريقة الالتفات المؤذن باستيجاب حالهم لإبعادهم من مقام المخاطبة والإعراض عنهم وتعديد جناياتهم عند غيرهم أى قالوا للمؤمنين ﴿ كونوا هودا أو نصارى ﴾ ليس هذا القول مقولا لكلهم أو لأى طائفة كانت من الطائفتين بل هو موزع عليهما

على وجه خاص يقتضيه حالهما اقتضاء مغنيا عن التصريح به أى قالت اليهود كونوا هودا والنصارى كونوا نصارى ففعل بالنظم الكريم ما فعل بقوله تعالى (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى) اعتمادا على ظهور المراد ﴿تهتدوا﴾ جواب الأمر أن تكونوا كذلك تهتدوا ﴿قل﴾ خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى قل لهم على سبيل الرد عليهم وبيان ما هو الحق لديهم وإرشادهم إليه ﴿بل ملة إبراهيم﴾ أى لا نكون كما تقولون بل نكون أهل ملته عليه السلام وقيل بل نتبع ملته عليه السلام وقد جوز أن يكون المعنى بل اتبعوا أنتم ملته عليه السلام أو كونوا أهل ملته وقرىء بالرفع أى بل ملتنا أو أمرنا ملته أو نحن ملته ﴿حنيفا﴾ أى مائلا عن الباطل إلى الحق وهو حال من المضاف إليه كما فى رأيت وجه هند قائمة أو المضاف كما فى قوله تعالى (ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا) الخ ﴿وما كان من المشركين﴾ تعريض بهم وإيذان ببطلان دعواهم اتباعه عليه السلام مع إشراكهم بقولهم عزير ابن الله والمسيح ابن الله .

﴿قولوا﴾ خطاب للمؤمنين بعد خطابه عليه السلام برد مقالتهم الشنعاء على الإجمال وإرشاد لهم إلى طريق التوحيد والإيمان على ضرب من التفصيل أى قولوا لهم بمقابلة ما قالوا تحقيقا وإرشادا ضمنيا لهم إليه ﴿آمنا بالله وما أنزل إلينا﴾ يعنى القرآن قدم على سائر الكتب الإلهية مع تأخره عنها نزولا لاختصاصه بنا وكونه سببا للإيمان بها ﴿وما أنزل إلى إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب والأسباط﴾ جمع سبط وهو الحافد والمراد بهم حفدة يعقوب عليه السلام أو أبناؤه الإثنا عشر وذراريهم فإنهم حفدة إبراهيم وإسحق ﴿وما أوتى موسى وعيسى﴾ من التوراة والإنجيل وسائر المعجزات الباهرة بأيديهما حسبما فصل فى التنزيل الجليل وإيراد الإيتاء لما أشير إليه من التعميم وتخصيصهما بالذكر لما أن الكلام مع اليهود والنصارى ﴿وما أوتى النبيون﴾ أى جملة المذكورين وغيرهم ﴿من ربهم﴾ من الآيات البينات والمعجزات الباهرات

﴿ لا نفرق بين أحد منهم ﴾ كدأب اليهود والنصارى آمنوا ببعض وكفروا ببعض وإنما اعتبر عدم التفريق بينهم مع أن الكلام فيما أوتوه لاستلزام عدم التفريق بينهم بالتصديق والتكذيب لعدم التفريق بين ما أوتوه وهمزة أحدا إما أصلية فهو اسم موضوع لمن يصلح أن يخاطب يستوى فيه المفرد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث ولذلك صح دخول بين عليه كما فى مثل المال بين الناس ومنه ما فى قوله صلى الله عليه وسلم «ما أحلت الغنائم لأحد سود الروس غيركم» حيث وصف بالجمع ، وإما مبدلة من الواو فهو بمعنى واحد وعمومه لوقوعه فى حيز النفى وصحة دخول بين عليه باعتبار معطوف قد حذف لظهوره أى بين أحد منهم وبين غيره كما فى قول النابغة :

فما كان بين الخير لو جاء سالما   أبو حجر إلا ليال قلائل

أى بين الخير وبينى وفيه من الدلالة صريحا عليه تحقيق عدم التفريق بين كل فرد فرد منهم وبين من عداه كائنا من كان ما ليس فى أن يقال لا نفرق بينهم والجملة حال من الضمير فى آمنا وقوله عز وجل ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ أى مخلصون له ومذعنون حال أخرى منه أو عطف على آمنا ﴿ فإن آمنوا ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن ما تقدم من إيمان المخاطبين على الوجه المحرر مظنة لإيمان أهل الكتابين لما أنه مشتمل على ما هو مقبول عندهم ﴿ بمثل ما آمنتم به ﴾ أى بما آمنتم به على الوجه الذى فصل على أن المثل مقحم كما فى قوله تعالى (وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله) أى عليه ويعضده قراءة ابن مسعود بما آمنتم به وقراءة أبى بالذى آمنتم به ويجوز أن تكون الباء للاستعانة على أن المؤمن به محذوف لظهوره بمروره آنفا أو على أن الفعل مجرى مجرى اللازم أى فإن آمنوا بما مر مفصلا أو فإن فعلوا الإيمان بشهادة مثل شهادتكم ، وأن تكون الأولى زائدة والثانية صلة لآمنتم وما مصدرية أى فإن آمنوا إيمانا مثل إيمانكم بما ذكر مفصلا وأن تكون للملابسة أى فإن آمنوا ملتبسين بمثل ما آمنتم ملتبسين به أو فإن آمنوا إيمانا ملتبسا به من الإذعان

والإخلاص وعدم التفريق بين الأنبياء عليهم السلام فإن ما وجد فيهم وصدر عنهم من الشهادة والإذعان وغير ذلك مثل ما للمؤمنين لاعينه بخلاف المؤمن به فإنه لايتصور فيه التعدد ﴿ فقد اهتدوا ﴾ إلى الحق وأصابوه كما اهتديتم وحصل بينكم الاتحاد والاتفاق ، وأما ماقيل من أن المعنى فإن تحروا الإيمان بطريق يهدى إلى الحق مثل طريقكم فقد اهتدوا فإن وحدة المقصد لاتأبى تعدد الطريق الحق وإرشادهم إليه بعينه لايلائم تجويز أن يكون له طريق آخر وراءه ﴿ وإن تولوا ﴾ أى أعرضوا عن الإيمان على الوجه المذكور بأن أخلوا بشىء من ذلك كأن آمنوا ببعض وكفروا ببعض كما هو دينهم وديدنهم ﴿ فإنما هم فى شقاق ﴾ المشاقة والشقاق من الشق كالمخالفة والخلاف من الخلف والمعاداة والعداء من العداوة أى التجانب فإن أحد المخالفين يعرض عن الآخر صورة أو معنى ويوليه خلفه ويأخذ فى شق غير شقه وعدوة غير عدوته والتنوين للتفخيم أى هم مستوون فى خلاف عظيم بعيد من الحق وهذا لدفع ما يتوهم من احتمال الوفاق بسبب إيمانهم ببعض ما آمن به المؤمنون والجملة إما جواب الشرط كما هى على أن المراد مشاقتهم الحادثة بعد توليهم عن الإيمان كجواب الشرطية الأولى وإنما أوثرت الجملة الأسمية للدلالة على ثباتهم واستقرارهم فى ذلك ، وإما بتأويل فاعلوا أنما هم فى شقاق . هذا هو الذى يستدعيه فخامة شأن التنزيل الجليل ، وقد قيل قوله تعالى (فإن آمنوا الخ) من باب التعجيز والتبكيت على منهاج قوله تعالى (فأتوا بسورة مثله) ، والمعنى فإن حصلوا دينا آخر مثل دينكم مماثلا له فى الصحة والسداد فقد اهتدوا وإذ لا إمكان له فلا إمكان لاهتدائهم ولا ريب فى أنه مما لايليق بحمل النظم الكريم عليه. ولما دل تنكير الشقاق على امتناع الوفاق وأن ذلك مما يؤدى إلى الجدال والقتال لامحالة عقب ذلك بتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفريح المؤمنين بوعد النصر والغلبة ضمان التأييد والإعزاز ، وعبر بالسين الدالة على تحقق الوقوع البتة فقيل ﴿ فسيكفيكهم الله ﴾ أى سيكفيك شقاقهم فإن الكفاية لاتتعلق بالأعيان بل بالأفعال وقد أنجز عز وعلا وعده الكريم بقتل بنى

النضير وتلوين الخطاب بتجريده للنبي صلى الله عيه وسلم مع أن ذلك كفاية منه سبحانه للكل لما أنه الأصل والعمدة فى ذلك وللإيذان بأن القيام بأمور الحروب وتحمل المؤن والمشاق ومقاساة الشدائد فى مناهضة الأعداء من وظائف الرؤساء فنعمته تعالى فى الكفاية والنصر فى حقه عليه السلام أتم وأكمل ﴿ وهو السميع العليم ﴾ تذييل لما سبق من الوعد وتأكيد له والمعنى أنه تعالى يسمع ماتدعوه به ويعلم مافى نيتك من إظهار الدين فيستجيب لك ويوصلك إلى مرادك أووعيد للكفرة أى يسمع ماينطقون به ويعلم ما يضمرونه فى قلوبهم مما لاخير فيه وهو معاقبهم عليه ولايخفى ما فيه من تأكيد الوعد السابق فإن وعيد الكفرة وعد للمؤمنين ﴿ صبغة الله ﴾ الصبغة من الصبغ كالجلسة من الجلوس وهى الحالة التى يقع عليها الصبغ عبر بها عن الإيمان بما ذكر على الوجه الذى فصل لكونه تطهيرا للمؤمنين من أوضار الكفر وحلية تزينهم بآثاره الجميلة ومتداخلا فى قلوبهم كما أن شأن الصبغ بالنسبة إلى الثوب كذلك وقيل للمشاكلة التقديرية فإن النصارى كانوا يغمسون أولادهم فى ماء أصفر يسمونه المعمودية ويزعمون أنه تطهير لهم وبه يحق نصرانيتهم وإضافتها إلى الله عز وجل مع استناده فيما سلف إلى ضمير المتكلمين للتشريف والإيذان بأنها عطية منه سبحانه لايستقل العبد بتحصيلها فهى إذن مصدر مؤكد لقوله تعالى ﴿ آمنا ﴾ داخل معه فى حيز قولوا منتصب عنه انتصاب وعد الله عما تقدمه لكونه بمثابة فعله كأنه قيل صبغنا الله صبغة وقيل هى منصوبة بفعل الإغراء أى الزموا صبغة الله وإنما وسط بينهما الشرطيتان وما بعدهما اعتناء ببيان أنه الإيمان الحق وبه الاهتداء ومسارعة إلى تسليته عليه الصلاة والسلام ﴿ ومن أحسن من الله ﴾ مبتدأ وخبر الاستفهام للإنكار والنفى وقوله تعالى ﴿ صبغة ﴾ نصب على التمييز من أحسن منقول من المبتدأ والتقدير ومن صبغته أحسن من صبغته تعالى فالتفضيل جار بين الصبغتين لابين فاعليهما أى لاصبغة أحسن من صبغته تعالى على معنى أنها أحسن من كل صبغة على ما أشير إليه فى قوله تعالى (ومن أظلم ممن منع الخ) وحيث كان مدار التفضيل على

تعميم الحسن الحقيقى والفرضى المبنى على زعم الكفرة لم يلزم منه أن يكون فى صبغة غيره تعالى حسن فى الجملة والجملة اعتراضية مقررة لما فى صبغة الله من معنى التبجح والابتهاج ﴿ ونحن له ﴾ أى لله الذى أولانا تلك النعمة الجليلة ﴿ عابدون ﴾ شكراً لها ولسائر نعمه وتقديم الظرف للاهتمام ورعاية الفواصل وهو عطف على آمنا داخل معه تحت الأمر وإيثار الاسمية للإشعار بدوام العبادة أو على فعل الإغراء بتقدير القول أى ألزموا صبغة الله وقولوا نحن له عابدون فقوله تعالى (ومن أحسن من الله) صبغة حينئذ يجرى مجرى التعليل للإغراء ﴿ قل أتحاجوننا ﴾ تجريد الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم عقب الكلام الداخل تحت الأمر الوارد بالخطاب العام لما أن المأمور به من الوظائف الخاصة به عليه الصلاة والسلام وقرىء بإدغام النون والهمزة للإنكار والتوبيخ أى أتجادلوننا ﴿ فى الله ﴾ أى فى دينه وتدعون أن دينه الحق هو اليهودية والنصرانية وتبنون دخول الجنة والاهتداء عليهما وتقولون تارة لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى وتارة كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ﴿ وهو ربنا وربكم ﴾ جملة حالية وكذلك ما عليها أى أتجادلوننا والحال أنه لا وجه للمجادلة أصلا لأنه تعالى ربنا أى مالك أمرنا وأمركم ﴿ ولنا أعمالنا ﴾ الحسنة الموافقة لأمره ﴿ ولكم أعمالكم ﴾ السيئة المخالفة لحكمه ﴿ ونحن له مخلصون ﴾ فى تلك الأعمال لا نبتغى بها إلا وجهه فأنى لكم المحاجة حقية ما أنتم عليه والطمع فى دخول الجنة بسببه ودعوة الناس إليه وكلمة أم فى قوله تعالى ﴿ أم تقولون ﴾ إما معادلة للهمزة فى قوله تعالى (أتحاجوننا) داخلة فى حيز الأمر على معنى أى الأمرين تأتون إقامة الحجة وتنوير البرهان على حقية ما أنتم عليه والحال ما ذكر أم التشبث بذيل التقليد والافتراء على الأنبياء وتقولون ﴿ إن إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى ﴾ فنحن بهم مقتدون والمراد إنكار كلا الأمرين والتوبيخ عليهما ، وإما منقطعة مقدرة ببل والهمزة دالة على الإضراب والانتقال من التوبيخ على المحاجة إلى التوبيخ على الافتراء على الأنبياء عليهم

السلام وقرىء أم يقولون على صيغة الغيبة فهى منقطعة لاغير غير داخلة تحت الأمر واردة من جهته تعالى توبيخا لهم وإنكاراً عليهم لامن جهته عليه السلام على نهج الالتفات كما قيل . هذا ، وأما ماقيل من أن المعنى أتحاجوننا فى شأن الله واصطفائه نبيا من العرب دونكم لما روى أن أهل الكتاب قالوا الأنبياء كلهم منا فلو كنت نبيا لكنت منا فنزلت ومعنى قوله تعالى (وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم) أنه لا اختصاص له تعالى بقوم دون قوم يصيب برحمته من يشاء من عباده فلايبعد أن يكرمنا كما أكرمكم بأعمالكم كأنه ألزمهم على كل مذهب ينتحلونه إفحاما وتبكيتا فإن كرامة النبوة ، إما تفضل من الله تعالى على من يشاء فالكل فيه سواء ، وإما إفاضة حق على المستحقين لها بالمواظبة على الطاعة والتحلى بالإخلاص فكما أن لكم أعمالا ربما يعتبرها الله تعالى فى إعطائها فلنا أيضا أعمال ونحن له مخلصون أى لا أنتم فمع عدم ملاءمته لسياق النظم الكريم وسيما على تقدير كون كلمة أم معادلة للهمزة غير صحيح فى نفسه لما أن المراد بالأعمال من الطرفين ما أشير إليه من الأعمال الصالحة والسيئة ولا ريب فى أن أمر الصلاح والسوء يدور على موافقة الدين المبنى على البعثة ومخالفته فكيف يتصور اعتبار تلك الأعمال فى استحقاق النبوة واستعدادها المتقدم على البعثة بمراتب ﴿ قل أأنتم أعلم أم الله ﴾ إعادة الأمر ليست لمجرد تأكيد التوبيخ وتشديد الإنكار عليهم بل للإيذان بأن مابعده ليس متصلا بما قبله بل بينهما كلام المخاطبين مترتب على ماسبق مستتبع لما أنه الحق قد أضرب عنه الذكر صفحا لظهوره وهو تصريحهم بما وبخوا عليه من الافتراء على الأنبياء عليهم السلام كما فى قوله عز وجل قال (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون قال فما خطبكم أيها المرسلون) وقوله عز قائلا (قال أأسجد لمن خلقت طينا قال أرأيتك هذا الذى كرمت على) فإن تكرير قال فى الموضعين وتوسيطه بين قولى قائل واحد للإيذان بأن بينهما كلاماً لصاحبه متعلقاً بالأول والثانى بالتبعية والاستتباع كما حرر فى محله أى كذبهم فى ذلك وبكتهم قائلا إن الله يعلم وأنتم لاتعلمون وقد نفى عن إبراهيم عليه السلام كلا الأمرين حيث

قال ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا واحتج عليه بقوله تعالى (وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده) وهؤلاء المعطوفون عليه السلام أتباعه فى الدين وفاقا فكيف تقولون ما تقولون سبحان الله عما تصفون ﴿ ومن أظلم ﴾ إنكار لأن يكون أحد أظلم ﴿ ممن كتم شهادة ﴾ ثابتة ﴿ عنده ﴾ كائنة ﴿ من الله ﴾ وهى شهادته تعالى له عليه السلام بالحنيفية والبراءة من اليهودية والنصرانية حسبما تلى آنفاً فعنده صفة لشهادة وكذا من الله جىء بهما لتعليل الإنكار وتأكيده فإن ثبوت الشهادة عنده وكونها من جانب الله عز وجل من أقوى الدواعى إلى إقامتها وأشد الزواجر عن كتمانها وتقديم الأول مع أنه متأخر فى الوجود لمراعاة طريقة الترقى من الأدنى إلى الأعلى والمعنى أنه لا أحد أظلم من أهل الكتاب حيث كتموا هذه الشهادة وأثبتوا نقيضها بما ذكر من الافتراء وتعليق الأظلمية بمطلق الكتمان للإيماء إلى أن مرتبة من يردها ويشهد بخلافها فى الظلم خارجة عن دائرة البيان أو لا أحد أظلم منا لو كتمناها فالمراد بكتمها عدم إقامتها فى مقام الحاجة وفيه تعريض بغاية أظلمية أهل الكتاب على نحو ما أشير إليه وفى إطلاق الشهادة مع أن المراد بها ما ذكر من الشهادة المعينة تعريض بكتمانهم شهادة الله عز وجل للنبى صلى الله عليه وسلم فى التوراة والإنجيل ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ من فنون السيئات فيدخل فيها كتمانهم لشهادته سبحانه وافتراؤهم على الأنبياء عليهم السلام دخولا أوليا أى هو محيط بجميع ما تأتون وما تذرون فيعاقبكم بذلك أشد عقاب وقرىء عما يعملون على صيغة الغيبة فالضمير إما لمن كتم باعتبار المعنى ، وإما لأهل الكتاب وقوله تعالى (ومن أظلم إلى آخر الآية) مسوق من جهته تعالى لوصفهم بغاية الظلم وتهديدهم بالوعيد ﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ تكرير للمبالغة فى الزجر عما هم عليه من الافتخار بالآباء والاتكال على أعمالهم وقيل الخطاب السابق لهم وهذا لنا تحذير عن الاقتداء بهم وقيل المراد بالأمة الأولى الأنبياء عليهم السلام وبالثانية أسلاف اليهود ﴿ سيقول السفهاء ﴾ أى الذين خفت أحلامهم واستمهنوها بالتقليد والإعراض

عن التدبر والنظر من قولهم ثوب سفيه إذا كان خفيف النسج وقيل السفيه البهات الكذاب المتعمد خلاف ما يعلم وقيل الظلوم الجهول والمراد بالسفهاء هم اليهود على ما روى عن ابن عباس ومجاهد رضى الله عنهم قالوه إنكارا للنسخ وكراهة للتحويل حيث كانوا يأنسون بموافقته عليه الصلاة والسلام لهم فى القبلة الأولى وبطلان الثانية إذ ليس كلهم من اليهود وقيل هم المشركون ولم يقولوه كراهة للتحويل إلى مكة بل طعنا فى الدين فإنهم كانوا يقولون رغب عن قبلة آبائه ثم رجع إليها وليرجعن إلى دينهم أيضا وقيل هم القادحون فى التحويل منهم جميعاً فيكون قوله تعالى ﴿من الناس﴾ أى الكفرة لبيان أن ذلك القول المحكى لم يصدر عن كل فرد فرد من تلك الطوائف الثلاث بل عن أشقيائهم المعتادين للخوض فى فنون الفساد وهو الأظهر إذ لو أريد بهم طائفة مخصوصة منهم لما كان لبيان كونهم من الناس مزيد فائدة وتخصيص سفهائهم بالذكر لا يقتضى تسليم الباقين للتحويل وارتضاءهم إياه بل عدم التفوه بالقدح مطلقا أو بالعبارة المحكية .

﴿ما ولاهم﴾ أى أى شىء صرفهم والاستفهام للإنكار والنفى ﴿عن قبلتهم﴾ القبلة فعلة من المقابلة كالوجهة وهى الحالة التى يقابل الشىء غيره عليها كالجلسة للحالة التى يقع عليها الجلوس يقال لا قبلة له ولا دبرة إذا لم يهتد لجهة أمره غلبت على الجهة التى يستقبلها الإنسان فى الصلاة والمراد بها ههنا بيت المقدس وإضافتها إلى ضمير المسلمين ووصفها بقوله تعالى ﴿التى كانوا عليها﴾ أى ثابتين مستمرين على التوجه إليها ومراعاتها واعتقاد حقيتها لتأكيد الإنكار فإن الاختصاص بالشىء والاستمرار عليه باعتقاد حقيته مما ينافى الانصراف عنه فإن أريد بالقائلين اليهود فمدار الإنكار كراهتهم للتحويل عنها وزعمهم أنه خطأ وإن أريد بهم المشركون فمداره مجرد القصد إلى الطعن فى الدين والقدح فى أحكامه وإظهار أن كلا من التوجه إليها والانصراف عنها واقع بغير داع إليه لا لكراهتهم الانصراف عنها أو التوجه إلى مكة وتعليق الإنكار بما يوليهم عنها لا بما يوجههم إلى غيرها مع تلازمهما فى

الوجود لما أن ترك الدين القديم أبعد عند العقول وإنكار سببه أدخل لا للإيذان بأن المنكرين هم اليهود بناء على أن المنكر عندهم هو التحويل عن خصوصية بيت المقدس الذى هو القبلة الحقة عندهم لا التوجه إلى خصوصية قبلة أخرى أو هم المشركون بناء على أن المنكر عندهم ترك القبلة القديمة على وجه الطعن والقدح لا التوجه إلى الكعبة لأنه الحق عندهم فإنه بمعزل عن ذلك كيف لا والمنافقون من أحد الفريقين لا محالة والإخبار بذلك قبل الوقوع مع كونه من دلائل النبوة حيث وقع كما أخبر لتوطين النفوس وإعداد ما يبكتهم فإن مفاجأة المكروه على النفس أشق وأشد والجواب العتيد لشغب الخصم الألد أرد وقوله عز وجل ﴿ قل لله المشرق والمغرب ﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا أقول عند ذلك فقيل قل الخ أى لله تعالى ناحيتا الأرض أى الجهات كلها ملكا وملكا وتصرفا فلا اختصاص لناحية منها لذاتها بكونها قبلة دون ما عداها بل إنما هو بأمر الله سبحانه ومشيئته ﴿ يهدى من يشاء ﴾ أن يهديه مشيئة تابعة للحكم الخفية التى لا يعلمها إلا هو ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ موصل إلى سعادة الدين وقد هدانا إلى ذلك حيث أمرنا بالتوجه إلى بيت المقدس تارة وإلى الكعبة أخرى حسبما تقتضيه مشيئته المقارنة لحكم أبية ومصالح خفية ﴿ وكذلك جعلناكم ﴾ توجيه للخطاب إلى المؤمنين بين الخطابين المختصين بالرسول صلى الله عليه وسلم لتأييد ما فى مضمون الكلام من التشريف وذلك إشارة إلى مصدر جعلناكم لا إلى جعل آخر مفهوم مما سبق كما قيل وتوحيد الكاف مع القصد إلى المؤمنين لما أن المراد مجرد الفرق بين الحاضر والمنقضى دون تعيين المخاطبين وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجة المشار إليه وبعد منزلته فى الفضل وكمال تميزه به وانتظامه بسببه فى سلك الأمور المشاهدة والكاف لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة ومحلها فى الأصل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف وأصل التقدير جعلناكم أمة وسطا جعلا كائنا مثل ذلك الجعل فقدم على الفعل لإفادة القصر واعتبرت الكاف مقحمة للنكتة المذكورة فصار نفس المصدر

المؤكد لا نعتاً له أى ذلك الجعل البديع جعلناكم ﴿ أمة وسطا ﴾ لا جعلا آخر أدنى منه والوسط فى الأصل اسم لما يستوى نسبة الجوانب إليه كمركز الدائرة ثم استعير للخصال المحمودة البشرية لكن لا لأن الأطراف يتسارع إليها الخلل والإعواز والأوساط محمية محوطة كما قيل واستشهد عليه بقول ابن أوس الطائى :

كانت هى الوسط المحمى فاكتنفت   بها الحوادث حتى أصبحت طرفا

فإن تلك العلاقة بمعزل من الاعتبار فى هذا المقام إذ لا ملابسة بينها وبين أهلية الشهادة التى جعلت غاية للجعل المذكور لكون تلك الخصال أوساطا للخصال الذميمة المكتنفة بها من طرفى الإفراط والتفريط كالعفة التى طرفاها الفجور والخمود وكالشجاعة التى طرفاها التهور والجبن وكالحكمة التى طرفاها الجريرة والبلادة وكالعدالة التى هى كيفية متشابهة حاصلة من اجتماع تلك الأوساط المحفوفة بأطرافها ثم أطلق على المتصف بها مبالغة كأنه نفسها وسوى فيه بين المفرد والجمع والمذكر والمؤنث رعاية لجانب الأصل كدأب سائر الأسماء التى يوصف بها وقد روعيت ههنا نكتة رائقة هى أن الجعل المشار إليه عبارة عما تقدم ذكره من هدايته تعالى إلى الحق الذى عبر عنه بالصراط المستقيم الذى هو الطريق السوى الواقع فى وسط الطرق الجائرة عن القصد إلى الجانبين فإنا إذا فرضنا خطوطا كثيرة واصلة بين نقطتين متقابلتين فالخط المستقيم إنما هو الخط الواقع فى وسط تلك الخطوط المنحنية ومن ضرورة كونه وسطا بين الطرق الجائرة كون الأمة المهدية إليه أمة وسطا بين الأمم السالكة إلى تلك الطرق الزائغة أى متصفة بالخصال الحميدة خيارا وعدولا مزكين بالعلم والعمل ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾ بأن الله عز وجل قد أوضح السبل وأرسل الرسل فبلغوا ونصحوا وذكروا فهل من مدكر وهى غاية للجعل المذكور مترتبة عليه فإن العدالة كما أشير إليه حيث كانت هى الكيفية المتشابهة المتألفة من العفة التى هى فضيلة القوة الشهوية

البهيمية والشجاعة التى هى فضيلة القوة الغضبية السبعية والحكمة التى هى فضيلة القوة العقلية الملكية المشار إلى رتبتها بقوله عز وعلا (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا) كان المتصف بها واقفا على الحقائق المودعة فى الكتاب المبين المنطوى على أحكام الدين وأحوال الأمم أجمعين حاويا بالشرائط الشهادة عليهم. روى أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء عليهم السلام فيطالبهم الله تعالى بالبينة وهو أعلم إقامة للحجة على المنكرين وزيادة لخزيهم بأن كذبهم من بعدهم من الأمم فيؤتى بأمة محمد صلى الله عليه وسلم فيشهدون فيقول الأمم من أين عرفتم فيقولون علمنا ذلك بإخبار الله تعالى فى كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق فيؤتى عند ذلك بالنبى صلى الله عليه وسلم ويسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بعدالتها وذلك قوله عز قائلا ﴿ ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ وكلمة الاستعلاء لما فى الشهيد من معنى الرقيب والمهيمن وقيل لتكونوا شهداء على الناس فى الدنيا فيما لا يقبل فيه الشهادة إلا من العدول الأخيار وتقديم الظرف للدلالة على اختصاص شهادته عليه السلام بهم ﴿ وما جعلنا القبلة التى كنت عليها ﴾ جرد الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم رمزا إلى أن مضمون الكلام من الأسرار الحقيقة بأن تخص معرفته بها عليه السلام وليس الموصول صفة للقبلة بل هو مفعول ثان للجعل وما قيل من أن الجعل تحويل الشىء من حالة إلى أخرى فالمتلبس بالحالة الثانية هو المفعول الثانى كما فى قولك جعلت الطين خزفا فينبغى أن يكون المفعول الأول هو الموصول والثانى هو القبلة فهو كلام صناعى ينساق إليه الذهن بحسب النظر الجليل ولكن التأمل اللائق يهدى إلى العكس فإن المقصود إفادته أنه ليس جعل الجهة قبلة لا غير كما يفيده ما ذكر بل هو جعل القبلة المحققة الوجود هذه الجهة دون غيرها والمراد بالموصول هى الكعبة فإنه عليه الصلاة والسلام كان يصلى إليها أولا ثم لما هاجر أمر بالصلاة إلى الصخرة تألفاً لليهود أو هى الصخرة لما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أن قبلته عليه السلام بمكة كانت بيت المقدس إلا أنه كان يجعل الكعبة بينه وبينه

وعلى هذه الرواية لا يمكن أن يراد بالقبلة الأولى الكعبة وأما الصخرة فيتأتى إرادتها على الروايتين والمعنى على الأول وما جعلنا القبلة الجهة التى كنت عليها قبل هذا الوقت وهى الصخرة ﴿ إلا لنعلم ﴾ استثناء مفرغ من أعم العلل أى وما جعلنا ذلك الشىء من الأشياء إلا لنمتحن الناس أى نعاملهم معاملة من يمتحنهم ونعلم حينئذ ﴿ من يتبع الرسول ﴾ فى التوجه إلى ما أمر به من الدين أو القبلة والالتفات إلى القبلة مع إيراده عليه السلام بعنوان الرسالة للإشعار بعلة الاتباع ﴿ ممن ينقلب على عقبيه ﴾ يرتد عن دين الإسلام أو لا يتوجه إلى القبلة الجديدة أو لنعلم الآن من يتبع الرسول ممن لا يتبعه وما كان لعارض يزول بزواله وعلى الأول ما رددناك إلى ما كنت عليه إلا لنعلم الثابت على الإسلام والناكص على عقبيه لقلقه وضعف إيمانه والمراد بالعلم ما يدور عليه فلك الجزاء من العلم الحالى أى ليتعلق علمنا به موجودا بالفعل وقيل المراد علم الرسول عليه السلام والمؤمنين وإسناده إليه سبحانه لما أنعم على خواصه وليتميز الثابت عن المتزلزل كقوله تعالى (ليميز الله الخبيث من الطيب) فوضع العلم موضع التمييز الذى هو مسبب عنه ويشهد له قراءة ليعلم على بناء المجهول من صيغة الغيبة والعلم إما بمعنى المعرفة أو متعلق بما فى «من» من معنى الاستفهام أو مفعوله الثانى ممن ينقلب الخ أى لنعلم من يتبع الرسول متميزا ممن ينقلب على عقبيه ﴿ وإن كانت لكبيرة) أى شاقة ثقيلة وإن هى المخففة من الثقيلة دخلت على ناسخ المبتدأ والخبر واللام هى الفارقة بينها وبين النافية كما فى قوله تعالى (إن كان وعد ربنا لمفعولا) وزعم الكوفيون أنها نافية واللام بمعنى إلا أى ما كانت إلا كبيرة والضمير الذى هو اسم كان راجع إلى ما دل عليه قوله تعالى (وما جعلنا القبلة التى كنت عليها) من الجعلة أو التولية أو التحويلة أو الردة أو القبلة وقرىء لكبيرة بالرفع على أن كان مزيدة كما فى قوله :

* وإخوان لنا كانوا كرام *

وأصله وإن هى لكبيرة كقوله إن زيد لمنطلق ﴿ إلا على الذين هدى الله ﴾ أى إلى سر الأحكام الشرعية المبنية على الحكم والمصالح إجمالا وتفصيلا وهم المهديون إلى الصراط

المستقيم الثابتون على الإيمان واتباع الرسول عليه السلام : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ أى ما صح وما استقام له أن يضيع ثباتكم على الإيمان بل شكر صنيعكم وأعد لكم الثواب العظيم وقيل إيمانكم بالقبلة المنسوخة وصلاتكم إليها لما روى أنه عليه السلام لما توجه إلى الكعبة قالوا كيف حال إخواننا الذين مضوا وهم يصلون إلى بيت المقدس فنزلت واللام فى ليضيع إما متعلقة بالخبر المقدر لكان كما هو رأى البصرية وانتصاب الفعل بعدها بأن المقدرة أى ما كان الله مريدا أو متصديا لأن يضيع الخ ففى توجيه النفى إلى إرادة الفعل تأكيد ومبالغة ليس فى توجيهه إلى نفسه وإما مزيدة للتأكيد ناصبة للفعل بنفسها كما هو رأى الكوفية ولا يقدح فى ذلك زيادتها كما لا يقدح زيادة حروف الجر فى عملها وقوله تعالى : ﴿ إن الله بالناس لرؤف رحيم ﴾ تحقيق وتقرير للحكم وتعليل له فإن اتصافه عز وجل بهما يقتضى لا محالة أن لا يضيع أجورهم ولا يدع ما فيه صلاحهم والباء متعلقة برؤف وتقديمه على رحيم مع كونه أبلغ منه لما مر فى وجه تقديم الرحمن على الرحيم وقيل الرحمة أكثر من الرأفة فى الكمية والرأفة أقوى منها فى الكيفية لأنها عبارة عن إيصال النعم الصافية من الآلام والرحمة إيصال النعمة مطلقا وقد يكون مع الألم كقطع العضو المتأكل وقرىء رؤف بغير مد كندس ﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء ﴾ أى تردد وتصرف نظرك فى جهتها تطلعا للوحى وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقع فى روعه ويتوقع من ربه عز وجل أن يحوله إلى الكعبة لأنها قبلة إبراهيم وأدعى للعرب إلى الإيمان لأنها مفخرتهم ومزارهم ومطافهم ولمخالفة اليهود فكان يراعى نزول جبريل بالوحى بالتحويل ﴿ فلنولينك قبلة ﴾ الفاء للدلالة على سببية ما قبلها لما بعدها وهى فى الحقيقة داخلة على قسم محذوف يدل عليه اللام أى فوالله لنولينك أى لنعطينكها ولنمكننك من استقبالها من قولك وليته كذا أى صيرته واليا له أو لنجعلنك تلى جهتها أو لنحولنك على أن نصب قبلة بحذف الجار أى إلى قبلة وقيل هو متعد إلى مفعولين ﴿ ترضاها ﴾

تحبها وتشتاق إليها لمقاصد دينية وافقت مشيئته تعالى وحكمته ﴿فول وجهك﴾ الفاء لتفريع الأمر بالتولية على الوعد الكريم وتخصيص التولية بالوجه لما أنه مدار التوجه ومعياره وقيل المراد به كل البدن أى فاصرفه ﴿شطر المسجد الحرام﴾ أى نحوه وهو نصب على الظرفية من نولى أو على نزع الخافض أو على أنه مفعول ثان له وقيل الشطر فى الأصل اسم لما انفصل من الشىء ودار شطور إذا كانت منفصلة عن الدور ثم استعمل لجانبه وإن لم ينفصل كالقطر والحرام المحرم أى محرم فيه القتال أو ممنوع من الظلمة أن يتعرضوا له وفى ذكر المسجد الحرام دون الكعبة إيذان بكفاية مراعاة الجهة لأن مراعاة العين من البعيد حرجا عظيما بخلاف القريب . روى عن البراء بن عازب أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا ثم وجه إلى الكعبة وقيل كان ذلك فى رجب بعد زوال الشمس قبل قتال بدر بشهرين ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجد بنى سلمة وقد صلى بأصحابه ركعتين من صلاة الظهر فتحول فى الصلاة واستقبل الميزاب وحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال فسمى المسجد مسجد القبلتين ﴿وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ خص الرسول صلى الله عليه وسلم بالخطاب تعظيما لجنابه وإيذانا بإسعاف مرامه ثم عمم الخطاب للمؤمنين مع التعرض لاختلاف أماكنهم تأكيدا للحكم وتصريحا بعمومه لكافة العباد من كل حاضر وباد وحثا للأمة على المتابعة وحيثما شرطية وكنتم فى محل الجزاء بها وقوله تعالى فولوا جوابها وتكون هى منصوبة على الظرفية بكنتم نحو قوله تعالى (أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى) ﴿وإن الذين أوتوا الكتاب﴾ من فريقى اليهود والنصارى ﴿ليعلمون أنه﴾ أى التحويل أو التوجه المفهوم من التولية ﴿الحق﴾ لا غير لعلمهم بأن عادته سبحانه وتعالى جارية على تخصيص كل شريعة بقبلة ومعاينتهم لما هو مسطور فى كتبهم من أنه عليه الصلاة والسلام يصلى إلى القبلتين كما يشعر بذلك التعبير عنهم بالاسم الموصول بإيتاء الكتاب وأن مع اسمها وخبرها ساد مسد مفعولى يعلمون أو مسد مفعوله الواحد على

أن العلم بمعنى المعرفة وقوله تعالى : ﴿ من ربهم ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من الحق أى كائنا من ربهم أو صفة له على رأى من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته أى الكائن من ربهم ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ وعد ووعيد للفريقين والخطاب للكل تغليبا وقرىء على صيغة الغيبة فهو وعيد لأهل الكتاب .

﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب ﴾ وضع الموصول موضع المضمر للإيذان بكمال سوء حالهم من العناد مع تحقيق ما يرغمهم منه من الكتاب الناطق بحقية ما كابروا فى قبوله ﴿ بكل آية ﴾ أى حجة قطعية دالة على حقية التحويل واللام موطئة للقسم وقوله تعالى ﴿ ما تبعوا قبلتك ﴾ جواب للقسم المضمر ساد مسد جواب الشرط والمعنى أنهم ما تركوا قبلتك لشبهة تزيلها الحجة وإنما خالفوك مكابرة وعنادا وتجريد الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم بعد تعميمه للأمة لما أن المحاجة والإتيان بالآية من الوظائف الخاصة به عليه السلام وقوله تعالى : ﴿ وما أنت بتابع قبلتهم ﴾ جملة معطوفة على الجملة الشرطية لا على جوابها مسوقة لقطع أطماعهم الفارغة حيث قالت اليهود لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن تكون صاحبنا الذى ننتظره تغريرا له عليه الصلاة والسلام وطمعا فى رجوعه وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على دوام مضمونها واستمراره وإفراد قبلتهم مع تعددها باعتبار اتحادها فى البطلان ومخالفة الحق ولئلا يتوهم أن مدار النفى هو التعدد وقرىء بتابع قبلتهم على الإضافة ﴿ وما بعضهم بتابع قبلة بعض ﴾ فإن اليهود تستقبل الصخرة والنصارى مطلع الشمس ولا يرجى توافقهم كما لا يرجى موافقتهم لك لتصلب كل فريق فيما هو فيه .

﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ الزائغة المتخالفة ﴿ من بعد ما جاءك من العلم ﴾ ببطلانها وحقية ما أنت عليه وهذه الشرطية الفرضية واردة على منهاج التهييج والإلهاب للثبات على الحق أى ولئن اتبعت أهواءهم فرضا ﴿ إنك إذاً لمن الظالمين ﴾ وفيه لطف للسامعين وتحذيرهم عن متابعة الهوى

فإن من ليس من شأنه ذلك إذا نهى عنه ورتب على فرض وقوعه مارتب من الانتظام فى سلك الراسخين فى الظلم فما ظن من ليس كذلك وإذن حرف جواب وجزاء توسطت بين اسم إن وخبرها لتقرير ما بينهما من النسبة إذ كان حقها أن تتقدم أو تتأخر فلم تتقدم لئلا يتوهم أنها لتقرير النسبة التى بين الشرط وجوابه المحذوف لأن المذكور جواب القسم ولم تتأخر لرعاية الفواصل ولقد بولغ فى التأكيد من وجوه تعظيما للحق المعلوم وتحريضا على اقتفائه وتحذيراً عن متابعة الهوى واستعظاما لصدور الذنب من الأنبياء عليهم السلام .

﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ أى علماؤهم إذ هم العمدة فى إيتائه ووضع الموصول موضع المضمر مع قرب العهد للإشعار بعلية ما فى حيز الصلة للحكم والضمير المنصوب فى قوله تعالى ﴿ يعرفونه ﴾ للرسول صلى الله عليه وسلم والالتفات إلى الغيبة للإيذان بأن المراد ليس معرفتهم له عليه السلام من حيث ذاته ونسبه الزاهر بل من حيث كونه مسطورا فى الكتاب منعوتا فيه بالنعوت التى من جملتها أنه عليه السلام يصلى إلى القبلتين كأنه قيل الذين آتيناهم الكتاب يعرفون من وصفناه فيه وبهذا يظهر جزالة النظم الكريم وقيل هو إضمار قبل الذكر للإشعار بفخامة شأنه عليه الصلاة والسلام أنه علم معلوم بغير إعلام فتأمل وقيل الضمير للعلم أو سببه الذى هو الوحى أو القرآن أو التحويل ويؤيد الأول قوله عز وجل ﴿ كما يعرفون أبناءهم ﴾ أى يعرفونه عليه الصلاة والسلام بأوصافه الشريفة المكتوبة فى كتابهم ولا يشتبه عليهم كما لا يشتبه أبناؤهم وتخصيصهم بالذكر دون ما يعم البنات لكونهم أعرف عندهم منهن بسبب كونهم أحب إليهم عن عمر رضى الله عنه أنه سأل عبد الله بن سلام رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أنا أعلم به منى بابنى قال ولم قال لأنى لست أشك فيه أنه نبى فأما ولدى فلعل والدته خانت فقبل عمر رأسه رضى الله عنهما ﴿ وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ هم الذين كابروا وعاندوا الحق والباقون هم الذين آمنوا منهم فإنهم يظهرون الحق ولا يكتمونه وأما

الجهلة منهم فليست لهم معرفة بالكتاب ولا بما فى تضاعيفه فما هم بصدد الإظهار ولا بصدد الكتم وإنما كفرهم على وجه التقليد ﴿الحق﴾ بالرفع على أنه مبتدأ وقوله تعالى ﴿من ربك﴾ خبره واللام للعهد والإشارة إلى ما عليه النبى صلى الله عليه وسلم أو إلى الحق الذى يكتمونه أو للجنس والمعنى أن الحق ما ثبت أنه من الله تعالى كالذى أنت عليه لا غيره كالذى عليه أهل الكتاب أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أى هو الحق وقوله تعالى من ربك إما حال أو خبر بعد خبر وقرىء بالنصب على أنه بدل من الأول أو مفعول ليعلمون وفى التعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام من إظهار اللطف به عليه السلام ما لا يخفى ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ أى الشاكين فى كتمانهم الحق عالمين به وقيل فى أنه من ربك وليس المراد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الشك لأنه غير متوقع منه عليه الصلاة والسلام وليس بقصد واختيار بل إما تحقيق الأمر وأنه بحيث لا يشك فيه ناظر أو أمر الأمة باكتساب المعارف المزيحة للشك على الوجه الأبلغ ﴿ولكل﴾ أى ولكل أمة من الأمم على أن التنوين عوض من المضاف إليه ﴿وجهة﴾ أى قبلة وقد قرىء كذلك أو لكل قوم من المسلمين جانب من جوانب الكعبة ﴿هو موليها﴾ أحد المفعولين محذوف أى موليها وجهه أو الله موليها إياه وقرىء ولكل وجهة بالإضافة والمعنى ولكل وجهة الله موليها أهلها واللام مزيدة للتأكيد وجبر ضعف العامل وقرىء مولاها أى مولى تلك الجهة قد وليها ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ أى تسابقوا إليها بنزع الجار كما فى قوله :

ثنائى عليكم آل حرب ومن يمل   سواكم فإنى مهتد غير مائل

وهو أبلغ من الأمر بالمسارعة لما فيه من الحث على إحراز قصب السبق والمراد بالخيرات جميع أنواعها من أمر القبلة وغيره مما ينال به سعادة الدارين أو الفاضلات من الجهات وهى المسامتة للكعبة ﴿أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا﴾ أى فى أى موضع تكونوا من موافق أو مخالف مجتمع الأجزاء أو

متفرقها يحشركم الله تعالى إلى المحشر للجزاء أو أينما تكونوا من أعماق الأرض وقلل الجبال يقبض أرواحكم أو أينما تكونوا من موافق أو مخالف مجتمع الأجزاء أو متفرقها يحشركم الله تعالى إلى المحشر للجزاء أو أينما تكونوا من أعماق الأرض وقلل الجبال يقبض أرواحكم أو أينما تكونوا من الجهات المختلفة المتقابلة يجعل صلواتكم كأنها صلاة إلى جهة واحدة ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ فيقدر على الإماتة والإحياء والجمع فهو تعليل للحكم السابق ﴿ومن حيث خرجت﴾ تأكيد لحكم التحويل وتصريح بعدم تفاوت الأمر فى حالتى السفر والحضر ومن متعلقة بقوله تعالى ﴿فول﴾ أو بمحذوف عطف هو عليه أى من أى مكان خرجت إليه للسفر فول ﴿وجهك﴾ عند صلاتك ﴿شطر المسجد الحرام﴾ أو أفعل ما أمرت به من أى مكان خرجت إليه فول إلخ ﴿وإنه﴾ أى هذا الأمر ﴿للحق من ربك﴾ أى الثابت الموافق للحكمة ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ فيجازيكم بذلك أحسن جزاء فهو وعد للمؤمنين وقرىء يعملون على صيغة الغيبة فهو وعيد للكافرين ﴿ومن حيث خرجت﴾ إليه فى أسفارك ومغازيك من المنازل القريبة والبعيدة ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ الكلام فيه كما مر آنفا ﴿وحيثما كنتم﴾ من أقطار الأرض مقيمين أو مسافرين حسبما يعرب عنه إيثار كنتم على خرجتم فإن الخطاب عام لكافة المؤمنين المنتشرين فى الآفاق من الحاضرين والمسافرين فلو قيل وحيثما خرجتم لما تناول الخطاب المقيمين فى الأماكن المختلفة من حيث إقامتهم فيها ﴿فولوا وجوهكم﴾ من محالكم ﴿شطره﴾ والتكرير لما أن القبلة لها شأن خطير والنسخ من مظان الشبهة والفتنة فبالحرى أن يؤكد أمرها مرة بعد أخرى مع أنه قد ذكر فى كل مرة حكمة مستقلة ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾ متعلق بقوله تعالى (فولوا) وقيل بمحذوف يدل عليه الكلام كأنه قيل فعلنا ذلك لئلا إلخ والمعنى أن التولية عن الصخرة تدفع احتجاج اليهود بأن المنعوت فى التوراة من أوصافه أنه يحول إلى الكعبة واحتجاج المشركين بأنه يدعى ملة إبراهيم ويخالف قبلته

﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ وهم أهل مكة أى لئلا يكون لأحد من الناس حجة إلا المعاندين منهم الذين يقولون ما تحول إلى الكعبة إلا ميلا الى دين قومه وحبا لبلده أو بداله فرجع إلى قبلة آبائه ويوشك أن يرجع إلى دينهم وتسمية هذه الكلمة الشنعاء حجة مع أنها أخش الأباطيل من قبيل ما فى قوله تعالى حجتهم داحضة حيث كانوا يسوقونها مساق الحجة وقيل الحجة بمعنى مطلق الاحتجاج وقيل الاستثناء للمبالغة فى نفى الحجة رأسا كالذى فى قوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم … بهن فلول من قراع الكتائب

ضرورة أن لاحجة للظالم وقرىء ألا الذين بحرف التنبيه على استئناف ﴿فلا تخشوهم﴾ فإن مطاعنهم لا تضركم شيئا ﴿واخشونى﴾ فلا تخالفوا أمرى ﴿ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون﴾ علة محذوف يدل عليه النظم الكريم أى أمرتكم بما مر لإتمامى للنعمة عليكم لما أنه نعمة جليلة ولإرادتى لما أنه صراط مستقيم مؤد إلى سعادة الدارين كما أشير إليه فى قوله عز وجل (يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) وفى التعبير عن الإرادة بكلمة لعل الموضوعة للترجى على طريقة الاستعارة التبعية من الدلالة على كمال العناية بالهداية مالا يخفى أو عطف على علة مقدرة أى واخشونى لأحفظكم عنهم وأتم إلخ أو على قوله تعالى لئلا يكون إلخ وتوسيط قوله تعالى فلا تخشوهم إلخ بينهما للمسارعة إلى التسلية والتثبيت وفى الخبر تمام النعمة دخول الجنة وعن على رضى الله عنه تمام النعمة الموت على الإسلام ﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم﴾ متصل بما قبله والظرف الأول متعلق بالفعل قدم على مفعوله الصريح لما فى صفاته من الطول والظرف الثانى متعلق بمضمر وقع صفة لرسولا مبينة لتمام النعمة أى ولأتم نعمتى عليكم فى أمر القبلة أو فى الآخرة إتماما كائنا كإتمامى لها بإرسال رسول كائن منكم فإن إرسال الرسول لاسيما المجانس لهم نعمة لا يكافئها نعمة قط وقيل متصل بما بعده أى كما ذكرتم بالإرسال فاذكرونى الخ وإيثار صيغة المتكلم مع الغير بعد التوجيه فيما قبله افتنان وجريان على سنن الكبرياء ﴿يتلو عليكم آياتنا﴾

صفة ثانية لرسول كاشفة لكمال النعمة ﴿ويزكيكم﴾ عطف على يتلو أى يحملكم على ما تصيرون به أزكياء ﴿ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾ صفة أخرى مترتبة فى الوجود على التلاوة وإنما وسط بينهما التزكية التى هى عبارة عن تكميل النفس بحسب القوة العملية وتهذيبها المتفرع على تكميلها بحسب القوة النظرية الحاصل بالتعليم المترتب على التلاوة للإيذان بأن كلا من الأمور المترتبة نعمة جليلة على حيالها مستوجبة للشكر فلو روعى ترتيب الوجود كما فى قوله تعالى (وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) لتبادر إلى الفهم كون الكل نعمة واحدة كما مر نظيره فى قصة البقرة وهو السر فى التعبير عن القرآن تارة بالآيات وأخرى بالكتاب والحكمة رمزاً إلى أنه باعتبار كل عنوان نعمة على حدة ولا يقدح فيه شمول الحكمة لما فى تضاعيف الأحاديث الشريفة من الشرائع وقوله عز وجل ﴿ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ صريح فى ذلك فإن الموصول مع كونه عبارة عن الكتاب والحكمة قطعا قد عطف تعليمه على تعليمها وما ذلك إلا لتفصيل فنون النعم فى مقام يقتضيه كما فى قوله تعالى (ونجيناهم من عذاب غليظ) عقيب قوله تعالى (نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا) والمراد بعدم علمهم أنه ليس من شأنهم أن يعلموه بالفكر والنظر وغير ذلك من طرق العلم لانحصار الطريق فى الوحى ﴿فاذكرونى﴾ الفاء للدلالة على ترتب الأمر على ما قبله من موجباته أى فاذكرونى بالطاعة ﴿أذكركم﴾ بالثواب وهو تحريض على الذكر مع الإشعار بما يوجبه ﴿واشكروا لى﴾ ما أنعمت به عليكم من النعم ﴿ولا تكفرون﴾ بجحدها وعصيان ما أمرتكم به ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ وصفهم بالإيمان إثر تعداد ما يوجبه ويقتضيه تنشيطا لهم وحثا على مراعاة ما يعقبه من الأمر ﴿استعينوا﴾ فى كل ما تأتون وما تذرون ﴿بالصبر﴾ على الأمور الشاقة على النفس التى من جملتها معاداة الكفرة ومقابلتهم المؤدية إلى مقاتلتهم ﴿والصلوة﴾ التى هى أم العبادات ومعراج المؤمنين ومناجاة رب العالمين ﴿إن الله مع الصابرين﴾ تعليل للأمر بالاستعانة بالصبر خاصة لما أنه المحتاج إلى التعليل وأما الصلاة

فحيث كانت عند المؤمنين أجل المطالب كما ينبىء عنه قوله عليه الصلاة والسلام وجعلت قرة عينى فى الصلاة . لم يفتقر الأمر بالاستعانة بها إلى التعليل ومعنى المعية الولاية الدائمة المستتبعة للنصرة وإجابة الدعوة ودخول مع على الصابرين لما أنهم المباشرون للصبر حقيقة فهم متبوعون من تلك الحيثية ﴿ ولا تقولوا ﴾ عطف على استعينوا إلخ مسوق لبيان أن لا غاية للمأمور به وإنما الشهادة التى ربما يؤدى إليها الصبر حياة أبدية ﴿لمن يقتل فى سبيل الله أموات﴾ أى هم أموات ﴿بل أحياء﴾ أى بل هم أحياء ﴿ولكن لا تشعرون﴾ بحياتهم وفيه رمز إلى أنها ليست مما يشعر به بالمشاعر الظاهرة من الحياة الجسمانية وإنما هى أمر روحانى لا يدرك بالعقل بل بالوحى وعن الحسن رحمه الله أن الشهداء أحياء عند الله تعرض أرزاقهم على أرواحهم فيصل إليهم الروح والفرح كما تعرض النار على آل فرعون غدوا وعشيا فيصل إليهم الألم والوجع قلت رأيت فى المنام سنة تسع وثلاثين وتسعمائة أنى أزور قبور شهداء بأحد رضى الله تعالى عنهم أجمعين وأنا أتلو هذه الآية وما فى سورة آل عمران وأرددهما متفكرا فى أمرهم وفى نفسى أن حياتهم روحانية لا جسمانية فبينما أنا على ذلك إذ رأيت شابا منهم قاعدا فى قبره تام الجسد كامل الخلقة فى أحسن ما يكون من الهيئة والمنظر ليس عليه شىء من اللباس قد بدا منه ما فوق السرة والباقى فى القبر خلا أنى أعلم يقينا أن ذلك أيضا كما ظهر وإنما لا يظهر لكونه عورة فنظرت إلى وجهه فرأيته ينظر إلى متبسما كأنه ينبهنى على أن الأمر بخلاف رأيى فسبحان من علت كلمته وجلت حكمته وقيل الآية نزلت فى شهداء بدر وكانوا أربعة عشر وفيها دلالة على أن الأرواح جواهر قائمة بأنفسها مغايرة لما يحس به من البدن تبقى بعد الموت دراكة وعليه جمهور الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وبه نطقت والسنن وعلى هذا فتخصيص الشهداء بذلك لما يستدعيه مقام التحريض على مباشرة مبادى الشهادة ولاختصاصهم بمزيد القرب من الله عز وعلا ﴿ ولنبلونكم ﴾ لنصيبنكم إصابة من يختبر أحوالكم أتصبرون على البلاء وتستسلمون للقضاء ﴿ بشىء من الخوف والجوع ﴾ أى بقليل من ذلك

فإن ما وقاهم عنه أكثر بالنسبة إلى ما أصابهم بألف مرة وكذا ما يصيب به معانديهم وإنما أخبر به قبل الوقوع ليوطنوا عليه نفوسهم ويزداد يقينهم عند مشاهدتهم له حسبما أخبر به وليعلموا أنه شيء يسير له عاقبة حميدة ﴿ ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ﴾ عطف على شيء وقيل على الخوف وعن الشافعي رحمه الله الخوف خوف الله والجوع صوم رمضان ونقص من الأموال الزكاة والصدقات ومن الأنفس الأمراض ومن الثمرات موت الأولاد وعن النبي صلى الله عليه وسلم إذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة أقبضتم روح عبدي فيقولون نعم فيقول عز وجل أقبضتم ثمرة قلبه فيقولون نعم فيقول الله تعالى ماذا قال عبدي فيقولون حمدك واسترجع فيقول الله عز وعلا ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد ﴿ وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون) الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل من يتأتى منه البشارة والمصيبة ما يصيب الإنسان من مكروه لقوله عليه السلام كل شيء يؤذي المؤمن فهو له مصيبة وليس الصبر هو الاسترجاع باللسان بل بالقلب بأن يتصور ما خلق له وأنه راجع إلى ربه ويتذكر نعم الله تعالى عليه ويرى أن ما أبقى عليه أضعاف ما استرد معه فيهون ذلك على نفسه ويستسلم والمبشر به محذوف دل عليه ما بعده ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الصابرين باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت ومعنى البعد فيه للإيذان بعلو رتبتهم ﴿ عليهم صلوات من ربهم ورحمة ﴾ الصلاة من الله سبحانه المغفرة والرأفة وجمعها للتنبيه على كثرتها وتنوعها والجمع بينها وبين الرحمة للمبالغة كما في قوله تعالى (رأفة ورحمة) (رؤف رحيم) والتنوين فيهما للتفخيم والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم لإظهار مزيد العناية بهم أي أولئك الموصوفون بما ذكر من النعوت الجليلة عليهم فنون الرأفة الفائضة من مالك أمورهم ومبلغهم إلى كمالاتهم اللائقة بهم وعن النبي صلى الله عليه وسلم من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته وأحسن عقباه وجعل له خلفا صالحا يرضاه ﴿ وأولئك ﴾ إشارة إليهم إما بالاعتبار السابق والتكرير لإظهار كمال العناية بهم وإما باعتبار

حيازتهم لما ذكر من الصلوات والرحمة المترتب على الاعتبار الأول فعلى الأول المراد بالاهتداء فى قوله عز وجل ﴿ وهم المهتدون ﴾ هو الاهتداء للحق والصواب مطلقا لا الاهتداء لما ذكر من الاسترجاع والاستسلام خاصة لما أنه متقدم عليهما فلا بد لتأخيره عما هو نتيجة لهما من داع يوجبه وليس بظاهر والجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبله كأنه قيل وأولئك هم المختصون بالاهتداء لكل حق وصواب ولذلك استرجعوا واستسلموا لقضاء الله تعالى وعلى الثانى هو الاهتداء والفوز بالمطالب والمعنى أولئك هم الفائزون بمباغيهم الدينية والدنيوية فإن من نال رأفة الله تعالى ورحمته لم يفته مطلب ﴿ إن الصفا والمروة ﴾ علمان لجبلين بمكة المعظمة كالصمان والمقطم ﴿ من شعائر الله ﴾ من أعلام مناسكه جمع شعيرة وهى العلامة ﴿ فمن حج البيت أو اعتمر ﴾ الحج فى اللغة القصد والاعتمار الزيارة غلبا فى الشريعة على قصد البيت وزيارته على الوجهين المعروفين كالبيت والنجم فى الأعيان وحيث أظهر البيت وجب تجريده عن التعلق به ﴿ فلا جناح عليه أن يطوف بهما ﴾ اى فى أن يطوف بهما أصله يتطوف قلبت التاء طاء فأدغمت الطاء فى الطاء وفى إيراد صيغة التفعل إيذان بأن من حق الطائف أن يتكلف فى الطواف ويبذل فيه جهده وهذا الطواف واجب عندنا والشافعى وعن مالك رحمهما الله أنه ركن وإيراده بعدم الجناح المشعر بالتخيير لما أنه كان فى عهد الجاهلية على الصفا صنم يقال له إساف وعلى المروة آخر اسمه نائلة وكانوا إذا سعوا بينهما مسحوا بهما فلما جاء الإسلام وكسر الأصنام تحرج المسلمون أن يطوفوا بينهما لذلك فنزلت وقيل هو تطوع ويعضده قراءة ابن مسعود فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ﴿ ومن تطوع خيراً ﴾ أى فعل طاعة فرضا كان أو نفلا أو زاد على ما فرض عليه من حج أو عمرة أو طواف وخيرا حينئذ نصب على أنه صفة لمصدر محذوف أى تطوعا خيرا أو على حذف الجار وإيصال الفعل إليه أو على تضمين معنى فعل وقرىء يطوع وأصله يتطوع مثل يطوف وقرىء ومن يتطوع بخير ﴿ فإن الله شاكر ﴾ أى مجاز على الطاعة عبر عن ذلك بالشكر مبالغة فى الإحسان

إلى العباد ﴿عليم﴾ مبالغ فى العلم بالأشياء فيعلم مقادير أعمالهم وكيفياتها فلا ينقص من أجورهم شيئا وهو علة لجواب الشرط قائم مقامه كأنه قيل ومن تطوع خيرا جازاه الله وأثابه فإن الله شاكر عليم ﴿إن الذين يكتمون﴾ قيل نزلت فى أحبار اليهود الذين كتموا ما فى التوراة من نعوت النبى صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من الأحكام وعن ابن عباس ومجاهد وقتادة والحسن والسدى والربيع والأصم أنها نزلت فى أهل الكتاب من اليهود والنصارى وقيل نزلت فى كل من كتم شيئاً من أحكام الدين لعموم الحكم للكل والأقرب هو الأول فإن عموم الحكم لا يأبى خصوص السبب والكتم والكتمان ترك إظهار الشىء قصدا مع مساس الحاجة إليه وتحقق الداعى إلى إظهاره وذلك قد يكون بمجرد ستره وإخفائه وقد يكون بإزالته ووضع شىء آخر فى موضعه وهو الذى فعله هؤلاء .

﴿ما أنزلنا من البينات﴾ من الآيات الواضحة الدالة على أمر محمد صلى الله عليه ﴿والهدى﴾ أى والآيات الهادية إلى كنه أمره ووجوب اتباعه والإيمان به عبر عنها بالمصدر مبالغة ولم يجمع مراعاة للأصل وهى المرادة بالبينات أيضاً والعطف لتغاير العنوان كما فى قوله عز وجل (هدى للناس وبينات) الخ وقيل المراد بالهدى الأدلة العقلية ويأباه الإنزال والكتم ﴿من بعد ما بيناه للناس﴾ متعلق بيكتمون والمراد بالناس الكل لا الكاتمون فقط واللام متعلقة ببيناه وكذا الظرف فى قوله تعالى ﴿فى الكتاب﴾ فإن تعلق جارين بفعل واحد عند اختلاف المعنى مما لا ريب فى جوازه أو الأخير متعلق بمحذوف وقع حالا من مفعوله أى كائنا فى الكتاب وتبيينها لهم تلخيصه وإيضاحه بحيث يتلقاه كل أحد منهم من غير أن يكون له فيه شبهة وهذا عنوان مغاير لكونه بينا فى نفسه وهدى مؤكد لقبح الكتم أو تفهيمه لهم بواسطة موسى عليه السلام والأول أنسب بقوله تعالى فى الكتاب والمراد بكتمه إزالته ووضع غيره فى موضعه فإنهم محوا نعته عليه الصلاة والسلام وكتبوا مكانه ما يخالفه كما ذكرناه فى تفسير قوله عز وعلا (فويل للذين يكتبون الكتاب) الخ ﴿أولئك﴾ إشارة إليهم باعتبار

ما وصفوا به للإشعار بعليته لما حاق بهم وما فيه من معنى البعد للإيذان بترامى أمرهم وبعد منزلتهم فى الفساد ﴿ يلعنهم الله ﴾ أى يطردهم ويبعدهم من رحمته والالتفات إلى الغيبة بإظهار اسم الذات الجامع للصفات لتربية المهابة وإدخال الروعة والإشعار بأن مبدأ صدور اللعن عنه سبحانه صفة الجلال المغايرة لما هو مبدأ الإنزال والتبيين من وصف الجمال والرحمة ﴿ ويلعنهم اللاعنون ﴾ أى الذين يتأتى منهم اللعن أى الدعاء عليهم باللعن من الملائكة ومؤمنى الثقلين والمراد بيان دوام اللعن واستمراره وعليه يدور الاستثناء المتصل فى قوله تعالى :

﴿ إلا الذين تابوا ﴾ أى عن الكتمان ﴿ وأصلحوا ﴾ أى ما أفسدوا بأن أزالوا الكلام المحرف وكتبوا مكانه ما كانوا أزالوه عند التحريف ﴿ وبينوا ﴾ للناس معانيه فإنه غير لصلاح المذكور أو بينوا لهم ما وقع منهم أولا وآخرا فإنه أدخل فى إرشاد الناس إلى الحق وصرفهم عن طريق الضلال الذى كانوا أوقعوهم فيه أو بينوا توبتهم ليمحوا به سمة ما كانوا فيه ويقتدى بهم أضرابهم وحيث كانت هذه التوبة المقرونة بالإصلاح والتبيين مستلزمة للتوبة عن الكفر مبنية عليها لم يصرح بالإيمان وقوله تعالى ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة للإشعار بعليته للحكم والفاء لتأكيد ذلك ﴿ أتوب عليهم ﴾ أى بالقبول وإفاضة المغفرة ، والرحمة وقوله تعالى ﴿ وأنا التواب الرحيم ﴾ أى المبالغ فى قبول التوب ونشر الرحمة اعتراض تذييلى محقق لمضمون ما قبله والالتفات إلى التكلم للافتنان فى النظم الكريم مع ما فيه من التلويح والرمز إلى ما مر من اختلاف المبدأ فى فعليه تعالى السابق واللاحق ﴿ إن الذين كفروا ﴾ جملة مستأنفة سيقت لتحقيق بقاء اللعن فيما وراء الاستثناء وتأكيد دوامه واستمراره على غير التائبين حسبما يفيده الكلام والاقتصار على ذكر الكفر فى الصلة من غير تعرض لعدم التوبة والإصلاح والتبيين مبنى على ما أشير إليه فكما أن وجود تلك الأمور الثلاثة مستلزم للإيمان الموجب لعدم الكفر كذلك وجود الكفر مستلزم لعدمها جميعاً أى أن الذين استمروا

على الكفر المستتبع للكتمان وعدم التوبة ﴿ وماتوا وهم كفار ﴾ لايرعوون عن حالتهم الأولى ﴿ أولئك ﴾ الكلام فيه كما فيما قبله ﴿ عليهم ﴾ أى مستقر عليهم ﴿ لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ﴾ ممن يعتد بلعنهم وهذا بيان لدوامها الثبوتى بعد بيان دوامها التجددى وقيل الأول لعنتهم أحياء وهذا لعنتهم أمواتا وقرىء والملائكة والناس أجمعون عطفا على محل اسم الله لأنه فاعل فى المعنى كقولك أعجبنى ضرب زيد وعمر وتريد من أن ضرب زيد وعمر وكأنه قيل أولئك عليهم أن لعنهم الله والملائكة الخ وقيل هو فاعل لفعل مقدر أى ويلعنهم الملائكة ﴿ خالدين فيها ﴾ أى فى اللعنة أو فى النار على أنها أضمرت من غير ذكر تفخيما لشأنها وتهويلا لأمرها ﴿ لايخفف عنهم العذاب ﴾ إما مستأنف لبيان كثرة عذابهم من حيث الكيف إثر بيان كثرته من حيث الكم أو حال من الضمير فى خالدين على وجه التداخل أو من الضمير فى عليهم على طريقة الترادف ﴿ ولاهم ينظرون ﴾ عطف على ماقبله جار فيه وإيثار الجملة الاسمية لإفادة دوام النفى واستمراره أى لايمهلون ولايؤجلون أولا ينتظرون ليعتذروا أولا ينظر إليهم نظر رحمة ﴿ وإلهكم ﴾ خطاب عام لكافة الناس أى المستحق منكم للعبادة ﴿ إله واحد ﴾ أى فرد فى الإلهية لاصحة لتسمية غيره إلها أصلا ﴿ لا إله إلا هو ﴾ خبر ثان للمبتدأ أو صفة أخرى للخبر أو اعتراض وأيا ما كان فهو مقرر للوحدانية ومزيح لما عسى أن يتوهم أن فى الوجود إلها لكن لايستحق العبادة ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ خبران آخران للمبتدأ أو لمبتدأ محذوف وهو تقرير للتوحيد فإنه تعالى حيث كان موليا لجميع النعم أصولها وفروعها جليلها ودقيقها وكان ماسواه كائناً ماكان مفتقرا إليه فى وجوده وما يتفرع عليه من كمالاته تحققت وحدانيته بلا ريب وانحصر استحقاق العبادة فيه تعالى قطعاً قيل كان للمشركين حول الكعبة المكرمة ثلثمائة وستون صنما فلما سمعوا هذه الآية تعجبوا وقالوا إن كنت صادقا فأت بآية نعرف بها صدقك فنزلت ﴿ إن فى خلق السموات والأرض ﴾ أى فى إبداعهما على ماهما عليه مع مافيهما من تعاجيب العبر وبدائع صنائع يعجز عن فهمها عقول البشر وجمع السموات

لما هو المشهور من أنها طبقات متخالفة الحقائق دون الأرض ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ أى اعتقابهما وكون كل منهما خلفاً للآخر كقوله تعالى (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة) أواختلاف كل منهما فى أنفسهما ازديادا وانتقاصا على ماقدره الله تعالى ﴿ والفلك التى تجرى فى البحر ﴾ عطف على ما قبله وتأنيثه إما بتأويل السفينة أو بأنه جمع فإن ضمة الجمع مغايرة لضمة الواحد فى التقدير إذ الأولى كما فى حمر والثانية كما فى قفل وقرىء بضم اللام ﴿ بما ينفع الناس ﴾ أى ملتبسة بالذى ينفعهم مما يحمل فيها من أنواع المنافع أو بنفعهم ﴿ وما أنزل الله من السماء من ماء ﴾ عطف على الفلك وتأخيره عن ذكرها مع كونه أعم منها نفعا لما فيه من مزيد تفصيل وقيل المقصود الاستدلال بالبحر وأحواله وتخصيص الفلك بالذكر لأنه سبب الخوض فيه والاطلاع على عجائبه ولذلك قدم على ذكر المطر والسحاب لأن منشأهما البحر فى غالب الأمر ومن الأولى ابتدائية والثانية بيانة أو تبعيضية وأياما كان فتأخيرها لما مر مرارا من التشويق والمراد بالسماء الفلك أو السحاب أو جهة العلو ﴿ فأحيى به الأرض ﴾ بأنواع النبات والأزهار وما عليها من الأشجار ﴿ بعد موتها ﴾ باستيلاء اليبوسة عليها حسبما تقتضيه طبيعتها كما يوزن به إيراد الموت فى مقابلة الإحياء ﴿ وبث فيها ﴾ أى فرق ونشر ﴿ من كل دابة ﴾ من العقلاء وغيرهم والجملة معطوفة على أنزل داخلة تحت حكم الصلة وقوله تعالى فأحيا الخ متصل بالمعطوف عليه بحيث كانا فى حكم شىء واحد كأنه قيل وما أنزل فى الأرض من ماء وبث فيها الخ أو على أحيا بحذف الجار والمجرور العائد إلى الموصول وإن لم تتحقق الشرائط المعهودة كما فى قوله :

وإن لسانى شهدة يشتفى بها   ولكن على من صبه الله علقم

أى علقم عليه وقوله :

لعل الذى أصعدتنى أن يردنى   إلى الأرض إن لم يقدر الخير قادره

على معنى فأحيا بالماء الأرض وبث فيها من كل دابة فإنهم ينمون

بالخصب ويعيشون بالحيا ﴿ وتصريف الرياح ﴾ عطف على ما أنزل أى تقليبها من مقاب إلى آخر أو من حال إلى أخرى وقرىء على الإفراد ﴿ والسحاب ﴾ عطف على تصريف أو الرياح وهو اسم جنس واحده سحابة سمى بذلك لانسحابه فى الجو ﴿ المسخر بين السماء والأرض ﴾ صفة للسحاب باعتبار لفظه وقد يعتبر معناه فيوصف بالجمع كما فى قوله تعالى سحابا ثقالا وتسخيره تقليبه فى الجو بواسطة الرياح حسبما تقتضيه مشيئة الله تعالى ولعل تأخير تصريف الرياح وتسخير السحاب فى الذكر عن جريان الفلك وإنزال الماء مع انعكاس الترتيب الخارجى لما مر فى قصة البقرة من الإشعار باستقلال كل من الأمور المعدودة فى كونها آية ولو روعى الترتيب الخارجى لربما توهم كون المجموع المترتب بعضه على بعض آية واحدة ﴿ لآيات ﴾ اسم إن دخلته اللام لتأخره عن خبرها والتنكير للتفخيم كما وكيفا أى آيات عظيمة كثيرة دالة على القدرة القاهرة والحكمة الباهرة والرحمة الواسعة المقتضية لاختصاص الألوهية به سبحانه ﴿ لقوم يعقلون ﴾ أى يتفكرون فيها وينظرون إليها بعيون العقول وفيه تعريض بجهل المشركين الذين اقترحوا على النبى صلى الله عليه وسلم آية تصدقه فى قوله تعالى (وإلهكم إله واحد) وتسجيل عليهم بسخافة العقول وإلا فمن تأمل فى تلك الآيات وجد كلا منها ناطقة بوجوده تعالى ووحدانيته وسائر صفاته الكمالية الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى واستغنى بها عن سائرها فإن كل واحد من الأمور المعدودة قد وجد على وجه خاص من الوجوه الممكنة دون ما عداه مستتبعا لآثار معينة وأحكام مخصوصة من غير أن تقتضى ذاته وجوده فضلا عن وجوده على نمط معين مستتبع لحكم مستقل فإذن لا بد له حتما من موجد قادر حكيم يوجده حسبما تقتضيه حكمته وتستدعيه مشيئته متعال عن معارضة الغير إذ لو كان معه آخر يقدر على مايقدر عليه لزم إما اجتماع المؤثرين على أثر واحد أو التمانع المؤدى إلى فساد العالم ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله ﴾ بيان لكمال ركاكة آراء المشركين إثر تقرير وحدانيته سبحانه وتحرير الآيات الباهرة

الملجئة للعقلاء إلى الاعتراف بها الفائضة باستحالة أن يشاركه شيء من الموجودات فى صفة من صفات الكمال فضلا عن المشاركة فى صفات الألوهية والكلام فى إعرابه كما فصل فى قوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر) الخ ومن دون الله متعلق بيتخذ أى من الناس من يتخذ من دون ذلك الإله الواحد الذى ذكرت شئونه الجليلة وإيثار الإسم الجليل لتعيينه تعالى بالذات غب تعيينه بالصفات ﴿ أنداداً ﴾ أى أمثالا وهم رؤساؤهم الذين يتبعونهم فيما يأتون وما يذرون لاسيما فى الأوامر والنواهى كما يفصح عنه ما سيأتى من وصفهم بالتبرى من المتبعين وقيل هى الأصنام وإرجاع ضمير العقلاء إليها فى قوله عز وعلا ﴿ يحبونهم ﴾ مبنى على آرائهم الباطلة فى شأنها وصفهم بما لا يوصف به إلا العقلاء والمحبة ميل القلب من الحب استعير لحبة القلب ثم اشتق منه الحب لأنه أصابها ورسخ فيها والفعل منها حب على حد مد لكن الاستعمال المستفيض على أحب حبا ومحبة فهو محب وذاك محبوب ومحب قليل وحاب أقل منه ومحبة العبد لله سبحانه إرادة طاعته فى أوامره ونواهيه والاعتناء بتحصيل مراضيه فمعنى يحبونهم يطيعونهم ويعظمونهم والجملة فى حيز النصب إما صفة لأندادا أو حالا من فاعل يتخذ وجمع الضمير باعتبار معنى من كما أن إفراده باعتبار لفظها ﴿ كحب الله ﴾ مصدر تشبيهى أو نعت لمصدر مؤكد للفعل السابق ومن قضية كونه مبنيا للفاعل كونه أيضا كذلك والظاهر اتحاد فاعلهما فإنهم كانوا يقرون به تعالى أيضاً ويتقربون إليه فالمعنى حبا كائنا كحبهم لله تعالى أى يسوون بينه تعالى وبينهم فى الطاعة والتعظيم وقيل فاعل الحب المذكور هم المؤمنون فالمعنى حبا كائنا كحب المؤمنين له تعالى فلا بد من اعتبار المشابهة بينهما فى أصل الحب لا فى وصفه كما أو كيفا لما سيأتى من التفاوت البين وقيل هو مصدر من المبنى للمفعول أى كما يحب الله تعالى ويعظم وإنما استغنى عن ذكر من يحبه لأنه غير ملبس وأنت خبير بأنه لا مشابهة بين محبتهم لأندادهم وبين محبوبيته تعالى فالمصير حينئذ ما أسلفناه فى تفسير قوله عز قائلا (كما سئل موسى من قبل)

وإظهار الاسم الجليل فى مقام الإضمار لتربية المهابة وتفخيم المضاف وإبانة كمال قبح ما ارتكبوه .

﴿ والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ جملة مبتدأة جىء بها توطئة لما يعقبها من بيان رخاوة حبهم وكونه حسرة عليهم والمفضل عليه محذوف أى المؤمنون أشد حباً له تعالى منهم لأندادهم ومآله أن حب أولئك له تعالى أشد من حب هؤلاء لأندادهم فيه من الدلالة على كون الحب مصدرا من المبنى للفاعل ما لا يخفى وإنما لم يجعل المفضل عليه حبهم لله تعالى لما أن المقصود بيان انقطاعه وانقلابه بغضا وذلك إنما يتصور فى حبهم لأندادهم لكونه منوطا بمبان فاسدة ومباد موهومة يزول بزوالها ، قيل ولذلك كانوا يعدلون عنها عند الشدائد إلى الله سبحانه وكانوا يعبدون صنما أياما فإذا وجدوا آخر رفضوه إليه وقد أكلت باهلة إلهها عام المجاعة وكان من حيس وأنت خبير بأن مدار ذلك اعتبار اختلال حبهم لها فى الدنيا وليس الكلام فيه بل فى انقطاعه فى الآخرة عند ظهور حقيقة الحال ومعاينة الأهوال كما سيأتى بل اعتباره مخل بما يقتضيه مقام المبالغة فى بيان كمال قبح ما ارتكبوه وغاية عظم ما اقترفوه وإيثار الإظهار فى موضع الإضمار لتفخيم الحب والإشعار بعلته ﴿ ولو يرى الذين ظلموا ﴾ أى باتخاذ الأنداد ووضعها موضع المعبود ﴿ إذ يرون العذاب ﴾ المعد لهم يوم القيامة أى لو علموا إذا عاينوه وإنما أوثر صيغة المستقبل لجريانها مجرى الماضى فى الدلالة على التحقيق فى أخبار علام الغيوب ﴿ أن القوة لله جميعا ﴾ ساد مسد مفعولى يرى ﴿ وأن الله شديد العذاب ﴾ عطف عليه وفائدته المبالغة فى تهويل الخطب وتفظيع الأمر فإن اختصاص القوة به تعالى لا يوجب شدة العذاب لجواز تركه عفوا مع القدرة عليه وجواب لو محذوف للإيذان بخروجه عن دائرة البيان إما لعدم الإحاطة بكنهه وإما لضيق العبارة عنه وإما لإيجاب ذكره ما لا يستطيعه المعبر أو المستمع من الضجر والتفجع عليه أى لو علموا إذ رأوا العذاب قد حل بهم ولم ينقذهم منه أحد من أندادهم أن القوة لله جميعا ولا دخل لأحد فى شىء أصلا لوقعوا من الحسرة والندم فيما لا يكاد

يوصف وقرىء ولو ترى بالتاء الفوقانية على أن الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب فالجواب حينئذ لرأيت أمراً لا يوصف من الهول والفظاعة وقرىء إذ يرون على البناء للمفعول وأن الله شديد العذاب على الاستئناف وإضمار القول ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا ﴾ بدل من إذ يرون أى إذ تبرأ الرؤساء ﴿ من الذين اتبعوا ﴾ من الأتباع بأن اعترفوا ببطلان ما كانوا يدعونه فى الدنيا ويدعونهم إليه من فنون الكفر والضلال واعتزلوا عن مخالطتهم وقابلوهم باللعن كقول إبليس : إنى كفرت بما أشركتمونى من قبل وقرىء بالعكس أى تبرأ الأتباع من الرؤساء والواو فى قوله عز وجل ﴿ ورأوا العذاب ﴾ حالية وقد مضمرة وقيل عاطفة على تبرأ والضمير فى رأوا للموصوفين جميعاً ﴿ وتقطعت بهم الأسباب ﴾ والوصل التى كانت بينهم من التبعية والمتبوعية والاتفاق على الملة الزائغة والأغراض الداعية إلى ذلك وأصل السبب الحبل الذى يرتقى به الشجر ونحوه والجملة معطوفة على تبرأ وتوسيط الحال بينهما للتنبيه على علة التبرى وقد جوز عطفها على الجملة الحالية ﴿ وقال الذين اتبعوا ﴾ حين عاينوا تبرؤ الرؤساء منهم وندموا على ما فعلوا من اتباعهم لهم فى الدنيا ﴿ لو أن لنا كرة ﴾ أى ليت لنا رجعة إلى الدنيا ﴿ فنتبرأ منهم ﴾ هناك ﴿ كما تبرؤا منا ﴾ اليوم ﴿ كذلك ﴾ إشارة إلى مصدر الفعل الذى بعده لا إلى شىء آخر مفهوم مما سبق وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجة المشار إليه وبعد منزلته مع كمال تميزه عما عداه وانتظامه فى سلك الأمور المشاهدة والكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة ومحله النصب على المصدرية أى ذلك الإراء الفظيع ﴿ يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ﴾ أى ندامات شديدة فإن الحسرة شدة الندم والكمد وهى تألم القلب وانحساره عما يؤلمه واشتقاقه من قولهم بعير حسير أى منقطع القوة وهى ثالث مفاعيل يرى إن كان من رؤية القلب وإلا فهى حال والمعنى أن أعمالهم تنقلب حسرات عليهم فلا يرون إلا حسرات مكان أعمالهم ﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾ كلام مستأنف لبيان حالهم بعد دخولهم النار والأصل وما يخرجون والعدول إلى الاسمية

لإفادة دوام نفى الخروج والضمير للدلالة على قوة أمرهم فيما أسند إليهم كما فى قوله :

هم يفرشون اللبد كل طمره   وأجرد سباق يبذ المغالبا

﴿ يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض ﴾ أى بعض ما فيها من أصناف المأكولات التى من جملتها ما حرمتموه افتراء على الله من الحرث والأنعام قال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت فى قوم من ثقيف وبنى عامر بن صعصعة وخزاعة وبنى مدلج حرموا على أنفسهم ما حرموا من الحرث والبحائر والسوائب والوصائل والحام وقوله تعالى ﴿ حلالا ﴾ حال من الموصول أى كلوه حال كونه حلالا أو مفعول لكلوا على أن من ابتدائية وقد جوز كونه صفة لمصدر مؤكد أى أكلا حلالا ويؤيد الأولين قوله تعالى ﴿ طيبا ﴾ فإنه صفة له ووصف الأكل به غير معتاد وقيل نزلت فى قوم من المؤمنين حرموا على أنفسهم رفيع الأطعمة والملابس ويرده قوله عز وجل ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ أى لا تقتدوا بها فى اتباع الهوى فإنه صريح فى أن الخطاب للكفرة كيف لا وتحريم الحلال على نفسه تزهيداً ليس من باب اتباع خطوات الشيطان فضلا عن كونه تقولا وافتراء على الله تعالى وإنما الذى نزل فيهم ما فى سورة المائدة من قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) الآية وقرىء خطوات بسكون الطاء وهما لغتان فى جمع خطوة وهى ما بين قدمى الخاطى وقرىء بضمتين وهمزة جعلت الضمة على الطاء كأنها على الواو وبفتحتين على أنها جمع خطوة وهى المرة من الخطو ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ تعليل للنهى أى ظاهر العداوة عند ذوى البصيرة وإن كان يظهر الولاية لمن يغويه ولذلك سمى ولياً فى قوله تعالى (أولياؤهم الطاغوت) ﴿ إنما يأمركم بالسوء والفحشاء ﴾ استئناف لبيان كيفية عداوته وتفصيل لفنون شره وإفساده وانحصار معاملته معهم فى ذلك والسوء فى الأصل مصدر ساءه يسوؤه سوءاً ومساءة إذا أحزنه يطلق على جميع المعاصى سواء كانت من أعمال الجوارح أو أفعال القلوب لاشتراك كلها فى أنها تسوء صاحبها والفحشاء أقبح أنواعها

وأعظمها مساءة ﴿ وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ عطف على الفحشاء أى وبأن تفتروا على الله بأنه حرم هذا وذاك ، ومعنى ما لا تعلمون أن الله تعالى أمر به وتعليق أمره بتقولهم على الله تعالى ما لا يعلمون وقوعه منه تعالى لا بتقولهم عليه ما يعلمون عدم وقوعه منه تعالى مع أن حالهم ذلك للمبالغة فى الزجر فإن التحذير من الأول مع كونه فى القبح والشناعة دون الثانى تحذير عن الثانى على أبلغ وجه وآكده وللإيذان بأن العاقل يجب عليه ألا يقول على الله تعالى ما لا يعلم وقوعه منه تعالى مع الاحتمال فضلا عن أن يقول عليه ما يعلم عدم وقوعه منه تعالى ، قالوا وفيه دليل على المنع من اتباع الظن رأسا وأما اتباع المجتهد لما أدى إليه ظنه فمستند إلى مدرك شرعى فوجوبه قطعى والظن فى طريقه ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ﴾ التفات إلى الغيبة تسجيلا بكمال ضلالهم وإيذانا بإيجاب تعداد ما ذكر من جناياتهم لصرف العذاب عنهم وتوجيهه إلى العقلاء وتفصيل مساوى أحوالهم لهم على نهج المباثة أى إذا قيل لهم على وجه النصيحة والإرشاد اتبعوا كتاب الله الذى أنزله ﴿ قالوا ﴾ لا نتبعه ﴿ بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ﴾ أى وجدناهم عليه إما على أن الظرف متعلق بمحذوف وقع حالا من آباءنا وألفينا متعد إلى واحد وإما على أنه مفعول ثان له مقدم على الأول نزلت فى المشركين أمروا باتباع القرآن وسائر ما أنزل الله تعالى من الحجج الظاهرة والبينات الباهرة فجنحوا للتقليد والموصول إما عبارة عما سبق من اتخاذ الأنداد وتحريم الطيبات ونحو ذلك وإما باق على عمومه وما ذكر داخل فيه دخولا أوليا وقيل نزلت فى طائفة من اليهود دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فقالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا لأنهم كانوا خيراً منا وأعلم فعلى هذا يعم ما أنزل الله تعالى التوراة لأنها أيضا تدعو إلى الإسلام وقوله عز وجل ﴿ أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾ استئناف مسوق من جهته تعالى رداً لمقالتهم الحمقاء وإظهارا لبطلان آرائهم والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه والتعجب منه لا لإنكار الوقوع كالتى فى قوله تعالى (أولو كنا كارهين) وكلمة لو فى أمثال هذا المقام ليست لبيان

انتفاء الشىء فى الزمان الماضى لانتفاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قد حذف ثقة بدلالة ما قبلها عليه بل هى لبيان تحقق ما يفيده الكلام السابق بالذات أو بالواسطة من الحكم الموجب أو المنفى على كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له على الإجمال بإدخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة له ليظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوته أو انتفاؤه مع ما عداه من الأحوال بطريق الأولوية لما أن الشىء متى تحقق مع المنافى القوى فلأن يتحقق مع غيره أولى ولذلك لا يذكر معه شىء من سائر الأحوال ويكتفى عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لها المتناولة لجميع الأحوال المغايرة لها وهذا معنى قولهم إنها لاستقصاء الأحوال على سبيل الإجمال وهذا المعنى ظاهر فى الخبر الموجب والمنفى والأمر والنهى كما فى قولك فلان جواد يعطى ولو كان فقيرا وبخيل لا يعطى ولو كان غنيا وقولك أحسن إليه ولو أساء إليك ولا تهنه ولو أهانك لبقائه على حاله وأما فيما نحن فيه ففيه نوع خفاء ناشىء من ورود الإنكار عليه لكن الأصل فى الكل واحد إلا أن كلمة لو فى الصور المذكورة متعلقة بنفس الفعل المذكور قبلها وأن ما يقصد بيان تحققه على كل حال هو نفس مدلوله وأن الجملة حال من ضميره أو مما يتعلق به وأن ما فى حيز لو باق على ما هو عليه من الاستبعاد غالبا بخلاف ما نحن فيه لما أن كلمة لو متعلقة فيه بفعل مقدر يقتضيه المذكور وأن ما يقصد بيان تحققه على كل حال مدلوله لا مدلول المذكور من حيث هو مدلوله وأن الجملة حال مما يتعلق به لا مما يتعلق بالمذكور من حيث هو متعلق به وأن المقصود الأصلى إنكار مدلوله باعتبار مقارنته للحالة المذكورة وإما تقديراً لمقارنته لغيرها فلتوسيع الدائرة وأن ما فى حيز لو لا يقصد استبعاده فى نفسه بل يقصد الإشعار بأنه أمر محقق إلا أنه أخرج مخرج الاستبعاد معاملة مع المخاطبين على معتقدهم لئلا يلبسوا من التصريح بنسبة آبائهم إلى كمال الجهالة والضلالة جلد النمر فيركبوا متن العناد ومبالغة فى الإنكار من جهة اتباعهم لآبائهم حيث كان منكرا مستقبحا عند احتمال كون آبائهم كما ذكر احتمالا بعيدا فلأن يكون منكرا عند تحقق ذلك

أولى والتقدير أيتبعون ذلك لو لم يكن آباؤهم لا يعقلون شيئا من الدين ولا يهتدون للصواب ولو كانوا كذلك فالجملة فى حيز النصب على الحالية من آبائهم على طريقة قوله تعالى (أن أتبع ملة إبراهيم حنيفا) كأنه قيل أيتبعون دين آبائهم حال كونهم غافلين وجاهلين ضالين إنكاراً لما أفاده كلامهم من الاتباع على أى حالة كانت من الحالتين غير أنه اكتفى بذكر الحالة الثانية تنبيها على أنها هى الواقعة فى نفس الأمر وتعويلا على اقتضائها للحالة الأولى اقتضاء بينا فإن اتباعهم الذى تعلق به الإنكار حيث تحقق مع كون آبائهم جاهلين ضالين فلأن يتحقق مع كونهم عاقلين ومهتدين أولى إن قلت الإنكار المستفاد من الاستفهام الإنكارى بمنزلة النفى ولا ريب فى أن الأولوية فى صورة النفى معتبرة بالنسبة إلى النفى ألا يرى أن الأولى بالتحقق فيما ذكر من مثال النفى عند الحالة المسكوت عنها أعنى عدم الغنى هو عدم الإعطاء لا نفسه فكان ينبغى أن يكون الأولى بالتحقق فيما نحن فيه عند الحالة المسكوت عنها وهى حالة كون آبائهم عاقلين ومهتدين إنكار الاتباع لا نفسه إذ هو الذى يدل عليه أيتبعون إلخ فلم اختلفت الحال بينهما قلت لما أن مناط الأولوية هو الحكم الذى أريد بيان تحققه على كل حال وذلك فى مثال النفى عدم الإعطاء المستفاد من الفعل المنفى المذكور وأما فيما نحن فيه فهو نفس الاتباع المستفاد من الفعل المقدر إذ هو الذى يقتضيه الكلام السابق أعنى قولهم بل نتبع إلخ وأما الاستفهام فخارج عنه وارد عليه لإنكار ما يفيده واستقباح ما يقتضيه لا أنه من تمامه كما فى صورة النفى وكذا الحال فيما إذا كانت الهمزة لإنكار الوقوع ونفيه مع كونه بمنزلة صريح النفى كما سيأتى تحقيقه فى قوله تعالى (أولو كنا كارهين) وقيل الواو حالية ولكن التحقيق أن المعنى يدور على معنى العطف فى سائر اللغات أيضا ﴿ومثل الذين كفروا﴾ جملة ابتدائية واردة لتقرير ما قبلها بطريق التصوير وفيها مضاف قد حذف لدلالة مثل عليه ووضع الموصول موضع الراجع إلى ما ترجع إليه الضمائر السابقة لذمهم بما فى حيز الصلة وللإشعار بعلة ما أثبت لهم من الحكم والتقدير مثل ذلك القائل وحاله الحقيقة لغرابتها بأن تسمى مثلا وتسير فى

الآفاق فيما ذكر من دعوته إياهم إلى إتباع الحق وعدم رفعهم إليه رأسا لانهماكهم فى التقليد وإخلادهم إلى ما هم عليه من الضلال وعدم فهمهم من جهة الداعى إلى الدعاء من غير أن يلقوا أذهانهم إلى ما يلقى عليهم ﴿ كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ﴾ من البهائم فإنها لاتسمع إلا صوت الراعى وهتفه بها من غير فهم لكلامه أصلا وقيل إنما حذف المضاف من الموصول الثانى لدلالة كلمة ما عليه فإنها عبارة عنه مشعرة مع ما فى حيز الصلة بما هو مدار التمثيل أى مثل الذين كفروا فيما ذكر من إنهماكهم فيما هم فيه وعدم التدبر فيما ألقى إليهم من الآيات كمثل بهائم الذى ينعق بها وهى لاتسمع منه إلا جرس النغمة ودوى الصوت وقيل المراد تمثيلهم فى دعائهم الأصنام بالناعق فى نعقه وهو تصويته على البهائم وهذا غنى عن الإضمار لكن لا يساعده قوله إلا دعاء ونداء فإن الأصنام بمعزل من ذلك وقد عرفت أن حسن التمثيل فيما تشابه أفراد الطرفين ﴿صم بكم عمى﴾ بالرفع على الذم أى هم صم إلخ ﴿فهم لا يعقلون﴾ شيئاً لأن طريق التعقل هو التدبر فى مبادى الأمور المعقولة والتأمل فى ترتيبها وذلك إنما يحصل باستماع آيات الله ومشاهدة حججه الواضحة والمفاوضة مع من يؤخذ منه العلوم فإذا كانوا صما بكما عميا فقد انسد عليهم أبواب التعقل وطرق الفهم بالكلية ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ أى مستلذاته ﴿ واشكروا لله ﴾ الذى رزقكموها والالتفات لتربية المهابة ﴿ إن كنتم إياه تعبدون ﴾ فإن عبادته تعالى لاتتم إلا بالشكر له وعن النبى صلى الله عليه وسلم: «يقول الله عز وجل إنى والإنس والجن فى نبأ عظيم أخلق ويعبد غيرى وأرزق ويشكر غيرى» ﴿ إنما حرم عليكم الميتة ﴾ أى أكلها والانتفاع بها وهى التى ماتت على غير ذكاة والسمك والجراد خارجان عنها بالعرف أو باستثناء الشرع خروج الطحال من الدم ﴿والدم ولحم الخنزير﴾ إنما خص لحمه مع أن سائر أجزائه أيضاً فى حكمه لأنه معظم ما يؤكل من الحيوان وسائر أجزائه بمنزلة التابع له ﴿وما أهل به لغير الله﴾ أى رفع به الصوت عند ذبحه للصنم والإهلال أصله رؤية الهلال لكن لما جرت العادة برفع الصوت بالتكبير

عندها سمى ذلك إهلالا ثم قيل لرفع الصوت وإن كان لغيره ﴿فمن اضطر غير باغ﴾ بالاستئثار على مضطر آخر ﴿ولا عاد﴾ سد الرمق والجوعة وقيل غير باغ على الوالى ولا عاد بقطع الطريق وعلى هذا لا يباح للعاصى بالسفر وهو ظاهر مذهب الشافعى وقول أحمد رحمهما الله ﴿فلا إثم عليه﴾ فى تناوله ﴿إن الله غفور رحيم﴾ بالرخصة إن قيل كلمة إنما تفيد قصر الحكم على ماذكر وكم من حرام لم يذكر قلنا المراد قصر الحرمة على ماذكر مما استحلوه لا مطلقا أو قصر حرمته على حالة الاختيار كأنه قيل إنما حرم عليكم هذه الأشياء ما لم تضطروا إليها .

﴿إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب﴾ المشتمل على فنون الأحكام التى من جملتها أحكام المحللات والمحرمات حسبما ذكر آنفا وقال ابن عباس الله عنهما نزلت فى رؤساء اليهود حين كتموا نعت النبى صلى الله عليه وسلم ﴿ويشترون به﴾ أى يأخذون بدله ﴿ثمنا قليلا﴾ عوضا حقيرا وقد مر سر التعبير عن ذلك بالثمن الذى هو وسيلة فى عقود المعاوضة وقوله تعالى ﴿أولئك﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة من الوصفين الشنيعين المميزين لهم عمن عداهم أكمل تمييز الجاعلين اياهم بحيث كأنهم حضار مشاهدون على ماهم عليه ومافيه من معنى البعد للإيذان بغاية بعد منزلتهم فى الشر والفساد وهو مبتدأ خبره قوله تعالى : ﴿ما يأكلون فى بطونهم إلا النار﴾ والجملة خبر لإن أو اسم الإشارة مبتدأ ثان أو بدل من الأول والخبر ما يأكلون الخ ومعنى أكلهم النار أنهم يأكلون فى الحال مايستتبع النار ويستلزمها فكأنه عين النار وأكله أكلها كقوله :

أكلت دما إن لم أرعك بضرة ... بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

أو يأكلون فى المآل يوم القيامة عين النار عقوبة على أكلهم الرشا فى الدنيا وفى بطونهم متعلق بيأكلون وفائدته تأكيد الأكل وتقريره ببيان مقر

المأكول وقيل معناه ملء بطونهم كما فى قولهم أكل فى بطنه وأكل فى بعض بطنه ومنه كلوا فى بعض بطنكم تعفوا فلا بد من الالتجاء إلى تعليقه بمحذوف وقع حالا مقدرة من النار مع تقديمه على حرف الاستثناء والا فتعليقه بيأكلون يؤدى إلى قصر ما يأكلونه إلى الشبع على النار والمقصود قصر ما يأكلونه مطلقا عليها ﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة﴾ عبارة عن غضبه العظيم عليهم وتعريض بحرمانهم ما أتيح للمؤمنين من فنون الكرامات السنية والزلفى ﴿ولا يزكيهم﴾ لا يثنى عليهم ﴿ولهم﴾ مع ما ذكر ﴿عذاب أليم﴾ مؤلم ﴿أولئك﴾ إشارة إلى ما أشير إليه بنظيره بالاعتبار المذكور خاصة لا مع ما يتلوه من أحوالهم الفظيعة إذ لا دخل لها فى الحكم الذى يراد إثباته ههنا فإن المقصود تصوير ما باشروه من المعاملة بصورة قبيحة تنفر منها الطباع ولا يتعاطاها عاقل أصلا ببيان حقيقة ما نبذوه وإظهار كنه ما أخذوه وإبداء فظاعة تبعاته وهو مبتدأ خبره الموصول أى أولئك المشترون بكتاب الله عز وجل ثمنا قليلا ليسوا بمشترين للثمن وإن قل بل هم ﴿الذين اشتروا﴾ بالنسبة إلى الدنيا ﴿الضلالة﴾ التى ليست مما يمكن أن يشترى قطعا ﴿بالهدى﴾ الذى ليس من قبيل ما يبذل بمقابلة شىء وإن جل ﴿والعذاب﴾ أى اشتروا بالنظر إلى الآخرة العذاب الذى لا يتوهم كونه مما يشترى ﴿بالمغفرة﴾ التى يتنافس فيها المتنافسون ﴿فما أصبرهم على النار﴾ تعجيب من حالهم الهائلة التى هى ملابستهم بما يوجب النار إيجابا قطعيا كأنه عينها وما عند سيبويه نكرة تامة مفيدة لمعنى التعجيب مرفوعة بالابتداء وتخصيصها كتخصص شر فى «شر أهر ذا ناب» خبرها ما بعدها أى شىء ما عظيم جعلهم صابرين على النار وعند الفراء استفهامية وما بعدها خبرها أى أى شىء أصبرهم على النار وقيل هى موصولة وقيل موصوفة بما بعدها والخبر محذوف أى الذى أصبرهم على النار أو شىء أصبرهم على النار أمر فظيع ﴿ذلك﴾ العذاب ﴿بأن الله نزل الكتاب﴾ أى جنس الكتاب ﴿بالحق﴾ أى ملتبسا به فلا جرم أن يكون من يرفضه بالتكذيب والكتمان ويركب متن الجهل والغواية مبتلى بمثل هذا من أفانين العذاب ﴿وأن

الذين اختلفوا فى الكتاب ﴾ أى فى جنس الكتاب الإلهى بأن آمنوا ببعض كتب الله تعالى وكفروا ببعضها أو اختلفوا فى التوراة بأن آمنوا ببعض آياتها وكفروا ببعض كالآيات المغيرة المشتملة على أمر بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ونعوته الكريمة فمعنى الاختلاف التخلف عن الطريق الحق أو الاختلاف فى تأويلها أو فى القرآن بأن قال بعضهم أنه سحر وبعضهم أنه شعر وبعضهم أساطير الأولين كما حكى عن المفسرين ﴿لفى شقاق بعيد﴾ عن الحق والصواب مستوجب لأشد العذاب ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ البر اسم جامع لمراضى الخصال والخطاب لأهل الكتابين فإنهم كانوا أكثروا الخوض فى أمر القبلة حين حولت إلى الكعبة وكان كل فريق يدعى خيرية التوجه إلى قبلته من القطرين المذكورين وتقديم المشرق على المغرب مع تأخر زمان الملة النصرانية إما لرعاية ما بينهما من الترتيب المتفرع على ترتيب الشروق والغروب وإما لأن توجه اليهود إلى المغرب ليس لكونه مغربا بل لكون بيت المقدس من المدينة المنورة واقعا فى جانب فقيل لهم ليس البر ما ذكرتم من التوجه إلى تينك الجهتين على أن البر خبر ليس مقدما على اسمها كما فى قوله :

سلى إن جهلت الناس عنى وعنهم فليس سواء عالم وجهول

وقوله :

أليس عظيما أن تلم ملمـــة وليس علينا فى الخطوب مقول

وإنما أخر ذلك لما أن المصدر المؤول أعرف من المحلى باللام لأنه يشبه الضمير من حيث أنه لا يوصف ولا يوصف به والأعرف أحق بالاسمية ولأن فى الاسم طولا فلو روعى الترتيب المعهود لفات تجاوب أطراف النظم الكريم وقرىء برفع البر على أنه اسمها وهو أقوى بحسب المعنى لأن كل فريق يدعى أن البر هذا فيجب أن يكون الرد موافقا لدعواهم وما ذلك إلا بكون

البر اسما كما يفصح عنه جعله مخبرا عنه فى الاستدراك بقوله عز وجل : ﴿ ولكن البر من آمن بالله ﴾ وهو تحقيق للحق بعد بيان الباطل وتفصيل لخصال البر مما لا يختلف باختلاف الشرائع وما يختلف باختلافها أى ولكن البر المعهود الذى يحق أن يهتم بشأنه ويجد فى تحصيله بر من آمن بالله وحده إيمانا بريئا من شائبة الإشراك لا كإيمان اليهود والنصارى المشركين بقولهم عزير ابن الله وقولهم المسيح ابن الله ﴿ واليوم الآخر ﴾ أى على ما هو عليه لا كما يزعمون من أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم ففيه تعريض بأن إيمان أهل الكتابين حيث لم يكن كما ذكر من الوجه الصحيح لم يكن إيمانا وفى تعليق البر بهما من أول الأمر عقيب نفيه عن التوجه إلى المشرق والمغرب من الجزالة مالا يخفى كأنه قيل ولكن البر هو التوجه إلى المبدأ والمعاد اللذين هما المشرق والمغرب فى الحقيقة ﴿ والملائكة ﴾ أى وآمن بهم وبأنهم عباد مكرمون متوسطون بينه تعالى وبين أنبيائه بإلقاء الوحى وإنزال الكتب ﴿ والكتاب ﴾ أى بجنس الكتاب الذى من أفراده الفرقان الذى نبذوه وراء ظهورهم وفيه تعريض بكتمانهم نعوت النبى صلى الله عليه وسلم واشترائهم بما أنزل الله تعالى ثمنا قليلا ﴿ والنبيين ﴾ جميعا من غير تفرقة بين أحد منهم كما فعل أهل الكتابين ووجه توسيط الكتاب بين حملة الوحى وبين النبيين واضح وسيأتى فى قوله تعالى (كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) ﴿ وآتى المال على حبه ﴾ حال من الضمير فى آتى والضمير المجرور راجع للمال أى آتاه كائنا على حب المال كما فى قوله صلى الله عليه وسلم حين سئل : أى الصدقة أفضل؟ « أن تؤتيه وأنت صحيح شحيح » وقول ابن مسعود رضى الله عنه أن تؤتيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش وتخشى الفقر ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا ، وقيل الضمير لله تعالى أى آتاه كائنا على محبته تعالى لا على قصد الشر والفساد ففيه نوع تعريض لباذلى الرشا وآخذيها لتغيير التوراة وقيل للمصدر أى كائنا على حب الإيتاء ﴿ ذوى القربى ﴾ مفعول أول لآتى قدم عليه مفعوله الثانى أعنى

المـال للاهتمام به أو لأن فى الثانى مع ما عطف عليه طولا لو روعى الترتيب لفات تجاوب الأطراف فى الكلام وهو الذى اقتضى تقديم الحال أيضاً وقيل هو المفعول الثانى ﴿واليتامى﴾ أى المحاويج منهم على ما يدل عليه الحال وتقديم ذوى القربى عليهم لما أن إيتاءهم صدقة وصلة ﴿والمساكين﴾ جمع مسكين وهو الدائم السكون لما أن الخلة أسكنته بحيث لا حراك به أو دائم السكون إلى الناس ﴿وابن السبيل﴾ أى المسافر سمى به لملازمته إياه كما سمى القاطع ابن الطريق وقيل الضيف ﴿والسائلين﴾ الذين ألجأتهم الحاجة والضرورة إلى السؤال قال عليه الصلاة والسلام: أعطوا السائل ولو جاء على فرس ﴿وفى الرقاب﴾ أى وضعه فى فك الرقاب بمعاونة المكاتبين حتى يفكوا رقابهم وقيل فى فك الأسارى وقيل فى ابتياع الرقاب وإعتاقها وأياً ما كان فالعدول عن ذكرهم بعنوان مصحح للمالكية كالذين من قبلهم إما للإيذان بعدم قرار ملكهم فيما أوتوا كما فى الوجهين الأولين أو بعدم ثبوته رأساً كما فى الوجه الأخير وإما للإشعار برسوخهم فى الاستحقاق والحاجة لما أن فى للظرفية المنبئة عن محليتهم لما يؤتى ﴿وأقام الصلاة﴾ أى المفروضة منها ﴿وآتى الزكاة﴾ أى المفروضة على أن المراد بما مر من إيتاء المال التنفل بالصدقات قدم على الفريضة مبالغة فى الحث عليه أو المراد بهما المفروضة والأول لبيان المصارف والثانى لبيان وجوب الأداء ﴿والموفون بعهدهم﴾ عطف على من آمن فإنه فى قوة أن يقال ومن أوفوا بعهدهم وإيثار صيغة الفاعل للدلالة على وجوب استمرار الوفاء والمراد بالعهد ما لا يحرم حلالا ولا يحلل حراما من العهود الجارية فيما بين الناس، وقوله تعالى ﴿إذا عاهدوا﴾ للإيذان بعدم كونه من ضروريات الدين ﴿والصابرين﴾ نصب على الاختصاص غير سبكه عما قبله تنبيها على فضيلة الصبر ومزيته وهو فى الحقيقة معطوف على ما قبله. قال أبو على إذا ذكرت صفات للمدح أو الذم فخولف فى بعضها الإعراب فقد خولف للافتنان ويسمى ذلك قطعا لأن تغيير المألوف يدل على زيادة ترغيب فى استماع المذكور ومزيد اهتمام بشأنه كما مر فى صدر السورة وقد قرىء

الصابرون كما قرىء والموفين ﴿فى البأساء﴾ أى فى الفقر والشدة ﴿والضراء﴾ أى المرض والزمانة ﴿وحين البأس﴾ أى وقت مجاهدة العدو فى مواطن الحرب وزيادة الحين للإشعار بوقوعه أحيانا وسرعة انقضائه ﴿أولئك﴾ إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بالنعوت الجميلة المعدودة وما فيه من معنى البعد لما مر مرار من التنبيه عن علو طبقتهم وسمو رتبتهم ﴿الذين صدقوا﴾ أى فى الدين واتباع الحق وتحرى البر حيث لم تغيرهم الأحوال ولم تزلزلهم الأهوال ﴿وأولئك هم المتقون﴾ عن الكفر وسائر الرذائل وتكرير الإشارة لزيادة تنويه شأنهم وتوسيط الضمير للإشارة إلى انحصار التقوى فيهم والآية الكريمة كما ترى حاوية لجميع الكمالات البشرية برمتها تصريحا أو تلويحا لما إنها مع تكثر فنونها وتشعب شجونها منحصرة فى خلال ثلاث صحة الاعتقاد وحسن المعاشرة مع العباد وتهذيب النفس وقد أشير إلى الأولى بالإيمان بما فصل وإلى الثانية بإيتاء المال وإلى الثالثة بإقامة الصلاة الخ ولذلك وصف الحائزون لها بالصدق نظرا إلى إيمانهم واعتقادهم وبالتقوى اعتبارا بمعاشرتهم مع الخلق ومعاملتهم مع الحق وإليه يشير قوله صلى الله عليه وسلم من عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان .

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ شروع فى بيان بعض الأحكام الشرعية على وجه التلافى لما فرط من المخلين بما ذكر من أصول الدين وقواعده التى عليها بنى أساس المعاش والمعاد ﴿كتب عليكم﴾ أى فرض وألزم عند مطالبة صاحب الحق فلا يقدح فيه قدرة الولى على العفو فإن الوجوب إنما اعتبر بالنسبة إلى الحكام أو القاتلين ﴿القصاص فى القتلى﴾ أى بسبب قتلهم كما فى قوله صلى الله عليه وسلم إن امرأة دخلت النار فى هرة ربطتها، أى بسبب ربطها إياها ﴿الحر بالحر والعبد والأنثى بالأنثى﴾ كان فى الجاهلية بين حيين من أحياء العرب دماء وكان لأحدهما طول على الآخر فأقسموا لنقتلن الحر منكم بالعبد والذكر بالأنثى فلما جاء الإسلام تحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت.

فأمرهم أن يتباوؤا وليس فيها دلالة على عدم قتل الحر بالعبد عند الشافعى أيضا لأن اعتبار المفهوم حيث لم يظهر للتخصيص بالذكر وجه سوى اختصاص الحكم بالمنطوق وقد رأيت الوجه ههنا وإنما يتمسك فى ذلك هو ومالك رحمهما الله بما روى على رضى الله عنه أن رجلا قتل عبده فجلده رسول الله صلى الله عليه وسلم ونفاه سنة ولم يقده وبما روى عنه رضى الله عنه أنه قال من السنة أن لا يقتل مسلم بذى عهد ولا حر بعبد وبأن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما كانا لا يقتلان الحر بالعبد بين أظهر الصحابة من غير نكير وبالقياس على الأطراف وعندنا يقتل الحر بالعبد لقوله تعالى (أن النفس بالنفس) فإن شريعة من قبلنا إذا قصت علينا من غير دلالة على نسخها فالعمل بها واجب على أنها شريعة لنا ولأن القصاص يعتمد المساواة فى العصمة وهى بالدين أو بالدار وهما سيان فيهما وقرىء كتب على البناء للفاعل ونصب القصاص ﴿فمن عفى له من أخيه شىء﴾ أى شىء من العفو لأن عفا لازم وفائدته الإشعار بأن بعض العفو بمنزلة كله فى إسقاط القصاص وهو الواقع أيضا فى العادة إذ كثيراً ما يقع العفو من بعض الأولياء فهو شىء من العفو وقيل معنى عفى ترك وشىء مفعول به وهو ضعيف إذ لم يثبت عفاه بمعنى تركه بل أعفاه وحمل العفو على المحو كما فى قول من قال :

* ديار عفاها جور كل معاند *

وقوله : عفاها كل هتان كثير الوبل هطال

فيكون المعنى فمن محى له من أخيه شىء صرف للعبارة المتداولة فى الكتاب والسنة عن معناها المشهور المعهود إلى ما ليس بمعهود فيهما وفى استعمال الناس فإنهم لا يستعملون العفو فى باب الجنايات إلا فيما ذكر من قبل وعفا يعدى بعن إلى الجانى والذنب قال تعالى (عفا الله عنك) وقال (عفا الله عنها) فإذا تعدى إلى الذنب قيل عفوت لفلان عما جنى كأنه قيل فمن عفى له عن جنايته من جهة أخيه يعنى ولى الدم وإيراده بعنوان الأخوة الثابتة بينهما بحكم كونهما من بنى آدم عليه السلام لتحريك سلسلة الرقة والعطف عليه ﴿فاتباع بالمعروف﴾ فالأمر اتباع أو فليكن اتباع والمراد وصية الباقى بالمسامحة ومطالبته بالدية

بالمعروف من غير تعسف وقوله عزوجل ﴿وأداء إليه بإحسان﴾ حث للمعفو عنه على أن يؤديها بإحسان من غير مما طلة ولا بخس ﴿ذلك﴾ أى ما ذكر من الحكم ﴿تخفيف من ربكم ورحمة﴾ لما فيه من التسهيل والنفع وقيل كتب على اليهود القصاص وحده وحرم عليهم العفو والدية وعلى النصارى العفو على الإطلاق وحرم عليهم القصاص والدية وخيرت هذه الأمة بين الثلاث تيسيرا عليهم وتنزيلا للحكم على حسب المنازل ﴿فمن اعتدى بعد ذلك﴾ بأن قتل غير القاتل بعد ورود هذا الحكم أو قتل القاتل بعد العفو أو أخذ الدية ﴿فله﴾ باعتدائه ﴿عذاب أليم﴾ أما فى الدنيا فبالاقتصاص لما قتله بغير حق وأما فى الآخرة فبالنار ﴿ولكم فى القصاص حياة﴾ بيان لمحاسن الحكم المذكور على وجه بديع لاتنال غايته حيث جعل الشىء محلا لضده وعرف القصاص ونكر الحياة ليدل على أن فى هذا الجنس نوعا من الحياة عظيما لا يبلغه الوصف وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل فيتسبب لحياة نفسين ولأنهم كانوا يقتلون غير القاتل والجماعة بالواحد فتثور الفتنة بينهم فإذا اقتص من القاتل سلم الباقون فيكون ذلك سببا لحياتهم وعلى الأول فيه إضمار وعلى الثانى تخصيص وقيل المراد بالحياة هى الأخروية فإن القاتل إذا اقتص منه فى الدنيا لم يؤخذ به فى الآخرة والظرفان إما خبران لحياة أو أحدهما خبر والآخر صلة له أو حال من المستكن فيه وقرىء فى القصص أى فيما قص عليكم من حكم القتل حياة أو فى القرآن حياة أو فى القرآن حياة للقلوب ﴿يا أولى الألباب﴾ أى ذوى العقول الخالصة عن شوب الأوهام خوطبوا بذلك بعد ما خوطبوا بعنوان الإيمان تنشيطاً لهم إلى التأمل فى حكمة القصاص ﴿لعلكم تتقون﴾ أى تتقون أنفسكم من المساهلة فى أمره والإهمال فى المحافظة عليه والحكم به والإذعان له أو فى القصاص فتكفوا عن القتل المؤدى إليه ﴿كتب عليكم﴾ بيان لحكم آخر من الأحكام المذكورة ﴿إذا حضر أحدكم الموت﴾ أى حضر أسبابه وظهر أماراته أو دنا نفسه من الحضور وتقديم المفعول لإفادة كمال تمكن الفاعل عند النفس وقت وروده عليها ﴿إن ترك خيراً﴾ أى مالا وقيل مالا كثيراً لما

روى عن على رضى الله عنه أن مولى له أراد أن يوصى وله سبعمائة درهم فمنعه وقال قال الله تعالى (إن ترك خيراً) وإن هذا لشىء يسير فاتركه لعيالك وعن عائشة رضى الله عنها أن رجلا أراد أن يوصى وله سبعمائة درهم فمنعه وقال قال الله تعالى: (إن ترك خيراً) وإن هذا لشىء يسير فاتركه لعيالك وعن عائشة رضى الله عنها أن رجلا أراد الوصية وله عيال وأربعمائة دينار فقالت ما أرى فيه فضلا وأراد آخر أن يوصى فسألته كم مالك فقال ثلاثة آلاف درهم قالت كم عيالك قال أربعة قالت إنما قال الله تعالى إن ترك خيراً وإن هذا لشىء يسير فاتركه لعيالك ﴿الوصية للوالدين والأقربين﴾ مرفوع بكتب أخر عما بينهما لما مر مرارا وإيثار تذكير الفعل مع جواز تأنيثه أيضا للفصل أو على تأويل أن يوصى أو الإيصاء ولذلك ذكر الضمير فى قوله تعالى (فمن بدله بعد ما سمعه) وإذا ظرف محض والعامل فيه كتب لكن لا من حيث صدور الكتب عنه تعالى بل من حيث تعلقه بهم تعلقا فعليا مستتبعا لوجوب الأداء كما ينبىء عنه البناء للمفعول وكلمة الإيجاب ولا مساغ لجعل العامل هو الوصية لتقدمه عليها وقيل هو مبتدأ خبره للوالدين والجملة جواب الشرط بإضمار الفاء كما فى قوله ٭من يفعل الحسنات الله يشكرها٭ ورد بأنه إن صح فمن ضرورة الشعر ومعنى كتب فرض وكان هذا الحكم فى بدء الإسلام ثم نسخ عند نزول آية المواريث بقوله عليه السلام أن الله قد أعطى كل ذى حق حقه ألا لا وصية لوارث فإنه وإن كان من أخبار الآحاد لكن حيث تلقته الأمة بالقبول انتظم فى سلك المتواتر فى صلاحيته للنسخ عند الحنفية على أن التحقيق أن الناسخ حقيقة هى آية المواريث وإنما الحديث مبين لجهة نسخها ببيان أنه تعالى كان قد كتب عليكم أن تودوا إلى الوالدين والأقربين حقوقهم بحسب استحقاقهم من غير تبيين لمراتب استحقاقهم ولا تعيين لمقادير أنصبائهم بل فوض ذلك إلى آرائكم حيث قال ﴿بالمعروف﴾ أى بالعدل فالآن قد رفع ذلك الحكم عنكم لتبيين طبقات استحقاق كل واحد منهم وتعيين مقادير حقوقهم بالذات وأعطى كل ذى حق منهم حقه الذى يستحقه بحكم القرابة من غير نقص ولا زيادة ولم

يدع ثمة شيأ فيه مدخل لرأيكم أصلا حسبما تعرب عنه الجملة المنفية بلا النافية للجنس وتصديرها بكلمة التنبيه إذا تحققت هذا ظهر لك أن ماقيل من أن آية المواريث لاتعارضه بل تحققه وتؤكده من حيث أنها تدل على تقديم الوصية مطلقا والحديث من الآحاد وتلقى الأمة إياه بالقبول لايلحقه بالمتواتر ولعله احترز عنه من فسر الوصية بما أوصى به الله عز وجل من توريث الوالدين والأقربين بقوله تعالى (يوصيكم الله) أو بإيصاء المحتضر لهم بتوفير ما أوصى به الله تعالى عليهم بمعزل من التحقيق وكذا ما قيل من أن الوصية للوارث كانت واجبة بهذه الآية من غير تعيين لأنصبائهم فلما نزلت آية المواريث بيانا للأنصباء بلفظ الإيصاء فهم منها بتنبيه النبي صلى الله عليه وسلم أن المراد منه هذه الوصية التى كانت واجبة كأنه قيل إن الله تعالى أوصى بنفسه تلك الوصية ولم يفوضها إليكم فقام الميراث مقام الوصية فكان هذا معنى النسخ لا أن فيها دلالة على رفع ذلك الحكم فإن مدلول آية الوصية حيث كان تفويضا للأمر إلى آراء المكلفين على الإطلاق وتسنى الخروج عن عهدة التكليف بأداء ما أدى إليه آراؤهم بالمعروف فتكون آية المواريث الناطقة بمراتب الاستحقاق وتفاصيل مقادير الحقوق القاطعة بامتناع الزيادة والنقص بقوله تعالى فريضة من الله ناسخة لها رافعة لحكمها مما لا يشتبه على أحد وقوله تعالى ﴿حقا على المتقين﴾ مصدر مؤكد أى حق ذلك حقا ﴿فمن بدله﴾ أى غيره من الأوصياء والشهود ﴿بعد ماسمعه﴾ أى بعدما وصل إليه وتحقق لديه ﴿فإنما إثمه﴾ أى إثم الإيصاء المغير أو إثم التبديل ﴿على الذين يبدلونه﴾ لأنهم خانوا وخالفوا حكم الشرع ووضع الموصول فى موضع الضمير الراجع إلى من لتأكيد الإيذان بعلية ما فى حيز الصلة الأولى وإيثار الجمع للإشعار بتعدد المبدلين أنواعا أو كثرتهم أفرادا والإيذان بشمول الإثم لجميع الأفراد ﴿إن الله سميع عليم﴾ وعيد شديد للمبدلين ﴿فمن خاف من موص﴾ أى توقع وعلم من قولهم أخاف أن يرسل السماء وقرىء من موص ﴿جنفا﴾ أى ميلا بالخطأ فى الوصية ﴿أو إثما﴾ أى تعمداً للجنف ﴿فأصلح بينهم﴾ أى بين الموصى لهم بإجرائهم على منهاج الشريعة

الشريفة ﴿فلا إثم عليه﴾ أى فى هذا التبديل لأنه تبديل باطل إلى حق بخلاف الأول ﴿إن الله غفور رحيم﴾ وعد للمصلح وذكر المغفرة لمطابقة ذكر الإثم وكون الفعل من جنس ما يؤثم ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام﴾ بيان لحكم آخر من الأحكام الشرعية وتكرير النداء لإظهار مزيد الاعتناء والصيام والصوم فى اللغة الإمساك عما تنازع إليه النفس ومنه قوله تعالى (إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم) الآية ، وقيل هو الإمساك عن الشىء مطلقاً ومنه صامت الريح إذا أمسكت عن الهبوب والفرس إذا أمسكت عن العدو قال:

خيل صيام وخيل غير صائمة تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما

وفى الشريعة هو الإمساك نهارا مع النية عن المفطرات المعهودة التى هى معظم ما تشتهيه الأنفس ﴿كما كتب﴾ فى حيز النصب على أنه نعت للمصدر المؤكد أى كتابا كائنا كما كتب أو على أنه حال من المصدر المعرفة أى كتب عليكم الصيام الكتب مشبها بما كتب فما على الوجهين مصدرية أو على أنه نعت لمصدر من لفظ الصيام أى صوما مماثلا للصوم المكتوب على من قبلكم فما موصولة أو على أنه حال من الصيام أى حال كونه مماثلا لما كتب ﴿على الذين من قبلكم﴾ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والأمم من لدن آدم عليه السلام وفيه تأكيد للحكم وترغيب فيه وتطييب لأنفس المخاطبين به فإن الشاق إذا عم سهل عمله والمراد بالمماثلة إما المماثلة فى أصل الوجوب ، وإما فى الوقت والمقدار كما روى أن صوم رمضان كان مكتوبا على اليهود والنصارى أما اليهود فقد تركته وصامت يوما من السنة زعموا أنه يوم غرق فرعون وكذبوا فى ذلك فإنه كان يوم عاشورا ، وأما النصارى فإنهم صاموا رمضان حتى صادفوا حرا شديدا فاجتمعت آراء علمائهم على تعيين فصل واحد بين الصيف والشتاء فجعلوه فى الربيع وزادوا عليه عشرة أيام كفارة لما صنعوا فصار أربعين ثم مرض ملكهم أو وقع فيهم موت فزادوا عشرة أيام فصار خمسين ﴿لعلكم تتقون﴾ أى المعاصى فإن الصوم يكسر الشهوة الداعية إليها كما قال عليه الصلاة والسلام «فعليه بالصوم فإنه له وجاء» أو تتقون الإخلال بأدائه لأصالته أو تصلون بذلك إلى رتبة التقوى .

﴿أياما معدودات﴾ مؤقتات بعدد معلوم أو قلائل فإن القليل من المال يعد عدا والكثير يهال هيلا والمراد بها إما رمضان أو ما وجب فى بدء الإسلام ثم نسخ به من صوم عاشوراء وثلاثة أيام من كل شهر وانتصابه ليس بالصيام كما قيل لوقوع الفصل بينهما بأجنبى بل بمضمر دل هو عليه أعنى صوموا إما على الظرفية أو المفعولية اتساعا وقيل بقوله تعالى كتب على أحد الوجهين وفيه أن الأيام ليست محلا له بل للمكتوب فلا تتحقق الظرفية ولا المفعولية المتفرعة عليها اتساعا ﴿فمن كان منكم مريضا﴾ أى مرضا يضره الصوم أو يعسر معه ﴿أو على سفر﴾ مستمرين عليه وفيه تلويح ورمز إلى أن من سافر فى أثناء اليوم لم يفطر ﴿فعدة﴾ أى فعليه صوم عدة أيام المرض والسفر ﴿من أيام أخر﴾ إن أفطر فحذف الشرط والمضاف ثقة بالظهور وقرىء بالنصب أى فليصم عدة وهذا على سبيل الرخصة وقيل على الوجوب وإليه ذهب الظاهرية وبه قال أبو هريرة رضى الله عنه ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ أى وعلى المطيقين للصيام إن أفطروا ﴿فدية﴾ أى إعطاء فدية وهى ﴿طعام مسكين﴾ وهو نصف صاع من بر أو صاع من غيره عند أهل العراق ومد عند أهل الحجاز وكان ذلك فى فى بدء الإسلام لما أنه قد فرض عليهم الصوم وما كانوا متعودين له فاشتد عليهم فرخص لهم فى الإفطار والفدية وقرىء يطوقونه أى يكلفونه أو يقلدونه ويتطوقونه ويطوقونه بإدغام التاء فى الطاء ويطيقونه ويطوقونه بمعنى يتطيقونه وأصلهما يطيوقونه ويتطوقونه من فيعل وتفيعل من الطوق فأدغمت الياء فى الواو بعد قلبها ياء كقولهم تدير المكان وما بها ديار وفيه وجهان أحدهما نحو معنى يطيقونه والثانى يكلفونه أو يتكلفونه على جهد منهم وعسر وهم الشيوخ والعجائز وحكم هؤلاء الإفطار والفدية وهو حينئذ غير منسوخ ويجوز أن يكون هذا معنى يطيقونه أو يصومونه جهدهم وطاقتهم ومبلغ وسعهم ﴿فمن تطوع خيرا﴾ فزاد فى الفدية ﴿فهو﴾ أى التطوع أو الخير الذى تطوعه ﴿خير له وأن تصوموا﴾ أيها المطيقون أو المطوقون وتحملوا على أنفسكم وتجهدوا طاقتكم أو المرخصون فى الإفطار من المرضى والمسافرين ﴿خير لكم﴾ من

الفدية أو من تطوع الخير أو منهما أو من التأخير إلى أيام أخر والالتفات إلى الخطاب للهز والتنشيط ﴿إن كنتم تعلمون﴾ أى ما فى صومكم مع تحقق المبيح للإفطار من الفضيلة والجواب محذوف ثقة بظهوره أى اخترتموه أو سارعتم إليه وقيل معناه إن كنتم من أهل العلم والتدبر علمتم أن الصوم خير من ذلك ﴿شهر رمضان﴾ مبتدأ سيأتى خبره أو خبر لمبتدأ محذوف أى ذلك شهر رمضان أو بدل من الصيام على حذف المضاف أى صيام شهر رمضان وقرىء بالنصب على إضمار صوموا أو على أنه مفعول تصوموا أو بدل من أياما معدودات ورمضان مصدر رمض أى احترق من الرمضاء فأضيف إليه الشهر وجعل علما ومنع الصرف للتعريف والألف والنون كما قيل ابن دأية للغراب فقوله عليه السلام من صام رمضان الحديث وارد على حذف المضاف للأمن من الالتباس وإنما سمى بذلك إما لارتماضهم فيه من الجوع والعطش أو لارتماض الذنوب بالصيام فيه أو لوقوعه فى أيام رمض الحر عند نقل أسماء الشهور عن اللغة القديمة ﴿الذى أنزل فيه القرآن﴾ خبر للمبتدا على الوجه الأول وصفة لشهر رمضان على الوجوه الباقية ومعنى إنزاله فيه أنه ابتدىء إنزاله فيه وكان ذلك ليلة القدر أو أنزل فيه جملة إلى السماء الدنيا ثم نزل منجما إلى الأرض حسبما تقضيه المشيئة الربانية أو أنزل فى شأنه القرآن وهو قوله عز وجل كتب عليكم وعن النبى صلى الله عليه وسلم نزلت صحف إبراهيم أول ليلة من رمضان وأنزلت التوراة لست مضين منه والإنجيل لثلاث عشرة منه والقرآن لأربع وعشرين ﴿هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾ حالان من القرآن أى أنزل حال كونه هداية للناس بما فيه من الإعجاز وغيره وآيات واضحة مرشدة إلى الحق فارقة بينه وبين الباطل بما فيه من الحكم والأحكام ﴿فمن شهد منكم الشهر﴾ أى حضر فيه ولم يكن مسافرا ووضع الظاهر موضع الضمير للتعظيم والمبالغة فى البيان والفاء للتفريع والترتيب أو لتضمن المبتدا معنى الشرط أو زائدة على تقدير كون شهر رمضان مبتدأ والموصول صفة له وهذه الجملة خبر له وقيل هى جزائية كأنه قيل لما كتب عليكم الصيام فى ذلك الشهر فمن حضر فيه

﴿ فليصمه ﴾ أى فليصم فيه بحذف الجار وإيصال الفعل إلى المجرور اتساعا وقيل من شهد منكم هلال الشهر فليصمه على أنه مفعول به كقولك شهدت الجمعة أى صلاتها فيكون ما بعده مخصصا له كأنه قيل ﴿ ومن كان مريضا ﴾ وإن كان مقيما حاضرا فيه ﴿ أو على سفر ﴾ وإن كان صحيحا ﴿ فعدة من أيام أخر ﴾ أى فعليه صيام أيام أخر لأن المريض والمسافر ممن شهد الشهر ولعل التكرير لذلك أو لئلا يتوهم نسخه كما نسخ قرينه ﴿ يريد الله ﴾ بهذا الترخيص ﴿ بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ لغاية هى رأفته وسعة رحمته ﴿ ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون ﴾ تعليل لفعل محذوف يدل عليه ماسبق أى ولهذه الأمور شرع مامر من أمر الشاهد بصوم الشهر وأمر المرخص لهم بمراعاة عدة ما أفطر فيه ومن الترخيص فى إباحة الفطر فقوله تعالى لتكملوا علة الأمر بمراعاة العدة ولتكبروا علة ما علم من كيفية القضاء ولعلكم تشكرون علة الترخيص والتيسير وتعدية فعل التكبير بعلى لتضمنه معنى الحمد كأنه قيل ولتكبروا الله حامدين على ما هداكم ويجوز أن تكون معطوفة على علة مقدرة مثل ليسهل عليكم أو لتعلموا ما تعملون ولتكملوا إلخ ويجوز عطفها على اليسر أى يريد بكم لتكملوا إلخ كقوله تعالى (يريدون ليطفئوا) إلخ والمعنى بالتكبير تعظيمه تعالى بالحمد والثناء عليه وقيل تكبير يوم العيد وقيل التكبير عند الإهلال وما تحتمل المصدرية والموصولة أى على هدايته إياكم أو على الذى هداكم إليه وقرىء ولتكملوا بالتشديد ﴿ وإذا سألك عبادى عنى ﴾ فى تلوين الخطاب وتوجيهه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى من تشريفه ورفع محله ﴿ فإنى قريب ﴾ أى فقل لهم إنى قريب وهو تمثيل لكمال علمه بأفعال العباد وأقوالهم وإطلاعه على أحوالهم بحال من قرب مكانه ، روى أن أعرابيا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه فنزلت ﴿ أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ تقرير للقرب وتحقيق له ووعد للداعى بالإجابة ﴿ فليستجيبوا لى ﴾ إذا دعوتهم للإيمان والطاعة كما أجيبهم إذا دعونى لمهماتهم ﴿ وليؤمنوا بى ﴾ أمر بالثبات على ما هم عليه ﴿ لعلهم يرشدون ﴾

راجين إصابة الرشد أى الحق وقرىء بفتح الشين وكسرها ولما أمرهم الله تعالى بصوم الشهر ومراعاة العدة وحثهم على القيام بوظائف التكبير والشكر عقبه بهذه الآية الكريمة الدالة على أنه تعالى خبير بأحوالهم سميع لأقوالهم مجيب لدعائهم مجازيهم على أعمالهم تأكيدا له وحثا عليه ثم شرع فى بيان أحكام الصيام فقال ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾ روى أن المسلمين كانوا إذا أمسوا حل لهم الأكل والشرب والجماع إلى أن يصلوا العشاء الأخيرة أو يرقدوا ثم إن عمر رضى الله عنه باشر بعد العشاء فندم وأتى النبى صلى الله عليه وسلم واعتذر إليه فقام رجال فاعترفوا بما صنعوا بعد العشاء فنزلت ه. وليلة الصيام الليلة التى يصبح منها صائما والرفث كناية عن الجماع لأنه لا يكاد يخلو من رفث وهو الإفصاح بما يجب أن يكنى عنه وعدى بإلى لتضمنه معنى الإفضاء والإنهاء وإيثاره ههنا لاستقباح ما ارتكبوه ولذلك سمى خيانة وقرىء الرفوث وتقديم الظرف على القائم مقام الفاعل لما مر مرارا من التشويق فإن ما حقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مترقبة إليه فيتمكن وقت وروده فضل تمكن ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ استئناف مبين لسبب الإحلال وهو صعوبة الصبر عنهن مع شدة المخالطة وكثرة الملابسة بهن وجعل كل من الرجل والمرأة لباسا للآخر لاعتناقهما واشتمال كل منهما على الآخر بالليل قال :

إذا ما الضجيع ثنى عطفها   تثنت فكانت عليه لباسا

أو لأن كلا منهما يستر حال صاحبه ويمنعه من الفجور ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾ استئناف آخر مبين لما ذكر من السبب والاختيان أبلغ من الخيانة كالاكتساب من الكسب ومعنى تختانون تظلمونها بتعريضها للعقاب وتنقيص حظها من الثواب ﴿فتاب عليكم﴾ عطف على علم أى تاب عليكم لما تبتم مما اقترفتموه ﴿وعفا عنكم﴾ أى محا أثره عنكم ﴿فالآن﴾ لما نسخ التحريم ﴿باشروهن﴾ المباشرة إلزاق البشرة بالبشرة كنى بها عن الجماع الذى يستلزمها وفيه دليل على جواز نسخ الكتاب للسنة ﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ أى واطلبوا ما قدره الله لكم وقرره فى اللوح من الولد وفيه أن المباشر ينبغى أن

يكون غرضه الولد فإنه الحكمة فى خلق الشهوة وتشريع النكاح لاقضاء الشهوة وقيل فيه نهى عن العزل وقيل عن غير المأتى والتقدير وابتغوا المحل الذى كتب لكم ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ شبه أول ما يبدوا من الفجر المعترض فى الأفق وما يمتد معه من غلس الليل بخيطين أبيض وأسود واكتفى ببيان الخيط الأبيض بقوله تعالى من الفجر عن بيان الخيط الأسود لدلالته عليه وبذلك خرجا عن الاستعارة إلى التمثيل ويجوز أن يكون من للتبعيض فإن ما يبدو بعض الفجر وما روى من أنها نزلت ولم ينزل من الفجر فعمد رجال إلى خيطين أبيض وأسود وطفقوا يأكلون ويشربون حتى يتبينا لهم فنزلت فلعل ذلك كان قبل دخول رمضان وتأخير البيان إلى وقت الحاجة جائز واكتفى أولا باشتهارهما فى ذلك ثم صرح بالبيان لما التبس على بعضهم وفى تجويز المباشرة إلى الصبح دلالة على جواز تأخير الغسل إليه وصحة صوم من أصبح جنبا ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ بيان لآخر وقته ﴿ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد﴾ أى معتكفون فيها والمراد بالمباشرة الجماع وعن قتادة كان الرجل يعتكف فيخرج إلى امرأته فيباشرها ثم يرجع فنهوا عن ذلك وفيه دليل على أن الاعتكاف يكون فى المسجد غير مختص ببعض دون بعض وأن الوطء فيه حرام ومفسد له لأن النهى فى العبادات يوجب الفساد ﴿تلك حدود الله﴾ أى الأحكام المذكورة وحدود وضعها الله تعالى لعباده ﴿فلا تقربوها﴾ فضلا عن تجاوزها نهى أن يقرب الحد الحاجز بين الحق والباطل مبالغة فى النهى عن تخطيها كما قال صلى الله عليه وسلم إن لكل ملك حمى وحمى الله محارمه فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه ويجوز أن يراد بحدود الله تعالى محارمه ومناهيه ﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك التبيين البليغ ﴿يبين الله آياته﴾ الدالة على الأحكام التى شرعها ﴿للناس لعلهم يتقون﴾ مخالفة أوامره ونواهيه ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ نهى عن أكل بعضهم أموال بعض على خلاف حكم الله تعالى بعد النهى عن أكل أموال أنفسهم فى نهار رمضان أى لا يأكل بعضكم أموال بعض بالوجه الذى لم يبحه

الله تعالى وبين نصب على الظرفية أو الحالية من أموالكم ﴿وتدلوا بها إلى الحكام﴾ عطف على المنهى عنه أو نصب بإضمار أن والإدلاء الإلقاء أى ولا تلقوا حكومتها إلى الحكام ﴿لتأكلوا﴾ بالتحاكم إليهم ﴿فريقا من أموال الناس بالإثم﴾ بما يوجب إثما كشهادة الزور واليمين الفاجرة أو ملتبسين بالإثم ﴿وأنتم تعلمون﴾ أنكم مبطلون فإن ارتكاب المعاصى مع العلم بها أقبح . روى أن عبدان الحضرمى ادعى على امرىء القيس الكندى قطعة أرض ولم يكن له بينة فحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يحلف امرؤ القيس فهم به فقرأ عليه الصلاة والسلام (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا) الآية فارتدع عن اليمين فسلم الأرض إلى عبدان فنزلت . وروى أنه اختصم إليه خصمان فقال عليه السلام « إنما أنا بشر مثلكم وأنتم تختصمون إلى ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع منه فمن قضيت له بشىء من حق أخيه فإنما أقضى له قطعة من نار » فبكيا فقال كل واحد منهما حقى لصاحبى فقال اذهبا فتآخيا ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه ﴿يسألونك عن الأهلة﴾ سأله معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم فقالا ما بال الهلال يبدو رقيقا كالخيط ثم يزيد حتى يستوى ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا ﴿قل هى مواقيت للناس والحج﴾ كانوا قد سألوه عليه الصلاة والسلام عن الحكمة فى اختلاف حال القمر وتبدل أمره فأمره الله العزيز الحكيم أن يجيبهم بأن الحكمة الظاهرة فى ذلك أن تكون معالم للناس فى عبادتهم لا سيما الحج فإن الوقت مراعى فيه أداء وقضاء وكذا فى معاملاتهم على حسب ما يتفقون عليه والمواقيت جمع ميقات من الوقت والفرق بينه وبين المدة والزمان أن المدة المطلقة امتداد حركة الفلك من مبدئها إلى إلى منتهاها والزمان مدة مقسومة إلى الماضى والحال والمستقبل والوقت الزمان المفروض لأمر ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ كانت الأنصار إذا أحرموا لم يدخلوا دارا ولا فسطاطا من بابه وإنما يدخلون ويخرجون من نقب أو فرجة وراءها ويعدون ذلك برا فبين لهم أنه ليس ببر فقيل ﴿ولكن البر من اتقى﴾ أى بر من اتقى المحارم والشهوات ووجه اتصاله بما قبله أنهم

سألوا عن الأمرين أو أنه لما ذكر أنها مواقيت للحج ذكر عقيبه ما هو من أفعالهم فى الحج استطرادا أو أنهم لما سألوا عما لا يعنيهم ولا يتعلق بعلم النبوة فإنه عليه الصلاة والسلام مبعوث لبيان الشرائع لا لبيان حقائق الأشياء وتركوا السؤال عما يعنيهم ويختص بعلم الرسالة عقب بذكره جواب ما سألوا عنه تنبيها على أن اللائق بهم أن يسألوا عن أمثال ذلك ويهتموا بالعلم بها أو أريد به التنبيه على تعكيسهم فى السؤال وكونه من قبيل دخول البيت من ورائه والمعنى وليس البر بأن تعكسوا فى مسائلكم ولكن البر من اتقى ذلك ولم يجترىء على مثله ﴿وأتوا البيوت من أبوابها﴾ إذ ليس فى العدول بر أو باشروا الأمور من وجوهها ﴿واتقوا الله﴾ فى تغيير أحكامه أو فى جميع أموركم أمر بذلك صريحا بعد بيان أن البر بر من اتقى إظهارا لزيادة الاعتناء بشأن التقوى وتمهيدا لقوله تعالى ﴿لعلكم تفلحون﴾ أى لكى تظفروا بالبر والهدى ﴿وقاتلوا فى سبيل الله﴾ أى جاهدوا لإعزاز دينه وإعلاء كلمته وتقديم الظرف على المفعول الصريح لإبراز كمال العناية بشأن المقدم ﴿الذين يقاتلونكم﴾ قيل كان ذلك قبل ما أمروا بقتال المشركين كافة المقاتلين منهم والمحاجزين وقيل معناه الذين يناصبونكم القتال ويتوقع منهم ذلك دون غيرهم من المشايخ والصبيان والرهبان والنساء أو الكفرة جميعاً فإن الكل بصدد قتال المسلمين ويؤيد الأول ما روى أن المشركين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية وصالحوه على أن يرجع من قابل فيخلوا له مكة شرفها الله تعالى ثلاثة أيام فرجع لعمرة القضاء فخاف المسلمون أن لا يفوا لهم وأن يقاتلوهم فى الحرم والشهر الحرام وكرهوا ذلك فنزلت ويعضده إيراده فى أثناء بيان أحكام الحج ﴿ولا تعتدوا﴾ بابتداء القتال أو بقتال المعاهد والمفاجأة به من غير دعوة أو بالمثلة وقتل من نهيتم عن قتله من النساء والصبيان ومن يجرى مجراهم ﴿إن الله لا يحب المعتدين﴾ أى لا يريد بهم الخير وهو تعليل للنهى ﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ أى حيث وجدتموهم من حل أو حرم وأصل الثقف الحذق فى إدراك الشىء علما أو عملا وفيه معنى الغلبة ولذلك استعمل فيها قال :

فإما تثقفونى فاقتلونى فمن أثقف فليس إلى خلود

﴿ وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ﴾ أى من مكة وقد فعل بهم ذلك يوم الفتح بمن لم يسلم من كفارها ﴿ والفتنة أشد من القتل ﴾ أى المحنة التى يفتتن بها الإنسان كالإخراج من الوطن أصعب من القتل لدوام تعبها وبقاء ألم النفس بها وقيل شركهم فى الحرم وصدهم لكم عنه أشد من قتلكم إياهم فيه ﴿ ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام ﴾ أى لا تفاتحوهم بالقتل هناك ولا تهتكوا حرمة المسجد الحرام ﴿ حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم ﴾ ثمة ﴿ فاقتلوهم ﴾ فيه ولا تبالوا بقتالهم ثمة لأنهم الذين هتكوا حرمته فاستحقوا أشد العذاب وفى العدول عن صيغة المفاعلة التى بها ورد النهى والشرط عدة بالنصر والغلبة وقرىء ولا تقتلوهم حتى يقتلوكم فإن قاتلوكم فاقتلوهم والمعنى حتى يقتلوا بعضكم كقولهم قتلتنا بنو أسد ﴿ كذلك جزاء الكافرين ﴾ يفعل بهم مثل ما فعلوا بغيرهم ﴿ فإن انتهوا عن القتال والكفر بعد ما رأوا قتالكم ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ يغفر لهم ما قد سلف ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴾ أى شرك ﴿ ويكون الدين لله ﴾ خالصا ليس للشيطان فيه نصيب ﴿ فإن انتهوا ﴾ بعد مقاتلتكم عن الشرك ﴿ فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ أى فلا تعتدوا عليهم إذ لا يحسن الظلم إلا لمن ظلم فوضع العلة موضع الحكم وتسمية الجزاء بالعدوان للمشاكلة كما فى قوله عز وجل (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه) أو إنكم إن تعرضتم للمنتهين صرتم ظالمين وتنعكس الحال عليكم والفاء الأولى للتعقيب والثانية للجزاء .

﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام ﴾ قاتلهم المشركون عام الحديبية فى ذى القعدة فقيل لهم عند خروجهم لعمرة القضاء فى ذى القعدة أيضاً وكراهتهم القتال فيه هذا الشهر الحرام بذلك الشهر الحرام وهتكه بهتكه فلا تبالوا به ﴿ والحرمات قصاص ﴾ أى كل حرمة وهى ما يجب المحافظة عليه يجرى فيها القصاص فلما هتكوا حرمة شهركم بالصد فافعلوا بهم مثله وادخلوا عليهم عنوة فاقتلوهم إن قاتلوكم كما قال تعالى : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه

بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ وهى فذلكة مقررة لما قبلها ﴿ واتقوا الله ﴾ فى شأن الانتصار واحذروا أن تعتدوا إلى ما لم يرخص لكم ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ فيحرسهم ويصلح شؤنهم بالنصر والتمكين ﴿ وأنفقوا فى سبيل الله ﴾ أمر بالجهاد بالمال بعد الأمر به بالأنفس أى ولا تمسكوا كل الإمساك : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ بالإسراف وتضييع وجه المعاش أو بالكف عن الغزو والإنفاق فيه فإن ذلك مما يقوى العدو ويسلطه عليكم ويؤيده ما روى عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه أنه قال لما أعز الله الإسلام وكثر أهله رجعنا إلى أهالينا وأموالنا نقيم فيها ونصلحها فنزلت أو بالإمساك وحب المال فإنه يؤدى إلى الهلاك المؤبد ولذلك سمى البخل هلاكا وهو فى الأصل انتهاء الشىء فى الفساد والإلقاء طرح الشىء وتعديته بإلى لتضمنه معنى الانتهاء والباء مزيدة والمراد بالأيدى الأنفس والتهلكة مصدر كالتنضرة والتسترة وهى والهلاك واحد أى لا توقعوا أنفسكم فى الهلاك وقيل معناه لا تجعلوها آخذة بأيديكم ولا تلقوا بأيديكم أنفسكم إليها فحذف المفعول ﴿ وأحسنوا ﴾ أى أعمالكم وأخلاقكم أو تفضلوا على الفقراء ﴿ إن الله يحب المحسنين ﴾ أى يريد بهم الخير وقوله تعالى : ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ بيان لوجوب إتمام أفعالهما عند التصدى لأدائهما وإرشاد للناس إلى تدارك ما عسى يعتريهم من العوارض المخلة بذلك من الإحصار ونحوه من غير تعرض لحالهما فى أنفسهما من الوجوب وعدمه كما فى قوله تعالى (ثم أتموا الصيام إلى الليل) فإنه بيان لوجوب مد الصيام إلى الليل من غير تعرض لوجوب أصله وإنما هو بقوله تعالى (كتب عليكم الصيام) الآية كما أن وجوب الحج بقوله تعالى (ولله على الناس حج البيت) الآية فإن الأمر بإتمام فعل من الأفعال ليس أمرا بأصله ولا مستلزما له أصلا فليس فيه دليل على وجوب العمرة قطعا وادعاء أن الأمر بإتمامهما أمر بإنشائهما تامين كاملين حسبما تقتضيه قراءة وأقيموا الحج والعمرة وأن الأمر للوجوب ما لم يدل على خلافه دليل مما لا سداد له ضرورة أن ليس البيان مقصورا على أفعال الحج المفروض حتى يتصور ذلك بل الحق أن تلك

القراءة أيضا محمولة على المشهورة ناطقة بوجوب إقامة أفعالهما كما ينبغى من غير تعرض لحالهما فى أنفسهما فالمعنى أكملوا أركانهما وشرائطهما وسائر أفعالهما المعروفة شرعا لوجه الله تعالى من غير إخلال منكم بشىء منها هذا وقد قيل إتمامهما أن تحرم بهما من دويرة أهلك روى ذلك عن على وابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهم وقيل أن تفرد لكل واحد منهما سفرا كما قال محمد حجة كوفية وعمرة كوفية أفضل وقيل هو جعل نفقتهما حلالا وقيل أن تخلصوهما للعبادة ولا تشوبوهما بشىء من الأغراض الدنيوية وأياما كان فلا تعرض فى الآية الكريمة لوجوب العمرة أصلا وأما ما روى أن ابن عباس رضى الله عنهما قال إن العمرة لقرينة الحج وقول عمر رضى الله عنه هديت لسنة نبيك حين قال له رجل وجدت الحج والعمرة مكتوبين على فأهللت بهما وفى رواية فأهللت بهما جميعا فبمعزل من إفادة الوجوب مع كونه معارضا بما روى عن جابر أنه قال يارسول الله العمرة واجبة مثل الحج قال لا ولكن أن تعتمر خير لك وبقوله عليه السلام الحج جهاد والعمرة تطوع فتدبر ﴿فإن أحصرتم﴾ أى منعتم من الحج يقال حصره إذا حبسه ومنعه من المضى لوجهه مثل صده واصده والمراد منع العدو عند مالك والشافعى رضى الله عنهما لقوله تعالى (فإذا أمنتم) ولنزوله فى الحديبية ولقول ابن عباس لا حصر إلا حصر العدو وكل منع من عدو أو مرض أو غيرهما عند أبى حنيفة رضى الله عنه لما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم من كسر أو عرج فعليه الحج من قابل ﴿فما استيسر من الهدى﴾ أى فعليكم أو فالواجب ما استيسر أو فاهدوا ما استيسر والمعنى أن المحرم إذا أحصر وأراد أن يتحلل تحلل بذبح هدى مما تيسر عليه من بدنة أو بقرة أو شاة حيث أحصر عند الأكثر وعندنا يبعث به إلى الحرم ويجعل للمبعوث بيده يوم أمار فإذا جاء اليوم وظن أنه ذبح تحلل لقوله تعالى ﴿ولا تحلقوا رؤسكم حتى يبلغ الهدى محله﴾ أى لا تحلوا حتى تعلموا أن الهدى المبعوث إلى الحرم يبلغ مكانه الذى يجب أن ينحر فيه وحمل الأولون بلوغ الهدى محله على

ذبحه فيه حلا كان أو حرما ومرجعهم فى ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذبح عام الحديبية بها وهى من الحل قلنا كان محصره عليه الصلاة والسلام طرف الحديبية الذى إلى أسفل مكة وهو من الحرم وعن الزهرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نحر هديه فى الحرم وقال الواقدى الحديبية هى طرف الحرم على تسعة أميال من مكة والمحل بالكسر يطلق على المكان والزمان والهدى جمع هدية كجدى وجدية وقرىء من الهدى جمع هدية كمطى ومطية ﴿فمن كان منكم مريضا﴾ مرضا محوجا إلى الحلق ﴿أو به أذى من رأسه﴾ كجراحة أو قمل ﴿ففدية﴾ أى فعليه فدية إن حلق ﴿من صيام أو صدقة أو نسك) بيان لجنس الفدية وأما قدرها فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لكعب بن عجرة لعلك آذاك هوامك قال نعم يا رسول الله قال إحلق وصم ثلاثةأيام أو تصدق بفرق على ستة مساكين أوانسك شاة والفرق ثلاثة آصع ﴿فإذا أمنتم﴾ أى الإحصار أو كنتم فى حال أمن أوسعة ﴿فمن تمتع بالعمرة إلى الحج﴾ أى فمن انتفع بالتقرب إلى الله تعالى بالعمرة قبل الانتفاع بتقربه بالحج فى أشهره وقيل من استمتع بعد التحلل من عمرته باستباحة محظورات الإحرام إلى أن يحرم بالحج ﴿فما استيسر من الهدى﴾ أى فعليه دم استيسر عليه بسبب التمتع وهو دم جبران يذبحه إذا أحرم بالحج ولا يأكل منه عند الشافعى وعندنا هو كالأضحية ﴿فمن لم يجد﴾ أى الهدى ﴿فصيام ثلاثة أيام فى الحج﴾ أى أى فى أشهره بين الإحرامين ، وقال الشافعى فى أيام الاشتغال بأعماله بعد الإحرام وقبل التحلل والأحب أن يصوم سابع ذى الحجة وثامنه وتاسعه فلا يصح يوم النحر وأيام التشريق ﴿وسبعة إذا رجعتم﴾ أى نفرتم وفرغتم من أعماله وفى أحد قولى الشافعى إذا رجعتم إلى أهليكم وقرىء وسبعة بالنصب عطفا على محل ثلاثة أيام ﴿تلك عشرة﴾ فذلكة الحساب وفائدتها ألا يتوهم أن الواو بمعنى أو كما فى قولك جالس الحسن وابن سيرين ، وأن يعلم العدد جملة كما علم تفصيلا فإن أكثر العرب لا يعرف الحساب وأن المراد بالسبعة هو العدد المخصوص دون الكثرة كما يراد بها ذلك أيضا

﴿ كاملة ﴾ صفة مؤكدة لعشرة تفيد المبالغة فى المحافظة على العدد أو مبينة لكمال العشرة فإنها أول عدد كامل إذ به ينتهى الآحاد ويتم مراتبها أو مقيدة تفيد كمال بدليتها من الهدى ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى التمتع عندنا وإلى الحكم المذكور عند الشافعى ﴿ لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام ﴾ وهو من كان من الحرم على مسافة القصر عند الشافعى ومن كان مسكنه وراء الميقات عندنا وأهل الحل عند طاوس وغير أهل مكة عند مالك ﴿ واتقوا الله ﴾ فى المحافظة على أوامره ونواهيه لاسيما فى الحج ﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ لمن لم يتقه كى يصدكم العلم به عن العصيان وإظهار الاسم الجليل فى موضع الإضمار لتربية المهابة وإدخال الروعة .

﴿ الحج ﴾ أى وقته ﴿ أشهر معلومات ﴾ معروفات بين الناس هى شوال وذو القعدة وعشر ذى الحجة عندنا وتسعة بليلة النحر عند الشافعى وكله عند مالك ومدار الخلاف أن المراد بوقته وقت إحرامه أو وقت أعماله ومناسكه أو مالا يحسن فيه غيره من المناسك مطلقا فإن مالكا كره العمرة فى بقية ذى الحجة وأبو حنيفة وإن صحح الإحرام به قبل شوال فقد استكرهه وإنما سمى شهرين وبعض شهر أشهراً إقامة للبعض مقام الكل أو إطلاقا للجمع على مافوق الواحد وصيغة جمع المذكر فى غير العقلاء تجىء بالألف والتاء ﴿ فمن فرض فيهن الحج ﴾ أى أوجبه على نفسه بالإحرام فيهن أو بالتلبية أو بسوق الهدى ﴿ فلا رفث ولافسوق ﴾ أى لاجماع أو فلا فحش من الكلام ولاخروج من حدود الشرع بارتكاب المحظورات وقيل بالسباب والتنابذ بالألقاب ﴿ ولا جدال ﴾ أى لامراء مع الخدم والرفقة ﴿ فى الحج ﴾ أى فى أيامه والإظهار فى مقام الإضمار لإظهار كمال الاعتناء بشأنه والإشعار بعلة الحكم فإن زيارة البيت المعظم والتقرب بها إلى الله عز وجل من موجبات ترك الأمور المذكورة وإيثار النفى للمبالغة فى النهى والدلالة على أن ذلك حقيق بأن لايكون فإن ما كان منكرا مستقبحا فى نفسه ففى تضاعيف الحج أقبح كلبس الحرير فى الصلاة والتطريب بقراءة القرآن لأنه خروج عن مقتضى الطبع والعادة إلى محض

العبادة وقرىء الأولان بالرفع على معنى لايكونن رفث ولافسوق والثالث بالفتح على معنى الإخبار بانتفاء الخلاف فى الحج وذلك أن قريشا كانت تخالف سائر العرب فتقف بالمشعر الحرام فارتفع الخلاف بأن أمروا بأن يقفوا أيضاً بعرفات ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾ فيجزى به خير جزاء وهو حث على فعل الخير إثر النهى عن الشر ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ أى تزودوا لمعادكم التقوى فإنه خير زاد وقيل نزلت فى أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن متوكلون فيكونون كلا على الناس فأمروا أن يتزودوا ويتقوا الإبرام فى السؤال والتثقيل على الناس ﴿واتقون يا أولى الألباب﴾ فإن قضية اللب استشعار خشية الله عز وجل وتقواه حثهم على التقوى ثم أمرهم بأن يكون المقصود بذلك هو الله تعالى فيتبرؤا من كل شىء سواه وهو مقتضى العقل المعرى عن شوائب الهوى فلذلك خص بهذا الخطاب أولو الألباب ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا﴾ أى فى أن تبتغوا أى تطلبوا ﴿فضلا من ربكم﴾ عطاء ورزقا منه أى الربح بالتجارة وقيل كان عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقهم فى الجاهلية يقيمونها أيام مواسم الحج وكانت معايشهم منها فلما جاء الإسلام تأثموا منه فنزلت ﴿فإذا أفضتم من عرفات﴾ أى دفعتم منها بكثرة من أفضت الماء إذا صببته بكثرة وأصله أفضتم أنفسكم فحذف المفعول حذفه من دفعت من البصرة وعرفات جمع سمى به كأذرعات وإنما نون وكسر وفيه علمية وتأنيث لما أن تنوين الجمع تنوين المقابلة لا تنوين التمكن ولذلك يجمع مع اللام وذهاب الكسرة تبع ذهاب التنوين من غير عوض لعدم الصرف وههنا ليس كذلك أولأن التأنيث إما بالتاء المذكورة وهى ليست بتاء التأنيث وإنما هى مع الألف التى قبلها علامة جمع المؤنث أو بتاء مقدرة كما فى سعاد ولا سبيل إليه لأن المذكورة تأبى تقديرها لما أنها كالبدل منها لاختصاصها بالمؤنث كتاء بنت وإنما سمى الموقف عرفة لأنه نعت لإبراهيم عليه السلام فلما أبصره عرفه أو لأن جبريل عليه السلام كان يدور به فى المشاعر فلما رآه قال عرفت أو لأن آدم وحواء التقيا فيه فتعارفا أو لأن الناس يتعارفون فيه وهى من الأسماء المرتجلة

إلا من يجعلها جمع عارف قيل وفيه دليل على وجوب الوقوف بها لأن الإفاضة لا تكون إلا بعده وهي مأمور بها بقوله تعالى (ثم أفيضوا) وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «الحج عرفة» فمن أدرك عرفة فقد أدرك الحج أو مقدمة للذكر المأمور به وفيه نظر إذ الذكر غير واجب والأمر به غير مطلق ﴿ فاذكروا الله ﴾ بالتلبية والتهليل والدعاء وقيل بصلاة العشاءين ﴿ عند المشعر الحرام ﴾ هو جبل يقف عليه الإمام ويسمى قزح وقيل ما بين مأزمى عرفة ووادى محسر ويؤيد الأول ما روى جابر أنه عليه الصلاة والسلام لما صلى الفجر يعنى بالمزدلفة بغلس ركب ناقته حتى أتى المشعر الحرام فدعا فيه وكبر وهلل ولم يزل واقفا حتى أسفر وإنما سمى مشعرا لأنه معلم العبادة ووصف بالحرام لحرمته ومعنى عند المشعر الحرام ما يليه ويقرب منه فإنه أفضل وإلا فالمزدلفة كلها موقف إلا وادى محسر ﴿ واذكروه كما هداكم ﴾ أى كما علمكم أو اذكروه ذكرا حسنا كما هداكم هداية حسنة إلى المناسك وغيرها وما مصدرية أو كافة ﴿ وإن كنتم من قبله ﴾ من قبل ما ذكر من هدايته إياكم ﴿ لمن الضالين ﴾ غير العالمين بالإيمان والطاعة وأن المخففة واللام هى الفارقة وقيل هى نافية واللام بمعنى إلا كما فى قوله عز وعلا (وإن نظنك لمن الكاذبين) ﴿ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ﴾ أى من عرفة لا من المزدلفة والخطاب لقريش لما كانوا يقفون بجمع وسائر الناس بعرفة ويرون ذلك ترفعا عليهم فأمروا بأن يساووهم وثم لتفاوت ما بين الإفاضتين كما فى قولك أحسن إلى الناس ثم لا تحسن إلا إلى كريم وقيل من مزدلفة إلى منى بعد الإفاضة من عرفة إليها والخطاب عام وقرىء الناس بكسر السين أى الناسى على أن يراد به آدم عليه السلام من قوله تعالى فنسى والمعنى أن الإفاضة من عرفة شرع قديم فلا تغيروه ﴿ واستغفروا الله ﴾ من جاهليتكم فى تغيير المناسك ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ يغفر ذنب المستغفر وينعم عليه فهو تعليل للاستغفار أو للأمر به ﴿ فإذا قضيتم مناسككم ﴾ عباداتكم المتعلقة بالحج وفرغتم منها ﴿ فاذكروا الله كذكركم آباءكم ﴾ أى فأكثروا ذكره تعالى وبالغوا فى ذلك كما تفعلون بذكر آبائكم ومفاخرهم وأيامهم وكانت العرب إذا قضوا

مناسكهم وقفوا بمنى بين المسجد والجبل فيذكرون مفاخر آبائهم ومحاسن أيامهم ﴿أوأشد ذكرا﴾ ، إما مجرور معطوف على الذكر بجعله ذاكرا على المجاز والمعنى فاذكروا الله ذكرا كائنا مثل ذكركم آباءكم أو كذكر أشد منه وأبلغ أو على ما أضيف إليه بمعنى أو كذكر قوم أشد منكم ذكرا أو منصوب بالعطف على آباءكم وذكرا من فعل المذكور بمعنى أو كذكركم أشد مذكور من آبائكم أو بمضمر دل عليه المعنى تقديره أو كونوا أشد ذكرا لله منكم لآبائكم ﴿فمن الناس﴾ تفصيل للذاكرين إلى من يطلب بذكر الله الدنيا وإلى من يطلب به خير الدارين والمراد به الحث على الإكثار والانتظام فى سلك الآخرين ﴿من يقول﴾ أى فى ذكره (ربنا آتنا فى الدنيا) أى اجعل إيتاءنا ومنحتنا فى الدنيا خاصة ﴿وما له فى الآخرة من خلاق﴾ أى من حظ ونصيب لاقتصار همه على الدنيا فهو بيان لحاله فى الآخرة أو من طلب خلاق فهو بيان لحاله فى الدنيا وتأكيد لقصر دعائه على المطالب الدنيوية ﴿ ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ﴾ هى الصحة والكفاف والتوفيق للخير ﴿ وفى الآخرة حسنة ﴾ هى الثواب والرحمة ﴿وقنا عذاب النار ﴾ بالعفو والمغفرة وروى عن على رضى الله عنه أن الحسنة فى الدنيا المرأة الصالحة ، وفى الآخرة الحور وعذاب النار امرأة السوء وعن الحسن أن الحسنة فى الدنيا العلم والعبادة ، وفى الآخرة الجنة وقنا عذاب النار معناه احفظنا من الشهوات والذنوب المؤدية إلى النار ﴿أولئك﴾ إشارة إلى الفريق الثانى باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت الجميلة وما فيه من معنى البعد لما مر مرارا من الإشارة إلى علو درجتهم وبعد منزلتهم فى الفضل وقيل إليهما معا فالتنوين فى قوله تعالى ﴿ لهم نصيب مما كسبوا ﴾ على الأول للتفخيم وعلى الثانى للتنويع أى لكل نوع منهم نصيب من جنس ما كسبوا أو من أجله كقوله تعالى (مما خطيئاتهم أغرقوا) أو مما دعوا به نعطيهم منه ما قدرناه وتسمية الدعاء كسبا لما أنه من الأعمال ﴿ والله سريع الحساب ﴾ يحاسب العباد على كثرتهم وكثرة أعمالهم فى مقدار لمحة فاحذروا من الإخلال بطاعة من هذا شأن قدرته أو يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب الناس فبادروا

إلى الطاعوت اكتساب الحسنات ﴿ واذكروا الله ﴾ أى كبروه فى أعقاب الصلوات وعند ذبح القرابين ورمى الجمار وغيرها ﴿ فى أيام معدودات ﴾ هى أيام التشريق ﴿ فمن تعجل ﴾ أى استعجل فى النفر أو النفر فإن التفعل والاستفعال يجيئان لازمين ومتعديين يقال تعجل فى الأمر واستعجل فيه وتعجله واستعجله والأول أوفق للتأخر كما فى قوله :

قد يدرك المتأنى بعض حاجته   وقد يكون من المستعجل الزلل

﴿ فى يومين ﴾ أى فى تمام يومين بعد يوم النحر وهو القر ويوم الرؤس واليوم بعده ينفر إذا فرغ من رمى الجمار ﴿ فلا إثم عليه ﴾ بتعجله ﴿ ومن تأخر ﴾ فى النفر حتى رمى فى اليوم الثالث قبل الزوال أو بعده وعند الشافعى بعده فقط ﴿ فلا إثم عليه ﴾ بما صنع من التأخر والمراد التخيير بين التعجل والتأخر ولا يقدح فيه أفضلية الثانى وإنما ورد بنفى الإثم تصريحا بالرد على أهل الجاهلية حيث كانوا مختلفين فمن مؤثم للمتعجل ومؤثم للمتأخر ﴿ لمن اتقى ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أى الذى ذكر من التخيير ونفى الإثم عن المتعجل والمتأخر أو من الأحكام لمن اتقى لأنه الحاج على الحقيقة والمنتفع به أو لأجله حتى لا يتضرر بترك ما يهمه منهما ﴿ واتقوا الله ﴾ فى مجامع أموركم بفعل الواجبات وترك المحظورات ليعبأ بكم وتنتظموا فى سلك المغتنمين بالأحكام المذكورة والرخص أو احذروا الإخلال بما ذكر من الأحكام وهو الأنسب بقوله عز وجل ﴿ واعلموا أنكم إليه تحشرون ﴾ أى للجزاء على أعمالكم بعد الإحياء والبعث وأصل الحشر الجمع والضم المتفرق وهو تأكيد للأمر بالتقوى وموجب للامتثال به فإن من علم بالحشر والمحاسبة والجزاء كان ذلك من أقوى الدواعى إلى ملازمة التقوى ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله ﴾ تجريد للخطاب وتوجيه له إليه عليه الصلاة والسلام وهو كلام مبتدأ سيق لبيان تحزب الناس فى شأن التقوى إلى حزبين وتعيين مآل كل منهما ومن موصولة أو موصوفة وإعرابه كما بينا فى قوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر) أى ومنهم من يروقك كلامه ويعظم موقعه فى نفسك لما تشاهد فيه من ملاءمة الفحوى

ولطف الأداء والتعجب حيرة تعرض للإنسان بسبب عدم الشعور بسبب ما يتعجب منه ﴿ فى الحياة الدنيا ﴾ متعلق بقوله أى ما يقوله فى حق الحياة الدنيا ومعناها فإنها الذى يريده بما يدعيه من الإيمان ومحبة الرسول صلى الله عليه وسلم وفيه إشارة إلى أن له قولا آخر ليس بهذه الصفة أو بيعجبك أى يعجبك قوله فى الدنيا بحلاوته وفصاحته لا فى الآخرة لما أنه يظهر هناك كذبه وقبحه وقيل لما يرهقه من الحبسة واللكنة وأنت خبير بأنه لا مبالغة حينئذ فى سوء حاله فإن مآله بيان حسن كلامه فى الدنيا وقبحه فى الآخرة وقيل معنى فى الحياة الدنيا أى لا يصدر منه فيها إلا القول الحسن ﴿ ويشهد الله على ما فى قلبه ﴾ أى بحسب ادعائه حيث يقول الله يعلم أن ما فى قلبى موافق لما فى لسانى وهو عطف على يعجبك وقرىء ويشهد الله فالمراد بما فى قلبه ما فيه حقيقة ويؤيده قراءة ابن عباس رضى الله عنهما (والله يشهد على ما فى قلبه) على أن كلمة على لكون المشهود به مضراً له فالجملة اعتراضية وقرىء ويستشهد الله ﴿ وهو ألد الخصام ﴾ أى شديد العداوة والخصومة للمسلمين على أن الخصام مصدر وإضافة ألد إليه بمعنى فى كقولهم ثبت العذر أو أشد الخصوم لهم خصومة على أنه جمع خصم كصعب وصعاب قيل نزلت فى الأخنس بن شريق الثقفى وكان حسن المنظر حلو المنطق يوالى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدعى الإسلام والمحبة وقيل فى المنافقين والجملة حال من الضمير المجرور فى قوله أو من المستكن فى يشهد وعطف على ما قبلها على القراءتين المتوسطتين ﴿ وإذا تولى ﴾ أى من مجلسك وقيل إذا صار واليا ﴿ سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ﴾ كما فعله الأخنس بثقيف حيث بيتهم وأحرق زروعهم وأهلك مواشيهم أو كما يفعله ولاة السوء بالقتل والإتلاف أو بالظلم حتى يمنع الله تعالى بشؤمه القطر فيهلك الحرث والنسل وقرىء ويهلك الحرث والنسل على إسناد الهلاك إليهما عطفا على سعى وقرىء بفتح اللام وهى لغة وقرىء على البناء للمفعول من الإهلاك ﴿ والله لا يحب الفساد ﴾ أى لا يرتضيه بل يبغضه ويغضب على من يتعاطاه وهو اعتراض تذييلى .

﴿وإذا قيل له﴾ على نهج العظة والنصيحة ﴿اتق الله﴾ واترك ما تباشره من الفساد أو النفاق واحذر سوء مغبته ﴿أخذته العزة بالإثم﴾ أى حملته الأنفة وحمية الجاهلية على الإثم الذى نهى عنه لجاجا وعنادا من قولك أخذته بكذا إذا حملته عليه أو ألزمته إياه ﴿فحسبه جهنم﴾ مبتدأ وخبر أى كافيه جهنم وقيل جهنم فاعل لحسبه ساد مسد خبره وهو مصدر بمعنى الفاعل وقوى لاعتماده على الفاء الرابطة للجملة بما قبلها وقيل حسب اسم فعل ماض أى كفته جهنم ﴿ولبئس المهاد﴾ جواب قسم مقدر والمخصوص بالذم محذوف لظهوره وتعينه والمهاد الفراش وقيل ما يوطأ للجنب والجملة اعتراض ﴿ومن الناس من يشرى نفسه﴾ مبتدأ وخبر كما مر أى يبيعها ببذلها فى الجهاد ومشاق الطاعات وتعريضها للمهالك فى الحروب أو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وإن ترتب عليه القتل ﴿ابتغاء مرضات الله﴾ أى طلبا لرضاه وهذا كمال التقوى وإيراده قسيما للأول من حيث أن ذلك يأنف من الأمر بالتقوى وهذا يأمر بذلك وإن أدى إلى الهلاك وقيل نزلت فى صهيب بن سنان الرومى أخذه المشركون وعذبوه ليرتد فقال إنى شيخ كبير لا أنفعكم إن كنت معكم ولا أضركم إن كنت عليكم فخلونى وما أنا عليه وخذوا مالى فقبلوا منه ماله فأتى المدينة فيشرى حينئذ بمعنى يشترى لجريان الحال على صورة الشراء ﴿والله رؤف بالعباد﴾ ولذلك يكلفهم التقوى ويعرضهم للثواب والجملة اعتراض تذييلى ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم﴾ أى الاستسلام والطاعة وقيل الإسلام وقرىء بفتح السين وهو لغة فيه وبفتح اللام أيضا وقوله تعالى ﴿كافة﴾ حال من الضمير فى ادخلوا أو من السلم أو منهما معا فى قوله :

خرجت بها تمشى تجر وراءنا   على أثرنا ذيل مرط مرجل

وهى فى الأصل اسم الجماعة تكف مخالفها ثم استعملت فى معنى جميعا وتاؤها ليست للتأنيث حتى يحتاج إلى جعل السلم مؤنثا مثل الحرب كما فى قوله عز وجل (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) وفى قوله :

السلم تأخذ منها ما رضيت به   والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

وإنما هى للنقل كما فى عامة وخاصة وقاطبة والمعنى استسلموا لله تعالى وأطيعوه جملة ظاهرا وباطنا والخطاب للمنافقين أو ادخلوا فى الإسلام بكليته ولا تخلطوا به غيره والخطاب لمؤمنى أهل الكتاب فإنهم كانوا يراعون بعض أحكام دينهم القديم بعد إسلامهم أو فى شرائع الله تعالى كلها بالإيمان بالأنبياء عليهم السلام والكتب جميعاً والخطاب لأهل الكتاب كلهم ووصفهم بالإيمان إما على طريقة التغليب وإما بالنظر إلى إيمانهم القديم أو فى شعب الإسلام وأحكامه كلها فلا يخلوا بشىء منها والخطاب للمسلمين وإنما خوطب أهل الكتاب بعنوان الإيمان مع أنه لا يصح الإيمان إلا بما كلفوه الآن إيذانا بأن ما يدعونه لا يتم بدونه ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ بالتفرق والتفريق أو بمخالفة ما أمرتم به ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ ظاهر العداوة أو مظهر لها وهو تعليل للنهى أو الانتهاء ﴿فإن زللتم﴾ أى عن الدخول فى السلم. وقرىء بكسر اللام وهى لغة فيه ﴿من بعد ما جاءتكم﴾ الآيات ﴿البينات﴾ والحجج القطعية الدالة على حقيقته الموجبة للدخول فيه ﴿فاعلموا أن الله عزيز﴾ غالب على أمره لا يعجزه الانتقام منكم ﴿حكيم﴾ لا يترك ما تقتضيه الحكمة من مؤاخذة المجرمين المستعصين على أوامره ﴿هل ينظرون﴾ استفهام إنكارى فى معنى النفى أى ما ينتظرون بما يفعلون من العناد والمخالفة فى الامتثال بما أمروا به والانتهاء عما نهوا عنه ﴿إلا أن يأتيهم الله﴾ أى أمره وبأسه أو يأتيهم الله بأمره وبأسه فحذف المأتى به لدلالة الحال عليه والالتفات إلى الغيبة للإيذان بأن سوء صنيعهم موجب للإعراض عنهم وحكاية جناياتهم لمن عداهم من أهل الإنصاف على طريق المباثة وإيراد الانتظار للإشعار بأنهم لانهماكهم فيما هم فيه من موجبات العقوبة كأنهم طالبون لها مترقبون لوقوعها ﴿فى ظلل﴾ جمع ظلة كقلل جمع قلة وهى ما أظلك وقرىء بالجر عطفا على ظلل أو الغمام ﴿وقضى الأمر﴾ أى تم أمر إهلاكهم وفرغ منه وهو عطف على يأتيهم داخل فى حيز الانتظار وإنما عدل إلى صيغة الماضى دلالة على تحققه فكأنه قد كان أو جملة مستأنفة جىء بها إنباء عن وقوع مضمونها وقرىء وقضاء الأمر عطفا على الملائكة ﴿وإلى الله﴾ لا إلى غيره

﴿ ترجع الأمور ﴾ بالتأنيث على البناء للمفعول من الرجع وقرىء بالتذكير وعلى البناء للفاعل بالتأنيث من الرجوع .

﴿ سل بنى إسرائيل ﴾ الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد من أهل الخطاب والمراد بالسؤال تبكيتهم وتقريعهم بذلك وتقرير لمجىء البينات ﴿ كم آتيناهم من آية بينة ﴾ معجزة ظاهرة على أيدى الأنبياء عليهم السلام وآية ناطقة بحقية الإسلام المأمور بالدخول فيه وكم خبرية أو استفهامية مقررة ومحلها النصب على المفعولية أو الرفع بالابتداء على حذف العائد من الخبر وآية مميزها ﴿ ومن يبدل نعمة الله ﴾ التى هى آياته الباهرة فإنها سبب للهدى الذى هو أجل النعم وتبديلها جعلها سببا للضلالة وازدياد الرجس أو تحريفها وتأويلها الزائغ ﴿ من بعد ما جاءته ﴾ ووصلت إليه وتمكن من معرفتها والتصريح بذلك مع أن التبديل لا يتصور قبل المجىء للإشعار بأنهم قد بدلوها بعد ما وقفوا على على تفاصيلها كما فى قوله عز وجل (ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون) قيل تقديره فبدلوها ومن يبدل وإنما حذف للإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح به لظهوره ﴿ فإن الله شديد العقاب ﴾ تعليل للجواب كأنه قيل ومن يبدل نعمة الله يعاقبه أشد عقوبة فإنه شديد العقاب وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة ﴿ زين للذين كفروا الحياة الدنيا ﴾ أى حسنت فى أعينهم وأشربت محبتها فى قلوبهم حتى تهالكوا عليها وتهافتوا فيها معرضين عن غيرها والتزيين من حيث الخلق والإيجاد مستند إليه سبحانه كما يعرب عنه القراءة على البناء للفاعل إذ ما من شىء إلا وهو خالقه وكل من الشيطان والقوى الحيوانية وما فى الدنيا من الأمور البهية والأشياء الشهية مزين بالعرض ﴿ ويسخرون من الذين آمنوا ﴾ عطف على زين وإيثار صيغة الاستقبال للدلالة على استمرار السخرية منهم وهم فقراء المؤمنين كبلال وعمار وصهيب رضى الله عنهم كانوا يسترذلونهم ويستهزءون بهم على رفضهم الدنيا وإقبالهم على العقبى ومن ابتدائية فكأنهم جعلوا السخرية مبتدأة منهم .

﴿ والذين اتقوا ﴾ هم الذين آمنوا بعينهم وإنما ذكروا بعنوان التقوى للإيذان

بأن إعراضهم عن الدنيا للاتقاء عنها لكونها مخلة بتبتلهم إلى جناب القدس شاغلة عنه ﴿فوقهم يوم القيامة﴾ لأنهم فى أعلى عليين وهم فى أسفل سافلين أو لأنهم فى أوج الكرامة وهم فى حضيض الذل والمهانة أو لأنهم يتطاولون عليهم فى الآخرة فيسخرون منهم كما سخروا منهم فى الدنيا والجملة معطوفة على ما قبلها وإيثار الاسمية للدلالة على دوام مضمونها ﴿والله يرزق من يشاء﴾ أى فى الدارين ﴿بغير حساب﴾ بغير تقدير فيوسع فى الدنيا استدراجا تارة وابتلاء أخرى ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ متفقين على كلمة الحق ودين الإسلام وكان ذلك بين آدم وإدريس أو نوح عليهم السلام أو بعد الطوفان ﴿فبعث الله النبيين﴾ أى فاختلفوا فبعث إلخ وهى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه وقد حذف تعويلا على ما يذكر عقيبه ﴿مبشرين ومنذرين﴾ عن كعب الذى علمته من عدد الأنبياء عليهم السلام مائة وأربعة وعشرون ألفا والمرسل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر والمذكور فى القرآن ثمانية وعشرون وقيل كان الناس أمة واحدة متفقة على الكفر والضلال فى فترة إدريس أو نوح فبعث الله النبيين فاختلفوا عليهم والأول هو الأنسب بالنظم الكريم ﴿وأنزل معهم الكتاب﴾ أى جنس الكتاب أو مع كل واحد منهم ممن له كتاب كتابه الخاص به لا مع كل واحد منهم على الإطلاق إذ لم يكن لبعضهم كتاب وإنما كانوا يأخذون بكتب من قبلهم وعموم النبيين لا ينافى خصوص الضمير العائد إليه بمعونة المقام ﴿بالحق﴾ حال من الكتاب أى ملتبسا بالحق أو متعلق بأنزل كقوله عز وعلا (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) ﴿ليحكم﴾ أى الكتاب أو الله سبحانه وتعالى أو كل واحد من النبيين ﴿بين الناس﴾ أى المذكورين والإظهار فى موضع الإضمار لزيادة التعيين ﴿فيما اختلفوا فيه﴾ أى فى الحق الذى اختلفوا فيه أو فيما التبس عليهم ،

﴿وما اختلف فيه﴾ أى فى الحق أو فى الكتاب المنزل ملتبسا به والواو حالية ﴿إلا الذين أوتوه﴾ أى الكتاب المنزل لإزالة الاختلاف وإزاحة الشقاق والتعبير عن الإنزال بالإيتاء للتنبيه من أول الأمر على كمال تمكنهم

من الوقوف على ما فى تضاعيفه من الحق فإن الإنزال لايفيد تلك الفائدة أى عكسوا الأمر حيث جعلوا ما أنزل لإزالة الاختلاف سببا لاستحكامه ورسوخه ﴿ من بعد ما جاءتهم البينات ﴾ أى رسخت فى عقولهم ومن متعلقة بمحذوف يدل عليه الكلام أى فاختلفوا وما اختلف فيه إلخ وقيل بالملفوظ بناء على عدم منع إلا عنه كما فى قولك ما قام إلا زيد يوم الجمعة ﴿ بغيا بينهم ﴾ متعلق بما تعلقت به من أى اختلفوا بغيا وتهالكا على الدنيا ﴿ فهدى الله الذين آمنوا ﴾ بالكتاب ﴿ لما اختلفوا فيه ﴾ أى للحق الذى اختلف فيه من اختلف ﴿ من الحق ﴾ بيان لما وفى إبهامه أولا وتفسيره ثانيا ما لا يخفى من التفخيم ﴿ بإذنه ﴾ بأمره أو بتيسيره ولطفه ﴿ والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ موصل إلى الحق وهو اعتراض مقرر لمضمون ما سبق .

﴿ أم حسبتم ﴾ خوطب به رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين حثا لهم على الثبات على المصابرة على مخالفة الكفرة وتحمل المشاق من جهتهم إثر بيان اختلاف الأمم على الأنبياء عليهم السلام وقد بين فيه مآل اختلافهم وما لقى الأنبياء ومن معهم من قبلهم من مكابدة الشدائد ومقاساة الهموم وأن عاقبة أمرهم النصر وأم منقطعة والهمزة فيها للإنكار والاستبعاد أى بل أحسبتم ﴿ أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ﴾ من الأنبياء ومن معهم من المؤمنين أى والحال أنه لم يأتكم مثلهم بعد ولم تبتلوا بما ابتلوا به من الأحوال الهائلة التى هى مثل فى الفظاعة والشدة وهو متوقع ومنتظر ﴿ مستهم ﴾ استئناف وقع جوابا عما ينساق إليه الذهن كأنه قيل وكيف كان مثلهم فقيل مستهم ﴿ البأساء ﴾ أى الشدة من الخوف والفاقة ﴿ والضراء ﴾ أى الآلام والأمراض (وزلزلوا) أى أزعجوا إزعاجا شديدا بما دهمهم من الأهوال والأفزاع ﴿ حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه ﴾ أى انتهى أمرهم من الشدة إلا حيث اضطرهم الضجر إلى أن يقول الرسول وهو أعلم الناس بشئون الله تعالى وأوثقهم بنصره والمؤمنون المقتدون بآثاره المستضيئون بأنواره ﴿ متى ﴾ أى متى يأتى ﴿ نصر الله ﴾ طلبا وتمنيا له

واستطالة لمدة الشدة والعناء وقرىء حتى يقول بالرفع على أنه حكاية حال ماضية وهذا كما ترى غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائية كيف لا والرسل مع علو كعبهم فى الثبات والاصطبار حيث عيل صبرهم وبلغوا هذا المبلغ من الضجر والضجيج علم أن الأمر بلغ إلى غاية لا مطمح وراءها ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾ على تقدير القول أى فقيل لهم حينئذ ذلك إسعافا لمرامهم والمراد بالقرب القرب الزمانى وفى إيثار الجملة الاسمية على الفعلية المناسبة لما قبلها وتصديرها بحرف التنبيه والتأكيد من الدلالة على تحقيق مضمونها(١) ما لا يخفى واختيار حكاية الوعد بالنصر لما أنها فى حكم إنشاء الوعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم والاقتصار على حكايتها دون حكاية نفس النصر مع تحققه للإيذان بعدم الحاجة إلى ذلك لاستحالة الخلف ويجوز أن يكون هذا واردا من جهته تعالى عند الحكاية على نهج الاعتراض لا واردا عند وقوع المحكى وفيه رمز إلى أن الوصول إلى جناب القدس لا يتسنى إلا برفض اللذات ومكابدة المشاق كما ينبىء عنه قوله عليه السلام حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات .

﴿يسألونك ماذا ينفقون﴾ أى من أصناف أموالهم ﴿قل ما أنفقتم من خير﴾ . إما شرطية وإما موصولة حذف العائد إليها أى ما أنفقتموه من خير أى من خير كان ففيه تجويز الإنفاق من جميع أنواع الأموال وبيان لما فى السؤال إلا أنه جعل من جملة ما فى حيز الشرط أو الصلة وأبرز فى معرض بيان المصرف حيث قيل ﴿فللوالدين والأقربين﴾ للإيذان بأن الأهم بيان المصارف المعدودة لأن الاعتداد بالإنفاق بحسب وقوعه فى موقعه وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه جاء عمرو بن الجموح وهو شيخ هم له مال عظيم فقال يارسول الله ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها فنزلت ﴿واليتامى﴾ أى المحتاجين منهم ﴿والمساكين وابن السبيل﴾ ولم يتعرض للسائلين والرقاب إما اكتفاء بما ذكر

---

(١) فى ١١ : وتقريره .

فى المواقع الأخر وإما بناء على دخولهم تحت عموم قوله تعالى ﴿ وما تفعلوا من خير ﴾ فإنه شامل لكل خير واقع فى أى مصرف كان ﴿ فإن الله به عليم ﴾ فيوفى ثوابه وليس فى الآية ما ينافيه فرض الزكاة لينسخ به كما نقل عن السدى ﴿ كتب عليكم القتال ﴾ ببناء الفعل للمفعول ورفع القتال أى قتال الكفرة وقرىء ببنائه للفاعل وهو الله عز وجل ونصب القتال وقرىء وكتب عليكم القتل أى قتل الكفرة والواو فى قوله تعالى ﴿ وهو كره لكم ﴾ حالية أى والحال أنه مكروه لكم طبعاً على أن الكره مصدر وصف به المفعول مبالغة أو بمعنى المفعول كالخبز بمعنى المخبوز وقرىء بالفتح على أنه بمعنى المضموم كالضعف والضعف أو على أنه بمعنى الإكراه مجازا كأنهم أكرهوا عليه لشدة كراهتهم له ومشقته عليهم ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ﴾ وهو جميع ما كلفوه من الأمور الشاقة التى من جملتها القتال فإن النفوس تكرهه وتنفر عنه والجملة اعتراضية دالة على أن فى القتال خيراً لهم ﴿ وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ﴾ وهو جميع ما نهوا عنه من الأمور المستلذة وهو معطوف على ما قبله لامحل لها من الإعراب ﴿ والله يعلم ﴾ ما هو خير لكم فلذلك أمركم به(١) ﴿ وأنتم لاتعلمون ﴾ أى لاتعلمونه ولذلك تكرهونه أو والله يعلم ما هو خير وشر لكم وأنتم لا تعلمونهما فلا تتبعوا فى ذلك رأيكم وامتثلوا بأمره تعالى .

﴿ يسألونك عن الشهر الحرام ﴾ روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عبد الله بن جحش على سرية فى جمادى الآخرة قبل قتال بدر بشهرين ليترصدوا عيراً لقريش فيهم عمرو بن عبد الله الحضرمى وثلاثة معه فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير بما فيها من تجارة الطائف وكان ذلك أول يوم من رجب وهم يظنونه من جمادى الآخرة فقالت قريش قد استحل محمد الشهر الحرام شهرا يأمن فيه الخائف ويبذعر فيه الناس إلى معايشهم فوقف رسول

---

(١) فى ط : يأمركم .

الله صلى الله عليه وسلم العير وعظم ذلك على أصحاب السرية وقالوا ما نبرح حتى تنزل توبتنا ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم العير والأسارى وعن ابن عباس رضى الله عنهما لما نزلت أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنيمة ، والمعنى يسألك الكفار أو المسلمون عن القتال فى الشهر الحرام على أن قوله عز وجل ﴿ قتال فيه ﴾ بدل اشتمال من الشهر وتنكيره لما أن سؤالهم كان عن مطلق القتال الواقع فى الشهر الحرام لا عن القتال المعهود ولذلك لم يقل يسألونك عن القتال فى الشهر الحرام وقرىء عن قتال فيه ﴿ قل ﴾ فى جوابهم ﴿ قتال فيه كبير ﴾ جملة من مبتدأ وخبر محلها النصب بقل وإنما جاز وقوع قتال مبتدأ مع كونه نكرة لتخصصه إما بالوصف إن تعلق الظرف بمحذوف وقع صفة له أى قتال كائن فيه وإما بالعمل إن تعلق به وإنما أوثر التنكير احترازا عن توهم التعيين وإيذانا بأن المراد مطلق القتال الواقع فيه أى قتال كان عن عطاء أنه سئل عن القتال فى الشهر الحرام فحلف بالله ما يحل للناس أن يغزوا فى الحرم ولا فى الشهر الحرام إلا أن يقاتلوا فيه وما نسخت وأكثر الأقاويل أنها منسوخة بقوله تعالى (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) ﴿ وصد عن سبيل الله ﴾ مبتدأ قد تخصص بالعمل فيما بعده أى ومنع عن الإسلام الموصل للعبد إلى الله تعالى ﴿ وكفر به ﴾ عطف على صد عامل فيما بعده مثله أى وكفر بالله تعالى وحيث كان الصد عن سبيل الله فردا من أفراد الكفر به تعالى لم يقدح العطف المذكور فى حسن عطف قوله تعالى ﴿ والمسجد الحرام ﴾ على سبيل الله لأنه ليس بأجنبى محض وقيل هو أيضا معطوف على صد بتقدير المضاف أى وصد المسجد الحرام ﴿ وإخراج أهله ﴾ وهو النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ﴿ منه ﴾ أى من المسجد الحرام وهو عطف على وكفر به .

﴿ أكبر عند الله ﴾ خبر للأشياء المعدودة أى كبائر السائلين أكبر عند الله مما عنوا بالسؤال عنه وهو ما فعلته السرية خطأ وبناء على الظن وأفعل يستوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ﴿ والفتنة ﴾ أى ما ارتكبوه من

الإخراج والشرك وصد الناس عن الإسلام ابتداء وبقاء ﴿ أكبر من القتل ﴾ أى أفظع من قتل الحضرمى .

﴿ ولا يزالون يقاتلونكم ﴾ بيان لاستحكام عداوتهم وإصرارهم على الفتنة فى الدين ﴿ حتى يردوكم عن دينكم ﴾ الحق إلى دينهم الباطل وإضافة الدين إليهم لتذكير تأكد ما بينهما من العلاقة الموجبة لامتناع الافتراق ﴿ إن استطاعوا ﴾ إشارة إلى تصلبهم فى الدين وثبات قدمهم فيه كأنه قيل وأنى لهم ذلك ﴿ ومن يرتدد منكم عن دينه ﴾ تحذير من الارتداد أى ومن يفعل ذلك بإضلالهم وإغوائهم ﴿ فيمت وهو كافر ﴾ بأن لم يرجع إلى الإسلام وفيه ترغيب فى الرجوع إلى الإسلام بعد الارتداد ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة من الارتداد والموت عليه وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد منزلتهم فى الشر والفساد والجمع للنظر إلى المعنى أى أولئك المصرون على الارتداد إلى حين الموت ﴿ حبطت أعمالهم ﴾ الحسنة التى كانوا عملوها فى حالة الإسلام حبوطا لا تلافى له قطعا ﴿ فى الدنيا والآخرة ﴾ بحيث لم يبق لها حكم من الأحكام الدنيوية والأخروية ﴿ وأولئك ﴾ الموصوفون بما ذكر سابقا ولاحقا من القبائح ﴿ أصحاب النار ﴾ أى ملابسوها وملازموها ﴿ هم فيها خالدون ﴾ كدأب سائر الكفرة ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ نزلت فى أصحاب السرية لما ظن بهم أنهم إن سلموا من الإثم فلا أجر لهم ﴿ والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله ﴾ كرر الموصول مع أن المراد بهما واحد لتفخيم شأن الهجرة والجهاد فكأنهما مستقلان فى تحقيق الرجاء ﴿ أولئك ﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة ﴿ يرجون ﴾ بما لهم من مبادىء الفوز ﴿ رحمة الله ﴾ أى ثوابه أثبت لهم الرجاء دون الفوز بالمرجو للإيذان بأنهم عالمون بأن العمل غير موجب للأجر وإنما هو على طريق التفضل منه سبحانه لا لأن فى فوزهم اشتباها ﴿ والله غفور ﴾ مبالغ فى مغفرة ما فرط من عباده خطأ ﴿ رحيم ﴾ يجزل لهم الأجر والثواب والجملة اعتراض محقق لمضمون ما قبلها .

﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ﴾ تواردت فى شأن الخمر أربع آيات نزلت

بمكة (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا) فطفق المسلمون يشربونها ثم إن عمر ومعاذا ونفرا من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين قالوا أفتنا يا رسول الله فى الخمر فإنها مذهبة للعقل فنزلت هذه الآية فشربها قوم وتركها آخرون ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناسا منهم فشربوا فسكروا فأما أحدهم فقرأ (قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون) فنزلت (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) الآية فقل من يشربها ثم دعا عتبان بن مالك سعد بن أبى وقاص فى نفر فلما سكروا تفاخروا وتناشدوا حتى أنشد سعد شعرا فيه هجاء للأنصار فضربه أنصارى بلحى بعير فشجه شجة موضحة فشكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا فنزلت (إنما الخمر والميسر) إلى قوله تعالى (فهل أنتم منتهون) فقال عمر رضى الله عنه انتهينا يارب وعن على رضى الله عنه لو وقعت قطرة منها فى بئر فبنيت فى مكانها منارة لم أوذن عليها ولو وقعت فى بحر ثم جف فنبت فيه الكلأ لم أرعه وعن ابن عمر رضى الله عنهما لو أدخلت أصبعى فيها لم تتبعنى وهذا هو الإيمان والتقى حقا رضوان الله تعالى عليهم أجمعين . والخمر مصدر خمره أى ستره سمى به من عصير العنب على ما غلى واشتد وقذف بالزبد لتغطيتها العقل والتمييز كأنها نفس الستر كما سميت سكرا لأنها تسكرهما أى تحجزهما والميسر مصدر ميمى من يسر كالموعد والمرجع يقال يسرته إذا قمرته واشتقاقه إما من اليسر لأنه أخذ المال بيسر من غير كد ولا(١) تعب وإما من اليسار لأنه سلب له وصفته أنه كانت لهم عشرة قداح هى الأزلام والأقلام : الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلى والمنيح والسفيح والوغد لكل منها نصيب معلوم من جزور ينحرونها ويجزئونها عشرة أجزاء وقيل ثمانية وعشرين إلا الثلاثة وهى المنيح والسفيح والوغد للفذ سهم وللتوأم سهمان وللرقيب ثلاثة وللحلس أربعة وللنافس خمسة وللمسبل ستة وللمعلى سبعة يجعلونها فى الربابة وهى خريطة ويضعونها على يدى عدل

---

(١) سقطت من ط .

ثم يجلجلها ويدخل يده فيخرج باسم رجل رجل قدحا قدحا فمن خرج له قدح من ذوات الأنصباء أخذ النصيب المعين لها ومن خرج له من تلك الثلاثة غرم ثمن الجزور مع حرمانه وكانوا يبيعون تلك الأنصباء إلى الفقراء ولا يأكلون منها ويفتخرون بذلك ويذمون من لا يدخل فيه ويسمونه البرم وفى حكمه جميع أنواع القمار من النرد والشطرنج وغيرهما وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «إياكم وهاتين اللعبتين المشئومتين» فإنهما مياسر العجم وعن على كرم الله وجهه أن النرد والشطرنج من الميسر وعن ابن سيرين كل شىء فيه خطر فهو من الميسر . والمعنى يسألونك عن حكمهما وعما فى تعاطيهما .

﴿قل فيهما إثم كبير﴾ أى فى تعاطيهما ذلك لما أن الأول مسلبة للعقول التى هى قطب الدين والدنيا مع كون كل منهما متلفة للأموال ﴿ومنافع للناس﴾ من كسب الطرب واللذة ومصاحبة الفتيان وتشجيع الجبان وتقوية الطبيعة وقرىء إثم كثير بالمثلثة وفى تقديم بيان إثمه ووصفه بالكبير وتأخير ذكر منافعه مع تخصيصها بالناس من الدلالة على غلبة الأول ما لا يخفى على ما نطق به قوله تعالى ﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ أى المفاسد المترتبة على تعاطيهما أعظم من الفوائد المترتبة عليه وقرىء أقرب من نفعهما .

﴿ويسألونك ماذا ينفقون﴾ عطف على يسألونك عن الخمر إلخ عطف القصة على القصة أى أى شىء ينفقونه قيل هو عمرو بن الجموح أيضا سأل أولا من أى جنس ينفق من أجناس الأموال فلما بين جواز الإنفاق من جميع الأجناس سأل ثانيا من أى أصنافها ننفق أمن خيارها أم من غيرها أو سأل عن مقدار ما ينفقه منه فقيل ﴿قل العفو﴾ بالنصب أى ينفقون العفو أو أنفقوا العفو وقرىء بالرفع على أن ما استفهامية وذا موصولة صلتها ينفقون أى الذى ينفقونه العفو قال الواحدى أصل العفو فى اللغة الزيادة وقال القفال العفو ما سهل وتيسر مما فضل من الكفاية وهو قول قتادة وعطاء والسدى وكانت الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين يكسبون المال ويمسكون قدر النفقة ويتصدقون بالفضل

وروى أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم ببيضة من ذهب أصابها فى بعض المغانم فقال خذها منى صدقة فأعرض عنه فكرر ذلك مرارا حتى قال عليه السلام مغضبا هاتها فأخذها فخذفها عليه حذفا لو أصابته لشجته ثم قال : « يأتى أحدكم بماله كله يتصدق به ويجلس يتكفف الناس إنما الصدقة عن ظهر غنى » ﴿ كذلك ﴾ إشارة إلى مصدر الفعل الآتى وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجة المشار إليه فى الفضل مع كمال تميزه وانتظامه بسبب ذلك فى سلك الأمور المشاهدة والكاف لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة وإفراد حرف الخطاب مع تعدد المخاطبين باعتبار القبيل أو الفريق أو لعدم القصد إلى تعيين المخاطب كما مر ومحله النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى مثل ذلك البيان الواضح الذى هو عبارة عما مضى فى أجوبة الأسئلة المارة ﴿ يبينُ أى لكم الآيات ﴾ الدالة على الأحكام الشرعية المذكورة لا بيانا أدنى منه وقد مر تمام تحقيقه فى قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) وتبين الآيات تنزيلها ظاهرة[1] الفحوى واضحة المدلول لا أنه تعالى يبينها بعد أن كانت مشتبهة ملتبسة وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة ﴿ لعلكم تتفكرون ﴾ لكى تتفكروا فيها وتقفوا على مقاصدها وتعملوا بما فى تضاعيفها وقوله تعالى ﴿ فى الدنيا والآخرة ﴾ متعلق إما بيبين أى يبين لكم فيما يتعلق بالدنيا والآخرة الآيات وإما بمحذوف وقع حالا من الآيات أى يبينها لكم كائنة فيهما أى مبينة لأحوالكم المتعلقة بهما وإنما قدم عليه التعليل بمزيد الاعتناء بشأن التفكر وإما بقوله تعالى تتفكرون أى تتفكرون فى الأمور المتعلقة بالدنيا والآخرة فى الأحكام الواردة فى أجوبة الأسئلة المارة فتختارون منها ما يصلح لكم فيهما وتجتنبون عن غيره وهذا التخصيص هو المناسب لمقام تعداد الأحكام الجزئية ويجوز التعميم لجميع الأمور المتعلقة بالدنيا والآخرة بذلك حينئذ إشارة إلى ما مر من البيانات كلا أو بعضا لا إلى مصدر

---

(١) فى ط : مبينة.

ما بعده فإنه حينئذ فعل مستقل ليس بعبارة عن تلك البيانات والمراد بالآيات غير ما ذكر والمعنى مثل ذلك البيان الوارد فى الأجوبة المذكورة يبين الله لكم الآيات والدلائل لعلكم تتفكرون فى أموركم المتعلقة بالدنيا والآخرة وتأخذون بما يصلح لكم وينفعكم فيهما وتذرون ما يضركم حسبما تقتضيه تلك الآيات المبينة .

﴿ ويسألونك عن اليتامى ﴾ عطف على ما قبله من نظيره روى أنه لما نزلت إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً الآية تحامى الناس عن مخالطة اليتامى وتعهد أموالهم فشق عليهم ذلك فذكروه للنبى صلى الله عليه وسلم فنزلت ﴿ قل إصلاح لهم خير ﴾ أى التعرض لأحوالهم وأموالهم على طريق الإصلاح خير من مجانبتهم اتقاء .

﴿ وإن تخالطوهم ﴾ وتعاشروهم على وجه ينفعهم ﴿ فإخوانكم ﴾ أى فهم إخوانكم أى فى الدين الذى هو أقوى من العلاقة النسبية ومن حقوق الأخوة ومواجبها المخالطة بالإصلاح والنفع وقد حمل المخالطة على المصاهرة ﴿ والله يعلم المفسد من المصلح ﴾ العلم بمعنى المعرفة المتعدية إلى واحد ومن لتضمينه معنى التمييز أى يعلم من يفسد فى أمورهم عند المخالطة أو من يقصد بمخالطته الخيانة والإفساد مميزاً له ممن يصلح فيها أو يقصد الإصلاح فيجازى كلاً منهما بعمله ففيه وعد ووعيد خلا أن فى تقديم المفسد مزيد تهديد وتأكيد للوعيد ﴿ ولو شاء الله لأعنتكم ﴾ أى لو شاء أن يعنتكم أو يكلفكم ما يشق عليكم من العنت وهو المشقة لفعل ولم يجوز لكم مداخلتهم ﴿ إن الله عزيز ﴾ غالب على أمره لا يعز عليه أمر من الأمور التى من جملتها إعناتكم فهو تعليل لمضمون الشرطية وقوله عز وجل ﴿ حكيم ﴾ أى فاعل لأفعاله حسبما تقتضيه الحكمة الداعية إلى بناء التكليف على أساس الطاقة دليل على ما تفيده كلمة « لو » من انتفاء مقدمها .

﴿ولا تنكحوا المشركات﴾ أى لا تتزوجوهن وقرىء بضم التاء من الإنكاح أى لا تزوجوهن من المسلمين ﴿حتى يؤمن﴾ والمراد بهن إما ما يعم الكتابيات أيضا حسبما يقتضيه عموم التعليلين الآتيين لقوله تعالى (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله) إلى قوله (سبحانه عما يشركون) فالآية منسوخة بقوله تعالى ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ وأما غير الكتابيات فهى ثابتة وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث مرثد بن أبى مرثد الغنوى إلى مكة ليخرج منها ناسا من المسلمين وكان يهوى امرأة فى الجاهلية اسمها عناق فأتته فقالت ألا تخلو فقال ويحك إن الإسلام حال بيننا فقالت هل لك أن تتزوج بى قال نعم ولكن أرجع إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأستأمره فاستأمره فنزلت ﴿ولأمة مؤمنة﴾ تعليل للنهى عن مواصلتهن وترغيب فى مواصلة المؤمنات صدر بلام الابتداء الشبيهة بلام القسم فى إفادة التأكيد مبالغة فى الحمل على الانزجار وأصل أمة أمو حذفت لامها على غير قياس وعوض منه تاء التأنيث ودليل كون لامها واوا رجوعها فى الجمع قال الكلابى

أما الإماء فلا يدعوننى ولدا   إذا تداعى بنو الأموات بالعار

وظهورها فى المصدر يقال هى أمة بينة الأموة وأقرت له بالأموة وقد وقعت مبتدأ لما فيها من لام الابتداء والوصف أى ولأمة مؤمنة مع ما بها من خساسة الرق وقلة الخطر ﴿خير﴾ بحسب الدين والدنيا ﴿من مشركة﴾ أى امرأة مشركة مع مالها من شرف الحرية ورفعة الشان ﴿ولو أعجبتكم﴾ قد مر أن كلمة لو فى أمثال هذه المواقع ليست لبيان انتفاء الشىء فى الماضى لانتفاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قد حذف ثقة بدلالة ما قبلها عليه مع انصباب المعنى على تقديره بل هى لبيان تحقيق ما يفيده الكلام السابق من الحكم على كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له على الإجمال بإدخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة له ليظهر بثبوته معه ثبوته مع ما عداه من الأحوال بطريق الأولوية لما أن الشىء متى تحقق مع المنافى القوى فلأن يتحقق مع غيره أولى ولذلك لا يذكر معه شىء من سائر الأحوال ويكتفى عنه بذكر الواو العاطفة

للجملة على نظيرتها المقابلة لها المتناولة لجميع الأحوال المغايرة لها وهذا معنى قولهم إنها لاستقصاء الأحوال على وجه الإجمال كأنه قيل لو لم تعجبكم ولو أعجبتكم والجملة فى حيز النصب على الحالية من مشركة إذ المـآل ولأمة مؤمنة خير من امرأة مشركة حال عدم إعجابها إياكم بجمالها ومالها ونسبها وغير⁽¹⁾ ذلك من مبادىء الإعجاب وموجبات الرغبة فيها أى على كل حال وقد اقتصر على ذكر ما هو أشد منافاة للخيرية تنبيها على أنها حيث تحققت معه فلأن تتحقق مع غيره أولى وقيل الواو حالية وليس بواضح وقيل اعتراضية وليس بسديد والحق أنها عاطفة مستتبعة لمـا ذكر من الاعتبار اللطيف . نعم يجوز أن تكون الجملة الأولى مع عاطف عليها مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها فتدبر .

﴿ ولا تنكحوا المشركين ﴾ من الإنكاح والمراد بهم الكفار على الإطلاق لمـا مرأى لاتزوجوا منهم المؤمنات سواء كن حرائر أو إماء ﴿ حتى يؤمنوا ﴾ ويتركوا ماهم فيه من الكفر ﴿ ولعبد مؤمن ﴾ مع ما به من ذل المملوكية ﴿ خير مشرك ﴾ مع ماله من عز المالكية ﴿ ولو أعجبكم ﴾ بما فيه من دواعى الرغبة فيه الراجعة إلى ذاته وصفاته ﴿ أولئك ﴾ استئناف مقرر لمضمون التعليلين السـارين أى أولئك المذكورون من المشركات والمشركين ﴿ يدعون ﴾ من يقارنهم ويعاشرهم ﴿ إلى النار ﴾ أى إلى ما يؤدى إليها من الكفر والفسوق فلا بد من الاجتناب عن مقارنتهم ومقاربتهم ﴿ والله يدعو ﴾ بواسطة عباده المؤمنين من يقارنهم ﴿ إلى الجنة والمغفرة ﴾ أى إلى الاعتقاد الحق والعمل الصالح الموصلين إليهما وتقديم الجنة على المغفرة مع أن حق التخلية أن تقدم على التحلية لرعاية مقابلة النار ابتداء ﴿ بإذنه ﴾ متعلق بيدعو أى يدعو ملتبسا بتوفيقه الذى من جملته إرشاد المؤمنين لمقارنيهم إلى الخير ونصيحتهم إياى فهم أحقاء بالمواصلة ﴿ ويبين آياته ﴾ المشتملة على الأحكام الفائقة والحكم الرائقة ﴿ للناس لعلهم يتذكرون ﴾ أى لكى يتذكروا ويعملوا بما فيها فيفوز بما دعوا إليه من الجنة والغفران. هذا وقد قيل معنى والله يدعو وأولياء الله يدعون ولا

---

(١) فى ط : وبغير

بما فيها فيفوز بما دعوا إليه من الجنة والغفران. هذا وقد قيل معنى والله يدعو وأولياء الله يدعون وهم المؤمنون على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه تشريفا لهم وأنت خبير بأن الضمير فى المعطوف على الخبر أعنى قوله تعالى ويبين الله تعالى فيلزم التفكيك وقيل معناه وأى يدعو بأحكامه المذكورة إلى الجنة والمغفرة فإنها موصلة لمن عمل بها إليهما وهذا وإن كان مستدعيا لاتحاد مرجع الضميرين الكائنين فى الجملتين المتعاطفتين الواقعتين خبرا للمبتدأ لكن يفوت حينئذ حسن المقابلة بينه وبين قوله تعالى (أولئك يدعون إلى النار) ولعل الطريق الأسلم ما أوضحناه أولا وإيراد التذكر ههنا للإشعار بأنه واضح لا يحتاج إلى التفكر كما فى الأحكام السابقة .

﴿ ويسألونك عن المحيض ﴾ عطف على ما تقدم من مثله ولعل حكاية هذه الأسئلة الثلاثة بالعطف لوقوع الكل عند السؤال عن الخمر وحكاية ما عداها بغير عطف لوقوع كل من ذلك فى وقت على حدة والمحيض مصدر من حاضت المرأة كالمجىء والمبيت . روى أن أهل الجاهلية كانوا لا يساكنون الحيض ولا يؤاكلونهن كدأب اليهود والمجوس واستمر الناس على ذلك إلى أن سأل عن ذلك أبو الدحداح فى نفر من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فنزلت ﴿ قل هو أذى ﴾ أى شىء يستقذر منه ويؤذى من يقربه نفرة منه وكراهة له ﴿ فاعتزلوا النساء فى المحيض ﴾ أى فاجتنبوا مجامعتهن فى حالة المحيض. قيل أخذ المسلمون بظاهر الاعتزال فأخرجوهن من بيوتهم فقال ناس من الأعراب يا رسول الله البرد شديد والثياب قليلة فإن آثرناهن هلك سائر أهل البيت وإن استأثرنا بها هلكت الحيض فقال صلى الله عليه وسلم « إنما أمرتم أن تعتزلوا مجامعتهن إذا حضن ولم يأمركم بإخراجهن من البيوت كفعل الأعاجم » وقيل إن النصارى كانوا يجامعونهن ولا يبالون بالحيض واليهود كانوا يفرطون فى الاعتزال فأمر المسلمون بالاقتصاد بين الأمرين ﴿ ولا تقربوهن حتى يطهرن ﴾ تأكيد لحكم الاعتزال وتنبيه على أن المراد به عدم قربانهن لا عدم القرب منهن وبيان لغايته وهو انقطاع الدم عند أبى حنيفة رحمه الله فإن كان ذلك

فى أكثر المدة حل القربان كما انقطع وإلا فلا بد من الاغتسال أو من مضى وقت صلاة وعند الشافعى رحمه الله أن يغتسلن بعد الانقطاع كما تفصح عنه القراءة بالتشديد وينبىء عنه قوله عز وجل ﴿ فإذا تطهرن ﴾ فإن التطهر هو الاغتسال ﴿ فأتوهن من حيث أمركم الله ﴾ من المأتى الذى حلله لكم وهو القبل ﴿ إن الله يحب التوابين ﴾ مما عسى يبدر(١) منهم من ارتكاب بعض ما نهوا عنه ومن سائر الذنوب ﴿ ويحب المتطهرين ﴾ المتنزهين عن الفواحش والأقذار وفى ذكر التوبة إشعار بمساس الحاجة إليها بارتكاب بعض الناس لما نهوا عنه وتكرير الفعل لمزيد العناية بأمر التطهر .

﴿ نساؤكم حرث لكم ﴾ أى مواضع حرث لكم شبهن بها لما بين ما يلقى فى أرحامهن وبين البذور من المشابهة من حيث أن كلا منهما مادة لما يحصل منه ﴿ فأتوا حرثكم ﴾ لما عبر عنهن بالحرث عبر عن مجامعتهن بالإتيان وهو بيان لقوله تعالى (فأتوهن من حيث أمركم الله) ﴿ أنى شئتم ﴾ من أى جهة شئتم . روى أن اليهود كانوا يزعمون أن من أتى امرأته فى قبلها من دبرها يأتى ولده أحول فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت ﴿ وقدموا لأنفسكم ﴾ أى ما يدخر لكم من الثواب وقيل هو طلب الولد وقيل هو التسمية عند المباشرة ﴿ واتقوا الله ﴾ بالاجتناب عن معاصيه التى من جملتها ما عد من الأمور ﴿ واعلموا أنكم ملاقوه ﴾ فتعرضوا لتحصيل ما تنتفعون به حينئذ واجتنبوا اقتراف ما تفتضحون به ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ الذين تلقوا ما خوطبوا به من الأوامر والنواهى بحسب القبول والامتثال بما يقصر عنه البيان من الكرامة والنعيم المقيم أو بكل ما يبشر به من الأمور التى تسر بها القلوب وتقر بها العيون وفيه مع ما فى تلوين الخطاب وجعل المبشر رسول الله صلى الله عليه وسلم من المبالغة فى تشريف المؤمنين ما لا يخفى ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم ﴾ قيل نزلت فى عبد الله بن رواحة حين حلف أن لا يكلم ختنه بشر بن النعمان ولا يصلح بينه وبين أخته وقيل فى الصديق رضى الله عنه حين

---

(١) فى ط : يندر

حلف أن لا ينفق على مسطح لخوضه فى حديث الإفك والعرضة فعلة بمعنى مفعول كالقبضة والغرفة تطلق على ما يعرض دون الشىء فيصير حاجزا عنه كما يقال فلان عرضة للخير وعلى المعرض للأمر كما فى قوله :

* فلا تجعلونى عرضة للوائم *

فالمعنى على الوجه الأول لا تجعلوا الله مانعا من الأمور(١) الحسنة التى تحلفون على تركها وعبر عنها بالإيمان لملابستها بها كما فى قوله عليه السلام لعبد الله بن سمرة « إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فأت الذى هو خير وكفر عن يمينك » وقوله تعالى : ﴿ أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس ﴾ عطف بيان لأيمانكم أو بدل منها لما عرفت أنها عبارة عن الأمور المحلوف عليها واللام فى لأيمانكم متعلقة بالفعل أو بعرضة لما فيها من معنى الاعتراض أى لا تجعلوا الله لبركم وتقواكم وإصلاحكم بين الناس عرضة أى برزخا حاجزا بأن تحلفوا به تعالى على تركها أو لا تجعلوه تعالى عرضة أى شيئاً يعترض الأمور المذكورة ويحجزها بما ذكر من الحلف به تعالى على تركها وقد جوز أن تكون اللام للتعليل ويتعلق أن تبروا الخ بالفعل أو بعرضة فيكون الإيمان بمعناها وأنت خبير بأنه يؤدى إلى الفصل بين العامل ومعموله بأجنبى وعلى الوجه الثانى لا تجعلوا الله معرضا لأيمانكم تبتذلونه بكثرة الحلف به ولذلك ذم من نزلت فيه ولا تطع كل حلاف مهين بأشنع المذام وجعل الحلاف مقدمتها وأن تبروا حينئذ علة للنهى أى إرادة أن تبروا وتتقوا وتصلحوا لأن الحلاف مجترىء على الله سبحانه غير معظم له فلا يكون برا متقيا ثقة بين الناس فيكون بمعزل من التوسط فى إصلاح ذات البين ﴿ والله سميع ﴾ يسمع أيمانكم ﴿ عليم ﴾ يعلم نياتكم فحافظوا على ما كلفتموه .

﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ﴾ اللغو ما سقط من الكلام عن درجة الاعتبار والمراد به فى الإيمان ما لا عقد معه ولا قصد كما ينبىء عنه قوله تعالى

---

(١) فى ط : للأمور .

(ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) وهو المعنى بقوله عز وجل ﴿ ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ﴾ وقد اختلف فيه فعندنا هو أن يحلف على شيء يظنه على ما حلف عليه ثم يظهر خلافه فإنه لاقصد فيه إلى الكذب وعند الشافعى رحمه الله هو قول العرب لا والله وبلى والله مما يؤكدون به كلامهم من غير إخطار الحلف بالبال فالمعنى على الأول لايؤاخذكم الله أى لايعاقبكم بلغو اليمين الذى يحلفه أحدكم ظانا أنه صادق فيه ولكن يعاقبكم بما اقترفته قلوبكم من إثم القصد إلى الكذب فى اليمين وذلك فى الغموس وعلى الثانى لا يلزمكم الكفارة بما لاقصد معه إلى اليمين ولكن يلزمكموها بما نوت قلوبكم وقصدت به اليمين ولم يكن كسب اللسان فقط ﴿ والله غفور ﴾ حيث لم يؤاخذكم باللغو مع كونه ناشئا من عدم التثبت وقلة المبالاة ﴿ حليم ﴾ حيث لم يعجل بالمؤاخذة والجملة اعتراض مقرر لمضمون قوله تعالى لايؤاخذكم الخ وفيه إيذان بأن المراد بالمؤاخذة المعاقبة لا إيجاب الكفارة إذ هى التى يتعلق بها المغفرة والحلم دونه .

﴿ للذين يؤلون من نسائهم ﴾ الإيلاء الحلف وحقه أن يستعمل بعلى واستعماله بمن لتضمينه معنى البعد أى للذين يحلفون متباعدين من نسائهم ويحتمل أن يراد لهم من نسائهم ﴿ تربص أربعة أشهر ﴾ كقولك لى منك كذا وقرىء آلوا من نسائهم وقرىء يقسمون من نسائهم والإيلاء من المرأة أن يقول والله لا أقربك أربعة أشهر فصاعدا على التقييد بالأشهر أو لا أقربك على الإطلاق ولا يكون فيما دون ذلك وحكمه أنه إن فاء إليها فى المدة بالوطء إن أمكن أو بالقول إن عجز عنه صح الفىء وحنث القادر ولزمته كفارة اليمين ولا كفارة على العاجز وإن مضت الأشهر(١) الأربعة بانت بتطليقة والتربص الانتظار والتوقف أضيف إلى الظرف اتساعا أى لهم أن ينتظروا فى هذه المدة من غير مطالبة بفىء أو طلاق ﴿ فإن فاءوا ﴾ أى رجعوا عن

---

(١) سقطت من ط .

اليمين بالحنث والفاء للتفصيل كما إذا قلت أنا نزيلكم هذا الشهر فإن حمدتكم أقمت عندكم إلى آخره وإلا لم ألبث إلا ريثما أتحول ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ يغفر للمولى بفيئته التى هى كتوبته إثر حنثه عند تكفيره أو ماقصد بالإيلاء من ضرار المراة .

﴿ وإن عزموا الطلاق ﴾ وأجمعوا عليه ﴿ فإن الله سميع ﴾ بما جرى منهم من الطلاق وما يتعلق به من الدمدمة والمقاولة التى لا تخلو عنها الحال عادة ﴿ عليم ﴾ بنياتهم وفيه من الوعيد على الإصرار وترك الفيئة مالا يخفى ﴿ والمطلقات ﴾ أى ذوات الأقراء من الحرائر المدخول بهن لما قد بين أن لاعدة على غير المدخول بها وأن عدة من لا تحيض لصغر أو كبر أو حمل بالأشهر ووضع الحمل وأن عدة الأمة قرآن أو شهران ﴿ يتربصن ﴾ خبر فى معنى الأمر مفيد للتأكيد بإشعاره بأن المأمور به مما يجب أن يتلق بالمسارعة إلى الإتيان به فكأنهن امتثلن بالأمر بالتربص فتخبر به موجودا متحققا وبناؤه على المبتدأ مفيد لزيادة تأكيد ﴿ بأنفسهن ﴾ الباء للتعدية أى يقمعنها ويحملنها على مالاتشتهيه بل يشق عليها من التربص وفيه مزيد حث لهن على ذلك لما فيه من الإنباء عن الاتصاف بما يستنكفن منه من كون نفوسهن طوامح إلى الرجال فيحملهن ذلك على الإقدام على الإتيان بما أمر به ﴿ ثلاثة قروء ﴾ نصب على الظرفية أو المفعولية بتقدير مضاف أى يتربصن مدة ثلاثة قروء أو يتربصن مضى ثلاثة قروء وهو جمع قرء والمراد به الحيض بدليل قوله صلى الله عليه وسلم «دعى الصلاة أيام أقرائك» وقوله عليه السلام «طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان» وقوله تعالى (واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر) ولأن المقصود الأصلى من العدة استبراء الرحم ومداره الحيض دون الطهر ويقال أقرأت المرأة إذا حاضت وقوله تعالى (فطلقوهن لعدتهن) معناه مستقبلات لعدتهن وهى الحيض الثلاث وإيراد جمع الكثرة فى مقام جمع القلة بطريق الإتساع فإن إيراد كل من الجمعين مكان الآخر شائع ذائع وقرىء ثلاثة قرو بغير همز ﴿ ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله

فى أرحامهن ﴾ من الحيض والولد استعجالا للعدة(١) وإبطالا لحق الرجعة وفيه دليل على قبول قولهن فى ذلك نفيا وإثباتا ﴿ إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ جواب الشرط محذوف يدل عليه ما قبله دلالة واضحة أى فلا يجترئن على ذلك فإن قضية الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر الذى يقع فيه الجزاء والعقوبة منافية له قطعا ﴿ وبعولتهن ﴾ البعولة جمع بعل وهو فى الأصل السيد المالك والتاء لتأنيث الجمع كما فى الحزونة والسهولة أو مصدر بتقدير مضاف أى أهل بعولتهن أى أزواجهن الذين طلقوهن طلاقا رجعيا كما ينبىء عنه التعبير عنهم بالبعولة والضمير لبعض أفراد المطلقات ﴿ أحق بردهن ﴾ إلى ملكهم بالرجعة إليهن ﴿ فى ذلك ﴾ أى فى زمان التربص وصيغة التفضيل لإفادة أن الرجل إذا أراد الرجعة والمرأة تأباها وجب إيثار قوله على قولها لا أن لها أيضا حقا فى الرجعة ﴿ إن أرادوا ﴾ أى الأزواج بالرجعة ﴿ إصلاحا ﴾ لما بينهم وبينهن وإحسانا إليهن ولم يريدوا مضارتهن وليس المراد به شرطية قصد الإصلاح بصحة الرجعة بل هو الحث عليه والزجر عن قصد الضرار ﴿ ولهن ﴾ عليهم من الحقوق ﴿ مثل الذى ﴾ لهم ﴿ عليهن بالمعروف ﴾ من الحقوق التى يجب مراعاتها ويتحتم المحافظة عليها ﴿ وللرجال عليهن درجة ﴾ أى زيادة فى الحق لأن حقوقهم فى أنفسهن وحقوقهن فى المهر والكفاف وترك الضرار ونحوها أو مزية فى الفضل لما أنهم قوامون عليهن حراس لهن ولما فى أيديهن يشاركونهن فى(٢) الغرض من الزواج ويستبدون بفضيلة الرعاية والإنفاق ﴿ والله عزيز ﴾ يقدر على الانتقام ممن يخالف أحكامه ﴿ حكيم ﴾ تنطوى شرائعه على الحكم والمصالح .

﴿ الطلاق ﴾ هو بمعنى التطليق كالسلام بمعنى التسليم والمراد به الرجعى لما أن السابق الأقرب حكمه ، ولما روى أنه عليه السلام سئل عن الثالثة فقال عليه السلام أو تسريح بإحسان وهو مبتدأ بتقدير مضاف خبره ما بعده أى عدد الطلاق الذى يستحق الزوج فيه الرد والرجعة حسبما بين آنفا ﴿ مرتان ﴾

---

(١) فى ط : فى العدة .

(٢) فى ط : فيما هو .

أى اثنان وإيثار ما ورد به النظم الكريم عليه للإيذان بأن حقهما أن يقعا مرة بعد مرة لادفعة واحدة وإن كان حكم الرد ثابتا حينئذ أيضا ﴿ فإمساك ﴾ أى فالحكم بعدهما إمساك لهن بالرجعة ﴿ بمعروف ﴾ أى بحسن عشرة ولطف معاملة ﴿ أو تسريح بإحسان ﴾ بالطلقة الثالثة كما روى عنه صلى الله عليه وسلم أو بعدم الرجعة إلى أن تنقضى العدة فتبين وقيل المراد به الطلاق الشرعى وبالمرتين مطلق التكرير لا التثنية بعينها كما فى قوله تعالى (ثم ارجع البصر كرتين) أى كرة بعد كرة والمعنى أن التطليق الشرعى تطليقة بعد تطليقة على التفريق دون الجمع بين الطلقتين أو الثلاث فإن ذلك بدعة عندنا فقوله تعالى فإمساك الخ حكم مبتدأ وتخيير مستأنف والفاء فيه للترتيب على التعليم كأنه قيل إذا علمتم كيفية التطليق فأمركم أحد الأمرين ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا ﴾ منهن بمقابلة الطلاق ﴿ مما آتيتموهن ﴾ أى من الصدقات وتخصيصها بالذكر وإن شاركها فى الحكم سائر أموالهن إما لرعاية العادة أو للتنبيه على أنه إذا لم يحل لهم أن يأخذوا مما آتوهن بمقابلة البضع عند خروجه عن ملكهم فلأن لا يحل أن يأخذوا مما لاتعلق له بالبضع أولى وأحرى ﴿ شيئا ﴾ أى نزرا يسيرا فضلا عن الكثير وتقديم الظرف عليه لما مر مرارا والخطاب مع الحكام وإسناد الأخذ والإيتاء إليهم لأنهم الآمرون بهما عند المرافعة وقيل مع الأزواج وما بعده مع الحكام وذلك مما يشوش النظم الكريم على القراءة المشهورة ﴿ إلا أن يخافا ﴾ أى الزوجان وقرىء يظنوا وهو مؤيد لتفسير الخوف بالظن ﴿ أن لا يقيما حدود الله ﴾ أى أن لا يراعيا مواجب أحكام الزوجية وقرىء يخافا على البناء للمفعول وإبدال أن بصلته من الضمير بدل الاشتمال وقرىء تخافا وتقيما بتاء الخطاب ﴿ فإن خفتم ﴾ أيها الحكام ﴿ أن لا يقيما ﴾ أى الزوجان ﴿ فيما افتدت به ﴾ لا على الزوج فى أخذ ما افتدت به ولا عليها فى إعطائه إياه ، روى أن جميلة بنت عبد الله بن أبى بن سلول كانت تبغض زوجها ثابت بن قيس فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت لا أنا ولا ثابت لا يجمع رأسى ورأسه شىء والله ما أعيب عليه فى دين ولا خلق ، ولكن أكره الكفر

بعد الإسلام ما أطيقه بغضا إنى رفعت جانب الخباء فرأيته أقبل فى عدة فإذا هو أشدهم سوادا وأقصرهم قامة وأقبحهم وجها فنزلت فاختلعت منه بحديقة كان أصدقها إياها .

﴿ فإن طلقها ﴾ أى بعد الطلقتين السابقتين ﴿ فلا تحل ﴾ هى ﴿ له من بعد ﴾ أى من بعد هذا الطلاق ﴿ حتى تنكح زوجا غيره ﴾ فإن النكاح أيضا يسند إلى كل منهما وتعلق بظاهره من اقتصر على العقد والجمهور على اشتراط الإصابة لما روى أن امرأة رفاعة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن رفاعة طلقنى فبت طلاقى وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجنى ، وإن ما معه مثل هدبة الثوب فقال صلى الله عليه وسلم تريدين أن ترجعى إلى رفاعة قالت نعم قال صلى الله عليه وسلم لا إلا أن تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك وبمثله تجوز الزيادة على الكتاب وقيل النكاح بمعنى الوطء والعقد مستفاد من لفظ الزوج(١) والحكمة من هذا التشريع الردع عن المسارعة إلى الطلاق والعود إلى المطلقة ثلاثا والرغبة فيها والنكاح بشرط التحليل مكروه عندنا ، ويروى عدم الكراهة فيما لم يكن الشرط مصرحا به وفاسد عند الأكثرين لقوله صلى الله عليه وسلم لعن الله المحلل والمحلل له ﴿ فإن طلقها ﴾ أى الزوج الثانى ﴿ فلا جناح عليهما ﴾ أى على الزوج الأول والمرأة ﴿ أن يتراجعا ﴾ أن يرجع كل منهما إلى الآخر بالعقد ﴿ إن ظنا أن يقيما حدود الله ﴾ التى أوجب مراعاتها على الزوجين من الحقوق ولا وجه لتفسير الظن بالعلم لما أن العواقب غير معلومة ولأن أن الناصبة للتوقع المنافى للعلم ولذلك لا يكاد يقال علمت أن يقوم زيد .

﴿ وتلك ﴾ إشارة إلى الأحكام المذكورة إلى هنا ﴿ حدود الله ﴾ أى أحكامه المعينة المحمية من التعرض لها بالتغيير والمخالفة ﴿ يبينها ﴾ بهذا البيان اللائق أو سيبينها فيما سيأتى بناء على أن بعضها يلحقه زيادة كشف وبيان بالكتاب

---

(١) فى ١١ : الزواج .

والسنة والجملة خبر ثان عند من يجوز كونه جملة كما فى قوله تعالى(فإذا هى حية تسعى) أو حال من حدود الله والعامل معنى الإشارة ﴿ لقوم يعلمون ﴾ أى يفهمون وتخصيصهم بالذكر مع عموم الدعوة والتبليغ لما أنهم المنتفعون بالبيان أو لأن ماسيلحق بعض النصوص من البيان لايقف عليه إلا الراسخون فى العلم ﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن ﴾ أى آخر عدتهن فإن الأجل كما ينطلق على المدة ينطلق على منتهاها والبلوغ هو الوصول إلى الشيء وقد يقال للدنو منه اتساعا وهو المراد ههنا لقوله عز وجل ﴿ فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ﴾ إذ لا إمكان للإمساك بعد تحقق بلوغ الأجل أى فراجعوهن بغير ضرار أو خلوهن حتى ينقضى أجلهن بإحسان من غير تطويل وهذا كما ترى إعادة للحكم فى بعض صوره اعتناء بشأنه ومبالغة فى إيجاب المحافظة عليه ﴿ ولا تمسكوهن ضراراً ﴾ تأكيد للأمر بالامساك بمعروف وتوضيح لمعناه وزجر صريح عما كانوا يتعاطونه أى لاتراجعوهن إرادة الإضرار بهن ، كان يترك المعتدة حتى إذا شارفت انقضاء الأجل يراجعها لالرغبة فيها بل ليطول عليها العدة فنهى عنه بعد ما أمر بضده لما ذكر وضرارا نصب على العلية أو الحالية أى لاتمسكوهن للمضارة أو مضارين واللام فى قوله ﴿ لتعتدوا ﴾ متعلقة بضرارا أى لتظلموهن بالإلجاء إلى الافتداء .

﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ أى ما ذكر من الإمساك المؤدى إلى الظلم وما فيه من معنى البعد للدلالة على بعد منزلته فى الشر والفساد ﴿ فقد ظلم نفسه ﴾ فى ضمن ظلمه لهن بتعريضها للعقاب ﴿ ولاتتخذوا آيات الله ﴾ المنطوية على الأحكام المذكورة أو جميع آياته وهى داخلة فيها دخولا أوليا ﴿ هزوا ﴾ أى مهزوا بها بأن تعرضوا عنها وتتهاونوا فى المحافظة على مافى تضاعيفها من الأحكام والحدود من قولهم لمن لم يجد فى الأمر : أنت هازىء ، كأنه نهى عن الهزؤبها وأريد ما يستلزمه من الأمر بضده أى جدوا فى الأخذ بها والعمل بما فيها وارعوها حق رعايتها وإلا فقد أخذتموها هزؤا ولعبا ويجوز أن يراد به النهى عن الإمساك ضرارا فإن الرجعة بلا رغبة فيها عمل بموجب آيات الله تعالى بحسب

الظاهر دون الحقيقة وهو معنى الهزؤ وقيل كان الرجل ينكح ويطلق ويعتق ثم يقول إنما كنت ألعب فنزلت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « ثلاث جدهن جد وهزلهن جد النكاح والطلاق والعتاق» ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم ﴾ حيث هداكم إلى ما فيه سعادتكم الدينية والدنيوية أى قابلوها بالشكر والقيام بحقوقها والظرف متعلق بمحذوف وقع حالا من نعمة الله أى كائنة عليكم أو صفة لها على رأى من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته أى الكائنة عليكم ويجوز أن يتعلق بنفسها إن أريد بها الإنعام لأنها اسم مصدر كنبات من أنبت ولا يقدح فى عمله تاء التأنيث لأنه مبنى عليها كما فى قوله :

فلولا رجاء النصر منك ورهبة   عقابك قد كانوا لنا كالموارد

﴿ وما أنزل عليكم ﴾ عطف على نعمة الله وما موصولة حذف عائدها من الصلة ومن فى قوله عز وجل ﴿ من الكتاب والحكمة ﴾ بيانية أى من القرآن والسنة أو القرآن الجامع للعنوانين على أن العطف لتغاير الوصفين كما فى قوله

* إلى الملك القرم وابن الهمام *

وفى إبهامه أولا ثم بيانه من التفخيم ما لا يخفى وفى إفراده بالذكر مع كونه أول ما دخل فى النعمة المأمور بذكرها إبانة بخطره ومبالغة فى البعث على مراعاة ما ذكر قبله من الأحكام ﴿ يعظكم به ﴾ أى بما أنزل حال من فاعل أنزل أو من مفعوله أو منهما معا ﴿ واتقوا الله ﴾ فى شأن المحافظة عليه والقيام بحقوقه الواجبة ﴿ واعلموا أن الله بكل شىء عليم ﴾ فلا يخفى عليه شىء مما تأتون وما تذرون فيؤاخذكم بأفانين العقاب .

﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن ﴾ بيان لحكم ما كانوا يفعلونه عند بلوغ الأجل حقيقة بعد بيان حكم ما كانوا يفعلونه عند المشارفة إليه والعضل الحبس والتضييق ومنه عضلت الدجاجة إذا نشب بيضها ولم يخرج والمراد المنع والخطاب إما للأولياء لما روى أنها نزلت فى معقل بن يسار حين عضل أخته جملا أن ترجع إلى زوجها الأول بالنكاح وقيل نزلت فى

جابر بن عبد الله حين عضل ابنة عم له وإسناد التطليق إليهم لتسببهم فيه كما ينبىء عنه تصديهم للعضل ولعل التعرض لبلوغ الأجل مع جواز التزوج بالزوج الأول قبله أيضا لوقوع العضل المذكور حينئذ وليس فيه دلالة على أن ليس للمرأة أن تزوج نفسها وإلا لما احتيج إلى نهى الأولياء عن العضل لما أن النهى لدفع الضرر عنهن فإنهن وإن قدرن على تزويج أنفسهن لكنهن يحترزن عن ذلك مخافة اللوم والقطيعة ، وإما للأزواج حيث كانوا يعضلون مطلقاتهم ولا يدعونهن يتزوجن ظلما وقسرا لحمية الجاهلية ، وإما للناس كافة فإن إسناد ما فعله واحد منهم إلى الجميع شائع مستفيض والمعنى إذا وجد فيكم طلاق فلا يقع فيما بينكم عضل سواء كان ذلك من قبل الأولياء أو من جهة الأزواج أو من غيرهم وفيه تهويل لأمر العضل وتحذير منه وإيذان بأن وقوع ذلك بين ظهرانيهم وهم ساكتون عنه بمنزلة صدوره عن الكل فى استتباع اللائمة وسراية الغائلة ﴿ أن ينكحن ﴾ أى من أن ينكحن فمحله النصب عند سيبويه والفراء والجر عند الخليل على الخلاف المشهور وقيل هو بدل اشتمال من الضمير المنصوب فى تعضلوهن وفيه دلالة على صحة النكاح بعبارتهن ﴿ أزواجهن ﴾ إن أريد بهم المطلقون فالزوجية إما باعتبار ما كان وإما باعتبار ما يكون وإلا فباعتبار الأخير ﴿ إذ تراضوا ﴾ ظرف للاتعضلوا وصيغة التذكير باعتبار تغليب الخطاب على النساء والتقييد به لأنه المعتاد لا لتجويز المنع قبل تمام التراضى وقيل ظرف لأن ينكحن وقوله تعالى ﴿ بينهم ﴾ ظرف للتراضى مفيد لرسوخه واستحكامه ﴿ بالمعروف ﴾ الجميل عند الشرع المستحسن عند الناس والباء إما متعلقة بمحذوف حال من فاعل تراضوا أو نعت(١) لمصدر محذوف أى تراضيا كائنا بالمعروف ، وإما بتراضوا بما يحسن فى الدين والمروءة وفيه إشعار بأن المنع من التزوج بغير كفؤ أو بما دون مهر المثل ليس من باب العضل .

---

(١) فى ط : وقع حالا .... أو نعتا .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما فصل من الأحكام وما فيه من البعد لتعظيم المشار إليه والخطاب لجميع المكلفين كما فيما بعده والتوحيد إما باعتبار كل واحد منهم ، وإما بتأويل القبيل والفريق ، وإما لأن الكاف لمجرد الخطاب والفرق بين الحاضر والمنقضى دون تعيين المخاطبين أو للرسول صلى الله عليه وسلم كما فى قوله تعالى ﴿ يا أيها النبى إذا طلقتم النساء ﴾ للدلالة على أن حقيقة المشار إليه أمر لا يكاد يعرفه كل واحد ﴿ يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ فيسارع إلى الامتثال بأوامره ونواهيه إجلالا له وخوفا من عقابه ، وقوله تعالى منكم إما متعلق بكان عند من يجوز عملها فى الظروف وشبهها ، وإما بمحذوف وقع حالا من فاعل يؤمن أى كائنا منكم ﴿ ذلكم ﴾ أن الاتعاظ به والعمل بمقتضاه ﴿ أزكى لكم ﴾ أى أنمى وأنفع ﴿ وأطهر ﴾ من أدناس الآثام وأوضار الذنوب ﴿ والله يعلم ﴾ ما فيه من الزكاء والطهر ﴿ وأنتم لا تعلمون ﴾ ذلك أو والله يعلم ما فيه صلاح أموركم من الأحكام والشرائع التى من جملتها ما بينه ههنا وأنتم لا تعلمونها فدعوا رأيكم وامتثلوا أمره تعالى ونهيه فى كل ما تأتون وما تذرون .

﴿ والوالدات يرضعن أولادهن ﴾ شروع فى بيان الأحكام المتعلقة بأولادهن خصوصا واشتراكا وهو أمر أخرج مخرج الخبر مبالغة فى الحمل على تحقيق مضمونه ومعناه الندب أو الوجوب إن خص بمادة عدم قبول الصبى ثدى الغير أو فقدان الظئر أو عجز الوالد عن الاستئجار والتعبير عنهن بالعنوان المذكور لهن عطفهن نحو أولادهن والحكم عام للمطلقات وغيرهن وقيل خاص بهن إذ الكلام فيهن ﴿ حولين كاملين ﴾ التأكيد بصفة الكمال لبيان أن التقدير تحقيقى لا تقريبى مبنى على المساحة المعتادة ﴿ لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ بيان لمن يتوجه إليه الحكم أى ذلك لمن أراد إتمام الرضاعة وفيه دلالة على جواز النقص وقيل اللام متعلقة بيرضعن فإن الأب يجب عليه الإرضاع كالنفقة والأم ترضع له كما يقال أرضعت فلانة لفلان ولده ﴿ وعلى المولود له ﴾ أى الوالد فإن الولد يولد له وينسب إليه وتغيير العبارة للإشارة إلى المعنى المقتضى لوجوب الإرضاع ومؤنة المرضعة عليه ﴿ رزقهن وكسوتهن ﴾ أجرة لهن واختلف فى

استئجار الأم وهو غير جائز عندنا مادامت فى النكاح أو العدة جائز عند الشافعى رحمه الله ﴿ بالمعروف ﴾ حسبما يراه الحاكم ويفى به وسعه ﴿ لا تكلف نفس إلا وسعها ﴾ تعليل لإيجاب المؤن بالمعروف أو تفسير للمعروف وهو نص على أنه تعالى لا يكلف العبد مالا يطيقه وذلك لا ينافى إمكانه .

﴿ لاتضار والدة بولدها ولامولود له بولده ﴾ تفصيل لما قبله وتقرير له أى لا يكلف كل واحد منهما الآخر مالا يطيقه ولا يضاره بسبب ولده وقرىء لاتضار بالرفع بدلا من لاتكلف وأصله على القراءتين لاتضار بالكسر على البناء للمفعول وعلى الوجه الأول يجوز أن يكون بمعنى تضر والباء من صلته أى لا يضر الوالدان بالولد فيفرط فى تعهده ويقصر فيما ينبغى له وقرىء لاتضار بالسكون مع التشديد على نية الوقف وبه مع التخفيف على أنه من ضاره يضيره وإضافة الولد إلى كل منهما لاستعطافهما إليه وللتنبيه على أنه جدير بأن يتفقا على استصلاحه ولا ينبغى أن يضرا به أو يتضارا بسببه .

﴿ وعلى الوارث مثل ذلك ﴾ عطف على قوله تعالى (وعلى المولود له رزقهن) الخ وما بينهما تعليل أو تفسير معترض والمراد به وارث الصبى ممن كان ذا رحم محرم منه وقيل عصباته وقال الشافعى رحمه الله هو وارث الأب وهو الصبى أى تمان المرضعة من ماله عند موت الأب ولا نزاع فيه وإنما الكلام فيما إذا لم يكن للصبى مال وقيل الباقى من الأبوين من قوله عليه الصلاة والسلام واجعله الوارث منا وذلك إشارة إلى ما وجب على الأب من الرزق والكسوة ﴿ فإن أرادا ﴾ أى الوالدان ﴿ فصالا ﴾ أى فطاما عن الرضاع قبل تمام الحولين والتنكير للإيذان بأنه فصال غير معتاد ﴿ عن تراض ﴾ متعلق بمحذوف ينساق إليه الذهن أى صادرا عن تراض ﴿ منهما ﴾ أى من الوالدين لا من أحدهما فقط لاحتمال إقدامه على ما يضر بالولد بأن تمل المرأة الإرضاع ويبخل الأب بإعطاء الأجرة ﴿ وتشاور ﴾ فى شأن الولد وتفحص عن أحواله وإجماع منهما على استحقاقه للفطام والتشاور من المشورة وهى استخراج الرأى من شرت العسل إذا استخرجته وتنكيرهما للتفخيم ﴿ فلا جناح عليهما ﴾ فى ذلك لما أن تراضيهما إنما يكون بعد استقرار رأيهما أو اجتهادهما على أن صلاح الولد

فى الفطام وقلما يتفقان على الخطأ ﴿ وإن أردتم ﴾ بيان لحكم عدم اتفاقهما على الفطام والالتفات إلى خطاب الآباء لجذبهم إلى الامتثال بما أمروا به ﴿ أن تسترضعوا أولادكم ﴾ بحذف المفعول الأول استغناء عنه أى أن تسترضعوا المراضع لأولادكم يقال أرضعت المرأة الصبى واسترضعتها إياه وقيل إنما يتعدى إلى الثانى بحرف الجر يقال استرضعت المرأة للصبى أى أن تسترضعوا المراضع لأولادكم فحذف حرف الجر أيضاً كما فى قوله تعالى (وإذا كالوهم) أى كالوا لهم ﴿ فلا جناح عليكم ﴾ أى فى الاسترضاع وفيه دلالة على أن للأب أن يسترضع للولد ويمنع الأم من الإرضاع ﴿ إذا سلمتم ﴾ أى إلى المراضع ﴿ ما آتيتم ﴾ أى ما أردتم إيتاءه كما فى قوله تعالى (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله) وقرىء ما أتيتم من أتى إليه إحسانا إذا فعله وقرىء ما اوتيتم أى من جهة الله عز وجل كما فى قوله تعالى (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) وفيه مزيد بعث لهم إلى التسليم ﴿ بالمعروف ﴾ متعلق بسلمتم أى بالوجه المتعارف المستحسن شرعا وجواب الشرط محذوف لدلالة المذكور عليه وليس التسليم بشرط للصحة والجواز بل هو ندب إلى ما هو الأليق والأولى فإن المراضع إذا أعطين ما قدر لهن ناجزاً يداً بيد كان ذلك أدخل فى استصلاح شئون الأطفال ﴿ واتقوا الله ﴾ فى شأن مراعاة الأحكام المذكورة ﴿ واعلموا أن الله بما تعملون بصير ﴾ فيجازيكم بذلك وإظهار الاسم الجليل فى موضع الإضمار لتربية المهابة وفيه من الوعيد والتهديد ما لا يخفى .

﴿ والذين ﴾ على حذف المضاف أى وأزواج الذين ﴿ يتوفون منكم ﴾ أى تقبض أرواحهم بالموت فإن التوفى هو القبض يقال توفيت مالى من فلان واستوفيته منه أى أخذته وقبضته والخطاب لكافة الناس بطريق التلوين ﴿ ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ﴾ أو على حذف العائد إلى المبتدأ فى الخبر أى يتربصن بعدهم كما فى قولهم: السمن منوان بدرهم أى منوان منه وقرىء يتوفون بفتح الياء أى يستوفون آجالهم وتأنيث العشر

باعتبار الليالى لأنها غرر الشهور والأيام ولذلك تراهم لا يكادون يستعملون التذكير فى مثله أصلا حتى أنهم يقولون صمت عشراً ومن البين فى ذلك قوله تعالى (إن لبثتم إلا عشراً) ثم (إن لبثتم إلا يوما) ولعل الحكمة فى هذا التقدير أن الجنين إذا كان ذكرا يتحرك غالبا لثلاثة أشهر وإن كان أنثى يتحرك لأربعة فاعتبر أقصى الأجلين وزيد عليه الأيام⁽¹⁾ العشر استظهارا إذ ربما تضعف الحركة فلا يحس بها وعموم اللفظ يقتضى تساوى المسلمة والكتابية والحرة والأمة فى هذا الحكم ولكن القياس اقتضى التنصيف فى الأمة وقوله عز وجل وأولات الأحمال خص الحامل منه وعن على وابن عباس رضى الله عنهم أنها تعتد بأبعد الأجلين احتياطا ﴿ فإذا بلغن أجلهن ﴾ أى انقضت عدتهن ﴿ فلا جناح عليكم ﴾ أيها الحكام والمسلمون جميعا ﴿ فيما فعلن فى أنفسهن ﴾ من التزين والتعرض للخطاب وسائر ما حرم على المعتدة ﴿ بالمعروف ﴾ بالوجه الذى لا ينكره الشرع وفيه إشارة إلى أنهن لو فعلن ما ينكره الشرع فعليهم أن يكفوهن عن ذلك وإلا فعليهم الجناح ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ فلا تعملوا خلاف ما أمرتم به .

﴿ ولا جناح عليكم ﴾ خطاب للكل ﴿ فيما عرضتم به ﴾ التعريض والتلويح لإبهام المقصود بما لم يوضع له حقيقة ولا مجازا كقول السائل جئتك لأسلم عليك وأصله إمالة الكلام عن نهجه إلى عرض منه أى جانب والكناية هى الدلالة على الشىء بذكر لوازمه وروادفه كقولك طويل النجاد للطويل وكثير الرماد للمضياف ﴿ من خطبة النساء ﴾ الخطبة بالكسر كالقعدة والجلسة ما يفعله الخاطب من الطلب والاستلطاف بالقول والفعل فقيل هى مأخوذة من الخطب أى الشأن الذى له خطر لما أنها شأن من الشئون ونوع من الخطوب وقيل من الخطاب لأنها نوع مخاطبة تجرى بين جانب الرجل وجانب المرأة والمراد بالنساء المعتدات للوفاة والتعريض لخطبتهن أن يقول

---

(١) سقطت من ط .

لها إنك لجميلة أو صالحة أو نافعة ومن غرضى أن أتزوج ونحو ذلك مما يوهم أنه يريد نكاحها حتى تحبس نفسها عليه إن رغبت فيه ولا يصرح بالنكاح ﴿أو أكننتم فى أنفسكم﴾ أى أضمرتم فى قلوبكم فلم تذكروه تصريحا ولا تعريضا ﴿علم الله أنكم ستذكرونهن﴾ ولا تصبرون على السكوت عنهن وعن إظهار الرغبة فيهن وفيه نوع توبيخ لهم على قلة التثبت ﴿ولكن لا تواعدوهن سرا﴾ استدراك محذوف دل عليه ستذكرونهن أى فاذكروهن ولكن لا تواعدوهن نكاحا بل اكتفوا بما رخص لكم من التعريض والتعبير عن النكاح بالسر لأن مسببه الذى هو الوطء مما يسر به وإيثاره على اسمه للإيذان بأنه مما ينبغى أن يسر به ويكتتم وحمله على الوطء ربما يوهم الرخصة فى المحظور الذى هو التصريح بالنكاح وقيل انتصاب سرا على الظرفية أى لا تواعدوهن فى السر على أن المراد بذلك المواعدة بما يستهجن وفيه ما فيه ﴿إلا أن تقولوا قولا معروفا﴾ استثناء مفرغ مما يدل عليه النهى أى لا تواعدوهن مواعدة ما إلا مواعدة معروفة غير منكرة شرعا وهى ما يكون بطريق التعريض والتلويح أو إلا مواعدة بقول معروف أو لا تواعدوهن بشىء من الأشياء إلا بأن تقولوا قولا معروفا وقيل هو استثناء منقطع من سرا وهو ضعيف لأدائه إلى جعل التعريض موعودا وليس كذلك ﴿ولا تعزموا عقدة النكاح﴾ من عزم الأمر إذا قصده قصدا جازما وحقيقته القطع بدليل قوله عليه السلام لا صيام لمن لم يعزم الصيام من الليل وروى لمن لم يبيت الصيام والنهى عنه للمبالغة فى النهى عن مباشرة عقد النكاح أى لا تعزموا عقدة النكاح ﴿حتى يبلغ الكتاب أجله﴾ أى (تبلغ)(١) العدة المكتوبة المفروضة آخرها وقيل معناه لا تقطعوا (على أنفسكم)(٢) عقدة النكاح أى لا تبرموها ولا تلزموها ولا تقدموا عليها فيكون نهيا عن نفس الفعل لا عن قصده .

(١ ، ٢) سقطت من ط

﴿ واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم ﴾ من ذوات الصدور التى من جملتها العزم على مانهيتم عنه ﴿ فاحذروه ﴾ بالاجتناب عن العزم ابتداء أو إقلاعا عنه بعد تحققه ﴿ واعلموا أن الله غفور ﴾ يغفر لمن يقلع عن عزمه خشية منه تعالى ﴿ حليم ﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة فلا تستدلوا بتأخيرها على أن ما نهيتم عنه من العزم ليس مما يستتبع المؤاخذة وإظهار الاسم الجليل فى موضع الإضمار لإدخال الروعة ﴿ لا جناح عليكم ﴾ أى لاتبعة من مهر وهو الأظهر وقيل من وزر إذ لا بدعة فى الطلاق قبل المسيس وقيل كان النبى صلى الله عليه وسلم يكثر النهى عن الطلاق فظن أن فيه جناحا فنفى ذلك ﴿ إن طلقتم النساء مالم تمسوهن ﴾ أى مالم تجامعوهن وقرىء تماسوهن بضم التاء فى جميع المواقع أى مدة عدم مساسكم إياهن على أن مامصدرية ظرفية بتقدير المضاف ونقل أبو البقاء أنها شرطية بمعنى إن فيكون من باب اعتراض الشرط على الشرط فيكون الثانى قيدا للأول كما فى قولك إن تأتنى إن تحسن إلى أكرمك أى إن تأتنى محسنا إلى والمعنى إن طلقتموهن غير ماسين لهن وهذا المعنى أقعد من الأول لما أن ما الظرفية إنما يحسن موقعها فيما إذا كان المظروف أمرا ممتدا منطبقا على ما أضيف إليها من المدة أو الزمان كما فى قوله تعالى (خالدين فيها ما دامت السموات والأرض) وقوله تعالى (وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم) ولا يخفى أن التطليق ليس كذلك وتعليق الظرف بنفى الجناح ربما يوهم إمكان المسيس بعد الطلاق فالوجه أن يقدر الحال مكان الزمان والمدة ﴿ أو تفرضوا لهن فريضة ﴾ أى إلا أن تفرضوا لهن أو حتى تفريضوا لهن عند العقد مهرا على أن فريضة فعيلة بمعنى مفعول والتاء لنقل اللفظ من الوصفية إلى الإسمية وانتصابه على المفعولية ويجوز أن يكون مصدرا صيغة وإعرابا والمعنى أنه لاتبعة على المطلق بمطالبة المهر أصلا إذا كان الطلاق قبل المسيس على كل حال إلا فى حال تسمية المهر فإن عليه حينئذ نصف المسمى وفى حال عدم تسميته عليه المتعة لا نصف مهر المثل

وأما إذا كان بعد المسيس(١) فعليه فى صورة التسمية تمام المسمى وفى صورة عدمها تمام مهر المثل وقيل كلمة أو عاطفة لدخولها على ما قبلها من الفعل المجزوم على معنى ما لم يكن منكم مسيس ولا فرض مهر .

﴿ ومتعوهن ﴾ عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى فطلقوهن ومتعوهن والحكمة فى إيجاب المتعة جبر إيحاش الطلاق وهى درع وملحفة وخمار على حسب الحال كما يفصح عنه قوله تعالى ﴿ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ﴾ أى ما يليق بحال كل منهما وقرىء بسكون الدال وهى جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب مبينة لمقدار المتعة بالنظر إلى حال المطلق إيسارا وإقتارا أو حال من فاعل متعوهن بحذف الرابط أى على الموسع منكم الخ أو على جعل الألف واللام عوضا من المضاف إليه عند من يجوزه أى على موسعكم الخ وهذا إذا لم يكن مهر مثلها أقل من ذلك فإن كان أقل فلها الأقل من نصف مهر المثل ومن المتعة ولا ينقص عن خمسة دراهم ﴿ متاعا ﴾ أى تمتيعا ﴿ بالمعروف ﴾ أى بالوجه الذى تستحسنه الشريعة والمروءة ﴿ حقا ﴾ صفة لمتاعا أو مصدر مؤكد أى حق ذلك حقا ﴿ على المحسنين ﴾ أى الذين يحسنون إلى أنفسهم بالمسارعة إلى الامتثال أو إلى المطلقات بالتمتيع بالمعروف وإنما سموا محسنين اعتبارا للمشارفة وترغيبا وتحريضا .

﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن ﴾ قبل ذلك ﴿ فريضة ﴾ أى وإن طلقتموهن من قبل المسيس حال كونكم مسمين لهن فيما سبق أى عند النكاح مهرا على أن الجملة حال من فاعل طلقتموهن ويجوز أن تكون حالا من مفعوله لتحقق الرابط بالنسبة إليهما ونفس الفرض من المبنى للفاعل أو للمفعول وإن لم يقارن حالة التطليق لكن اتصاف المطلق بالفارضية فيما سبق مما لا ريب فى مقارنته لها وكذا الحال فى اتصاف المطلقة بكونها مفروضا لها فيما سبق .

﴿ فنصف ما فرضتم ﴾ أى فلهن نصف ما سميتم لهن من المهر أو فالواجب

---

(١) فى ط : المساس

عليكم ذلك وهذا صريح فى أن المنفى الصورة السابقة إنما هو تبعة المهر وقرىء بالنصب أى فأدوا نصف ما فرضتم ولعل تأخير حكم التسمية مع أنها الأصل فى العقد والأكثر فى الوقوع لما أن الآية الكريمة نزلت فى أنصارى تزوج امرأة من بنى حنيفة وكانت مفوضة فطلقها قبل الدخول بها فتخاصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له عليه الصلاة والسلام عند العلم بألا(١) لاشىء له متعها بقلنسوتك ﴿ إلا أن يعفون ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى فلهن نصف المفروض معينا فى كل حال إلا حال عفوهن فإنه يسقط ذلك حينئذ بعد وجوبه وظاهر الصيغة فى نفسها يحتمل التذكير والتأنيث وإنما الفرق فى الاعتبار والتحقيق فإن الواو فى الأولى ضمير والنون علامة الرفع وفى الثانية لام الفعل والنون ضمير والفعل مبنى ولذلك لم يؤثر فيه أن تأثيره فيما عطف على محله من قوله تعالى ﴿ أو يعفو ﴾ بالنصب وقرىء بسكون الواو ﴿ الذى بيده عقدة النكاح ﴾ أى يترك الزوج المالك لعقده وحله ما يعود إليه من نصف المهر الذى ساقه إليها كاملا على ماهو المعتاد تكرما فإن ترك حقه عليها عفوا(٢) بلا شبهة أو سمى ذلك عفوا فى صورة عدم السوق مشاكلة أو تغليبا لحال السوق على حال عدمه فرجع الاستثناء حينئذ إلى منع الزيادة فى المستثنى منه كما أنه فى الصورة الأولى إلى منع النقصان فيه أى فلهن هذا القدر بلا زيادة ولا نقصان فى جميع الأحوال إلا فى حال عفوهن فإنه حينئذ لا يكون لهن القدر المذكور بل ينتفى ذلك أو ينحط أو فى حال عفو الزوج فإنه حينئذ يكون لهن الزيادة على ذلك القدر هذا على التفسير الأول وأما على التفسير الثانى فلا بد من المصير إلى جعل الاستثناء منقطعا لأن فى صورة عفو الزوج لايتصور الوجوب عليه هذا عندنا وفى القول القديم للشافعى رحمه الله أن المراد عفو الولى الذى بيده عقدة نكاح الصغيرة وهو ظاهر المأخذ خلا أن الأول أنسب بقوله تعالى : ﴿ وأن تعفوا

---

(١) فى ط : كما يلوح عند إظهار الا شىء عنده . (٢) فى ط : عفو .

أقرب للتقوى ﴾ إلى آخره فإن إسقاط حق الصغيرة ليس فى شىء من التقوى وعن جبير بن مطعم أنه تزوج امرأة وطلقها قبل الدخول وأكمل لها الصداق وقال أنا أحق بالعفو وقرىء بالياء ﴿ ولاتنسوا الفضل بينكم ﴾ أى لاتتركوا أن يتفضل بعضكم على بعض كالشىء المنسى وقرىء بكسر الواو والخطاب فى الفعلين للرجال والنساء جميعاً بطريق التغليب ﴿ إن الله بما تعملون بصير ﴾ فلا يكاد يضيع ما عملتم من التفضل والإحسان .

﴿ حافظوا على الصلوات ﴾ أى داوموا على أدائها لأوقاتها من غير إخلال بشىء منها كما تنبىء عنه صيغة المفاعلة المفيدة للمبالغة ولعل الأمر بها فى تضاعيف بيان أحكام الأزواج والأولاد قبل الإتمام للإيذان بأنها حقيقة بكمال الاعتناء بشأنها والمثابرة عليها من غير اشتغال بشأنهم وبشأن أنفسهم أيضا كما يفصح عنه الأمر بها فى حالة الخوف ولذلك أمر بها فى خلال بيان ما يتعلق بهم من الأحكام الشرعية المتشابكة الآخذ بعضها بحجزة بعض ﴿ والصلوة الوسطى ﴾ أى المتوسطة بينها أو الفضلى منها وهى صلاة العصر لقوله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله تعالى بيوتهم نارا وقال عليه السلام إنها الصلاة التى شغل عنها سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام وفضلها لكثرة إشتغال الناس فى وقتها بتجاراتهم ومكاسبهم واجتماع ملائكة الليل وملائكة النهار حينئذ وقيل هى صلاة الظهر لأنها فى وسط النهار وكانت أشق الصلوات عليهم لما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصليها بالهاجرة فكانت أفضلها لقوله عليه السلام أفضل العبادات أحمزها وقيل هى صلاة الفجر لأنها بين صلاتى الليل والنهار والواقعة فى الحد المشترك بينهما ولأنها مشهودة كصلاة العصر وقيل هى صلاة المغرب لأنها متوسطة من حيث العدد ومن حيث الوقوع بين صلاتى النهار والليل وتر النهار ولاتنقص فى السفر وقيل هى صلاة العشاء لأنها بين الجهريتين الواقعتين فى طرفى الليل وعن عائشة وابن عباس رضى الله عنهم أنه عليه السلام كان يقرأ والصلاة الوسطى وصلاة العصر فتكون حينئذ إحدى الأربع قد خصت بالذكر مع العصر

لانفرادها بالفضل وقرىء وعلى الصلاة الوسطى وقرىء بالنصب على المدح ، وقرىء الوسطى ﴿ وقوموا لله ﴾ أى فى الصلاة ﴿ قانتين ﴾ ذاكرين له تعالى فى القيام لأن القنوت هو الذكر فيه وقيل هو إكمال الطاعة وإتمامها بغير إخلال بشىء من أركانها وقيل خاشعين ، وقال ابن المسيب المراد به القنوت فى الصبح .

﴿ فإن خفتم ﴾ أى من عدو أو غيره ﴿ فرجالا ﴾ جمع راجل كقيام وقائم أو رجل بمعنى راجل وقرىء بضم الراء مع التخفيف وبضمها مع التشديد أيضا وقرىء فرجلا أى راجلا ﴿ أو ركبانا ﴾ جمع راكب أى فصلوا راجلين أو راكبين حسبما يقتضيه الحال ولا تخلوا بها ما أمكن الوقوف فى الجملة وقد جوز الشافعى رحمه الله أداءها حال المسايفة أيضاً ﴿ فإذا أمنتم ﴾ بزوال الخوف ﴿ فاذكروا الله ﴾ أى فصلوا صلاة الأمن وعبر عنها بالذكر لأنه معظم أركانها ﴿ كما علمكم ﴾ متعلق بمحذوف وقع وصفا لمصدر محذوف أى ذكرا كائنا كما علمكم أى كتعليمه إياكم ﴿ مالم تكونوا تعلمون ﴾ من كيفية الصلاة والمراد بالتشبيه أن تكون الصلاة المؤداة موافقة لما علمه الله تعالى وإيرادها بذلك العنوان لتذكير النعمة أو اشكروا الله تعالى شكرا يوازى تعليمه إياكم مالم تكونوا تعلمونه من الشرائع والأحكام التى من جملتها كيفية إقامة الصلاة حالتى الخوف والأمن . هذا وفى إيراد الشرطية الأولى بكلمة إن المفيدة لمشكوكية وقوع الخوف وندرته وتصدير الشرطية الثانية بكلمة إذا المنبئة عن تحقق وقوع الأمن وكثرته مع الإيجاز فى جواب الأولى والإطناب فى جواب الثانية المبنيين على تنزيل مقام وقوع المأمور به فيهما منزلة مقام وقوع الأمر تنزيلا مستدعيا لإجراء مقتضى المقام الأول فى كل منهما مجرى مقتضى المقام الثانى من الجزالة ولطف الاعتبار ما فيه عبرة لأولى الأبصار ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا ﴾ عود إلى بيان بقية الأحكام المفصلة فيما سلف إثر بيان أحكام توسطت(١) بينهما لما أشير إليه من الحكمة الداعية إلى

فى ط : وسطت .

ذلك ﴿ وصية لأزواجهم ﴾ أى يوصون أو ليوصوا أو كتب الله عليهم وصية ويؤيد هذا قراءة من قرأ كتب عليكم الوصية لأزواجكم وقرىء بالرفع على تقدير مضاف فى المبتدأ أو الخبر أى حكم الذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم أو والذين يتوفون أهل وصية لأزواجهم أو كتب عليهم وصية أو عليهم وصية وقرىء متاع لأزواجهم بدل وصية ﴿ متاعا إلى الحول ﴾ منصوب بيوصون إن أضمرته وإلا فبالوصية أو بمتاع على القراءة الأخيرة ﴿ غير إخراج ﴾ بدل منه أو مصدر مؤكد كما فى قولك هذا القول غير ما تقول أو حال من أزواجهم أى غير مخرجات والمعنى يجب على الذين يتوفون أن يوصوا قبل الاحتضار لأزواجهم بأن يمتعن بعدهم حولا بالنفقة والسكنى وكان ذلك أول الإسلام ثم نسخت المدة بقوله تعالى (أربعة أشهر وعشرا) فإنه وإن كان متقدما فى التلاوة فهو[١] متأخر فى النزول وسقطت النفقة بتوريثها الربع أو الثمن وكذلك السكنى عندنا وعند الشافعى هى باقية ﴿ فإن خرجن ﴾ عن منزل الأزواج باختيارهن ﴿ فلا جناح عليكم ﴾ أيها الأئمة ﴿ فيما فعلن فى أنفسهن من معروف ﴾ لا ينكره الشرع كالتزين والتطيب وترك الحداد والتعرض للخطاب وفيه دلالة على أن المحظور إخراجها عند إرادة القرار وملازمة مسكن الزوج والحداد من غير أن يجب عليها ذلك وأنها كانت مخيرة بين الملازمة مع أخذ النفقة وبين الخروج مع تركها ﴿ والله عزيز ﴾ غالب على أمره يعاقب من خالفه ﴿ حكيم ﴾ يراعى فى أحكامه مصالح عباده ﴿ وللمطلقات ﴾ سواء كن مدخولا بهن أولا ﴿ متاع ﴾ أى مطلق المتعة الشاملة الواجبة والمستحبة وأوجبها سعيد بن جبير وأبو العالية والزهرى للكل وقيل المراد بالمتاع نفقة العدة وقيل اللام للعهد والمراد غير المدخول بهن والتكرير للتأكيد ﴿ بالمعروف ﴾ شرعا وعادة ﴿ حقا على المتقين ﴾ أى بما ينبغى ﴿ كذلك ﴾ أى مثل ذلك البيان الواضح ﴿ يبين الله لكم آياته ﴾

---

(١) سقطت من ط .

الدالة على أحكامه التى شرعها لعباده ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ لكى تفهموا ما فيها وتعملوا بموجبها ﴿ ألم تر ﴾ تقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأرباب الأخبار من شأنهم البديع فإن سماعهم لها بمنزلة الرؤية النظرية أو العلمية أو لكل أحد ممن له حظ من الخطاب إيذانا بأن قصتهم من الشهرة والشيوع بحيث يحق لكل أحد أن يحمل على الإقرار برؤيتهم وسماع قصتهم ويعجب بها وإن لم يكن ممن رآهم أو سمع بقصتهم فإن هذا الكلام قد جرى مجرى المثل فى مقام لما أنه شبه حال غير الرائى لشىء عجيب بحال الرائى له بناء على ادعاء ظهور أمره وجلائه بحيث استوى فى إدراكه الشاهد والغائب ثم أجرى الكلام معه كما يجرى مع الرائى قصداً إلى المبالغة فى شهرته وعراقته فى التعجب وتعدية الرؤية بإلى فى قوله تعالى ﴿ إلى الذين خرجوا من ديارهم ﴾ على تقدير كونها بمعنى الأبصار باعتبار معنى النظر على تقدير كونها إدراكا قلبيا لتضمين معنى الوصول والإنتهاء على معنى ألم ينته علمك إليهم ﴿ وهم ألوف ﴾ أى ألوف كثيرة قيل عشرة آلاف وقيل ثلاثون وقيل سبعون ألفا والجملة حال من فاعل خرجوا (١) وقوله عز وجل ﴿ حذر الموت ﴾ مفعول له . روى أن أهل دراورد(٢) قرية قبل واسط وقع فيهم الطاعون فخرجوا منها هاربين فأماتهم الله ثم أحياهم ليعتبروا ويعلموا ألا مفر من حكم الله عز سلطانه وقضاؤه وقيل مر عليهم حزقيل بعد زمان طويل وقد عريت عظامهم وتفرقت أوصالهم فلوى شدقيه وأصابعه تعجبا مما رأى من أمرهم فأوحى إليه ناد فيهم أن قوموا بإذن الله فنادى فإذا هم قيام يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت وقيل هم قوم من بنى إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد فهربوا حذرا من الموت فأماتهم الله تعالى ثمانية أيام ثم أحياهم . وقوله عز وجل :

﴿ فقال لهم الله موتوا ﴾ إما عبارة عن تعلق إرادته تعالى بموتهم دفعة ،

---

(١) فى ط . من ضمير خرجوا . (٢) فى ط . داوردان .

وإما تمثيل لإماتته تعالى إياهم ميتة نفس واحدة فى أقرب وقت وأدناه وأسرع زمان وأوحاه بأمر آمر مطاع لمأمور مطيع كما فى قوله تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) ، ﴿ ثم أحياهم ﴾ عطف إما على مقدر يستدعيه المقام أى فماتوا ثم أحياهم وإنما حذف للدلالة على الاستغناء عن ذكره لاستحالة تخلف مراده تعالى عن إرادته وإما على قال لما أنه عبارة عن الإماتة وفيه تشجيع للمسلمين على الجهاد والتعرض لأسباب الشهادة وأن الموت حيث لم يكن منه بد ولم ينفع منه المفر فأولى أن يكون فى سبيل الله تعالى ﴿ إن الله لذو فضل ﴾ عظيم ﴿ على الناس ﴾ قاطبة أما أولئك فقد أحياهم ليعتبروا بما جرى عليهم فيفوزوا بالسعادة العظمى ، وأما الذين سمعوا قصتهم فقد هداهم إلى مسلك الاعتبار والاستبصار ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ أى لا يشكرون فضله كما ينبغى ويجوز أن يراد بالشكر الاعتبار والاستبصار وإظهار الناس فى مقام الإضمار لمزيد التشنيع ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله ﴾ عطف على مقدر يعينه ما قبله كأنه قيل فاشكروا فضله بالاعتبار بما قص عليكم وقاتلوا فى سبيله لما علمتم أن الفرار لا ينجى من الحمام وأن المقدر لا مرد له فإن كان قد حان الأجل فموت فى سبيل الله عز وجل وإلا فنصر عزيز وثواب ﴿ واعلموا أن الله سميع ﴾ يسمع مقالة السابقين والمتخلفين ﴿ عليم ﴾ بما يضمرونه فى أنفسهم وهو من وراء الجزاء خيرا أو شرا فسارعوا إلى الامتثال واحذروا المخالفة والمساهلة .

﴿ من ذا الذى يقرض الله ﴾ من استفهامية مرفوعة المحل بالابتداء وذا خبره والموصول صفة له أو بدل منه وإقراض الله تعالى مثل لتقديم العمل العاجل طلباً للثواب الآجل والمراد ههنا إما الجهاد الذى هو عبارة عن بذل النفس والمال فى سبيل الله عز وجل ابتغاء لمرضاته وإما مطلق العمل الصالح المنتظم له انتظاما أوليا ﴿ قرضا حسنا ﴾ أى إقراضا مقرونا بالإخلاص وطيب النفس أو مقرضا حلالا طيباً ﴿ فيضاعفه له ﴾ بالنصب على جواب الاستفهام

حملا على المعنى فإنه فى معنى أيقرضه وقرىء بالرفع أى يضاعف أجره وجزاءه جعل ذلك مضاعفة له بناء على ما بينهما من المناسبة بالسببية والمسببية ظاهرا وصيغة المفاعله للمبالغة وقرىء فيضعفه بالرفع بالنصب ﴿أضعافا﴾ جمع ضعف ونصبه على أنه حال من الضمير المنصوب أو مفعول بأن يضمن المضاعفة معنى التصيير أو مصدر مؤكد على أن الضعف اسم للمصدر والجمع للتنوين ﴿ كثيرة ﴾ لا يعلم قدرها إلا الله تعالى وقيل الواحد بسبعمائة ﴿ والله يقبض ويبسط ﴾ أى يقتر على بعض ويوسع على بعض أو يقتر تارة ويوسع أخرى حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم كى لا يبدل أحوالكم ولعل تأخير البسط عن القبض فى الذكر للإيماء إلى أنه يعقبه فى الوجود تسلية للفقراء وقرىء يبصط بالصاد لمجاورة الطاء ﴿ وإليه ترجعون ﴾ فيجازيكم على ما قدمتم من الأعمال خيراً وشرا .

﴿ ألم تر ﴾ تقرير وتعجيب كما سبق قطع عنه للإيذان باستقلاله فى التعجب مع أن له مزيد ارتباط بما وسط بينهما من الأمر بالقتال ﴿ إلى الملأ من بنى إسرائيل ﴾ الملأ من القوم وجوههم وأشرافهم وهو اسم للجماعة لا واحد له من لفظه كالرهط والقوم سموا بذلك لما أنهم يملأون العيون مهابة والمجالس بهاء أو لأنهم مليئون بما يبتغى منهم ومن تبعيضية ومن فى قوله تعالى ﴿من بعد موسى﴾ ابتدائية وعاملها مقدر وقع حالا من الملأ أى كائنين بعض بنى إسرائيل من بعد وفاة موسى ولا ضير فى اتحاد الحرفين لفظا عند اختلافهما معنى ﴿ إذ قالوا ﴾ منصوب بمضمر يستدعيه المقام أى ألم تر إلى قصة الملأ أو حديثهم حين قالوا ﴿ لنبى لهم ﴾ هو يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف عليهما السلام وقيل شمعون بن صعبة بن علقمة من ولد لاوى بن يعقوب عليهما السلام وقيل أشمويل بن بال بن علقمة وهو بالعبرانية اسمعيل . قال مقاتل هو من نسل هرون عليه السلام وقال مجاهد أشمويل بن هلقايا ﴿ ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله ﴾ أى أنهض للقتال معنا أميرا نصدر فى تدبير أمر الحرب عن رأيه وقرىء نقاتل بالرفع على أنه حال مقدرة أى ابعثه لنا مقدرين القتال

أو استئناف مبنى على السؤال وقرىء يقاتل بالياء مجزوما ومرفوعا على الجواب للأمر والوصف للملكا ﴿ قال ﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق إليه الذهن كأنه قيل فماذا قال لهم النبى حينئذ فقيل قال ﴿ هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ﴾ فصل بين عسى وخبره بالشرط للاعتناء به أى هل قاربتم ألا تقاتلوا كما أتوقعه منكم والمراد تقرير أن المتوقع كائن وإنما لم يذكر فى معرض الشرط ما التمسوه بأن قيل هل عسيتم إن بعثت لكم ملكا الخ مع أنه أظهر تعلقا بكلامهم بل ذكر كتابة القتال عليهم للمبالغة فى بيان تخلفهم عنه فإنهم إذا لم يقاتلوا عند فرضية القتال عليهم بإيجاب الله تعالى فلئلا يقاتلوا عند عدم فرضيته أولى ولأن إيراد ما ذكروه ربما يوهم أن سبب تخلفهم عن القتال هو المبعوث لا نفس القتال وقرىء عسيتم بكسر السين وهى ضعيفة ﴿ قالوا ﴾ استئناف كما سبق ﴿ وما لنا ألا نقاتل ﴾ أى أى سبب لنا فى ألا نقاتل ﴿ فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ﴾ أى والحال أنه قد عرض لنا ما يوجب القتال إيجابا قويا من الإخراج عن الديار والأوطان والاغتراب من الأهل والأولاد وإفراد الأبناء بالذكر لمزيد تقوية أسباب القتال وذلك أن جالوت رأس العمالقة وملكهم وهو جبار من أولاد عمليق بن عاد كان هو ومن معه من العمالقة يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين وظهروا على بنى إسرائيل وأخذوا ديارهم وسبوا أولادهم وأسروا من أبناء ملوكهم أربعمائة وأربعين نفسا وضربوا عليهم الجزية وأخذوا توراتهم ﴿ فلما كتب عليهم القتال ﴾ بعد سؤال النبى عليه السلام ذلك وبعث الملك ﴿ تولوا ﴾ أى أعرضوا وتخلفوا لكن لا فى ابتداء الأمر بل بعد مشاهدة كثرة العدو وشوكته كما سيجىء تفصيله وإنما ذكر ههنا ما آل إليه(١) أمرهم إجمالا إظهارا لما بين قولهم وفعلهم من التنافى والتباين ﴿ إلا قليلا منهم ﴾ وهم الذين اكتفوا بالغرفة من النهر وجاوزوه وهم ثلثمائة وثلاثة عشر بعدد أهل بدر ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾

---

(١) فى ط : مآل أمرهم .

وعيد لهم على ظلمهم بالتولى عن القتال وترك الجهاد وتنافى أقوالهم وأفعالهم والجملة اعتراض تذييلى ﴿ وقال لهم نبيهم ﴾ شروع فى تفصيل ما جرى بينه عليه السلام وبينهم من الأقوال والأفعال إثر الإشارة الإجمالية إلى مصير حالهم أى قال لهم بعد ما أوحى إليه ما أوحى ﴿ إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا ﴾ طالوت علم عبرى كداود وجعله فعلوتا من الطول يأباه منع صرفه وملكا حال منه روى أنه عليه السلام لما دعا ربه أن يجعل لهم ملكا أتى بعصا يقاس بها من يملك عليهم فلم يساوها إلا طالوت ﴿ قالوا ﴾ استئناف كما مر ﴿ أنى يكون له الملك علينا ﴾ أى من أين يكون أو كيف يكون ذلك ﴿ ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ﴾ الواو الأولى حالية والثانية عاطفة جامعة للجملتين فى الحكم أى كيف يتملك علينا والحال أنه لايستحق التملك لوجود من هو أحق منه ولعدم ما يتوقف عليه الملك من المال وسبب هذا الاستبعاد أن النبوة كانت مخصوصة بسبط معين من أسباط بنى إسرائيل وهو سبط لاوى بن يعقوب عليه السلام والمملكة بسبط يهوذا ومنه داود وسليمان عليهما السلام ولم يكن طالوت من أحد هذين السبطين بل من ولد بنيامين قيل كان راعيا وقيل دباغا وقيل سقاء .

﴿ قال إن الله اصطفاه عليكم ﴾ لما استبعدوا تملكه بسقوط نسبه وبفقره رد عليهم ذلك أولا بأن ملاك الأمر هو اصطفاء الله تعالى وقد اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم وثانيا بأن العمدة فيه وفور العلم ليتمكن به من معرفة أمور السياسة وجسامة البدن ليعظم خطره فى القلوب ويقدر على مقاومة الأعداء ومكابدة الحروب وقد خصه الله تعالى منهما بحظ وافر وذلك قوله عز وجل ﴿ وزاده بسطة فى العلم ﴾ أى العلم المتعلق بالملك أو به وبالديانات أيضا وقيل قد أوحى إليه ونبىء ﴿ والجسم ﴾ قيل بطول القامة فإنه كان أطول من غيره برأسه ومنكبيه حتى أن الرجل القائم كان يمد يده فينال رأسه وقيل بالجمال وقيل بالقوة ﴿ والله يؤتى ملكه من يشاء ﴾ لما أنه مالك الملك والملكوت فعال لما يريد فله أن يؤتيه من يشاء من عباده ﴿ والله واسع ﴾

يوسع على الفقير ويغنيه ﴿ عليم ﴾ بمن يليق بالملك ممن لا يليق به وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة .

﴿ وقال لهم نبيهم ﴾ توسيطه فيما بين قوليه المحكيين عنه عليه السلام للإشعار بعدم اتصال أحدهما بالآخر وتخلل كلام من جهة المخاطبين متفرع على السابق مستتبع للاحق كأنهم طلبوا منه عليه السلام آية تدل على أنه تعالى اصطفى طالوت وملكه عليهم. روى أنهم قالوا ما آية ملكه فقال ﴿ إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت ﴾ أى الصندوق وهو فعلوت من التوب الذى هو الرجوع لما أنه لا يزال يرجع إليه ما يخرج منه وتاؤه مزيدة لغير التأنيث كملكوت ورهبوت والمشهور أن يوقف على تائه من غير أن تقلب هاء ومنهم من يقلبها إياها والمراد به صندوق التوراة وكان قد رفعه الله عز وجل بعد وفاة موسى عليه السلام سخطا على بنى إسرائيل لما عصوا واعتدوا فلما طلب القوم من نبيهم آية تدل على ملك طالوت قال لهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت من السماء والملائكة يحفظونه فأتاهم كما وصف والقوم ينظرون إليه حتى نزل عند طالوت وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما وقال أرباب الأخبار إن الله تعالى أنزل على آدم تابوتا فيه تماثيل الأنبياء عليهم السلام من أولاده وكان من عود الشمشاد نحوا من ثلاثة أذرع فى ذراعين فكان عند آدم عليه السلام إلى أن توفى فتوارثه أولاده واحد بعد واحد إلى أن وصل إلى يعقوب عليه السلام ثم بقى فى أيدى بنى إسرائيل إلى أن وصل إلى موسى عليه السلام فكان عليه الصلاة والسلام يضع فيه التوراة وكان إذا قاتل قدمه فكانت تسكن إليه نفوس بنى إسرائيل وكان عنده إلى أن توفى ثم تداولته أيدى بنى إسرائيل وكانوا إذا اختلفوا فى شىء تحاكموا إليه فيكلمهم ويحكم بينهم وكانوا إذا حضروا القتال يقدمونه بين أيديهم ويستفتحون به على عدوهم وكانت الملائكة تحمله فوق العسكر ثم يقاتلون العدو فإذا سمعوا من التابوت صيحة استيقنوا النصر فلما عصوا وأفسدوا سلط الله عليهم العمالقة فغلبوهم على

التابوت وسلبوه وجعلوه فى موضع البول والغائط فلما أراد الله تعالى أن يملك طالوت سلط عليهم البلاء حتى أن كل من بال عنده ابتلى بالبواسير وهلكت من بلادهم خمس مدائن فعلم الكفار أن ذلك بسبب استهانتهم بالتابوت فأخرجوه وجعلوه على ثورين فأقبل الثوران يسيران وقد وكل الله تعالى بهما أربعة من الملائكة يسوقونهما حتى أتوا منزل طالوت فلما سألوا نبيهم البينة على ملك طالوت قال لهم النبى إن آية ملكه أنكم تجدون التابوت فى داره فلما وجدوه عنده أيقنوا بملكه .

﴿ فيه سكينة من ربكم ﴾ أى فى إتيانه سكون لكم وطمأنينة كائنة من ربكم أو فى التابوت ماتسكنون إليه وهو التوراة المودعة فيه بناء على مامر من أن موسى عليه السلام إذا قاتل قدمه فتسكن إليه نفوس بنى إسرائيل وقيل السكينة صورة كانت فيه من زبرجد أو ياقوت لها رأس وذنب كرأس الهر وذنبه وجناحان فتئن فيزحف(١) التابوت نحو العدو وهم يمضون معه فإذا استقر ثبتوا وسكنوا ونزل النصر وعن على رضى الله عنه كان لها وجه كوجه الإنسان وفيها ريح هفافة ﴿ وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون ﴾ هى رضاض الألواح وعصا موسى وثيابه وشىء من التوراة وكان قد رفعه الله تعالى بعد وفاة موسى عليه السلام وآلهما أبناؤهما أو أنفسهما والآل مقحم لتفخيم شأنهما أو أنبياء بنى إسرائيل ﴿ تحمله الملائكة ﴾ حال من التابوت أى إن آية ملكه إتيانه حال كونه محمولا للملائكة وقد مر كيفية ذلك ولعل حمل الملائكة على الرواية الأخيرة عبارة عن سوقهم للثورين الحاملين له : ﴿ إن فى ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من شأن التابوت فهو من تمام كلام النبى عليه السلام لقومه أو إلى نقل القصة وحكايتها فهو ابتداء كلام من جهة الله تعالى جىء به قبل تمام القصة إظهاراً لكمال العناية به ، وإفراد حرفه

---

(١) فى ط : فيزف .

الخطاب مع تعدد المخاطبين على التقديرين بتأويل الفريق أو غيره كما سلف ﴿ لآية ﴾ عظيمة ﴿ لكم ﴾ دالة على ملك طالوت أو على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم حيث أخبر بهذه التفاصيل على ماهى عليه من غير سماع من البشر ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أى مصدقين بتمليكه أو بشىء من الآيات وإن شرطية والجواب محذوف ثقة بما قبله وقيل هى بمعنى إذ .

﴿ فلما فصل طالوت بالجنود ﴾ أى انفصل بهم عن بيت المقدس والأصل فصل نفسه ولما اتحد فاعله ومفعوله شاع استعماله محذوف المفعول حتى نزل منزلة القاصر كانفصل وقيل فصل فصولا وقد جوز كونه أصلا برأسه ممتازا من المتعدى بمصدره كوقف وقوفا ووقفه وقفاً وكصد صدوداً وصده صداً ورجع رجوعا ورجعه رجعا والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من طالوت أى ملتبسا بهم ومصاحبا لهم روى أنه قال لقومه لا يخرج معى رجل بنى بناء لم يفرغ منه ولا تاجر مشتغل بالتجارة ولا متزوج بامرأة لم يبن عليها ولا أبتغى إلا الشاب النشيط الفارغ فاجتمع إليه ممن اختارهم ثمانون ألفا وكان الوقت قيظا وسلكوا مفازة فسألوا أن يجرى الله تعالى لهم نهراً فبعد ما ظهر له ما تعلقت به مشيئته تعالى من جهة النبى عليه السلام أو بطريق الوحى عند من يقول بنبوته ﴿ قال إن الله مبتليكم بنهر ﴾ بفتح الهاء وقرىء بسكونها ﴿ فمن شرب منه ﴾ أى ابتدأ شربه من النهر بأن كرع لأنه الشرب منه حقيقة ﴿ فليس منى ﴾ أى من جملتى وأشياعى المؤمنين وقيل ليس بمتصل بى ومتحد معى من قولهم فلان منى كأنه بعضه لكمال اختلاطهما ﴿ ومن لم يطعمه ﴾ أى لم يذقه من طعم الشىء إذا ذاقه مأكولا كان أو مشروبا أو غيرهما قال :

وإن شئت حرمت النساء سواكم   وإن شئت لم أطعم نقاخا ولا بردا

أى نوما ﴿ فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده ﴾ استثناء من قوله تعالى: (فمن شرب منه) فليس منى وإنما أخر عن الجملة الثانية لإبراز كمال العناية بها ومعناه الرخصة فى اغتراف الغرفة باليد دون الكرع والغرفة ما يغرف وقرىء

بفتح الغين على أنها مصدر والباء متعلقة باغترف أو بمحذوف وقع صفة لغرفة أى غرفة كائنة بيده . يروى أن الغرفة كانت تكفى الرجل لشربه وإداوته(١) ودوابه وأما الذين شربوا منه فقد اسودت شفاههم وغلبهم العطش ﴿ فشربوا منه ﴾ عطف على مقدر يقتضيه المقام أى فابتلوا به فشربوا منه ﴿ إلا قليلا منهم ﴾ وهم المشار إليهم فيما سلف بالاستثناء من التولى وقرىء إلا قليل منهم ميلا إلى جانب المعنى وضربا عن عدوة اللفظ جانبا فإن قوله تعالى فشربوا منه فى قوة أن يقال فلم يطيعوه فحق أن يرد المستثنى مرفوعا كما فى قول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع   من المال إلا مسحت أو مجلف

فإن قوله لم يدع فى حكم لم يبق ﴿ فلما جاوزه ﴾ أى النهر ﴿ هو ﴾ أى طالوت ﴿ والذين آمنوا معه ﴾ عطف على الضمير المتصل المؤكد بالمنفصل والظرف متعلق بجاوز لا بآمنوا وقيل الواو حالية والظرف متعلق بمحذوف وقع خبرا من الموصول كأنه قيل فلما جاوزه والحال أن الذين آمنوا كائنون معه وهم أولئك القليل وفيه إشارة إلى أن من عداهم بمعزل من الإيمان ﴿ قالوا ﴾ أى بعض من معه من المؤمنين لبعض ﴿ لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ أى بمحاربتهم ومقاومتهم فضلا عن أن يكون لنا غلبة عليهم لما شاهدوا من الكثرة والشدة ، قيل كانوا مائة ألف مقاتل شاكى السلاح ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال مخاطبهم فقيل قال ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا الله ﴾ قيل أى الخلص منهم الذين يوقنون بلقاء(٢) الله تعالى بالبعث ويتوقعون ثوابه وإفرادهم بذلك الوصف لا ينافى إيمان الباقين فإن درجات المؤمنين فى التيقن والتوقع متفاوتة أو الذين يعلمون أنهم يستشهدون عما قريب فيلقون الله تعالى وقيل الموصول عبارة عن المؤمنين

---

(١) فى ط : وأدواته . والإداوة إناء ماء الوضوء .

(٢) فى ط يتيقنون لقاء

كافة والضمير فى قالوا للمنخذلين عنهم كأنهم قالوه اعتذارا عن التخلف والنهر بينهما .

﴿ كم من فئة ﴾ أى فرقة وجماعة من الناس من فأوت رأسه إذا شققتها أو من فاء إليه إذا رجع فوزنها على الأول فعة وعلى الثانى فلة ﴿ قليلة غلبت فئة كثيرة ﴾ خبرية كانت أو استفهامية مفيدة للتكثير وهى فى حيز الرفع بالابتداء خبرها غلبت أى كثير من الفئات القليلة غلبت الفئات الكثيرة ﴿ بإذن الله ﴾ أى بحكمه وتيسيره فإن دوران كافة الأمور على مشيئته تعالى فلا يذل من نصره وإن قل عدده ولا يعز من خذله وإن كثرت أسبابه وعدده وقد روعى فى الجواب نكتة بديعة حيث لم يقل أطاقت بفئة كثيرة حسبما وقع فى كلام أصحابهم مبالغة فى رد مقالتهم وتسكين قلوبهم وهذا كما ترى جواب ناشىء من كمال ثقتهم بنصر الله تعالى وتوفيقه ولا دخل فى ذلك لظن لقاء الله تعالى بالبعث لاسيما بالاستشهاد فإن العلم به ربما يورث اليأس من الغلبة ولا لتوقع ثوابه تعالى ولا ريب فى أن ما ذكر فى حيز الصلة ينبغى أن يكون مداراً للحكم الوارد على الموصول فلا أقل من أن يكون وصفا ملائما له فلعل المراد بلقائه تعالى لقاء نصره وتأييده عبر عنه بذلك مبالغة كما عبر عن مقارنة نصره تعالى لمعيته(١) سبحانه حيث قيل ﴿ والله مع الصابرين ﴾ فإن المراد به معية نصره وتوفيقه حتما وحملها على المعية بالإثابة كما فعل يأباه أنهم إنما قالوه تتميما لجوابهم وتأييداً له بطريق الاعتراض التذييلى تشجيعا لأصحابهم وتثبيتا لهم على الصبر المؤدى إلى الغلبة ولا تعلق له بما ذكر من المعية بالإثابة قطعا وكذا الحال إذا جعل ذلك ابتداء كلام من جهة الله تعالى جىء به تقريرا لكلامهم والمعنى قال الذين يظنون أو يعلمون من جهة النبى أو من جهة التابوت والسكينة أنهم ملاقوا نصر الله العزيز كم من فئة قليلة غلبت

---

(١) فى ط : بمقارنته .

فئة كثيرة بإذن الله تعالى فنحن أيضا نغلب جالوت وجنوده وإيراد خبر أن اسما مع أن اللقاء مستقبل للدلالة على تقرره وتحققه .

﴿ ولما برزوا ﴾ أى ظهر طالوت ومن معه من المؤمنين وصاروا إلى براز من الأرض فى موطن الحرب ﴿ لجالوت وجنوده ﴾ وشاهدوا ماهم عليه من العدد والعدد وأيقنوا أنهم غير مطيقين لهم عادة ﴿ قالوا ﴾ أى جميعا عند تقوى القلوب الفريق الأول منهم بقول الفريق الثانى متضرعين إلى الله تعالى مستعينين به ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً ﴾ على مقاساة شدائد الحرب واقتحام موارده الصعبة الضيقة وفى التوسل بوصف الربوبية المنبىء(١) عن التبليغ إلى الكمال وإيثار الإفراغ المعرب عن الكثرة وتنكير الصبر المفصح عن التفخيم من الجزالة ما لا يخفى ﴿ وثبت أقدامنا ﴾ فى مداحض القتال ومزال النزال وثبات القدم عبارة عن كمال القوة والرسوخ عند المقارعة وعدم التزلزل وقت المقاومة لا لمجرد التقرر فى حيز واحد ﴿ وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ بقهرهم وهزمهم ووضع الكافرين فى موضع الضمير العائد إلى جالوت وجنوده للإشعار بعلة النصر عليهم ولقد راعوا فى الدعاء ترتيبا بديعا حيث قدموا سؤال إفراغ الصبر الذى هو ملاك الأمر ثم سؤال تثبيت القدم المتفرع عليه ثم سؤال النصر الذى هو الغاية القصوى ﴿ فهزموهم ﴾ أى كسروهم بلا مكث ﴿ بإذن الله ﴾ بنصره وتأييده إجابة لدعائهم وإيثار هذه الطريقة على طريقة قوله عز وجل (فآتاهم الله ثواب الدنيا) الخ للمحافظة على مضمون قولهم غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴿ وقتل داود جالوت ﴾ كان إيشى أبو داود فى عسكر طالوت معه ستة من بنيه وكان داود عليه السلام سابعهم وكان صغيرا يرعى الغنم فأوحى الله تعالى إلى نبيهم أنه الذى يقتل جالوت فطلبه من أبيه فجاء ، وقد مر فى طريقه بثلاثة أحجار قال له كل منها احملنا فإنك بنا تقتل جالوت فحملها فى مخلاته وقيل لما أبطأ على أبيه خبر إخوته فى المصاف أرسل داود

---

(١) فى ط المنبئة

إليهم ليأتيه بخبرهم فأتاهم وهم فى القراع وقد برز جالوت بنفسه إلى البراز ولا يكاد يبارزه أحد وكان ظله ميلا فقال داود لإخوته أما فيكم من يخرج إلى هذا الأقلف فزجروه فتنحى⁽¹⁾ ناحية أخرى ليس فيها إخوته وقد مر به طالوت وهو يحرض الناس على القتال فقال له داود ما تصنعون بمن يقتل هذا الأقلف قال طالوت أنكحه ابنتى وأعطيه شطر مملكتى فبرز له داود فرماه بما معه من الأحجار بالمقلاع فأصابه فى صدره فنفذت الأحجار منه وقتلت بعده ناسا كثيرين⁽²⁾ وقيل إنما كلمته الأحجار عند بروزه لجالوت فى المعركة فأنجز له طالوت ما وعده وقيل إنه حسده وأخرجه من مملكته ثم ندم على ما صنعه فذهب يطلبه إلى أن قتل وملك داود عليه السلام وأعطى النبوة وذلك قوله تعالى ﴿ وآتاه الله الملك ﴾ أى ملك بنى إسرائيل فى مشارق الأرض المقدسة ومغاربها ﴿ والحكمة ﴾ أى النبوة ولم يجتمع فى بنى إسرائيل الملك والنبوة قبله إلا له بل كان الملك فى سبط والنبوة فى سبط آخر وما اجتمعوا قبله على ملك قط ﴿ وعلمه مما يشاء ﴾ أى مما يشاء الله تعالى تعليمه إياه لا مما يشاء داود عليه السلام كما قيل لأن معظم ما علمه تعالى إياه مما لا يكاد يخطر ببال أحد ولا يقع فى أمنية بشر ليتمكن من طلبه ومشيئته كالسرد بإلانة الحديد ومنطق الطير والدواب ونحو ذلك من الأمور الخفية .

﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ﴾ الذين يباشرون الشر والفساد ﴿ ببعض ﴾ آخر منهم بردهم عما هم عليه بما قدر الله تعالى من القتل كما فى القصة المحكية أو غيره وقرىء دفاع الله على أن صيغة المغالبة للمبالغة ﴿ لفسدت الأرض ﴾ وبطلت منافعها وتعطلت مصالحها من الحرث والنسل وسائر ما يعمر الأرض ويصلحها وقيل لولا أن الله ينصر المسلمين على الكافرين لفسدت الأرض بعيثهم وقتلهم المسلمين أو لو يدفعهم بالمسلمين لعم الكفر ونزلت السخطة فاستؤصل أهل الأرض قاطبة ﴿ ولكن الله ذو فضل ﴾

---

(١) فى ط : فنحا ناحية (٢) فى ط : كثيرا .

عظيم لا يقادر قدره ﴿ على العالمين ﴾ كافة وهذا إشارة إلى قياس استثنائى مؤلف من وضع نقيض المقدم منتج لنقيض التالى خلا أنه قد وضع موضعه ما يستتبعه ويستوجبه أعنى كونه تعالى ذا فضل على العالمين إيذانا بأنه تعالى متفضل فى ذلك الدفع من غير أن يجب عليه ذلك وأن فضله تعالى غير منحصر فيه بل هو فرد من أفراد فضله العظيم كأنه قيل ولكنه تعالى يدفع فساد بعضهم ببعض فلا تفسد الأرض وتنتظم به مصالح العالم وتنصلح أحوال الأمم ﴿ تلك ﴾ إشارة إلى ما سلف من حديث الألوف وخبر طالوت على التفصيل المرقوم وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو شأن المشار إليه ﴿ آيات الله ﴾ المنزلة من عنده تعالى والجملة مستأنفة وقوله تعالى : ﴿ نتلوها عليك ﴾ أى بواسطة جبريل عليه السلام إما حال من الآيات والعامل معنى الإشارة وإما جملة مستقلة لا محل لها من الإعراب ﴿ بالحق ﴾ فى حيز النصب على أنه حال من مفعول نتلوها أى ملتبسة باليقين الذى لا يرتاب فيه أحد من أهل الكتاب وأرباب التواريخ لما يجدونها موافقة لما فى كتبهم أو من فاعله أى نتلوها عليك ملتبسين بالحق والصواب أو من الضمير المجرور أى ملتبسا بالحق والصدق ﴿ وإنك لمن المرسلين ﴾ أى من جملة الذين أرسلوا إلى الأمم لتبليغ رسالاتنا وإجراء أوامرنا وأحكامنا عليهم فإن هذه المعاملة لا تجرى بيننا وبين غيرهم فهى شهادة منه سبحانه برسالته عليه الصلاة والسلام إثر بيان ما يستوجبها والتأكيد من مقتضيات مقام الجاحدين بها .

﴿ تلك الرسل ﴾ استئناف فيه رمز إلى أنه عليه الصلاة والسلام من أفاضل الرسل العظام عليهم الصلاة والسلام إثر بيان كونه من جملتهم والإشارة إلى الجماعة الذين من جملتهم النبى صلى الله عليه وسلم فاللام فى المآل للاستغراق وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم وقيل إلى الذين ذكرت قصصهم فى السورة وقيل إلى الذين ثبت علمه صلى الله عليه وسلم بهم ﴿ فضلنا بعضهم على بعض ﴾ فى مراتب الكمال بأن خصصناه حسبما تقتضيه مشيئتنا بمآثر جليلة خلا عنها غيره ﴿ منهم من كلم الله ﴾

تفصيل للتفصيل المذكور إجمالا أى فضله بأن كلمه تعالى بغير سفير وهو موسى عليه الصلاة والسلام حيث كلمه تعالى ليلة الحيرة وفى الطور وقرىء كلم الله بالنصب وقرىء كالم الله من المكالمة فإنه كلم الله تعالى كما أنه تعالى كلمه ويؤيده كليم الله بمعنى مكالمه وإيراد الاسم الجليل بطريق الإلتفات لتربية المهابة والرمز إلى ما بين التكليم والرفع وبين ما سبق من مطلق التفضيل وما ألحق من إيتاء البينات والتأييد بروح القدس من التفاوت ﴿ ورفع بعضهم درجات ﴾ أى ومنهم من رفعه على غيره من الرسل المتفاوتين فى معارج الفضل بدرجات قاصية ومراتب نائية وتغيير الأسلوب لتربية مابينهم من اختلاف الحال فى درجات الشرف والظاهر أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ينبىء عنه الإخبار بكونه عليه الصلاة والسلام منهم فإن ذلك فى قوة بعضهم فإنه قد خص بالدعوة العامة والحجج الجمة والمعجزات المستمرة والآيات المتعاقبة بتعاقب الدهور والفضائل العلمية والعملية الفائتة للحصر والإبهام لتفخيم شأنه وللإشعار بأنه العلم الفرد الغنى عن التعيين وقيل إنه إبراهيم عليه الصلاة والسلام حيث خصه تعالى بكرامة الخلة وقيل إدريس عليه السلام حيث رفعه مكانا عليا وقيل أولو العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام .

﴿ وآتينا عيسى ابن مريم البينات ﴾ الآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار بالمغيبات أو الإنجيل ﴿ وأيدناه ﴾ أى قويناه ﴿ بروح القدس ﴾ بضم الدال وقرىء بسكونها أى بالروح المقدسة كقولك رجل صدق وهى روح عيسى وإنما وصفت بالقدس للكرامة أو لأنه عليه السلام لم تضمه الأصلاب والأرحام الطوامث وقيل بجبريل وقيل بالإنجيل كما مر وإفراده عليه السلام بما ذكر لرد ما بين أهل الكتابين فى شأنه عليه السلام من التفريط والإفراط والآية ناطقة بأن الأنبياء عليهم السلام متفاوتة الأقدار فيجوز تفضيل بعضهم على بعض ولكن بقاطع ﴿ ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم ﴾ أى جاءوا من بعد الرسل من الأمم

المختلفة أى لو شاء الله عدم اقتتالهم ما اقتتلوا بأن جعلهم متفقين على اتباع الرسل المتفقة على كلمة الحق فمفعول المشيئة محذوف لكونه مضمون الجزاء على القاعدة المعروفة وقيل تقديره ولو شاء هدى الناس جميعاً ما اقتتل الخ وليس بذاك ﴿ من بعد ماجاءتهم ﴾ من جهة أولئك الرسل ﴿ البينات ﴾ المعجزات الواضحة والآيات الظاهرة الدالة على حقية الحق الموجبة لاتباعهم الزاجرة عن الإعراض عن سننهم المؤدى إلى الاقتتال فمن متعلقة باقتتل ﴿ ولكن اختلفوا ﴾ استدراك من الشرطية أشير به إلى قياس استثنائى مؤلف من وضع نقيض مقدمها منتج لنقيض تاليها إلا أنه قد وضع فيه الاختلاف موضع نقيض المقدم المترتب عليه للإيذان بأن الاقتتال ناشىء من قبلهم لا من جهته تعالى ابتداء كأنه قيل ولكن لم يشأ عدم اقتتالهم لأنهم اختلفوا اختلافا فاحشا ﴿ فمنهم من آمن ﴾ بما جاءت به أولئك الرسل من البينات وعملوا به ﴿ ومنهم من كفر ﴾ بذلك كفراً لا ارعواء له عنه فاقتضت الحكمة عدم مشيئته تعالى لعدم اقتتالهم فاقتتلوا بموجب اقتضاء أحوالهم ﴿ ولو شاء الله ﴾ عدم اقتتالهم بعد هذه المرتبة أيضا من الاختلاف والشقاق المستتبعين للاقتتال بحسب العادة ﴿ ما اقتتلوا ﴾ وما نبض منهم عرق التطاول والتعادى لما أن الكل تحت ملكوته تعالى فالتكرير ليس للتأكيد كما ظن بل للتنبيه على أن اختلافهم ذلك ليس موجبا(١) لعدم مشيئته تعالى لعدم اقتتالهم كما يفهم ذلك من وضعه فى الاستدراك موضعه بل هو سبحانه مختار فى ذلك حتى لو شاء بعد ذلك عدم اقتتالهم ما اقتتلوا كما يفصح عنه الاستدراك بقوله عز وجل ﴿ ولكن الله يفعل ما يريد ﴾ أى من الأمور الوجودية والعدمية التى من جملتها عدم مشيئته عدم اقتتالهم فإن الترك أيضا من جملة الأفعال أى يفعل ما يريد حسبما يريد من غير أن يوجبه عليه موجب أو يمنعه منه مانع وفيه دليل بين على أن الحوادث تابعة لمشيئته سبحانه خيراً كان أو شرا إيمانا كان أو كفرا ﴿ يا أيها

---

(١) فى ط : موجب : خطأ .

الذين آمنوا أنفقوا ﴾ فى سبيل الله ﴿ مما رزقناكم ﴾ أى شيئا مما رزقناكموه على أن ما موصولة حذف عائدها والتعرض لوصوله منه تعالى للحث على الإنفاق كما فى قوله تعالى ﴿ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ والمراد به الإنفاق الواجب بدلالة ما بعده من الوعيد ﴿ من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ﴾ كلمة من متعلقة بما تعلقت به أختها ولا ضير فيه لاختلاف معنييهما فإن الأولى تبعضية وهذه لابتداء الغاية أى أنفقوا بعض ما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا تقدرون على تلافى ما فرطتم فيه إذ لا تبايع فيه حتى تتبايعوا ما تنفقونه أو تفتدون به من العذاب ولا خلة حتى يسامحكم به أخلاؤكم أو يعينوكم عليه ولا شفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ورضى له قولا حتى تتوسلوا بشفعاء يشفعون لكم فى حط ما فى ذمتكم وإنما رفعت الثلاثة مع قصد التعميم لأنها فى التقدير جواب هل فيه بيع أو خلة أو شفاعة وقرىء بفتح الكل ﴿ والكافرون ﴾ أى والتاركون للزكاة وإيثاره عليه للتغليظ والتهديد كما فى قوله تعالى (ومن كفر) مكان ومن لم يحج وللإيذان بأن ترك الزكاة من صفات الكفار قال تعالى (وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة) ﴿ هم الظالمون ﴾ أى الذين ظلموا أنفسهم بتعريضها للعقاب ووضعوا المال فى غير موضعه وصرفوه إلى غير وجهه ﴿ الله لا إله إلا هو ﴾ مبتدأ وخبر أى هو المستحق للمعبودية لا غير وفى إضمار خبر لا مثل فى الوجود أو يصح أن يوجد خلاف للنحاة معروف ﴿ الحى ﴾ الباقى الذى لا سبيل عليه للموت والفناء وهو إما خبر ثان أو خبر مبتدأ محذوف أو بدل من لا إله إلا هو أو بدل من الله أو صفة له ويعضده القراءة بالنصب على المدح لاختصاصه بالنعت ﴿ القيوم ﴾ فيعول من قام بالأمر إذا حفظه أى دائم القيام بتدبير الخلق وحفظه وقيل هو القائم بذاته المقيم لغيره ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ السنة ما يتقدم النوم من الفتور قال عدى بن الرقاع العاملى :

وسنان أقصده النعاس فرنقت   فى عينه سنة وليس بنائم

والنوم حالة تعرض للحيوان من استرخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الأبخرة المتصاعدة بحيث تقف المشاعر الظاهرة عن الإحساس رأسا والمراد بيان انتفاء اعتراء شىء منهما له سبحانه لعدم كونهما من شأنه تعالى لا لأنهما قاصران بالنسبة إلى القوة الإلهية فإنه بمعزل من مقام التنزيه فلا سبيل إلى حمل النظم الكريم على طريقة المبالغة والترقى بناء على أن القادر على دفع السنة قد لا يقدر على دفع النوم القوى كما فى قولك فلان يقظ لا تغلبه سنة ولا نوم وإنما تأخير النوم للمحافظة على ترتيب الوجود الخارجى وتوسيط كلمة لا للتنصيص على شمول النفى لكل منهما كما فى قوله عز وجل (ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة) الآية وأما التعبير عن عدم الاعتراء والعروض بعدم الأخذ فلمراعاة الواقع إذ عروض السنة والنوم لمعروضهما إنما يكون بطريق الأخذ والاستيلاء وقيل هو من باب التكميل والجملة تأكيد لما قبلها من كونه تعالى حيا قيوما فإن من يعتريه أحدهما يكون موقوف الحياة قاصرا فى الحفظ والتدبير وقيل استئناف مؤكد لما سبق وقيل حال مؤكدة من الضمير المستكن فى القيوم ﴿له ما فى السموات وما فى الأرض﴾ تقرير لقيوميته تعالى واحتجاج به على تفرده فى الألوهية والمراد بما فيهما ما هو أعم من أجزائهما الداخلة فيهما ومن الأمور الخارجة عنهما المتمكنة فيهما من العقلاء وغيرهم .

﴿من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه﴾ بيان لكبرياء شأنه وأنه لا يدانيه أحد ليقدر على تغيير ما يريده شفاعة وضراعة فضلا عن أن يدافعه عنادا أو مناصبة ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ أى ما قبلهم وما بعدهم أو بالعكس لأنك مستقبل المستقبل ومستدبر الماضى أو أمور الدنيا أو أمور الآخرة أو بالعكس أو ما يحسونه ، وما يعقلونه أو ما يدركونه وما لا يدركونه والضمير لما فى السموات والأرض بتغليب ما فيهما من العقلاء على غيرهم أو لما دل عليه من ذا الذى من الملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿ولا يحيطون بشىء من علمه﴾ أى من معلوماته ﴿إلا بما شاء﴾ أن يعلموه وعطفه على ما قبله لما أنهما جميعاً دليل على تفرده تعالى بالعلم الذاتى التام الدال على

وحدانيته ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ﴾ الكرسى ما يجلس عليه ولا يفضل عن مقعد القاعد وكأنه منسوب إلى الكرس الذى هو الملبد وليس ثمة كرسى ولا قاعد ولا قعود وإنما هو تمثيل لعظمة شأنه عز وجل وسعة سلطانه وإحاطة علمه بالأشياء قاطبة على طريقة قوله عز قائلا (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) وقيل كرسيه مجاز عن علمه أخذا من كرسى العالم وقيل عن ملكه أخذا من كرسى الملك فإن الكرسى كلما كان أعظم تكون عظمة القاعد أكثر وأوفر فعبر عن شمول علمه أو بسطة ملكه وسلطانه بسعة كرسيه وإحاطته بالأقطار العلوية والسفلية وقيل هو جسم بين يدى العرش محيط بالسموات السبع لقوله صلى الله عليه وسلم « ما السموات السبع والأرضون السبع مع الكرسى إلا كحلقة فى فلاة وفضل العرش على الكرسى كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة » ولعله الفلك الثامن وعن الحسن البصرى أنه العرش .

﴿ ولا يؤوده ﴾ أى لا يثقله ولا يشق عليه ﴿ حفظهما ﴾ أى حفظ السموات والأرض وإنما لم يتعرض لذكر ما فيهما لما أن حفظهما مستتبع لحفظه ﴿ وهو العلى ﴾ المتعالى بذاته عن الأشباه والأنداد ﴿ العظيم ﴾ الذى يستحقر بالنسبة إليه كل ما سواه ولما ترى من انطواء هذه الآية الكريمة على أمهات المسائل الإلهية المتعلقة بالذات العلية والصفات الجلية فإنها ناطقة بأنه تعالى موجود متفرد بالإلهية متصف بالحياة واجب الوجود لذاته موجد لغيره لما أن القيوم هو القائم بذاته المقيم لغيره منزه عن التحيز والحلول مبرأ عن التغير والفتور لا مناسبة بينه وبين الأشباح ولا يعتريه ما يعترى النفوس والأرواح مالك الملك والملكوت ومبدع الأصول والفروع ذو البطش الشديد لا يشفع عنده إلا من أذن له فيه العالم وحده بجميع الأشياء جليها وخفيها كليها وجزئيها واسع الملك والقدرة لكل ما من شأنه أن يملك ويقدر عليه لا يشق عليه شاق ولا يشغله شأن عن شأن متعال عما تناله الأوهام عظيم

لا تحدق به الأفهام تفردت بفضائل رائقة وخواص فائقة خلت عنها أخواتها قال صلى الله عليه وسلم « إن أعظم آية فى القرآن آية الكرسى من قرأها بعث الله تعالى ملكا يكتب من حسناته ويمحو من سيئاته إلى الغد من تلك الساعة » وقال عليه الصلاة والسلام « ما قرئت هذه الآية فى دار إلا هجرتها الشياطين ثلاثين يوما ولا يدخلها ساحر ولا ساحرة أربعين ليلة » وقال « ياعلى علمها ولدك وأهلك وجيرانك فما نزلت آية أعظم منها » وقال عليه السلام « من قرأ آية الكرسى فى دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت ولا يواظب عليها إلا صديق أو عابد ومن قرأها إذا أخذ مضجعه آمنه الله تعالى على نفسه وجاره وجاره والأبيات حوله » وقال عليه الصلاة والسلام « سيد البشر آدم وسيد العرب محمد ولا فخر وسيد الفرس سلمان وسيد الروم صهيب وسيد الحبشة بلال وسيد الجبال الطور وسيد الأيام يوم الجمعة وسيد القرآن سورة البقرة وسيد البقرة آية الكرسى » وتخصيص سيادته صلى الله عليه وسلم للعرب بالذكر فى أثناء تعداد السيادات الخاصة لايدل على نفى مادلت عليه الأخبار المستفيضة وانعقد عليه الإجماع من سيادته عليه السلام لجميع افراد البشر .

﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ جملة مستأنفة جىء بها إثر بيان تفرده سبحانه وتعالى بالشئون الجليلة الموجبة للإيمان به وحده إيذانا بأن من حق العاقل ألا يحتاج إلى التكليف والإلزام بل يختار الدين الحق من غير تردد وتلعثم وقيل هو خبر فى معنى النهى أى لاتكرهوا فى الدين فقيل منسوخ بقوله تعالى (جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) وقيل خاص بأهل الكتاب حيث حصنوا أنفسهم بأداء الجزية وروى أنه كان لأنصارى من بنى سالم بن عوف ابنان قد تنصرا قبل مبعثه عليه السلام ثم قدما المدينة فلزمهما أبوهما وقال والله لا أدعكما حتى تسلما فأبيا فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت فخلاهما ﴿ قد تبين الرشد من الغى ﴾ استئناف تعليلى صدر بكلمة التحقيق لزيادة تقرير مضمونه كما فى قوله عز وجل (قد بلغت من لدنى عذرا)

أى إذ قد تبين بما ذكر من نعوته تعالى التى يمتنع توهم اشتراك غيره فى شىء منها الإيمان الذى هو الرشد الموصل إلى السعادة الأبدية من الكفر الذى هو الغى المؤدى إلى الشقاوة السرمدية ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ﴾ هو بناء مبالغة من الطغيان كالملكوت والجبروت قلب مكان عينه ولامه فقيل هو فى الأصل مصدر وإليه ذهب الفارسى وقيل اسم جنس مفرد مذكر وإنما الجمع والتأنيث لإرادة الآلهة وهو رأى سيبويه وقيل هو جمع وهو مذهب المبرد وقيل يستوى فيه المفرد والجمع والتذكير والتأنيث أى فمن يعمل إثر ما تميز الحق من الباطل بموجب الحجج الواضحة والآيات البينة ويكفر بالشيطان أو بالأصنام أو بكل ما عبد من دون الله تعالى أوصد عن عبادته سبحانه تعالى لما تبين له كونه بمعزل من استحقاق العبادة ﴿ ويؤمن بالله ﴾ وحده لما شاهد من نعوته الجليلة المقتضية لاختصاص الألوهية به عز وجل الموجبة للإيمان والتوحيد وتقديم الكفر بالطاغوت على الإيمان به تعالى لتوقفه عليه فإن التخلية متقدمة على التحلية ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ أى بالغ فى التمسك بها كأنه وهو ملتبس به يطلب من نفسه الزيادة فيه والثبات عليه ﴿ لا انفصام لها ﴾ الفصم الكسر بغير صوت كما أن القصم هو الكسر بصوت(١) ونفى الأول يدل على انتفاء الثانى بالأولوية والجملة إما استئناف مقرر لما قبلها من وثاقة العروة وإما حال من العروة والعامل استمسك أو من الضمير المستتر فى الوثقى ولها فى حيز الخبر أى كائن لها والكلام تمثيل مبنى على تشبيه الهيئة العقلية المنتزعة من ملازمة الاعتقاد الحق الذى لا يحتمل النقيض أصلا لثبوته بالبراهين النيرة القطعية بالهيئة الحسية المنتزعة من التمسك بالحبل المحكم المأمون انقطاعه فلا استعارة فى المفردات ويجوز أن تكون العروة الوثقى مستعارة للاعتقاد الحق الذى هو الإيمان والتوحيد لا للنظر الصحيح المؤدى إليه كما قيل فإنه غير مذكور فى حيز الشرط والاستمساك بها مستعارا

---

(١) فى ط : بغير إبانة ... بإبانة

لما ذكر من الملازمة أو ترشيحا للاستعارة الأولى ﴿ والله سميع ﴾ بالأقوال ﴿ عليم ﴾ بالعزائم والعقائد والجملة اعتراض تذييلى حامل على الإيمان رادع عن الكفر والنفاق بما فيه من الوعد والوعيد .

﴿ الله ولى الذين آمنوا ﴾ أى معينهم أو متولى أمورهم والمراد بهم الذين ثبت فى علمه تعالى إيمانهم فى الجملة مآلا أو حالا ﴿ يخرجهم ﴾ تفسير للولاية أو خبر ثان عند من يجوز كونه جملة أو حال من الضمير فى ولى ﴿ من الظلمات ﴾ التى هى أعم من ظلمات الكفر والمعاصى وظلمات الشبه بل مما فى بعض مراتب العلوم الاستدلالية من نوع ضعف وخفاء بالقياس إلى مراتبها القوية الجلية بل مما فى جميع مراتبها بالنظر إلى مرتبة العيان كما ستعرفه ﴿ إلى النور ﴾ الذى يعم نور الإيمان ونور الإيقان بمراتبه ونور العيان أى يخرج بهدايته وتوفيقه كل واحد منهم من الظلمة التى وقع فيها إلى ما يقابلها من النور وإفراد النور لتوحيد الحق كما أن جمع الظلمات لتعدد فنون الضلال ﴿ والذين كفروا ﴾ أى الذين ثبت فى علمه تعالى كفرهم ﴿ أولياؤهم الطاغوت ﴾ أى الشياطين وسائر المضلين عن طريق الحق فالموصول مبتدأ وأولياؤهم مبتدأ ثان والطاغوت خبره والجملة خبر للأول والجملة الحاصلة معطوفة على ماقبلها ولعل تغيير السبك للاحتراز عن وضع الطاغوت فى مقابلة الاسم الجليل ولقصد المبالغة بتكرير الإسناد مع الإيماء إلى التباين بين الفريقين من كل وجه حتى من جهة التعبير أيضا ﴿ يخرجونهم ﴾ بالوساوس وغيرها من طرق الإضلال والإغواء ﴿ من النور ﴾ الفطرى الذى جبل عليه الناس كافة أو من نور البينات التى يشاهدونها من جهة النبى صلى الله عليه وسلم بتنزيل تمكنهم من الاستضاءة بها منزلة نفسها ﴿ إلى الظلمات ﴾ ظلمات الكفر والانهماك فى الغى وقيل نزلت فى قوم ارتدوا عن الإسلام والجملة تفسير لولاية الطاغوت أو خبر ثان كما مر وإسناد الإخراج من حيث السببية إلى الطاغوت لايقدح فى استناده من حيث الخلق إلى قدرته سبحانه ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة وما يتبعه من القبائح ﴿ أصحاب النار ﴾ أى ملابسوها وملازموها بسبب مالهم من الجرائم ﴿ هم فيها خالدون ﴾ ماكثون أبدا .

﴿ ألم ترإلى الذى حاج إبراهيم فى ربه ﴾ استشهاد على ما ذكر من أن الكفرة أولياؤهم الطاغوت وتقرير له على طريقة قوله تعالى (ألم تر أنهم فى كل واديهيمون) كما أن ما بعده استشهاد على ولايته تعالى للمؤمنين وتقرير لها وإنما بدىء بهذا لرعاية الاقتران بينه وبين مدلوله ولاستقلاله بأمر عجيب حقيق بأن يصدر به المقال وهو اجتراؤه على المحاجة فى الله عز وجل وما أتى بها فى أثنائها من العظيمة المنادية بكمال حماقته ولأن فيما بعده تعدداً وتفصيلا يورث تقديمه انتشار النظم على أنه قد أشير فى تضاعيفه إلى هداية الله تعالى أيضاً بواسطة إبراهيم عليه السلام فإن يحكى عنه من الدعوة إلى الحق وإدحاض حجة الكافر من آثار ولايته تعالى وهمزة الاستفهام لإنكار النفى وتقرير المنفى أى ألم تنظر أو ألم ينته علمك إلى هذا الطاغوت المارد كيف تصدى لإضلال الناس وإخراجهم من النور إلى الظلمات أى قد تحققت الرؤية وتقررت بناء على أن أمره من الظهور بحيث لا يكاد يخفى على أحد ممن له حظ من الخطاب فظهر أن الكفرة أولياؤهم الطاغوت وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام تشريف له وإيذان بتأييده فى المحاجة ﴿ أن آتاه الله الملك ﴾ أى لأن آتاه إياه حيث أبطره ذلك وحمله على المحاجة أو حاجه لأجله وضعا للمحاجة التى هى أقبح وجوه الكفر موضع ما يجب عليه من الشكر كما يقال عاديتنى لأن أحسنت إليك أووقت أن آتاه الله الملك وهو حجة على من منع إيتاء الله الملك للكافر .

﴿ إذ قال إبراهيم ﴾ ظرف لحاج أو بدل من آتاه على الوجه الأخير ﴿ ربى الذى يحيى ويميت ﴾ بفتح ياء ربى وقرىء بحذفها . روى أنه عليه الصلاة والسلام لما كسر الأصنام سجنه ثم أخرجه فقال من ربك الذى تدعو إليه قال ربى الذى يحيى ويميت أى يخلق الحياة والموت فى الأجساد ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل كيف حاجه فى هذه المقالة القوية الحقة فقيل قال ﴿ أنا أحيى وأميت ﴾ روى أنه دعا برجلين فقتل أحدهما وأطلق الآخر فقال ذلك ﴿ قال إبراهيم ﴾ استئناف كما سلف كأنه قيل فماذا قال

إبراهيم لمن فى هذه المرتبة من الحماقة وبماذا أفحمه فقيل قال ﴿ فإن الله يأتى بالشمس من المشرق ﴾ حسبما تقتضيه مشيئته ﴿ فأت بها من المغرب ﴾ إن كنت قادرا على مثل مقدوراته تعالى فلم(١) يلتفت عليه السلام إلى إبطال مقالة اللعين إيذانا بأن بطلانها من الجلاء والظهور بحيث لا يكاد يخفى على أحد وأن التصدى لإبطالها من قبيل السعى فى تحصيل الحاصل وأتى بمثال لا يجد اللعين فيه مجالا للتمويه والتلبيس ﴿ فبهت الذى كفر ﴾ أى صار مبهوتا وقرىء على بناء الفاعل على أن الموصول مفعوله أى فغلب إبراهيم الكافر وأسكته وإيراد الكفر فى حيز الصلة للإشعار بعلة الحكم والتنصيص على على كون المحاجة كفرا ﴿ والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله أى لا يهدى الذين ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب المخلد بسبب إعراضهم عن قبول الهداية إلى مناهج الاستدلال أو إلى سبيل النجاة أو إلى طريق الجنة يوم القيامة .

﴿ أو كالذى مر على قرية ﴾ استشهاد على ما ذكر من ولايته تعالى للمؤمنين وتقرير له معطوف على الموصول السابق وإيثار أو الفارقة على الواو الجامعة للاحتراز عن توهم اتحاد المستشهد عليه من أول الأمر والكاف إما اسمية كما اختاره قوم جىء بها للتنبيه على تعدد الشواهد وعدم انحصارها فيما ذكر كما فى قولك الفعل الماضى مثل نصر إما زائدة كما ارتضاه آخرون والمعنى أو لم تر الى مثل الذى أو الى الذى مر على قرية كيف هداه الله تعالى وأخرجه من ظلمة الاشتباه إلى نور العيان والشهود أى قد رأيت ذلك وشاهدته فإذن لا ريب فى أن الله ولى الذين آمنوا الخ . هذا وإما جعل الهمزة لمجرد التعجيب على أن يكون المعنى فى الأول ألم تنظر إلى الذى حاج الخ أى انظر إليه وتعجب من أمره وفى الثانى أو أرأيت مثل الذى مر الخ إيذانا بأن حاله وما جرى عليه فى الغرابة بحيث لا يرى له مثل كما استقر عليه

---

(١) فى ط : لم

رأى الجمهور فغير خليق بجزالة التنزيل وفخامة شأنه الجليل فتدبر والمار هو عزير بن شرخيا قاله قتادة والربيع وعكرمة وناجية بن كعب وسليمان ابن يزيد والضحاك والسدى رضى الله عنهم وقيل هو أرميا بن حلقيا من سبط هرون عليه السلام قاله وهب وعبيد الله بن عمير وقيل أرميا هو الخضر بعينه قال مجاهد كان المار رجلا كافرا بالبعث وهو بعيد والقرية بيت المقدس قاله وهب وعكرمة والربيع ، وقيل هى دير هرقل على شط دجلة وقال الكلبى هى دير سابر آباد وقال السدى هى دير سلما باد والأول هو الأظهر والأشهر روى أن بنى إسرائيل لما بالغوا فى تعاطى الشر والفساد وجاوزوا فى العتو والطغيان كل حد معتاد سلط الله تعالى عليهم بخت نصر البابلى فسار إليهم فى ستمائة ألف راية حتى وطىء الشام وخرب بيت المقدس وجعل بنى إسرائيل أثلاثا ثلث منهم قتلهم وثلث منهم أسكنهم بالشام(١) وثلث منهم سباهم وكانوا مائة ألف غلام يافع وغير يافع فقسمهم بين الملوك الذين كانوا معه فأصاب كل مالك منهم أربعة غلمة وكان عزير من جملتهم فلما نجاه الله تعالى منهم بعد حين مر بحماره بيت المقدس فرآه على أفظع مرأى وأوحش منظر وذلك قوله عز وجل ﴿ وهى خاوية على عروشها ﴾ أى ساقطة على سقوفها بأن سقطت العروش ثم الحيطان من خوى البيت إذا سقط أو من خوت الأرض أى تهدمت والجملة حال من ضمير مر أو من قرية عند من يجوز الحال من النكرة مطلقا ﴿ قال ﴾ أى تلهفا عليها وتشوقا إلى عمارتها مع استشعار اليأس عنها ﴿ أنى يحي هذه الله ﴾ وهى على ما يرى من الحالة العجيبة المباينة للحياة وتقديمها على الفاعل للاعتناء بها من حيث أن الاستبعاد ناشىء من جهتها لا من جهة الفاعل وأنى نصب على الظرفية إن كانت بمعنى متى وعلى الحالية من هذه إن كانت بمعنى كيف والعامل يحي وأياما كان فالمراد استبعاد عمارتها بالبناء والسكان من بقايا أهلها الذين تفرقوا أيدى سبا ومن غيرهم وإنما عبر عنها

---

(١) فى ط: أقرهم بالشام

بالإحياء الذى هو علم فى البعد عن الوقوع عادة تهويلا للخطب وتأكيدا للاستبعاد كما أنه لأجله عبر عن خرابها بالموت حيث قيل ﴿ بعد موتها ﴾ وحيث كان هذا التعبير معربا عن استبعاد الإحياء بعد الموت على أبلغ وجه وآكده أراه الله عز وجل آثر ذى أثير أبعد الأمرين فى نفسه ثم فى غيره ثم أراه ما استبعده صريحا مبالغة فى إزاحة ما عسى يختلج فى خلده وأما حمل إحيائها على إحياء أهلها فيأباه التعرض لحال القرية دون حالهم والاقتصار على ذكر موتهم دون كونهم ترابا وعظاما مع كونه أدخل فى الاستبعاد لشدة مباينته للحياة وغاية بعده عن قبولها على أنه لم تتعلق إرادته تعالى بإحيائهم كما تعلقت بعمارتها ومعاينة المار لها كما ستحيط به خبرا .

﴿ فأماته الله ﴾ وألبثه على الموت ﴿ مائة عام ﴾ روى أنه لما دخل القرية ربط حماره فطاف بها ولم ير بها أحدا فقال ما قال وكانت أشجارها قد أثمرت فتناول من التين والعنب وشرب من عصيره ونام فأماته الله تعالى فى منامه وهو شاب وأمات حماره وبقية تينه وعنبه وعصيره عنده ثم أعمى الله تعالى عنه عيون المخلوقات فلم يره أحد فلما مضى من موته سبعون سنة وجه الله عز وعلا ملكا عظيما من ملوك فارس يقال له يوشك إلى بيت المقدس ليعمره ومعه ألف قهرمان مع كل قهرمان ثلثمائة ألف عامل فجعلوا يعمرونه وأهلك الله تعالى بخت نصر ببعوضة دخلت دماغه ونجى الله تعالى من بقى من بنى إسرائيل وردهم إلى بيت المقدس وتراجع إليه من تفرق منهم فى الأكناف فعمروه ثلاثين سنة وكثروا وكانوا كأحسن ما كانوا عليه فلما تمت المائة من موت عزير أحياه الله تعالى وذلك قوله تعالى ﴿ ثم بعثه ﴾ وإيثاره على أحياه للدلالة على سرعته وسهولة تأتيه على البارىء تعالى كأنه بعثه من النوم وللإيذان بأنه أعاده كهيئته يوم موته عاقلا فاهما مستعدا للنظر والاستدلال ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال له بعثه فقيل قال : ﴿ كم لبثت ﴾ ليظهر له عجزه عن الإحاطة بشئونه تعالى وأن إحياءه ليس بعد مدة يسيرة ربما يتوهم أنه هين فى الجملة بل بعد مدة طويلة وينحسم به

مادة استبعاده بالمرة ويطلع فى تضاعيفه على أمر آخر من بدائع آثار قدرته تعالى وهو إبقاء الغذاء المتسارع إلى الفساد بالطبع على ما كان عليه دهرا طويلا من غير تغير ما وكم نصب على الظرفية مميزها محذوف أى كم وقتا لبثت والقائل هو الله تعالى أو ملك مأمور بذلك من قبله تعالى قيل نودى من السماء ياعزير كم لبثت بعد الموت ؟

﴿ قال لبثت يوما أو بعض يوم ﴾ قاله بناء على التقريب والتخمين أو استقصاراً لمدة لبثه وأما ما يقال من أنه مات ضحى وبعث بعد المائة قبيل الغروب فقال قبل النظر إلى الشمس يوما فالتفت إليها فرأى منها بقية فقال أو بعض يوم على وجه الإضراب فبمعزل عن التحقيق إذ لا وجه للجزم بتمام اليوم ولو بناء على حسبان الغروب لتحقق النقصان من أوله ﴿ قال ﴾ استئناف كما سلف ﴿ بل لبثت مائة عام ﴾ عطف على مقدر أى ما لبثت ذلك القدر بل هذا المقدار ﴿ فانظر ﴾ لتعاين أمرا آخر من دلائل قدرتنا ﴿ إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ﴾ أى لم يتغير فى هذه المدة المتطاولة مع تداعيه إلى الفساد ، روى أنه وجد تينه وعنبه كما جنى وعصيره كما عصر والجملة المنفية حال بغير واو كقوله تعالى (لم يمسسهم سوء) إما من الطعام والشراب وإفراد الضمير لجريانهما مجرى الواحد كالغذاء وإما من الأخير اكتفاء بدلالة حاله على حال الأول ويؤيده قراءة من قرأ وهذا شرابك لم يتسن والهاء أصلية أو هاء سكت واشتقاقه من السنه لما أن لامها هاء أو واو وقيل أصله لم يتسنن من الحمأ المسنون فقلبت نونه حرف علة كما فى تقضى البازى وقد جوز أن يكون معنى لم يتسنه لم يمر عليه السنون التى مرت لا حقيقة بل تشبيها أى هو على حاله كأنه لم يلبث مائة عام وقرىء لم يسنه بادغام التاء فى السين .

﴿ وانظر إلى حمارك ﴾ كيف نخرت عظامه وتفرقت وتقطعت أوصاله وتمزقت ليتبين لك ما ذكر من لبثك(1) المديد وتطمئن به نفسك وقوله

---

(١) فى ط : من اللبث

عز وجل ﴿ ولنجعلك آية للناس ﴾ عطف على مقدر متعلق بفعل مقدر قبله بطريق الاستئناف مقرر لمضمون ما سبق أى فعلنا ما فعلنا من إحيائك بعد ما ذكر لتعاين ما استبعدته من الإحياء بعد دهر طويل ولنجعلك آية للناس الموجودين فى هذا القرن بأن يشاهدوك وأنت من أهل القرون الخالية ويأخذوا منك ما طوى عنهم منذ أحقاب من علم التوراة كما سيأتى أو متعلق بفعل مقدر بعده أى ولنجعلك آية لهم على الوجه المذكور فعلنا ما فعلنا فهو على التقديرين دليل على ما ذكر من اللبث المديد ولذلك فرق بينه وبين الأمر بالنظر إلى حماره وتكرير الأمر فى قوله تعالى : ﴿ وانظر إلى العظام ﴾ مع أن المراد عظام الحمار أيضا لما أن المأمور به أولا هو النظر إليها من حيث دلالتها على ما ذكر من اللبث المديد وثانيا هو النظر إليها من حيث تعتريها الحياة ومباديها أى وانظر إلى عظام الحمار لتشاهد كيفية الإحياء فى غيرك بعد ما شاهدت نفسه فى نفسك ﴿ كيف ننشزها ﴾ بالزاى المعجمة أى ترفع بعضها إلى بعض ونردها إلى أماكنها من الجسد فنركبها تركيبا لائقا بها وقال الكسائى نلينها ونعظمها ولعل من فسره بنحييها أراد بالإحياء هذا المعنى. وكذا من قرأ ننشرها بالراء من أنشر الله تعالى الموتى أى أحياها لا معناه الحقيقى لقوله تعالى

﴿ ثم نكسوها لحماً ﴾ أى نسترها به كما يستر الجسد باللباس وأما من قرأ ننشرها بفتح النون وضم الشين فلعله أراد به ضد الطى كما قال الفراء. فالمعنى كيف نبسطها والجملة إما حال من العظام أى وانظر إليها مركبة مكسوة لحماً أو بدل اشتمال أى وانظر إلى العظام كيفية إنشازها وبسط اللحم عليها ولعل عدم التعرض لكيفية نفخ الروح لما أنها مما لا تقتضى الحكمة بيانه ، روى أنه نودى أيتها العظام البالية أن الله يأمرك أن تجتمعى فاجتمع كل جزء من أجزائها التى ذهب بها الطير والسباع وطارت بها الرياح من كل سهل وجبل فانضم بعضها إلى بعض والتصق كل عضو بما يليق به الضلع والذراع بمحلها والرأس بموضعها ثم الأعصاب والعروق ثم انبسط عليه اللحم ثم

الجلد ثم خرجت منه الشعور ثم نفخ فيه الروح فإذا هو قائم ينهق .

﴿ فلما تبين له ﴾ أى ما دل عليه الأمر بالنظر إليه من كيفية الإحياء بمباديه والفاء للعطف على مقدر يستدعيه الأمر المذكور وإنما حذف للإيذان بظهور تحققه واستغنائه عن الذكر وللإشعار بسرعة وقوعه كما فى قوله عز وجل (فلما رآه مستقرا عنده) بعد قوله (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) كأنه قيل فأنشزها الله تعالى وكساها لحماً فنظر إليها فتبين له كيفيته فلما تبين له ذلك أى اتضح اتضاحا تاما ﴿ قال أعلم أن الله على كل شيء ﴾ من الأشياء التى من جملتها ما شاهده فى نفسه وفى غيره من تعاجيب الآثار ﴿ قدير ﴾ لا يستعصى عليه أمر من الأمور وإيثار صيغة المضارع للدلالة على أن علمه بذلك مستمر نظرا إلى أن أصله لم يتغير ولم يتبدل بل إنما تبدل بالعيان وصفه وفيه إشعار بأنه إنما قال ماقال بناء على الاستبعاد العادى واستعظاما للأمر وقد قيل فاعل تبين مضمر يفسره مفعول أعلم أى فلما تبين له أن الله على كل شيء قدير قال أعلم أن الله على كل شيء قدير فتدبر وقرىء تبين له على صيغة المجهول وقرىء قال اعلم على صيغة الأمر ، روى أنه ركب حماره وأتى محلته وأنكره الناس وأنكر الناس وأنكر المنازل فانطلق على وهم منه حتى أتى منزله فإذا هو بعجوز عمياء مقعدة قد أدركت زمن عزير فقال لها عزير ياهذه هذا منزل عزير قالت نعم وأين ذكرى عزير وقد(١) فقدناه منذ كذا وكذا فبكت بكاء شديداً قال فإنى عزير قالت سبحان الله أنى يكون ذلك قال قد أماتنى الله مائة عام ثم بعثنى قالت إن عزيرا كان رجلا مستجاب الدعوة فادع الله لى يرد على بصرى حتى أراك فدعا ربه ومسح بيده عينيها فصحتا فأخذ بيدها فقال لها قومى بإذن الله فقامت صحيحة كأنما نشطت من عقال فنظرت إليه فقالت أشهد أنك عزير فانطلقت إلى محلة بنى إسرائيل

---

(١) فى ط : قد

وهم فى أنديتهم وكان بها ابن لعزير قد بلغ مائة وثمانى عشرة سنة وبنو بنيه شيوخ فنادت هذا عزير قد جاءكم فكذبوها فقالت انظروا فإنى بدعائه رجعت إلى هذه الحالة فنهض الناس فأقبلوا إليه فقال ابنه كان لأبى شامة سوداء بين كتفيه مثل الهلال فكشف فإذا هو كذلك وقد كان قتل بخت نصر ببيت المقدس من قراء التوراة أربعين ألف رجل ولم يكن يومئذ بينهم نسخة من التوراة ولا أحد يعرف التوراة فقرأها عليهم عن ظهر قلبه من غير أن يخرم منها حرفا فقال رجل من أولاد المسبيين ممن ورد بيت المقدس بعد مهلك بخت نصر حدثنى أبى عن جدى أنه دفن التوراة يوم سبينا فى خابية فى كرم فإن أريتمونى كرم جدى أخرجتها لكم فذهبوا إلى كرم جده ففتشوا فوجدوها فعارضوها بما أملى عليهم عزير من ظهر القلب فما اختلفا فى حرف واحد فعند ذلك قالوا هو ابن الله ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

﴿ وإذ قال إبراهيم ﴾ دليل آخر على ولايته تعالى للمؤمنين وإخراجه لهم من الظلمات إلى النور وإنما لم يسلك به مسلك الاستشهاد كما قبله بأن يقال أو كالذى قال رب الخ لجريان ذكره عليه السلام فى أثناء المحاجة ولأنه لا دخل لنفسه عليه السلام فى أصل الدليل كدأب عزير عليه السلام فإن ما جرى عليه من إحيائه بعد مائة عام من جملة الشواهد على قدرته تعالى وهدايته والظرف منتصب بمضمر صرح بمثله فى نحو قوله تعالى (واذكروا إذ جعلكم خلفاء) أى واذكر وقت قوله عليه السلام وما وقع حينئذ من تعاجيب صنع الله تعالى لتقف على ما مر من ولايته تعالى وهدايته وتوجيه الأمر بالذكر فى أمثال هذه المواقع إلى الوقت دون ما وقع فيه من الواقعات مع أنها المقصودة بالتذكير لما ذكر غير مرة من المبالغة فى إيجاب ذكرها لما أن إيجاب ذكر الوقت إيجاب لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهانى ولأن الوقت مشتمل عليها مفصلة فإذا استحضر كانت حاضرة بتفاصيلها بحيث

---

(١) فى ط : وكان فى مجلس

لا يشذ عنها شيء مما ذكر عند الحكاية أو لم يذكر كأنها مشاهدة عيانا ﴿ رب ﴾ كلمة استعطاف قدمت بين يدى الدعاء مبالغة فى استدعاء الإجابة ﴿ أرنى ﴾ من الرؤية البصرية المتعدية إلى واحد وبدخول همزة النقل طلبت مفعولا آخر هو الجملة الاستفهامية المعلقة لها فإنها تعلق كما يعلق النظر البصرى أى اجعلنى مبصرا ﴿ كيف تحيي الموتى ﴾ بأن تحييها وأنا أنظر إليها وكيف فى محل نصب على التشبيه بالظرف عند سيبويه وبالحال عند الأخفش والعامل فيها تحيي أى فى أى حال أو على أى حال تحيي قال القرطبى الاستفهام بكيف إنما هو سؤال عن حال شيء متقرر الوجود عند السائل والمسئول فالاستفهام ههنا عن هيئة الإحياء المتقرر عند السائل أى بصرنى كيفية إحيائك للموتى وإنما سأله عليه السلام ليتأيد إيقانه بالعيان ويزداد قلبه اطمئنانا على اطمئنان وأما ما قيل من أن نمرود لما قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم عليه السلام إن إحياء الله تعالى برد الأرواح إلى الأجساد فقال نمرود هل عاينته فلم يقدر على أن يقول نعم فانتقل إلى تقرير آخر ثم سأل ربه أن يريه ذلك فيأباه تعليل السؤال بالاطمئنان .

﴿ قال ﴾ استئناف كما مر غير مرة ﴿ أولم تؤمن ﴾ عطف على مقدر أى ألم تعلم ولم تؤمن بأنى قادر على الإحياء كيف أشاء حتى تسألنى إراءته قاله عز وعلا وهو أعلم بأنه عليه السلام أثبت الناس إيمانا وأقواهم يقينا ليجيب بما أجاب به فيكون ذلك لطفا للسامعين ﴿ قال بلى ﴾ علمت وآمنت بأنك قادر على الإحياء على أى كيفية شئت ﴿ ولكن ﴾ سألت ماسألت ﴿ ليطمئن قلبي ﴾ بمضامة العيان إلى الإيمان والإيقان وأزداد بصيرة بمشاهدته على كيفية معينة .

﴿ قال فخذ ﴾ الفاء لجواب شرط محذوف أى إن أردت ذلك فخذ ﴿ أربعة من الطير ﴾ قيل هو اسم لجمع طائر كركب وسفر وقيل جمع له كتاجر وتجر وقيل هو مصدر سمى به الجنس وقيل هو تخفيف طير بمعنى طائر كهين فى هين ومن متعلقة بخذ أو بمحذوف وقع صفة لأربعة أى أربعة كائنة من

الطير قيل هي طاوس وديك وغراب وحمامة وقيل نسر بدل الأخير وتخصيص الطير بذلك لأنه أقرب إلى الإنسان وأجمع لخواص الحيوان ولسهولة تأتى ما يفعل به من التجزئة والتفريق وغير ذلك ﴿ فصرهن ﴾ من صاره يصوره أى أماله وقرىء بكسر الصاد من صاره يصيره أى أملهن واضممهن وقرىء فصرهن بضم الصاد وكسرها وتشديد الراء من صره يصره ويصره إذا جمعه وقرىء فصرهن من التصرية بمعنى الجمع أى اجمعهن ﴿ إليك ﴾ لتتأملها وتعرف شياتها مفصلة حتى تعلم بعد الإحياء أن جزءاً من أجزائها لم ينتقل من موضعه الأول أصلا ، روى أنه أمر بأن يذبحها وينتف ريشها ويقطعها ويفرق أجزاءها ويخلط ريشها ودماءها ولحومها ويمسك رؤسها ثم أمر بأن يجعل أجزاءها على الجبال وذلك قوله تعالى ﴿ ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ﴾ أى جزءًن وفرق أجزاءهن على ما بحضرتك من الجبال قيل كانت أربعة أجبل وقيل سبعة فجعل على كل جبل ربعا أو سبعاً من كل طائر وقرىء جزؤا بضمتين وجزا بالتشديد بطرح همزته تخفيفا ثم تشديده عند الوقف ثم إجراء الوصل مجرى الوقف .

﴿ ثم ادعهن يأتينك ﴾ فى حيز الجزم على أنه جواب الأمر ولكنه بنى لاتصاله بنون جمع المؤنث ﴿ سعيا ﴾ أى ساعيات مسرعات أو ذوات سعى طيرانا أو مشيا وإنما اقتصر على حكاية أوامره عز وجل من غير تعرض لامتثاله عليه السلام ولا لما ترتب عليه من عجائب آثار قدرته تعالى كما روى أنه عليه السلام نادى فقال تعالين بإذن الله فجعل كل جزء منهن يطير إلى صاحبه حتى صارت جثثا ثم أقبلن إلى رؤسهن فانضمت كل جثة إلى رأسها فعادت كل واحدة منهن إلى ما كانت عليه من الهيئة للإيذان بأن ترتب تلك الأمور على الأوامر الجليلة واستحالة تخلفها عنها من الجلاء والظهور بحيث لا حاجة له إلى الذكر أصلا وناهيك بالقصة دليلا على فضل الخليل ويمن الضراعة فى الدعاء وحسن الأدب فى السؤال حيث أراه الله تعالى ما سأله فى الحال على أيسر ما يكون من الوجوه وأرى عزيرا ما أراد بعدما أماته مائة عام

﴿ واعلم أن الله عزيز ﴾ غالب على أمره لا يعجزه شيء عما يريده ﴿ حكيم ﴾ ذو حكمة بالغة فى أفاعيله فليس بناء أفعاله على الأسباب العادية لعجزه عن إيجادها بطريق آخر خارق للعادات بل لكونه متضمنا للحكم والمصالح .

﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ﴾ أى فى وجوه الخير من الواجب والنفل ﴿ كمثل حبة ﴾ لا بد من تقدير مضاف فى أحد الجانبين أى مثل نفقتهم كمثل حبة أو مثلهم كمثل باذر حبة ﴿ أنبتت سبع سنابل ﴾ أى خرجت ساقا تشعب منها سبع شعب لكل واحدة منها سنبلة ﴿ فى كل سنبلة مائة حبة ﴾ كما يشاهد ذلك فى الذرة والدخن فى الأراضى المغلة بل أكثر من ذلك وإسناد الإنبات إلى الحبة مجازى كإسناده إلى الأرض والربيع وهذا التمثيل تصوير للأضعاف كأنها حاضرة بين يدى الناظر ﴿ والله يضاعف ﴾ تلك المضاعفة أو فوقها إلى ما شاء الله تعالى ﴿ لمن يشاء ﴾ أن يضاعف له بفضله على حسب حال المنفق من إخلاصه وتعبه ولذلك تفاوتت مراتب الأعمال فى مقادير الثواب ﴿ والله واسع ﴾ لا يضيق عليه ما يتفضل به من الزيادة ﴿ عليم ﴾ بنية المنفق ومقدار إنفاقه وكيفية تحصيل ما أنفقه ﴿ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ﴾ جملة مبتدأة جيء بها لبيان كيفية الإنفاق الذى بين فضله بالتمثيل المذكور ﴿ ثم لا يتبعون ما أنفقوا ﴾ أى ما أنفقوه أو إنفاقهم ﴿ منا ولا أذى ﴾ المن أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه ويريه أنه أوجب بذلك حقا والأذى أن يتطاول عليه بسبب إنعامه عليه وإنما قدم المن لكثرة وقوعه وتوسيط كلمة لا للدلالة على شمول النفى لإتباع كل واحد منهما وثم لإظهار علو رتبة المعطوف ، قيل نزلت فى عثمان رضى الله عنه حين جهز جيش العسرة بألف بعير بأقتابها وأحلاسها وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه حين أتى النبى صلى الله عليه وسلم بأربعة آلاف درهم صدقة ولم يكد يخطر ببالهما شيء من المن أو الأذى ﴿ لهم أجرهم ﴾ أى حسبما وعدلهم فى ضمن التمثيل وهو جملة من مبتدأ وخبر وقعت خبرا عن الموصول وفى تكرير الإسناد وتقييد الأجر بقوله ﴿ عند ربهم ﴾ من التأكيد والتشريف

مالا يخفى وتخلية الخبر عن الفاء المفيدة لسببية ما قبلها لما بعدها للإيذان بأن ترتب الأجر على ما ذكر من الإنفاق وترك إتباع المن والأذى أمر بين لا يحتاج إلى التصريح بالسببية وأما إيهام أنهم أهل لذلك وإن لم يفعلوا فكيف بهم إذا فعلوا فيأباه مقام الترغيب فى الفعل والحث عليه ﴿ ولاخوف عليهم) فى الدارين من لحوق مكروه من المكاره ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ لفوات مطلوب من المطالب قل أو جل أى لايعتريهم مايوجبه لا أنه يعتريهم ذلك لكنهم لا يخافون ولا يحزنون ولا أنه لا يعتريهم خوف وحزن أصلا بل يستمرون على النشاط والسرور ، كيف لاواستشعار الخوف والخشية استعظاما لجلال الله وهيبته واستقصارا للجد والسعى فى إقامة حقوق العبودية من خواص الخاصة والمقربين والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا عالما أن النفى وإن دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام .

﴿ قول معروف ﴾ أى كلام جميل تقبله القلوب ولا تنكره يرد به السائل من غير إعطاء شىء ﴿ ومغفرة ﴾ أى ستر لما وقع من السائل من الإلحاف فى المسئلة وغيره مما يثقل على المسئول وصفح عنه وإنما صح الابتداء بالنكرة فى الأول لاختصاصها بالوصف وفى الثانى بالعطف أو بالصفة المقدرة أى ومغفرة كائنة من المسئول ﴿ خير ﴾ أى للسائل ﴿ من صدقة يتبعها أذى ﴾ لكونها مشوبة بضرر ما يتبعها وخلوص الأولين من الضرر والجملة مستأنفة مقررة لاعتبار ترك إتباع المن والأذى وتفسير المغفرة بنيل مغفرة من الله تعالى بسبب الرد الجميل أو بعفو السائل بناء على اعتبار الخيرية بالنسبة إلى المسئول يؤدى إلى أن يكون فى الصدقة الموصوفة بالنسبة إليه خير فى الجملة مع بطلانها بالمرة ﴿ والله غنى ﴾ لا يحوج الفقراء إلى تحمل مؤنة المن والأذى ويرزقهم من جهة أخرى ﴿ حليم ﴾ لا يعاجل

---

(١) فى ط : الخواص

أصحاب المن والأذى بالعقوبة لا أنهم لا يستحقونها بسببهما والجملة تذييل لما قبلها مشتمل على الوعد والوعيد مقرر لاعتبار الخيرية بالنسبة إلى السائل قطعا ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أقبل عليهم بالخطاب إثر بيان ما بطريق الغيبة مبالغة فى إيجاب العمل بموجب النهى ﴿ لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ أى لا تحبطوا أجرها بواحد منهما ﴿ كالذى ﴾ فى محل النصب إما على أنه نعت لمصدر محذوف أى لا تبطلوها إبطال الذى ﴿ ينفق ماله رئاء الناس ﴾ وإما على أنه حال من فاعل لا تبطلوها مشابهين الذى ينفق أى الذى يبطل إنفاقه بالرياء وقيل من ضمير المصدر المقدر على ما هو رأى سيبويه وانتصاب رئاء إما على أنه علة لينفق أى لأجل رئائهم أو على أنه حال من فاعله أى ينفق ماله مرائيا والمراد به المنافق لقوله تعالى ﴿ ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ حتى يرجو ثوابا أو يخشى عقابا .

﴿ فمثله ﴾ الفاء لربط ما بعدها بما قبلها أى فمثل المرائى فى الإنفاق وحالته العجيبة ﴿ كمثل صفوان ﴾ أى حجر أملس ﴿ عليه تراب ﴾ أى شىء يسير منه ﴿ فأصابه وابل ﴾ أى مطر عظيم القطر ﴿ فتركه صلدا ﴾ أملس ليس عليه شىء من الغبار أصلا ﴿ لا يقدرون على شىء مما كسبوا ﴾ لا ينتفعون بما فعلوا رياء ، ولا يجدون له ثوابا قطعا كقوله تعالى (فجعلناه هباء منثورا) والجملة استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا يكون حالهم حينئذ فقيل لا يقدرون الخ ومن ضرورة كون مثلهم كما ذكر كون مثل من يشبههم وهم أصحاب المن والأذى كذلك والضميران الأخيران للموصول باعتبار المعنى كما فى قوله عز وجل (وخضتم كالذى خاضوا) لما أن المراد به الجنس أو الجمع أو الفريق كما أن الضمائر الأربعة السابقة له باعتبار اللفظ ﴿ والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ إلى الخير والرشاد والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبله وفيه تعريض بأن كلا من الرياء والمن والأذى من خصائص الكفار ولا بد للمؤمنين أن يجتنبوها ﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ﴾

أى لطلب رضاه ﴿ وتثبيتا من أنفسهم ﴾ أى ولتثبيت بعض أنفسهم على الإيمان فمن تبعيضية كما فى قولهم هز من عطفه وحرك من نشاطه فإن المال شقيق الروح فمن بذل ماله لوجه الله تعالى فقد ثبت بعض نفسه ومن بذل ماله وروحه فقد ثبتها كلها أو تصديقا للإسلام وتحقيقا للجزاء من أصل أنفسهم فمن ابتدائية كما فى قوله تعالى (حسدا من عند أنفسهم) ويحتمل أن يكون المعنى وتثبيتا من أنفسهم عند المؤمنين أنها صادقة الإيمان مخلصة فيه ويعضده قراءة من قرأ وتبيينا من أنفسهم وفيه تنبيه على أن حكمة الإنفاق للمنفق تزكية النفس عن البخل وحب المال الذى هو رأس كل خطيئة .

﴿ كمثل جنة بربوة ﴾ الربوة بالحركات الثلاث وقد قرىء(١) بها المكان المرتفع أى مثل نفقتهم فى الزكاء كمثل بستان كائن بمكان مرتفع مأمون من أن يصطلمه البرد للطافة هوائه بهبوب الرياح الملطفة له فإن أشجار الربا تكون أحسن منظرا وأزكى ثمرا وأما الأراضى المنخفضة فقلما تسلم ثمارها من البرد لكثافة هوائها بركود الرياح وقرىء كمثل حبة ﴿ أصابها وابل ﴾ مطر عظيم القطر ﴿ فآتت أكلها ﴾ ثمرتها وقرىء بسكون الكاف تخفيفا ﴿ ضعفين ﴾ أى مثلى ما كانت تثمر فى سائر الأوقات بسبب ما أصابها من الوابل والمراد بالضعف المثل وقيل أربعة أمثال ونصبه على الحال من أكلها أى مضاعفا ﴿ فإن لم يصبها وابل فطل ﴾ أى فطل يكفيها لجودتها وكرم منبتها ولطافة هوائها وقيل فيصيبها طل وهو المطر الصغير القطر وقيل فالذى يصيبها طل والمعنى أن نفقات هؤلاء زاكية عند الله تعالى لاتضيع بحال وإن كانت تتفاوت باعتبار مايقارنها من الأحوال ويجوز أن يعتبر التمثيل بين حالهم باعتبار ما صدر عنهم من النفقة الكثيرة والقليلة وبين الجنة المعهودة باعتبار ما أصابها من المطر الكثير واليسير فكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكلها فكذلك نفقتهم

---

(١) فى ط : قرئت .

جلت أوقلت بعد أن يطلب بها وجه الله تعالى زاكية زائدة فى زلفاهم وحسن حالهم عند الله ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ لايخفى عليه شىء منه وهو ترغيب فى الإخلاص مع تحذير من الرياء ونحوه .

﴿ أيود أحدكم ﴾ الود حب الشىء مع تمنيه ولذلك يستعمل استعمالها والهمزة لإنكار الوقوع كما فى قوله أأضرب أبى لا لإنكار الواقع كما فى قولك أتضرب أباك على أن مناط الإنكار ليس جميع ما تعلق به الود بل إنما هو إصابة الإعصار وما يتبعها من الاحتراق ﴿ أن تكون له جنة ﴾ وقرىء جنات ﴿ من نخيل وأعناب ﴾ أى كائنة منهما على أن يكون الأصل والركن فيها هذين الجنسين الشريفين الجامعين لفنون المنافع والباقى من المستتبعات لاعلى ألا يكون فيها غيرهما كما ستعرفه والجنة تطلق على الأشجار الملتفة المتكاثفة قال زهير .

كأن عينى فى غربى مقتلة   من النواضح تسقى جنة سحقا

وعلى الأرض المشتملة عليها والأول هو الأنسب بقوله عزوجل ﴿ تجرى من تحتها الأنهار ﴾ إذ على الثانى لابد من تقدير مضاف أى من تحت أشجارها وكذا لابد من جعل إسناد الاحتراق إليها فيما سيأتى مجازيا والجملة فى محل الرفع على أنها صفة جنة كما أن قوله تعالى (من نخيل وأعناب) كذلك أو فى محل النصب على أنها حال منها لأنها موصوفة ﴿ له فيها من كل الثمرات ﴾ الظرف الأول خبر والثانى حال والثالث مبتدأ أى صفة للمبتدأ قائمة مقامه أى له رزق من كل الثمرات كما فى قوله تعالى (ومامنا إلا له مقام معلوم) أى وما منا أحد إلا له الخ وليس المراد بالثمرات العموم بل إنما هو التكثير كما فى قوله تعالى (وأوتيت من كل شىء) ﴿ وأصابه الكبر ﴾ أى كبر السن الذى هو مظنة شدة الحاجة إلى منافعها كمال العجز عن تدارك أسباب المعاش والواو حالية أى وقد أصابه الكبر ﴿ وله ذرية ضعفاء ﴾ حال من الضمير فى أصابه أى أصابه الكبر والحال أن له ذرية صغارا لايقدرون على الكسب وترتيب مبادى المعاش وقرىء ضعاف ﴿ فأصابها إعصار ﴾ أى ريح عاصفة تستدير فى الأرض ثم

تنعكس منها ساطعة إلى السماء على هيئة العمود ﴿ فيه نار ﴾ شديدة ﴿ فاحترقت ﴾ عطف على فأصابها وهذا كما ترى تمثيل لحال من يعمل أعمال البر والحسنات ويضم إليها ما يحبطها من القوادح ثم يجدها يوم القيامة عند كمال حاجته إلى ثوابها هباء منثورا بها فى التحسر والتأسف عليها ﴿ كذلك ﴾ توحيد الكاف مع كون المخاطب جمعاً قد مر وجهه مرارا أى مثل ذلك البيان الواضح الجارى فى الظهور مجرى الأمور المحسوسة ﴿ يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ كى تتفكروا فيها وتعتبروا بما فيها من العبر وتعملوا بموجبها .

﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ﴾ بيان لحال ما ينفق منه إثر بيان أصل الإنفاق وكيفيته أى أنفقوا من حلال ما كسبتم وجياده لقوله تعالى (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) ﴿ ومما أخرجنا لكم من الأرض ﴾ أى من طيبات ما أخرجنا لكم من الحبوب والثمار والمعادن فحذف لدلالة ما قبله عليه ﴿ ولا تيمموا ﴾ بفتح التاء أصله ولا تتيمموا وقرىء بضمها وقرىء ولا تأمموا والكل بمعنى القصد أى لا تقصدوا ﴿ الخبيث ﴾ أى الردىء الخسيس وهو كالطيب من الصفات الغالبة التى لا تذكر موصوفاتها ﴿ منه تنفقون ﴾ الجار متعلق بتنفقون والضمير للخبيث والتقديم للتخصيص والجملة حال من فاعل تيمموا أى لا تقصدوا الخبيث قاصرين الإنفاق عليه أو من الخبيث أى مختصا به الإنفاق وأياً ما كان فالتخصيص لتوبيخهم بما كانوا يتعاطونه من إنفاق الخبيث خاصة لا لتسويغ إنفاقه مع الطيب عن ابن عباس رضى الله عنهما أنهم كانوا يتصدقون بحشف التمر وشراره فنهوا عنه وقيل متعلق بمحذوف وقع حالا من الخبيث والضمير للمال المدلول عليه بحسب المقام أو للموصولين على طريقة قوله :

* كأنه فى الجلد توليع البهق *

أو للثانى وتخصيصه بذلك لما أن التفاوت فيه أكثر وتنفقون حال من الفاعل المذكور أى ولا تقصدوا الخبيث كائنا من المال أو مما كسبتم ،

وما أخرجنا لكم منفقين إياه وقوله تعالى ﴿ ولستم بآخذيه ﴾ حال على كل حال من واو تنفقون أى والحال أنكم لاتأخذونه فى معاملاتكم فى وقت من الأوقات أو بوجه من الوجوه ﴿ إلا أن تغمضوا فيه ﴾ أى إلا وقت إغماضكم فيه وهو عبارة عن المسامحة بطريق الكناية أو الاستعارة يقال أغمض بصره إذا غضه وقرىء على البناء للمفعول على معنى إلا أن تحملوا على الإغماض وتدخلوا فيه أو توجدوا مغمضين وقرىء وتغمضوا وتغمضوا بضم الميم وكسرها وقيل تم الكلام عند قوله تعالى (ولا تيمموا الخبيث) ثم استؤنف فقيل على طريقة التوبيخ والتقريع منه تنفقون والحال أنكم لا تأخذونه إلا إذا أغمضتم فيه ومآله الاستفهام الإنكارى فكأنه قيل أمنه تنفقون الخ ﴿ واعلموا أن الله غنى ﴾ عن إنفاقكم وإنما يأمركم به لمنفعتكم وفى الأمر بأن يعلموا ذلك مع ظهور علمهم به توبيخ لهم على ما يصنعون من إعطاء الخبيث وإيذان بأن ذلك من آثار الجهل بشأنه تعالى فإن إعطاء مثله إنما يكون عادة عند اعتقاد المعطى أن الآخذ محتاج إلى ما يعطيه بل مضطر إليه ﴿ حميد ﴾ مستحق للحمد على نعمه العظام وقيل حامد بقبول الجيد والإثابة عليه .

﴿ الشيطان يعدكم الفقر ﴾ الوعد هو الإخبار بما سيكون من جهة المخبر مترتبا على شىء من زمان أو غيره يستعمل فى الشر استعماله فى الخير قال تعالى : (النار وعدها الله الذين كفروا) أى يعدكم فى الإنفاق الفقر ويقول إن عاقبة إنفاقكم أن تفتقروا وإنما عبر عن ذلك بالوعد مع أن الشيطان لم يضف مجىء الفقر إلى جهته للإيذان بمبالغته فى الإخبار بتحقق مجيئه كأنه نزله فى تقرر الوقوع منزلة أفعاله الواقعة بحسب إرادته أو لوقوعه فى مقابلة وعده تعالى على طريقة المشاكلة وقرىء بضم الفاء والسكون وبضمتين وبفتحتين ﴿ ويأمركم بالفحشاء ﴾ أى بالخصلة الفحشاء أى ويغريكم على البخل ومنه الصدقات إغراء الامر للمأمور على فعل المأمور به والعرب تسمى البخيل فاحشا قال طرفة ابن العبد :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي   عقيلة مال الفاحش المتشدد

وقيل بالمعاصى والسيئات ﴿ والله يعدكم ﴾ أى فى الإنفاق ﴿ مغفرة ﴾ لذنوبكم والجار فى قوله تعالى ﴿ منه ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لمغفرة مؤكدة لفخامتها التى أفادها تنكيرها أى مغفرة أى مغفرة كائنة منه عز وجل ﴿ وفضلا ﴾ صفته محذوفة لدلالة المذكور عليها كما فى قوله تعالى (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل) ونظائره أى وفضلا كائنا منه تعالى أى خلفا مما أنفقتم زائدا عليه فى الدنيا وفيه تكذيب للشيطان وقيل ثوابا فى الآخرة ﴿ والله واسع ﴾ قدرة وفضلا فيحقق ما وعدكم به من المغفرة وإخلاف ما تنفقونه ﴿ عليم ﴾ مبالغ فى العلم فيعلم إنفاقكم فلا يكاد يضيع أجركم أو يعلم ما سيكون من المغفرة والفضل فلا احتمال للخلف فى الوعد والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبله .

﴿ يؤتى الحكمة ﴾ قال مجاهد الحكمة هى القرآن والعلم والفقه روى عن ابن نجيح أنها الإصابة فى القول والعمل وعن إبراهيم النخعى أنها معرفة معانى الأشياء وفهمها وقيل هى معرفة حقائق الأشياء وقيل هى الإقدام على الأفعال الحسنة الصائبة وعن مقاتل أنها تفسر فى القرآن بأربعة أوجه فتارة بمواعظ القرآن وأخرى بما فيه من عجائب الأسرار ومرة بالعلم والفهم وأخرى بالنبوة ولعل الأنسب بالمقام ما ينتظم الأحكام المبينة فى تضاعيف الآيات الكريمة من أحد الوجهين الأولين ومعنى إيتائها تبيينها والتوفيق للعلم والعمل بها أى يبينها ويوفق للعلم والعمل بها ﴿ من يشاء ﴾ من عباده أن يؤتيها إياه بموجب سعة فضله وإحاطة علمه كما آتاكم ما بينه فى ضمن الآى من الحكم البالغة التى يدور عليها فلك منافعكم فاغتنموها وسارعوا إلى العمل بها والموصول مفعول أول ليؤتى قدم عليه الثانى للعناية به والجملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها ﴿ ومن يؤت الحكمة ﴾ على بناء المفعول وقرىء على البناء للفاعل أى ومن يؤته الله الحكمة والإظهار فى مقام الإضمار لإظهار الاعتناء بشأنها وللإشعار بعلة الحكم ﴿ فقد أوتى خيرا كثيرا ﴾ أى أى خير كثير

فإنه قد خير له خير الدارين ﴿وما يذكر﴾ أى وما يتعظ بما أوتى من الحكمة أو وما يتفكر فيها ﴿إلا أولوا الألباب﴾ أى العقول الخالصة عن شوائب الوهم والركون إلى مشايعة الهوى وفيه من الترغيب فى المحافظة على الأحكام الواردة فى شأن الإنفاق مالا يخفى والجملة إما حال أو اعتراض تذييلى .

﴿وما أنفقتم من نفقة﴾ بيان لحكم كلى شامل لجميع أفراد النفقات ومافى حكمها إثر بيان حكم ما كان منها فى سبيل الله وما إما شرطية أوموصولة حذف عائدها من الصلة أى وما أنفقتموه من نفقة أى نفقة كانت فى حق أو باطل فى سر أو علانية قليلة أو كثيرة ﴿أو نذرتم﴾ النذر عقد الضمير على شىء والتزامه وفعله كضرب ونصر ﴿من نذر﴾ أى نذر كان فى طاعة أو معصية بشرط أو بغير شرط متعلق بالمال أو بالأفعال كالصيام والصلاة ونحوهما ﴿فإن الله يعلمه﴾ الفاء على الأول داخلة على الجواب وعلى الثانى مزيدة فى الخبر وتوحيد الضمير مع تعدد متعلق العلم لاتحاد المرجع بناء على كون العطف بكلمة أو كما فى قولك زيد أو عمرو أكرمته ولا يقال أكرمتهما ولهذا صرنا(١) إلى التأويل فى قوله تعالى (إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما) بل يعاد الضمير تارة إلى المقدم رعاية للأولية كما فى قوله عز وعلا (وإذا رأوا تجارة أولهوا انفضوا إليها) وأخرى إلى المؤخر رعاية للقرب كما فى هذه الآية الكريمة وفى قوله تعالى (ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً) وحمل النظم على تأويلهما بالمذكور ونظائره أو على حذف الأول ثقة بدلالة الثانى عليه كما فى قوله تعالى (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله) وقوله :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

ونحوهما مما عطف فيه بالواو الجامعة تعسف مستغنى عنه نعم يجوز إرجاع الضمير إلى ما على تقدير كونها موصوله وتصدير الجملة بأن لتأكيد مضمونها

---

(١) فى ط : صبير

إفادة لتحقيق الجزاء أى فإنه تعالى يجازيكم عليه ألبتة إن خيراً فخير وإن شراً فشر فهو ترغيب وترهيب ووعد ووعيد ﴿ وما للظالمين ﴾ بالإنفاق والنذر فى المعاصى أو بمنع الصدقات وعدم الوفاء بالنذر أو بإنفاق الخبيث أو بالرياء والمن والأذى وغير ذلك مما ينتظمه معنى الظلم الذى هو عبارة عن وضع الشىء فى غير موضعه الذى يحق أن يوضع فيه ﴿ من أنصار ﴾ أى أعوان ينصرونهم من بأس الله وعقابه لاشفاعة ولا مدافعة وإيراد صيغة الجمع لمقابلة الظالمين أى وما لظالم من الظالمين من نصير من الأنصار والجملة استئناف مقرر لما فيما قبله من الوعيد مفيد لفظاعة حال من يفعل ما يفعل من الظالمين لتحصيل الأعوان ورعاية الخلان .

﴿ إن تبدوا الصدقات فنعما هى ﴾ نوع تفصيل لبعض ما أجمل فى الشرطية وبيان له ولذلك ترك العطف بينهما أى إن تظهروا الصدقات فنعم شيئاً إبداؤها بعد أن لم يكن رياء وسمعة وقرىء بفتح النون وكسر العين على الأصل وقرىء بكسر النون وسكون العين وقرىء بكسر النون وإخفاء حركة العين وهذا فى الصدقات المفروضة وأما فى صدقة التطوع فالإخفاء أفضل وهى التى أريدت بقوله تعالى ﴿ وإن تخفوها ﴾ أى تعطوها خفية ﴿ وتؤتوها الفقراء ﴾ ولعل التصريح بإيتائها الفقراء مع أنه واجب فى الإبداء أيضاً لما أن الإخفاء مظنة الالتباس والاشتباه فإن الغنى ربما يدعى الفقر ويقدم على قبول الصدقة سرا ولا يفعل ذلك عند الناس ﴿ فهو خير لكم ﴾ أى فالإخفاء خير لكم من الإبداء وهذا فى التطوع ومن لم يعرف بالمال وأما فى الواجب فالأمر بالعكس لدفع التهمة ، عن ابن عباس رضى الله عنهما صدقة السر فى التطوع تفضل علانيتها سبعين ضعفا وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفا ﴿ ويكفر عنكم من سيئاتكم ﴾ أى والله يكفر أو الإخفاء ومن تبعيضية أى شيئاً من سيئاتكم كما سترتموها وقيل مزيدة على رأى الأخفش وقرىء بالتاء مرفوعا ومجزوما على أن الفعل للصدقات وقرىء بالنون مرفوعا عطفا على محل ما بعد الفاء أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أى

ونحن نكفر أو على أنها جملة مبتدأة من فعل وفاعل وقرىء مجزوما عطفا على محل الفاء وما بعده لأنه جواب الشرط ﴿ والله بما تعملون ﴾ من الإسرار والإعلان ﴿ خبير ﴾ فهو ترغيب فى الإسرار .

﴿ ليس عليك هداهم ﴾ أى لا يجب عليك أن تجعلهم مهديين إلى فعل(١) ما أمروا به من المحاسن والانتهاء عما نهوا عنه من القبائح المعدودة وإنما الواجب عليك الإرشاد إلى الخير والحث عليه والنهى عن الشر والردع عنه بما أوحى إليك من الآيات والذكر الحكيم ﴿ ولكن الله يهدى ﴾ هداية هداية خاصة موصلة إلى المطلوب حتما ﴿ من يشاء ﴾ هدايته إلى ذلك ممن يتذكر بما ذكر ويتبع الحق ويختار الخير والجملة معترضة جىء بها على طريق تلوين الخطاب وتوجيهه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الالتفات إلى الغيبة فيما بين الخطابات المتعلقة بالمكلفين مبالغة فى حملهم على الامتثال فإن الإخبار بعدم وجوب تدارك أمرهم على النبى صلى الله عليه وسلم مؤذن بوجوبه عليهم حسبما ينطق به ما بعده من الشرطية وقيل لما كثر فقراء المسلمين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن التصدق على المشركين كى تحملهم الحاجة على الدخول فى الإسلام فنزلت أى ليس عليك هدى من خالفك حتى تمنعهم الصدقة لأجل دخولهم فى الإسلام فلا التفات حينئذ فى الكلام وضمير الغيبة للمعهودين من فقراء المشركين بل فيه تلوين فقط وقوله تعالى :

﴿ وما تنفقوا من خير ﴾ على الأول التفات من الغيبة إلى خطاب المكلفين لزيادة هزهم نحو الامتثال وعلى الثانى تلوين للخطاب بتوجيهه إليهم وصرفه عن النبى صلى الله عليه وسلم وما شرطية جازمة لتنفقوا منتصبة به على المفعولية ومن تبعيضية متعلقة بمحذوف وقع صفة لاسم الشرط مبينة ومخصصة له أى أى شىء تنفقوا كائن من مال ﴿ فلأنفسكم ﴾ أى فهو لأنفسكم لا ينتفع

---

(١) فى ط : إلى الإيتان بما أمروا به

به غيركم فلا تمنوا على من أعطيتموه ولا تؤذوه ولا تنفقوا من الخبيث أو فنفعه الديني لكم لا لغيركم من الفقراء حتى تمنعوه ممن لا ينتفع به من حيث الدين من فقراء المشركين ﴿ وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ﴾ استثناء من أعم العلل أو أعم الأحوال أى ليست نفقتكم لشيء من الأشياء إلا لابتغاء وجه الله أو ليست فى حال من الأحوال إلا حال ابتغاء وجه الله فما بالكم تمنون بها وتنفقون الخبيث الذى لا يوجه مثله إلى الله تعالى وقيل هو نفى فى معنى النهى ﴿ وما تنفقوا من خير يوف إليكم ﴾ أى أجره وثوابه أضعافا مضاعفة حسبما فصل فيما قبل فلا عذر لكم فى أن ترغبوا عن إنفاقه على أحسن الوجوه وأجملها فهو تأكيد وبيان للشرطية السابقة أو يوف إليكم ما يخلفه وهو من نتائج دعائه عليه السلام بقوله اللهم اجعل للمنفق خلفا وللممسك تلفا(١) وقيل حجت أسماء بنت أبى بكر فأتتها أمها تسألها وهى مشركة فأبت أن تعطيها وعن سعيد بن جبير أنهم كانوا يتقون أن يرضخوا لقراباتهم من المشركين وروى أن ناسا من المسلمين كانت لهم أصهار فى اليهود ورضاع كانوا ينفقون عليهم قبل الإسلام فلما أسلموا كرهوا أن ينفقوهم فنزلت وهذا فى غير الواجب وأما الواجب فلا يجوز صرفه إلى الكافر وإن كان ذميا ﴿ وأنتم لا تظلمون ﴾ لا تنقصون شيئاً مما وعدتم من الثواب المضاعف أو من الخلف .

﴿ للفقراء ﴾ متعلق بمحذوف ينساق إليه الكلام كما فى قوله عز وجل (فى تسع آيات إلى فرعون) أى اعمدوا للفقراء أو اجعلوا ما تنفقونه للفقراء أو صدقاتكم للفقراء ﴿ الذين أحصروا فى سبيل الله ﴾ بالغزو والجهاد ﴿ لا يستطيعون ﴾ لاشتغالهم به ﴿ ضرباً فى الأرض ﴾ أى ذهابا فيها للكسب والتجارة وقيل هم أهل الصفة كانوا رضى الله عنهم نحواً من أربعمائة من فقراء المهاجرين يسكنون صفة المسجد يستغرقون أوقاتهم بالتعلم والجهاد وكانوا يخرجون فى كل سرية بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ يحسبهم الجاهل ﴾ بحالهم ﴿ أغنياء من التعفف ﴾ أى من أجل تعففهم عن المسألة ﴿ تعرفهم بسيماهم ﴾

---

(١) المشهور : اللهم أعط منفقا خلفاً وأعط ممسكا تلفا .

أى تعرف فقرهم واضطرارهم بما تعاين منهم من الضعف ورثاثة الحال والخطاب للرسول عليه السلام أو لكل أحد ممن له حظ من الخطاب مبالغة فى بيان وضوح فقرهم ﴿ لا يسألون الناس إلحافا ﴾ أى إلحاحا وهو أن يلازم السائل المسئول حتى يعطيه من قولهم لحفنى من فضل لحافه أى أعطانى من فضل ما عنده والمعنى لا يسألونهم شيئاً وإن سألوا لحاجة اضطرتهم إليه لم يلحوا وقيل هو نفى لكلا الأمرين جميعا على طريقة قوله :

* على لاحب لا يهتدى لمناره *

أى لا منار ولا اهتداء ﴿ وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم ﴾ فيجازيكم بذلك أحسن جزاء فهو ترغيب فى التصدق لاسيما على هؤلاء .

﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية ﴾ أى يعمون الأوقات والأحوال بالخير والصدقة وقيل نزلت فى شأن الصديق رضى الله عنه حيث تصدق بأربعين ألف دينار عشر آلاف منه بالليل وعشرة بالنهار وعشرة سراً وعشرة علانية وقيل فى على رضى الله عنه حين لم يكن عنده إلا أربعة دراهم فتصدق بكل واحد منها على وجه من الوجوه المذكورة ولعل تقديم الليل والنهار والسر على العلانية للإيذان بمزية الإخفاء على الإظهار وقيل فى رباط الخيل والإنفاق عليها ﴿ فلهم أجرهم عند ربهم ﴾ خبر للموصول والفاء للدلالة على سببية ما قبلها لما بعدها وقيل للعطف والخبر محذوف أى ومنهم الذين الخ ولذلك جوز الوقف على علانية ﴿ ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ تقدم تفسيره .

﴿ الذين يأكلون الربوا ﴾ أى يأخذونه والتعبير عنه بالأكل لما أنه معظم ما قصد به ولشيوعه فى المعلومات مع ما فيه من زيادة تشنيع لهم وهو الزيادة فى المقدار أو فى الأجل حسبما فصل فى كتب الفقه وإنما كتب بالواو كالصلوة على لغة من يفخم فى أمثالها وزيدت الألف تشبيها بواو الجمع ﴿ لا يقومون ﴾ أى من قبورهم إذا بعثوا ﴿ إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان ﴾ أى إلا قياما كقيام المصروع وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبط

الإنسان فيصرع والخبط والضرب بغير استواء كخبط العشواء ﴿ من المس ﴾ أى الجنون وهذا أيضا من زعماتهم أن الجنى يمسه فيختلط عقله فلذلك يقال جن الرجل وهو متعلق بما قبله من الفعل المنفى أى لايقومون من المس الذى بهم بسبب أكلهم الربا أو بيقوم أو بيتخبطه فيكون نهوضهم وسقوطهم كالمصروعين لالاختلال عقولهم بل لأن الله تعالى أربى فى بطونهم ما أكلوا من الربا فأثقلهم فصاروا مخبلين ينهضون ويسقطون تلك سيماهم يعرفون بها عند أهل الموقف ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من حالهم وما فى اسم الإشارة من معنى البعد للإيذان بفظاعة المشار إليه ﴿ بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربوا ﴾ أى ذلك العقاب بسبب أنهم نظموا الربا والبيع فى سلك واحد لإفضائهما إلى الربح فاستحلوه استحلاله وقالوا يجوز بيع درهم بدرهمين كما يجوز بيع ماقيمته درهم بدرهمين بل جعلوا الربا أصلا فى الحل وقاسوا به البيع مع وضوح الفرق بينهما فإن أحد الدرهمين فى الأول ضائع حتما وفى الثانى منجبر بمساس الحاجة إلى السلعة أو بتوقع رواجها .

﴿ وأحل الله البيع وحرم الربوا ﴾ إنكار من جهة الله تعالى لتسويتهم وإبطال للقياس لوقوعه فى مقابلة النص مع ما أشير إليه من عدم الاشتراك فى المناط والجملة ابتدائية لامحل لها من الإعراب ﴿ فمن جاءه موعظة ﴾ أى فمن بلغه وعظ وزجر كالنهى عن الربا وقرىء جاءته ﴿ من ربه ﴾ متعلق بجاءه أو بمحذوف وقع صفة لموعظة والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة للإشعار بكون مجىء الموعظة للتربية ﴿ فانتهى ﴾ عطف على جاءه أى فاتعظ بلا تراخ وتبع النهى ﴿ فله ما سلف ﴾ أى ما تقدم أخذه قبل التحريم ولا يسترد منه وما مرتفع بالظرف إن جعلت من موصولة بالابتداء إن جعلت شرطية على رأى سيبويه لعدم اعتماد الظرف على ما قبله ﴿ وأمره إلى الله ﴾ يجازيه على انتهائه إن كان عن قبول الموعظة وصدق النية وقيل يحكم فى شأنه ولا اعتراض لكم عليه ﴿ ومن عاد ﴾ أى إلى تحليل الربا ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى من عاد والجمع باعتبار المعنى كما أن الإفراد فى عاد

اعتبار اللفظ وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد منزلتهم فى الشر والفساد ﴿ أصحاب النار ﴾ أى ملازموها ﴿ هم فيها خالدون ﴾ ماكثون فيها أبدا والجملة مقررة لما قبلها .

﴿ يمحق الله الربوا ﴾ أى يذهب ببركته ويهلك المال الذى يدخل فيه ﴿ ويربى الصدقات ﴾ يضاعف ثوابها ويبارك فيها ويزيد المال الذى أخرجت منه الصدقة . روى عنه صلى الله عليه وسلم أن الله يقبل الصدقة ويربيها كما يربى أحدكم مهره(١) وعنه عليه الصلاة والسلام ما نقص مال من صدقة(٢) قط ﴿ والله لا يحب ﴾ أى لا يرضى لأن الحب مختص بالتوابين ﴿ كل كفار ﴾ مصر على تحليل المحرمات ﴿ أثيم ﴾ منهمك فى ارتكابه ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ بالله ورسوله وبما جاءهم به ﴿ وعملوا الصالحات وأقاموا الصلوة وآتوا الزكوة ﴾ تخصيصهما بالذكر مع اندراجهما فى الصالحات لإنافتهما على سائر الأعمال الصالحة على طريقة ذكر جبريل وميكال عقيب الملائكة عليهم السلام ﴿ لهم أجرهم ﴾ جملة من مبتدأ وخبر واقعة خبرا لأن أى لهم أجرهم الموعود لهم وقوله تعالى ﴿ عند ربهم ﴾ حال من أجرهم وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم مزيد لطف وتشريف لهم ﴿ ولا خوف عليهم ﴾ من مكروه آت ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ من محبوب فات .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ أى قوا أنفسكم عقابه ﴿ وذروا ما بقى من الربوا ﴾ أى واتركوا بقايا ما شرطتم منه على الناس تركا كليا ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ على الحقيقة فإن ذلك مستلزم لامتثال ما أمرتم به البتة وهو شرط حذف جوابه ثقة بما قبله أى إن كنتم مؤمنين فاتقوا وذروه الخ ، روى أنه كان لثقيف مال على بعض قريش فطالبوهم عند المحل بالمال والربا فنزلت ﴿ فإن لم تفعلوا ﴾ أى ما أمرتم به من الاتقاء وترك البقايا إما مع إنكار

---

(١) المروى : كما يربى أحدكم فلوه . وهو المهر .

(٢) فى ط : ما نقصت زكاة من مال .

حرمته وإما مع الاعتراف بها ﴿ فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ أى فاعلموا بها من أذن بالشىء إذا علم به أما على الأول فكحرب المرتدين وأما على الثانى فكحرب البغاة ، وقرىء فآذنوا أى فأعلموا غيركم قيل هو من الأذان وهو الاستماع فإنه من طرق العلم وقرىء فأيقنوا وهو مؤيد لقراءة العامة وتنكير حرب للتفخيم ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة لها مؤكدة لفخامتها أى بنوع من الحرب عظيم لا يقادر قدره كائن من عند الله ورسوله روى أنه لما نزلت قالت ثقيف لا يد لنا بحرب الله ورسوله ﴿ وإن تبتم ﴾ من الارتباء مع الإيمان بحرمتها بعدما سمعتموه من الوعيد ﴿ فلكم رؤس أموالكم ﴾ تأخذونها كملا ﴿ لا تظلمون ﴾ غرماءكم بأخذ الزيادة والجملة إما مستأنفة لا محل لها من الإعراب أو حال من الضمير فى لكم والعامل ما تضمنه الجار من الاستقرار ﴿ ولا تظلمون ﴾ عطف على ما قبله أى لا تظلمون أنتم من قبلهم بالمطل والنقص ومن ضرورة تعليق هذا الحكم بتوبتهم عدم ثبوته عند عدمها إن كان مع إنكار الحرمة فهم مرتدون ومالهم المكسوب فى حال الردة فىء للمسلمين عند أبى حنيفة رضى الله عنه وكذا سائر أموالهم عند الشافعى وعندنا هو لورثتهم ولاشىء لهم على كل حال وإن كان مع الاعتراف بها فإن كان لهم شوكة فهم على شرف القتل لم تسلم لهم رؤسهم فكيف برؤس أموالهم وإلا فكذلك عند ابن عباس رضى الله عنهما فإنه يقول من عامل الربا يستتاب وإلا ضرب عنقه وأما عند غيره فهم محبوسون إلى أن تظهر توبتهم لا يمكنون من التصرفات أصلا فما لم يتوبوا لم يسلم لهم شىء من أموالهم بل إنما يسلم بموتهم لورثتهم .

﴿ وإن كان ذو عسرة ﴾ أى إن وقع غريم من غرمائكم ذو عسرة على أن كان تامة وقرىء ذا عسرة على أنها ناقصة ﴿ فنظرة ﴾ أى فالحكم نظرة أو فعليكم نظرة أو فلتكن نظرة وهى الإنظار والإمهال وقرىء فناظره أى منتظره أو فصاحب نظرته على طريق النسب وقرىء فناظره أمراً من المفاعلة

أى فسامحه بالنظرة ﴿ إلى ميسرة ﴾ أى إلى يسار وقرىء بضم السين وهما لغتان كمشرقة ومشرقة وقرىء بهما مضافين بحذف التاء عند الإضافة كما فى قوله : وأخلفوك عد الأمر الذى وعدوا . ﴿ وأن تصدقوا ﴾ بحذف أحد التاءين وقرىء بتشديد الصاد أى وأن تتصدقوا على معسرى غرمائكم بالإبراء ﴿ خير لكم ﴾ أى أكثر ثوابا من الإنظار أو خير مما تأخذونه لمضاعفة ثوابه ودوامه فهو ندب إلى أن يتصدقوا برؤس أموالهم كلا أو بعضا على غرمائهم المعسرين كقوله تعالى (وأن تعفوا أقرب للتقوى) وقيل المراد بالتصدق الإنظار لقوله عليه السلام لا يحل دين رجل مسلم فيؤخره إلا كان له بكل يوم صدقة ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ جوابه محذوف أى إن كنتم تعلمون أنه خير لكم عملتموه ﴿ واتقوا يوما ﴾ هو يوم القيامة وتنكيره للتفخيم والتهويل وتعليق الإتقاء به للمبالغة فى التحذير عما فيه من الشدائد والأهوال ﴿ ترجعون فيه ﴾ على البناء للمفعول من الرجع وقرىء على البناء للفاعل من الرجوع والأول أدخل فى التهويل وقرىء بالياء على طريق الالتفات وقرىء تردون وكذا تصيرون ﴿ إلى الله ﴾ لمحاسبة أعمالكم ﴿ ثم توفى كل نفس ﴾ من النفوس والتعميم للمبالغة فى تهويل اليوم أى تعطى كاملا(1) ﴿ ما كسبت ﴾ أى جزاء ما عملت من خير أو شر ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ حال من كل نفس تفيد أن كانت عقوباتهم مؤبدة غير مظلومين فى ذلك لما أنه من قبل أنفسهم وجمع الضمير لأنه أنسب بحال الجزاء كما أن الإفراد أوفق بحال الكسب عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها آخر آية نزل بها جبريل عليه السلام وقال ضعها فى رأس المائتين والثمانين من البقرة وعاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها أحدا وعشرين يوما وقيل أحدا وثمانين وقيل سبعة أيام وقيل ثلاث ساعات .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين ﴾ شروع فى بيان حال المداينة

---

(1) فى ط . كملا .

الواقعة فى تضاعيف المعاوضات الجارية فيما بينهم ببيع السلع بالنقود بعد بيان حال الربا أى إذا داين بعضكم بعضا وعامله نسيئة معطيا أو آخذا وفائدة ذكر الدين دفع توهم كون التداين بمعنى المجازاة أو التنبيه على تنوعه إلى الحال والمؤجل وأنه الباعث على الكتابة وتعيين المرجع للضمير المنصوب المتصل بالأمر ﴿ إلى أجل ﴾ متعلق بتداينتم أو بمحذوف وقع صفة لدين ﴿ مسمى ﴾ بالأيام أو الأشهر ونظائرهما مما يفيد العلم ويرفع الجهالة لا بالحصاد والدياس ونحوهما مما لا يرفعها ﴿ فاكتبوه ﴾ أى الدين بأجله لأنه أوثق وأرفع للنزاع والجمهور على استحبابه وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد به السلم وقال لما حرم الله الربا أباح فى السلف ﴿ وليكتب بينكم كاتب ﴾ بيان لكيفية الكتابة المأمور بها وتعيين لمن يتولاها إثر الأمر بها إجمالا وحذف المفعول إما لتعينه أو للقصد إلى إيقاع نفس الفعل أى ليفعل الكتابة وقوله تعالى بينكم للإيذان بأن الكاتب ينبغى أن يتوسط بين المتداينين ويكتب كلامهما ولا يكتفى بكلام أحدهما وقوله تعالى ﴿ بالعدل ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لكاتب أى كاتب كائن بالعدل أى وليكن المتصدى للكتابة من شأنه أن يكتب بالسوية من غير ميل إلى أحد الجانبين لا يزيد ولا ينقص وهو أمر للمتداينين باختيار كاتب فقيه دين حتى يجىء كتابه موثوقا به معدلا بالشرع ويجوز أن يكون حالا منه أى ملتبسا بالعدل وقيل متعلق بالفعل أى وليكتب بالحق ﴿ ولا يأب كاتب ﴾ أى ولا يمتنع أحد من الكتاب ﴿ أن يكتب ﴾ كتاب الدين ﴿ كما علمه الله ﴾ على طريقة ما علمه من كتبة الوثائق أو كما بينه بقوله تعالى بالعدل أو ولا يأب أن ينفع الناس بكتابته كما نفعه الله تعالى بتعليم الكتابة كقوله تعالى (وأحسن كما أحسن الله إليك) ﴿ فليكتب ﴾ تلك الكتابة المعلمة أمر بها بعد النهى عن إبائها تأكيدا لها ويجوز أن تتعلق الكاف بالأمر على أن يكون النهى عن الامتناع منها مطلقة ثم الأمر بها مقيدة .

﴿ وليملل الذى عليه الحق ﴾ الإملال هو الإملاء أى وليكن المملى من عليه الحق لأنه المشهود عليه فلا بد أن يكون هو المقر ﴿ وليتق الله ربه ﴾

جمع ما بين الاسم الجليل والنعت الجميل للمبالغة فى التحذير أى وليتق المملى دون الكاتب كما قيل لقوله تعالى ﴿ ولا يبخس منه ﴾ أى من الحق الذى يمليه على الكاتب ﴿ شيئاً ﴾ فإنه الذى يتوقع منه البخس خاصة ، وأما الكاتب فيتوقع منه الزيادة كما يتوقع منه النقص فلو أريد نهيه لنهى عن كليهما وقد فعل ذلك حيث أمر بالعدل وإنما شدد فى تكليف المملى حيث جمع فيه بين الأمر بالاتقاء والنهى عن البخس لما فيه من الدواعى إلى المنهى عنه فإن الإنسان مجبول على دفع الضرر عن نفسه وتخفيف ما فى ذمته بما أمكن ﴿ فإن كان الذى عليه الحق ﴾ صرح بذلك فى موضع الإضمار لزيادة الكشف والبيان لا لأن الأمر والنهى لغيره ﴿ سفيها ﴾ ناقص العقل مبذرا مجاز ﴿ أو ضعيفاً ﴾ صبيا أو شيخا مختلا ﴿ أو لا يستطيع أن يمل هو ﴾ أى غير مستطيع للإملاء بنفسه لخرس أو عى أو جهل أو غير ذلك من العوارض ﴿ فليملل وليه ﴾ أى الذى يلى أمره ويقوم مقامه من قيم أو وكيل أو مترجم ﴿ بالعدل ﴾ أى من غير نقص ولا زيادة لم يكلف بعين ما كلف به من عليه الحق لأنه يتوقع منه الزيادة كما يتوقع منه البخس ﴿ واستشهدوا شهيدين ﴾ أى اطلبوهما ليتحملا الشهادة على ما جرى بينكم من المداينة وتسميتهما شهيدين لتنزيل المشارف منزلة الكائن ﴿ من رجالكم ﴾ متعلق باستشهدوا ، ومن ابتدائية أو بمحذوف وقع صفة لشهيدين ومن تبعيضية . أى شهيدين كائنين من رجال المسلمين الأحرار إذ الكلام فى معاملاتهم فإن خطابات الشرع لا تنتظم العبيد بطريق العبارة كما بين فى موضعه ، وأما إذا كانت المداينة بين الكفرة أو كان من عليه الحق كافرا فيجوز استشهاد الكافر عندنا .

﴿ فإن لم يكونا ﴾ أى الشهيدان جميعاً على طريقة نفى الشمول لا شمول النفى ﴿ رجلين ﴾ إما لإعوازهما أو لسبب آخر من الأسباب ﴿ فرجل وامرأتان ﴾ أى فليشهد رجل وامرأتان يكفون وهذا فيما عدا الحدود والقصاص عندنا ، وفى الأموال خاصة عند الشافعى ﴿ ممن ترضون ﴾ متعلق

بمحذوف وقع صفة لرجل وامرأتان أى كائنون مرضيين عندكم وتخصيصهم بالوصف المذكور مع تحقق اعتباره فى كل شهيد لقلة اتصاف النساء به وقيل نعت لشهيدين أى كائنين ممن ترضون ورد بأنه يلزم الفصل بينهما بالأجنبى وقيل بدل من رجالكم بتكرير العامل ورد بما ذكر من الفصل وقيل متعلق بقوله تعالى فاستشهدوا فيلزم الفصل بين اشتراط المرأتين وبين تعليله وقوله عز وجل ﴿ من الشهداء ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من الضمير المحذوف الراجع إلى الموصول أى ممن ترضونهم كائنين من بعض الشهداء لعلمكم بعد التهم وثقتكم بهم وإدراج النساء فى الشهداء بطريق التغليب ﴿ إن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ﴾ تعليل لاعتبار العدد فى النساء والعلة فى الحقيقة هى التذكير ولكن الضلال لما كان سببا له منزلته كما فى قولك أعددت السلاح أن يجىء عدو فأدفعه كأنه قيل لأجل أن تذكر إحداهما الأخرى إن ضلت عن الشهادة بأن نسيتها ولعل إيثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال أن تضل إحداهما فتذكرها الأخرى لتأكيد الإبهام والمبالغة فى الاحتراز عن توهم اختصاص الضلال بإحداهما بعينها والتذكير بالأخرى وقرىء فتذكر من الإذكار وقرىء فتذاكر وقرىء أن تضل على الشرط فتذكر بالرفع كقوله تعالى (ومن عاد فينتقم الله منه) ﴿ ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ﴾ لأداء الشهادة أو لتحملها وتسميتهم شهداء قبل التحمل لما مر من تنزيل المشارف منزلة الواقع وما مزيدة . عن قتادة أنه كان الرجل يطوف فى الحواء العظيم فيه القوم فلا يتبعه منهم أحد فنزلت .

﴿ ولا تسأموا ﴾ أى لا تملوا من كثرة مداينتكم ﴿ أن تكتبوه ﴾ أى الدين أو الحق أو الكتاب وقيل كنى به عن الكسل الذى هو صفة المنافق كما ورد فى قوله تعالى (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى) وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لا يقول المؤمن كسلت ﴿ صغيراً أو كبيراً ﴾ حال من الضمير أى حال كونه صغيراً أو كبيراً أى قليلا أو كثيرا أو مجملا أو مفصلا ﴿ إلى

أجله ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من الهاء فى تكتبوه أى مستقرا فى الذمة إلى وقت حلوله ﴿ ذلكم ﴾ الذى أقر به المديون إشارة إلى ما أمر به من الكتب والخطاب للمؤمنين ﴿ أقسط ﴾ أى أعدل ﴿ عند الله ﴾ أى فى حكمه تعالى ﴿ وأقوم للشهادة ﴾ أى أثبت لها وأعون على إقامتها وهما مبنيان من أقسط وأقام فإنه قياسى عند سيبويه أو من قاسط بمعنى ذى قسط وقويم وإنما صحت الواو فى أقوم كما صحت فى التعجب لجموده ﴿ وأدنى ألا ترتابوا ﴾ وأقرب إلى انتفاء ريبكم فى جنس الدين وقدره وأجله وشهوده ونحو ذلك ﴿ إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ﴾ استثناء منقطع من الأمر بالكتابة أى لكن وقت كون تداينكم أو تجارة حاضرة بحضور البدلين تديرونها بينكم بتعاطيهما يدا بيد ﴿ فليس عليكم جناح ألا تكتبوها ﴾ أى فلا بأس بألا تكتبوها لبعده عن التنازع والنسيان وقرىء برفع تجارة على أنها اسم كان وحاضرة صفتها وتديرونها خبرها أو على أنها تامة .

﴿ وأشهدوا إذا تبايعتم ﴾ هذا التبايع أو مطلقا لأنه أحوط والأوامر الواردة فى الآية الكريمة للندب عند الجمهور وقيل للوجوب ثم اختلف فى أحكامها ونسخها ﴿ ولا يضار كاتب ولا شهيد ﴾ نهى عن المضارة محتمل للبناءين كما ينبىء عنه قراءة من قرأ ولا يضارر بالكسر والفتح وهو نهيهما عن ترك الإجابة والتغيير والتحريف فى الكتابة والشهادة أو نهى الطالب عن الضرار بهما بأن يعجلهما عن مهمهما أو يكلفهما الخروج عما حد لهما أو لا يعطى الكاتب جعله وقرىء بالرفع على أنه نفى فى معنى النهى ﴿ وإن تفعلوا ﴾ ما نهيتم عنه من الضرار ﴿ فإنه ﴾ أى فعلكم ذلك ﴿ فسوق بكم ﴾ أى خروج عن الطاعة ملتبس بكم ﴿ واتقوا الله ﴾ فى مخالفة أوامره ونواهيه التى من جملتها نهيه عن المضارة ﴿ ويعلمكم الله ﴾ أحكامه المتضمنة لمصالحكم ﴿ والله بكل شىء عليم ﴾ فلا يكاد يخفى عليه حالكم وهو مجازيكم بذلك كرر لفظ الجلالة فى الجمل الثلاث لإدخال الروعة وتربية المهابة وللتنبيه على استقلال كل منها بمعنى على

حياله فإن الأولى حث على التقوى والثانية وعد بالإنعام والثالثة تعظيم لشأنه تعالى ﴿ وإن كنتم على سفر ﴾ أى مسافرين أو متوجهين إليه ﴿ ولم تجدوا كاتبا ﴾ فى المداينة وقرىء كتابا وكتبا وكتابا ﴿ فرهان مقبوضة ﴾ أى فالذى يستوثق به أو فعليكم أو فليؤخذ أو فالمشروع رهان مقبوضة وليس هذا التعليق لاشتراط السفر فى شرعية الارتهان كما حسبه مجاهد والضحاك لأنه صلى الله عليه وسلم رهن درعه فى المدينة من يهودى بعشرين صاعا من شعير أخذه لأهله بل لإقامة التوثق بالارتهان مقام التوثق بالكتابة(١) فى السفر الذى هو مظنة إعوازها وإنما لم يتعرض لحال الشاهد لما أنه فى حكم الكاتب توثقا وإعوازا والجمهور على وجوب القبض فى تمام الرهن غير مالك وقرىء فرهن كسقف وكلاهما جمع رهن بمعنى مرهون وقرىء بسكون الهاء تخفيفا ﴿ فإن أمن بعضكم بعضاً ﴾ أى بعض الدائنين بعض المديونين لحسن ظنه به واستغنى بأمانته عن الارتهان وقرىء فإن أومن بعضكم أى آمنه الناس ووصفوه بالأمانة قيل فيكون انتصاب بعضا حينئذ على نزع الخافض أى على متاع بعض ﴿ فليؤد الذى اؤتمن ﴾ وهو المديون وإنما عبر عنه بذلك العنوان لتعينه طريقا للإعلام وحمله على الأداء ﴿ أمانته ﴾ أى دينه وإنما سمى أمانة لائتمانه عليه بترك الارتهان به وقرىء إيتمن بقلب الهمزة ياء وقرىء بإدغام الياء فى التاء وهو خطأ لأن المنقلبة من الهمزة لاتدغم لأنها فى حكمها ﴿ وليتق الله ربه ﴾ فى رعاية حقوق الأمانة وفى الجمع بين عنوان الألوهية وصفة الربوبية من التأكيد والتحذير مالايخفى .

﴿ ولا تكتموا الشهادة ﴾ أيها الشهود أو المديونون أى شهادتكم على أنفسكم عند المعاملة ﴿ ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ آثم خبر إن وقلبه مرتفع به على الفاعلية كأنه قيل يأثم قلبه أو مرتفع بالابتداء وآثم خبر مقدم والجملة خبر إن وإسناد الإثم إلى القلب لأن الكتمان مما اقترفه ونظيره نسبة الزنا إلى

---

(١) فى ط : بالكتبة .

العين والأذن أو للمبالغة لأنه رئيس الأعضاء وأفعاله أعظم الأفعال كأنه قيل تمكن الإثم فى نفسه وملك أشرف مكان فيه وفاق سائر ذنوبه . عن ابن عباس رضى الله عنهما إن أكبر الكبائر الإشراك بالله لقوله تعالى (فقد حرم الله عليه الجنة) وشهادة الزور وكتمان الشهادة وقرىء قلبه بالنصب كما فى سفه نفسه وقرىء أثم قلبه أى جعله آثما ﴿ والله بما تعملون عليم ﴾ فيجازيكم به إن خيرا فخير وإن شرا فشر ﴿ لله ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ من الأمور الداخلة فى حقيقتهما والخارجة عنهما المتمكنة فيهما من أولى العلم وغيرهم أى كلها له تعالى خلقا وملكا وتصرفا لا شركة لغيره فى شىء منها بوجه من الوجوه ﴿ وإن تبدوا ما فى أنفسكم ﴾ من السوء والعزم عليه بأن تظهروه للناس بالقول أو بالفعل أو بهما(١) ﴿ أو تخفوه ﴾ بأن تكتموه منهم ولا تظهروه بأحد الوجهين ولا يندرج فيه مالا يخلو عنه البشر من الوساوس وأحاديث النفس التى لا عقد ولا عزيمة فيها إذ التكليف بحسب الوسع ﴿ يحاسبكم به الله ﴾ يوم القيامة وهو حجة على منكرى الحساب من المعتزلة والروافض وتقديم الجار والمجرور على الفاعل للاعتناء به وأما تقديم الإبداء على الإخفاء على عكس ما فى قوله عز وجل (قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله) فلما أن المعلق بما فى أنفسهم ههنا هو المحاسبة والأصل فيها الأعمال البادية ، وأما العلم فتعلقه بها كتعلقه بالأعمال الخافية كيف لا وعلمه سبحانه بمعلوماته متعال عن أن يكون بطريق حصول الصور بل وجود كل شىء فى نفسه فى أى طور كان علم بالنسبة إليه تعالى وفى هذا لا يختلف الحال بين الأشياء البارزة والكامنة خلا أن مرتبة الإخفاء متقدمة على مرتبة الإبداء إذ ما من شىء يبدى إلا وهو أو مباديه قبل ذلك مضمر فى النفس فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية وقد مر فى تفسير قوله تعالى (أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون) .

---

(١) سقط من ط .

﴿ فيغفر ﴾ بالرفع على الاستئناف أى فهو يغفر بفضله ﴿ لمن يشاء ﴾ أى يغفر له ﴿ ويعذب ﴾ بعدله ﴿ من يشاء ﴾ أى يعذبه حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح وتقديم المغفرة على التعذيب لتقدم رحمته على غضبه وقرىء بجزم الفعلين عطفا على جواب الشرط وقرىء بالجزم من غير فاء على أنهما بدل من الجواب بدل البعض أو الاشتمال ونظيره الجزم على البدلية من الشرط فى قوله :

متى تأتنا تلمم بنا فى ديارنا   تجد حطبا جزلا ونارا تأججا

وإدغام الراء فى اللام لحن ﴿ والله على كل شىء قدير ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله فإن كمال قدرته تعالى على جميع الأشياء موجب لقدرته سبحانه على ما ذكر من المحاسبة وما فرع عليه من المغفرة والتعذيب ﴿ آمن الرسول ﴾ لما ذكر فى فاتحة السورة الكريمة أن ما أنزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من الكتاب العظيم الشأن هدى للمتصفين بما فصل هناك من الصفات الفاضلة التى من جملتها الإيمان به وبما أنزل قبله من الكتب الإلهية وأنهم حائزون لأثرتى الهدى والفلاح من غير تعيين لهم بخصوصهم ولا تصريح بتحقق اتصافهم بها إذ ليس فيما يذكر فى حيز الصلة حكم بالفعل وعقب ذلك ببيان حال من كفر به من المجاهرين والمنافقين ثم شرح فى تضاعيفها من فنون الشرائع والأحكام والمواعظ والحكم وأخبار الأمم السالفة(١) وغير ذلك ما تقتضى الحكمة شرحه عين فى خاتمتها المتصفون بها وحكم باتصافهم بها على طريق الشهادة لهم من جهته عز وجل بكمال الإيمان وحسن الطاعة وذكر صلى الله عليه وسلم بطريق الغيبة مع ذكره هناك بطريق الخطاب لما أن حق الشهادة الباقية على مر الدهور ألا يخاطب بها المشهود له ولم يتعرض ههنا لبيان فوزهم بمطالبهم التى من جملتها ما حكى عنهم من الدعوات الآتية إيذانا بأنه أمر محقق غنى عن التصريح به لاسيما بعد ما نص عليه فيما سلف وإيراده عليه السلام

---

(١) فى ط : سوالف الأمم .

بعنوان الرسالة المنبئة عن كونه عليه السلام صاحب كتاب مجيد وشرع جديد تمهيد لما يعقبه من قوله تعالى ﴿ بما أنزل إليه ﴾ ومزيد توضيح لاندراجه فى الرسل المؤمن بهم عليهم السلام والمراد بما أنزل إليه ﴿ من ربه ﴾ إيمانا تفصيليا متعلقا بجميع ما فيه من الشرائع والأحكام والقصص والمواعظ وأحوال الرسل والكتب وغير ذلك من حيث أنه منزل منه تعالى ، وأما الإيمان بحقية أحكامه وصدق أخباره ونحو ذلك فمن فروع الإيمان به من الحيثية المذكورة وفى هذا الإجمال إجلال لمحله عليه الصلاة والسلام وإشعار بأن تعلق إيمانه بتفاصيل ما أنزل إليه وإحاطته بجميع ما انطوى عليه من الظهور بحيث لاحاجة إلى ذكره أصلا وكذا فى التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام تشريف له وتنبيه على أن إنزاله إليه تربية وتكميل له عليه السلام .

﴿ والمؤمنون ﴾ أى الفريق المعروفون بهذا الاسم فاللام عهدية لاموصولة لإفضائها إلى خلو الكلام عن الجدوى وهو مبتدأ وقوله عز وجل ﴿ كل ﴾ مبتدأ ثان وقوله تعالى ﴿ آمن ﴾ خبره والجملة خبر للمبتدأ الأول والرابط بينهما الضمير الذى ناب مناب التنوين وتوحيد الضمير فى آمن مع رجوعه إلى كل المؤمنين لما أن المراد بيان إيمان كل فرد منهم من غير اعتبار الاجتماع كما اعتبر ذلك فى قوله تعالى (وكل أتوه داخرين) وتغيير سبك النظم الكريم عما قبله لتأكيد الإشعار بما بين إيمانه عليه السلام المبنى على المشاهدة والعيان وبين إيمانهم الناشىء عن الحجة والبرهان من التفاوت البين والاختلاف الجلى كأنهما متخالفان من كل وجه حتى فى هيئة التركيب الدال عليهما وما فيه من تكرير الإسناد لما فى الحكم بإيمان كل واحد منهم على الوجه الآتى من نوع خفاء محوج إلى التقوية والتأكيد أى كل واحد منهم آمن ﴿ بالله ﴾ وحده من غير شريك له فى الألوهية والمعبودية ﴿ وملائكته ﴾ أى من حيث أنهم عباد مكرمون له تعالى من شأنهم التوسط بينه تعالى وبين الرسل بإنزال الكتب وإلقاء الوحى فإن مدار الإيمان بهم ليس من خصوصيات ذواتهم فى

أنفسهم بل هو من إضافتهم إليه تعالى من الحيثية المذكورة كما يلوح به الترتيب فى النظم .

﴿ وكتبه ورسله ﴾ أى من حيث مجيئهما من عنده تعالى لإرشاد الخلق إلى ماشرع لهم من الدين بالأوامر والنواهى لكن لا على الإطلاق بل على أن كل واحد من تلك الكتب منزل منه تعالى إلى رسول معين أولئك الرسل عليهم الصلاة والسلام حسبما فصل فى قوله تعالى (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم) الآية ولا على أن مناط الإيمان خصوصية ذلك الكتاب أو ذلك الرسول بل على أن الإيمان بالكل مندرج فى الإيمان بالكتاب المنزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ومستند إليه لما تلى من الآية الكريمة ولا على أن أحكام الكتب السالفة وشرائعها باقية بالكلية ولا على أن الباقى منها معتبر بالإضافة إليها بل على أن أحكام كل واحد منها كانت حقة ثابتة إلى ورود كتاب آخر ناسخ له وأن ما لم ينسخ منها إلى الآن من الشرائع والأحكام ثابتة من حيث أنها من أحكام هذا الكتاب المصون عن النسخ إلى يوم القيامة وإنما لم يذكر ههنا الإيمان باليوم الآخر كما ذكر فى قوله تعالى (ولكن البرمن آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين) لاندراجه فى الإيمان بكتبه وقرىء وكتابه على أن المراد به القرآن أو جنس الكتاب كما فى قوله تعالى (فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب) .

والفرق بينه وبين الجمع أنه شائع فى أفراد الجنس والجمع فى جموعه ولذلك قيل الكتاب أكثر من الكتب وهذا نوع تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى (بما أنزل إليه من ربه) اقتصر عليه إيذانا بكفايته فى الإيمان الإجمالى المتحقق فى كل فرد من أفراد المؤمنين من غير نفى لزيادة ضرورة اختلاف طبقاتهم وتفاوت إيمانهم بالأمور المذكورة فى مراتب التفصيل تفاوتا فاحشا فإن الإجمال فى الحكاية لا يوجب الإجمال فى المحكى كيف لا وقد أجمل فى حكاية

إيمانه عليه السلام بما أنزل إليه من ربه مع بداهة كونه متعلقا بتفاصيل مافيه من الجلائل والدقائق ثم إن الأمور المذكورة حيث كانت من الأمور الغيبية التى لا يوقف عليها إلا من جهة العليم الخبير كان الإيمان بها مصداقا لما ذكر فى صدر السورة الكريمة من الإيمان بكتبه تعالى فإشارة إلى ما فى قوله تعالى (يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) هذا هو اللائق بشأن التنزيل والحقيق بمقداره الجليل وقد جوز أن يكون قوله تعالى والمؤمنون معطوفا على الرسول فيوقف عليه والضمير الذى عوض عنه التنوين راجع إلى المعطوفين معا كأنه قيل آمن الرسول والمؤمنون بما أنزل إليه من ربه ثم فصل وقيل كل واحد من الرسل(١) والمؤمنين آمن بالله الخ خلا أنه قدم المؤمن به على المعطوف اعتناء بشأنه وإيذانا بأصالته عليه السلام فى الإيمان به ولا يخفى أنه مع خلوه عما فى الوجه الأول من كمال وإجلال شأنه عليه السلام وتفخيم إيمانه مخل بجزالة النظم الكريم لأنه إن حمل كل من الإيمانين على ما يليق بشأنه عليه الصلاة السلام من حيث الذات ومن حيث التعلق بالتفاصيل استحال إسنادهما إلى غيره عليه الصلاة السلام وضاع التكرير وإن حملا على ما يليق بشأن آحاد الأمة كان ذلك حطا لرتبته العلية عليه السلام وأما حملهما على ما يليق بكل واحد ممن نسبا إليه من الآحاد ذاتا وتعلقا بأن يحملا بالنسبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم على الإيمان العيانى المتعلق بجميع التفصيل وبالنسبة إلى آحاد الأمة على الإيمان المكتسب من جهته عليه السلام اللائق بحالهم فى الإجمال والتفصيل فاعتساف بين ينبغى تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله ، وقوله تعالى :

﴿ لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ فى حيز النصب بقول مقدر على صيغة الجمع رعاية لجانب المعنى منصوب على أنه حال من ضمير آمن أو مرفوع على

---

(١) فى ط : الرسول .

أنه خبر آخر لكل أى يقولون لا نفرق بينهم بأن نؤمن ببعض منهم ونكفر بآخرين بل نؤمن بصحة رسالة كل واحد منهم قيدوا به إيمانهم تحقيقا للحق وتخطئة لأهل الكتابين حيث أجمعوا على الكفر بالرسول صلى الله عليه وسلم واستقلت اليهود بالكفر بعيسى عليه السلام أيضاً على أن مقصودهم الأصلى إبراز إيمانهم بما كفروا به من رسالته عليه السلام لا لإظهار موافقتهم لهم فيما آمنوا به وهذا كما ترى صريح فى أن القائلين آحاد المؤمنين خاصة إذ لا يمكن أن يسند إليه السلام أن يقول لا أفرق بين أحد من رسله وهو يريد به إظهار إيمانه برسالة نفسه وتصديقه فى دعواها وعدم التعرض لنفى التفريق بين الكتب لاستلزام المذكور إياه وإنما لم يعكس مع تحقق التلازم من الطرفين لما أن الأصل فى تفريق المفرقين هو الرسل وكفرهم بالكتب متفرع على كفرهم بهم وقرىء بالياء على إسناد الفعل إلى كل وقرىء لا يفرقون حملا على المعنى كما فى قوله تعالى (وكل أتوه داخرين) فالجملة نفسها حال من الضمير المذكور وقيل خبر ثان لكل كما قيل فى القول المقدر فلا بد من اعتبار الكلية بعد النفى دون العكس إذ المراد شمول النفى لا نفى الشمول والكلام فى همزة أحد وفى دخول بين عليه قد مر تفصيله عند قوله تعالى (لا نفرق بين أحد منهم) وفيه من الدلالة صريحا على تحقق عدم التفريق بين كل فرد فرد منهم وبين من عداه كائنا من كان ما ليس فى أن يقال لا نفرق بين رسله وإيثار إظهار الرسل على الإضمار الواقع مثله فى قوله تعالى (وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم) إما للاحتراز عن توهم اندراج الملائكة فى الحكم أو للإشعار بعلة عدم التفريق أو للإيماء إلى عنوانه لأن المعتبر عدم التفريق من حيث الرسالة دون سائر الحيثيات الخاصة ﴿وقالوا﴾ عطف على آمن وصيغة الجمع باعتبار جانب المعنى وهو حكاية لامتثالهم بالأوامر إثر حكاية إيمانهم ﴿سمعنا﴾ أى فهمنا ما جاءنا من الحق وتيقنا بصحته ﴿وأطعنا﴾ ما فيه من الأوامر والنواهى وقيل سمعنا أجبنا دعوتك وأطعنا أمرك ﴿غفرانك ربنا﴾ أى اغفر لنا غفرانك أو نسألك غفرانك ذنوبنا المتقدمة أو ما لا يخلو عنه البشر

من التقصير فى مراعاة حقوقك وتقديم ذكر السمع والطاعة على طلب الغفران لما أن تقديم الوسيلة على المسئول أدعى إلى الإجابة والقبول والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إليهم للمبالغة فى التضرع والجؤار .

﴿ وإليك المصير ﴾ أى الرجوع بالموت والبعث لا إلى غيرك وهو تذييل لما قبله مقرر للحاجة إلى المغفرة لما أن الرجوع للحساب والجزاء وقوله تعالى ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ جملة مستقلة جىء بها إثر حكاية تلقيهم لتكاليفه تعالى بحسن الطاعة إظهاراً لما له تعالى عليهم فى ضمن التكليف من محاسن آثار الفضل والرحمة ابتداء لا بعد السؤال كما سيجىء ، هذا وقد روى أنه لما نزل قوله تعالى (وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوه ثم بركوا على الركب فقالوا أى رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة والصوم والحج والجهاد وقد أنزل إليك هذه الآية ولا نطيقها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير فقرأها القوم فأنزل الله عز وجل (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه إلى قوله تعالى غفرانك ربنا وإليك المصير) فسئولهم الغفران المعلق بمشيئته عز وعلا فى قوله (فيغفر لمن يشاء) ثم أنزل الله تعالى (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) تهوينا للخطب عليهم ببيان أن المراد بما فى أنفسهم ما عزموا عليه من السوء خاصة لا ما يعم الخواطر التى لا يستطاع الاحتراز عنها والتكليف وإلزام ما فيه كلفة ومشقة والوسع ما يسع الإنسان ولا يضيق عليه أى سنته تعالى أنه لا يكلف نفسا من النفوس إلا ما يتسع فيه طوقها ويتيسر عليها دون مدى الطاقة والمجهود فضلا منه تعالى ورحمة لهذه الأمة كقوله تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقرىء وسعها بالفتح وهذا يدل على عدم وقوع التكليف بالمحال لا على امتناعه وقوله تعالى :

﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ للترغيب فى المحافظة على مواجب التكليف والتحذير عن الإخلال بها ببيان أن تكليف كل نفس مع مقارنته لنعمة التخفيف والتيسير تتضمن مراعاته منفعة زائدة وأنها تعود إليها لا إلى غيرها ويستتبع الإخلال به مضرة تحيق بها لا بغيرها فإن اختصاص منفعة الفعل بفاعله من أقوى الدواعى إلى تحصيله واقتصار مضرته عليه من أشد الزواجر عن مباشرته أى لها ثواب ما كسبت من الخير الذى كلفت فعله لا لغيرها استقلالا أو اشتراكا ضرورة شمول كلمة ما لكل جزء من أجزاء مكسوبها وعليها لا على غيرها بأحد الطريقين المذكورين عقاب ما اكتسبت من الشر الذى كلفت تركه وإيراد الاكتساب فى جانب الشر لما فيه من اعتمال ناشىء من اعتناء النفس بتحصيل الشر وسعيها فى طلبه ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ شروع فى حكاية بقية دعواتهم إثر بيان سر التكليف أى لا تؤاخذنا بما صدر عنا من الأمور المؤدية إلى النسيان أو الخطأ من تفريط وقلة مبالاة ونحوهما مما يدخل تحت التكليف أو بأنفسهما من حيث ترتبهما على ما ذكر أو مطلقا إذ لا امتناع فى المؤاخذة بهما عقلا فإن المعاصى كالسموم فكما أن تناولها ولو سهواً أو خطأ مؤد إلى الهلاك فتعاطى المعاصى أيضاً لا يبعد أن يفضى إلى العقاب وإن لم يكن عن عزيمة ووعده تعالى بعدمه لا يوجب استحالة وقوعه فإن ذلك من آثار فضله ورحمته كما ينبىء عنه الرفع فى قوله عليه السلام «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان» وقد روى أن اليهود كانوا إذا نسوا شيئاً عجلت لهم العقوبة فدعاؤهم بعد العلم بتحقق الموعود للاستدامة والاعتداد بالنعمة فى ذلك كما فى قوله تعالى (ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك) ﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصراً ﴾ عطف على ما قبله وتوسيط النداء بينهما لإبراز مزيد الضراعة والإصر العبء الثقيل الذى يأصر صاحبه أى يحبسه مكانه والمراد به التكاليف الشاقة وقيل الإصر الذنب الذى لا توبة له فالمعنى اعصمنا من اقترافه وقرىء آصارا وقرىء ولا تحمل بالتشديد للمبالغة ﴿ كما حملته على الذين من قبلنا ﴾ فى حيز النصب على أنه صفة لمصدر محذوف

أى حملا مثل حملك إياه على من قبلنا أو على أنه صفة لإصراً أى إصراً مثل الإصر الذى حملته على من قبلنا وهو ما كلفه بنو إسرائيل من بخع النفس فى التوبة وقطع موضع النجاسة وخمسين صلاة فى يوم وليلة وصرف ربع المال للزكاة وغير ذلك من التشديدات فإنهم كانوا إذا أتوا بخطيئة حرم عليهم من الطعام بعض ما كان حلالا لهم قال الله تعالى (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) وقد عصم الله عز وجل بفضله ورحمته هذه الأمة عن أمثال ذلك وأنزل فى شأنهم (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم) وقال عليه السلام «بعثت بالحنيفية السهلة السمحة» وعن العقوبات التى عوقب بها الأولون من المسخ والخسف وغير ذلك قال عليه السلام «رفع عن أمتى الخسف والمسخ والغرق».

﴿ ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ﴾ عطف على ما قبله واستعفاء عن العقوبات التى لا تطاق بعد الاستعفاء عما يؤدى إليه التفريط فيه من التكاليف الشاقة التى لا يكاد من كلفها يخلو عن التفريط فيها كأنه قيل لا تكلفنا تلك التكاليف ولا تعاقبنا بتفريطنا فى المحافظة عليها فيكون التعبير عن إنزال العقوبات بالتحميل باعتبار ما يؤدى إليها وقيل هو تكرير للأول وتصوير للإصر بصورة ما لايستطاع مبالغة وقيل هو استعفاء عن التكليف بما لاتفى به الطاقة البشرية حقيقة فيكون دليلا على جوازه عقلا وإلا لما سئل التخلص عنه والتشديد ههنا لتعدية الفعل إلى مفعول ثان ﴿ واعف عنا ﴾ أى آثار ذنوبنا ﴿ واغفر لنا ﴾ واستر عيوبنا ولا تفضحنا على رؤس الأشهاد ﴿ وارحمنا ﴾ وتعطف بنا وتفضل علينا وتقديم طلب العفو والمغفرة على طلب الرحمة لما أن التخلية سابقة على التحلية ﴿ أنت مولانا ﴾ سيدنا ونحن عبيدك أو ناصرنا أو متولى أمورنا ﴿ فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ فإن من حق المولى أن ينصر عبده ومن يتولى أمره على الأعداء والمراد به عامة

---

(١) فى ط : إليها .

الكفرة وفيه إشارة إلى أن إعلاء كلمة الله والجهاد فى سبيله تعالى حسبما أمر فى تضاعيف السورة الكريمة غاية مطالبهم ، روى أنه عليه الصلاة والسلام لما دعا بهذه الدعوات قيل له عند كل دعوة قد فعلت ، وعنه عليه السلام « أنزل الله آيتين من كنوز الجنة كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفى عام من قرأهما بعد العشاء الأخيرة أجزأتاه عن قيام الليل » وعنه عليه السلام من قرأ آيتين من سورة البقرة كفتاه وهو حجة على من استكره أن يقول سورة البقرة وقال ينبغى أن يقال السورة التى يذكر فيها البقرة كما قال عليه السلام « السورة التى يذكر فيها البقرة فسطاط القرآن فتعلمها بركة وتركها حسرة ولن تستطيعها البطلة قيل وما البطلة قال عليه السلام السحرة » .

* * *

سورة آل عمران ، مدنية ، مائتا آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ ألم الله لا إله إلا هو ﴾ قد سلف أن ما لا تكون من هذه الفواتح مفردة كصاد وقاف ونون ولا موازنة لمفرد كحاميم وطاسين وياسين الموازنة لقابيل وهابيل وكطاسين ميم الموازنة لدارابجرد حسبما ذكره سيبويه فى الكتاب فطريق التلفظ بها الحكاية فقط ساكنة الأعجاز على الوقف سواء جعلت أسماء أو مسرودة على نمط التعديد وإن لزمها التقاء الساكنين لما أنه مغتفر فى باب الوقف قطعا فحق هذه الفاتحة أن يوقف عليها ثم يبدأ بما بعدها كما فعله أبو بكر رضى الله عنه رواية عن عاصم وأما ما فيها من الفتح على القراءة المشهورة فإنما هى حركة همزة الجلالة ألقيت على الميم لتدل على ثبوتها إذ ليس إسقاطها للدرج بل للتخفيف فهى ببقاء حركتها فى حكم الثابت المبتدأ به والميم بكون الحركة لغيرها فى حكم الوقف على السكون دون الحركة كما توهم واعترض

بأنه غير معهود فى الكلام وقيل هى حركة لالتقاء السواكن التى هى الياء والميم ولام الجلالة بعد سقوط همزتها وأنت خبير بأن سقوطها مبنى على وقوعها فى الدرج وقد عرفت أن سكون الميم وقف موجب لانقطاعها عما بعدها مستدع لثبات الهمزة على حالها لا كما فى الحروف والأسماء المبنية على السكون فإن حقها الاتصال بما بعدها وضعا واستعمالا فتسقط بها همزة الوصل وتحرك أعجازها لالتقاء الساكنين ثم إن جعلت مسرودة على نمط التعديد فلا محل لها من الإعراب كسائر الفواتح وإن جعلت اسما للسورة فمحلها إما الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف ، وإما النصب على إضمار فعل يليق بالمقام كاذكر أو اقرأ أو نحوهما وأما الرفع بالابتداء أو النصب بتقدير فعل القسم أو الجر بتقدير حرفه فلا مساغ لشيء منها لما أن ما بعدها غير صالح للخبرية ولا للإقسام عليه فإن الاسم الجليل مبتدأ وما بعده خبره والجملة مستأنفة أى هو المستحق للمعبودية لاغير وقوله عز وجل .

﴿ الحى القيوم ﴾ خبر آخر له أولمبتدأ محذوف أى هو الحى القيوم لاغيره وقيل هو صفة للمبتدأ أو بدل منه أو من الخبر الأول أو هو الخبر وما قبله اعتراض بين المبتدأ والخبر مقرر لما يفيده الاسم الجليل أو حال منه وأياً ما كان فهو كالدليل على اختصاص استحقاق المعبودية به سبحانه وتعالى لما مر من أن معنى الحى الباقى الذى لاسبيل عليه للموت والفناء ومعنى القيوم الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه ومن ضرورة اختصاص ذينك الوصفين به تعالى اختصاص استحقاق المعبودية به تعالى لاستحالة تحققه بدونهما وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اسم الله الأعظم فى ثلاث سور فى سورة البقرة (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) وفى آل عمران (الم الله لا إله هو الحى القيوم) وفى طه (وعنت الوجوه للحى القيوم) وروى أن بنى إسرائيل سألوا موسى عليه السلام عن اسم الله الأعظم قال الحى القيوم ويروى أن عيسى عليه السلام كان إذا أراد إحياء الموتى يدعو ياحى ياقيوم ويقال إن آصف بن برخيا حين أراد أن يأتى بعرش بلقيس دعا بذلك وقرىء الحى القيام وهذا رد على من زعم أن

عيسى عليه السلام كان ربا فإنه روى أن وفد نجران قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا ستين راكبا فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم ثلاثة منهم أكابر إليهم يؤول أمرهم أحدهم أميرهم وصاحب مشورتهم العاقب واسمه عبد المسيح وثانيهم وزيرهم ومشيرهم السيد واسمه الأيهم وثالثهم حبرهم وأسقفهم وصاحب مدارسهم أبو حارثة بن علقمة أحد بنى بكر بن وائل وقد كان ملوك الروم شرفوه ومولوه وأكرموه لما شاهدوا من علمه واجتهاده فى دينهم وبنوا له كنائس فلما خرجوا من نجران ركب أبو حارثة بغلته وكان أخوه كرز بن علقمة إلى جنبه فبينا بغلة أبى حارثة تسير إذ عثرت فقال كرز تعسا للأبعد يريد به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له أبو حارثة بل تعست أمك فقال كرز ولم يا أخى قال إنه والله النبى الذى كنا ننتظره فقال له كرز فما يمنعك عنه وأنت تعلم هذا؟ قال لأن هؤلاء الملوك أعطونا أموالا كثيرة وأكرمونا فلو آمنا به لأخذوا منا كلها ، فوقع ذلك فى قلب كرز وأضمره إلى أن أسلم فكان يحدث بذلك فأتوا المدينة ثم دخلوا مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد صلاة العصر عليهم ثياب الحبرات جبب وأردية فاخرة يقول بعض من رآهم من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ما رأينا وفدا مثلهم وقد حانت صلاتهم فقاموا ليصلوا فى المسجد فقال عليه السلام دعوهم فصلوا إلى المشرق ثم تكلم أولئك الثلاثة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا تارة عيسى هو الله لأنه كان يحيى الموتى ويبرىء الأكمه ويخبر بالغيوب ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيطير وتارة أخرى هو ابن الله إذ لم يكن له أب يعلم وتارة أخرى إنه ثالث ثلاثة لقوله تعالى فعلنا وقلنا ولو كان واحدا لقال فعلت وقلت فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلموا قالوا أسلمنا قبلك قال عليه السلام كذبتم يمنعكم من الإسلام دعاؤكم لله تعالى ولداً قالوا إن لم يكن ولداً لله فمن أبوه فقال عليه السلام ألستم

---

(١) فى ط : الأسقام

تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه فقالوا بلى قال ألستم تعلمون أن ربنا حى لا يموت وأن عيسى يأتى عليه الفناء قالوا بلى قال عليه السلام ألستم تعلمون أن ربنا قيوم على كل شىء يحفظه ويرزقه قالوا بلى قال عليه السلام فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً قالوا لا فقال عليه السلام ألستم تعلمون أن الله تعالى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء قالوا بلى قال عليه السلام فهل يعلم عيسى من ذلك إلا ما علم قالوا بلى قال عليه السلام ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى فى الرحم كيف شاء وأن ربنا لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث قالوا بلى قال عليه السلام ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ووضعته كما تضع المرأة ولدها ثم غذى كما يغذى الصبى ثم كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث قالوا بلى قال عليه السلام فكيف يكون هذا كما زعمتم فسكتوا وأبوا إلا جحودا فأنزل الله عز وجل من أول السورة إلى نيف وثمانين آية تقريرا لما احتج به عليه السلام عليهم وأجاب به عن شبههم وتحقيقا للحق الذى فيه يمترون .

﴿ نزل عليك الكتاب ﴾ أى القرآن عبر عنه باسم الجنس إيذانا بكمال تفوقه على بقية الأفراد فى حيازة كمالات الجنس كأنه هو الحقيق بأن يطلق عليه اسم الكتاب دون ما عداه كما يلوح به التصريح باسمى التوراة والإنجيل وصيغة التفعيل للدلالة على التفخيم وتقديم الظرف على المفعول لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر والجملة إما مستأنفة أو خبر آخر عن الاسم الجليل أو هى الخبر وقوله تعالى لا إله إلا هو اعتراض أو حال وقوله عز وجل الحى القيوم صفة أو بدل كما مر وقرىء نزل عليك الكتاب بالتخفيف ورفع الكتاب فالظاهر حينئذ أن تكون مستأنفة وقيل يجوز كونها خبرا بحذف العائد أى نزل الكتاب من عنده ﴿ بالحق ﴾ حال من الفاعل أو المفعول أى نزله محقا فى تنزيله على ما هو عليه أو ملتبسا بالعدل فى أحكامه أو بالصدق فى أخباره التى من جملتها خبر التوحيد وما يليه وفى وعده

ووعيده أو بما يحقق أنه من عند الله تعالى من الحجج البينة ﴿ مصدقا ﴾ حال من الكتاب بالاتفاق على تقدير كون قوله تعالى بالحق حالا من فاعل نزل وأما على تقدير حاليته من الكتاب فهو عند من يجوز تعدد الحال بلا عطف ولا بدلية حال منه بعد حال وأما عند من يمنعه فقد قيل إنه حال من محل الحال الأولى على البدلية وقيل من المستكن فى الجار والمجرور لأنه حينئذ يتحمل ضمير القيامة مقام عامله المتحمل له فيكون حالا متداخلة وعلى كل حال فهى حال مؤكدة وفائدة تقييد التنزيل بها حث أهل الكتابين على الإيمان بالمنزل وتنبيههم على وجوبه فإن الإيمان بالمصدق موجب للإيمان بما يصدقه حتما ﴿ لما بين يديه ﴾ مفعول لمصدقا واللام دعامة لتقوية العمل نحو فعال لما يريد أى مصدقا لما قبله من الكتب السالفة وفيه إيماء إلى حضورها وكمال ظهور أمرها بين الناس وتصديقه إياها فى الدعوة إلى الإيمان والتوحيد وتنزيه الله عز وجل عما لا يليق بشأنه الجليل والأمر بالعدل والإحسان وكذا فى أنباء الأنبياء والأمم الخالية وكذا فى نزوله على النعت المذكور فيها وكذا فى الشرائع التى لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار ظاهر لا ريب فيه وأما فى الشرائع المختلفة باختلافهما فمن حيث أن أحكام كل واحد منها واردة حسبما تقتضيه الحكمة التشريعية بالنسبة إلى خصوصيات الأمم المكلفة بها مشتملة على المصالح اللائقة بشأنهم .

﴿ وأنزل التوراة والإنجيل ﴾ تعيين لما بين يديه وتبيين لرفعة محله تأكيداً لما قبله وتمهيدا لما بعده إذ بذلك يترقى شأن ما يصدقه رفعة ونباهة ويزداد فى القلوب قبولا ومهابة ويتفاحش حال من كفر بهما فى الشناعة واستتباع ما سيذكر من العذاب الشديد والانتقام أى أنزلهما جملة على موسى وعيسى عليهما السلام وإنما لم يذكرا لأن الكلام فى الكتابين لا فيمن أنزلا عليه وهما اسمان أعجميان الأول عبرى والثانى سريانى ويعضده القراءة بفتح همزة الإنجيل فإن إفعيل ليس من أبنية العرب والتصدى لاشتقاقهما من الورى والنجل تعسف ﴿ من قبل ﴾ متعلق بأنزل أى أنزلهما من قبل تنزيل

الكتاب والتصريح به مع ظهور الأمر للمبالغة فى البيان ﴿ هدى للناس ﴾ فى حيز النصب على أنه علة للإنزال أى أنزلها لهداية الناس أو على أنه حال منهما أى أنزلها حال كونهما هدى لهم والإفراد لما أنه مصدر جعلا نفس الهدى مبالغة أو حذف منه المضاف أى ذوى هدى ثم إن أريد هدايتهما بجميع ما فيهما من حيث هو جميع فالمراد بالناس الأمم الماضية من حين نزولهما إلى زمان نسخهما وإن أريد هدايتهما على الإطلاق وهو الأنسب بالمقام فالناس على عمومه لما أن هدايتهما بما عدا الشرائع المنسوخة من الأمور التى يصدقهما القرآن فيها ومن جملتها البشارة بنزوله وبمبعث النبى صلى الله عليه وسلم تعم الناس قاطبة .

﴿ وأنزل الفرقان ﴾ الفرقان فى الأصل مصدر كالغفران أطلق على الفاعل مبالغة والمراد به ههنا إما جنس الكتب الإلهية عبر عنها بوصف شامل لما ذكر منها وما لم يذكر على طريق التتميم بالتعميم إثر تخصيص بعض مشاهيرها بالذكر كما فى قوله عز وجل (فأنبتنا فيها حبا وعنبا إلى قوله تعالى وفاكهة) وإما نفس الكتب المذكورة أعيد ذكرها بوصف خاص لم يذكر فيما سبق على طريقة العطف بتكرير لفظ الإنزال تنزيلا للتغاير الوصفى منزلة التغاير الذاتى كما فى قوله سبحانه ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ وأما الزبور فإنه مشتمل على المواعظ الفارقة بين الحق والباطل الداعية إلى الخير والرشاد الزاجرة عن الشر والفساد وتقديم الإنجيل عليه مع تأخره عنه نزولا لقوة مناسبته للتوراة فى الاشتمال على الأحكام والشرائع وشيوع اقترانهما فى الذكر وأما القرآن نفسه فذكر(1) بنعت مادح له بعد ما ذكر باسم الجنس تعظيما لشأنه ورفعا لمكانه وقد بين أولا تنزيله التدريجى إلى الأرض وثانيا إنزاله الدفعى إلى السماء الدنيا أو أريد بالإنزال القدر المشترك العارى عن قيد التدريج وعدمه وأما المعجزات المقرونة بإنزال

---

(1) فى ط : ذكر

الكتب المذكورة الفارقة بين المحق والمبطل ﴿ إن الذين كفروا بآيات الله ﴾ وضع موضع الضمير العائد إلى ما فصل من الكتب المنزلة أو منها ومن المعجزات. الآيات مضافة إلى الاسم الجليل تعيينا لحيثية كفرهم وتهويلا لأمرهم وتأكيدا لاستحقاقهم العذاب الشديد وإيذانا بأن ذلك الاستحقاق لا يشترط فيه الكفر بالكل بل يكفى فيه الكفر ببعض منها والمراد بالموصول إما أهل الكتابين. وهو الأنسب بمقام المحاجة معهم أو جنس الكفرة وهم داخلون فيه دخولا أوليا أى إن الذين كفروا بما ذكر من آيات الله الناطقة بالحق لاسيما بتوحيده. تعالى وتنزيهه عما لا يليق بشأنه الجليل كلا أو بعضا مع ما بها من النعوت. الموجبة للإيمان بها بأن كذبوا بالقرآن أصالة وبسائر الكتب الإلهية تبعا لما أن تكذيب ما يصدقه حتما وأصالة أيضا بأن كذبوا بآياتها الناطقة بالتوحيد والتنزيه وآياتها المبشرة بنزول القرآن ومبعث النبى صلى الله عليه وسلم وغيرها. ﴿ لهم ﴾ بسبب كفرهم بها ﴿ عذاب ﴾ مرتفع إما على الفاعلية من الجار والمجرور أو على الابتداء والجملة خبر إن والتنوين للتفخيم أى أى عذاب ﴿ شديد ﴾ لا يقادر قدره وهو وعيد جىء به إثر تقرير أمر التوحيد الذاتى. والوصفى والإشارة إلى ما ينطق بذلك من الكتب الإلهية حملا على القبول. والإذعان وزجرا عن الكفر والعصيان .

﴿ والله عزيز ﴾ لا يغالب يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿ ذو انتقام ﴾. عظيم خارج عن أفراد جنسه وهو افتعال من النقمة وهى السطوة والتسلط يقال انتقم منه إذا عاقبه بجنايته والجملة اعتراض تذييلى مقرر للوعيد ومؤكد له. ﴿ إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ﴾ استئناف كلام سيق. لبيان سعة علمه تعالى وإحاطته بجميع ما فى العالم من الأشياء التى من جملتها. ما صدر عنهم من الكفر والفسوق سرا وجهرا إثر بيان كمال قدرته وعزته. تربية لما قبله من الوعيد وتنبيها على أن الوقوف على بعض المغيبات كما كان. فى عيسى عليه السلام بمعزل من بلوغ رتبة الصفات الإلهية وإنما عبر عن علمه عز وجل بما ذكر بعدم خفائه عليه كما فى قوله سبحانه وما يخفى على الله من.

شيء فى الأرض ولا فى السماء إيذانا بأن علمه تعالى بمعلوماته وإن كانت فى أقصى الغايات الخفية ليس من شأنه أن يكون على وجه يمكن أن يقارنه شائبة خفاء بوجه من الوجوه كما فى علوم المخلوقين بل هو فى غاية الوضوح والجلاء والجملة المنفية خبر لأن وتكرير الإسناد لتقوية الحكم وكلمة فى متعلقة بمحذوف وقع صفة لشيء مؤكدة لعمومه المستفاد من وقوعه فى سياق النفى أى لا يخفى عليه شيء ما كائن فى الأرض ولا فى السماء أعم من أن يكون ذلك بطريق الاستقرار فيهما أو الجزئية منهما وقيل متعلقة بيخفى وإنما عبر بهما عن كل العالم لأنهما قطراه وتقديم الأرض على السماء لإظهار الاعتناء بشأن أحوال أهلها وتوسيط حرف النفى بينهما للدلالة على الترقى من الأدنى إلى الأعلى باعتبار القرب والبعد منا المستدعيين للتفاوت بالنسبة إلى علومنا وقوله عز وجل .

﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ﴾ جملة مستأنفة ناطقة ببعض أحكام قيوميته تعالى وجريان أحوال الخلق فى أطوار الوجود حسب مشيئته المبنية على الحكمة⁽¹⁾ البالغة مقررة لكمال علمه مع زيادة بيان لتعلقه بالأشياء قبل دخولها تحت الوجود ضرورة وجوب علمه تعالى بالصور المختلفة المترتبة على التصوير المترتب على المشيئة قبل تحققها بمراتب وكلمة فى متعلقة بيصوركم أو بمحذوف وقع حالا من ضمير المفعول أى يصوركم وأنتم فى الأرحام مضغ وكيف معمول ليشاء والجملة فى محل النصب على الحالية إما من فاعل يصوركم أى يصوركم كائنا على مشيئته تعالى أى مريدا أو من مفعوله أى يصوركم كائنين على مشيئته تعالى تابعين لها فى قبول الأحوال المتغايرة من كونكم نطفا ثم علقا ثم مضغا غير مخلقة ثم مخلقة. وفى الاتصاف بالصفات المختلفة من الذكورة والأنوثة والحسن والقبح وغير ذلك من الصفات وفيه من الدلالة على بطلان زعم من زعم ربوبية عيسى عليه السلام وهو من جملة

---

(١) فى ط : الحكم

أبناء النواسيت المتقلبين فى هذه الأطوار على مشيئة البارى عز وجل وكمال ركاكة عقولهم مالا يخفى وقرىء تصوركم على صيغة الماضى من التفعل أى أى صوركم لنفسه وعبادته ﴿ لا إله إلا هو ﴾ إذ لا يتصف بشىء مما ذكر من الشئون العظيمة الخاصة بالألوهية أحد ليتوهم ألوهيته ﴿ العزيز الحكيم ﴾ المتناهى فى القدرة والحكمة لذلك يخلقكم على ما ذكر من النمط البديع .

﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب ﴾ شروع فى إبطال شبههم الناشئة عما نطق به القرآن فى نعت عيسى عليه السلام بطريق الاستئناف إثر بيان اختصاص الربوبية ومناطها به سبحانه وتعالى تارة بعد أخرى وكون كل من عداه مقهوراً تحت ملكوته تابعا لمشيئته . قيل إن وفد نجران قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ألست تزعم يا محمد أن عيسى كلمة الله وروحه(١) قال عليه السلام بلى قالوا فحسبنا ذلك فنعى عليهم زيغهم وفتنتهم وبين أن الكتاب مؤسس على أصول رصينة وفروع مبنية عليها ناطقة بالحق قاضية ببطلان ماهم عليه من الضلال والمراد بالإنزال القدر المشترك المجرد عن الدلالة على قيد التدريج وعدمه ولام الكتاب للعهد وتقديم الظرف عليه لما أشير إليه فيما قبل من الاعتناء بشأن بشارته عليه السلام بتشريف الإنزال عليه ومن التشويق إلى ما أنزل فإن النفس عند تأخير ما حقه التقديم لاسيما بعد الإشعار برفعة شأنه أو بمنفعته تبقى مترقبة له فيتمكن لديها عند وروده عليها فضل تمكن وليتصل به تقسيمه إلى قسميه ﴿ منه آيات ﴾ الظرف خبر وآيات مبتدأ أو بالعكس بتأويل مر تحقيقه فى قوله تعالى (ومن الناس من يقول) الآية والأول أوفق بقواعد الصناعة والثانى أدخل فى جزالة المعنى إذ المقصود الأصلى انقسام الكتاب إلى القسمين المعهودين لا كونهما من الكتاب فتذكر والجملة مستأنفة فى حيز النصب على الحالية من الكتاب أى هو الذى أنزل الكتاب كائنا على هذه الحال منقسما إلى محكم ومتشابه أو الظرف هو الحال وحده وآيات مرتفع

---

(١) فى ط : وروح منه .

به على الفاعلية ﴿ محكمات ﴾ صفة آيات أى قطعية الدلالة على المعنى المراد محكمة العبارة محفوظة من الاحتمال والاشتباه ﴿ هن أم الكتاب ﴾ أى أصل فيه وعمدة يرد إليها غيرها فالمراد بالكتاب كله والإضافة بمعنى فى كما فى واحد العشرة لا بمعنى اللام فإن ذلك يؤدى إلى كون الكتاب عبارة عما عدا المحكمات والجملة إما صفة لما قبلها أو مستأنفة وإنما أفرد الأم مع تعدد الآيات لما أن المراد بيان أصلية كل واحدة منها أو بيان أن الكل بمنزلة آية واحدة كما فى قوله تعالى (وجعلناها وابنها آية للعالمين) وقيل اكتفى بالمفرد عن الجمع كما فى قول الشاعر :

بها جيف الحسرى فأما عظامها   فبيض وأما جلدها فصليب

أى وأما جلودها ﴿ وأخر ﴾ نعت المحذوف معطوف على آيات أى وآيات أخر وهى جمع أخرى وإنما لم ينصرف لأنه وصف معدول عن الآخر أو عن آخر من ﴿ متشابهات ﴾ صفة لأخر وفى الحقيقة صفة للمحذوف أى محتملات لمعان متشابهة لا يمتاز بعضها عن[1] بعض فى استحقاق الإرادة بها ولا يتضح الأمر إلا بالنظر الدقيق والتأمل الأنيق فالتشابه فى الحقيقة وصف لتلك المعانى وصف به الآيات على طريقة وصف الدال بوصف المدلول وقيل لما كان من شأن الأمور المتشابهة أن يعجز العقل عن التمييز بينها سمى كل مالا يهتدى إليه العقل متشابها وإن لم يكن ذلك بسبب التشابه كما أن المشكل فى الأصل ما دخل فى أشكاله وأمثاله ولم يعلم بعينه ثم أطلق على كل غامض وإن لم يكن غموضه من تلك الجهة وإنما جعل ذلك كذلك ليظهر فضل العلماء ويزداد حرصهم على الاجتهاد فى تدبرها وتحصيل العلوم التى نيط بها استنباط ما أريد بها من الأحكام الحقة فينالوا بها وبإتعاب القرائح فى استخراج مقاصدها الرائقة ومعانيها اللائقة المدارج العالية ويعرجوا بالتوفيق بينها وبين المحكمات من اليقين والاطمئنان إلى المعارج القاصية وأما قوله عز وجل

---

(١) فى ط : من بعض

(الر كتاب أحكمت آياته) فمعناه أنها حفظت من اعتراء الخلل أو من النسخ أو أيدت بالحجج القاطعة الدالة على حقيتها أو جعلت حكيمة لانطوائها على جلائل الحكم البالغة ودقائقها وقوله تعالى كتابا متشابها مثانى معناه متشابه الأجزاء أى يشبه بعضها بعضا فى صحة المعنى وجزالة النظم وحقية المدلول .

﴿ فأما الذين فى قلوبهم زيغ ﴾ أى ميل عن الحق إلى الأهواء الباطلة . قال الراغب الزيغ الميل عن الاستقامة إلى أحد الجانبين وفى جعل قلوبهم مقراً للزيغ مبالغة فى عدولهم عن سنن الرشاد وإصرارهم على الشر والفساد ﴿ فيتبعون ما تشابه منه ﴾ معرضين عن المحكمات أى يتعلقون بظاهر المتشابه من الكتاب أو بتأويل باطل لا تحريا للحق بعد الإيمان بكونه من عند الله تعالى بل ﴿ ابتغاء الفتنة ﴾ أى طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم بالتشكيك والتلبيس ومناقضة المحكم بالمتشابه كما نقل عن الوفد ﴿ وابتغاء تأويله ﴾ أى وطلب أن يؤولوه حسبما يشتهونه من التأويلات الزائغة والحال أنهم بمعزل من تلك الرتبة وذلك قوله عز وجل ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم ﴾ فإنه حال من ضمير فيتبعون باعتبار العلة الأخيرة أى يتبعون المتشابه لابتغاء تأويله والحال أنه مخصوص به تعالى وبمن وفقه له من عباده الراسخين فى العلم أى الذين ثبتوا وتمكنوا فيه ولم يتزلزلوا فى مزال الأقدام وفى تعليل الاتباع بابتغاء تأويله دون نفس تأويله وتجريد التأويل عن الوصف بالصحة أو الحقية إيذان بأنهم ليسوا من التأويل فى شىء وأن ما يبتغونه ليس بتأويل أصلا لا أنه تأويل غير صحيح قد يعذر صاحبه ومن وقف على إلا الله فسر المتشابه بما استأثر الله عز وعلا بعلمه كمدة بقاء الدنيا ووقت قيام الساعة وخواص الأعداد كعدد الزبانية أو بما دل القاطع على عدم إرادة ظاهره ولم يدل على ما هو المراد به .

﴿ يقولون آمنا به ﴾ أى بالمتشابه وعدم التعرض لإيمانهم بالمحكم لظهوره أو بالكتاب والجملة على الأول استئناف موضح لحال الراسخين أو حال منه وعلى الثانى خبر لقوله تعالى والراسخون وقوله تعالى ﴿ كل من عند ربنا ﴾

من تمام المقول مقرر لما قبله ومؤكد له أى كل واحد منه ومن المحكم أو كل واحد من متشابهه ومحكمه منزل من عنده تعالى لا مخالفة بينهما أو آمنا به وبحقيته على مراده تعالى ﴿ وما يذكر ﴾ حق التذكر ﴿ إلا أولو الألباب ﴾ أى العقول الخالصة عن الركون إلى الأهواء الزائغة وهو تذييل سيق من جهته تعالى مدحا للراسخين بجودة الذهن وحسن النظر وإشارة إلى مابه استعدوا للاهتداء إلى تأويله من تجرد العقل عن غواشى الحس وتعلق الآية الكريمة بما قبلها من حيث أنها جواب عما تشبث به النصارى من نحو قوله تعالى (وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) على وجه الإجمال وسيجىء الجواب المفصل بقوله تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا ﴾ من تمام مقالة الراسخين أى لا تزغ قلوبنا عن نهج الحق إلى اتباع المتشابه بتأويل لا ترتضيه قال صلى الله عليه وسلم « قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه على الحق وإن شاء أزاغه عنه» وقيل معناه لا تبلنا ببلايا تزيغ على الظرف وإذ فى محل الجر بإضافته إليه خارج من الظرفية أى بعد وقت هدايتك إيانا وقيل إنه بمعنى أن ﴿ وهب لنا من لدنك ﴾ كلا الجارين متعلق بهب وتقديم الأول لما مر مرارا ويجوز تعلق الثانى بمحذوف هو حال من المفعول أى كائنة من لدنك ومن لابتداء الغاية المجازية ولدن فى الأصل ظرف بمعنى أول غاية زمان أو مكان أو غيرهما من الذوات نحو من لدن زيد وليست مرادفة لعند إذ قد تكون فضلة وكذا لدى وبعضهم يخصها بظرف المكان وتضاف إلى صريح الزمان كما فى قوله :

تنتفض الرعدة فى ظهيرى   من لدن الظهر إلى العصير

ولا تقطع عن الإضافة بحال وأكثر ما تضاف إلى المفردات وقد تضاف إلى أن وصلتها كما فى قوله :

ولم تقطع أصلا من لدن أن وليتنا   قرابة ذى رحم ولا حق مسلم

أى من لدن ولايتك إيانا وقد تضاف إلى الجملة الاسمية كما فى قوله :

* تذكر نعماه لدن أنت(١) يافع *

وإلى الجملة الفعليه أيضاً كما فى قوله :

لزمنا لدن سالمتمونا وفاقكم فلا يك منكم للخلاف جنوح

وقلما تخلو عن من كما فى البيتين الأخيرين ﴿ رحمة ﴾ واسعة تزلفنا إليك ونفوز بها عندك أو توفيقا للثبات على الحق وتأخير المفعول الصريح عن الجارين لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر فإن ماحقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مترقبة لوروده لا سيما عند الإشعار بكونه من المنافع باللام فإذا أورده يتمكن عندها فضل تمكن ﴿ إنك أنت الوهاب ﴾ تعليل للسؤال أو لإعطاء المسئول وأنت إما مبتدأ أو فصل أو تأكيد لاسم إن وإطلاق الوهاب ليتناول كل موهوب وفيه دلالة على أن الهدى والضلال من قبله تعالى وأنه متفضل بما ينعم به على عباده من غير أن يجب عليه شىء . .

﴿ ربنا إنك جامع الناس ليوم ﴾ أى لحساب يوم أو لجزاء يوم حذف المضاف وأقيم مقامه المضاف إليه تهويلا له وتفظيعا لما يقع فيه ﴿ لا ريب فيه ﴾ أى فى وقوعه ووقوع ما فيه من الحشر والحساب والجزاء ومقصودهم بهذا عرض كمال افتقارهم إلى الرحمة وأنها المقصد الأسنى عندهم والتأكيد لإظهار ما هم عليه من كمال الطمأنينة وقوة اليقين بأحوال الآخرة ﴿ إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ تعليل لمضمون الجملة المؤكدة أو لانتفاء الريب والتأكيد لما مر وإظهار الاسم الجليل مع الالتفات لإبراز كمال التعظيم والإجلال الناشىء من ذكر اليوم المهيب الهائل بخلاف ما فى آخر السورة الكريمة فإنه مقام طلب الإنعام كما سيأتى وللإشعار بعلة الحكم فإن الألوهية منافية للإخلاف وقد جوز أن تكون الجملة مسوقة من جهته تعالى لتقرير قول الراسخين. والميعاد مصدر كالميقات واستدل به الوعيدية وأجيب بأن وعيد الفساق مشروط

---

(١) فى ط : أنث : خطأ .

بعدم العفو بدلائل مفصلة كما هو مشروط بعدم التوبة وفاقا ﴿ إن الذين كفروا ﴾ إثر ما بين الدين الحق والتوحيد وذكر أحوال الكتب الناطقة به وشرح شأن القرآن العظيم وكيفية إيمان العلماء الراسخين به شرع فى بيان حال من كفر به والمراد بالموصول جنس الكفرة الشامل لجميع الأصناف وقيل وفد نجران أو اليهود من قريظة والنضير أو مشركو العرب ﴿ لن تغنى عنهم ﴾ أى لن تنفعهم وقرىء بالتذكير وبسكون الياء جدا فى استثقال الحركة على حروف اللين ﴿ أموالهم ﴾ التى يبذلونها فى جلب المنافع ودفع المضار ﴿ ولا أولادهم ﴾ الذين بهم يتناصرون فى الأمور المهمة وعليهم يعولون فى الخطوب الملمة وتأخير الأولاد عن الأموال مع توسيط حرف النفى بينهما إما لعراقة الأولاد فى كشف الكروب أو لأن الأموال أول عدة يفزع إليها عند نزول الخطوب ﴿ من الله ﴾ من عذابه تعالى ﴿ شيئاً ﴾ أى شيئاً من الإغناء وقيل كلمة من بمعنى البدل والمعنى بدل رحمة الله أو بدل طاعته كما فى قوله تعالى (إن الظن لا يغنى من الحق شيئا) أى بدل الحق ومنه قوله ولا ينفع ذا الجد منك الجد أى لا ينفعه جده بدلك أى بدل رحمتك كما فى قوله تعالى (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى) وأنت خبير بأن احتمال سد أموالهم وأولادهم مسد رحمة الله تعالى أو طاعته مما لا يخطر ببال أحد حتى يتصدى لنفيه والأول هو الأليق بتفظيع حال الكفرة وتهويل أمرهم والأنسب بما بعده من قوله تعالى : ﴿ وأولئك هم وقود النار ﴾ ومن قوله تعالى (فأخذهم الله) أى أولئك المتصفون بالكفر حطب النار وحصبها الذى تسعر به فإن أريد بيان حالهم عند التسعير فإيثار الجملة الاسمية للدلالة على تحقق الأمر وتقرره وإلا فهو للإيذان بأن حقيقة حالهم ذلك وأن أحوالهم الظاهرة بمنزلة العدم فهم حال كونهم فى الدنيا وقود النار بأعيانهم وفيه من الدلالة على كمال ملابستهم بالنار ما لا يخفى وهم يحتمل الابتداء وأن يكون ضمير فصل والجملة إما مستأنفة مقررة لعدم الإغناء أو معطوفة على خبر إن وأيا ما كان ففيها تعيين للعذاب الذى بين أن أموالهم وأولادهم لا تغنى عنهم منه شيأ وقرىء وقود النار بضم الواو وهو مصدر أى أهل وقودها

﴿ كدأب آل فرعون ﴾ الدأب مصدر دأب فى العمل إذا كدح فيه وتعب غلب استعماله فى معنى الشأن والحال والعادة ومحل الكاف الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف وقد جوز النصب بلن تغنى أو بالوقود أى لن تغنى عنهم كما لم تغن عن اولئك أو توقد بهم النار كما توقد بهم وأنت خبير بأن المذكور فى تفسير الدأب إنما هو التكذيب والأخذ من غير تعرض لعدم الإغناء لاسيما على تقدير كون من بمعنى البدل كما هو رأى المجوز ولا لإيقاد النار فيحمل على التعليل وهو خلاف الظاهر على أنه يلزم الفصل بين العامل والمعمول بالأجنبى على تقدير النصب بأن تغنى وهو قوله تعالى (وأولئك هم وقود النار) إلا أن يجعل استئنافا معطوفا على خبر إن فالوجه هو الرفع على الخبرية أى دأب هؤلاء فى الكفر وعدم النجاة من أخذ الله تعالى وعذابه كدأب آل فرعون ﴿ والذين من قبلهم ﴾ أى من قبل آل فرعون من الأمم الكافرة فالموصول فى محل الجر عطفا على ما قبله وقوله تعالى ﴿ كذبوا بآياتنا ﴾ بيان وتفسير لدأبهم الذى فعلوا على طريق الاستئناف المبنى على السؤال كأنه قيل كيف كان دأبهم فقيل كذبوا بآياتنا وقوله تعالى :

﴿ فأخذهم الله ﴾ تفسير لدأبهم الذى فعل بهم أى فأخذهم الله وعاقبهم ولم يجدوا من بأس الله تعالى محيصا فدأب هؤلاء الكفرة أيضاً كدأبهم وقيل كذبوا الخ حال من آل فرعون والذين من قبلهم على إضمار قد أى دأب هؤلاء كدأب أولئك وقد كذبوا الخ ، وأما كونه خبرا عن الموصول كما قيل فما يذهب برونق النظم الكريم والالتفات إلى التكلم أولا للجرى على سنن الكبرياء وإلى الغيبة ثانيا بإظهار الجلالة لتربية المهابة وإدخال الروعة ﴿ بذنوبهم ﴾ إن أريد بها تكذيبهم بالآيات فالباء للسببية جىء بها تأكيدا لما تفيده الفاء من سببية ماقبلها لما بعدها وإن أريد بها سائر ذنوبهم فالباء للملابسة جىء بها للدلالة على أن لهم ذنوبا أخرى أى فأخذهم ملتبسين بذنوبهم غير تائبين عنها كما فى قوله تعالى (وتزهق أنفسهم وهم كافرون) والذنب فى الأصل التلو والتابع وسمى الجريمة ذنبا لأنها تتلو أى يتبع عقابها فاعلها ﴿ والله شديد

العقاب ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله من الأخذ وتكملة له ﴿ قل للذين كفروا ﴾ المراد بهم اليهود لما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن يهود المدينة لما شاهدوا غلبة رسول الله صلى الله عليه وسلم على المشركين يوم بدر قالوا والله إنه النبي الأمى الذى بشرنا به موسى وفى التوراة نعته وهموا باتباعه فقال بعضهم لاتعجلوا حتى تنظر إلى وقعة له أخرى فلما كان يوم أحد شكوا وقد كان بينهم وبين رسول الله عهد إلى مدة فنقضوه وانطلق كعب بن الأشرف فى ستين راكبا إلى أهل مكة فأجمعوا أمرهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وعن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهم أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أصاب قريشا ببدر ورجع إلى المدينة جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع فحذرهم أن ينزل بهم ما نزل بقريش فقالوا لايغرنك أنك لقيت قوما أغمارا لاعلم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة لئن قاتلتنا لعلمت أنا نحن الناس فنزلت أى قل لهم :

﴿ ستغلبون ﴾ البتة عن قريب فى الدنيا وقد صدق الله عز وجل وعده بقتل بنى قريظة وإجلاء بنى النضير وفتح خيبر وضرب الجزية على من عداهم وهو من أوضح شواهد النبوة ؛ وأما ماروى عن مقاتل من أنها نزلت قبل بدر وأن الموصول عبارة عن مشركى مكة ولذلك قال لهم النبى صلى الله عليه وسلم يوم بدر إن الله غالبكم وحاشركم إلى جهنم وبئس المهاد فيؤدى إلى انقطاع الآية الكريمة عما بعدها لنزوله بعد وقعة بدر ﴿ وتحشرون ﴾ أى فى الآخرة ﴿ إلى جهنم ﴾ وقرىء الفعلان بالياء على أنه عليه السلام أمر بأن يحكى لهم ما أخبر الله تعالى به من وعيدهم بعبارته كأنه قيل أد إليهم هذا القول ﴿ وبئس المهاد ﴾ إما من تمام مايقال لهم أو استئناف لتهويل جهنم وتفظيع حال أهلها والمخصوص بالذم محذوف أى وبئس المهاد جهنم أو ما مهدوه لأنفسهم ﴿ قد كان لكم ﴾ جواب قسم محذوف وهو من تمام القول المأمور به جىء به لتقرير مضمون ما قبله وتحقيقه والخطاب لليهود أيضا والظروف خبر كان على أنها ناقصة ولتوسطه بينها وبين اسمها ترك التأنيث كما فى قوله :

إن امرأ غره منكن واحدة   بعدى وبعدك فى الدنيا لمغرور

على أن التأنيث ههنا غير حقيقى أو هو متعلق بكان على أنها تامة وإنما قدم على فاعلها لما مر مرارا من الاعتناء بما قدم والتشويق إلى ما أخر أى والله قد كان لكم أيها المغترون بعددهم وعددهم ﴿ آية ﴾ عظيمة دالة على صدق ما أقول لكم إنكم ستغلبون ﴿ فى فئتين ﴾ أى فرقتين أو جماعتين فإن المغلوبة منهما كانت مدلة بكثرتها معجبة بعزتها وقد لقيها مالقيها فسيصيبكم ما يصيبكم ومحل الظرف الرفع على أنه صفة لآية وقيل النصب على خبرية كان والظرف الأول متعلق بمحذوف من آية ﴿ التقتا ﴾ فى حيز الجر على أنه صفة فئتين أى تلاقتا بالقتال يوم بدر ﴿ فئة ﴾ بالرفع خبر مبتدأ محذوف أى أحداهما فئة كما فى قوله :

إذا مت كان الناس حزبين شامت   وآخر مثن بالذى كنت أصنع

أى أحدهما شامت والآخر مثن وقوله :

حتى إذا ما استقل النجم فى غلس   وغودر البقل ملوى ومحصود

والجملة مع ما عطف عليها مستأنفة لتقرير ما فى الفئتين من الآية وقوله تعالى : ﴿ تقاتل فى سبيل الله ﴾ فى محل الرفع على أنه صفة فئة كأنه قيل فئة مؤمنه ولكن ذكر مكانه من أحكام الإيمان ما يليق بالمقام مدحا لهم واعتدادا بقتالهم وإيذانا بأنه المدار فى تحقق الآية وهى رؤية القليل كثيرا وقرىء يقاتل على تأويل الفئة بالقوم أو الفريق ﴿ كافرة ﴾ خبر المبتدأ المحذوف وإنما لم توصف هذه الفئة بما يقابل صفة الفئة الأولى إسقاطا لقتالهم عن درجة الاعتبار وإيذانا بأنهم لم يتصدوا للقتال لما اعتراهم من الرعب والهيبة وقيل كل من المتعاطفين بدل من الضمير فى التقتا وما بعدهما صفة فلا بد من ضمير محذوف عائد إلى المبدل منه مسوغ لوصف البدل بالجملة العارية عن ضميره أى فئة منهما تقاتل الخ وفئة أخرى كافرة(١) ويجوز أن يكون كل منهما مبتدأ وما بعدهما

---

(١) كررت هذه العبارة فى ط بعد قوله وما بعدهما خبراً .

خبرا ، وقيل كل منهما مبتدأ محذوف الخبر أى منهما فئة تقاتل الخ وقرىء فئة بالجر على البدلية من فئتين بدل بعض من كل وقد مر أنه لابد من ضمير عائد إلى المبدل منه ويسمى بدلا تفصيليا كما فى قول كثير عزة :

وكنت كذى رجلين رجل صحيحة ورجل رمى فيها الزمان فشلت

وقرىء فئة الخ بالنصب على المدح أو على الحالية من ضمير التقتا كأنه قيل التقتا مؤمنة وكافرة فيكون فئة وأخرى توطئة لما هو الحال حقيقة إذ المقصود بالذكر وصفا هما كما فى قولك جاءنى زيد رجلا صالحا .

﴿ يرونهم ﴾ أى يرى الفئة الأخيرة الفئة الأولى وإيثار صيغة الجمع للدلالة على شمول الرؤية لكل واحد واحد من آحاد الفئة والجملة فى محل الرفع على أنها صفة للفئة الأخيرة أو مستأنفة مبينة لكيفية الآية ﴿ مثليهم ﴾ أى مثلى عدد الرائين ألفين إذا كانوا قريبا من ألف . كانوا تسعمائة وخمسين مقاتلا رأسهم عتبة بن ربيعة بن عبدشمس وفيهم أبو سفيان وأبو جهل وكان فيهم من الخيل والإبل مائة فرس وسبعمائة بعير ومن أصناف الأسلحة عدد لا يحصى ، عن محمد بن أبى الفرات عن سعد بن أوس أنه قال أسر المشركون رجلا من المسلمين فسألوه كم كنتم قال ثلثمائة وبضعة عشر قالوا ما كنا نراكم إلا تضعفون علينا أو مثلى عدد المرئيين أى ستمائة ونيفا وعشرين حيث كانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا سبعة وسبعون رجلا من المهاجرين ومائتان وستة وثلاثون من الأنصار رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وكان صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وسلم والمهاجرين على بن أبى طالب رضى الله عنه وصاحب راية الأنصار سعد بن عبادة الخزرجى وكان فى العسكر تسعون بعيرا وفرسان أحدهما للمقداد بن عمرو والآخر لمرثد بن أبى مرثد وست أدرع وثمانية سيوف وجميع من استشهد يومئذ من المسلمين أربعة عشر رجلا ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار رضوان الله تعالى عليهم أجمعين أراهم الله عز وجل كذلك مع قلتهم ليهابوهم ويجبنوا عن قتالهم مددا لهم منه سبحانه كما أمدهم بالملائكة

عليهم السلام وكان ذلك عند التقاء الفئتين بعد أن قللهم فى أعينهم عند ترائيهما ليجترئوا عليهم ولا يهربوا من أول الأمر حين ينجبهم الحرب وقيل يرى الفئة الأولى الفئة الأخيرة مثلى أنفسهم مع كونهم ثلاثة أمثالهم ليثبتوا ويطمئنوا بالنصر الموعود فى قوله تعالى (فإن يكون منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين) والأول هو الأولى لأن رؤية المثلين غير متعينة من جانب المؤمنين بل قد وقعت رؤية المثل بل أقل منه أيضا فإنه روى أن ابن مسعود رضى الله عنه قال قد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا ثم نظرنا اليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلا واحدا ثم قللهم الله تعالى أيضا فى أعينهم حتى رأوهم عددا يسيرا أقل من أنفسهم .

قال ابن مسعود رضى الله عنه لقد قللوا فى أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبى تراهم سبعين قال أراهم مائة فأسرنا منهم رجلا فقلنا كم كنتم قال ألفا فلو أريد رؤية المؤمنين المشركين أقل من عددهم فى نفس الأمر كما فى سورة الأنفال لكانت رؤيتهم إياهم أقل من أنفسهم أحق بالذكر فى كونهم آية من رؤيتهم مثليهم على أن إبانة آثار قدرة الله تعالى وحكمته للكفرة بإراءتهم القليل كثيرا والضعيف قويا وإلقاء الرعب فى قلوبهم بسبب ذلك أدخل فى كونها آية لهم وحجة عليهم وأقرب إلى اعتراف المخاطبين بذلك لكثرة مخالطتهم الكفرة المشاهدين للحال وكذا تعلق الفعل بالفاعل أشد من تعلقه بالمفعول فجعل أقرب المذكورين السابقين فاعلا وأبعدهما مفعولا سواء جعل الجملة صفة، أو مستأنفة أولى من العكس هذا ما تقضيه جزالة التنزيل على قراءة الجمهور ولا ينبغى جعل الخطاب لمشركى مكة كما قيل أما ان جعل الوعيد عبارة عن هزيمة بدر كما صرحوا به فظاهر لا خفاء فيه وأما إن جعل عبارة عن هزيمة أخرى فلأن الفئة التى شاهدت تلك الآية الهائلة هم المخاطبون حينئذ والتعبير عنهم بفئة مبهمة تارة وموصوفة أخرى ثم إسناد المشاهدة إليها مع كون إسنادها إلى المخاطبين أوقع فى إلزام الحجة وأدخل فى التبكيت مما لا داعى إليه وبهذا يتبين سر جعل الخطاب الثانى للمؤمنين ، وأما قراءة ترونهم بتاء

الخطاب فظاهرها وإن اقتضى توجيه الخطاب الثانى إلى المشركين لكنه ليس بنص فى ذلك لأنه وإن اندفع به المحذور الأخير فالأول باق بحاله فلعل رؤية المشركين نزلت منزلة رؤية اليهود لما بينهم من الاتحاد فى الكفر والاتفاق فى الكلمة لا سيما بعد ما وقع بينهم بواسطة كعب بن الأشرف من العهد والميثاق فأسندت الرؤية إليهم مبالغة فى البيان وتحقيقا لعروض مثل تلك الحالة لهم فتدبر وقيل المراد جميع الكفرة ولاريب فى صحته وسداده وقرىء يرونهم وترونهم على البناء للمفعول من الإراءة أى يريهم أو يريكم الله تعالى كذلك ﴿ رأى العين ﴾ مصدر مؤكد ليرونهم إن كانت الرؤية بصرية أو مصدر تشبيهى إن كانت قلبية أى رؤية ظاهرة مكشوفة جارية مجرى رؤية العين ﴿ والله يؤيد ﴾ أى يقوى ﴿ بنصره من يشاء ﴾ أى يؤيده من غير توسيط الأسباب العادية كما أيد الفئة المقاتلة فى سبيله بما ذكر من النصر وهو تمام القول المأمور به ﴿ إن فى ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من رؤية القليل كثيرا المستتبعة لغلبة القليل العديم العدة على الكثير الشاكى السلاح وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلة المشار إليه فى الفضل ﴿ لعبرة ﴾ العبرة فعلة من العبور كالركبة من الركوب والجلسة من الجلوس والمراد بها الاتعاظ فإنه نوع من العبور أى لعبرة عظيمة كائنة ﴿ لأولى الأبصار ﴾ لذوى العقول والبصائر وقيل لمن أبصرهم وهو إما من تمام الكلام الداخل تحت القول مقرر لما قبله بطريق التذييل وإما وارد من جهته تعالى تصديقا لمقالته عليه الصلاة والسلام .

﴿ زين للناس ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان حقارة شأن الحظوظ الدنيوية بأصنافها وتزهيد للناس فيها وتوجيه لرغباتهم(١) إلى ما عنده تعالى إثر بيان عدم نفعها للكفرة الذين كانوا يتعززون بها والمراد بالناس الجنس ﴿ حب الشهوات ﴾ الشهوة نزوع النفس إلى ما تريده والمراد ههنا المشتهيات عبر عنها بالشهوات مبالغة كونها مشتهاة مرغوبا فيها كأنها نفس الشهوات

---

(١) فى ط : رغباتهم

أو إيذانا بانهماكهم فى حبها بحيث أحبوا شهواتها كما فى قوله تعالى (إنى أحببت حب الخير) أو استرذالا لها فإن الشهوة مسترذلة مذمومة من صفات البهائم والمزين هو البارى سبحانه وتعالى إذ هو الخالق لجميع الأفعال والدواعى والحكمة فى ذلك ابتلاؤهم ، قال تعالى (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم) الآية فإنها ذريعة لنيل سعادة الدارين عند كون تعاطيها على نهج الشريعة الشريفة ووسيلة إلى بقاء النوع وإيثار صيغه المبنى للمفعول للجرى على سنن الكبرياء وقرىء على البناء للفاعل وقيل المزين هو الشيطان لما أن مساق الآية الكريمة على ذمها وفرق الجبائى بين المباحات فأسند تزيينها إليه تعالى وبين المحرمات فنسب تزيينها إلى الشيطان ﴿ من النساء والبنين ﴾ فى محل النصب على أنه حال من الشهوات وهى مفسرة لها فى المعنى وقيل من لبيان الجنس وتقديم النساء على البنين لعراقتهن فى معنى الشهوة فإنهن حبائل الشيطان وعدم التعرض للبنات لعدم الاطراد فى حبهن ﴿ والقناطير المقنطرة ﴾ جمع قنطار وهو المال الكثير وقيل مائة ألف دينار وقيل ملء مسك ثور وقيل سبعون ألفا وقيل أربعون ألف مثقال وقيل ثمانون ألفا وقيل مائة رطل وقيل ألف ومائتا مثقال وقيل ألف دينار وقيل مائة من ومائة رطل ومائة مثقال ومائة درهم وقيل : دية النفس واختلف فى أن وزنه فعلال أو فنعال ، ولفظ المقنطرة مأخوذ منه للتأكيد كقولهم بدرة مبدرة ، وقيل : المقنطرة المحكمة المحصنة ، وقيل : الكثيرة المنضدة بعضها على بعض أو المدفونة المضروبة المنقوشة .

﴿ من الذهب والفضة ﴾ بيان للقناطير أو حال ﴿ والخيل ﴾ عطف على القناطير قيل هى جمع لا واحد له من لفظه كالقوم والرهط والواحد فرس وقيل واحده خائل وهو مشتق من الخيلاء ﴿ المسومة ﴾ أى المعلمة من السمة(١) وهى العلامة أو المرعية من أسام الدابة وسومها إذا أرسلها وسيبها

---

(١) فى ط : الوسمه

للرعى أو المطهمة التامة الخلق ﴿ والأنعام ﴾ أى الإبل والبقر والغنم ﴿والحرث ﴾ أى الزرع مصدر بمعنى المفعول .

﴿ ذلك ﴾ أى ما ذكر من الأشياء المعهودة ﴿ متاع الحيوة الدنيا ﴾ أى ما يتمتع به فى الحياة الدنيا أياما قلائل فتفنى سريعا ﴿والله عنده حسن المـآب﴾ حسن المرجع وفيه دلالة على أن ليس فيما عدد عاقبة حميدة وفى تكرير الإسناد بجعل الجلالة مبتدأ وإسناد الجملة الظرفية إليه زيادة تأكيد وتفخيم ومزيد اعتناء بالترغيب فيما عند الله عز وجل من النعيم المقيم والتزهيد فى ملاذ الدنيا وطيباتها الفانية .

﴿ قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ﴾ إثر ما بين شأن مزخرفات الدنيا وذكر ما عنده تعالى من حسن المـآب إجمالا أمر النبى صلى الله عليه وسلم بتفصيل ذلك المجمل للناس مبالغة فى الترغيب والخطاب للجميع والهمزة للتقرير أى أأخبركم بما هو خير مما فصل من تلك المستلذات المزينة لكم وإبهام الخبر لتفخيم شأنه والتشويق إليه وقوله تعالى ﴿ للذين اتقوا عند ربهم جنات ﴾ استئناف مبين لذلك المبهم على أن جنات مبتدأ والجار والمجرور خبر أو على أن جنات مرتفع به على الفاعلية عند من لا يشترط فى ذلك اعتماد الجار على ما فصل فى محله والمراد بالتقوى هو التبتل إلى الله تعالى والإعراض عما سواه على ما تنبىء عنه النعوت الآتية وتعليق حصول الجنات وما بعدها من فنون الخيرات به للترغيب فى تحصيله والثبات عليه وعند نصب على الحالية من جنات أو متعلق بما تعلق به الجار والمجرور(١) من معنى الاستقرار مفيد لكمال علو رتبة الجنات وسمو طبقتها والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المتقين لإظهار مزيد اللطف بهم وقيل اللام متعلقة بخير وكذا الظرف وجنات خبر لمبتدأ محذوف والجملة مبينة لخير ويؤيده قراءة جنات بالجر على البدلية من خير ولا يخفى أن تعليق الإخبار والبيان بما هو خير لطائفة ربما

---

(١) سقط : من ط

يوهم أن هناك خيراً آخر لآخرين ﴿ تجرى ﴾ فى محل الرفع والجر صفة لجنات على حسب القراءتين ﴿ من تحتها الأنهار ﴾ متعلق بتجرى فإن أريد بالجنات نفس الأشجار كما هو الظاهر فجريانها من تحتها ظاهر وإن أريد بها مجموع الأرض والأشجار فهو باعتبار جزئها الظاهر كما مر تفصيله مراراً ﴿ خالدين فيها ﴾ حال مقدرة من المستكن فى للذين والعامل ما فيه من معنى الاستقرار ﴿ وأزواج مطهرة ﴾ عطف على جنات أى مبرأة مما يستقذر من النساء من الأحوال البدنية والطبيعية ﴿ ورضوان ﴾ التنوين للتفخيم وقوله تعالى ﴿ من الله ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة له مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة أى رضوان وأى رضوان لا يقادر قدره كائن من الله عز وجل وقرىء بضم الراء ﴿ والله بصير بالعباد ﴾ وبأعمالهم فيثيب ويعاقب حسبما يليق بها أو بصير بأحوال الذين اتقوا ولذلك أعد لهم ما ذكر وفيه إشعار بأنهم المستحقون بالتسمية باسم العبد .

﴿ الذين يقولون ربنا إننا آمنا ﴾ فى محل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف كأنه قيل من أولئك المتقون الفائزون بهذه الكرامات السنية فقيل هم الذين الخ أو النصب على المدح أو الجر على أنه تابع للمتقين نعتاً أو بدلاً أو للعباد كذلك والأولى أظهر وقوله تعالى (والله بصير بالعباد) حينئذ معترضة وتأكيد الجملة لإظهار أن إيمانهم ناشىء من وفور الرغبة وكمال النشاط وفى ترتيب الدعاء بقولهم ﴿ فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ﴾ على مجرد الإيمان دلالة على كفايته فى استحقاق المغفرة والوقاية من النار ﴿ الصابرين ﴾ هو على تقدير كون الموصول فى محل الرفع منصوب على المدح بإضمار أعنى وأما على تقدير كونه فى محل النصب أو الجر فهو نعت له والمراد بالصبر هو الصبر على مشاق الطاعات وعلى البأساء والضراء وحين البأس ﴿ والصادقين ﴾ فى أقوالهم ونياتهم وعزائمهم ﴿ والقانتين ﴾ المداومين على الطاعات المواظبين على العبادات ﴿ والمنفقين ﴾ أموالهم فى سبيل الله تعالى ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾

قال مجاهد وقتادة والكلبي هم المصلون(1) بالأسحار وعن زيد بن أسلم هم الذين يصلون الصبح في جماعة وقال الحسن مدوا الصلاة إلى السحر ثم استغفروا وقال نافع كان ابن عمر رضي الله عنه يحي الليلة ثم يقول(1) يا نافع أسحرنا ؟ فأقول لا فيعاود الصلاة فإذا قلت نعم قعد يستغفر الله ويدعو حتى يصبح وعن الحسن كانوا يصلون في أول الليل حتى إذا كان السحر أخذوا في الدعاء والاستغفار وتخصيص الأسحار بالاستغفار لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة إذ العبادة حينئذ أسبق والنفس أصفى والروح أجمع لا سيما للمتهجدين وتوسيط الواو بين الصفات المعدودة للدلالة على استقلال كل منها وكمالهم فيها أو لتغاير الموصوفين بها ﴿ شهد الله أنه ﴾ بفتح الهمزة أي بأنه أو على أنه ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أي بين وحدانيته بنصب الدلائل التكوينية في الآفاق والأنفس وإنزال الآيات التشريعية الناطقة بذلك عبر عنه بالشهادة على طريقة الاستعارة إيذانا بقوته في إثبات المطلوب وإشعارا بإنكار المنكر وقرىء إنه بكسر الهمزة إما بإجراء شهد مجرى قال وإما بجعل الجملة اعتراضا وإيقاع الفعل على قوله تعالى إن الدين الخ على قراءة أن بفتح الهمزة كما سيأتي وقرىء شهداء لله بالنصب على أنه حال من المذكورين أو على المدح وبالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ومآله الرفع على المدح أي هم شهداء لله وهو إما جمع شهيد كظرفاء في جمع ظريف أو جمع شاهد كشعراء في جمع شاعر .

﴿ والملائكة ﴾ عطف على الاسم الجليل بحمل الشهادة على معنى مجازي شامل للإقرار والإيمان بطريق عموم المجاز أي أقروا بذلك ﴿ وأولوا العلم ﴾ أي آمنوا به واحتجوا عليه بما ذكر من الأدلة التكوينية والتشريعية قيل المراد بهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقيل المهاجرون والأنصار وقيل علماء مؤمني أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه وقيل جميع علماء المؤمنين الذين عرفوا وحدانيته تعالى بالدلائل القاطعة وارتفاعهما على القراءتين

---

(1) في ط : أي المصلين

(2) في ط : قال .

الأخيرتين قيل بالعطف على الضمير فى شهداء لوقوع الفصل بينهما وأنت خبير بأن ذلك على قراءة النصب على الحالية يؤدى إلى تقييد حال المذكورين بشهادة الملائكة وأولى العلم وليس فيه كثير فائدة فالوجه حينئذ كون ارتفاعهما بالابتداء والخبر محذوف لدلالة الكلام عليه أى والملائكة وأولو العلم شهداء ولك أن تحمل القراءتين على المدح نصبا ورفعا فحينئذ يحسن العطف على المستتر على كل حال وقوله تعالى ﴿ قائما بالقسط ﴾ أى مقيما للعدل فى جميع أموره بيان لكماله تعالى فى أفعاله إثر بيان كماله فى ذاته وانتصابه على الحالية من الله كما فى قوله تعالى (وهو الحق مصدقا) وإنما جاز إفراده مع عدم جواز جاء زيد وعمرو راكبا لعدم اللبس كقوله تعالى (ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة) ولعل تأخيره عن المعطوفين للدلالة على علو رتبتهما وقرب منزلتهما والمسارعة إلى إقامة شهود التوحيد اعتناء بشأنه ورفعا لمحله والسر فى تقديمه على المعطوفين مع ما فيه من الإيذان بأصالته تعالى فى الشهادة به كما مر فى قوله تعالى (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه) أو من هو وهو الأوجه والعامل فيها معنى الجملة أى تفرد أو أحقه لأنها حال مؤكدة أو على المدح وقيل على أنه صفة للمنفى أى لا إله قائما الخ والفصل بينهما من قبيل توسعاتهم وهو مندرج فى المشهود به إذا جعل صفة أو حالا من الضمير أو نصبا على المدح منه وقرىء القائم بالقسط على البدلية من هو فيلزم الفصل بينهما كما فى الصفة أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف وقرىء قيما بالقسط .

﴿ لا إله إلا هو ﴾ تكرير للتأكيد ومزيد الاعتناء بمعرفة أدلة التوحيد والحكم به بعد إقامة الحجة وليجرى عليه قوله تعالى : ﴿ العزيز الحكيم ﴾ فيعلم أنه المنعوت بهما ووجه الترتيب إذن (١) تقدم العلم بقدرته على العلم بحكمته تعالى ورفعهما على البدلية من الضمير أو الوصفية لفاعل شهد أو الخبرية لمبتدأ مضمر وقد روى فى فضلها أنه عليه السلام قال « يجاء بصاحبها يوم القيامة

---

(١) سقط من ط .

فيقول الله عز وجل إن لعبدى هذا عندى عهدا وأنا أحق من وفى بالعهد أدخلوا عبدى الجنة ، وهو دليل على فضل علم أصول الدين وشرف أهله وروى عن سعيد بن جبير أنه كان حول البيت ثلثمائة وستون صنما فلما نزلت هذه الآية الكريمة خررن سجدا وقيل نزلت فى نصارى نجران وقال الكلبى قدم على النبى صلى الله عليه وسلم حبران من أحبار الشام فلما أبصرا المدينة قال أحدهما ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبى الذى يخرج فى آخر الزمان فلما دخلا عليه عليه السلام عرفاه بصفته فقالا له عليه السلام أنت محمد قال صلى الله عليه وسلم نعم قالا وأنت أحمد قال عليه السلام أنا محمد وأحمد قالا فإنا نسألك عن شىء فإن أخبرتنا به آمنا بك وصدقناك قال عليه السلام سلا فقالا أخبرنا عن أعظم شهادة فى كتاب الله عز وجل فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة فأسلم الرجلان ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ جملة مستأنفة مؤكدة للأولى أى لا دين مرضيا لله تعالى سوى الإسلام الذى هو التوحيد والتدرع بالشريعة الشريفة وعن قتادة أنه شهادة أن لا إله إلا الله والإقرار بما جاء من عند الله تعالى وقرىء إن الدين عند الله الإسلام وقرىء أن الدين الخ على أنه بدل الكل إن فسر الإسلام بالإيمان أو بما يتضمنه وبدل الاشتمال إن فسر بالشريعة أو على أن شهد واقع عليه تقدير قراءة إنه بالكسر كما أشير إليه ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب ﴾ نزلت فى اليهود والنصارى حين تركوا الإسلام الذى جاء به النبى صلى الله عليه وسلم وأنكروا نبوته والتعبير عنهم بالموصول وجعل إيتاء الكتاب صلة لزيادة تقبيح حالهم فإن الاختلاف ممن أوتى(١) ما يزيله ويقطع شأفته فى غاية القبح والسماجة وقوله تعالى : ﴿ إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أو أعم الأوقات أى وما اختلفوا فى حال من الأحوال أو فى وقت من الأوقات إلا بعد أن علموا بأنه الحق الذى لا محيد عنه أو بعد أن علموا حقيقة الأمر وتمكنوا من العلم بها بالحجج النيرة

---

(١) فى ١١ : عرف .

والآيات الباهرة وفيه من الدلالة على ترامى حالهم فى الضلالة ما لا يزيد عليه فإن الاختلاف بعد حصول تلك المرتبة مما لا يصدر عن العاقل وقوله تعالى : ﴿ بغياً بينهم ﴾ أى حسدا كائنا بينهم وطلبا للرياسة لا لشبهة وخفاء فى الأمر تشنيع إثر تشنيع .

﴿ ومن يكفر بآيات الله ﴾ أى بآياته الناطقة بما ذكر من أن الدين عند الله تعالى هو الإسلام ولم يعمل بمقتضاها أو بأية آية كانت من آياته تعالى فإنه على أن يدخل فيها ما نحن فيه دخولا أوليا ﴿ فإن الله سريع الحساب ﴾ قائم مقام جواب الشرط علة له أى ومن يكفر بآياته فإنه يجازيه ويعاقبه عن قريب فإنه سريع الحساب أى يأتى حسابه عن قريب أو يتم ذلك بسرعة وإظهار الجلالة لتربية المهابة وإدخال الروعة وفى ترتيب العقاب على مطلق الكفر بآياته تعالى من غير تعرض لخصوصية حالهم من كون كفرهم بعد إيتاء الكتاب وحصول الاطلاع على ما فيه وكون ذلك للبغى دلالة على كمال شدة عقابهم ﴿ فإن حاجوك ﴾ أى فى كون الدين عند الله الإسلام أو جادلوك فيه بعد ما أقمت عليهم الحجج ﴿ فقل أسلمت وجهى ﴾ أى أخلصت نفسى وقلبى وجملتى وإنما عبر عنها بالوجه لأنه أشرف الأعضاء الظاهرة ومظهر القوى والمشاعر ومجمع معظم ما تقع به العبادة من السجود والقراءة وبه يحصل التوجه إلى كل شىء ﴿ لله ﴾ لا أشرك به فيها غيره وهو الدين القويم الذى قامت عليه الحجج ودعت إليه الآيات والرسل عليهم السلام ﴿ ومن اتبعن ﴾ عطف على المتصل فى أسلمت وحسن ذلك لمكان الفصل الجارى مجرى التأكيد بالمنفصل أى وأسلم من اتبعنى أو مفعول معه ﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب ﴾ أى من اليهود والنصارى وضع الموصول موضع الضمير لرعاية التقابل بين وصفى المتعاطفين ﴿ والأميين ﴾ أى الذين لا كتاب لهم من مشركى العرب ﴿ أأسلمتم ﴾ متبعين لى كما فعل المؤمنون فإنه قد أتاكم من البينات ما يوجبه ويقتضيه لا محالة فهل أسلمتم وعملتم بمقتضاها(١) أو أنتم على كفركم بعد كما يقول من لخص لصاحبه

---

(١) فى ط : بقضيتها .

المسألة ولم يدع من طرق التوضيح والبيان مسلكا إلا سلكه فهل فهمتها على على منهاج قوله تعالى (فهل أنتم منتهون) إثر تفصيل الصوارف عن تعاطى الخمر والميسر وفيه من استقصارهم وتعبيرهم بالمعاندة وقلة الإنصاف وتوبيخهم بالبلادة وكلة القريحة مالا يخفى .

﴿ فإن أسلموا ﴾ أى كما أسلمتم وإنما لم يصرح به كما فى قوله تعالى (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به) حسما لباب إطلاق اسم الإسلام على شىء آخر بالكلية ﴿ فقد اهتدوا ﴾ أى فازوا بالحظ الأوفر ونجوا عن مهاوى الضلال ﴿ وإن تولوا ﴾ أى أعرضوا عن الاتباع وقبول الإسلام ﴿ فإنما عليك البلاغ ﴾ قائم مقام الجواب أى لم يضروك شيئا إذ ما عليك إلا البلاغ وقد فعلت على أبلغ وجه ، روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه الآية على أهل الكتاب قالوا أسلمنا فقال عليه السلام لليهود أتشهدون أن عيسى كلمة الله وعبده ورسوله فقالوا معاذ الله قال عليه الصلاة والسلام للنصارى أتشهدون أن عيسى عبد الله ورسوله فقالوا معاذ الله أن يكون عيسى عبدا وذلك قوله عز وجل وإن تولوا ﴿ والله بصير بالعباد ﴾ عالم بجميع أحوالهم وهو تذييل فيه وعد ووعيد .

﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله ﴾ أى آية كانت فيدخل فيهم الكافرون بالآيات الناطقة بحقية الإسلام على الوجه الذى مر تفصيله دخولا أوليا ﴿ ويقتلون النبيين بغير حق ﴾ هم أهل الكتاب قتل أولوهم الأنبياء عليهم السلام وقتلوا أتباعهم وهم راضون بما فعلوا وكانوا قاتلهم الله تعالى حائمين حول قتل النبى صلى الله عليه وسلم لولا أن عصم الله تعالى ساحته المنيعة وقد أشير إليه بصيغة الاستقبال وقرىء بالتشديد للتكثير والتقييد بغير حق للإيذان بأنه كان عندهم أيضا بغير حق ﴿ ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ﴾ أى بالعدل ولعل تكرير الفعل للإشعار بما بين القتلين من التفاوت أو باختلافهما فى الوقت ، عن أبى عبيدة بن الجراح قلت يارسول الله أى الناس أشد عذابا يوم القيامة قال رجل قتل نبيا أو رجلا أمر معروف

ونهى عن منكر ثم قرأها ثم قال يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا من أول النهار فى ساعة واحدة فقام مائة واثنا عشر رجلا من عباد بنى إسرائيل فأمروا قتلتهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعا من آخر النهار وقرىء ويقاتلون الذين ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ خبر إن والفاء لتضمن اسمها معنى الشرط فإنها بالنسخ لا تغير معنى الابتداء بل تزيده تأكيدا وكذا الحال فى النسخ بأن المفتوحة كما فى قوله تعالى (واعلموا أنما غنمتم من شىء فإن لله خمسه) وكذا النسخ لكن كما فى قوله :

فوالله ما فارقتكم عن ملالة   ولكن ما يقضى فسوف يكون

وإنما يتغير معنى الابتداء فى النسخ بليت ولعل وقد ذهب سيبويه والأخفش إلى منع دخول الفاء عند النسخ مطلقا فالخبر عندهما قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ﴾ كما فى قولك الشيطان فاحذر عدو مبين وعلى الأول هو استئناف واسم الإشارة مبتدأ وما فيه من معنى البعد للدلالة على ترامى أمرهم فى الضلال وبعد منزلتهم فى فظاعة الحال والموصول بما فى حيز صلته خبره أى أولئك المتصفون بتلك الصفات القبيحة أو المبتلون بأسوأ الحال الذين بطلت أعمالهم التى عملوها من البر والحسنات ولم يبق لها أثر فى الدارين بل بقى لهم اللعنة والخزى فى الدنيا وعذاب أليم فى الآخرة ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ ينصرونهم من بأس الله وعذابه فى إحدى الدارين وصيغة الجمع لرعاية ما وقع فى مقابلته لا لنفى تعدد الأنصار من كل واحد منهم كما فى قوله تعالى (وما للظالمين من أنصار) .

﴿ ألم تر ﴾ تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل من يتأتى منه الرؤية من حال أهل الكتاب وسوء صنيعهم وتقرير لما سبق من أن اختلافهم فى الإسلام إنما كان بعد ما جاءهم العلم بحقيقته أى ألم تنظر ﴿ إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ﴾ أى التوراة على أن اللام للعهد وحمله على جنس الكتب الإلهية تطويل للمسافة إذ تمام التقريب حينئذ بكون التوراة من جملتها لأن مدار التشنيع والتعجيب إنما هو إعراضهم عن المحاكمة إلى مادعوا

إليه وهم لم يدعوا إلا إلى التوراة والمراد بما أوتوه منها ما بين لهم فيها من العلوم والأحكام التى من جملتها ما علموه من نعوت النبى صلى الله عليه وسلم وحقية الإسلام والتعبير عنه بالنصيب للإشعار بكمال اختصاصه بهم وكونه حقا من حقوقهم التى يجب مراعاتها والعمل بموجبها وما فيه من التنكير للتفخيم وحمله على التحقير لا يساعده مقام المبالغة فى تقبيح حالهم ﴿ يدعون إلى كتاب الله ﴾ الذى أوتوا نصيبا منه وهو التوراة والإظهار فى مقام الإضمار لإيجاب الإجابة وإضافته إلى الاسم الجليل لتشريفه وتأكيد وجوب المراجعة إليه والجملة استئناف مبين لمحل التعجيب مبنى على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل ماذا يصنعون حتى ينظر إليهم فقيل يدعون إلى كتاب الله تعالى وقيل حال من الموصول ﴿ ليحكم بينهم ﴾ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل مدارسهم فدعاهم إلى الإيمان فقال له نعيم بن عمرو والحرث بن زيد على أى دين أنت قال عليه الصلاة والسلام على ملة إبراهيم قالا إن إبراهيم كان يهوديا فقال صلى الله عليه وسلم لهما إن بيننا وبينكم التوراة فهلموا إليها فأبيا وقيل نزلت فى الرجم وقد اختلفوا فيه وقيل كتاب الله القرآن فإنهم قد علموا أنه كتاب الله ولم يشكوا فيه وقرىء ليحكم على بناء المجهول فيكون الاختلاف بينهم بأن أسلم بعضهم كعبد الله بن سلام وأضرابه وعاداهم الآخرون ﴿ ثم يتولى فريق منهم ﴾ استبعاد لتوليهم بعد علمهم بوجوب الرجوع إليه ﴿ وهم معرضون ﴾ إما حال من فريق لتخصصه بالصفة أى يتولون من المجلس وهم معرضون بقلوبهم أو اعتراض أى وهم قوم ديدنهم الإعراض عن الحق والإصرار على الباطل ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما مر من التولى والإعراض وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ بأنهم ﴾ أى حاصل بسبب أنهم ﴿ قالوا لن تمسنا النار ﴾ باقتراف الذنوب وركوب المعاصى ﴿ إلا أياما معدودات ﴾ وهى مقدار عبادتهم العجل ورسخ اعتقادهم على ذلك وهونوا على أنفسهم الخطوب ﴿ وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون ﴾ من قولهم ذلك وما أشبهه من قولهم إن آباءنا الأنبياء يشفعون لنا أو إن الله تعالى وعد يعقوب عليه السلام ألا يعذب أولاده إلا تحلة

القسم ولذلك ارتكبوا ما ارتكبوا من القبائح ﴿ فكيف ﴾ رد لقولهم المذكور وإبطال لما غرهم باستعظام ما سيدهمهم وتهويل ما سيحيق بهم من الأهوال أى فكيف يكون حالهم ﴿ إذا جمعناهم ليوم ﴾ أى لجزاء يوم ﴿ لا ريب فيه ﴾ أى فى وقوعه ووقوع ما فيه ، روى أن أول راية ترفع يوم القيامة من رايات الكفر راية اليهود فيفضحهم الله عز وجل على رؤس الأشهاد ثم يأمر بهم إلى النار ﴿ ووفيت كل نفس ما كسبت ﴾ أى جزاء ما كسبت من غير نقص أصلا كما يزعمون وإنما وضع المكسوب موضع جزائه للإيذان بكمال الاتصال والتلازم بينهما كأنهما شىء واحد وفيه دلالة على أن العبادة لا تحبط وأن المؤمن لا يخلد فى النار لأن توفية جزاء إيمانه وعمله لا تكون فى النار ولا قبل دخولها فإذن هى بعد الخلاص منها ﴿ وهم ﴾ أى كل الناس المدلول عليهم بكل نفس ﴿ لا يظلمون ﴾ بزيادة عذاب أو بنقص ثواب بل يصيب كلا منهم مقدار ما كسبه ﴿ قل اللهم ﴾ الميم عوض عن حرف النداء ولذلك لا يجتمعان وهذا من خصائص الاسم الجليل كدخوله عليه مع حرف التعريف وقطع همزته ودخول تاء القسم عليه وقيل أصله يا الله أمنا بخير أى اقصدنا به فخفف بحذف حرف النداء ومتعلقات الفعل وهمزته ﴿ مالك الملك ﴾ أى مالك جنس الملك على الإطلاق ملكا حقيقيا بحيث تتصرف فيه كيفما تشاء إيجادا وإعداما وإحياء وإماتة وتعذيبا وإثابة من غير مشارك ولا ممانع وهو نداء ثان عند سيبويه فإن الميم عنده تمنع الوصفية ﴿ تؤتى الملك ﴾ بيان لبعض وجوه التصرف الذى تستدعيه مالكية الملك وتحقيق لاختصاصها به تعالى حقيقة وكون ملك غيره بطريق المجاز كما ينبىء عنه إيثار الإيتاء الذى هو مجرد الإعطاء على التمليك المؤذن بثبوت المالكية حقيقة ﴿ من تشاء ﴾ أى إيتاءه إياه ﴿ وتنزع الملك ممن تشاء ﴾ أى نزعه منه فالملك الأول حقيقى عام ومملوكيته حقيقية والآخران مجازيان خاصان ونسبتهما إلى صاحبهما مجازية وقيل الملك الأول عام والآخران بعضان منه فتأمل وقيل المراد بالملك النبوة ونزعها نقلها من قوم إلى آخرين

﴿ وتعز من تشاء ﴾ أن تعزه فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما بالنصر والتوفيق ﴿ وتذل من تشاء ﴾ أن تذله فى إحداهما أو فيهما من غير ممانعة من الغير ولا مدافعة ﴿ بيدك الخير ﴾ تعريف الخير للتعميم وتقديم الخبر للتخصيص أى بقدرتك الخير كله لا بقدرة أحد غيرك تتصرف فيه قبضا وبسطا حسبما تقتضيه مشيئتك وتخصيص الخير بالذكر لما أنه مقضى بالذات وأما الشر فمقضى بالعرض إذ ما من شر جزئى إلا وهو متضمن لخير كلى أو لأن فى حصول الشر دخلا لصاحبه فى الجملة لأنه من أجزية أعماله وأما الخير ففضل محض أو لرعاية الأدب أو لأن الكلام فيه فإنه روى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما خط الخندق عام الأحزاب وقطع لكل عشرة من أهل المدينة أربعين ذراعا وأخذوا يحفرونه خرج من بطن الخندق صخرة كالتل لم تعمل فيها المعاول فوجهوا سلمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره فجاء عليه السلام وأخذ منه المعول فضربها ضربة صدعتها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها لكأن مصباحا فى جوف بيت مظلم فكبر وكبر معه المسلمون وقال أضاءت لى منها قصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب ثم ضرب الثانية فقال أضاءت لى منها القصور الحمر من أرض الروم ثم ضرب الثالثة فقال أضاءت لى قصور صنعاء وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة على كلها فأبشروا فقال المنافقون ألا تعجبون يمنيكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا فنزلت ﴿ إنك على كل شىء قدير ﴾ تعليل لما سبق وتحقيق له ﴿ تولج الليل فى النهار ﴾ أى تدخله فيه بتعقيبه إياه أو بنقص الأول وزيادة الثانى ﴿ وتولج النهار فى الليل ﴾ على أحد الوجهين ﴿ وتخرج الحى من الميت ﴾ أى تنشىء الحيوانات من موادها أو من النطفة وقيل تخرج المؤمن من الكافر ﴿ وتخرج الميت من الحى ﴾ أى تخرج النطفة من الحيوان وقيل تخرج الكافر من المؤمن ﴿ وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ قال أبو العباس المقرى ورد لفظ الحساب فى القرآن على ثلاثة أوجه بمعنى التعب قال تعالى

(وترزق من تشاء بغير حساب) وبمعنى العدد قال تعالى (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) وبمعنى المطالبة قال تعالى (فامنن أو أمسك بغير حساب) والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من فاعل ترزق أو من مفعوله وفيه دلالة على أن من قدر على أمثال هاتيك الأفاعيل العظام المحيرة للعقول والأفهام فقدرته على أن ينزع الملك من العجم ويذلهم ويؤتيه العرب ويعزهم أهون من كل هين عن على رضى الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن فاتحة الكتاب وآية الكرسى وآيتين من آل عمران (شهد الله أنه لا إله إلا هو) إلى قوله تعالى (إن الدين عند الله الإسلام) و(قل اللهم مالك الملك إلى قوله بغير حساب) معلقات ما بينهن وبين الله تعالى حجاب قلن يارب تهبطنا إلى أرضك وإلى من يعصيك قال الله تعالى إنى حلفت أنه لا يقرؤكن أحد دبر كل صلاة إلا جعلت الجنة مثواه على ما كان منه وأسكنته فى حظيرة القدس ونظرت إليه بعينى كل يوم سبعين مرة وقضيت له سبعين حاجة أدناها المغفرة وأعذته من كل عدو وحاسد ونصرته عليهم وفى بعض الكتب أنا الله ملك الملوك قلوب الملوك ونواصيهم بيدى فإن العباد أطاعونى جعلتهم لهم رحمة وإن العباد عصونى جعلتهم عليهم عقوبة فلا تشتغلوا بسب الملوك ولكن توبوا إلى أعطفهم عليكم وهو معنى قوله عليه السلام كما تكونوا يول عليكم ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء﴾ نهوا عن موالاتهم لقرابة أو صداقة جاهلية ونحوهما من أسباب المصادقة والمعاشرة كما فى قوله سبحانه (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء) وقوله تعالى (لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) حتى لا يكون حبهم ولا بغضهم إلى الله أو عن الاستعانة بهم فى الغزو وسائر الأمور الدينية ﴿من دون المؤمنين﴾ فى موضع الحال أى متجاوزين المؤمنين إليهم استقلالا أو اشتراكا وفيه إشارة إلى أنهم الأحقاء بالموالاة وأن فى موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفرة ﴿ومن يفعل ذلك﴾ أى اتخاذهم أولياء والتعبير عنه بالفعل للاختصار أو لإيهام الاستهجان بذكره ﴿فليس من الله﴾ أى من ولايته تعالى ﴿فى شىء﴾ يصح أن يطلق عليه اسم الولاية فإن موالاة المتعاديين مما لا يكاد يدخل تحت الوقوع قال :

تود عدوى ثم تزعم أننى   صديقك ليس النوك عنك بعازب

والجملة اعتراضية . قوله تعالى ﴿ إلا أن تتقوا ﴾ على صيغة الخطاب بطريق الالتفات استثناء مفرغ من أعم الأحوال والعامل فعل النهى معتبرا فيه الخطاب كأنه قيل لاتتخذوهم أولياء ظاهرا أو باطنا فى حال من الأحوال إلا حال اتقائكم ﴿ منهم ﴾ أى من جهتهم ﴿ تقاة ﴾ أى اتقاء أو شيئا يجب اتقاؤه على أن المصدر واقع موقع المفعول فإنه يجوز إظهار الموالاة حينئذ مع اطمئنان النفس بالعداوة والبغضاء وانتظار زوال المانع من قشر العصا وإظهار ما فى الضمير كما قال عيسى عليه السلام كن وسطا وامش جانبا وأصل تقاة وقية ثم أبدلت الواو تاء كتخمة وتهمة وقلبت الياء ألفا وقرىء تقية ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ أى ذاته المقدسة فإن جواز إطلاق لفظ النفس مرادا به الذات عليه سبحانه بلا مشاكلة مما لا كلام فيه عند المتقدمين وقد صرح بعض محقق المتأخرين بعدم الجواز وإن أريد به الذات إلا مشاكلة وفيه من التهديد ما لايخفى عظمه وذكر النفس للإيذان بأن له عقابا هائلا لايؤبه دونه بما يحذر من الكفرة ﴿ وإلى الله المصير ﴾ تذييل مقرر لمضمون ماقبله ومحقق لوقوعه حتما ﴿ قل إن تخفوا ما فى صدوركم ﴾ من الضمائر التى من جملتها ولاية الكفرة ﴿ أو تبدوه ﴾ فيما بينكم ﴿ يعلمه الله ﴾ فيؤاخذكم بذلك عند مصيركم إليه وتقديم الإخفاء على الإبداء قد مر سره فى تفسير قوله تعالى (وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه) وقوله تعالى (يعلم ما يسرون وما يعلنون) ﴿ ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ كلام مستأنف غير معطوف على جواب الشرط وهو من باب إيراد العام بعد الخاص تأكيدا له وتقريرا ﴿ والله على كل شىء قدير ﴾ فيقدر على عقوبتكم بما لامزيد عليه إن لم تنتهوا عما نهيتم عنه وإظهار الاسم الجليل فى موضع الإضمار لتربية المهابة وتهويل الخطب وهو تذييل لما قبله مبين لقوله تعالى (ويحذركم الله نفسه) بأن ذاته المقدسة المتميزة عن سائر الذوات المتصفة بما لايتصف به شىء منها من العلم الذاتى المتعلق بجميع المعلومات متصفة بالقدرة الذاتية الشاملة لجميع المقدورات بحيث لايخرج من ملكوته شىء قط

﴿يوم تجد كل نفس﴾ أى من النفوس المكلفة ﴿ ماعملت من خير محضرا ﴾ عندها بأمر الله تعالى وفيه من التهويل ما ليس فى حاضرا ﴿ وما عملت من سوء ﴾ عطف على ما عملت والإحضار معتبر فيه أيضا إلا أنه خص بالذكر فى الخير للإشعار بكون الخير مرادا بالذات وكون إحضار الشر من مقتضيات الحكمة التشريعية ﴿ تود ﴾ عامل فى الظرف والمعنى تود وتتمنى يوم تجد صحائف أعمالها من الخير والشر أو أجزيتها محضرة ﴿ لو أن بينها وبينه ﴾ أى بين ذلك اليوم ﴿ أمدا بعيدا ﴾ لشدة هوله وفى إسناد الود إلى كل نفس سواء كان لها عمل سيء أو لا بل كانت متمحضة فى الخير من الدلالة على كمال فظاعة ذلك اليوم وهول مطلعه مالايخفى ، اللهم إنا نعوذ بك من ذلك ويجوز أن يكون انتصاب يوم على المفعولية بإضمار اذكروا وتودا ما حال من كل نفس أو استئناف مبنى على السؤال أى اذكروا يوم تجد كل نفس ماعملت من خير وشر محضرا وادة أن بينها وبينه أمدا بعيدا أو كان سائلا قال حين أمروا بذكر ذلك اليوم فماذا يكون إذ ذاك فقيل تود لو أن بينها الخ أو تجد مقصور على ما عملت من خير وتود خبر ما عملت من سوء ولا تكون ما شرطية لارتفاع تود وقرىء ودت فحينئذ يجوز كونها شرطية لكن الحمل على الخبر أوقع معنى لأنها حكاية حال ماضية وأوفق للقراءة المشهورة ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ تكرير لما سبق وإعادة له لكن لا للتأكيد فقط بل لإفادة مايفيده قوله عز وجل ﴿ والله رؤف بالعباد ﴾ من أن تحذيره تعالى من رأفته بهم ورحمته الواسعة أو أن رأفته بهم لا تمنع تحقيق ما حذرهموه من عقابه وأن تحذيره ليس مبنيا على تناسى صفة الرأفة بل هو متحقق مع تحققها أيضا كما فى قوله تعالى (ياأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم) فالجملة على الأول اعتراض وعلى الثانى حال وتكرير الاسم الجليل لتربية المهابة ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى ﴾ المحبة ميل النفس إلى الشيء لكمال أدركته فيه بحيث يحملها على ما يقربها إليه والعبد إذا علم أن الكمال الحقيقى ليس إلا لله عز وجل وأن كل ما يراه كما لا من نفسه أو من غيره فهو من الله وبالله وإلى الله لم يكن حبه

إلا لله وفى الله وذلك مقتضى إرادة طاعته والرغبة فيما يقربه إليه فلذلك فسرت المحبة بإرادة الطاعة وجعلت مستلزمة لاتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فى عبادته والحرص على مطاوعته ﴿ يحببكم الله ﴾ أى يرض عنكم ﴿ ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ أى يكشف الحجب عن قلوبكم بالتجاوز عما فرط منكم فيقربكم من جناب عزه ويبوئكم فى جوار قدسه عبر عنه بالمحبة بطريق الاستعارة أو المشاكلة ﴿ والله غفور رحيم ﴾ أى لمن يتحبب إليه بطاعته ويتقرب إليه باتباع نبيه عليه الصلاة والسلام فهو تذييل مقرر لما قبله مع زيادة وعد الرحمة ووضع الاسم الجليل موضع الضمير للإشعار باستتباع وصف الألوهية للمغفرة والرحمة ، روى أنها نزلت لما قالت اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه وقيل نزلت فى وفد نجران لما قالوا إنا نعبد المسيح حبا لله تعالى وقيل فى أقوام زعموا على عهده عليه الصلاة والسلام أنهم يحبون الله تعالى فأمروا أن يجعلوا لقولهم مصداقا من العمل وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم وقف على قريش وهم فى المسجد الحرام يسجدون للأصنام وقد علقوا عليهم بيض النعام وجعلوا فى آذانها الشنوف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا معشر قريش لقد خالفتم ملة إبراهيم وإسمعيل عليهما الصلاة والسلام فقالت قريش إنما نعبدها حبا لله تعالى ليقربونا إلى الله زلفى فقال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام قل إن كنتم تحبون الله تعالى وتعبدون الأصنام لتقربكم إليه فاتبعونى أى اتبعوا شريعتى وسنتى يحببكم الله فأنا رسوله إليكم وحجته عليكم ﴿ قل أطيعوا الله والرسول ﴾ أى فى جميع الأوامر والنواهى فيدخل فى ذلك الطاعة فى اتباعه عليه الصلاة والسلام دخولا أوليا وإيثار الإظهار على الإضمار بطريق الالتفات لتعيين حيثية الإطاعة والإشعار بعلتها فإن الإطاعة المأمور بها إطاعته عليه الصلاة والسلام من حيث أنه رسول الله لا من حيث ذاته ولا ريب فى أن عنوان الرسالة من موجبات الإطاعة ودواعيها ﴿ فإن تولوا ﴾ إما من تمام مقول القول فهى صيغة المضارع المخاطب بحذف إحدى التاءين أى تتولوا وإما كلام

متفرع عليه مسوق من جهته تعالى فهى صيغة الماضى الغائب وفى ترك ذكر احتمال الطاعة كما فى قوله تعالى فإن أسلموا تلويح إلى أنه غير محتمل منهم ﴿ فإن الله لايحب الكافرين ﴾ نفى المحبة كناية عن بغضه تعالى لهم وسخطه عليهم أى لايرضى عنهم ولايثنى عليهم وإيثار الإظهار على الإضمار لتعميم الحكم لكل الكفرة والإشعار بعلته فإن سخطه تعالى عليهم بسبب كفرهم والإيذان بأن التولى عن الطاعة كفر وبأن محبته عز وجل خاصة بالمؤمنين .

﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ﴾ لما بين الله تعالى أن الدين المرضى عنده هو الإسلام والتوحيد وأن اختلاف أهل الكتابين فيه إنما هو للبغى والحسد وأن الفوز برضوانه ومغفرته ورحمته منوط باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعته شرع فى تحقيق رسالته وكونه من أهل بيت النبوة القديمة فبدأ ببيان جلالة أقدار الرسل عليهم الصلاة والسلام كافة وأتبعه ذكر مبدأ أمر عيسى عليه الصلاة والسلام وأمه وكيفية دعوته للناس إلى التوحيد والإسلام تحقيقاً للحق وإبطالا لما عليه أهل الكتابين فى شأنهما من الإفراط والتفريط ثم بين بطلان محاجتهم فى إبراهيم عليه الصلاة والسلام وادعائهم الانتماء إلى ملته ونزه ساحته العلية عما هم عليه من اليهودية والنصرانية ثم نص على أن جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام دعاة إلى عبادة الله عز وجل وحده وطاعته منزهون عن احتمال الدعوة إلى عبادة أنفسهم أوغيرهم من الملائكة والنبيين وأن أممهم قاطبة مأمورون بالإيمان بمن جاءهم من رسول مصدق لما معهم تحقيقا لوجوب الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وكتابه المصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل ووجوب الطاعة له حسبما سيأتى تفصيله وتخصيص آدم عليه الصلاة والسلام بالذكر لأنه أبو البشر ومنشأ النبوة وكذا حال نوح عليه السلام فإنه آدم الثانى وأما ذكر آل إبراهيم فلترغيب المعترفين باصطفائهم فى الإيمان بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم واستمالتهم نحو الاعتراف باصطفائه بواسطة كونه من زمرتهم مع مامر من التنبيه على كونه عليه الصلاة والسلام عريقا فى النبوة من زمرة المصطفين

الأخيار وأما ذكر آل عمران مع اندراجهم فى آل إبراهيم فلإظهار مزيد الاعتناء بتحقيق أمر عيسى عليه الصلاة والسلام لكمال رسوخ الخلاف فى شأنه فإن نسبة الاصطفاء إلى الأب الأقرب أدل على تحققه فى الآل وهو الداعى إلى إضافة الآل إلى إبراهيم دون نوح وآدم عليهم الصلاة والسلام والاصطفاء أخذ ما صفا من الشىء كالاستصفاء مثل به اختياره تعالى إياهم النفوس القدسية وما يليق بها من الملكات الروحانية والكمالات الجسمانية المستتبعة للرسالة فى نفس المصطفى كما فى كافة الرسل عليهم الصلاة والسلام أو فيمن يلابسه وينشأ منه كما فى مريم وقيل اصطفى آدم عليه الصلاة والسلام بأن خلقه بيده فى أحسن تقويم وبتعليم الأسماء وإسجاد الملائكة إياه وإسكان الجنة واصطفى نوحا عليه الصلاة والسلام بكونه أول من نسخ الشرائع إذ لم يكن قبل ذلك تزويج المحارم حراما وبإطالة عمره وجعل ذريته هم الباقين واستجابة دعوته فى حق الكفرة والمؤمنين وحمله على متن الماء والمراد بآل إبراهيم إسمعيل وإسحق والأنبياء من أولادهما الذين من جملتهم النبى صلى الله عليه وسلم ، وأما اصطفاء نفسه عليه الصلاة والسلام فمفهوم من اصطفائهم بطريق الأولوية وعدم التصريح به للإيذان بالغنى عنه لكمال شهرة أمره فى الخلة وكونه إمام الأنبياء وقدوة للرسل عليهم الصلاة والسلام وكون اصطفاء آله بدعوته بقوله ربنا وابعث فيهم رسولا منهم الآية ولذلك قال عليه الصلاة والسلام أنا دعوة أبى إبراهيم وبآل عمران عيسى وأمه مريم ابنة عمران بن ماثان بن أبى بور بن رب بابل بن ساليان بن يوشيان بن أمون بن منشا بن حزقيا بن أحز بن يوثم بن عزياهو بن يهوشافاط بن أسا بن رحبعم بن سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ابن بيشا بن عوفيذ ابن بوعز بن سلمون بن نحشون بن عمينوذب بن رم بن حصرون بن باص بن يهوذا بن يعقوب عليه الصلاة والسلام وبين العمرانين ألف وثمانمائة سنة فيكون اصطفاء عيسى عليه الصلاة والسلام حينئذ بالاندراج فى آل إبراهيم عليه السلام والأول هو الأظهر بدليل تعقيبه بقصة مريم واصطفاء موسى وهرون عليهما الصلاة والسلام

بالانتظام فى سلك آل إبراهيم عليه السلام انتظاما ظاهرا والمراد بالعالمين أهل زمان كل واحد منهم أى اصطفى كل واحد منهم على عالمى زمانه .

﴿ ذرية ﴾ نصب على البدلية من الآلين أو على الحالية منهما وقد مر بيان اشتقاقها فى قوله تعالى (ومن ذريتى) ، وقوله تعالى ﴿ بعضها من بعض ﴾ فى محل النصب على أنه صفة لذرية أى اصطفى الآلين حال كونهم ذرية متسلسلة متشعبة البعض من البعض فى النسب كما ينبىء عنه التعرض لكونه ذرية وقيل بعضها من بعض فى الدين فالاستمالة على الوجه الأول تقريبية وعلى الثانى برهانية ﴿ والله سميع ﴾ لأقوال العباد ﴿ عليم ﴾ بأعمالهم البادية والخافية فيصطفى من بينهم لخدمته من تظهر استقامته قولا وفعلا على نهج قوله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها .

﴿ إذ قالت امرأة عمران ﴾ فى حيز النصب على المفعولية بفعل مقدر على طريقة الاستئناف لتقرير اصطفاء آل عمران وبيان كيفيته أى اذكر لهم وقت قولها الخ وقد مر مرارا وجه توجيه التذكير إلى الأوقات مع أن المقصود تذكير ماوقع فيها من الحوادث وقيل هو منصوب على الظرفية لما قبله أى سميع لقولها المحكى عليم بضميرها المنوى وقيل هو ظرف لمعنى الاصطفاء المدلول عليه باصطفى المذكور كأنه قيل واصطفى آل عمران إذ قالت الخ فكان من عطف الجمل على الجمل دون عطف المفردات على المفردات ليلزم كون اصطفاء الكل فى ذلك الوقت وامرأة عمران هى حنة بنت فاقوذا جدة عيسى عليه الصلاة والسلام وكانت لعمران بن يصهر بنت اسمها مريم أكبر من موسى وهرون عليهما الصلاة والسلام فظن أن المراد زوجته وليس بذاك فإن قضية كفالة زكريا عليه الصلاة والسلام قاضية بأنها زوجة عمران بن ماثان لأنه عليه الصلاة والسلام كان معاصرا له وقد تزوج إيشاع أخت حنة أم يحيى عليه الصلاة والسلام وأما قوله عليه الصلاة والسلام فى شأن يحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام هما ابنا خالة فقيل تأويله أن الأخت كثيرا ما تطلق على بنت الأخت وبهذا الاعتبار جعلهما عليهما الصلاة والسلام ابنى خالة وقيل كانت

إيشاع أخت حنة من الأم وأخت مريم من الأب على أن عمران نكح أولا أم حنة فولدت له إيشاع ثم نكح حنة بناء على نكاح الربائب فى شريعتهم فولدت مريم فكانت إيشاع أخت مريم من الأب وخالتها من الأم لأنها أخت حنة من الأم روى أنها كانت عجوزا عاقرا فبينما هى ذات يوم فى ظل شجرة إذ رأت طائرا يطعم فرخه فحنت إلى الولد وتمنته وقالت اللهم إن لك على نذرا إن رزقتنى ولدا أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من سدنته وكان هذا النذر مشروعا عندهم فى الغلمان ثم هلك عمران وهى حامل وحينئذ فقولها ﴿ رب إنى نذرت لك ما فى بطنى ﴾ لابد من حمله على التكرير لتأكيد نذرها وإخراجه عن صورة التعليق إلى هيئة التنجيز والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن إفاضة مافيه صلاح المربوب مع الإضافة إلى ضميرها لتحريك سلسلة الإجابة ولذلك قيل إذا أراد العبد أن يستجاب له دعاؤه فليدع الله بما يناسبه من أسمائه وصفاته وتأكيد الجملة لإبراز وفور الرغبة فى مضمونها وتقديم الجار والمجرور لكمال الاعتناء به وإنما عبر عن الولد بما لإبهام أمره وقصوره عن درجة العقلاء ﴿ محررا ﴾ أى معتقا لخدمة بيت المقدس لايشغله شأن عنه أو مخلصا للعبادة ونصبه على الحالية من الموصول والعامل فيه نذرت وقيل من ضميره فى الصلة والعامل معنى الاستقرار فإنها فى قوة ما استقر فى بطنى ولايخفى أن المراد تقييد فعلها بالتحرير ليحصل به التقرب إليه تعالى لاتقييد مالا دخل لها فيه من الاستقرار فى بطنها ﴿ فتقبل منى ﴾ أى ما نذرته والتقبل أخذ الشىء على وجه الرضا وهذا فى الحقيقة استدعاء للولد إذ لايتصور القبول بدون تحقيق المقبول بل للولد الذكر لعدم قبول الأنثى ﴿ إنك أنت السميع ﴾ لجميع المسموعات التى من جملتها تضرعى ودعائى ﴿ العليم ﴾ بكل المعلومات التى من زمرتها ما فى ضميرى لاغير وهو تعليل لاستدعاء القبول لامن حيث أن كونه تعالى سميعا لدعائها عليما بما فى ضميرها مصحح للتقبل فى الجملة بل من حيث أن علمه تعالى بصحة نيتها وإخلاصها مستدع لذلك تفضلا وإحسانا وتأكيد الجملة لعرض قوة يقينها بمضمونها وقصر صفتى السمع والعلم عليه تعالى لعرض اختصاص دعائها به تعالى

وانقطاع حبل رجائها عما عداه بالكلية مبالغة فى الضراعة والابتهال ﴿ فلما وضعتها ﴾ أى ما فى بطنها وتأنيث الضمير العائد إليه لما أن المقام يستدعى ظهور أنوثته واعتباره فى حيز الشرط إذ عليه يترتب جواب لما أعنى قوله تعالى ﴿ قالت رب إنى وضعتها أنثى ﴾ لاعلى وضع ولد ما كأنه قيل فلما وضعت بنتا قالت الخ قيل تأنيثه لأن ما فى بطنها كان أنثى فى علم الله تعالى أو لأنه مؤول بالمرة من الحبل أو النفس أو النسمة وأنت خبير بأن اعتبار شىء مما ذكر فى حيز الشرط لايكون مدارا لترتب الجواب عليه وقوله تعالى أنثى حال مؤكدة من الضمير أو بدل منه وتأنيثه للمسارعة إلى عرض مادهمها من خيبة الرجاء أو لما مر من التأويل بالحبلة أو النسمة فالحال حينئذ مبينة وإنما قالته تحزنا وتحسرا على خيبة رجائها وعكس تقديرها لما كانت ترجو أن تلد ذكرا ولذلك نذرته محررا للسدانة والتأكيد للرد على اعتقادها الباطل ﴿ والله أعلم بما وضعت ﴾ تعظيم منَ جهته تعالى لموضوعها وتفخيم لشأنه وتجهيل لها بقدره أى والله أعلم بالشىء الذى وضعته وما علق به من عظائم الأمور وجعله وابنه آية للعالمين وهى غافلة عن ذلك والجملة اعتراضية وقرىء وضعت على خطاب الله تعالى لها أى إنك لاتعلمين قدر هذا الموهوب وما أودع الله فيه من علو الشأن وسمو المقدار وقرىء وضعت على صيغة التكلم مع الالتفات من الخطاب إلى الغيبة إظهاراً لغاية الإجلال فيكون ذلك منها اعتذارا إلى الله تعالى حيث أتت بمولود لايصلح لما نذرته من السدانة أو تسلية لنفسها على معنى لعل لله تعالى فيه سرا وحكمة ولعل هذه الأنثى خير من الذكر فوجه الالتفات حينئذ ظاهر وقوله تعالى ﴿ وليس الذكر كالأنثى ﴾ اعتراض آخر مبين لما فى الأول من تعظيم الموضوع ورفع منزلته واللام فى الذكر والأنثى للعهد أى ليس الذكر الذى كانت تطلبه وتتخيل كماله ليكون كواحد من السدنة كالأنثى التى وهبت لها فإن دائرة علمها وأمنيتها لاتكاد تحيط بما فيها من جلائل الأمور . هذا على القراءتين الأوليين وأما على التفسير الأخير للقراءة الأخيرة فمعناه وليس الذكر كهذه الأنثى فى الفضيلة بل أدنى منها وأما على التفسير الأول لها فمعناه تأكيد

الاعتذار ببيان أن الذكر ليس كالأنثى فى الفضيلة والمزية وصلاحية خدمة المتعبدات فإنهن بمعزل من ذلك فاللام للجنس وقوله تعالى ﴿ وإنى سميتها مريم ﴾ عطف على إنى وضعتها أنثى وغرضها من عرضها على علام الغيوب التقرب إليه تعالى واستدعاء العصمة لها فإن مريم فى لغتهم بمعنى العابدة قال القرطبى معناه خادم الرب وإظهار أنها غير راجعة عن نيتها وإن كان ما وضعته أنثى وأنها وإن لم تكن خليقة بسدانة بيت المقدس فلتكن من العابدات فيه ﴿ وإنى أعيذها بك ﴾ عطف على إنى سميتها وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار أى أجيرها بحفظك وقرىء بفتح ياء المتكلم فى المواضع التى بعدها همزه مضمومه إلا فى موضعين بعهدى أوف آتونى أفرغ ﴿ وذريتها ﴾ عطف على الضمير وتقديم الجار والمجرور عليه لإبراز كمال العناية به ﴿ من الشيطان الرجيم ﴾ أى المطرود وأصل الرجم الرمى بالحجارة . عن النبى صلى الله عليه وسلم ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخا من مسه إلا مريم وابنها ومعناه أن الشيطان يطمع فى إغواء كل مولود بحيث يتأثر منه إلا مريم وابنها فإن الله تعالى عصمهما ببركة هذه الاستعاذة ﴿ فتقبلها ﴾ أى أخذ مريم ورضى بها فى النذر مكان الذكر ﴿ ربها ﴾ مالكها ومبلغها إلى كمالها اللائق بها وفيه من تشريفها ما لايخفى ﴿ بقبول حسن ﴾ قيل الباء زائدة والقبول مصدر مؤكد للفعل السابق بحذف الزوائد أى تقبلها قبولا حسنا وإنما عدل عن الظاهر للإيذان بمقارنة التقبل لكمال الرضا وموافقته للعناية الذاتية فإن صيغة التفعل مشعرة بحسب أصل الوضع بالتكليف وكون الفعل على خلاف طبع الفاعل وإن كان المراد بها فى حقه تعالى مايترتب عليه من كمال قوة الفعل وكثرته وقيل القبول ما يقبل به الشىء كالسعوط واللدود لما يسعط به ويلد وهو اختصاصه تعالى إياها بإقامتها مقام الذكر فى النذر ولم تقبل قبلها أنثى أو بأن تسلمها من أمها عقيب الولادة قبل أن تنشأ وتصلح للسدانة . روى أن حنة حين ولدتها لفتها فى خرقة وحملتها إلى بيت المقدس ووضعتها عند الأحبار أبناء هرون وهم فى بيت المقدس كالحجبة فى الكعبة فقالت لهم دونكم هذه النذيرة فتنافسوا فيها لأنها

كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم فإن بنى ماثان كانت رؤس بنى إسرائيل وملوكهم وقيل لأنهم وجدوا أمرها وأمر عيسى عليه الصلاة والسلام فى الكتب الإلهية فقال زكريا عليه الصلاة والسلام أنا أحق بها لأن عندى خالتها فأبوا إلا القرعة وكانوا سبعة وعشرين فانطلقوا إلى نهر فألقوا فيه أقلامهم فطفا قلم زكريا ورسبت أقلامهم فتكفلها وقيل هو مصدر وفيه مضاف مقدر أى فتقبلها بذى قبول أى بأمر ذى قبول حسن وقيل تقبل بمعنى استقبل كتقضى بمعنى استقضى وتعجل بمعنى استعجل أى استقبلها فى أول أمرها حين ولدت بقبول حسن ﴿ وأنبتها ﴾ مجاز عن تربيتها بما يصلحها فى جميع أحوالها ﴿ نباتا حسنا ﴾ مصدر مؤكد للفعل المذكور بحذف الزوائد وقيل بل لفعل مضمر موافق له تقديره فنبتت نباتا حسنا ﴿ وكفلها زكريا ﴾ أى جعله عليه الصلاة والسلام كافلا لها وضامنا لمصالحها قائما بتدبير أمورها لا على طريقة الوحى بل على ما ذكر من التفصيل فإن رغبته عليه الصلاة والسلام فى كفالتها وطفو قلمه ورسوب أقلامهم وغير ذلك من الأمور الجارية بينهم كلها من آثار قدرته تعالى وقرىء أكفلها وقرىء زكرياء بالنصب والمد وقرىء بتخفيف الفاء وكسرها ورفع زكرياء ممدودا وقرىء وتقبلها ربها وأنبتها وكفلها على صيغة الأمر فى الكل ونصب ربها على الدعاء أى فاقبلها يا ربها وربها تربية حسنة واجعل زكريا كافلا لها فهو تعيين لجهة التربية . قيل بنى عليه الصلاة والسلام لها محرابا فى المسجد أى غرفة يصعد إليها بسلم وقيل المحراب أشرف المجالس ومقدمها كأنها وضعت فى أشرف موضع من بيت المقدس وقيل كانت مساجدهم تسمى المحاريب . روى أنه كان لايدخل عليها إلا هو وحده وإذا خرج غلق عليها سبعة أبواب ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب ﴾ تقديم الظرف على الفاعل لإظهار كمال العناية بأمرها ونصب المحراب على التوسع وكلمة كلما ظرف على أن ما مصدرية والزمان محذوف أو نكرة موصوفة معناها الوقت والعائد محذوف والعامل فيها جوابها أى كل زمان دخوله عليها أو كل وقت دخل عليها فيه ﴿ وجد عندها رزقا ﴾ أى نوعا منه غير معتاد إذ كان

ينزل ذلك من الجنة وكان يجد عندها فى الصيف فاكهة الشتاء وفى الشتاء فاكهة الصيف ولم ترضع ثديا قط ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال زكريا عليه الصلاة والسلام عند مشاهدة هذه الآية فقيل قال ﴿ يامريم أنى لك هذا ﴾ أى من أين جاء لك هذا الذى لا يشبه أرزاق الدنيا والأبواب مغلقة دونك وهو دليل على جواز الكرامة للأولياء ومن أنكرها جعل هذا إرهاصا وتأسيسا لرسالة عيسى عليه الصلاة والسلام وأما جعله معجزة لزكريا عليه الصلاة والسلام فيأباه اشتباه الأمر عليه عليه الصلاة السلام وإنما خاطبها عليه الصلاة والسلام بذلك مع كونها بمعزل من رتبة الخطاب لما علم بما شاهده أنها مؤيدة من عند الله تعالى بالعلم والقدرة ﴿ قالت ﴾ استئناف كما قبله كأنه قيل فماذا صنعت مريم وهى صغيرة لا قدرة لها على فهم السؤال ورد الجواب فقيل قالت ﴿ هو من عند الله ﴾ فلا تعجب ولا تستبعد ﴿ إن الله يرزق من يشاء ﴾ أن يرزقه (بغير حساب) أى بغير تقدير لكثرته أو بغير استحقاق تفضلا منه تعالى وهو تعليل لكونه من عند الله إما من تمام كلامها فيكون فى محل النصب وإما من كلامه عز وجل فهو مستأنف روى أن فاطمة الزهراء رضى الله عنها أهدت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رغيفين وبضعة لحم فرجع بها إليها فقال هلمى يا بنية فكشف عن الطبق فإذا هو مملوء خبزا ولحما فقال لها أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب فقال عليه الصلاة والسلام الحمد لله الذى جعلك شبيهة بسيدة بنى اسرائيل ثم جمع عليا والحسن والحسين وجميع أهل بيته رضوان الله عليهم أجمعين فأكلوا وشبعوا وبقى الطعام كما هو فأوسعت على جيرانها ﴿ هنالك ﴾ كلام مستأنف وقصة مستقلة سيقت فى تضاعيف حكاية مريم لما بينهما من قوة الارتباط وشدة الاشتباك مع ما فى إيرادها من تقرير ما سيقت له حكايتها من بيان اصطفاء آل عمران فإن فضائل بعض الأقرباء أدلة على فضائل الآخرين وهنا ظرف مكان واللام للدلالة على البعد والكاف للخطاب أى فى ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم فى المحراب أو فى ذلك الوقت إذ يستعار هنا وثمة وحيث للزمان ﴿ دعا

زكريا ربه ﴾ لما رأى كرامة مريم على الله ومنزلتها منه تعالى رغب فى أن يكون له من إيشاع ولد مثل ولد حنة فى النجابة والكرامة على الله تعالى وإن كانت عاقرا عجوزا فقد كانت حنة كذلك وقيل لما رأى الفواكه فى غير إبانها تنبه لجواز ولادة العجوز العاقر من الشيخ الفانى فأقبل بالدعاء من غير تأخير كما ينبىء عنه تقديم الظرف على الفعل لا على معنى أن ذلك كان هو الموجب للإقبال على الدعاء فقط بل كان جزءا أخيرا من العلة التامة التى من جملتها كبر سنه عليه الصلاة والسلام وضعف قواه وخوف مواليه حسبما فصل فى سورة مريم ﴿ قال ﴾ تفسير الدعاء وبيان لكيفيته لا محل له من الإعراب ﴿ رب هب لى من لدنك ﴾ كلا الجارين متعلق بهب لاختلاف معنييهما فاللام صلة له ومن لابتداء الغاية مجازا أى أعطنى من محض قدرتك من غير وسط معتاد ﴿ ذرية طيبة ﴾ كما وهبتها لحنة ويجوز أن يتعلق من بمحذوف وقع حالا من ذرية أى كائنة من لدنك والذرية النسل تقع على الواحد والجمع والذكر والأنثى والمراد ههنا ولد واحد فالتأنيث فى الصفة لتأنيث لفظ الموصوف كما فى قول من قال:

أبوك خليفة ولدته أخرى وأنت خليفة ذاك الكمال

وهذا إذا لم يقصد به واحد معين أما إذا قصد به المعين امتنع اعتبار اللفظ نحو طلحة وحمزة فلا يجوز أن يقال جاءت طلحة وذهبت حمزة ﴿ إنك سميع الدعاء ﴾ أى مجيبه وهو تعليل لما قبله وتحريك لسلسلة الإجابة ﴿ فنادته الملائكة ﴾ كان المنادى جبريل عليه الصلاة والسلام كما تفصح عنه قراءة من قرأ فناداه جبريل والجمع كما فى قولهم فلان يركب الخيل ويلبس الثياب وماله غير فرس وثوب قال الزجاج أى أتاه النداء من هذا الجنس الذين هم الملائكة وقيل لما كان جبرائيل عليه الصلاة والسلام رئيسهم عبر عنه باسم الجماعة تعظيما له وقيل الرئيس لا بد له من إتباع فأسند النداء إلى الكل مع كونه صادرا عنه خاصة وقرىء فناداه بالإمالة ﴿ وهو قائم ﴾ جملة حالية من مفعول النداء مقررة لما أفاده الفاء من حصول البشارة عقيب الدعاء وقوله تعالى ﴿ يصلى ﴾

إما صفة لقائم أو خبر ثان عند من يرى تعدده عند كون الثانى جملة كما فى قوله تعالى ﴿ فى المحراب ﴾ أى فى المسجد أو منه على القول بتعددها بلا عطف ولا بدلية أو حال من المستكن فى قائم وقوله تعالى فإذا هى حية تسعى أو حال من المستكن فى قائم وقوله تعالى ﴿ فى المحراب ﴾ أى المسجد أو فى غرفة مريم متعلق بيصلى أو بقائم على تقدير كون يصلى حالا من ضمير قائم لأن العامل فيه وفى الحال حينئذ شىء واحد فلا يلزم الفصل بالأجنبى كما يلزم على التقادير الباقية .

﴿ إن الله يبشرك بيحيى ﴾ أى بأن الله وقرىء بكسر الهمزة على تقدير القول أو إجراء النداء مجراه لكونه نوعا منه وقرىء يبشرك من الإبشار ويبشرك من الثلاثى وأياما كان ينبغى أن يكون هذا الكلام إلى آخره محكيا بعبارته عن الله عز وجل على منهاج قوله تعالى (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) الآية كما يلوح من مراجعته عليه الصلاة والسلام فى الجواب إليه تعالى بالذات لا بواسطة الملك والعدول عن إسناد التبشير إلى نون العظمة حسبما وقع فى سورة مريم للجرى على سنن الكبرياء كما فى قول الخلفاء أمير المؤمنين يرسم لك بكذا وللإيذان بأن ما حكى هناك من النداء والتبشير وما يترتب عليه من المحاورة كان كل ذلك بتوسط الملك بطريق الحكاية عن سبحانه لا بالذات كما هو المتبادر وبهذا يتضح اتحاد المعنى فى السورتين الكريمتين فتأمل ويحيى اسم أعجمى وإن جعل عربيا فمنع صرفه للتعريف ووزن الفعل ، روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما إنما سمى يحيى لأن الله تعالى أحيا به عقر أمه وقال قتادة لأنه تعالى أحيا قلبه بالإيمان قال القرطبى كان اسمه فى الكتاب الأول حيا ولا بد من تقدير مضاف يعود إليه الحال أى بولادة يحيى فإن التبشير لا يتعلق بالأعيان ﴿ مصدقا ﴾ حال مقدرة من يحيى ﴿ بكلمة من الله ﴾ أى بعيسى عليه الصلاة والسلام وإنما سمى كلمة لأنه وجد بكلمة كائنة منه تعالى قيل هو أول من آمن به وصدق بأنه كلمة الله وروح منه وقال السدى لقيت أم يحيى أم عيسى فقالت

يا مريم أشعرت بحبلى فقالت مريم وأنا أيضا حبلى قالت فإنى وجدت ما فى بطنك فذلك قوله تعالى (مصدقا بكلمة) الخ وقال ابن عباس رضى الله عنهما إن يحيى كان أكبر من عيسى عليهما الصلاة والسلام بستة أشهر وقيل بثلاث سنين وقتل قبل رفع عيسى عليهما الصلاة والسلام بمدة يسيرة وعلى كل تقدير يكون بين ولادة يحيى وبين البشارة بها زمان مديد لما أن مريم ولدت وهى بنت ثلاث عشرة سنة أو بنت عشر سنين وقيل بكلمة من الله أى بكتاب الله سمى كلمة كما قيل كلمة الحويدرة لقصيدته ﴿ وسيدا ﴾ عطف على مصدقا أى رئيسا يسود قومه ويفوقهم فى الشرف وكان فائقا للناس قاطبة فإنه لم يلم بخطيئة ولم يهم بمعصية فيالها من سيادة ما أسناها ﴿ وحصورا ﴾ عطف على ما قبله أى مبالغا فى حصر النفس وحبسها عن الشهوات مع القدرة ، روى أنه مر فى صباه بصبيان فدعوه إلى اللعب فقال ما للعب خلقنا ﴿ ونبيا ﴾ عطف على ما قبله مترتب على ما عدد من الخصال الحميدة ﴿ ومن الصالحين ﴾ أى ناشئا منهم لأنه كان من أصلاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أو كائنا من جملة المشهورين بالصلاح كما فى قوله تعالى (وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) والمراد بالصلاح ما فوق الصلاح الذى لا بد منه فى منصب النبوة من أقاصى مراتبه وعليه مبنى دعاء سليمان عليه السلام وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى عن السؤال كأنه قيل فماذا قال زكريا عليه السلام حينئذ فقيل قال ﴿ رب ﴾ لم يخاطب الملك المنادى له بملابسة أنه المباشر للخطاب وإن كان ذلك بطريق الحكاية عنه تعالى بل جرى نهج دعائه السابق مبالغة فى التضرع والمناجاة وجدا فى التبتل إليه تعالى واحترازا عما عسى يوهم خطاب الملك من توهم أن علمه سبحانه بما يصدر عنه يتوقف على توسطه كما يتوقف وقوف البشر على ما يصدر عنه سبحانه على توسطه فى عامة الأحوال وإن لم يتوقف عليه فى بعضها ﴿ أنى يكون لى غلام ﴾ فيه دلالة على أنه قد أخبر بكونه غلاما عند التبشير كما فى قوله تعالى (إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى) وأنى بمعنى كيف أو من أين وكان تامة وأنى واللام متعلقتان بها

وتقديم الجار على الفاعل لما مر مرارا من الاعتناء بما قدم والتشويق إلى ما أخر أى كيف أومن أين يحدث لى غلام ويجوز أن تتعلق اللام بمحذوف وقع حالا من غلام إذ لو تأخر لكان صفة له أو ناقصة واسمها ظاهر وخبرها إما أنى واللام متعلقة بمحذوف كما مر أو هو الخبر وأنى منصوب على الظرفية ﴿ وقد بلغنى الكبر ﴾ حال من ياء المتكلم أى أدركنى كبر السن وأثر فى كقولهم أدركته السن وأخذته السن وفيه دلالة على أن كبر السن من حيث كونه من طلائع الموت طالب للإنسان لا يكاد يتركه قيل كان له تسع تسع وتسعون سنة وقيل اثنتان وتسعون وقيل مائة وعشرون وقيل ستون ، وقيل خمس وستون وقيل سبعون وقيل خمس وسبعون وقيل خمس وثمانون ولامرأته ثمان وتسعون ﴿ وامرأتى عاقر ﴾ أى ذات عقر وهو أيضا حال من الياء فى لى عند من يجوز تعدد الحال أو من ياء بلغنى أى كيف يكون لى ذلك والحال أنى وامرأتى على حالة منافية له كل المنافاة وإنما قاله عليه الصلاة والسلام مع سبق دعائه بذلك وقوة يقينه بقدرة الله تعالى عليه لاسيما بعد مشاهدته عليه الصلاة والسلام للشواهد السالفة استعظاما لقدرة الله سبحانه وتعجيبا منها واعتدادا بنعمته عز وجل عليه فى ذلك لا استبعادا له وقيل بل كان ذلك للاستبعاد حيث كان بين الدعاء والبشارة ستون سنة وكان قد نسى دعاءه وهو بعيد وقيل كان ذلك استفهاما عن كيفية حدوثه ﴿ قال ﴾ استئناف كما سلف ﴿ كذلك ﴾ إشارة إلى مصدر يفعل فى قوله عز وجل ﴿ الله يفعل ما يشاء ﴾ أى ما يشاء أن يفعله من عجيب الأفاعيل الخارقة للعادات فالله مبتدأ ويفعل خبره والكاف فى محل النصب على أنها فى الأصل نعت لمصدر محذوف أى الله يفعل ما يشاء أن يفعله فعلا مثل ذلك الفعل العجيب والصنع البديع الذى هو خلق الولد من شيخ فان وعجوز عاقر فقدم على العامل لإفادة القصر بالنسبة إلى ما هو أدنى من المشار إليه واعتبرت الكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) أو على أنها حال من ضمير المصدر المقدر معرفة أى يفعل ما يشاء

بيان لذلك الشأن المبهم أو كذلك خبر لمبتدأ محذوف أى الأمر كذلك وقوله تعالى (الله يفعل ما يشاء بيان) له ﴿ قال رب اجعل لى آية ﴾ أى علامة تدلنى على تحقق المسئول ووقوع الحبل وإنما سألها لأن العلوق أمر خفى لا يوقف عليه فأراد أن يطلعه الله تعالى عليه ليتلقى تلك النعمة الجليلة من حين حصولها بالشكر ولا يؤخره إلى أن يظهر ظهورا معتادا ولعل هذا السؤال وقع بعد البشارة بزمان مديد إذ به يظهر ما ذكر من كون التفاوت بين سنى يحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام بستة أشهر أو بثلاث سنين لأن ظهور العلامة كان عقيب تعيينها لقوله تعالى فى سورة مريم فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم الآية اللهم إلا أن تكون المجاوبة بين زكريا ومريم فى حالة كبرها وقد عدت من جملة من تكلم فى الصغر بموجب قولها المحكى والجعل إبداعى واللام متعلقة به والتقديم لما مر مرارا من الإعتناء بما قدم والتشويق إلى ما أخر أو بمحذوف وقع حالا من آية وقيل هو بمعنى التصيير المستدعى لمفعولين أولهما آية وثانيهما لى والتقديم لأنه لا مسوغ لكون آية مبتدأ عند انحلال الجملة إلى مبتدأ وخبر سوى تقديم الجار فلا يتغير حالهما بعد دخول الناسخ ﴿ قال آيتك أن لا تكلم الناس ﴾ أى أن تقدر على تكليمهم ﴿ ثلاثة أيام ﴾ أى متوالية لقوله تعالى فى سورة مريم (ثلاث ليال سويا) مع القدرة على الذكر والتسبيح وإنما جعلت آيته ذلك لتخليص المدة لذكر الله تعالى وشكره قضاء لحق النعمة كأنه قيل آية حصول المطلوب ووصول النعمة أن تحبس لسانك إلا عن شكرها وأحسن الجواب ما اشتق من السؤال ﴿ إلا رمزا ﴾ أى إشارة بيد أو رأس أو نحوهما وأصله التحرك يقال ارتمز أى تحرك ومنه قيل للبحر الراموز وهو استثناء منقطع لأن الإشارة ليست من قبيل الكلام أو متصل على أن المراد بالكلام مافهم منه المرام ولا ريب فى كون الرمز من ذلك القبيل وقرىء رمزا بفتحتين على أنه جمع رامز كخدم وبضمتين على أنه جمع رموز كرسل على أنه حال منه ومن الناس معا بمعنى مترامزين كقوله :

متى ما تلقنى فردين ترجف　　روانف أليتيك وتستطارا

﴿ واذكر ربك ﴾ أى فى أيام الحبس شكراً لحصول التفضل والإنعام كما يؤذن به العرض لعنوان الربوبية ﴿ كثيرا ﴾ أى ذكرا كثيرا أوزمانا كثيرا ﴿ وسبح ﴾ أى سبحه تعالى أو افعل التسبيح ﴿ بالعشى ﴾ أى من الزوال إلى الغروب وقيل من العصر إلى ذهاب صدر الليل ﴿ والإبكار ﴾ من طلوع الفجر إلى الضحى ، قيل المراد بالتسبيح الصلاة بدليل تقييده بالوقت كما فى قوله تعالى (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) وقيل الذكر اللسانى كما أن المراد بالذكر الذكر القلبى وقرىء الأبكار بفتح الهمزة على أنه جمع بكر كسحر وأسحار ﴿ وإذ قالت الملائكه ﴾ شروع فى شرح بقية أحكام اصطفاء آل عمران إثر الإشارة إلى نبذ من فضائل بعض أقاربهم أعنى زكريا ويحيى عليهما الصلاة والسلام لاستدعاء المقام إياهما حسبما أشير إليه وقرىء بتذكير الفعل والمراد بالملائكه جبريل عليه الصلاة والسلام وقد مر مافيه من الكلام وإذ منصوب بمضمر معطوف على المضمر السابق عطف القصة على القصة وقيل معطوف على الظرف السابق أعنى قوله(إذ قالت امرأة عمران) منصوب بناصبه فتدبر أى واذكر أيضاً من شواهد اصطفائهم وقت قول الملائكة عليهم الصلاة والسلام ﴿ يامريم ﴾ وتكرير التذكير للإشعار بمزيد الاعتناء بما يحكى من أحكام الاصطفاء والتنبيه على استقلالها وانفرادها عن الأحكام السابقة فإنها من أحكام التربية الجسمانية اللائقة بحال صغر مريم وهذه من باب التربية الروحانية بالتكاليف الشرعية المتعلقة بحال كبرها ، قيل كلموها شفاها كرامة لها أو إرهاصاً لنبوة عيسى عليه الصلاة والسلام لمكان الإجماع على أنه تعالى لم يستنبىء امرأة وقيل ألهموها ﴿ إن الله اصطفاك ﴾ أولا حيث تقبلك من أمك بقبول حسن ولم يتقبل غيرك أنثى ورباك فى حجز زكريا عليه السلام ورزقك من رزق الجنة وخصك بالكرامات السنية ﴿ وطهرك ﴾ أى مما يستقذر من الأحوال والأفعال ومما قذفك به اليهود بإنطاق الطفل ﴿ واصطفاك ﴾ آخراً ﴿ على نساء العالمين ﴾ بأن وهب لك عيسى عليه الصلاة

والسلام من غير أب ولم يكن ذلك لأحد من للنساء وجعلكما آية للعالمين فعلى هذا ينبغى أن يكون تقديم حكاية هذه المقاولة على حكاية بشارتها بعيسى عليه الصلاة والسلام لما مر مرارا من التنبيه على أن كلا منهما مستحق للاستقلال بالتذكير ولو روعى الترتيب الخارجى لتبادر كون الكل شيأ واحدا وقيل المراد بالاصطفاءين واحد والتكرير للتأكيد وتبيين من اصطفاها عليهن فحينئذ لا إشكال فى ترتيب النظم الكريم إذ يحمل حينئذ الاصطفاء على ما ذكر أولا وتجعل هذه المقاولة قبل بشارتها بعيسى عليه الصلاة والسلام إيذانا بكونها قبل ذلك متوفرة على الطاعات والعبادات حسبما أمرت بها مجتهدة فيها مقبلة على الله تعالى متبتلة إليه تعالى منسلخة عن أحكام البشرية مستعدة لفيضان الروح عليها ﴿ يامريم ﴾ تكرير النداء للإيذان بأن المقصود بالخطاب ما يرد بعده وأن ما قبله من تذكير النعم كان تمهيدا لذكره وترغيبا فى العمل بموجبه ﴿ اقنتى لربك ﴾ أى قومى فى الصلاة أو أطيلى القيام فيها له تعالى والتعرض لعنوان ربوبيته تعالى لها للإشعار بعلة وجوب الامتثال بالأمر ﴿ واسجدى واركعى مع الراكعين ﴾ أمرت بالصلاة بالجماعة بذكر أركانها مبالغة فى إيجاب رعايتها وإيذانا بفضيلة كل منها وأصالته وتقديم السجود على الركوع إما لكون الترتيب فى شريعتهم كذلك وإما لكون السجود أفضل أركان الصلاة وأقصى مراتب الخضوع ولا يقتضى ذلك كون الترتيب الخارجى كذلك بل اللائق به الترقى من الأدنى إلى الأعلى وإما ليقترن اركعى بالراكعين للإشعار بأن من لا ركوع فى صلاتهم ليسوا مصلين وأما ما قيل من أن الواو لا توجب الترتيب فغايته التصحيح لا الترجيح وتجريد الأمر بالركنين الأخيرين عما قيد به الأول لما أن المراد تقييد الأمر بالصلاة بذلك وقد فعل حيث قيد به الركن الأول منها وقيل المراد بالقنوت إدامة الطاعات كما فى قوله تعالى(أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما) وبالسجود الصلاة لما مر من أنه أفضل أركانها وبالركوع الخشوع والإخبات، قيل لما أمرت بذلك قامت فى الصلاة حتى ورمت قدماها وسالت دما وقيحا ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى

ما سلف من الأمور البديعة وما فيه من معنى البعد للتنبيه على علو شأن المشار إليه و بعد منزلته فى الفضل وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ من أنباء الغيب ﴾ أى من الأنباء المتعلقة بالغيب والجملة مستأنفة لامحل لهـــا من الإعراب. وقوله تعالى : ﴿ نوحيه إليك ﴾ جملة مستقلة مبينة للأولى وقيل الخبر هو الجملة الثانية ومن أنباء الغيب وصيغة الاستقبال للإيذان بأن الوحى لم ينقطع بعد ﴿ وما كنت لديهم ﴾ أى عند الذين اختلفوا وتنازعوا فى تربية مريم وهو تقرير وتحقيق لكونه وحيا على طريقة التهكم بمنكريه كما فى قوله تعالى، (وما كنت بجانب الغربى) الآية (وما كنت ثاويا فى أهل مدين) الآية فإن طريق معرفة أمثال هاتيك الحوادث والواقعات إما المشاهدة وإما السماع وعدمه محقق عندهم فبقى احتمال المعاينة المستحيلة ضرورة فنفيت تهكما بهم ﴿ إذ يلقون أقلامهم ﴾ ظرف للاستقرار العامل فى لديهم وأقلامهم أقداحهم التى اقترعوا بها وقيل اقترعوا بأقلامهم التى كانوا يكتبون بها التوراة تبركا ﴿ أيهم يكفل مريم ﴾ متعلق بمحذوف دل عليه يلقون أقلامهم أى يلقونها ينظرون أو ليعلموا أيهم يكفلها ﴿ وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ أى فى شأنها تنافسا فى كفالتها حسبما ذكر فيما سبق وتكرير ما كنت لديهم مع تحقق المقصود بعطف إذ يختصمون على إذ يقولون كما فى قوله عز وجل (نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى) للدلالة على أن كل واحد من عدم حضوره عليه السلام عند إلقاء الأقلام وعدم حضوره عند الاختصام مستقل بالشهادة على نبوته عليه السلام لاسيما إذا أريد باختصامهم تنازعهم قبل الاقتراع فإن تغيير الترتيب فى الذكر مؤكد له ﴿ إذ قالت الملائكة ﴾ شروع فى قصة عيسى عليه الصلاة والسلام وهو بدل من وإذ قالت الملائكة منصوب بناصبه وما بينهما اعتراض جيء به تقريرا لما سبق وتنبيها على استقلاله وكونه حقيقا بأن يعد كنظائره من شواهد النبوة وترك العطف بينهما بناء على اتحاد المخاطب والمخاطب وإيذانا بتقارن الخطابين أو تقاربهما فى الزمان وقيل

منصوب بمضمر معطوف على ناصبه وقيل بدل من إذ يختصمون كأنه قيل وما كنت حاضرا فى ذلك الزمان المديد الذى وقع فى طرف منه الاختصام وفى طرف آخر هذا الخطاب إشعارا بإحاطته عليه الصلاة والسلام بتفاصيل أحوال مريم من أولها إلى آخرها والقائل جبريل عليه الصلاة والسلام وإيراد صيغة الجمع لما مر ﴿ يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه ﴾ من لابتداء الغاية مجازا متعلقة بمحذوف وقع صفة لكلمة أى بكلمة كائنة منه عز وجل : ﴿ اسمه ﴾ ذكر الضمير الراجع إلى الكلمة لكونها عبارة عن مذكر وهو مبتدأ خبره ﴿ المسيح ﴾ وقوله تعالى ﴿ عيسى ﴾ بدل منه أو عطف بيان وقيل خبر آخر وقيل خبر مبتدأ محذوف وقيل منصوب بإضمار أعنى مدحا وقوله تعالى ﴿ ابن مريم ﴾ صفة لعيسى وقيل المراد بالإسم ما به يتميز المسمى عمن سواه فالخبر حينئذ مجموع الثلاثة إذ هو المميز له عليه الصلاة والسلام تمييزا عن جميع من عداه والمسيح لقبه عليه الصلاة والسلام وهو من الألقاب المشرفة كالصديق وأصله بالعبرية مشيحا ومعناه المبارك وعيسى معرب من إيشوع والتصدى لاشتقاقهما من المسح والعيس وتعليله بأنه عليه الصلاة والسلام مسح بالبركة أو بما يطهره من الذنوب أو مسحه جبريل عليهما الصلاة والسلام أو مسح الأرض ولم يقم فى موضع أوكان عليه الصلاة والسلام يمسح ذا العاهة فيبرأ وبأنه كان فى لونه عيس أى بياض يعلوه حمرة من قبيل الرقم على الماء وإنما قيل ابن مريم مع كون الخطاب لها تنبيها على أنه يولد من غير أب فلا ينسب إلا إلى أمه وبذلك فضلت على نساء العالمين ﴿ وجيها فى الدنيا والآخرة ﴾ الوجيه ذو الجاه وهو القوة والمنعة والشرف وهو حال مقدرة من كلمة فإنها وإن كانت نكرة لكنها صالحة لأن ينتصب بها الحال وتذكيرها باعتبار المعنى والوجاهة فى الدنيا النبوة والتقدم على الناس وفى الآخرة الشفاعة وعلو الدرجة فى الجنة ﴿ ومن المقربين ﴾ أى من الله عز وجل وقيل هو إشارة إلى رفعه إلى السماء وصحبة الملائكة وهو عطف على الحال الأولى وقد عطف عليه قوله تعالى ﴿ ويكلم الناس فى المهد وكهلا ﴾ أى

يكلمهم حال كونه طفلا وكهلا كلام الأنبياء من غير تفاوت والمهد مصدر سمى به ما يمهد للصبى أى يسوى ملى مضجعه وقيل إنه رفع شابا والمراد وكهلا بعد نزوله وفى ذكر أحواله المختلفة المتنافية إشارة إلى أنه بمعزل من الألوهية ﴿ومن الصالحين﴾ حال أخرى من كلمة معطوفة على الأحوال السالفة أو من الضمير فى يكلم .

﴿قالت﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قالت مريم حين قالت لها الملائكة ما قالت فقيل قالت متضرعة إلى ربها ﴿رب أنى يكون﴾ أى كيف يكون أو من أين يكون ﴿لى ولد﴾ على وجه الاستبعاد العادى والتعجب واستعظام قدرة الله عز وجل وقيل على وجه الاستفهام والاستفسار بأنه بالتزوج أو بغيره يكون الولد ويكون إما تامة وأنى واللام متعلقتان بها وتأخير الفاعل عن الجار والمجرور لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ويجوز أن تتعلق اللام بمحذوف وقع حالا من ولد إذ لو تأخر لكان صفة له وإما ناقصة واسمها ولد وخبرها إما أنى واللام متعلقة بمضمر وقع حالا كما مر أو خبر وأنى نصب على الظرفية وقوله تعالى ﴿ولم يمسسنى بشر﴾ جملة حالية محققة للاستبعاد أى والحال أنى على حالة منافية للولادة ﴿قال﴾ استئناف كما سلف والقائل هو الله تعالى أو جبريل عليه الصلاة والسلام ﴿كذلك الله يخلق ما يشاء﴾ الكلام فى إعرابه كما مر فى قصة زكريا بعينه خلا أن إيراد يخلق ههنا مكان يفعل هناك لما أن ولادة العذراء من غير أن يمسها بشر أبدع وأغرب من ولادة عجوز عاقر من شيخ فإن فكان الخلق المنبىء عن الاختراع أنسب بهذا المقام من مطلق الفعل ولذلك عقب ببيان كيفيته فقيل ﴿إذا قضى أمراً﴾ من الأمور أى أراد شيئاً كما فى قوله تعالى إنما أمره إذا أرادشيئاً وأصل القضاء الأحكام أطلق على الإرادة الإلهية القطعيةالمتعلقة بوجود الشىء لإيجابها إياه البتة وقيل الأمرومنه قوله تعالى (وقضى ربك) ﴿فإنما يقول له كن﴾ لاغير ﴿فيكون﴾ من غير تريث وهو كما ترى تمثيل لكمال قدرته تعالى وسهولة حصول المقدورات حسبما تقتضيه مشيئته وتصوير لسرعة

حدوثها بما هو علم فيها من طاعة المأمور المطيع للآمر القوى المطاع وبيان لأنه تعالى كما يقدر على خلق الأشياء مدرجا بأسباب ومواد معتادة يقدر على خلقها دفعة من غير حاجة إلى شيء من الأسباب والمواد ﴿ ويعلمه الكتاب ﴾ أى الكتابة أو جنس الكتب الإلهية ﴿ والحكمة ﴾ أى العلوم وتهذيب الأخلاق ﴿ والتوراة والإنجيل ﴾ إفرادهما بالذكر على تقدير كون المراد بالكتاب جنس الكتب المنزلة لزيادة فضلهما وإنافتهما على غيرهما والجملة عطف على يبشرك أو على وجيها أو على يخلق أو كلام مبتدأ سيق تطييبا لقلبها وإزاحة لما أهمها من خوف اللائمة لما علمت أنها تلد من غير زوج وقرىء ونعلمه بالنون ﴿ ورسولا إلى بنى إسرائيل ﴾ منصوب بمضمر يعود إليه المعنى معطوف على يعلمه أى ويجعله رسولا إلى بنى إسرائيل أى كلهم وقال بعض اليهود إنه كان مبعوثا إلى قوم مخصوصين ثم قيل كان رسولا حال الصبا وقيل بعد البلوغ ، وكان أول أنبياء بنى إسرائيل يوسف عليه الصلاة والسلام وآخرهم عيسى عليه الصلاة والسلام وقيل أولهم موسى وآخرهم عيسى عليهم الصلاة والسلاوم وقوله تعالى ﴿ أنى قد جئتكم ﴾ معمول لرسولا لما فيه من معنى النطق أى رسولا ناطقا بأنى الخ وقيل منصوب بمضمر معمول لقول مضمر معطوف على يعلمه أى ويقول أرسلت رسولا بأنى قد جئتكم الخ وقيل معطوف على الأحوال السابقة ولا يقدح فيه كونها فى حكم الغيبة مع كون هذا فى حكم التكلم لما عرفت من أن فيه معنى النطق كأنه قيل حال كونه وجيها ورسولا ناطقا بأنى الخ وقرىء ورسول بالجر عطفا على كلمة والباء فى قوله تعالى ﴿ بآية ﴾ متعلقة بمحذوف وقع حالا من فاعل الفعل على أنها للملابسة والتنوين للتفخيم دون الوحدة لظهور تعددها وكثرتها وقرىء بآيات أو بجئتكم على أنها للتعدية ومن فى قوله تعالى ﴿ من ربكم ﴾ لابتداء الغاية مجازا متعلقة بمحذوف وقع صفة لآية أى قد جئتكم ملتبسا بآية عظيمة كائنة من ربكم أن أتيتكم بآية عظيمة كائنة منه تعالى والتعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لتأكيد إيجاب الامتثال بما سيأتى من الأوامر

وقوله تعالى ﴿ أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ﴾ بدل من قوله تعالى ﴿ أنى قد جئتكم) ومحله النصب على نزع الجار عند سيبويه والفراء والجر على رأى الخليل والكسائى أو بدل من آية وقيل منصوب بفعل مقدر أى أعنى أنى الخ وقيل مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى هى أنى أخلق لكم وقرىء بكسر الهمزة على الاستئناف أى أقدر لكم أى لأجل تحصيل إيمانكم ودفع تكذيبكم إياى من الطين شيئاً مثل صورة الطير ﴿ فأنفخ فيه ﴾ الضمير للكاف أى فى ذلك الشىء المماثل لهيئة الطير وقرىء فأنفخ فيها على أن الضمير للهيئة المقدرة أى أخلق لكم من الطين هيئة كهيئة الطير فأنفخ فيها ﴿ فيكون طيرا ﴾ حيا طيارا كسائر الطيور ﴿ بإذن الله ﴾ بأمره تعالى أشار عليه الصلاة والسلام بذلك إلى أن إحياءه من الله تعالى لامنه . قيل لم يخلق غير الخفاش ، روى أنه عليه الصلاة والسلام لما ادعى النبوة وأظهر المعجزات طالبوه بخلق الخفاش فأخذ طينا وصوره ونفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض ، قال وهب كان يطير مادام الناس ينظرون إليه فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتا ليتميز من خلق الله تعالى قيل إنما طلبوا خلق الخفاش لأنه أكمل الطير خلقا وأبلغ دلالة على القدرة لأن له ثديا وأسنانا وهى تحيض وتطهر وتلد كسائر الحيوان وتضحك كما يضحك الإنسان وتطير بغير ريش ولاتبصر فى ضوء النهار ولا فى ظلمة الليل وإنما ترى فى ساعتين ساعة بعد الغروب وساعة بعد طلوع الفجر وقيل خلق أنواعا من الطير ﴿ وأبرىء الأكمه ﴾ أى الذى ولد أعمى أو الممسوح العين ﴿ والأبرص ﴾ المبتلى بالبرص لم تكن العرب تنفر من شىء نفرتها منه ويقال له الوضح أيضا وتخصيص هذين الداءين لأنهما مما أعيا الأطباء وكانوا فى غاية الحذاقة فى زمنه عليه الصلاة والسلام فأراهم الله تعالى المعجزة من ذلك الجنس . روى أنه عليه الصلاة والسلام ربما كان يجتمع عليه ألوف من المرضى من أطاق منهم أتاه ومن لم يطق أتاه عيسى عليه الصلاة والسلام وما يداويه إلا بالدعاء ﴿ وأحيي الموتى بإذن الله ﴾ كرره مبالغة فى دفع وهم من توهم فيه اللاهوتية . قال الكلبى كان عليه الصلاة والسلام يحيي

الموتى بياحي ياقيوم ، أحيا عازر وكان صديقا له فعاش وولدت بعد ذلك. فقالوا إنك تحيي من كان قريب العهد من الموت فلعلهم لم يموتوا بل أصابتهم سكتة فأحي لنا سام بن نوح فقال دلونى على قبره ففعلوا فقام على قبره فدعا الله عز وجل فقام من قبره وقد شاب رأسه فقال عليه السلام كيف شبت ولم يكن فى زمانكم شيب قال ياروح الله لما دعوتنى سمعت صوتا يقول أجب روح الله فظننت أن الساعة قد قامت فمن هول ذلك شبت فسأله عن النزع قال يا روح الله إن مرارته لم تذهب من حنجرتى وكان بينه وبين موته أكثر من أربعة آلاف سنة وقال للقوم صدقوه فإنه نبي الله فآمن به بعضهم وكذبه آخرون فقالوا هذا سحر فأرنا آية فقال يافلان أكلت كذا ويافلان خبيء لك كذا وذلك قوله تعالى ﴿ وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ﴾ أى بالمغيبات من أحوالكم التى لا تشكون فيها وقرىء تذخرون بالذال والتخفيف ﴿ إن فى ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الأمور العظام ﴿ لآية ﴾ عظيمة وقرىء لآيات ﴿ لكم ﴾ دالة على صحة رسالتى دلالة واضحة ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ جواب الشرط محذوف لانصباب المعنى إليه أو دلالة المذكور عليه أى انتفعتم بها أو لن إن كنتم ممن يتأتى منهم الإيمان دلتكم الآية⁽¹⁾ على صحة رسالتى والإيمان بها .

﴿ ومصدقا لما بين يدى من التوراة ﴾ عطف على المضمر الذى تعلق به قوله تعالى بآية أى قد جئتكم ملتبسا بآية الخ ومصدقا لما بين يدى الخ أو على رسولا على الأوجه الثلاثة فإن مصدقا فيه معنى النطق كما فى رسولا أى ويجعله مصدقا ناطقا بأنى أصدق الخ أو ويقول أرسلت رسولا بأنى قد جئتكم الخ ومصدقا الخ أو حال كونه مصدقاً ناطقاً بأنى أصدق الخ أو منصوب بإضمار فعل دل عليه قد جئتكم مصدقا الخ وقوله من التوراة إما حال من الموصول والعامل مصدقا وإما من ضميره المستتر فى الظرف الواقع صلة والعامل

---

(١) سقطت من ط .

الاستقرار المضمر فى الظرف أو نفس الظرف لقيامه مقام الفعل ﴿ ولأحل لكم ﴾ معمول لمضمر دل عليه ما قبله أى وجئتكم لأحل الخ وقيل عطف على معنى مصدقا كقولهم جئته معتذرا ولا جتلب رضاه كأنه قيل قد جئتكم لأصدق ولأحل الخ وقيل عطف على بآية أى قد جئتكم بآية من ربكم ولأحل لكم ﴿ بعض الذى حرم عليكم ﴾ أى فى شريعة موسى عليه الصلاة والسلام من الشحوم والثروب والسمك ولحوم الإبل والعمل فى السبت ، قيل أحل لهم من السمك والطير مالاصئصئة له واختلف فى إحلال السبت وقرىء حرم على تسمية الفاعل وهو ما بين يدى أو الله عز وجل وقرىء حرم بوزن كرم وهذا يدل على أن شرعه كان ناسخا لبعض أحكام التوراة ولايخل ذلك بكونه مصدقا لها لما أن النسخ فى الحقيقة بيان وتخصيص فى الأزمان وتأخير المفعول عن الجار والمجرور لما مر مرارا من المبادرة إلى ذكر مايسر المخاطبين وللتشويق(١) إلى ما أخر ﴿ وجئتكم بآية من ربكم ﴾ شاهدة على صحة رسالتى وقرىء بآيات ﴿ فاتقوا الله ﴾ فى عدم قبولها ومخالفة مدلولها ﴿ وأطيعون ﴾ فيما آمركم به وأنهاكم عنه بأمر الله تعالى وتلك الآية هى قولى .

﴿ إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ فإنه الحق الصريح الذى أجمع عليه الرسل قاطبة فيكون آية بينة على أنه عليه الصلاة والسلام من جملتهم وقرىء أن الله بالفتح بدلا من آية أو قد جئتكم بآية على أن الله ربى وربكم وقوله فاتقوا الله وأطيعون اعتراض والظاهر أنه تكرير لما سبق أى قد جئتكم بآية على أن الله ربى وربكم وقوله فاتقوا الله وأطيعون اعتراض والظاهر أنه تكرير لما سبق أى قد جئتكم بآية بعد آية مما ذكرت لكم من خلق الطير وإبراء الأكمه والأبرص والإحياء والإنباء بالخفيات وغيره من ولادتى بغير أب ومن كلامى فى المهد وغير ذلك والأول لتمهيد الحجة والثانى لتقريبها إلى الحكم ولذلك رتب عليه بالفاء قوله فاتقوا الله أى لما جئتكم

---

(١) فى ط : التشويق

بالمعجزات الباهرة والآيات الظاهرة فاتقوا الله فى المخالفة وأطيعون فيما أدعوكم إليه ومعنى قراءة من فتح ولأن الله ربى وربكم فاعبدوه كقوله تعالى (لإيلاف قريش) الخ ثم شرع فى الدعوة وأشار إليها بالقول المجمل فقال (إن الله ربى وربكم) إشارة إلى أن استكمال القوة النظرية بالاعتقاد الحق الذى غايته التوحيد وقال فاعبدوه إشارة إلى استكمال القوة العملية فإنه يلازم الطاعة التى هى الإتيان بالأوامر والإنتهاء عن المناهى ثم قرر ذلك بأن بين أن الجمع بين الأمرين هو الطريق المشهود له بالاستقامة ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام قل آمنت بالله ثم استقم ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر ﴾ شروع فى بيان مآل أحواله عليه السلام إثر ما أشير إلى طرف منها بطريق النقل عن الملائكة والفاء فصيحة تفصح عن تحقق جميع ما قالته الملائكة وخروجه من القوة إلى الفعل حسبما شرحته كما فى قوله تعالى (فلما رآه مستقرا عنده) بعد قوله تعالى (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) كأنه قيل فحملته فولدته فكان كيت وكيت وقال ذيت وذيت وإنما لم يذكره اكتفاء بحكاية الملائكة وإيذانا بعدم الخلف وثقة بما فصل فى المواضع الأخر وأما عدم نظم بقية أحواله عليه الصلاة والسلام فى سلك النقل فإما للاعتناء بأمرها أو لعدم مناسبتها لمقام فيها من ذكر مقاساته عليه الصلاة والسلام للشدائد ومعاناته للمكايد والمراد بالإحساس الإدراك القوى الجارى مجرى المشاهدة وبالكفر إصرارهم عليه وعتوهم ومكابرتهم فيه مع العزيمة على قتله عليه الصلاة والسلام كما ينبىء عنه الإحساس فإنه إنما يستعمل فى أمثال هذه المواقع عند كون متعلقه أمرا محذورا مكروها كما فى قوله عز وجل (فلما أحسوا بأسنا إذاهم منها يركضون) وكلمة من متعلقة بأحس والضمير المجرور لبنى إسرائيل أى ابتدأ الإحساس من جهتهم وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر غير مرة من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر وقيل متعلقة بمحذوف وقع حالا من الكفر ﴿ قال ﴾ أى لخلص أصحابه لا لجميع بنى إسرائيل لقوله تعالى (كما قال عيسى ابن مريم للحواريين) الآية وقوله تعالى (فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة) ليس بنص فى

فى توجيه الخطاب إلى الكل بل يكفى فيه بلوغ الدعوة إليهم ﴿من أنصارى﴾ الأنصار جمع نصير كأشراف جمع شريف .

﴿إلى الله﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من الياء أى من أنصارى متوجها إلى الله ملتجئا إليه أو بأنصارى متضمنا معنى الإضافة كأنه قيل من الذين يضيفون أنفسهم إلى الله عز وجل ينصروننى كما ينصرنى وقيل إلى بمعنى فى أى فى سبيل الله وقيل بمعنى اللام وقيل بمعنى مع ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال ينساق إليه الذهن كأنه قيل فماذا قالوا فى جوابه عليه الصلاة والسلام فقيل قال ﴿الحواريون﴾ جمع حوارى يقال فلان حوارى فلان أى صفوته وخالصته من الحور وهو البياض الخالص ومنه الحواريات للحضريات لخلوص ألوانهن ونقائهن سمى به أصحاب عيسى عليه الصلاة والسلام لخلوص نياتهم ونقاء سرائرهم .

وقيل لما عليهم من آثار العبادة وأنوارها وقيل كانوا ملوكا يلبسون البياض⁽¹⁾ وذلك أن واحدا من الملوك صنع طعاما وجمع الناس عليه وكان عيسى عليه الصلاة والسلام على قصعة لايزال يأكل منها ولاتنقص فذكروا ذلك للملك فاستدعاه عليه الصلاة والسلام فقال له من أنت قال عيسى ابن مريم فترك ملكه وتبعه مع أقاربه فأولئك هم الحواريون وقيل كانوا صيادين يصطادون السمك يلبسون الثياب البيض فيهم شمعون ويعقوب ويوحنا فمر بهم عيسى عليه الصلاة والسلام فقال لهم أنتم تصيدون السمك فإن اتبعتمونى صرتم بحيث تصيدون الناس بالحياة الأبدية قالوا من أنت قال عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله فطلبوا منه المعجزة وكان شمعون قد رمى شبكته تلك الليلة فما اصطاد شيئاً فأمره عيسى عليه الصلاة والسلام بإلقائها فى الماء مرة أخرى ففعل فاجتمع فى الشبكة من السمك ما كادت تتمزق واستعانوا بأهل سفينة أخرى وملأوا السفينتين فعند ذلك آمنوا بعيسى عليه السلام وقيل كانوا اثنى عشر

---

(١) فى ط. البيض

رجلا آمنوا به عليه الصلاة والسلام واتبعوه وكانوا إذا جاعوا قالوا جعنا يا روح الله فيضرب بيده الأرض فيخرج منها لكل واحد رغيفان وإذا عطشوا قالوا عطشنا فيضرب بيده الأرض فيخرج منها الماء فيشربون فقالوا من أفضل منا قال عليه الصلاة والسلام أفضل منكم من يعمل بيده ويأكل من كسبه فصاروا يغسلون الثياب بالأجرة فسموا حواريين وقيل إن أمه سلمته إلى صباغ فأراد الصباغ يوما أن يشتغل ببعض مهماته فقال له عليه الصلاة والسلام ههنا ثياب مختلفة قد جعلت لكل واحد منها علامة معينة فاصبغها بتلك الألوان فغاب فجعل عليه الصلاة والسلام كلها فى جب واحد وقال كونى بإذن الله كما أريد فرجع الصباغ فسأله فأخبره بما صنع فقال أفسدت على الثياب قال قم فانظر فجعل يخرج ثوبا أحمر وثوبا أخضر وثوبا أصفر إلى أن أخرج الجميع على أحسن ما يكون حسبما كان يريد فتعجب منه الحاضرون وآمنوا به عليه الصلاة والسلام وهم الحواريون قال القفال ويجوز أن يكون بعض هؤلاء الحواريين الإثنى عشر من الملوك وبعضهم من صيادى السمك وبعضهم من القصارين وبعضهم من الصباغين والكل سموا بالحواريين لأنهم كانوا أنصار عيسى عليه الصلاة والسلام وأعوانه والمخلصين فى طاعته ومحبته .

﴿ نحن أنصار الله ﴾ أى أنصار دينه ورسوله ﴿ آمنا بالله ﴾ استئناف جار مجرى العلة لما قبله فإن الإيمان به تعالى موجب لنصرة دينه والذب عن أوليائه والمحاربة مع أعدائه ﴿ واشهد بأنا مسلمون ﴾ مخلصون فى الإيمان منقادون لما تريد منا من نصرتك طلبوا منه عليه الصلاة والسلام الشهادة بذلك يوم القيامة يوم أشهد الرسل عليهم الصلاة والسلام لأممهم وعليهم إيذانا بأن مرمى غرضهم السعادة الأخروية ﴿ ربنا آمنا بما أنزلت ﴾ تضرع إلى الله عز وجل وعرض لحالهم عليه تعالى بعد عرضها على الرسول مبالغة فى إظهار أمرهم ﴿ واتبعنا الرسول ﴾ أى فى كل ما يأتى ويذر من أمور الدين فيدخل فيه الاتباع فى النصرة دخولا أوليا ﴿ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ أى مع الذين يشهدون بوحدانيتك أو مع الأنبياء الذين يشهدون لأتباعهم أو مع

أمة محمد عليه الصلاة والسلام فإنهم شهداء على الناس قاطبة وهو حال من مفعول اكتبنا .

﴿ ومكروا ﴾ أى الذين علم عيسى عليه الصلاة والسلام كفرهم من اليهود بأن وكلوا به من يقتله غيلة ﴿ ومكر الله ﴾ بأن رفع عيسى عليه الصلاة والسلام وألقى شبهه على من قصد اغتياله حتى قتل والمكر من حيث أنه فى الأصل حيلة يجلب بها غيره إلى مضرة لا يمكن إسناده إليه سبحانه إلا بطريق المشاكلة ، روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن ملك بنى إسرائيل لما قصد قتله عليه الصلاة والسلام أمره جبريل عليه الصلاة والسلام أن يدخل بيتا فيه روزنة فرفعه جبريل من تلك الروزنة إلى السماء فقال الملك لرجل خبيث منهم أدخل عليه فاقتله فدخل البيت فألقى الله عز وجل شبهه عليه فخرج يخبرهم أنه ليس فى البيت فقتلوه وصلبوه وقيل إنه عليه الصلاة والسلام جمع الحواريين ليلة وأوصاهم ثم قال « ليكفرن بى أحدكم قبل أن يصيح الديك ويبيعنى بدراهم يسيرة » فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه فنافق أحدهم فقال لهم ما تجعلون لى إن دللتكم على المسيح فجعلوا له ثلاثين درهما فأخذها ودلهم عليه فألقى الله عز وجل عليه شبه عيسى عليه الصلاة والسلام ورفعه إلى السماء فأخذوا المنافق وهو يقول أنا دليلكم فلم يلتفتوا إلى قوله وصلبوه ثم قالوا وجهه يشبه وجه عيسى وبدنه يشبه بدن صاحبنا فإن كان هذا عيسى فأين صاحبنا وإن كان صاحبنا فأين عيسى فوقع بينهم قتال عظيم وقيل لما صلب المصلوب جاءت مريم ومعها امرأة أبرأها الله تعالى من الجنون بدعاء عيسى عليه الصلاة والسلام وجعلتا تبكيان على المصلوب فأنزل الله تعالى عيسى عليه الصلاة والسلام فجاءهما فقال علام تبكيان فقالتا عليك فقال إن الله تعالى رفعنى ولم يصبنى إلا خير وإن هذا شىء شبه لهم قال محمد بن إسحاق إن اليهود عذبوا الحواريين بعد رفع عيسى عليه الصلاة والسلام ولقوا منهم الجهد فبلغ ذلك ملك الروم وكان ملك اليهود من رعيته فقيل له إن رجلا من بنى إسرائيل ممن تحت أمرك كان يخبرهم أنه رسول الله وأراهم إحياء الموتى وإبراء

الأكمه والأبرص وفعل وفعل فقال لو علمت ذلك ما خليت بينهم وبينه ثم بعث إلى الحواريين فانتزعهم من أيديهم .

وسألهم عن عيسى عليه الصلاة والسلام فأخبروه فبايعهم على دينهم وأنزل المصلوب فغيبه وأخذ الخشبة فأكرمها ثم غزا بنى إسرائيل وقتل منهم خلقا عظيما ومنه ظهر أصل النصرانية فى الروم ثم جاء بعده ملك آخر يقال له تيتوس (١) وغزا بيت المقدس بعد رفع عيسى عليه الصلاة والسلام بنحو من أربعين سنة فقتل وسبي ولم يترك فى مدينة بيت المقدس حجرا على حجر فخرج عند ذلك قريظة والنضير إلى الحجاز قال أهل التواريخ حملت مريم بعيسى عليه الصلاة والسلام وهى بنت ثلاث عشرة سنة وولدته ببيت لحم من أرض «أورى‌شلم» لمضى خمس وستين سنة من غلبة الإسكندر على أرض بابل وأوحى الله تعالى إليه على رأس ثلاثين سنة ورفعه إليه من بيت المقدس ليلة القدر من شهر رمضان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وعاشت أمه بعد رفعه ست سنين ﴿ والله خير الماكرين ﴾ أقواهم مكرا وأنفذهم كيدا وأقدرهم على إيصال الضرر من حيث لا يحتسب وإظهار الجلالة فى موقع الإضمار لتربية المهابة والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبله .

﴿ إذ قال الله ﴾ ظرف لمكر الله أو لمضمر نحو وقع ذلك ﴿ ياعيسى إنى متوفيك ﴾ أى مستوفى أجلك ومؤخرك إلى أجلك المسمى عاصما لك من قتلهم أو أو قابضك من الأرض من توفيت مالى أو متوفيك نائما إذ روى أنه رفع وهو نائم وقيل مميتك فى وقتك بعد النزول من السماء ورافعك الآن أو مميتك من الشهوات العائقة عن التزوج إلى عالم الملكوت وقيل أماته الله تعالى سبع ساعات ثم رفعه إلى السماء وإليه ذهبت النصارى ، قال القرطبى والصحيح أن الله تعالى رفعه من غير وفاة ولا نوم كما قال الحسن وابن زيد

---

(١) فى ط : طيطوس وهما واحد .

وهو اختيار الطبرى وهو الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما وأصل القصة أن اليهود لما عزموا على قتله عليه الصلاة والسلام اجتمع الحواريون وهم اثنا عشر رجلا فى غرفة فدخل عليهم المسيح من مشكاة الغرفة فأخبر بهم إبليس جميع اليهود فركب منهم أربعة آلاف رجل فأخذوا باب الغرفة فقال المسيح للحواريين أيكم يخرج ويقتل ويكون معى فى الجنة فقال واحد منهم أنا يا نبى الله فألقى عليه مدرعة من صوف وعمامة من صوف وناوله عكازه وألقى عليه شبه عيسى عليه الصلاة والسلام فخرج على اليهود فقتلوه وصلبوه وأما عيسى عليه الصلاة والسلام فكساه الله الريش والنور وألبسه النور وقطع عنه النور شهوة المطعم والمشرب وذلك قوله تعالى (إنى متوفيك) فطار مع الملائكة ثم إن أصحابه حين رأوا ذلك تفرقوا ثلاث فرق فقالت فرقة كان الله فينا ثم صعد إلى السماء وهم اليعقوبية وقالت فرقة أخرى كان فينا ابن الله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه وهم النسطورية وقالت فرقة أخرى منهم كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه وهؤلاء هم المسلمون فتظاهرت عليهم الفرقتان الكافرتان فقتلوهم فلم يزل الإسلام منطمسا إلى أن بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم .

﴿ورافعك إلى﴾ أى إلى محل كرامتى ومقر ملائكتى ﴿ومطهرك من الذين كفروا﴾ أى من سوء جوارهم وخبث صحبتهم ودنس معاشرتهم ﴿وجاعل الذين اتبعوك﴾ قال قتادة والربيع والشعبى ومقاتل والكلبى هم أهل الإسلام الذين صدقوه واتبعوا دينه من أمة محمد صلى الله عليه الصلاة وسلم دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من النصارى ﴿فوق الذين كفروا﴾ وهم الذين مكروا به عليه الصلاة والسلام ومن يسير بسيرتهم من اليهود فإن أهل الإسلام فوقهم ظاهرين بالعزة والمنعه والحجة وقيل هم الحواريون فينبغى أن تحمل فوقيتهم على فوقية المسلمين بحكم الإتحاد فى الإسلام والتوحيد وقيل هم الروم وقيل هم النصارى فالمراد بالاتباع مجرد الإدعاء والمحبة وإلا فأولئك الكفرة بمعزل من اتباعه عليه الصلاة والسلام ﴿إلى يوم القيامة﴾

غاية للجعل أو للاستقرار المقدر فى الظرف لا على معنى أن الجعل أو الفوقية تنتهى حينئذ ويتخلص الكفرة من الذلة بل على معنى أن المسلمين يعلونهم إلى تلك الغاية فأما بعدها فيفعل الله تعالى بهم ما يريد ﴿ ثم إلى مرجعكم ﴾ بالبعث وثم للتراخى وتقديم الجار والمجرور للقصر المفيد لتأكيد الوعد والوعيد والضمير لعيسى عليه الصلاة والسلام وغيره من المتبعين له والكافرين به على تغليب المخاطب على الغائب فى ضمن الالتفات فإنه أبلغ فى التبشير والإنذار ﴿ فأحكم بينكم ﴾ يومئذ إثر رجوعكم إلى ﴿ فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ من أمور الدين وفيه متعلق بتختلفون وتقديمه عليه لرعاية الفواصل .

﴿ فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا ﴾ تفسير للحكم الواقع بين الفريقين وتفصيل لكيفيته والبداية ببيان حال الكفرة لما أن مساق الكلام لتهديدهم وزجرهم عما هم عليه من الكفر والعناد وقوله تعالى : ﴿ فى الدنيا والآخرة ﴾ متعلق بأعذبهم لا بمعنى إيقاع كل واحد من التعذيب فى الدنيا والتعذيب فى الآخرة وإحداثهما يوم القيامة بل بمعنى إتمام مجموعهما يومئذ وقيل إن المرجع أعم من الدنيوى والأخروى وقوله تعالى إلى يوم القيامة غاية للفوقية لا للجعل والرجوع متراخ عن الجعل وهو غير محدود لا عن الفوقية المحدودة على نهج قولك سأعيرك سكنى هذا البيت شهرا ثم أخلع عليك خلعة فيلزم تأخر الخلع عن الإعارة لا عن الشهر ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ يخلصونهم من عذاب الله تعالى فى الدارين وصيغة الجمع لمقابلة ضمير الجمع أى ليس لواحد منهم ناصر واحد ﴿ وأما الذين آمنوا ﴾ بما أرسلت به ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ كما هو ديدن المؤمنين ﴿ فيوفيهم أجورهم ﴾ أى يعطيهم إياها كاملة ولعل الالتفات إلى الغيبة للإيذان بما بين مصدرى التعذيب والإثابة من الاختلاف من حيث الجلال والجمال ، وقرىء فنوفيهم جريا على سنن العظمه والكبرياء ﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾ أى بعضهم فإن هذه الكناية

فاشية فى جميع اللغات جارية مجرى الحقيقة وإيراد الظلم للإشعار بأنهم بكفرهم متعدون متجاوزوا الحدود(١) واضعون للكفر مكان الشكر والإيمان والجملة تذييل لما قبله مقرر لمضمونه .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما سلف من نبأ عيسى عليه الصلاة والسلام وما فيه من معنى البعد للدلالة على عظم شأن المشار إليه وبعد منزلته فى الشرف وعلى كونه فى ظهور الأمر ونباهة الشأن بمنزلة المشاهد للمعاين وهو مبتدأ وقوله عز وجل ﴿ نتلوه ﴾ خبره وقوله تعالى ﴿ عليك ﴾ متعلق بنتلوه وقوله تعالى ﴿ من الآيات ﴾ حال من الضمير المنصوب أو خبر بعد خبر أو هو الخبر وما بينهما حال من اسم الإشارة أو ذلك خبر لمبتدأ مضمر أى الأمر ذلك ونتلوه حال كما مر وصيغة الاستقبال إما لاستحضار الصورة أو على معناها إذ التلاوة لم تتم بعد ﴿ والذكر الحكيم ﴾ أى المشتمل على الحكم أو المحكم الممنوع من تطرق الخلل إليه والمراد به القرآن فمن تبعيضية أو بعض مخصوص منه فمن بيانية وقيل هو اللوح المحفوظ فمن ابتدائية ﴿ إن مثل عيسى ﴾ أى شأنه البديع المنتظم لغرابته فى سلك الأمثال ﴿ عند الله ﴾ أى فى تقديره وحكمه ﴿ كمثل آدم ﴾ أى كحاله العجيبة التى لا يرتاب فيها مرتاب ولا ينازع فيها منازع ﴿ خلقه من تراب ﴾ تفسير لما أبهم فى المثل وتفصيل لما أجمل فيه وتوضيح للتمثيل ببيان وجه الشبه بينهما وحسم لمادة شبهة الخصوم فإن إنكار خلق عيسى عليه الصلاة والسلام بلا أب ممن اعترف بخلق آدم عليه الصلاة والسلام بغير أب وأم مما لا يكاد يصح والمعنى خلق قالبه من تراب ﴿ ثم قال له كن ﴾ أى أنشأه بشرا كما فى قوله تعالى ثم (أنشأناه خلقا آخر) أوقدر تكوينه من التراب ثم كونه ويجوز كون ثم لتراخى الخبر به ﴿ فيكون ﴾ حكاية حال ماضية ، روى أن وفد نجران قالوا لرسول صلى الله عليه وسلم مالك تشتم صاحبنا قال وما أقول قالوا تقول إنه عبد قال أجل هو عبد الله

---

(١) فى ط : متجاوزون عن الحدود

ورسوله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول فغضبوا وقالوا هل رأيت إنسانا من غير أب فحيث سلمت أنه لا أب له من البشر وجب أن يكون أبوه هو الله فقال عليه الصلاة والسلام إن آدم عليه الصلاة والسلام ما كان له أب ولا أم ولم يلزم من ذلك كونه ابناً لله سبحانه وتعالى فكذا حال عيسى عليه الصلاة والسلام .

﴿ الحق من ربك ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى هو الحق أى ما قصصنا عليك من نبأ عيسى عليه الصلاة والسلام وأمه والظرف إما حال أى كائنا من ربك ربك أو خبر ثان أى كائن منه تعالى وقيل هما مبتدأ وخبر أى الحق المذكور من الله تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطب لتشريفه عليه الصلاة والسلام والإيذان بأن تنزيل هذه الآيات الحقة الناطقة بكنه الأمر تربية له عليه الصلاة والسلام ولطف به ﴿ فلا تكن من الممترين ﴾ فى ذلك والخطاب إما للنبي صلى الله عليه وسلم على طريقة الإلهاب والتهييج لزيادة التثبيت والإشعار بأن الامتراء فى المحذورية بحيث ينبغى أن أن ينهى عنه من لا يكاد يمكن صدوره عنه فكيف بمن هو بصدد الامتراء وإما لكل من له صلاحية الخطاب ﴿ فمن حاجك ﴾ أى من النصارى إذ هم المتصدرون(١) للمحاجة ﴿ فيه ﴾ أى فى شأن عيسى عليه السلام وأمه زعماً منهم أنه ليس على الشأن المحكى ﴿ من بعد ما جاءك من العلم ﴾ أى ما يوجبه إيجابا قطعيا من الآيات البينات وسمعوا ذلك منك فلم يرعووا عما هم عليه من الغى والضلال ﴿ فقل ﴾ لهم ﴿ تعالوا ﴾ أى هلموا بالرأى والعزيمة ﴿ ندع أبناءنا وأبناءكم ﴾ اكتفى بهم عن ذكر البنات لظهور كونهم أعز منهن وأما النساء فتعلقهن من جهة أخرى ﴿ ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ﴾ أى ليدع كل منا ومنكم نفسه وأعزة أهله وألصقهم بقلبه إلى المباهلة ويحملهم عليها وتقديمهم على النفس فى أثناء المباهلة التى هى من باب المهالك ومظان التلف مع أن الرجل يخاطر لهم بنفسه ويحارب دونهم للإيذان بكمال أمنه عليه الصلاة والسلام وتمام

---

(١) فى ط : المتصدون .

ثقته بأمره وقوة يقينه بأنه لن يصيبهم فى ذلك شائبة مكروه أصلا وهو السر فى تقديم جانبه عليه السلام على جانب المخاطبين فى كل من المقدم والمؤخر مع رعاية الأصل فى الصيغة فإن غير المتكلم تبع له فى الإسناد .

﴿ ثم نبتهل ﴾ أى نتباهل بأن نلعن الكاذب منا والبهلة بالضم والفتح اللعنة وأصلها الترك من قولهم بهلت الناقة أى تركتها بلا صرار ﴿ فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ عطف على نبتهل مبين لمعناه ، روى أنهم لما دعوا إلى المباهلة قالوا حتى نرجع وننظر فلما خلوا(١) قالوا للعاقب وكان ذا رأيهم يا عبد المسيح ما ترى فقال والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبى مرسل ولقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم والله ما باهل قوم نبيا قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، ولئن فعلتم لتهلكن ، فإن أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد غدا محتضنا(٢) الحسين آخذا بيد الحسن وفاطمة تمشى خلفه وعلى خلفها ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ وهو يقول إذا أنا دعوت فأمنوا فقال أسقف نجران يامعشر النصارى إنى لأرى وجوها لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصرانى إلى يوم القيامة فقالوا ياأبا القاسم رأينا أن لانباهلك وأن نقرك على دينك ونثبت على ديننا قال صلى الله عليه وسلم « فإذا أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما على المسلمين » فأبوا قال عليه الصلاة والسلام « فإنى أناجزكم » فقالوا مالنا بحرب العرب طاقة ولكن نصالحك على ألا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردنا عن ديننا على أن نؤدى إليك كل عام ألفى حلة ألفا فى صفر وألفا فى رجب وثلاثين درعا عادية من حديد فصالحهم على ذلك وقال « والذى نفسى بيده إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران ولو لا عنوا

---

(١) فى ط : تخالوا .

(٢) فى ١٠ : ومعه .

لمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادي نارا ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على رؤس الشجر ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا .

﴿ إن هذا ﴾ أى ماقص من نبأ عيسى وأمه عليهما السلام ﴿ لهو القصص الحق ﴾ دون ما عداه من أكاذيب النصارى فهو ضمير الفصل دخلته اللام لكونه أقرب إلى المبتدأ من الخبر وأصلها أن تدخل المبتدأ وقرىء لهو بسكون الهاء والقصص خبر إن والحق صفته أو مبتدأ والقصص خبره والجملة خبر لأن ﴿ وما من إله إلا الله ﴾ صرح فيه بمن الاستغراقية تأكيدا للرد على النصارى فى تثليثهم ﴿ وإن الله لهو العزيز ﴾ القادر على جميع المقدورات ﴿ الحكيم ﴾ المحيط بالمعلومات لا أحد يشاركه فى القدرة والحكمة ليشاركه فى الألوهية ﴿ فإن تولوا ﴾ عن التوحيد وقبول الحق الذى قصصنا(١) عليك بعد ما عاينوا تلك الحجج النيرة والبراهين الساطعة ﴿ فإن الله عليم بالمفسدين ﴾ أى بهم وإنما وضع موضعه ما وضع للإيذان بأن الإعراض عن التوحيد والحق الذى لا محيد عنه بعدما قامت به الحجج إفساد للعالم وفيه من شدة الوعيد مالا يخفى ﴿ قل يا أهل الكتاب ﴾ أمر بخطاب أهل الكتابين وقيل بخطاب وفد نجران وقيل بخطاب يهود المدينة ﴿ تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾ لا يختلف فيها الرسل والكتب وهى ﴿ أن لا نعبد إلا الله ﴾ أى نوحده بالعبادة ونخلص فيها ﴿ ولا نشرك به شيئاً ﴾ ولا نجعل غيره شريكا له فى استحقاق العبادة ولا نراه أهلا لأن يعبد ﴿ ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ﴾ بأن نقول عزير ابن الله والمسيح ابن الله ولا نطيع الأحبار فيما أحدثوا من التحريم والتحليل لأن كلا منهم بعضنا بشر مثلنا ، روى أنه لما نزلت اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله قال عدى بن حاتم ما كنا نعبدهم يا رسول الله فقال عليه السلام أليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم قال نعم قال عليه السلام هو ذاك ﴿ فإن تولوا ﴾ عما

---

(١) فى ط : قص

دعوتهم إليه من التوحيد وترك الإشرك ﴿فقولوا﴾ أى قل لهم أنت والمؤمنون ﴿اشهدوا بأنا مسلمون﴾ أى لزمتكم الحجة فاعترفوا بأنا مسلمون دونكم أو اعترفوا بأنكم كافرون بما نطقت به الكتب وتطابقت عليه الرسل عليهم السلام .

﴿تنبيه﴾ انظر إلى ما روعى فى هذه القصة من المبالغة فى الإرشاد وحسن التدرج فى المحاجة حيث بين أولا أحوال عيسى عليه السلام وما توارد عليه من الأطوار المنافية للإلهية ثم ذكر كيفيه دعوته للناس إلى التوحيد والإسلام فلما ظهر عنادهم دعوا إلى المباهلة بنوع من الإعجاز ثم لما أعرضوا عنها وانقادوا بعض الانقياد دعوا إلى ما اتفق عليه عيسى عليه السلام والإنجيل وسائر الانبياء عليهم والسلام والكتب ثم لما ظهر عدم إجدائه أيضاً أمر بأن يقال لهم اشهدوا بأنا مسلمون ﴿يا أهل الكتاب﴾ من اليهود والنصارى ﴿لم تحاجون فى إبراهيم﴾ أى فى ملته وشريعته تنازعت اليهود والنصارى فى إبراهيم عليه السلام وزعم كل منهم أنه عليه السلام منهم وترافعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت والمعنى لم تدعون أنه عليه السلام كان منكم ﴿وما أنزلت التوارة﴾ على موسى عليه الصلاة والسلام ﴿والإنجيل﴾ على عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿إلا من بعده﴾ حيث كان من بينه وبين موسى عليهما السلام ألف سنه وبين موسى وعيسى عليهما السلام ألفا سنة فكيف يمكن أن يتفوه به عاقل ﴿أفلا تعقلون﴾ أى ألا تتفكرون فلا تعقلون بطلان مذهبكم أو أتقولون ذلك فلا تعقلون بطلانه ﴿ها أنتم هؤلاء﴾ جملة من مبتدأ وخبر صدرت بحرف التنبيه ثم بينت بجملة مستأنفة إشعاراً بكمال غفلتهم أى أنتم هؤلاء الأشخاص الحمقى حيث ﴿حاججتم فيما لكم به علم﴾ فى الجملة حيث وجدتموه فى التوارة والإنجيل .

﴿فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم﴾ أصلا إذلا ذكر لدين إبراهيم فى أحد الكتابين قطعا وقيل هؤلاء بمعنى الذى وحاججتم صلته وقيل ها أنتم أصله

أأنتم على الاستفهام للتعجب قبلت الهمزة هاء ﴿ والله يعلم ﴾ ماحاججتم فيه أو كل شيء فيدخل فيه ذلك دخولا أوليا ﴿ وأنتم لاتعلمون ﴾ أى محل النزاع أو شيئاً من الأشياء التى من جملتها ذلك ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ﴾ تصريح بما نطق به البرهان المقرر ﴿ ولكن كان حنيفا ﴾ أى مائلا عن العقائد الزائغة كلها ﴿ مسلما ﴾ أى منقاداً لله تعالى وليس المراد أنه كان على ملة الإسلام وإلا لاشترك الإلزام ﴿ وما كان من المشركين ﴾ تعريض بأنهم مشركون بقولهم عزير ابن الله والمسيح ابن الله ورد لادعاء المشركين أنهم على ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم ﴾ أى أقربهم إليه وأخصهم به ﴿ للذين اتبعوه ﴾ أى فى زمانه ﴿ وهذا النبى والذين آمنوا ﴾ لموافقتهم له فى أكثر ما شرع لهم على الأصالة وقرىء والنبى بالنصب عطفا على الضمير فى اتبعوه وبالجر عطفا على إبراهيم ﴿ والله ولى المؤمنين ﴾ ينصرهم ويجازيهم الحسنى بإيمانهم وتخصيص المؤمنين بالذكر ليثبت الحكم فى النبى صلى الله عليه وسلم بدلالة النص ﴿ ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ﴾ نزلت فى اليهود حين دعوا حذيفة وعمارا ومعاذاً إلى اليهودية ولو بمعنى أن ﴿ وما يضلون إلا أنفسهم ﴾ جملة حالية جىء بها للدلالة على كمال رسوخ المخاطبين وثباتهم على ماهم عليه من الدين القويم أى ومايتخطاهم الإضلال ولايعود وباله إلا إليهم لما أنه يضاعف به عذابهم. وقيل وما يضلون إلا أمثالهم ويأباه قوله تعالى ﴿ وما يشعرون ﴾ أى باختصاص وباله وضرره بهم .

﴿ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله ﴾ أى بما نطقت به التوراة والإنجيل ودلت على نبوة محمد صلى الله علية وسلم ﴿ وأنتم تشهدون ﴾ أى والحال أنكم تشهدون أنها آيات الله أوبالقرآن وأنتم تشهدون نعته فى الكتابين أو تعلمون بالمعجزات أنه حق ﴿ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل ﴾ بتحريفكم وإبراز الباطل فى صورته أو بالتقصير فى التمييز بينهما وقرىء تلبسون بالتشديد وتلبسون بفتح الباء أى تلبسون الحق مع الباطل كما فى قوله عليه

السلام كلابس ثوبى زور ﴿وتكتمون الحق﴾ أى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته ﴿وأنتم تعلمون﴾ أى حقيته ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب﴾ وهم رؤساؤهم ومفسدوهم لأعقابهم ﴿آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا﴾ أى أظهروا الإيمان بالقرآن المنزل عليهم ﴿وجه النهار﴾ أى أوله ﴿واكفروا﴾ أى أظهروا ما أنتم عليه من الكفر به ﴿آخره﴾ مرائين لهم أنكم آمنتم به بادىء الرأى من غير تأمل ثم تأملتم فيه فوقفتم على خلل رأيكم الأول فرجعتم عنه ﴿لعلهم﴾ أى المؤمنين ﴿يرجعون﴾ عما هم عليه من الإيمان به كما رجعتم والمراد بالطائفة كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف قالا لأصحابهما لما حولت القبلة آمنوا بما أنزل عليهم من إلى الكعبة وصلوا إليها أول النهار ثم صلوا إلى الصخرة آخره لعلهم يقولون هم أعلم منا وقد رجعوا فيرجعون وقيل هم اثنا عشر رجلا من أحبار خيبر اتفقوا على أن(١) يدخلوا فى الإسلام أول النهار ويقولوا آخره نظرنا فى كتابنا وشاورنا علماءنا فلم نجد محمدا بالنعت الذى ورد فى التوارة لعل أصحابه يشكون فيه .

﴿ولا تؤمنوا﴾ أى لا تقروا بتصديق قلبى ﴿إلا لمن تبع دينكم﴾ أى لأهل دينكم أولا تظهروا إيمانكم وجه النهار إلا لمن كان على دينكم من قبل فإن رجوعهم أرجى وأهم ﴿قل إن الهدى من الله﴾ يهدى به من يشاء إلى الإيمان ويثبته عليه ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم﴾ متعلق بمحذوف أى دبرتم ذلك وقلتم لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو بلا تؤمنوا أى ولا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لأشياعكم ولا تفشوه إلى المسلمين لئلا يزيد ثباتهم ولا إلى المشركين لئلا يدعوهم إلى الإسلام وقوله تعالى (قل إن الهدى هدى الله) اعتراض مفيد لكون كيدهم غير مجد لطائل أو خبر إن على أن هدى الله بدل من الهدى وقرىء أن يؤتى على الاستفهام التقريعى وهو مؤيد للوجه الأول

---

(١) فى ط : تقاولوا بأن.

أى لأن يؤتى أحد الخ دبرتم وقرىء أن على أنها نافية فيكون من كلام الطائفة أى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم وقولوا لهم ما يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ﴿أو يحاجوكم عند ربكم﴾ عطف على أن يؤتى على الوجهين الأولين وعلى الثالث معناه حتى يحاجوكم عند ربكم فيدحضوا حجتكم والواو ضمير أحد لأنه فى معنى الجمع إذ المراد به غير أتباعهم ﴿قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾ رد لهم وإبطال لما زعموه بالحجة الباهرة (يختص برحمته﴾ أى يجعل رحمته مقصورة على ﴿من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ كلاهما تذييل لما قبله مقرر لمضمونه .

﴿ ومن أهل الكتاب ﴾ شروع فى بيان خيانتهم فى المال بعد بيان خياناتهم فى الدين والجار والمجرور فى محل الرفع على الابتداء حسبما مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى (ومن الناس من يقول) الخ خبره قوله تعالى ﴿ من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ﴾ على أن المقصود بيان اتصافهم بمضمون الجملة الشرطية لا كونهم ذوات المذكورين كأنه قيل بعض أهل الكتاب بحيث إن تأمنه بقنطار أى بمال كثير يؤده إليك كعبد الله بن سلام استودعه قرشى ألفا ومائتى أوقية ذهبا فأداها إليه(١) ﴿ ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك ﴾ كفنحاص بن عازوراء استودعه قرشى آخر دينارا فجحده وقيل المأمونون على الكثير النصارى إذ الغالب فيهم الأمانة والخائنون فى القليل اليهود إذ الغالب فيهم الخيانة ﴿ إلا ما دمت عليه قائما ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أو الأوقات أى لا يؤده إليك فى حال من الأحوال أو فى وقت من الأوقات إلا فى حال دوام قيامك أو فى وقت دوام قيامك على رأسه مبالغا فى مطالبته بالتقاضى وإقامة البينة ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ترك الأداء المدلول عليه بقوله تعالى لا يؤده وما فيه من معنى البعد للإيذان بكمال غلوهم فى الشر والفساد

---

(١) فى ط فأداه إليه

﴿ بأنهم ﴾ أى بسبب أنهم ﴿ قالوا ليس علينا فى الأميين ﴾ أى فى شأن من ليس من أهل الكتاب ﴿ سبيل ﴾ أى عتاب ومؤاخذة ﴿ ويقولون على الله الكذب ﴾ بادعائهم ذلك ﴿ وهم يعلمون ﴾ أنهم كاذبون مفترون على الله تعالى وذلك لأنهم استحلوا ظلم من خالفهم وقالوا لم يجعل فى التوراة فى حقهم حرمة وقيل عامل اليهود رجالا من قريش فلما أسلموا تقاضوهم فقالوا سقط حقكم حيث تركتم دينكم وزعموا أنه كذلك فى كتابهم وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال عند نزولها كذب أعداء الله مامن شىء فى الجاهلية إلا وهو تحت قدمى إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر .

﴿ بلى ﴾ إثبات لما نفوه أى بلى عليهم فيهم سبيل وقوله تعالى ﴿ من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين ﴾ استئناف مقرر للجملة التى سد بلى مسدها والضمير المجرور لمن أو لله تعالى وعموم المتقين نائب مناب الراجع من الجزاء إلى من ومشعر بأن التقوى ملاك الأمر عام للوفاء وغيره من أداء الواجبات والاجتناب عن المناهى ﴿ إن الذين يشترون ﴾ أى يستبدلون ويأخذون ﴿ بعهد الله ﴾ أى بدل ما عاهدوا عليه من الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم والوفاء بالأمانات ﴿ وأيمانهم ﴾ وبما حلفوا به من قولهم والله لنؤمنن به ولننصرنه ﴿ ثمنا قليلا ﴾ هو حطام الدنيا ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بتلك الصفات القبيحة ﴿ لا خلاق ﴾ لا نصيب ﴿ لهم فى الآخرة ﴾ من نعيمها ﴿ ولا يكلمهم الله ﴾ أى بما يسرهم أو بشىء أصلا وإنما يقع ما يقع من السؤال والتوبيخ والتقريع فى أثناء الحساب من الملائكة عليهم السلام أو لا ينتفعون بكلمات الله تعالى وآياته والظاهر أنه كناية عن شدة غضبه وسخطه نعوذ بالله من ذلك لقوله تعالى ﴿ ولا ينظر إليهم يوم القيامة ﴾ فإنه مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم متفرع على الكناية فى حق من يجوز عليه النظر لأن من اعتد بالإنسان التفت إليه وأعاره بصره(١) ثم كثر حتى صار عبارة عن الاعتداد والإحسان وإن لم يكن

---

(١) فى ط : ١١ وأعاره نظره .

ثمة نظر ثم جاء فيمن لا يجوز عليه النظر بمجرد المعنى الإحسان مجازاً عما وقع كناية عنه فيمن يجوز عليه النظر ويوم القيامة متعلق بالفعلين وفيه تهويل للوعيد ﴿ ولا يزكيهم ﴾ أى لا يثنى عليهم أو لا يطهرهم من أوضار الأوزار ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ على ما فعلوه من المعاصى قيل إنها نزلت فى أبى رافع ولبابة ابن أبى الحقيق وحيى بن أخطب حرفوا التوراة وبدلوا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذوا الرشوة على ذلك وقيل نزلت فى الأشعث بن قيس حيث كان بينه وبين رجل نزاع فى بئر فاختصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له شاهداك أو يمينه فقال الأشعث إذن يحلف ولا يبالى فقال صلى الله عليه وسلم من حلف على يمين يستحق بها مالا هو فيها فاجر لقى الله وهو عليه غضبان وقيل فى رجل أقام سلعة فى السوق فحلف لقد اشتراها بما لم يكن اشتراها به . ﴿ وإن منهم ﴾ أى من اليهود المحرفين ﴿ لفريقاً ﴾ ككعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وأضرابهما ﴿ يلوون ألسنتهم بالكتاب ﴾ أى يفتلونها بقراءته فيميلونها عن المنزل إلى المحرف أو يعطفونها بشبه الكتاب وقرىء يلوون بالتشديد ويلون بقلب الواو المضمومة همزة ثم تخفيفها بحذفها وإلقاء حركتها على ما قبلها من الساكن ﴿ لتحسبوه ﴾ أى المحرف المدلول عليه بقوله تعالى (يلوون) الخ وقرىء بالياء والضمير للمسلمين ﴿ من الكتاب ﴾ أى من جملته وقوله تعالى ﴿ وما هو من الكتاب ﴾ حال من الضمير المنصوب أى والحال أنه ليس منه فى نفس الأمر وفى اعتقادهم أيضاً ﴿ ويقولون ﴾ مع ما ذكر من اللى والتحريف على طريقة التصريح لا بالتورية والتعريض ﴿ هو ﴾ أى المحرف ﴿ من عند الله ﴾ أى منزل من عند الله ﴿ وما هو من عند الله ﴾ حال من ضمير المبتدأ فى الخبر أى والحال أنه ليس من عنده تعالى فى اعتقادهم أيضاً وفيه من المبالغة فى تشنيعهم وتقبيح أمرهم وكمال جرأتهم ما لا يخفى وإظهار الاسم الجليل والكتاب فى محل الإضمار لتهويل ما أقدموا عليه من القول .

﴿ ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ أنهم كاذبون ومفترون على الله تعالى وهو تأكيد وتسجيل عليهم بالكذب على الله والتعمد فيه وعن ابن عباس

رضى الله عنهما هم اليهود الذين قدموا على كعب بن الأشرف وغيروا التوراة وكتبوا كتابا بدلوا فيه صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أخذت قريظة ما كتبوا فخلطوه بالكتاب الذى عندهم ﴿ما كان لبشر﴾ بيان لافترائهم على الأنبياء عليهم السلام حيث قال نصارى نجران إن عيسى عليه السلام أمرنا أن نتخذه ربا حاشاه عليه السلام وإبطال له إثر بيان افترائهم على الله سبحانه وإبطاله أى ما صح وما استقام لأحد وإنما قيل لبشر إشعارا بعلة الحكم فإن البشرية منافية للأمر الذى أسنده الكفرة إليهم ﴿أن يؤتيه الله الكتاب﴾ الناطق بالحق الآمر بالتوحيد الناهى عن الإشراك ﴿والحكم﴾ هو(١) الفهم والعلم أو الحكمة وهى السنة والنبوة .

﴿ثم يقول﴾ ذلك البشر ما شرفه الله عز وجل بما ذكر من التشريفات وعرفه الحق وأطلعه على شئونه العالية ﴿للناس كونوا عبادا لى﴾ الجار متعلق بمحذوف هو صفة لعباد(٢) أى عبادا كائنين ﴿من دون الله﴾ متعلق بلفظ عبادا لما فيه من معنى الفعل أو صفة ثانية له ويحتمل الحالية لتخصص النكرة بالوصف أى متجاوزين الله تعالى سواء كان ذلك استقلالا أو اشتراكا فان التجاوز متحقق فيهما حتما قيل أن أبا رافع القرظى والسيد النجرانى قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أتريد أن نعبدك ونتخذك ربا فقال عليه السلام معاذ الله أن يعبد غير الله تعالى وأن نأمر بعبادة غيره تعالى فما بذلك بعثنى ولا بذلك أمرنى فنزلت وقيل قال رجل من المسلمين يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك قال عليه السلام لا ينبغى أن يسجد لأحد من دون الله تعالى ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله ﴿ولكن كونوا﴾ أى ولكن يقول كونوا ﴿ربانيين﴾ الربانى منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون كاللحيانى والرقبانى وهو الكامل فى العلم والعمل الشديد التمسك بطاعة الله عز وجل ودينه ﴿بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾ أى بسبب مثابرتكم على تعليم

---

(١) سقطت من ط .

(٢) فى ط : عبادا .

الكتاب ودراسته أى قراءته فإن جعل خبر كان مضارعا لإفادة الاستمرار المتجدد(١) وتكرير بما كنتم للإيذان باستقلال كل من استمرار التعليم واستمرار القراءة بالفضل وتحصيل الربانية وتقديم التعليم على الدراسة لزيادة شرفه عليها أو لأن الخطاب الأول لرؤسائهم والثانى لمن دونهم وقرىء تعلمون بمعنى عالمين وتدرسون من التدريس وتدرسون من الإدراس بمعنى التدريس كأكرم بمعنى كرم ويجوز أن تكون القراءة المشهورة أيضاً بهذا المعنى على تقدير بما تدرسونه على الناس .

﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ﴾ بالنصب عطفا على ثم يقول ولا مزيدة لتأكيد معنى النفى فى قوله تعالى (ما كان لبشر) أى ما كان لبشر أن يستنبئه الله تعالى ثم يأمر الناس بعبادة نفسه ويأمر باتخاذ الملائكة والنبيين أربابا وتوسيط الاستدراك بين المعطوفين للمسارعة إلى تحقيق الحق ببيان ما يليق بشأنه ويحق صدوره عنه إثر تنزيهه عما لا يليق بشأبه ويمتنع صدوره عنه وأما ما قيل من أنها غير مزيدة على معنى أنه ليس له أن يأمر بعبادته ولا يأمر باتخاذ أكفائه أربابا بل ينهى عنه وهو أدنى من العبادة فيقضى بفساده ما ذكر من توسيط الاستدراك بين الجملتين المتعاطفتين ضرورة أنهما حينئذ فى حكم جملة واحدة وكذا قوله تعالى ﴿ أيأمركم بالكفر ﴾ فإنه صريح فى أن المراد بيان انتفاء كلا الأمرين قصدا لا بيان انتفاء الأول لانتفاء الثانى ويعضده قراءة الرفع على الاستئناف وتجويز الحالية بتقدير المبتدأ أى وهو لا يأمركم إلى آخره بين الفساد لما عرفته آنفا وقوله تعالى ﴿ بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ يدل على أن الخطاب للمسلمين وهم المستأذنون للسجود عليه السلام ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين ﴾ منصوب بمضمر خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم أى أذكر وقت أخذه تعالى ميثاقهم .

﴿ لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به

---

(١) فى ط : التجددى .

ولتنصرنه ﴾ قيل هو على ظاهره وإذا كان هذا حكم الأنبياء عليهم السلام كان الأمم بذلك أولى وأحرى وقيل معناه أخذ الميثاق من النبيين وأممهم واستغنى بذكرهم عن ذكرهم وقيل إضافة الميثاق إلى النبيين إضافة إلى الفاعل والمعنى وإذا أخذ الله الميثاق الذى وثقه الأنبياء على أممهم وقيل المراد أولاد النبيين على حذف المضاف وهم بنو اسرائيل أو سماهم نبيين تهكما بهم لأنهم كانوا يقولون نحن أولى بالنبوة من محمد صلى الله عليه وسلم لأنا أهل الكتاب والنبيون كانوا منا واللام فى لما موطئة للقسم لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستخلاف وما تحتمل الشرطية ولتؤمنن ساد مسد جواب القسم والشرط وتحتمل الخبرية وقرىء لما بالكسر على أن ما مصدرية أى لأجل إيتائى إياكم بعض الكتاب ثم لمجىء رسول مصدق أخذ الله الميثاق لتؤمنن به ولتنصرنه أو موصولة والمعنى أخذه الذى آتيتكموه وجاءكم رسول مصدق له وقرىء لما بمعنى حين آتيتكم أو لمن أجل ما آتيتكم على أن أصله لمن ما بالإدغام فحذف إحدى الميمات الثلاث استثقالا .

﴿ قال ﴾ أى الله تعالى بعد ما أخذ الميثاق ﴿ أأقررتم ﴾ بما ذكر ﴿ وأخذتم على ذلكم إصرى ﴾ أى عهدى سمى به لأنه يؤصر أى يشد وقرىء بضم الهمزة إما لغة كعبر وعبر أو جمع إصار وهو ما يشد به ﴿ قالوا ﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قالوا عند ذلك فقيل قالوا ﴿ أقررنا ﴾ وإنما لم يذكر أخذهم الإصرار اكتفاء بذلك ﴿ قال ﴾ تعالى ﴿ فاشهدوا ﴾ أى فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار وقيل الخطاب فيه للملائكة ﴿ وأنا معكم من الشاهدين ﴾ أى وأنا أيضاً على إقراركم ذلك وتشاهدكم به(١) شاهد وإدخال مع على المخاطبين لما أنهم المباشرون للشهادة حقيقة وفيه من التأكيد والتحذير ما لا يخفى ﴿ فمن تولى ﴾ أى أعرض عما ذكر ﴿ بعد ذلك ﴾ الميثاق والتوكيد بالإقرار والشهادة فمعنى البعد فى اسم الإشارة لتفخيم الميثاق ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى من والجمع باعتبار المعنى كما أن الإفراد فى تولى باعتبار اللفظ وما فيه من معنى البعد للدلالة

---

(١) سقطت من ط.

على ترامى أمرهم فى السوء وبعد منزلتهم فى الشر والفساد أى فأولئك المتولون المتصفون بالصفات القبيحة ﴿ هم الفاسقون ﴾ المتمردون الخارجون عن الطاعة من الكفرة فإن الفاسق من كل طائفة من كان متجاوزا عن الحد .

﴿ أفغير دين الله يبغون ﴾ عطف على مقدر أى أيتولون فيبغون غير دين الله وتقديم المفعول لأنه المقصود إنكاره أو على الجملة المتقدمة والهمزة متوسطة بينهما للإنكار وقرىء بتاء الخطاب على تقدير وقل لهم ﴿ وله أسلم من فى السموات والأرض ﴾ جملة حالية مفيدة لوكادة الإنكار ﴿ طوعا وكرها ﴾ أى طائعين بالنظر واتباع الحجة وكارهين بالسيف ومعاينة ما يلجىء إلى الإسلام كنتق الجبل وإدراك الغرق والإشراف على الموت أو مختارين كالملائكة والمؤمنين ومسخرين كالكفرة فإنهم لا يقدرون على الامتناع عما قضى عليهم ﴿ وإليه يرجعون ﴾ أى من فيهما والجمع باعتبار المعنى وقرىء بتاء الخطاب والجملة إما معطوفة على ما قبلها منصوبة على الحالية وإما مستأنفة سيقت التهديد والوعيد ﴿ قل آمنا بالله ﴾ أمر للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يخبر عن نفسه ومن معه من المؤمنين بالإيمان بما ذكر وجمع الضمير فى قوله تعالى ﴿ وما أنزل علينا ﴾ وهو القرآن لما أنه منزل عليهم أيضا بتوسط تبليغه إليهم أو لأن المنسوب إلى واحد من الجماعة قد ينسب إلى الكل أو عن نفسه فقط وهو الأنسب بما بعده والجمع لإظهار جلالة قدره عليه السلام ورفعة محله بأمره بأن يتكلم عن نفسه على ديدن الملوك ويجوز أن يكون الأمر عاما والإفراد لتشريفه عليه السلام والإيذان بأنه عليه السلام أصل فى ذلك كما فى قوله تعالى : (يا أيها النبى إذا طلقتم النساء) .

﴿ وما أنزل على إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ﴾ من الصحف والنزول كما يعدى بإلى لانتهائه إلى الرسل يعدى بعلى لأنه من فوق ومن رام الفرق بأن على لكون الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وإلى لكون الخطاب للمؤمنين فقد تعسف ألا يرى إلى قوله تعالى : (بما أنزل إليك الخ)

وقوله (آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا) الخ وإنما قدم المنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم على ما أنزل على سائر الرسل عليهم السلام مع تقدمه عليه نزولا لأنه المعروف له والعيار عليه والأسباط جمع سبط وهو الحافد والمراد بهم حفدة يعقوب عليه السلام وأبناؤه الإثنا عشر وذراريهم فإنهم حفدة إبراهيم عليه السلام ﴿ وما أوتى موسى وعيسى ﴾ من التوراة والإنجيل وسائر المعجزات الظاهرة بأيديهما كما ينبىء عنه إيثار الإيتاء على الإنزال الخاص بالكتاب وتخصيصهما بالذكر لما أن الكلام مع اليهود والنصارى ﴿ والنبيون ﴾ عطف على موسى وعيسى عليهما السلام أى وما أوتى النبيون من المذكورين وغيرهم ﴿ من ربهم ﴾ من الكتب والمعجزات ﴿ لا نفرق بين أحد منهم ﴾ كدأب اليهود والنصارى آمنوا ببعض وكفروا ببعض بل نؤمن بصحة نبوة كل منهم وبحقية ما أنزل إليهم فى زمانهم وعدم التعرض لنفى التفريق بين الكتب لاستلزام المذكور إياه وقد مر تفصيله فى تفسير قوله تعالى (لا نفرق بين أحد من رسله) وهمزة أحدا ما أصلية فهو اسم موضوع لمن يصلح أن يخاطب يستوى فيه المفرد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث ولذلك صح دخول بين عليه كما فى مثل المال بين الناس وإما مبدلة من الواو فهو بمعنى واحد وعمومه لوقوعه فى حيز النفى وصحة دخول بين عليه باعتبار معطوف قد حذف لظهوره أى بين أحد منهم وغيره كما فى قول النابغة :

فما كان بين الخير إذ جاء سالما   أبو حجر إلا ليال قلائل

أى بين الخير وبينى ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ أى منقادون أو مخلصون أنفسنا له تعالى(١) لا نجعل له شريكا فيها وفيه تعريض بإيمان أهل الكتاب فإنه بمعزل عن ذلك ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ﴾ أى غير التوحيد والانقياد لحكم الله تعالى كدأب المشركين صريحا والمدعين للتوحيد مع إشراكهم كأهل

---

(١) سقطت من ط .

الكتابين ﴿ دينا ﴾ ينتحل إليه وهو نصب على مفعول ليبتغ وغير الإسلام حال منه لما أنه كان صفة له فلما قدمت عليه انتصبت حالا أوهو المفعول ودينا تمييز لما فيه من الإبهام أو بدل من غير الإسلام ﴿ فلن يقبل ﴾ ذلك ﴿ منه ﴾ أبدا بل يرد أشد رد وأقبحه ، وقوله تعالى ﴿ وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ إما حال من الضمير المجرور أو استئناف لامحل له من الإعراب أى من الواقعين فى الخسران والمعنى أن الإسلام والطالب لغيره فاقد للنفع واقع فى الخسران بإبطال الفطرة السليمة التى فطر الناس عليها وفى ترتيب الرد والخسران على مجرد الطلب دلالة على أن حال من تدين بغير الإسلام واطمأن بذلك أفظع وأقبح واستدل به على أن الإيمان هو الإسلام إذ لو كان غيره لم يقبل والجواب أنه ينفى قبول كل دين يغايره لاقبول كل ما يغايره .

﴿ كيف يهدى الله ﴾ إلى الحق ﴿ قوما كفروا بعد إيمانهم ﴾ قيل هم عشرة رهط ارتدوا بعد ما آمنوا ولحقوا بمكة وقيل هم يهود قريظة والنضير ومن دان بدينهم كفروا بالنبى صلى الله عليه وسلم بعد أن كانوا مؤمنين به قبل مبعثه ﴿ وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات ﴾ استبعاد لأن يهديهم الله تعالى فإن الحائد عن الحق بعد ما وضح له منهمك فى الضلال بعيدعن الرشاد وقيل نفى وإنكار له وذلك يقتضى أن لاتقبل توبة المرتد وقوله تعالى وشهدوا عطف على إيمانهم باعتبار انحلاله إلى جملة فعلية كما فى قوله تعالى (إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله) الخ فإنه فى قوة أن يقال بعد أن آمنوا أو حال من ضمير كفروا بإضمار قد وهو دليل على أن الإقرار باللسان خارج عن حقيقة الايمان ﴿ والله لايهدى القوم الظالمين ﴾ أى الذين ظلموا أنفسهم بالإخلال بالنظر ووضع الكفر موضع الإيمان فيكيف من جاءه الحق وعرفه ثم أعرض عنه والجملة اعتراضية أو حالية .

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بما مر من الصفات الشنيعة وما فيه من معنى البعد لما مر مرارا وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿ جزاؤهم ﴾ مبتدأ ثان وقوله تعالى ﴿ أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ﴾ خبره

والجملة خبر لأولئك وهذا يدل بمنطوقه على جواز لعنهم وبمفهومه ينفي جواز لعن غيرهم ولعل الفرق بينهم وبين غيرهم أنهم مطبوع على قلوبهم ممنوعون عن الهدى آيسون من الرحمة رأسا بخلاف غيرهم والمراد بالناس المؤمنون أو الكل فإن الكافر أيضا يلعن منكر الحق والمرتد عنه ولكن لايعرف الحق والمرتد عنه ولكن لايعرف الحق بعينه ﴿ خالدين فيها ﴾ فى اللعنة أو العقوبة أو النار وإن لم تذكر لدلالة الكلام عليها ﴿ لايخفف عنهم العذاب ولاهم ينظرون ﴾ أى يمهلون ﴿ إلا الذين تابوا من بعد ذلك ﴾ أى من بعد الارتداد ﴿ وأصلحوا ﴾ أى ما أفسدوا أودخلوا فى الصلاح ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ فيقبل توبتهم ويتفضل عليهم وهو تعليل لما دل عليه الاستثناء وقيل نزلت فى الحرث بن سويد حين ندم على ردته فأرسل إلى قومه أن يسألوا هل لى من توبة فأرسل إليه أخوه الجلاس الآية فرجع إلى المدينة فتاب ﴿ إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا ﴾ كاليهود كفروا بعيسى عليه السلام والإنجيل بعد الإيمان بموسى عليه الصلاة والسلام التوراة ، ثم ازدادوا كفرا حيث كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام والقرآن أو كفروا به عليه السلام بعد ما آمنوا به قبل مبعثه ثم ازدادوا كفرا بالإصرار عليه والطعن فيه والصد عن الإيمان ونقض الميثاق أو كقوم ارتدوا ولحقوا بمكة ثم ازداوا كفرا بقولهم نتربص به ريب المنون أو نرجع إليه فننافقه بإظهار الإيمان .

﴿ لن تقبل توبتهم ﴾ لأنهم لايتوبون إلا عند إشرافهم على الهلاك فكنى عن عدم توبتهم بعدم قبولها تغليظا فى شأنهم وإبرازا لحالهم فى صورة حال الآيسين من الرحمة أو لأن توبتهم لاتكون إلا نفاقا لارتدادهم وازديادهم كفرا ولذلك لم تدخل فيه الفاء ﴿ وأولئك هم الضالون ﴾ الثابتون على الضلال ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به ﴾ لما كان الموت على الكفر سببا لامتناع قبول الفدية زيدت الفاء ههنا للإشعار به وملء الشيء ما يملأ به وذهبا تمييز وقرىء بالرفع على أنه بدل من ملء أو خبر لمحذوف ولو افتدى محمول على المعنى كأنه قيل

فلن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهبا أوالعطوف على مضمر تقديره فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا لو تصدق به فى الدنيا ولو افتدى به من العذاب فى الآخرة أو المراد ولو افتدى بمثله كقوله تعالى ولو أن للذين ظلموا ما فى الأرض جميعاً ومثله معه والمثل يحذف ويراد كثيرا لأن المثلين فى حكم شيء واحد ﴿أولئك﴾ إشارة إلى المذكورين باعتبار إتصافهم بالصفات الشنيعة المذكورة ﴿لهم عذاب أليم﴾ مؤلم اسم الإشارة مبتدأ والظرف خبره ولاعتماده على المبتدأ ارتفع به عذاب أليم على الفاعلية ﴿وما لهم من ناصرين﴾ فى دفع العذاب عنهم أو فى تخفيفه ومن مزيدة للاستغراق وصيغة الجمع لمراعاة الضمير أى ليس لواحد منهم ناصر واحد .

﴿لن تنالوا البر﴾ من ناله نيلا إذا أصابه والخطاب للمؤمنين وهو كلام مستأنف سيق لبيان ما ينفع المؤمنين ويقبل منهم إثر بيان مالا ينفع الكفرة ولا يقبل منهم(١). أى لن تبلغوا حقيقة البر الذى يتنافس فيه المتنافسون ولن تدركوا شأوه ولن تلحقوا بزمرة الأبرار أولن تنالوا بر الله تعالى وهو ثوابه ورحمته ورضاه وجنته ﴿حتى تنفقوا﴾ أى فى سبيل الله عز وجل رغبة فيما عنده ومن فى قوله تعالى ﴿مما تحبون﴾ تبعيضيه ويؤيده قراءة من قرأ بعض ما تحبون وقيل بيانية وما موصولة أو موصوفة أى مما تهوون ويعجبكم من كرائم أموالكم وأحبها إليكم كما فى قوله تعالى (أنفقوا من طيبات ما كسبتم) أو مما يعمها وغيرها من الأعمال والمهج(٢) على أن المراد بالإنفاق مطلق البذل وفيه من الإيذان بعزة منال البر مالايخفى وكان السلف رضى الله عنهم إذا أحبوا شيئاً جعلوه لله عز وجل ، وروى أنها لما نزلت جاء أبو طلحة فقال يا رسول الله إن أحب أموالى إلى بيرحاء فضعها يا رسول الله حيث أراك الله فقال عليه السلام بخ بخ ذاك مال رائج أو رابح وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين فقسمها فى أقاربه وجاء زيد بن حارثة بفرس له كان يحبها فقال هذه فى

---

(١) فى ط : منهن

(٢) فى ط : والمهجة .

سبيل الله فحمل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد فكأن زيداً وجد فى نفسه وقال إنما أردت أن أتصدق بها(١) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما إن الله تعالى قد قبلها منك . قيل وفيه دلالة على أن إنفاق أحب الأموال على أقرب الأقارب أفضل وكتب عمر رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى أن يشترى له جارية من سبى جلولاء يوم فتحت مدائن كسرى فلما جاءت إليه أعجبته فقال إن الله تعالى يقول (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) فأعتقها ، وروى أن عمر بن عبد العزيز كانت لزوجته جارية بارعة الجمال وكان عمر راغبا فيها وكان قد طلبها منها مرارا فلم تعطها إياه ثم لما ولى الخلافة زينتها وأرسلتها إليه فقالت قد وهبتكها يا أمير المؤمنين فلتخدمك قال من أين ملكتها قالت جئت بها من بيت أبى عبد الملك ففتش عن كيفية تملكها إياها فقيل إنه كان على فلان العامل ديون فلما توفى أخذت من تركته ففتش عن حال العامل وأحضر ورثته وأرضاهم جميعا بإعطاء المال ثم توجه إلى الجارية وكان يهواها هوى شديدا فقال أنت حرة لوجه الله تعالى فقالت لم يا أمير المؤمنين وقد أزحت عن أمرها كل شبهة قال لست إذن ممن نهى النفس عن الهوى ﴿ وما تنفقوا من شىء ﴾ ما شرطية جازمة لتنفقوا منتصبة به على المفعولية ومن تبعيضية متعلقة بمحذوف هو صفة لاسم الشرط أى أى شىء تنفقوا كائنا من الأشياء فإن المفرد فى مثل هذا الموضع واقع موقع الجمع وقيل محل الجار والمجرور النصب على التمييز أى أى شىء تنفقوا طيبا تحبونه أو خبيثا تكرهونه .

﴿ فإن الله به عليم ﴾ تعليل لجواب الشرط واقع موقعه أى فمجازيكم بحسبه جيدا كان أو رديئا فإنه تعالى عليم بكل شىء تنفقونه علما كاملا بحيث

---

(١) ط : به .

(٢) ط : تملكه

لا يخفى عليه شيء من ذاته وصفاته وتقديم الجار والمجرور لرعاية الفواصل وفيه من الترغيب فى إنفاق الجيد والتحذير عن إنفاق الردىء مالا يخفى ﴿ كل الطعام ﴾ أى كل أفراد المطعوم أو كل أنواعه ﴿ كان حلا لبنى إسرائيل ﴾ أى حالا لهم فإن الحل مصدر نعت به ولذلك استوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث كما فى قوله تعالى (لاهن حل لهم) ﴿ إلا ما حرم إسرائيل على نفسه ﴾ استثناء متصل من اسم كان أى كان كل المطعومات حلالا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل أى يعقوب عليه السلام على نفسه وهو لحوم الإبل وألبانها ، قيل كان به وجع النسا فنذر لئن شفى لا يأكل أحب الطعام إليه وكان ذلك أحبه إليه وقيل فعل ذلك للتداوى بإشارة الأطباء واحتج به من جوز للنبى الاجتهاد وللمانع أن يقول كان ذلك بإذن من الله تعالى فيه فهو كتحريمه ابتداء ﴿ من قبل أن تنزل التوراة ﴾ متعلق بقوله تعالى كان حلا ولا ضير فى توسيط الاستثناء بينهما وقيل متعلق بحرم وفيه أن تقييد تحريمه عليه السلام بقبلية تنزيل التوراة ليس فيه مزيد فائدة أى كان ما عدا المستثنى حلالا لهم قبل أن تنزل التوراة مشتملة على تحريم ما حرم عليهم لظلمهم وبغيهم عقوبة لهم وتشديدا وهو رد على اليهود فى دعواهم البراءة عما نعى عليهم قوله تعالى (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) وقوله تعالى (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر) الآيتين بأن قالوا لسنا أول من حرمت عليه وإنما كانت محرمة على نوح وإبراهيم ومن بعدهما حتى انتهى الأمر إلينا فحرمت علينا وتبكيت لهم فى منع النسخ والطعن فى دعوى الرسول صلى الله عليه وسلم موافقته لإبراهيم عليه السلام بتحليله لحوم الإبل وألبانها .

﴿ قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ﴾ أمر عليه الصلاة والسلام بأن يحاجهم بكتابهم الناطق بأن تحريم ما حرم عليهم تحريم حادث مترتب على ظلمهم وبغيهم كلما ارتكبوا معصية من المعاصى التى اقترفوها حرم عليهم من الطيبات عقوبة لهم ويكلفهم إخراجه وتلاوته ليبكتهم ويلقمهم الحجر ويظهر كذبهم وإظهار اسم التوراة لكون الجملة كلاما مع اليهود منقطعا عما قبله وقوله تعالى :

﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أى فى دعواكم أنه تحريم قديم وجواب الشرط محذوف للدلالة المذكور عليه أى إن كنتم صادقين فأتوا بالتوراة فاتلوها فإن صدقكم مما يدعوكم إلى ذلك البتة . روى أنهم لم يجسروا على إخراج التوراة فبهتوا وانقلبوا صاغرين وفى ذلك من الحجة النيرة على صدق النبى صلى الله عليه وسلم وجواز النسخ الذى يجحدونه مالا يخفى والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها .

﴿ فمن افترى على الله الكذب ﴾ أى اختلقه عليه سبحانه بزعمه أنه حرم ما ذكر قبل نزول التوراة على بنى إسرائيل و[على](١) من تقدمهم من الأمم ﴿ من بعد ذلك ﴾ من بعد ما ذكر من أمرهم بإحضار التوراة وتلاوتها وما ترتب عليه من التبكيت والإلزام والتقييد به للدلالة على كمال القبح ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة والجمع باعتبار معناه كما أن الإفراد فى الصلة باعتبار لفظه وما فيه من معنى البعد للإشعار(٢) ببعد منزلتهم فى الضلال والطغيان أى فأولئك المصرون على الإفتراء بعد ما ظهرت حقيقة الحال وضاقت عليهم حلبة المحاجة والجدال ﴿ هم الظالمون ﴾ المفرطون فى الظلم والعدوان المبعدون فيهما والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب مسوقة من جهته تعالى لبيان كمال عتوهم وقيل هى فى محل النصب داخلة تحت القول عطفا على قوله تعالى فأتوا بالتوراة ﴿ قل صدق الله ﴾ أى ظهر وثبت صدقه تعالى فيما أنزل فى شأن التحريم وقيل فى قوله تعالى (ما كان إبراهيم يهوديا) الخ أو صدق فى كل شأن من الشئون وهو داخل فى ذلك دخولا أوليا وفيه تعريض بكذبهم الصريح ﴿ فاتبعوا ملة إبراهيم ﴾ أى ملة الإسلام التى هى فى الأصل ملة إبراهيم عليه السلام فإنكم ما كنتم متبعين لملته كما تزعمون أو فاتبعوا ملته حتى تتخلصوا من اليهودية التى اضطرتكم إلى التحريف والمكابدة وتلفيق الأكاذيب لتسوية الأغراض الدنيئة الدنيوية

---

(١) سقطت من ط .

(٢) فى ط : للايذان .

والزمتكم تحريم طيبات محللة لإبراهيم عليه السلام ومن تبعه للدلالة على أن ظهور صدقه تعالى موجب للاتباع وترك ما كانوا عليه .

﴿ حنيفا ﴾ أى مائلا عن الأديان الزائغة كلها ﴿ وما كان من المشركين ﴾ أى فى أمر من أمور دينه أصلا وفرعا وفيه تعريض بإشراك اليهود وتصريح بأنه عليه السلام ليس بينه وبينهم علاقة دينية قطعا والغرض بيان أن النبى صلى الله عليه وسلم على دين إبراهيم عليه السلام فى الأصول لأنه لا يدعو إلا إلى التوحيد والبراءة عن كل معبود سواه سبحانه وتعالى والجملة تذييل لما قبلها ﴿ إن أول بيت وضع للناس ﴾ شروع فى بيان كفرهم ببعض آخر من شعائر ملته عليه السلام إثر بيان كفرهم بكون كل المطعومات حلاله عليه السلام روى أنهم قالوا بيت المقدس أعظم من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء [ولكونه](١) فى الأرض المقدسة وقال المسلمون بل الكعبة أعظم فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت أى إن أول بيت وضع للعبادة وجعل متعبدا لهم والواضع هو الله تعالى ويؤيده القراءة على البناء للفاعل وقوله تعالى ﴿ للذى ببكة ﴾ خبر لإن وإنما أخبر بالمعرفة مع كون اسمها نكرة لتخصصها بسببين الإضافة والوصف بالجملة بعدها أى للبيت الذى ببكة أى فيها وفى ترك الموصوف من التفخيم ما لا يخفى وبكة لغة فى مكة فإن العرب تعاقب بين الباء والميم كما فى قولهم ضربة لازب ولازم والنميط والنبيط فى اسم موضع بالدهناء وقولهم أمر راتب وراتم وسبد رأسه وسمدها وأغبطت الحمى وأغمطت وهى علم للبلد الحرام من بكه إذا زحمه لازدحام الناس فيه وعن قتادة يبك الناس بعضهم بعضا أو لأنها تبك أعناق الجبابرة أى تدقها لم يقصدها جبار إلا قصمه الله عز وجل وقيل بكة اسم لبطن مكة وقيل لموضع البيت وقيل للمسجد نفسه ومكة اسم للبلد كله وأيد هذا بأن التباك وهو الازدحام إنما يقع عند الطواف وقيل مكة اسم للمسجد والمطاف وبكة اسم للبلد لقوله تعالى (للذى

---

(١) سقطت من ط .

بمكة مباركا) . روى أنه عليه السلام سئل عن أول بيت وضع للناس فقال المسجد الحرام ثم بيت المقدس وسئل كم بينهما فقال أربعون سنة وقيل أول من بناه ابراهيم عليه الصلاة والسلام وقيل آدم عليه السلام وقد استوفينا ما فيه من الأقاويل فى سورة البقرة وقيل أول بيت وضع بالشرف لا بالزمان .

﴿ مباركا ﴾ كثير الخير والنفع لما يحصل لمن حجه واعتمره واعتكف فيه(١) وطاف حوله من الثواب وتكفير الذنوب وهو حال من المستكن فى الظرف لأن التقدير للذى ببكة هو والعامل فيه ما قدر فى الظرف من فعل الاستقرار ﴿ وهدى للعالمين ﴾ لأنه قبلتهم ومتعبدهم ولأن فيه آيات عجيبة دالة على عظيم قدرته تعالى وبالغ حكمته كما قال ﴿ فيه آيات بينات ﴾ واضحات كانحراف الطيور عن موازاة البيت على مدى الأعصار ومخالطة ضوارى السباع الصيود فى الحرم من غير تعرض لها وقهر الله تعالى لكل جبار قصده بسوء كأصحاب الفيل والجملة مفسرة للهدى أو حال أخرى ﴿ مقام إبراهيم ﴾ أى أثر قدميه عليه السلام فى الصخرة التى كان عليه السلام يقوم عليها وقت رفع الحجارة لبناء الكعبة عند ارتفاعه أو عند غسل رأسه على ما روى أنه عليه السلام جاء زائراً من الشام إلى مكة فقالت له امرأة إسمعيل عليه السلام إنزل حتى أغسل رأسك فلم ينزل فجاءته بهذا الحجر فوضعته على شقه الأيمن فوضع قدمه عليه حتى غسلت شق رأسه ثم حولته إلى شقه الأيسر حتى غسلت الشق الآخر فبقى أثر قدميه عليه وهو إما مبتدأ حذف خبره أى منها مقام إبراهيم أو بدل من آيات بدل البعض من الكل أو عطف بيان إما وحده باعتبار كونه بمنزلة آيات كثيرة لظهور شأنه وقوة دلالته على قدرة الله تعالى وعلى نبوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام كقوله تعالى (إن إبراهيم كان أمة قانتا) أو باعتبار اشتماله على آيات كثيرة فإن كل واحد من أثر قدميه فى صخرة صماء وغوصه فيها إلى

---

(١) فى ط . دونه .

الكعبين وإلانة بعض الصخور دون بعض وإبقائه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام وحفظه مع كثرة الأعداء ألف سنة آية مستقلة ويؤيده القراءة على التوحيد وإما بما يفهم من قوله عز وجل .

﴿ ومن دخله كان آمنا ﴾ فإنه وإن كان جملة مستأنفة إبتدائية أو شرطية لكنها فى قوة أن يقال وأمن من دخله فتكون بحسب المعنى والمآل معطوفة على مقام إبراهيم ولايخفى أن الاثنين نوع من الجمع فيكتفى بذلك أو يحمل على أنه ذكر من تلك الآيات اثنتان وطوى ذكر ماعداهما دلالة على كثرتها ومعنى أمن داخله أمنه من التعرض له كما فى قوله تعالى (أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم) وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام (رب اجعل هذا البلد آمنا) وكان الرجل لوجر كل جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يطلب وعن عمر رضى الله عنه لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه ولذلك قال أبو حنيفة رحمة الله تعالى من لزمه القتل فى الحل بقصاص أو ردة أو زنى فالتجأ إلى الحرم لم يتعرض له إلا أنه لايؤوى ولايطعم ولا يسقى ولا يبايع حتى يضطر إلى الخروج وقيل أمنه من النار وعن النبى صلى الله عليه وسلم من مات فى أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمنا وعنه عليه الصلاة والسلام الحجون والبقيع يؤخذ بأطرافهما وينثران فى الجنة وهما مقبرتا مكة والمدينة وعن ابن مسعود رضى الله عنه وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على ثنية الحجون وليس بها يومئذ مقبرة فقال يبعث الله تعالى من هذه البقعة ومن هذا الحرم كله سبعين ألفا وجوههم كالقمر ليلة البدر يدخلون الجنة بغير حساب يشفع كل واحد منهم فى سبعين ألفا وجوههم كالقمر ليلة البدر وعن النبى صلى الله عليه وسلم من صبر على حر مكة ساعة من نهار تباعدت عنه جهنم مسيرة مائتى عام .

﴿ ولله على الناس حج البيت ﴾ جملة من مبتدأ هو حج البيت وخبر هو الله وقوله تعالى على الناس متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار أو بمحذوف هو

حال من الضمير المستكن فى الجار والعامل فيه ذلك الاستقرار ويجوز أن يكون على الناس هو الخبر والله متعلق بما تعلق به الخبر ولا سبيل إلى أن يتعلق بمحذوف هو حال من الضمير المستكن فى على الناس لاستلزامه تقديم الحال على العامل المعنوى وذلك مما لا مساغ له عند الجمهور وقد جوزه ابن مالك إذا كانت هى ظرفا أو حرف جر وعاملها كذلك بخلاف الظرف وحرف الجر فإنهما يتقدمان على عاملهما المعنوى واللام فى البيت للعهد وحجه قصده للزيارة على الوجه المخصوص المعهود وكسر الحاء لغة نجد وقيل هو اسم المصدر وقرىء بفتحها ﴿ من استطاع إليه سبيلا ﴾ فى محل الجر على أنه بدل من الناس بدل البعض من الكل مخصص لعمومه فالضمير العائد إلى المبدل منه محذوف أى من استطاع منهم وقيل بدل الكل على أن المراد بالناس هو البعض المستطيع فلا حاجة إلى الضمير وقيل فى محل الرفع على أنه خبر مبتدأ مضمر أى هم من استطاع الخ وقيل فى حيز النصب بتقدير أعنى وقيل كلمة من شرطية والجزاء محذوف لدلالة المذكور عليه وكذا العائد إلى الناس أى من استطاع منهم إليه سبيلا فلله عليه حج البيت وقد رجح هذا بكون ما بعده شرطية والضمير المجرور فى إليه راجع إلى البيت أو إلى حج والجار متعلق بالسبيل قدم عليه اهتماما بشأنه كما فى قوله عز وجل (فهل إلى خروج من سبيل) و(هل إلى مرد من سبيل) لما فيه من معنى الإفضاء والإيصال كيف لا وهو عبارة عن الوسيلة من مال أو غيره فإنه قد روى أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال السبيل الزاد والراحلة وروى ابن عمر رضى الله عنهما أن رجلا قال يا رسول الله ما السبيل قال الزاد والراحلة وهو المراد بما روى أنه عليه السلام فسر الاستطاعة بالزاد والراحلة وهكذا روى عن ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهم وعليه أكثر العلماء خلا أن الشافعى أخذ بظاهره فأوجب الاستنابة على الزمن القادر على أجرة من ينوب عنه والظاهر أن عدم تعرضه عليه السلام لصحة البدن لظهور الأمر كيف لا والمفسر فى الحقيقة هو السبيل الموصل لنفس المستطيع إلى البيت وذا لا يتصور بدون الصحة وعن ابن الزبير أنه على قدرة القوة

ومذهب مالك أن الرجل إذا وثق بقوته لزمه وعنه ذلك على قدر الطاقة وقد يجد الزاد والراحلة من لا يقدر على السفر وقد يقدر عليه من لا راحلة له ولا زاد وعن الضحاك أنه إذا قدر أن يؤجر نفسه فهو مستطيع .

﴿ومن كفر﴾ وضع من كفر موضع من لم يحج تأكيداً لوجوبه وتشديد [النكير](١) على تاركه ولذلك قال عليه السلام من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا أو نصرانيا وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه عليه السلام قال فى خطبته أيها الناس إن الله فرض الحج على من استطاع إليه سبيلا ومن لم يفعل فليمت على أى حال شاء يهوديا أو نصرانيا أو مجوسيا ﴿فإن الله غنى عن العالمين﴾ وعن عبادتهم وحيث كان من كفر من جملتهم داخلا فيها دخولا أوليا اكتفى بذلك عن الضمير الرابط بين الشرط والجزاء ولقد حازت الآية الكريمة من فنون الاعتبارات المعربة عن كمال الاعتناء بأمر الحج والتشديد على تاركه ما لا مزيد عليه حيث أوثرت صيغة الخبر الدالة على التحقق وأبرزت فى صورة الجملة الاسمية الدالة على الثبات والاستمرار على وجه يفيد أنه حق واجب لله سبحانه فى ذمم الناس لا انفكاك لهم عن أدائه والخروج عن عهدته وسلك بهم مسلك التعميم ثم التخصيص والإبهام ثم التبيين والإجمال ثم التفصيل لما فى ذلك من مزيد تحقيق وتقرير وعبر عن تركه بالكفر الذى لا قبيح وراءه وجعل جزاؤه استغناءه تعالى المؤذن بشدة المقت وعظم السخط لا عن تاركه فقط فإنه قد ضرب عنه صفحا إسقاطا له عن درجة الاعتبار واستهجانا بذكره بل عن جميع العالمين ممن فعل وترك ليدل على نهاية شدة الغضب . هذا وقال ابن عباس والحسن وعطاء رضى الله تعالى عنهم ومن كفر أى جحد فرض الحج وزعم أنه ليس بواجب وعن سعيد بن المسيب نزلت فى اليهود فإنهم قالوا الحج إلى مكة غير واجب وروى أنه لما نزل قوله تعالى (ولله على الناس حج البيت) جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الأديان كلهم فخطبهم فقال إن الله كتب عليكم

---

(١) سقط من ط .

الحج فحجوا فآمنت به ملة واحدة وهم المسلمون وكفرت به خمس ملل قالوا لا نؤمن به ولا نصلى إليه ولا نحجه فنزل ومن كفر وعن النبى صلى الله عليه وسلم حجوا قبل أن لا تحجوا فإنه قد هدم البيت مرتين ويرفع إلى السماء فى الثالثة وروى حجوا قبل أن يمنع البر جانبه وعن ابن مسعود حجوا هذا البيت قبل أن ينبت فى البادية شجرة لا تأكل منها دابة إلا نفقت وعن عمر رضى الله عنه لو ترك الناس الحج عاما واحدا ما نوظروا .

﴿قل يا أهل الكتاب﴾ هم اليهود والنصارى وإنما خوطبوا بعنوان أهلية الكتاب الموجبة للإيمان به وبما يصدقه من القرآن العظيم مبالغة فى تقبيح حالهم فى كفرهم بها وقوله عز وجل ﴿لم تكفرون بآيات الله﴾ توبيخ وإنكار لأن يكون لكفرهم بها سبب من الأسباب وتحقيق لما يوجب الاجتناب عنه بالكلية والمراد بآياته تعالى ما يعم الآيات القرآنية التى من جملتها ما تلى فى شأن الحج وغيره وما فى التوراة والإنجيل من شواهد نبوته عليه السلام وقوله تعالى ﴿والله شهيد على ما تعملون﴾ حال من فاعل تكفرون مفيدة لتشديد التوبيخ وتأكيد الإنكار وإظهار الجلالة فى موقع الإضمار لتربية المهابة وتهويل الخطب وصيغة المبالغة فى شهيد للتشديد فى الوعيد وكلمة ما إما عبارة عن كفرهم أو هى على عمومها وهو داخل فيها دخولا أوليا والمعنى لأى سبب تكفرون بآياته عز وعلا(١) والحال أنه تعالى مبالغ فى الاطلاع على جميع أعمالكم وفى مجازاتكم عليها ولا ريب فى أن ذلك يسد جميع أنحاء ما تأتونه ويقطع أسبابه بالكلية ﴿قل يا أهل الكتاب﴾ أمر بتوبيخهم بالإضلال إثر توبيخهم بالضلال والتكرير للمبالغة فى حمله عليه السلام على تقريعهم وتوبيخهم وترك عطفه على الأمر السابق للإيذان باستقلالهم كما أن قطع قوله تعالى ﴿لم تصدون﴾ عن قوله تعالى (لم تكفرون) للإشعار بأن كل واحد من كفرهم وصدهم شناعة على حيالها مستقلة فى استتباع اللائمة والتقريع وتكرير الخطاب بعنوان أهلية الكتاب

---

(١) فى ط : وجل .

لتأكيد الاستقلال وتشديد التشنيع فإن ذلك العنوان كما يستدعى الإيمان بما هو مصدق لما معهم يستدعى ترغيب الناس فيه فصدهم عنه فى أقصى مراتب القباحة ولكون صدهم فى بعض الصور بتحريف الكتاب والكفر بالآيات الدالة على نبوته عليه السلام وقرىء تصدون من أصده .

﴿عن سبيل الله﴾ أى دينه الحق الموصل إلى السعادة الأبدية وهو التوحيد وملة الإسلام ﴿من آمن﴾ مفعول لتصدون قدم عليه الجار والمجرور للاهتمام به. كانوا يفتنون المؤمنين ويحتالون لصدهم عنه ويمنعون من أراد الدخول فيه بجهدهم ويقولون إن صفته عليه السلام ليست فى كتابهم ولا تقدمت البشارة به عندهم وقيل أتت اليهود الأوس والخزرج فذكروهم ما كان بينهم فى الجاهلية من العداوات والحروب ليعودوا إلى ما كانوا فيه ﴿تبغونها﴾ على إسقاط الجار وإيصال الفعل إلى الضمير كما فى قوله :

فتولى غلامهم ثم نادى أظليما أصيدكم أم حمارا

بمعنى أصيد لكم أى تطلبون لسبيل الله التى هى أقوم السبل ﴿عوجا﴾ اعوجاجا بأن تلبسوا على الناس وتوهموا أن فيه ميلا عن الحق بنفى النسخ وتغيير صفة الرسول صلى الله عليه وسلم عن وجهها ونحو ذلك والجملة حال من فاعل تصدون وقيل من سبيل الله ﴿وأنتم شهداء﴾ حال من فاعل تصدون باعتبار تقييده بالحال الأولى أو من فاعل تبغونها أى والحال أنكم شهداء تشهدون بأنها سبيل الله لا يحوم حولها شائبة اعوجاج وأن الصد عنها إضلال قال ابن عباس رضى الله عنهما أى شهداء [على](١) أن فى التوراة إن دين الله الذى لا يقبل غيره هو الإسلام أو وأنتم عدول فيما بينكم يثقون بأقوالكم ويستشهدونكم فى القضايا وعظائم الأمور ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ اعتراض تذييلى فيه تهديد ووعيد شديد قيل لما كان صدهم للمؤمنين بطريق الخفية ختمت الآية الكريمة بما يحسم

---

(١) سقط من ط .

مادة حيلتهم من إحاطة علمه تعالى بأعمالهم كما أن كفرهم بآيات الله تعالى لما كان بطريق العلانية ختمت الآيه السابقة بشهادته تعالى على ما يعملون .

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى المؤمنين تحذيرا لهم عن طاعة أهل الكتاب والافتتان بفتنتهم إثر توبيخهم بالإغواء والإضلال ردعا لهم عن ذلك وتعليق الرد بطاعة فريق منهم للمبالغة فى التحذير عن طاعتهم وإيجاب الاجتناب عن مصاحبتهم بالكلية فإنه فى قوة أن يقال لا تطيعوا فريقا الخ كما أن تعميم التوبيخ فيما قبله للمبالغة فى الزجر أو للمحافظة على سبب النزول فإنه روى أن نفرا من الأوس والخزرج كانوا جلوسا يتحدثون فمر بهم شاس بن قيس اليهودى وكان عظيم الكفر شديد الحسد للمسلمين فغاظه ما رأى منهم من تآلف القلوب واتحاد الكلمة واجتماع الرأى بعد ما كان بينهم ما كان من العداوة والشنآن فأمر شابا يهوديا كان معه بأن يجلس إليهم ويذكرهم يوم بعاث وكان ذلك يوما عظيما اقتتل فيه الحيان وكان الظفر فيه للأوس وينشدهم ماقيل فيه من الأشعار ففعل فتفاخر القوم وتغاضبوا حتى تواثبوا وقالوا السلاح السلاح فاجتمع من القبيلتين خلق عظيم فعند ذلك جاءهم النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقال أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله تعالى بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم فعلموا أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم فألقوا السلاح واستغفروا وعانق بعضهم بعضا وانصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الإمام الواحدى اصطفوا للقتال فنزلت الآية إلى قوله تعالى (لعلكم تهتدون) فجاء النبى صلى الله عليه وسلم حتى قام بين الصفين فقرأهن ورفع صوته فلما سمعوا صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم أنصتوا له وجعلوا يستمعون له فلما فرغ ألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضا وجعلوا يبكون وقوله تعالى كافرين إما مفعول ثان ليردوكم على تضمين الرد معنى التصيير كما فى قوله :

رمى الحدثان نسوة آل سعد   بمقدار سمدن له سمودا
فرد شعورهن السود بيضا   ورد وجوههن البيض سودا

أو حال من مفعوله والأول أدخل فى تنزيه المؤمنين عن نسبتهم إلى الكفر لما فيه من التصريح بكون الكفر المفروض بطريق القسر وإيراد الظرف مع عدم الحاجة إليه ضرورة سبق الخطاب بعنوان المؤمنين واستحالة تحقق الرد إلى الكفر بدون سبق الإيمان مع توسيطه بين المفعولين لإظهار كمال شناعة الكفر وغاية بعده من الوقوع إما لزيادة قبحه الصارف العاقل عن مباشرته أو لممانعة الإيمان له كأنه قيل بعد إيمانكم الراسخ وفيه من تثبيت المؤمنين ما لا يخفى.

﴿ وكيف تكفرون ﴾ استفهام إنكارى بمعنى إنكار الوقوع كما فى قوله تعالى (كيف يكون للمشركين عهد) الخ لا بمعنى إنكار الواقع كما فى قوله تعالى (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا) الخ وفى توجيه الإنكار والاستبعاد إلى كيفية الكفر من المبالغة ما ليس فى توجيهه إلى نفسه بأن يقال أتكفرون لأن كل موجود لا بد أن يكون وجوده على حال من الأحوال فإذا أنكر ونفى جميع أحوال وجوده فقد انتفى وجوده بالكلية على الطريق البرهانى وقوله تعالى ﴿ وأنتم تتلى عليكم آيات الله ﴾ جملة وقعت حالا من ضمير المخاطبين فى تكفرون مؤكدة للإنكار والاستبعاد بما فيها من الشئون الداعية إلى الثبات على الإيمان الرادعة (١) عن الكفر وقوله تعالى ﴿ وفيكم رسوله ﴾ معطوف عليها داخل فى حكمها فإن تلاوة آيات الله تعالى عليهم وكون رسوله عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم بتحقيق الحق وإزاحة الشبه من أقوى الزواجر عن الكفر وعدم إسناد التلاوة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم للإيذان باستقلال كل منهما فى الباب .

﴿ ومن يعتصم بالله ﴾ أى ومن يتمسك بدينه الحق الذى بينه على

---

(١) فى ط : الوازعة .

لسان رسوله عليه الصلاة والسلام وهو الإسلام والتوحيد المعبر عنه فيما سبق بسبيل الله ﴿ فقد هدى ﴾ جواب للشرط وقد لإفادة معنى التحقيق كأن الهدى قد حصل فهو يخبر عنه حاصلا ومعنى التوقع فيه ظاهر فإن المعتصم به تعالى متوقع للهدى كما أن قاصد الكريم متوقع للندى ﴿إلى صراط مستقيم﴾ موصل إلى المطلوب والتنوين للتفخيم والوصف بالاستقامة للتصريح بالرد على الذين يبغون له عوجا وهذا وإن كان هو دينه الحق فى الحقيقة والاهتداء إليه هو الاعتصام به بعينه لكن لما اختلف الاعتباران وكان العنوان الأخير مما يتنافس فيه المتنافسون أبرز فى معرض الجواب للحث والترغيب على طريقة قوله تعالى (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ تكرير الخطاب بعنوان الإيمان تشريف إثر تشريف .

خصائص الإسلام

﴿اتقوا الله﴾ الاتقاء افتعال من الوقاية وهى فرط الصيانة ﴿حق تقاته﴾ أى حق تقواه وما يجب منها وهو استفراغ الوسع فى القيام بالمواجب والاجتناب عن المحارم كما فى قوله تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) وعن ابن مسعود رضى الله عنه هو أن يطاع ولا يعصى ويذكر ولا ينسى ويشكر ولا يكفر وقد روى مرفوعا إليه عليه السلام وقيل هو أن لا تأخذه فى الله لومة لائم ويقوم بالقسط ولو على نفسه أو ابنه أو أبيه وقيل وهو أن ينزه الطاعة عن الالتفات(١) إليها وعن توقع المجازاة وقد مر تحقيق الحق فى ذلك عند قوله عز وجل ﴿هدى للمتقين﴾ والتقاة من اتقى كالتؤدة من اتأد وأصلها وقية قلبت واوها المضمومة تاء كما فى تهمة وتخمة وياؤها المفتوحة ألفا .

﴿ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ أى مخلصون نفوسكم لله تعالى لا تجعلون فيها شركة لما سواه أصلا كما فى قوله تعالى (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله)

---

(١) أى لا يرى نفسه طائعا إلا بتوفيق الله تعالى ولا يلتفت إلى عمله مجردا عن هذا المعنى .

وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى لا تموتن على حال من الأحوال إلا حال تحقق إسلامكم وثباتكم عليه كما تنبىء عنه الجملة الاسمية ولو قيل إلا مسلمين لم يفد بفائدتها والعامل فى الحال ما قبل إلا بعد النقض وظاهر النظم الكريم وإن كان نهيا عن الموت المقيد بقيد هو الكون على أى حال غير حال الإسلام لكن المقصود هو النهى عن ذلك القيد عند الموت المستلزم للأمر بضده الذى هو الكون على حال الإسلام حينئذ وحيث كان الخطاب للمؤمنين كان المراد إيجاب الثبات على الإسلام إلى الموت وتوجيه النهى إلى الموت للمبالغة فى النهى عن قيده المذكور فإن النهى عن المقيد فى أمثاله نهى عن القيد ورفع له من أصله بالكلية مفيد لما لا يفيده النهى عن نفس القيد فإن قولك لا تصل إلا وأنت خاشع يفيد من المبالغة فى إيجاب الخشوع فى الصلاة ما لا يفيده قولك لا تترك الخشوع فى الصلاة لما أن هذا نهى عن ترك الخشوع فقط وذاك نهى عنه وعما يقارنه ومفيد لكون الخشوع هو العمدة فى الصلاة وأن الصلاة بدونه حقها أن لا تفعل وفيه نوع تحذير عما وراء الموت وقوله عز وجل .

﴿ واعتصموا بحبل الله ﴾ أى بدين الاسلام أو بكتابه لقوله عليه الصلاة والسلام القرآن حبل الله المتين لا تنقضى عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد من قال به صدق ومن عمل به رشد ومن اعتصم به هدى إلى صراط مستقيم إما تمثيل للحالة الحاصلة من استظهارهم به ووثوقهم بحمايته بالحالة الحاصلة من تمسك المتدلى من مكان رفيع بحبل وثيق مأمون الانقطاع من غير اعتبار مجاز فى المفردات وإما استعارة للحبل لما ذكر من الدين أو الكتاب أو الاعتصام ترشيح لها أو مستعار للوثوق به والاعتماد عليه ﴿ جميعا ﴾ حال من فاعل اعتصموا أى مجتمعين فى الاعتصام ﴿ ولا تفرقوا ﴾ أى لا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كأهل الكتاب أو كما كنتم متفرقين فى الجاهلية يحارب بعضكم بعضا أو لا تحدثوا ما يوجب التفرق(١) ويزيل الألفة التى أنتم عليها ﴿ واذكروا

---

(١) وهى البدع التى فرقت الأمة إلى طوائف وشيع يحكمها الهوى ، وقد حدث ذلك فى القرن الثانى الهجرى ، واشتد خطره ، ثم ضعفت تلك الأهواء وتلاشت تقريبا .

نعمة الله ﴾ مصدر مضاف إلى الفاعل وقوله تعالى ﴿ عليكم ﴾ متعلق به أو بمحذوف وقع حالا منه وقوله تعالى ﴿ إذ كنتم ﴾ ظرف له أو للاستقرار فى عليكم أى اذكروا إنعامه عليكم أو اذكروا إنعامه مستقراً عليكم وقت كونكم ﴿ أعداء ﴾ فى الجاهلية بينكم الإحن والعداوات والحروب المتواصلة وقيل هم الأوس والخزرج كانا أخوين لأب وأم فوقعت بين أولادهما العداوة والبغضاء وتطاولت الحروب فيما بينهم مائة وعشرين سنة ﴿ فألف بين قلوبكم ﴾ بتوفيقكم للإسلام ﴿ فأصبحتم ﴾ أى فصرتم ﴿ بنعمته ﴾ التى هى ذلك التأليف ﴿ إخوانا ﴾ خبر أصبحتم أى إخوانا متحابين مجتمعين على الأخوة فى الله متراحمين متناصحين متفقين على كلمة الحق وقيل معنى فأصبحتم فدخلتم فى الصباح فالباء حينئذ متعلقة بمحذوف وقع حالا من الفاعل وكذا إخوانا أى فأصبحتم ملتبسين حال كونكم إخوانا .

﴿ وكنتم على شفا حفرة من النار ﴾ شفا الحفرة وشفتها حرفها أى كنتم مشرفين على الوقوع فى نار جهنم لكفركم إذ لو أدرككم الموت على تلك الحالة لوقعتم فيها ﴿ فأنقذكم ﴾ بأن هداكم للإسلام ﴿ منها ﴾ الضمير للحفرة أو للنار أو للشفا والتأنيث للمضاف إليه كما فى قوله :

* كما شرقت صدر القناة من الدم *

أو لأنه بمعنى الشفة فإن شفا البئر وشفتها جانبها كالجانب والجانبة وأصله شفو قلبت الواو ألفا فى المذكر وحذفت فى المؤنث ﴿ كذلك ﴾ إشارة إلى مصدر الفعل الذى بعده وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجة المشار اليه وبعد منزلته فى الفضل وكمال تميزه به عما عداه وانتظامه بسببه فى سلك الأمور المشاهدة ، والكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة ومحلها النصب على أنها صفة لمصدر محذوف أى مثل ذلك التبيين الواضح ﴿ يبين الله لكم آياته ﴾ أى دلائله ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ طلبا لثباتكم على الهدى وازديادكم فيه .

﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ﴾ أمرهم الله سبحانه بتكميل الغير وإرشاده إثر أمرهم بتكميل النفس وتهذيبها بما قبله من الأوامر والنواهي تثبيتا للكل على مراعاة ما فيها من الأحكام بأن يقوم بعضهم بمواجبها ويحافظ على حقوقها وحدودها ويذكرها الناس كافة ويردعهم عن الإخلال بها والجمهور على إسكان لام الأمر وقرىء بكسرها على الأصل وهو من كان التامة ومن تبعيضية متعلقة بالأمر أو بمحذوف وقع حالا من الفاعل وهو أمة ويدعون صفتها أي لتوجد منكم أمة داعية إلى الخير والأمة هي الجماعة التي يؤمها فرق الناس أي يقصدونها ويقتدون بها أو من الناقصة وأمة اسمها ويدعون خبرها أي لتكن منكم أمة داعين إلى الخير وأياما كان فتوجيه الخطاب إلى الكل مع إسناد الدعوة إلى البعض لتحقيق معنى فرضيتها على الكفاية وأنها واجبة على الكل لكن بحيث إن أقامها البعض سقطت عن الباقين ولو أخل بها الكل أثموا جميعا لا بحيث يتحتم على الكل إقامتها على ما ينبىء عنه قوله عز وجل ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ الآية ولأنها من عظائم الأمور وعزائمها التي لا يتولاها إلا العلماء بأحكامه تعالى ومراتب الاحتساب وكيفية إقامتها فإن من لا يعلمها يوشك أن يأمر بمنكر وينهى عن معروف ويغلظ في مقام اللين ويلين في مقام الغلظة وينكر على من لا يزيده الإنكار إلا التمادي والإصرار وقيل من بيانية كما في قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم) الآية والأمر من كان الناقصة والمعنى كونوا أمة تدعون الآية كقوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) الآية ولا يقتضي ذلك كون الدعوة فرض عين فإن الجهاد من فروض الكفاية مع ثبوته بالخطاب العام(١) والدعاء إلى الخير عبارة عن الدعاء إلى ما فيه صلاح ديني أو دنيوي فعطف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عليه بقوله تعالى :

---

(١) في ١٠ : الأعم .

﴿ ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ مع اندراجهما فيه من باب عطف الخاص على العام لإظهار فضلهما وعلوهما(١) على سائر الخيرات كعطف جبريل وميكال على الملائكة عليهم السلام وحذف المفعول الصريح من الأفعال الثلاثة إما للإيذان بظهوره أى يدعون الناس ويأمرونهم وينهونهم وإما القصد إلى إيجاد نفس الفعل كما فى قولك فلان يعطى ويمنع أى يفعلون الدعاء إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴿ وأولئك ﴾ إشارة إلى الأمة المذكورة باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت الفاضلة وكمال تميزهم بذلك عن عداهم وانتظامهم بسببه فى سلك الأمور المشاهدة وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم فى الفضل والإفراد فى كاف الخطاب إما لأن المخاطب كل من يصلح للخطاب وإما لأن التعيين غير مقصود أى أولئك الموصوفون بتلك الصفات الكاملة ﴿ هم المفلحون ﴾ أى هم الأحقاء بكمال الفلاح وهم ضمير فصل يفصل بين الخبر والصفة ويؤكد النسبة ويفيد اختصاص المسند بالمسند إليه أو مبتدأ خبره المفلحون والجملة خبر لأولئك وتعريف المفلحون إما للعهد أو للإشارة إلى ما يعرفه كل أحد من حقيقة المفلحين .

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن خير الناس فقال : « آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلهم للرحم » وعنه عليه السلام « من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله فى أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه » وعنه عليه السلام « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذابا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجاب لكم » وعن على رضى الله عنه « أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومن شنأ الفاسقين(٢) وغضب لله غضب الله له » والأمر بالمعروف فى الوجوب والندب تابع للمأمور به وأما النهى عن المنكر فواجب

---

(١) فى ط : وإنافتهما ، والمعنى واحد .

(٢) شنأ الفاسقين أى أبغضهم .

كله فإن جميع ما أنكره الشرع حرام(١) والعاصى يجب عليه النهى عما ارتكبه إذ يجب عليه تركه وإنكاره فلا يسقط بترك أحدهما وجوب شىء منهما والتوبيخ فى قوله تعالى ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾ إنما هو على نسيان أنفسهم لا على أمرهم بالبر وعن السلف مروا بالخير وإن لم تفعلوا ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا ﴾ هم أهل الكتابين حيث تفرقت اليهود فرقا والنصارى فرقا ﴿ واختلفوا ﴾ باستخراج التأويلات الزائغة وكتم الآيات الناطقة وتحريفها بما أخلدوا إليه من حطام الدنيا الدنيئة ﴿ من بعد ما جاءهم البينات ﴾ أى الآيات الواضحة المبينة للحق للاتفاق عليه واتحاد الكلمة فالنهى متوجه إلى المتصدين للدعوة أصالة وإلى أعقابهم تبعا ويجوز تعميم الموصول للمختلفين من الأمم السالفة المشار إليهم بقوله عز وجل ﴿ وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات ﴾ وقيل هم المبتدعة من هذه الأمة وقيل هم الحرورية(٢) وعلى كل تقدير فالمنهى عنه إنما هو الاختلاف فى الأصول دون الفروع إلا أن يكون مخالفا للنصوص البينة أو الإجماع لقوله عليه الصلاة والسلام «اختلاف أمتى رحمة» وقوله عليه السلام «من اجتهد فأصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر واحد» .

﴿وأولئك﴾ إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بما فى حيز الصلة وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿لهم﴾ خبره وقوله تعالى ﴿عذاب عظيم﴾ مرتفع بالظرف على الفاعلية لاعتماده على المبتدأ أو مبتدأ والظرف خبره والجملة خبر للمبتدأ الأول وفيه من التأكيد والمبالغة فى وعيد المتفرقين والتشديد فى تهديد المشبهين بهم ما لا يخفى ﴿يوم تبيض وجوه﴾ أى وجوه كثيرة وقرىء تبياض ﴿وتسود وجوه﴾ كثيرة وقرىء تسواد وعن عطاء تبيض وجوه المهاجرين والأنصار وتسود وجوه بنى قريظة والنضير ويوم منصوب على أنه ظرف للاستقرار فى

---

(١) وهذا الأمر يكتسب الصفة العالمية من عالمية دعوة الإسلام فليس خاصا بالنهى فى مجتمع المسلمين وحدهم .

(٢) لا داعى للتخصيص فكل من أحدث فى الإسلام بدعة فهو داخل فى هذا النوع

لهم أى لثبوت العذاب العظيم لهم أو على أنه مفعول لمضمر خوطب به المؤمنون تحذيرا لهم عن عاقبة التفرق بعد مجىء البينات وترغيبا فى الاتفاق على التمسك بالدين أى اذكروا يوم تبيض الخ وبياض الوجه وسواده كنايتان عن ظهور بهجة السرور وكآبة الخوف فيه وقيل يوسم أهل الحق ببياض الوجه والصحيفة وإشراق البشرة وسعى النور بين يديه وبيمينه وأهل الباطل بأضداد ذلك ﴿فأما الذين اسودت وجوههم﴾ تفصيل لأحوال الفريقين بعد الإشارة إليها إجمالا وتقديم بيان هؤلاء لما أن المقام مقام التحذير عن التشبه بهم مع ما فيه من الجمع بين الإجمال والتفصيل والإفضاء إلى ختم الكلام بحسن حال المؤمنين كما بدىء بذلك عند الإجمال ﴿أكفرتم بعد إيمانكم﴾ على إرادة القول أى فيقال لهم ذلك والهمزة للتوبيخ والتعجيب من حالهم والظاهر أنهم أهل الكتابين وكفرهم بعد إيمانهم كفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد إيمان أسلافهم أو إيمان أنفسهم به قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام أو جميع الكفرة حيث كفروا بعد ما أقروا بالتوحيد يوم الميثاق أو بعد ما تمكنوا من الإيمان بالنظر الصحيح والدلائل الواضحة والآيات البينة وقيل المرتدون وقيل أهل البدع والأهواء والفاء فى قوله عز وعلا .

﴿فذوقوا العذاب﴾ أى العذاب المعهود الموصوف بالعظم للدلالة على أن الأمر بذوق العذاب على طريق الإهانة مترتب على كفرهم المذكور كما أن قوله تعالى ﴿بما كنتم تكفرون﴾ صريح فى أن نفس الذوق معلل بذلك والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على استمرار كفرهم أو على مضيه فى الدنيا ﴿وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله﴾ أعنى الجنة والنعيم المخلد عبر عنها بالرحمة تنبيها على أن المؤمن وإن استغرق عمره فى طاعة الله تعالى فإنه لا يدخل الجنة إلا برحمته تعالى وقرىء ابياضت كما قرىء اسوادت ﴿هم فيها خالدون﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من السياق كأنه قيل كيف يكونون فيها فقيل هم فيها خالدون لا يظعنون عنها ولا يموتون وتقديم الظرف للمحافظة على رؤس الآى ﴿تلك﴾ إشارة إلى الآيات المشتملة على تنعيم الأبرار

وتعذيب الكفار ومعنى البعد للإيذان بعلو شأنها وسمو مكانها فى الشرف وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿ آيات الله ﴾ خبره وقوله تعالى ﴿ نتلوها ﴾ جملة حالية من الآيات والعامل فيها معنى الإشارة أو هى الخبر وآيات الله بدل من اسم الإشارة والالتفات إلى التكلم بنون العظمة مع كون التلاوة على لسان جبريل عليه السلام لإبراز كمال العناية بالتلاوة وقرىء يتلوها على إسناد الفعل إلى ضميره تعالى وقوله تعالى ﴿عليك﴾ متعلق بنتلوها وقوله تعالى ﴿الحق﴾ حال مؤكدة من فاعل نتلوها أو من مفعوله أى متلبسين أو [التلاوة](١) متلبسة بالحق والعدل ليس فى حكمها شائبة جور بنقص ثواب المحسن أو بزيادة عقاب المسىء أو بالعقاب من غير جرم بل كل ذلك موفى لهم حسب استحقاقهم بأعمالهم بموجب الوعد والوعيد وقوله ﴿ وما الله يريد ظلما للعالمين ﴾ تذييل مقرر لمضمون ماقبله على أبلغ وجه وآكده فإن تنكير الظلم وتوجيه النفى إلى إرادته بصيغة المضارع دون نفسه وتعليق الحكم بآحاد الجمع المعروف والالتفات إلى الاسم الجليل إشعارا بعلة الحكم وبيان لكمال نزاهته عز وجل عن الظلم بما لا مزيد عليه أى ما يريد فرداً من أفراد الظلم لفرد من أفراد العالمين فى وقت من الأوقات فضلا عن أن يظلمهم فإن المضارع كما يفيد الاستمرار فى الإثبات يفيده فى النفى بحسب المقام كما أن الجملة الاسمية تدل بمعرفة المقام على دوام الثبوت وعند دخول حرف النفى تدل على دوام الانتفاء لا على انتفاء الدوام وفى سبك الجملة نوع إيماء إلى التعريض بأن الكفرة هم الظالمون ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد كما فى قوله تعالى (إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون) .

﴿ولله ما فى السموات وما فى الأرض﴾ أى له تعالى وحده من غير شركة أصلا ما فيهما من المخلوقات الفائتة للحصر ملكا وخلقا إحياء وإماتة وإثابة وتعذيبا وإيراد كلمة ما إما لتغليب غير العقلاء وإما لتنزيلهم منزلة غيرهم إظهارا

---

(١) سقطت من ط .

لحقارتهم فى مقام بيان عظمته تعالى ﴿ وإلى الله ﴾ أى إلى حكمه وقضائه لا إلى غيره شركة أو استقلالا ﴿ ترجع الأمور ﴾ أى أمورهم فيجازى كلا منهم بما وعد له وأوعده من غير دخل فى ذلك لأحد قط فالجملة مقررة لمضمون ما ورد فى جزاء الفريقين وقيل هى معطوفة على ما قبلها مقررة لمضمونه فإن كون العالمين عبيده تعالى ومخلوقه ومرزوقه يستدعى إرادة الخير بهم ﴿ كنتم خير أمة ﴾ كلام مستأنف سيق لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الاتفاق على الحق والدعوة إلى الخير وكنتم من كان الناقصة التى تدل على تحقق شىء بصفة فى الزمان الماضى من غير دلالة على عدم سابق أو لاحق كما فى قوله تعالى وكان الله غفورا رحيما وقيل كنتم كذلك فى علم الله تعالى أو فى اللوح أو فيما بين الأمم السالفة وقيل معناه أنتم خير أمة ﴿ أخرجت للناس ﴾ صفة لأمة واللام متعلقة بأخرجت أى أظهرت لهم وقيل بخير أمة أى كنتم خير الناس للناس فهو صريح فى أن الخيرية بمعنى النفع للناس وإن فهم ذلك من الإخراج لهم أيضا أى أخرجت لأجلهم ومصلحتهم قال أبو هريرة رضى الله عنه معناه كنتم خير الناس للناس تأتون بهم فى السلاسل فتدخلونهم فى الإسلام وقال قتادة هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم لم يؤمر نبى قبله بالقتال فهم يقاتلون الكفار فيدخلونهم فى الإسلام فهم خير أمة للناس .

﴿ تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ استئناف مبين لكونهم خير أمة كما يقال زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بمصالحهم أو خبر ثان لكنتم وصيغة المستقبل للدلالة على الاستمرار وخطاب المشافهة وإن كان خاصا بمن شاهد الوحى من المؤمنين لكن حكمه عام للكل قال ابن عباس رضى الله عنهما يريد أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقال الزجاج أصل هذا الخطاب لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعم سائر أمته وروى الترمذى عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى قوله تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس أنتم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله تعالى وظاهر أن المراد بكل أمة أوائلهم وأواخرهم

لا أوائلهم فقط فلا بد أن تكون أعقاب هذه الأمة أيضا داخلة فى الحكم وكذا الحال فيما روى أن مالك بن الصيف ووهب بن يهوذا اليهوديين مرا بنفر من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فيهم ابن مسعود وأبى بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى حذيفة رضوان الله عليهم فقالا لهم نحن أفضل منكم وديننا خير مما تدعوننا إليه . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما كنتم خير أمة الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وروى عن الضحاك أنهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة الرواة والدعاة الذين أمر الله المسلمين بطاعتهم .

﴿ وتؤمنون بالله ﴾ أى إيمانا متعلقا بكل ما يجب أن يؤمن به من رسول وكتاب وحساب وجزاء وإنما لم يصرح به تفصيلا لظهور أنه الذى يؤمن به المؤمنون وللإيذان بأنه هو الإيمان بالله تعالى حقيقة وأن ما خلا عن شىء من ذلك كإيمان أهل الكتاب ليس من الإيمان بالله(١) تعالى فى شىء قال تعالى : (ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا) وإنما أخر ذلك عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع تقدمه عليهما وجودا ورتبة لأن دلالتهما على خيريتهم للناس أظهر من دلالته عليها وليقترن به قوله تعالى .

أهل الكتاب والإسلام

﴿ ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم ﴾ أى لو آمنوا كإيمانكم لكان ذلك خيرا لهم مما هم عليه من الرياسة واستتباع العوام ولازدادت رياستهم وتمتعهم بالحظوظ الدنيوية مع الفوز بما وعدوه على الإيمان من إيتاء الأجر مرتين وقيل مما هم فيه من الكفر فالخيرية إنما هى باعتبار زعمهم وفيه ضرب تهكم بهم وإنما لم يتعرض للمؤمن به أصلا للإشعار بظهور أنه الذى يطلق

---

(١) فى ظ : به تعالى .

عليه اسم الإيمان لايذهب الوهم إلى غيره ولو فصل المؤمن به ههنا أو فيما قبل لربما فهم أن لأهل الكتاب أيضا إيمانا فى الجملة لكن إيمان المؤمنين خير منه وهيهات ذلك ﴿ منهم المؤمنون ﴾ جملة مستأنفة سيقت جوابا عما نشأ من الشرطية الدالة على انتفاء الخيرية لانتفاء الإيمان عنهم كأنه قيل هل منهم من آمن أو كلهم على الكفر فقيل منهم المؤمنون المعهودون الفائزون بخير الدارين كعبد الله بن سلام وأصحابه .

﴿ وأكثرهم الفاسقون ﴾ المتمردون فى الكفر الخارجون عن الحدود ﴿ ان يضروكم إلا أذى ﴾ استثناء مفرغ من المصدر العام أى لن يضروكم أبدا ضرراً ما إلا ضرر أذى لايبالى به من طعن وتهديد لا أثر له ﴿ وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ﴾ أى ينهزمون من غير أن ينالوا منكم شيئاً من قتل أو أسر ﴿ ثم لاينصرون ﴾ عطف على الشرطية وثم للتراخى فى الرتبة أى لاينصرون من جهة أحد ولا يمنعون منكم قتلا وأخذا وفيه تثبيت لمن آمن منهم فإنهم كانوا يؤذونهم بالتلهى بهم وتوبيخهم وتضليلهم وتهديدهم وبشارة لهم بأنهم لايقدرون على أن يتجاوزوا الأذى بالقول إلى ضرر يعبأ به مع أنه وعدهم الغلبة عليهم والانتقام منهم وأن عاقبة أمرهم الخذلان والذل وإنما لم يعطف نفى منصوريتهم على الجزاء لأن المقصود هو الوعد بنفى النصر مطلقا ولو عطف عليه لكان مقيدا بمقاتلتهم كتولية الأدبار وكم بين الوعدين كأنه قيل ثم شأنهم الذى أخبركم عنه وأبشركم به أنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوة لاينهضون بعد ذلك بجناح ولايقومون على ساق ولا يستقيم لهم أمر وكان كذلك حيث لقى بنو قريظة والنضير وبنو قينقاع ويهود خيبر مالقوا .

﴿ ضربت عليهم الذلة ﴾ أى هدر النفس والمال والأهل وذل التمسك بالباطل ﴿ أينما ثقفوا ﴾ أى وجدوا ﴿ إلا بحبل من الله وحبل من الناس ﴾ استثناء من أعم الأحوال أى ضربت عليهم الذلة ضرب القبة على من هى عليه فى جميع الأحوال إلا حال كونهم معتصمين بذمة الله أو كتابه الذى أتاهم وذمة المسلمين أو بذمة الإسلام واتباع سبيل المؤمنين ﴿ وباءوا بغضب من

الله ﴾ أى رجعوا مستوجبين له والتنكير للتفخيم والتهويل ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة لغضب مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة والهول أى كائن الله عز وجل ﴿ وضربت عليهم المسكنة ﴾ فهى محيطة بهم من جميع جوانبهم واليهود كذلك فى غالب الحال مساكين تحت أيدى المسلمين والنصارى .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من ضرب الذلة والمسكنة عليهم والبوء بالغضب العظيم ﴿ بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ﴾ أى ذلك الذى ذكر كائن بسبب كفرهم المستمر بآيات الله الناطقة بنبوة محمد عليه الصلاه والسلام وتحريفهم لها وبسائر الآيات القرآنية ﴿ ويقتلون الأنبياء بغير حق ﴾ أى فى اعتقادهم أيضا وإسناد القتل إليهم مع أنه فعل أسلافهم لرضاهم به كما أن التحريف مع كونه من أفعال أحبارهم ينسب إلى كل من يسير بسيرتهم ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الكفر والقتل ﴿ بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ أى كائن بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله تعالى على الاستمرار فإن الإصرار على الصغائر يفضى الى مباشرة الكبائر والاستمرار عليها يؤدى الى الكفر وقيل معناه أن ضرب الذلة والمسكنة فى الدنيا واستيجاب الغضب فى الآخرة كما هو معلل بكفرهم وقتلهم فهو مسبب عن عصيانهم واعتدائهم من حيث أنهم مخاطبون بالفروع من حيث المؤاخذة ﴿ ليسوا سواء ﴾ جملة مستأنفة سيقت تمهيدا لتعداد محاسن مؤمنى أهل الكتاب وتذكيرا لقوله تعالى ﴿ منهم المؤمنون ﴾ والضمير فى ليسوا لأهل الكتاب جميعا لا للفاسقين منهم خاصة وهو اسم ليس وخبره سواء وإنما أفرد لأنه فى الأصل مصدر والمراد بنفى المساواة نفى المشاركة فى أصل الاتصاف بالقبائح المذكورة لا نفى المساواة فى مراتب الاتصاف بها مع تحقق المشاركة فى أصل الاتصاف بها أى ليس جميع أهل الكتاب متشاركين فى الاتصاف بما ذكر من القبائح والابتلاء بما يترتب عليها من العقوبات وقوله تعالى :

﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة ﴾ استئناف مبين لكيفية عدم تساويهم ومزيل لما فيه من الإبهام كما أن ما سبق من قوله تعالى (تأمرون بالمعروف) الآية مبين لقوله تعالى (كنتم خير أمة) الخ ووضع أهل الكتاب موضع الضمير العائد إليهم لتحقيق ما به الاشتراك بين الفريقين والإيذان بأن تلك الأمة ممن أوتى نصيبا وافراً من الكتاب لا من أراذلهم والقائمة المستقيمة العادلة من أقمت العود فقام بمعنى استقام وهم الذين أسلموا منهم كعبد الله بن سلام وثعلبة بن سعيد وأسيد بن عبيد وأضرابهم وقيل هم أربعون رجلا من أهل نجران واثنان وثلاثون من الحبشة وثلاثة من الروم كانوا على دين عيسى وصدقوا محمدا عليهما الصلاة والسلام وكان من الأنصار فيهم عدة قبل قدوم النبي عليه السلام منهم أسعد بن زرارة والبراء بن معرور ومحمد بن مسلمة وأبو قيس صرمة بن أنس كانوا موحدين يغتسلون من الجنابة ويقومون بما يعرفون من شرائع الحنيفية حتى بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم فصدقوه ونصروه وقوله تعالى ﴿ يتلون آيات الله ﴾ فى محل الرفع على أنه صفة أخرى لأمة وقيل فى محل النصب على أنه حال منها لتخصصها بالنعت والعامل فيه الاستقرار الذى يتضمنه الجار أو من ضميرها فى قائمة أو من المستكن فى الجار لوقوعه خبراً لأمة والمراد بآيات الله القرآن وقوله تعالى :

﴿ آناء الليل ﴾ ظرف ليتلون أى فى ساعاته جمع أنى بزنة عصا أو إنى بزنة معى ، أو أنى بزنة ظبى ، أو إنى بزنة نحى ، أوأنو بزنة جرو .

﴿ وهم يسجدون ﴾ أى يصلون إذ لا تلاوة فى السجود قال عليه الصلاة والسلام ألا إنى نهيت أن أقرأ راكعا وساجدا وتخصيص السجود بالذكر من بين سائر أركان الصلاة لكونه أدل على كمال الخضوع والتصريح بتلاوتهم آيات الله فى الصلاة مع أنها مشتملة عليها قطعا لزيادة تحقيق المخالفة وتوضيح عدم المساواة بينهم وبين الذين وصفوا آنفا بالكفر بها وهو السر فى تقديم هذا النعت على نعت الإيمان والمراد بصلاتهم التهجد إذ هو أدخل فى مدحهم وفيه تتسنى لهم التلاوة فإنها فى المكتوبة وظيفة الإمام واعتبار حالهم عند

الصلاة على الانفراد يأباه مقام المدح وهو الأنسب بالعدول عن إيرادها باسم الجنس المتبادر منه الصلاة المكتوبة وبالتعبير عن وقتها بالآناء المبهمة وقيل صلاة العشاء لأن أهل الكتاب لا يصلونها لما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرها ليلة ثم خرج فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال أما أنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم وقرأ هذه الآية وإيراد الجملة اسمية للدلالة على الاستمرار وتكرير الإسناد لتقوية الحكم وتأكيده وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والجملة حال من فاعل يتلون وقيل هي مستأنفة والمعنى أنهم يقومون تارة ويسجدون أخرى يبتغون الفضل والرحمة بأنواع ما يكون فى الصلاة من الخضوع لله عز وجل كما فى قوله تعالى: (والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) وقيل المراد بالسجود هو الخضوع كما فى قوله تعالى: (ولله يسجد ما فى السموات والأرض) ﴿ يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ صفة أخرى لأمة مبينة لمباينتهم اليهود من جهة أخرى أى يؤمنون بهما على الوجه الذى نطق به الشرع والإطلاق للإيذان بالغنى عن التقييد لظهور أنه الذى يطلق عليه الإيمان بهما فلا(١) يذهب الوهم إلى غيره وللتعريض بأن إيمان اليهود بهما مع قولهم عزيز ابن الله وكفرهم ببعض الكتب والرسل ووصفهم اليوم الآخر بخلاف صفته ليس من الإيمان بهما فى شىء أصلا ولو قيد بما ذكر فربما توهم(٢) أن المنتفى عنهم هو القيد المذكور مع جواز إطلاق الإيمان على إيمانهم بالأصل وهيهات.

﴿ ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ صفتان أخريان لأمة أجريتا عليهم تحقيقا لمخالفتهم اليهود فى الفضائل المتعلقة بتكميل الغير إثر بيان مباينتهم لهم فى الخصائص المتعلقة بتكميل النفس وتعريضا بمداهنتهم فى فى الاحتساب بل بتعكيسهم فى الأمر بإضلال الناس وصدهم عن سبيل الله

---

(١) فى ط: لا يذهبه.

(٢) فى ط: لربما توهم.

فإنه أمر بالمنكر ونهى عن المعروف ﴿ويسارعون فى الخيرات﴾ صفة أخرى لأمة جامعة لفنون المحاسن المتعلقة بالنفس وبالغير والمسارعة فى الخير فرط الرغبة فيه لأن من رغب فى الأمر سارع فى توليه والقيام به وآثر الفور على التراخى أى يبادرون مع كمال الرغبة فى فعل أصناف الخيرات اللازمة والمتعدية وفيه تعريض بتباطؤ اليهود فيها بل بمبادرتهم إلى الشرور وإيثار كلمة فى على ما وقع فى قوله تعالى (وسارعوا إلى مغفرة) الخ للإيذان بأنهم مستقرون فى أصل الخير متقلبون فى فنونه المترتبة فى طبقات الفضل لا أنهم خارجون عنها منتهون إليها ﴿وأولئك﴾ إشارة إلى الأمة باعتبار اتصافهم بما فصل من النعوت الجليلة وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجتهم وسمو طبقتهم فى الفضل وإيثاره على الضمير للإشعار بعلة الحكم والمدح أى أولئك المنعوتون بتلك الصفات الفاضلة بسبب اتصافهم بها ﴿من الصالحين﴾ أى من جملة من صلحت أحوالهم عند الله عز وجل واستحقوا رضاه وثناءه ﴿وما يفعلوا من خير﴾ كائنا ما كان مما ذكر أو لم يذكر ﴿فلن يكفروه﴾ أى لن يعدموا ثوابه البتة عبر عنه بذلك كما عبر عن توفية الثواب بالشكر إظهاراً لكمال تنزهه سبحانه وتعالى عن ترك إثابتهم بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح وتعديته إلى مفعولين بتضمين معنى الحرمان وإيثار صيغة البناء للمفعول للجرى على سنن الكبرياء وقرىء الفعلان على صيغة الخطاب .

﴿والله عليم بالمتقين﴾ تذييل مقرر ما قبله فإن علمه تعالى بأحوالهم يستدعى توفية أجورهم لامحالة ، والمراد بالمتقين إما الأمة المعهودة وضع موضع الضمير العائد إليهم مدحا لهم وتعيينا لعنوان تعلق العلم بهم وإشعاراً بمناط إثابتهم وهو التقوى المنطوية(١) على الخصائص السالفة وإما جنس المتقين عموما وهم مندرجون تحت حكمه اندراجاً أولياً .

---

(١) فى ط : المنطوى .

أعمال الكافرين ونواياهم

﴿ إن الذين كفروا ﴾ أى بما يجب أن يؤمن به . قال ابن عباس رضى الله عنهما هم بنو قريظة والنضير فإن معاندتهم كانت لأجل المال وقيل هم مشركوا قريش فإن أبا جهل كان كثير الافتخار بماله وقيل أبو سفيان وأصحابه فإنه أنفق مالا كثيرا على الكفار يوم بدر وأحد وقيل هم الكفار كافة فإنهم فاخروا بالأموال والأولاد حيث قالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين فرد الله عز وجل عليهم وقال ﴿ لن تغنى عنهم ﴾ أى لن تدفع عنهم ﴿ أموالهم ولا أولادهم من الله ﴾ أى من عذابه تعالى ﴿ شيئاً ﴾ أى شيئاً يسيرا منه أو شيئاً من الإغناء ﴿ وأولئك أصحاب النار ﴾ أى مصاحبوها على الدوام وملازموها ﴿ هم فيها خالدون ﴾ أبدا .

﴿ مثل ما ينفقون فى هذه الحيوة الدنيا ﴾ بيان لكيفية عدم إغناء أموالهم التى كانوا يعولون عليها فى جلب المنافع ودفع المضار ويعلقون بها أطماعهم الفارغة وما موصولة اسمية حذف عائدها أى حال ما ينفقه الكفرة قربة أو مفاخرة وسمعة أو المنافقون رياء وخوفا وقصته العجيبة التى تجرى مجرى المثل فى الغرابة ﴿ كمثل ريح فيها صر ﴾ أى برد شديد فإنه فى الأصل مصدر وإن شاع إطلاقه على الريح الباردة كالصرصر وقيل كلمة فى تجريدية كما فى قوله تعالى (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) ﴿ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم ﴾ بالكفر والمعاصى فباءوا بغضب من الله وإنما وصفوا بذلك لأن الإهلاك عن سخط أشد وأفظع ﴿ فأهلكته ﴾ عقوبة لهم ولم تدع منه أثرا ولا عثيرا والمراد تشبيه ما أنفقوا فى ضياعه وذهابه بالكلية من غير أن يعود إليهم نفع ما بحرث [قوم](١) كفار ضربته صر فاستأصلته ولم يبق لهم فيه منفعة ما بوجه من الوجوه وهو من التشبيه المركب الذى مر تفصيله فى تفسير قوله تعالى (كمثل الذى استوقد نارا) ولذلك لم يبال بإيلاء كلمة التشبيه الريح

---

(١) سقطت من ظ

دون الحرث ويجوز أن يراد مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك ريح أو مثل ما ينفقون كمثل مهلك ريح وهو الحرث وقرىء تنفقون ﴿ وما ظلمهم الله ﴾ بما بينه من ضياع ما أنفقوا من الأموال ﴿ ولكن أنفسهم يظلمون ﴾ لما أضاعوها بإنفاقها لا على ما ينبغى وتقديم المفعول لرعاية الفواصل لا للتخصيص إذ الكلام فى الفعل باعتبار تعلقه بالفاعل لا بالمفعول أى ما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار وقد جوز أن يكون المعنى وما ظلم الله تعالى أصحاب الحرث بإهلاكه ولكنهم ظلموا أنفسهم بارتكاب ما استحقوا به العقوبة ويأباه أنه قد مر التعرض له تصريحا وقرىء ولكن بالتشديد على أن أنفسهم اسمها ويظلمون خبرها والعائد محذوف للفاصلة أى ولكن أنفسهم يظلمونها وأما تقدير ضمير الشأن فلا سبيل إليه لاختصاصه بالشعر ضرورة كما فى قوله :

* ولكن من يبصر جفونك يعشق *

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذو بطانة ﴾ بطانة الرجل ووليجته من يعرفه أسراره ثقة به شبه ببطانة الثوب كما شبه بالشعار قال عليه الصلاة والسلام « الأنصار شعار والناس دثار » قال ابن عباس رضى الله عنهما كان رجال من المؤمنين يواصلون اليهود لما بينهم من القرابة والصداقة والمحالفة(١) فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال مجاهد نزلت فى قوم من المؤمنين كانوا يواصلون المنافقين فنهوا عن ذلك ويؤيده قوله تعالى (وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) وهى صفة المنافق وأياما كان فالحكم عام للكفرة كافة ﴿ من دونكم ﴾ أى من دون المسلمين وهو متعلق بلا تتخذوا أو بمحذوف وقع صفة لبطانة أى كائنة من دونكم مجاوزة لكم .

﴿ لا يألونكم خبالا ﴾ جملة مستأنفة مبينة لحالهم داعية إلى الاجتناب عنهم

---

(١) فى ط : الحلف .

أو صفة بطانة يقال آلا فى الأمر إذا أقصر فيه ثم استعمل معدى إلى مفعولين فى قولهم لا آلوك نصحا ولا آلوك جهدا على تضمين معنى المنع والنقص والخبال الفساد أى لا يقصرون لكم فى [تمنى](١) الفساد ﴿ ودوا ما عنتم ﴾ أى تمنوا عنتكم أى مشقتكم وشدة ضرركم وهو أيضاً استئناف مؤكد للنهى موجب لزيادة الاجتناب عن المنهى عنه ﴿ قد بدت البغضاء من أفواههم ﴾ استئناف آخر مفيد لمزيد الاجتناب عن المنهى عنه أى قد ظهرت البغضاء فى كلامهم لما أنهم لا يتمالكون مع مبالغتهم فى ضبط أنفسهم وتحاملهم عليها أن ينفلت من ألسنتهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين وقرىء قد بدا البغضاء والأفواه جمع فم وأصله فوه فلامه هاء يدل على ذلك جمعه على أفواه وتصغيره على فويه والنسبة إليه فوهى ﴿ وما تخفى صدورهم أكبر ﴾ مما بدا لأن بدوه ليس عن روية واختيار ﴿ قد بينا لكم الآيات ﴾ الدالة على وجوب الإخلاص فى الدين وموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين ﴿ إن كنتم تعقلون ﴾ أى إن كنتم من أهل العقل أو إن كنتم تعقلون ما بين لكم من الآيات والجواب محذوف لدلالة المذكور عليه .

﴿ ها أنتم أولاء ﴾ جملة من مبتدأ وخبر صدرت بحرف التنبيه إظهاراً لكمال العناية بمضمونها أى أنتم أولاء الخطئون فى موالاتهم وقوله تعالى ﴿ تحبونهم ولا يحبونكم ﴾ بيان لخطئهم فى ذلك وهو خبر ثان لأنتم أو خبر لأولاء والجملة خبر لأنتم كقولك أنت زيد تحبه أو صلة له أو حال والعامل معنى الإشارة ويجوز أن ينتصب أولاء بفعل يفسره ما بعده وتكون الجملة خبرا ﴿ وتؤمنون بالكتاب كله ﴾ أى بجنس الكتب جميعا وهو حال من ضمير المفعول فى لا يحبونكم والمعنى لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابهم فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بكتابكم وفيه توبيخ بأنهم فى باطلهم أصلب منكم فى حقكم

---

(١) سقطت من ط .

﴿ وإذا لقوكم قالوا آمنا ﴾ نفاقا ﴿ وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل الغيظ ﴾ أى من أجله تأسفاً وتحسراً حيث لم يجدوا إلى التشفى سبيلا ﴿ قل موتوا بغيظكم ﴾ دعاء عليهم بدوام الغيظ وزيادته بتضاعف قوة الإسلام وأهله إلى أن يهلكوا به أو باشتداده إلى أن يهلكم ﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾ فيعلم ما فى صدوركم من العداوة والبغضاء والحنق وهو يحتمل أن يكون من المقول أى وقل لهم إن الله تعالى عليم بما هو أخفى مما تخفونه من عض الأنامل غيظا وأن يكون خارجا عنه بمعنى لا تتعجب من إطلاعى إياك على أسرارهم فإنى عليم بذات الصدور وقيل هو أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بطيب النفس وقوة الرجاء والاستبشار بوعد الله تعالى أن يهلكوا غيظا بإعزاز الإسلام وإذلالهم بقوته(١) من غير أن يكون ثمة قول كأنه قيل حدث نفسك بذلك .

﴿ إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ﴾ بيان لتناهى عداوتهم إلى حد أن حسدوا ما نالهم من خير ومنفعة وشمتوا بما أصابهم من ضر وشدة وذكر المس مع الحسنة والإصابة مع السيئة إما للإيذان بأن مدار مساءتهم أدنى مراتب إصابة الحسنة ومناط فرحهم تمام إصابة السيئة وإما لأن المس مستعار لمعنى الإصابة ﴿ وإن تصبروا ﴾ أى على عدواتهم أو على مشاق التكاليف ﴿ وتتقوا ﴾ ما حرم الله تعالى عليكم ونهاكم عنه ﴿ لا يضركم كيدهم ﴾ مكرهم وحيلتهم التى دبروها لأجلكم وقرىء لا يضركم بكسر الضاد وجزم الراء على جواب الشرط من ضاره يضيره بمعنى ضره يضره وضمة الراء فى القراءة المشهورة للإتباع كضمة مد ﴿ شيئاً ﴾ نصب على المصدرية أى لا يضركم شيئاً من الضرر بفضل الله وحفظه الموعود للصابرين والمتقين ولأن المجد فى الأمر المتدرب بالاتقاء والصبر يكون جريئا على الخصم ﴿ إن الله بما يعملون ﴾ فى عداوتكم من الكيد ﴿ محيط ﴾ علما فيعاقبهم على ذلك وقرىء بالتاء الفوقية(٢) أى بما تعملون من الصبر والتقوى فيجازيكم بما أنتم أهله .

---

(١) فى ط : وإذلالهم به .

(٢) فى ط : الفوقانية .

غزوة بدر

﴿ وإذ غدوت ﴾ كلام مستأنف سيق للاستشهاد بما فيه من استتباع عدم الصبر والتقوى للضرر على أن وجودهما مستتبع لما وعد من النجاة من مضرة كيد الأعداء وإذ نصبت على المفعولية بمضمر خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم خاصة مع عموم الخطاب فيما قبله وما بعده له وللمؤمنين لاختصاص مضمون الكلام به عليه السلام أى واذكر لهم وقت غدوك ليتذكروا ما وقع فيه من الأحوال الناشئة عن عدم الصبر فيعلموا أنهم إن لزموا الصبر والتقوى لا يضرهم كيد الكفرة وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للمبالغة فى إيجاب ذكرها واستحضار الحادثة بتفاصيلها كما سلف بيانه فى تفسير قوله تعالى (وإذ قال ربك للملائكة) الخ والمراد به خروجه عليه السلام إلى أحد وكان ذلك من منزل عائشة رضى الله عنها وهو المراد بقوله تعالى ﴿ من أهلك ﴾ أى من عند أهلك ﴿ تبوىء المؤمنين ﴾ أى تنزلهم أو تهيىء وتسوى لهم ﴿ مقاعد ﴾ ويؤيد قراءته من قرأ تبوىء للمؤمنين والجملة حال من فاعل غدوت لكن لا على أنها حال مقدرة أى ناويا وقاصدا للتبوئة كما قيل بل على أن المقصود تذكير الزمان الممتد المتسع لابتداء الخروج والتبوئة وما يترتب عليها إذ هو المذكر للقصة وإنما عبر عنه بالغدو الذى هو الخروج غدوة مع كون خروجه عليه السلام بعد صلاة الجمعة كما ستعرفه إذ حينئذ وقعت التبوئة التى هى العمدة فى الباب إذ المقصود بتذكير الوقت تذكير مخالفتهم لأمر النبي صلى الله عليه وسلم وتزايلهم عن أحيازهم المعينة لهم عند التبوئة وعدم صبرهم وبهذا يتبين خلل رأى من احتج به على جواز أداء صلاة الجمعة قبل الزوال واللام فى قوله تعالى ﴿ للقتال ﴾ إما متعلقة بتبوىء أى لأجل القتال وإما بمحذوف وقع صفة لمقاعد أى كائنة ومقاعد القتال أماكنه ومواقفه فإن استعمال المقعد والمقام بمعنى المكان اتساعا شائع ذائع كما فى قوله تعالى (فى مقعد صدق) وقوله تعالى (قبل أن تقوم من مقامك) .

روى أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ودعا عبد الله عبد الله بن أبى بن سلول ولم يكن دعاه قبل ذلك فاستشاره فقال عبد الله وأكثر الأنصار يارسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه فكيف وأنت فينا فدعهم فإن أقاموا أقاموا بشر محبس وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة وإن رجعوا رجعوا خائبين وقال بعضهم يارسول الله أخرج بنا إلى هؤلاء الأكلب لا يرون أنا قد جبنا عنهم فقال عليه الصلاة والسلام إنى قد رأيت فى منامى بقرا مذبحة حولى فأولتها خيراً ورأيت فى ذباب سيفى ثلما فأولته هزيمة ورأيت كأنى أدخلت يدى فى درع حصينة فأولتها المدينة فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة فتدعوهم فقال رجال من المسلمين قد فاتتهم بدر وأكرمهم الله تعالى بالشهادة يومئذ أخرج بنا إلى أعدائنا وقال النعمان بن مالك الأنصارى رضى الله عنه يارسول الله لا تحرمنى الجنة فوالذى بعثك بالحق لأدخلن الجنة ثم قال بقولى أشهد أن لا إله إلا الله وأنى لا أفر من الزحف فلم يزالوا به عليه السلام حتى دخل فلبس لأمته فلما رأوه كذلك ندموا وقالوا بئسما صنعنا نشير على رسول الله والوحى يأتيه وقالوا اصنع يارسول الله ما رأيت فقال ما ينبغى لنبى أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل فخرج يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة وأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال لسنة ثلاث من الهجرة فمشى على رجليه فجعل يصف أصحابه للقتال فكأنما يقوم بهم القدح إن رأى صدرا خارجا قال تأخر وكان نزوله فى عدوة الوادى وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وأمر عبد الله بن جبير على الرماة وقال لهم انضحوا عنا بالنبل لا يأتونا من ورائنا ولا تبرحوا من مكانكم فلن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم ﴿ والله سميع ﴾ لأقوالكم ﴿ عليم ﴾ بضمائركم والجملة اعتراض للإيذان بأنه قد صدر عنهم هناك من الأقوال والأفعال مالا ينبغى صدوره عنهم .

﴿إذ همت﴾ بدل من إذ غدوت مبين لما هو المقصود بالتذكير أو ظرف لسميع عليم على معنى أنه تعالى جامع بين سماع الأقوال والعلم بالضمائر فى ذلك الوقت إذ لا وجه لتقييد كونه تعالى سميعا عليما بذلك الوقت . قال الفراء معنى قولك ضربت وأكرمت زيدا أن زيدا منصوب بهما وأنهما تسلطا عليه معا ﴿طائفتان منكم أن تفشلا﴾ متعلق بهمت والباء محذوفة أى بأن تفشلا أى تجبنا وتضعفا وهما حيان من الأنصار بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس وهما الجناحان من عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا ألف رجل وقيل تسعمائة وخمسين وعدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الفتح إن صبروا فلما قاربوا عسكر الكفرة وكانوا ثلاثة آلاف انخذل عبد الله بن أبى بثلث الناس فقال ياقوم علام نقتل أنفسنا وأولادنا فتبعهم عمرو بن حزم الأنصارى فقال أنشدكم الله فى نبيكم وأنفسكم فقال عبد الله لو نعلم قتالا لاتبعناكم فهم الحيان باتباع عبد الله فعصمهم الله تعالى فمضوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن ابن عباس رضى الله عنهما أضمروا أن يرجعوا فعزم الله لهم على الرشد فثبتوا والظاهر أنها ما كانت إلا همة وحديث نفس قلما تخلو النفس عنه عند الشدائد ﴿والله وليهما﴾ أى عاصمهما عن اتباع تلك الخطرة والجملة اعتراض ويجوز أن تكون حالا من فاعل همت أو من ضميره فى تفشلا مفيدة لاستبعاد فشلهما أو همهما به مع كونهما فى ولاية الله تعالى وقرىء والله وليهم كما فى قوله تعالى (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) ﴿وعلى الله﴾ وحده دون ما عداه مطلقا استقلالا أو اشتراكا ﴿فليتوكل المؤمنون﴾ فى جميع أمورهم فإنه حسبهم وإظهار الاسم الجليل للتبرك والتأميل(١) فإن الألوهية من موجبات التوكل عليه تعالى واللام فى المؤمنين للجنس فيدخل فيه الطائفتان دخولا أوليا وفيه إشعار بأن وصف الإيمان من دواعى التوكل وموجباته .

﴿ولقد نصركم الله ببدر﴾ جملة مستأنفة سيقت لإيجاب الصبر والتقوى

---

(١) فى ط : والتعليل .

بتذكير ما ترتب عليهما من النصر إثر تذكير ما ترتب على عدمهما من الضرر وقيل لإيجاب التوكل على الله تعالى بتذكير ما يوجبه وبدر اسم ماء بين مكة والمدينة كان رجل اسمه بدر بن كلدة فسمى باسمه وقيل سمى به لصفائه كالبدر واستدارته وقيل هو اسم الموضع أو الوادى وكانت وقعة بدر فى السابع عشر من شهر رمضان سنة اثنتين من الهجرة ﴿وأنتم أذلة﴾ حال من مفعول نصركم وأذلة جمع ذليل وإنما جمع قلة للإيذان باتصافهم حينئذ بوصفى القلة و الذلة إذ كانوا ثلثمائة وبضعة عشر وكان ضعف حالهم فى الغاية خرجوا على النواضح يعتقب النفر منهم على البعير الواحد ولم يكن فى العسكر إلا فرس واحد وقيل فرسان للمقداد ومرثد وتسعون بعيرا وست أدرع وثمانية سيوف وكان العدو زهاء ألف ومعهم مائة فرس وشكة وشوكة ﴿فاتقوا الله﴾ اقتصر على الأمر بالتقوى مع كونه مشفوعا بالصبر فيما سبق وما لحق للإشعار بأصالته وكون الصبر من مباديه اللازمة له ولذلك قدم عليه فى الذكر وفى ترتيب الأمر بالتقوى على الإخبار بالنصر إيذان بأن نصرهم المذكور كان بسبب تقواهم أى إذا كان الأمر كذلك فاتقوا الله كما اتقيتم يومئذ ﴿لعلكم تشكرون﴾ أى راجين أن تشكروا ما ينعم به عليكم بتقواكم من النصرة كما شكرتم فيما قبل أو لعلكم ينعم الله عليكم بالنصر كما فعل ذلك من قبل فوضع الشكر موضع سببه الذى هو الإنعام .

﴿إذ تقول﴾ تلوين للخطاب بتخصيصه برسول الله صلى الله عليه وسلم لتشريفه والإيذان بأن وقوع النصر كان ببشارته عليه السلام (لهم)(١) وإذ ظرف لنصركم قدم عليه الأمر بالتقوى لإظهار كمال العناية به والمراد به الوقت الممتد الذى وقع فيه ما ذكر بعده وما طوى ذكره تعويلا على شهادة الحال مما يتعلق به وجود النصر وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها أى نصركم وقت قولك ﴿للمؤمنين﴾ حين أظهروا العجز عن المقاتلة

---

(١) سقطت من ط .

قال الشعبى بلغ المؤمنين أن كرز بن جابر الحنفى يريد أن يمد المشركين فشق ذلك على المؤمنين فنزل حينئذ ثم حكى ههنا ﴿ ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف ﴾ الكفاية سد الخلة والقيام بالأمر والإمداد فى الأصل إعطاء الشىء حالا بعد حال . قال المفضل ما كان منه بطريق التقوية والإعانة يقال فيه أمده يمده إمداداً وما كان بطريق الزيادة يقال فيه مده يمده مدا ومنه والبحر يمده من بعده سبعة أبحر وقيل المد فى الشر كما فى قوله تعالى (ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) وقوله (ونمد له من العذاب مدا) والإمداد فى الخير كما فى قوله تعالى (وأمددناكم بأموال وبنين) والتعرض لعنوان الربوبية ههنا وفيما سيأتى مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لإظهار العناية بهم والإشعار بعلة الإمداد والمعنى إنكار عدم كفاية الإمداد بذلك المقدار ونفيه وكلمة لن للإشعار بأنهم كانوا حينئذ كالآيسين من النصر لضعفهم وقلتهم وقوة العدو وكثرتهم ﴿ من الملائكة ﴾ بيان أو صفة لآلاف أو لما أضيف إليه أى كائنين من الملائكة ﴿ منزلين ﴾ صفة لثلاثة آلاف ثم خمسة آلاف وقرىء مبنيا للفاعل من الصيغتين أى منزلين النصر .

﴿ بلى ﴾ إيجاب لما بعد لن وتحقيق له أى بلى يكفيكم ذلك ثم وعدهم(١) الزيادة بشرط الصبر والتقوى حثاً لهم عليهما وتقوية لقلوبهم فقال ﴿ إن تصبروا ﴾ على لقاء العدو ومناهضتهم ﴿ وتتقوا ﴾ معصية الله ومخالفة نبيه عليه الصلاة والسلام ﴿ ويأتوكم ﴾ أى المشركون ﴿ من فورهم هذا ﴾ أى من ساعتهم هذه وهو فى الأصل مصدر فارت القدر أى اشتد غليانها ثم استعير للسرعة ثم أطلق على كل حالة لا ريث فيها أصلا ووصفه بهذا لتأكيد السرعة بزيادة تعيينه وتقريبه ونظم إتيانهم بسرعة فى سلك شرطى الإمداد المستتبعين له وجودا وعدما أعنى الصبر والتقوى مع تحقق الإمداد لا محالة سواء أسرعوا أو أبطأوا لتحقيق أصله أو لبيان تحققه على أى حال فرض على أبلغ وجه

---

(١) فى ط : وعدلهم .

وآكده بتعليقه بأبعد التقادير ليعلم تحققه على سائرها بالطريق الأولى فإن هجوم الأعداء وإتيانهم بسرعة من مظان عدم لحوق المدد عادة فعلق به تحقق الإمداد إيذانا بأنه حيث تحقق مع ما ينافيه عادة فلأن يتحقق بدونه أولى وأحرى كما إذا أردت وصف درع بغاية الحصانة تقول إن لبستها وبارزت بها الأعداء فضربوك بأيد شداد وسيوف حداد لم تتأثر منها قطعاً ﴿ يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴾ من التسويم الذى هو إظهار سيما الشىء أى معلمين أنفسهم أو خيلهم فقد روى أنهم كانوا بعمائم بيض إلا جبريل عليه السلام فإنه كان بعمامة صفراء على مثال الزبير بن العوام وروى أنهم كانوا على خيل بلق قال عروة بن الزبير كانت الملائكة على خيل بلق عليهم عمائم بيض قد أرسلوها بين أكتافهم وقال هشام بن عروة عمائم صفر وقال قتادة والضحاك كانوا قد أعلموا بالعهن فى نواصى الخيل وأذنابها روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه تسوموا فإن الملائكة قد تسومت وقرىء مسومين على البناء للمفعول ومعناه معلمين من جهته سبحانه وقيل مرسلين من التسويم بمعنى الإسامة .

﴿ وما جعله الله ﴾ كلام مبتدأ غير داخل فى حيز القول مسوق(١) من جنابه تعالى لبيان أن الأسباب الظاهرة بمعزل من التأثير وأن حقيقة النصر مختص به عز وجل ليثق به المؤمنون ولا يقنطوا منه عند فقدان أسبابه وأماراته معطوف على فعل مقدر ينسحب عليه الكلام ويستدعيه النظام فإن الإخبار بوقوع النصر على الإطلاق وتذكير وقته وحكاية الوعد بوقوعه على وجه مخصوص هو الإمداد بالملائكة مرة بعد أخرى وتعيين وقته فيما مضى يقضى بوقوعه حينئذ قضاء قطعيا لكن لم يصرح به تعويلا على تعاضد الدلائل وتآخذ الإمارات والمخايل وإيذانا بكمال الغنى عنه بل احترازا عن شائبة التكرير أو عن إيهام احتمال الخلف فى الوعد المحتوم كأنه قيل عقيب قوله تعالى (يمددكم ربكم بخمسة آلاف من

---

(١) فى ١١ : سيق .

الملائكة مسومين) فأمدكم بهم وما جعله الله الخ . والجعل متعد إلى واحد هو الضمير العائد إلى مصدر ذلك الفعل المقدر وأما عوده إلى المصدر المذكور أعنى قوله تعالى أن يمدكم أو إلى المصدر المدلول عليه بقوله تعالى يمددكم كما قيل فغير حقيق بجزالة التنزيل لأن الهيئة البسيطة متقدمة على المركبة فبيان العلة الغائية لوجود الإمداد كما هو المراد بالنظم الكريم حقه أن يكون بعد بيان وجوده فى نفسه ولا ريب فى أن المصدرين المذكورين غير معتبرين من حيث الوجود والوقوع كمصدر الفعل المقدر حتى يتصدى لبيان أحكام وجودهما بل الأول معتبر من حيث الكفاية والثانى من حيث الوعد على أن الأول هو الإمداد بثلاثة آلاف وقوله تعالى :

﴿ إلا بشرى لكم ﴾ استثناء مفرغ من أعم العلل وتلوين الخطاب لتشريف المؤمنين وللإيذان بأنهم المحتاجون إلى البشارة وتسكين القلوب بتوفيق الأسباب الظاهرة وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم غنى عنه بما له من التأييد الروحانى أى وما جعل إمدادكم بإنزال الملائكة عيانا لشيء من الأشياء إلا للبشرى لكم بأنكم تنصرون ﴿ ولتطمئن قلوبكم به ﴾ أى بالإمداد وتسكن إليه كما كانت السكينة لبنى إسرائيل كذلك فكلاهما علة غائية للجعل وقد نصب الأول لاجتماع شرائطه من اتحاد الفاعل والزمان وكونه مصدرا مسوقا للتعليل وبقى الثانى على حاله لفقدانها وقيل للإشارة أيضا إلى أصالته فى العلية وأهميته فى نفسه كما فى قوله تعالى (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) وفى قصر الإمداد عليهما إشعار بأن الملائكة عليهم السلام لم يباشروا يومئذ القتال وإنما كان إمدادهم بتقوية قلوب المباشرين بتكثير السواد ونحوه كما هو رأى بعض السلف رضى الله عنه وقيل الجعل متعد إلى اثنين وقوله عز وجل إلا بشرى لكم استثناء من أعم المفاعيل أى وما جعله الله تعالى شيئا من الأشياء إلا بشارة لكم فاللام فى قوله تعالى ولتطمئن متعلقة بمحذوف تقديره ولتطمئن قلوبكم به فعل ذلك .

﴿ وما النصر ﴾ أى حقيقة النصر على الإطلاق فيندرج فى حكمه النصر المعهود اندراجا أوليا ﴿ إلا من عند الله ﴾ أى إلا كائن من عنده تعالى من غير

أن يكون فيه شركة من جهة الأسباب والعدد وإنما هي مظاهر له بطريق جريان سنته تعالى أو وما النصر المعهود إلا من عنده تعالى لا من عند الملائكة فإنهم بمعزل من التأثير وإنما قصارى أمرهم ما ذكر من البشارة وتقوية القلوب ﴿ العزيز ﴾ أي الذي لا يغالب في حكمه وأقضيته وإجراء هذا الوصف عليه تعالى للإشعار بعلة اختصاص النصر به تعالى كما أن وصفه بقوله ﴿ الحكيم ﴾ أي الذي يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة للإيذان بعلة جعل النصر بإنزال الملائكة فإن ذلك من مقتضيات الحكمة (١) البالغة ﴿ ليقطع ﴾ متعلق بقوله تعالى ولقد نصركم وما بينهما تحقيق لحقيقته وبيان لكيفية وقوعه والمقصور على التعليل بما ذكر من البشرى والاطمئنان إنما هو الإمداد بالملائكة على الوجه المذكور فلا يقدح ذلك في تعليل أصل النصر بالقطع وما عطف عليه أو بما تعلق به الخبر في قوله عز وعلا (وما النصر إلا من عند الله) على تقدير كونه عبارة عن النصر المعهود وقد أشير إلى أن المعلل بالبشارة والاطمئنان إنما هو الإمداد الصوري لا ما في ضمنه من النصر المعنوي الذي هو ملاك الأمر وأما تعلقه بنفس النصر كما قيل فمع ما فيه من الفصل بين المصدر ومعموله بأجنبي هو الخبر مخل بسداد المعنى كيف لا ومعناه قصر النصر المخصوص المعلل بعلل معينة على الحصول من جهته تعالى وليس المراد إلا قصر حقيقة النصر أو النصر المعهود على ذلك والمعنى لقد نصركم الله يومئذ أو وما النصر الظاهر عند إمداد الملائكة إلا ثابت من عند الله ليقطع أي يهلك وينقص ﴿ طرفا من الذين كفروا ﴾ أي طائفة منهم بقتل وأسر وقد وقع ذلك حيث قتل من رؤسائهم وصناديدهم سبعون وأسر سبعون ﴿ أو يكبتهم ﴾ أي يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة فإن الكبت شدة غيظ أو وهن يقع في القلب من كبته بمعنى كبده إذا ضرب كبده بالغيظ والحرقة وقيل الكبت الإصابة بمكروه وقيل هو الصرع للوجه واليدين فالتاء حينئذ غير مبدلة وأو للتنويع ﴿ فينقلبوا خائبين ﴾

---

(١) في ط . الحكم .

أى فينهزموا منقطعى الآمال غير فائزين من مبتغاهم بشىء كما فى قوله تعالى (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا).

﴿ ليس لك من الأمر شىء ﴾ اعتراض وسط بين المعطوف عليه المتعلق بالعاجل والمعطوف المتعلق بالآجل لتحقيق أن لا تأثير للمنصورين إثر بيان أن لا تأثير للناصرين وتخصيص النفى برسول الله صلى الله عليه وسلم على طريق تلوين الخطاب للدلالة على الانتفاء من غيره بالطريق الأولى وإنما خص الاعتراض بموقعه لأن ما قبله من القطع والكبت من مظان أن يكون فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولسائر مباشرى القتال مدخل فى الجملة ﴿ أو يتوب عليهم أو يعذبهم ﴾ عطف على يكبتهم والمعنى أن مالك أمرهم على الإطلاق هو الله عزوجل نصركم عليهم ليهلكهم أو يكبتهم أو يتوب عليهم إن أسلموا أو يعذبهم إن أصروا [على الكفر] ⁽¹⁾ وليس لك من أمرهم شىء إنما أنت عبد مأمور بإنذارهم وجهادهم والمراد بتعذيبهم التعذيب الشديد الأخروى المخصوص بأشد الكفرة كفرا وإلا فمطلق التعذيب الأخروى متحقق فى الفريقين الأولين أيضا ونظم التوبة والتعذيب المذكور فى سلك العلة الغائية للنصر المترتبة عليه فى الوجود من حيث أن قبول توبتهم فرع تحققها الناشىء من علمهم بحقية الإسلام بسبب غلبة أهله المترتبة على النصر وأن تعذيبهم بالعذاب المذكور مترتب على إصرارهم على الكفر بعد تبين الحق على الوجه المذكور هذا وقيل إن عتبة بن أبى وقاص شج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وكسر رباعيته فجعل عليه الصلاة والسلام يمسح الدم عن وجهه وسالم مولى أبى حذيفة يغسل عن وجهه الدم وهو يقول كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم فنزلت ليس لك من الأمر شىء الآية . كأنه نوع معاتبة على إنكاره عليه السلام لفلاحهم وقيل أراد أن يدعو عليهم فنهاه الله تعالى لعلمه

---

(١) سقطت من ط .

بأن منهم من يؤمن فقوله تعالى أو يتوب عليهم حينئذ معطوف على الأمر أو على شيء بإضمار أن أى ليس لك من أمرهم أو من التوبة عليهم أو من تعذيبهم شيء أو ليس لك من أمرهم شيء أو التوبة عليهم أو تعذيبهم ونقل عن الفراء وابن الأنبارى أن أو بمعنى إلا أن والمعنى ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح به أو يعذبهم فتتشفى منهم وأياما كان فهو كلام مستأنف سيق لبيان بعض الأمور المتعلقة بغزوة أحد إثر بيان بعض ما يتعلق بغزوة بدر لما بينهما من التناسب الظاهر لأن كلا منهما مبنى على اختصاص الأمر كله بالله تعالى ومنبيء عن سلبه عمن سواه .

وأما تعلق كل القصة بغزوة أحد على أن قوله تعالى إذ تقول بدل ثان من إذ غدوت وأن ما حكى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وقع يوم أحد وأن الإمداد الموعود كان مشروطا بالصبر والتقوى فلما لم يفعلوا لم يتحقق الموعود كما قيل فلا يساعده النظم الكريم أما أولا فلأن المشروط بالصبر والتقوى إنما هو الإمداد بخمسة آلاف لا بثلاثة آلاف مع أنه لم يقع الإمداد يومئذ ولا بملك واحد وأما ثانيا فلأنه كان ينبغى حينئذ أن ينعى عليهم جناياتهم وحرمانهم بسببها تلك النعمة الجليلة ودعوى ظهورة مع عدم دلالة السباق والسياق عليه بل مع دلالتهما على خلافه مما لا يكاد يسمع وأما ثالثا فلأنه لا سبيل إلى جعل الضمير فى قوله تعالى (وما جعله الله) الخ . عائدا إلى الإمداد الموعود لأنه لم يتحقق فكيف يبين علته الغائية ولا إلى الوعد به على معنى أنه تعالى إنما جعل ذلك الوعد لبشارتكم واطمئنان قلوبكم فلم تفعلوا ما شرط عليكم من الصبر والتقوى فلم يقع إنجاز الموعود لما أن قوله تعالى (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) صريح فى أنه قد وقع الإمداد الموعود لكن أثره إنما هو مجرد البشارة والاطمئنان وقد حصلا وأما النصر الحقيقى فليس ذلك إلا من عنده تعالى وجعله استئنافا مقررا لعدم وقوع الإمداد على معنى أن النصر الموعد مخصوص به تعالى فلا ينصر من خالف أمره بترك الصبر والتقوى اعتساف بين يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله على أن قوله تعالى (ليقطع طرفا)

الآية متعلق حينئذ بما تعلق به قوله تعالى (من عند الله) من الثبوت والاستقرار ضرورة أن تعلقه بقوله تعالى (ولقد نصركم الله ببدر) الآية ، مع كون ما بينهما من التفصيل متعلقا بوقعة أحد من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه فلا بد من اعتبار وجود النصر قطعا لأن تفصيل الأحكام المترتبة على وجود شيء بصدد بيان انتفائه مما لم يعهد فى كلام الناس فضلا عن الكلام المجيد فالحق الذى لا محيد عنه أن قوله تعالى إذ تقول ظرف لنصركم وأن ما حكى فى أثنائه إلى قوله تعالى خائبين متعلق بيوم بدر قطعا وما بعده محتمل للوجهين المذكورين وقوله تعالى .

﴿ فإنهم ظالمون ﴾ تعليل على كل حال لقوله تعالى أو يعذبهم مبين لكون ذلك من جهتهم وجزاء لظلمهم ﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان اختصاص ملكوت كل الكائنات به عز وجل إثر بيان اختصاص طرف من ذلك به سبحانه تقريراً لما سبق وتكملة له وتقديم الجار للقصر وكلمة ما شاملة للعقلاء أيضاً تغليبا أى له ما فيهما من الموجودات خلقا وملكا لا مدخل فيه لأحد أصلا فله الأمر كله ﴿ يغفر لمن يشاء ﴾ أن يغفر له مشيئة مبنية على الحكمة والمصلحة[1] ﴿ ويعذب من يشاء ﴾ أن يعذبه بعمله مشيئة كذلك وإيثار كلمة من فى الموضعين لاختصاص المغفرة والتعذيب بالعقلاء وتقديم المغفرة على التعذيب للإيذان بسبق رحمته تعالى غضبه وبأنها من مقتضيات الذات دونه فإنه من مقتضيات سيئات العصاة وهذا صريح فى نفى وجوب التعذيب والتقييد بالتوبة وعدمها كالمنافى له ﴿ والله غفور رحيم ﴾ تذييل مقرر لمضمون قوله تعالى (يغفر لمن يشاء) مع زيادة وفى تخصيص التذييل به دون قرينة من الاعتناء بشأن المغفرة والرحمة ما لا يخفى .

---

[1] فى ط : الحكم والمصالح .

جهاد النفس وجهاد العدو

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربوا ﴾ كلام مبتدأ مشتمل على ما هو ملاك الأمر فى كل باب لا سيما فى باب الجهاد من التقوى والطاعة وما بعدهما من الأمور المذكورة على نهج الترغيب والترهيب جىء به فى تضاعيف القصة مسارعة إلى إرشاد المخاطبين إلى ما فيه وإيذانا بكمال وجوب المحافظة عليه فيما هم فيه من الجهاد فإن الأمور المذكورة فيه مع كونها مناطا للفوز فى الدارين على الإطلاق عمدة فى أمر الجهاد عليها يدور فلك النصرة والغلبة كيف لا ولو حافظوا على الصبر والتقوى وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم لما لقوا ما لقوا ولعل إيراد النهى عن الربا فى أثنائها لما أن الترغيب فى الإنفاق فى السراء والضراء الذى عمدته الإنفاق فى سبيل الجهاد متضمن للترغيب فى تحصيل المال فكان مظنة مبادرة الناس إلى طرق الاكتساب ومن جملتها الربا فنهوا عن ذلك والمراد بأكله أخذه وإنما عبر عنه بالأكل لما أنه معظم ما يقصد بالأخذ ولشيوعه فى المأكولات مع ما فيه من زيادة تشنيع وقوله عز وجل ﴿ أضعافا مضاعفة ﴾ ليس لتقييد النهى به بل لمراعاة ما كانوا عليه من العادة توبيخا لهم بذلك إذ كان الرجل يربى إلى أجل فإذا حل قال للمدين زدنى فى المال حتى أزيدك فى الأجل فيفعل وهكذا عند محل كل أجل فيستغرق بالشىء الطفيف ما له بالكلية ومحله بالنصب على الحالية من الربا وقرىء مضعفه ﴿ واتقوا الله ﴾ فيما نهيتم عنه من الأعمال(١) التى من جملتها الربا ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ راجين للفلاح ﴿ واتقوا النار التى أعدت للكافرين ﴾ بالتحرز عن متابعتهم وتعاطى ما يتعاطونه كان أبو حنيفة رحمة الله تعالى يقول هى أخوف آية فى القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه فى اجتناب محارمه ﴿ وأطيعوا الله ﴾ فى كل ما أمركم به ونهاكم عنه ﴿ والرسول ﴾ الذى يبلغكم أوامره ونواهيه ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ راجين لرحمته . عقب الوعيد بالوعد ترهيبا عن المخالفة

---

(١) فى ط : من الأمور .

وترغيبا فى الطاعة وإيراد لعل فى الموضعين للإشعار بعزة منال الفلاح والرحمة قال محمد ابن إسحق هذه الآية معاتبة للذين عصوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمرهم بما أمرهم يوم أحد .

﴿ وسارعوا ﴾ عطف على أطيعوا وقرىء بغير واو على وجه الاستئناف أى بادروا وأقبلوا وقرىء وسابقوا ﴿ إلى مغفرة من ربكم وجنة ﴾ أى إلى ما يؤدى إليهما وقيل إلى الإسلام وقيل إلى التوبة وقيل إلى الإخلاص وقيل إلى الجهاد وقيل إلى أداء جميع الواجبات وترك جميع المنهيات فيدخل فيها ما مر من الأمور المأمور بها والمنهى عنها دخولا أوليا وتقديم المغفرة على الجنة لما أن التخلية متقدمة على التحلية ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة لمغفرة أى كائنة من ربكم والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لإظهار مزيد اللطف بهم وقوله تعالى ﴿ عرضها السموات والأرض ﴾ أى كعرضهما صفة لجنة وتخصيص العرض بالذكر للمبالغة فى وصفها بالسعة والبسطة على طريقة التمثيل فإن العرض فى العادة أدنى من الطول وعن ابن عباس رضى الله عنهما كسبع سموات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض ﴿ أعدت للمتقين ﴾ فى حيز الجر على أنه صفة أخرى لجنة أو فى محل النصب على الحالية منها لتخصصها بالصفة أى هيئت لهم وفيه دليل على أن الجنة مخلوقة الآن وأنها خارجة عن هذا العالم ﴿ الذين ينفقون ﴾ فى محل الجر على أنه نعت للمتقين مادح لهم أو بدل منه أو بيان أو فى حيز النصب أو الرفع على المدح ومفعول ينفقون محذوف ليتناول كل ما يصلح للإنفاق أو متروك بالكلية كما فى قولك يعطى ويمنع ﴿ فى السراء والضراء ﴾ فى حالتى الرخاء والشدة واليسر والعسر أو فى الأحوال كلها إذ الإنسان لا يخلو عن مسرة أو مضرة أى لا يخلون فى حال ما بإنفاق ما قدروا عليه من قليل أو كثير .

﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ عطف على الموصول والعدول إلى صيغة الفاعل للدلالة على الاستمرار وأما الإنفاق فحيث كان أمرا متجددا عبر عنه بما يفيد

الحدث هو التجدد والكظم الحبس يقال كظم غيظه أى حبسه قال المبرد تأويله أنه كتمه على امتلائه منه يقال كظمت السقاء إذا ملأته وشددت عليه أى الممسكين عليه الكافين عن إمضائه مع القدرة عليه وعن النبى صلى الله عليه وسلم من كظم غيظا وهو قادر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيمانا ﴿ والعافين عن الناس ﴾ أى التاركين عقوبة من استحق مؤاخذته . روى أنه ينادى مناد يوم القيامة أين الذين كانت أجورهم على الله تعالى فلا يقوم إلا من عفا وعن النبى صلى الله عليه وسلم أن هؤلاء فى أمتى قليل إلا من عصم الله وقد كانوا كثيراً فى الأمم التى مضت وفى هذين الوصفين إشعار بكمال حسن موقع عفوه عليه الصلاة والسلام عن الرماة وترك مؤاخذتهم بما فعلوا من مخالفة أمره عليه السلام وندب له عليه السلام إلى ترك ما عزم عليه من مجازاة المشركين بما فعلوا بحمزة رضى الله عنه حيث قال حين رآه قد مثل به لأمثلن بسبعين مكانك .

﴿ والله يحب المحسنين ﴾ اللام إما للجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا وإما للعهد عبر عنهم بالمحسنين إيذانا بأن النعوت المعدودة من باب الإحسان الذى هو الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق الذى هو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى وقد فسره عليه السلام بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك والجملة تذييل يقرر مضمون(١) ما قبلها ﴿ والذين ﴾ مرفوع على الابتداء وقيل مجرور معطوف على ما قبله من صفات المتقين وقوله تعالى (والله يحب المحسنين) اعتراض بينهما مشير إلى ما بينهما من التفاوت فإن درجة الأولين من التقوى أعلى من درجة هؤلاء وحظهم أو على نفس المتقين فيكون التفاوت أكثر وأظهر ﴿ إذا فعلوا فاحشة ﴾ أى فعلة بالغة فى القبح كالزنا ﴿ أو ظلموا أنفسهم ﴾ بأن أتوا ذنبا أى ذنب كان وقيل الفاحشة الكبيرة وظلم النفس الصغيرة أو الفاحشة ما يتعدى إلى الغير وظلم النفس ما ليس كذلك قيل قال المؤمنون يا رسول الله كانت بنو إسرائيل أكرم على الله تعالى منا كان أحدهم إذا أذنب

---

(١) فى ١١ : مقرر مضمون .

أصبحت كفارة ذنبه مكتوبة على عتبة داره افعل كذا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقيل إن نبهان التمار أتته امرأة حسناء تطلب منه تمراً فقال لها هذا التمر ليس بجيد وفى البيت أجود منه فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبلها فقالت له اتق الله فتركها وندم على ذلك وأتى النبى صلى الله عليه وسلم وذكر له ذلك فنزلت وقيل جرى مثل هذا بين أنصارى وامرأة رجل ثقفى كان بينهما مؤاخاة فندم الأنصارى وحثا على رأسه التراب وهام على وجهه وجعل يسيح فى الجبال تائبا مستغفراً ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فنزلت وأياما كان فإطلاق اللفظ ينتظم ما فعله الزناة انتظاما أوليا ﴿اذكروا الله﴾ تذكروا حقه العظيم وجلاله الموجب للخشية والحياء أو وعيده أو حكمه وعقابه .

﴿فاستغفروا لذنوبهم﴾ بالتوبة والندم والفاء للدلالة على أن ذكره تعالى مستتبع للاستغفار لا محالة ﴿ومن يغفر الذنوب﴾ استفهام إنكارى والمراد بالذنوب جنسها كما فى قولك فلان يلبس الثياب ويركب الخيل لا كلها حتى يخل بما هو المقصود من استحالة صدور مغفرة فرد منها عن غيره تعالى وقوله تعالى ﴿إلا الله﴾ بدل من الضمير المستكن فى يغفر أى لا يغفر جنس الذنوب أحد إلا الله خلا أن دلالة الاستفهام عن الانتفاء أقوى وأبلغ لإيذانه بأن كل أحد ممن له حظ من الخطاب يعرف ذلك الانتفاء فيسارع إلى الجواب به والمراد به وصفه سبحانه بغاية سعة الرحمة وعموم المغفرة والجملة معترضة بين المعطوفين أو بين الحال وصاحبها لتقرير الاستغفار والحث عليه والإشعار بالوعد بالقبول ﴿ولم يصروا﴾ عطف على فاستغفروا وتأخيره عنه مع تقدم عدم الإصرار على الاستغفار رتبة لإظهار الاعتناء بشأن الاستغفار واستحقاقه للمسارعة إليه عقيب ذكره تعالى أو حال من فاعله أى ولم يقيموا أو غير مقيمين ﴿على ما فعلوا﴾ أى ما فعلوه من الذنوب فاحشة كانت أو ظلما أو على فعلهم . روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ما أصر من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة وأنه لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار ﴿وهم يعلمون﴾ حال من فاعل يصروا أى لم يصروا على ما فعلوا وهم عالمون بقبحه والنهى عنه

والوعيد عليه والتقييد بذلك لما أنه قد يعذر من لا يعلم ذلك إذا لم يكن التقصير⁽¹⁾ في تحصيل العلم به .

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المذكورين آخرا باعتبار اتصافهم بما مر من الصفات الحميدة وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعيد منزلتهم وعلو طبقتهم فى الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿ جزاؤهم ﴾ بدل اشتمال منه وقوله تعالى ﴿ مغفرة ﴾ خبر له أو جزاؤهم مبتدأ ثان ومغفرة خبر له والجملة خبر لأولئك وهذه الجملة خبر لقوله تعالى (والذين إذا فعلوا) الخ على الوجه الأول وهو الأظهر الأنسب بنظم المغفرة المنبئة عن سابقة الذنب فى سلك الجزاء إذ على الوجهين يكون قوله تعالى أولئك الخ جملة مستأنفة مبينة لما قبلها كاشفة عن حال كلا الفريقين المحسنين والتائبين ولم يذكر من أوصاف الأولين ما فيه شائبة الذنب حتى يذكر فى مطلع الجزاء الشامل لهما المغفرة وتخصيص الإشارة بالآخرين مع اشتراكهما فى حكم اعداد الجنة لهما تعسف ظاهر ﴿ من ربهم ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لمغفرة مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أى كائنة من جهته تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم للإشعار بعلة الحكم والتشريف ﴿ وجنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ عطف على مغفرة والتنكير المشعر بكونها أدنى من الجنة السابقة مما يؤيد رجحان الوجه الأول ﴿ خالدين فيها ﴾ حال مقدرة من الضمير فى جزاؤهم لأنه مفعول به فى المعنى لأنه فى قوة يجزيهم الله جنات خالدين فيها ولا مساغ لأن يكون حالا من جنات فى اللفظ وهى لأصحابها فى المعنى إذ لو كان كذلك لابرز الضمير .

﴿ ونعم أجر العاملين ﴾ المخصوص بالمدح محذوف أى ونعم أجر العاملين ذلك أى ما ذكر من المغفرة والجنات والتعبير عنهما بالأجر المشعر بأنهما يستحقان بمقابلة العمل وان كان بطريق التفضل لمزيد الترغيب فى الطاعات والزجر

---

(١) فى ط . عن تقصير .

عن المعاصي والجملة تذييل مختص بالتائبين حسب اختصاص التذييل السابق بالأولين وناهيك مضمونهما دليلا على ما بين الفريقين من التفاوت النير والتباين البين شتان بين المحسنين الفائزين بمحبة الله عز وجل وبين العاملين الحائزين لأجرتهم وعمالتهم .

عود إلى جهاد الأعداء

﴿ قد خلت من قبلكم سنن ﴾ رجوع إلى تفصيل بقية القصة بعد تمهيد مبادئ الرشد والصلاح وترتيب مقدمات الفوز والفلاح والخلو المضى والسنن الوقائع وقيل الأمم والظرف إما متعلق بخلت أو بمحذوف وقع حالا من سنن أى قد مضت من قبل زمانكم أو كائنة من قبلكم وقائع سنها الله تعالى فى الأمم المكذبة كما فى قوله تعالى (وقتلوا تقتيلا سنة الله فى الذين خلوا) الخ والفاء فى قوله تعالى ﴿ فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ للدلالة على سببية خلوها للسير والنظر أو للأمر بهما وقيل المعنى على الشرط أى إن شككتم فسيروا الخ وكيف خبر مقدم لكان معلق بفعل النظر والجملة فى محل النصب بعد نزع الخافض لأن الأصل استعماله بالجار .

﴿ هذا ﴾ إشارة إلى ما سلف من قوله تعالى قد خلت إلى آخره ﴿ بيان للناس ﴾ أى تبيين لهم على أن اللام متعلقة بالمصدر أو كائن لهم على أنها متعلقة بمحذوف وقع صفة له وتعريف الناس للعهد وهم المكذبون أى هذا إيضاح لسوء عاقبة ما هم عليه من التكذيب فإن الأمر بالسير والنظر وإن كان خاصا بالمؤمنين لكن العمل بموجبه غير مختص بواحد دون واحد ففيه حمل للمكذبين أيضاً على أن ينظروا فى عواقب من قبلهم من أهل التكذيب ويعتبروا بما يعانون من آثار دمارهم وإن لم يكن الكلام مسوقا لهم ﴿ وهدى وموعظة ﴾ أى وزيادة بصيرة وموعظة لكم وإنما قيل ﴿ للمتقين ﴾ للإيذان بعلة الحكم فإن مدار كونه هدى وموعظة لهم انما هو تقواهم ويجوز أن يراد بالمتقين الصائرين إلى التقوى والهدى والموعظة لهم إنما هو تقواهم ويجوز أن يراد بالمتقين الصائرين

إلى التقوى والهدى والموعظة على ظاهرهما أى هذا بيان لمآل أمر الناس وسوء مغبته وهداية لمن اتقى منهم وزجر لهم عما هم عليه من التكذيب وأن يراد به ما يعمهم ويعم(١) غيرهم من المتقين بالفعل ويراد بالهدى والموعظة أيضاً ما يعم ابتداءهما والزيادة فيهما وإنما قدم كونه بيانا للمكذبين مع أنه غير مسوق له على كونه هدى وموعظة للمتقين مع أنه المقصود بالسياق لأن أول ما يترتب على مشاهدة آثار هلاك أسلافهم ظهور حال أخلافهم وأما زيادة الهدى أو أصله فأمر مترتب عليه وتخصيص البيان للناس مع شموله للمتقين أيضاً لما أن المراد به مجرد البيان العارى عن الهدى والعظة والاقتصار عليهما فى جانب المتقين مع ترتبهما على البيان لما أنهما المقصد الأصلى ويجوز أن يكون تعريف الناس للجنس أى هذا بيان للناس كافة وهدى وموعظه للمتقين منهم خاصة وقيل كلمة هذا إشارة إلى ما لخص من أمر المتقين والتائبين والمصرين وقوله تعالى قد خلت الآية اعتراض للحث(٢) على الإيمان وما يستحق به ما ذكر من أجر العاملين وأنت خبير بأن الاعتراض لابد أن يكون مقررا لمضمون ما وقع فى خلاله ومعاينة آثار هلاك المكذبين مما لا تعلق له بحال أحد الأصناف الثلاثة للمؤمنين وإن كان باعثا على الإيمان زاجرا عن التكذيب وقيل إشارة إلى القرآن ولا يخفى بعده .

﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا ﴾ تشجيع للمؤمنين وتقوية لقلوبهم وتسلية عما أصابهم يوم أحد من القتل والقرح وكان قد قتل يومئذ خمسة من المهاجرين حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن جحش ابن عمة النبي صلى الله عليه وسلم وعثمان بن مظعون وسعد مولى عتبة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ومن الأنصار سبعون رجلا

---

(١) سقطت من ط .

(٢) فى ط : للبعث .

رضى الله عنهم أى لاتضعفوا عن الجهاد بما نالكم من الجراح ولاتحزنوا على من قتل منكم ﴿ وأنتم الأعلون ﴾ جملة حالية من فاعل الفعلين أى والحال أنكم الأعلون الغالبون دون عدوكم فإن مصير أمرهم إلى الدمار حسبما شاهدتم من أحوال أسلافهم فهو تصريح بالوعد بالنصر والغلبة بعد الإشعار به فيما سبق أو وأنتم المعهودون بغاية علو الشان لما أنكم على الحق وقتالكم لله عز وجل وقتلاكم فى الجنة وهم على الباطل وقتالهم للشيطان وقتلاهم فى النار ، وقيل وأنتم الأعلون حالا منهم حيث أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم اليوم ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ متعلق بالنهى أو بالأعلون وجوابه محذوف لدلالة ما تعلق به عليه أى إن كنتم مؤمنين فلا تهنوا ولاتحزنوا فإن الإيمان يوجب قوة القلب والثقة بصنع الله تعالى وعدم المبالاة بأعدائه أو إن كنتم مؤمنين فأنتم الأعلون فإن الإيمان يقتضى العلو لامحالة أو إن كنتم مصدقين بوعد الله تعالى فأنتم الأعلون وأياما كان فالمقصود تحقيق المعلق به كما فى قول الأجير إن كنت عملت لك فأعطنى أجرى ولذلك قيل معناه إذ كنتم مؤمنين وقيل معناه إن بقيتم على الإيمان .

﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ﴾ القرح بالفتح والضم لغتان كالضعف والضعف وقد قرىء بهما وقيل هو بالفتح الجراح وبالضم ألمها ، وقرىء بفتحتين ، وقيل القرح والقرح كالطرد والطرد ، والمعنى إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم قبله يوم بدر ثم لم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال فأنتم أحق بأن لاتضعفوا فإنكم ترجون من الله مالايرجون وقيل كلا المسين كان يوم أحد فإن المسلمين نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قتلوا منهم نيفا وعشرين رجلا منهم صاحب لوائهم وجرحوا عددا كثيرا وعقروا عامة خيلهم بالنبل ﴿ وتلك الأيام ﴾ إشارة إلى الأيام الجارية فيما بين الأمم الماضية والآتية كافة لا إلى الأيام المعهودة خاصة من يوم بدر ويوم أحد بل هى داخلة فيها دخولا أوليا والمراد بها

أوقات الظفر والغلبة ﴿ نداولها بين الناس ﴾ نصرفها بينهم نديل لهؤلاء تارة ولهؤلاء أخرى كقول من قال :

فيوما علينا ويوما لنا ويوما نساء ويوما نسر

والمداولة كالمعاورة يقال داولته بينهم فتداولوه أى عاورته فتعاوروه واسم الإشارة مبتدأ والأيام إما صفة له أو بدل منه أو عطف بيان له فنداولها خبره أو خبر فنداولها حال من الأيام والعامل معنى اسم الإشارة أو خبر بعد خبر وصيغة المضارع الدالة على التجدد والاستمرار للإيذان بأن تلك المداولة سنة مسلوكة فيما بين الأمم قاطبة سابقتها ولاحقتها وفيه ضرب من التسلية وقوله عز وجل ﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ﴾ إما من باب التمثيل أى ليعاملكم معاملة من يريد أن يعلم المخلصين الثابتين على الإيمان من غيرهم أو العلم فيه مجاز عن التمييز بطريق إطلاق اسم السبب على المسبب أى ليميز الثابتين على الإيمان من غيرهم كما فى قوله تعالى (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) أو هو على حقيقته معتبر من حيث تعلقه بالمعلوم من حيث أنه موجود بالفعل إذ هو الذى يدور عليه فلك الجزاء لا من حيث أنه موجود بالقوة وإطلاق الإيمان مع أن المراد هو الرسوخ والإخلاص فيه للإيذان بأن اسم الإيمان لا ينطلق على غيره والالتفات إلى الغيبة بإسناده إلى اسم الذات المستجمع للصفات لتربية المهابة والإشعار بأن صدور كل واحد مما يذكر بصدد التعليل من أفعاله تعالى باعتبار منشأ معين من صفاته تعالى مغاير لمنشأ الآخر والجملة علة لما هو فرد من أفراد مطلق المداولة التى نطق بها قوله تعالى (نداولها بين الناس) من المداولة المعهودة الجارية بين فريقى المؤمنين والكافرين واللام متعلقة بما دل عليه المطلق من الفعل المقيد بالوقوع بين الفريقين المذكورين أو بنفس الفعل المطلق باعتبار وقوعه بينهما والجملة معطوفة على علة أخرى لها معتبرة إما على الخصوص والتعيين محذوفة لدلالة المذكورة عليها لكونها من مبادئها كأنه قيل نداولها بينكم وبين عدوكم ليظهر

أمركم وليعلم الخ فإن ظهور أعمالهم وخروجها من القوة إلى الفعل من مبادىء تمييزهم عن غيرهم ومواجب تعلق العلم الأزلى بها من تلك الحيثية وكذا الحال فى باب التمثيل فتأمل وإما على العموم والإبهام للتنبيه على أن العلل غير منحصرة فيما عدد من الأمور وأن العبد يسوءه ما يجرى عليه من النوائب ولا يشعر بأن الله تعالى جعل له فى ذلك من الألطاف الخفية ما لا يخطر ببال كأنه قيل نداولها بينكم ليكون من المصالح كيت وكيت وليعلم الخ وفيه من تأكيد التسلية ومزيد التبصرة ما لا يخفى وتخصيص البيان بعلة هذا الفرد من مطلق المداولة دون سائر أفرادها الجارية فيما بين بقية الأمم تعيينا أو إبهاما لعدم تعلق الغرض العلمى ببيانها ولك أن تجعل المحذوف المبهم عبارة عن علل سائر أفرادها للإشارة إجمالا إلى أن كل فرد من أفرادها له علة داعية إليه كأنه قيل نداولها بين الناس كافة ليكون كيت وكيت من الحكم الداعية إلى تلك الأفراد وليعلم الخ فاللام الأولى متعلقة بالفعل المطلق باعتبار تقيده بتلك الأفراد والثانية باعتبار تقيده بالفرد المعهود وقيل هى متعلقة بمحذوف مؤخر تقديره وليعلم الله الذين آمنوا فعل ذلك .

﴿ ويتخذ منكم شهداء ﴾ جمع شهيد أى ويكرم ناسا منكم بالشهادة وهم شهداء أحد فمن ابتدائية أو تبعيضية متعلقة بيتخذ أو بمحذوف وقع حالا من شهداء أو جمع شاهد أى ويتخذ منكم شهودا معدلين بما ظهر منهم من الثبات على الحق والصبر على الشدائد وغير ذلك من شواهد الصدق ليشهدوا على الأمم يوم القيامة فمن بيانية لأن تلك الشهادة وظيفة الكل دون المستشهدين فقط وأياما كان ففى لفظ الاتخاذ المنبىء عن الاصطفاء والتقريب من تشريفهم وتفخيم شأنهم ما لا يخفى وقوله تعالى ﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾ اعتراض مقرر لمضمون ما قبله ونفى المحبة كناية عن البغض وفى إيقاعه على الظالمين تعريض بمحبته تعالى لمقابليهم والمراد بهم إما غير الثابتين على الإيمان فالتقرير من حيث أن بغضه تعالى لهم من دواعى إخراج المخلصين المصطفين للشهادة من بينهم وإما

الكفرة الذين أديل لهم فالتقرير من حيث أن ذلك ليس بطريق النصرة لهم فإنها مختصة بأوليائه تعالى بل لما ذكر من الفوائد العائدة إلى المؤمنين وقوله تعالى ﴿ وليمحص الله الذين آمنوا ﴾ أى ليصفيهم ويطهرهم من الذنوب عطف على يتخذ وتكرير اللام لتذكير التعليل لوقوع الفصل بينهما بالاعتراض وإظهار الاسم الجليل فى موقع الإضمار لإبراز مزيد الاعتناء بشأن التمحيص وهذه الأمور الثلاثة علل للمداولة المعهودة باعتبار كونها على المؤمنين قدمت فى الذكر لأنها المحتاجة إلى البيان ولعل تأخير العلة الأخيرة عن الاعتراض لئلا يتوهم اندراج المذنبين فى الظالمين أو ليقترن بقوله عز وجل ﴿ ويمحق الكافرين ﴾ فإن التمحيص فيه محو الآثار وإزالة الأوضار كما أن المحق عبارة عن النقص والإذهاب قال المفضل هو أن يذهب الشىء بالكلية حتى لا يرى منه شىء ومنه قوله تعالى (يمحق الله الربا) أى يستأصله وهذه علة للمداولة باعتبار كونها على الكافرين والمراد بهم الذين حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وأصروا على الكفر وقد محقهم الله عز وجل جميعا .

﴿ أم حسبتم ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان ماهى الغاية القصوى من المداولة والنتيجة لما ذكر من تمييز المخلصين وتمحيصهم واتخاذ الشهداء وإظهار عزة منالها والخطاب للذين انهزموا يوم أحد وأم منقطعة وما فيها من كلمة بل للإضراب عن التسلية ببيان السبب(١) فيما لقوا من الشدة إلى تحقيق أنها مبادىء الفوز بالمطلب الأسنى والهمزة للإنكار والاستبعاد أى بل أحسبتم ﴿ أن تدخلوا الجنة ﴾ وتفوزوا بنعيمها وقوله تعالى ﴿ ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ﴾ حال من ضمير تدخلوا مؤكدة للإنكار فإن رجاء الأجر بغير عمل ممن يعلم أنه منوط به مستبعد عند العقول وعدم العلم كناية عن عدم المعلوم لما بينهما من اللزوم المبنى على لزوم تحقق الأول لتحقق الثانى ضرورة استحالة تحقق شىء

---

(١) فى ط : العلل .

بدون علمه تعالى به وإيثارها على التصريح للمبالغة فى تحقيق المعنى المراد فإنها إثبات لعدم جهادهم بالبرهان وللإيذان بأن مدار ترتب الجزاء على الأعمال إنما هو علم الله تعالى بها كأنه قيل والحال أنه لم يوجد الذين جاهدوا منكم وإنما وجه النفى إلى الموصوفين مع أن المنفى هو الوصف فقط وكان يكفى أن يقال ولما يعلم الله جهادكم كناية عن معنى ولما تجاهدوا للمبالغة فى بيان انتفاء الوصف وعدم تحققه أصلا وفى كلمة لما إيذان بأن الجهاد متوقع منهم فيما يستقبل إلا أنه غير معتبر فى تأكيد الإنكار وقرىء يعلم بفتح الميم على أن أصله يعلمن فحذفت النون أو على طريقة إتباع الميم لما قبلها فى الحركة لإبقاء تفخيم اسم الله تعالى ومنكم حال من الذين .

﴿ ويعلم الصابرين ﴾ منصوب بإضمار أن على أن الواو للجمع كما فى قولك لا تأكل السمك وتشرب اللبن أى لا يكن منك أكل السمك وشرب اللبن والمعنى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة والحال أنه لم يتحقق منكم الجهاد والصبر أى الجمع بينهما وإيثار اسم الفاعل على الموصول للدلالة على أن المعتبر هو الاستمرار على الصبر وللمحافظة على الفواصل وقيل مجزوم معطوف على المجزوم قبله قد حرك لالتقاء الساكنين بالفتح للخفة والإتباع كما مر ويؤيده القراءة بالكسر على ما هو الأصل فى تحريك الساكن وقرىء يعلم بالرفع على أن الواو للحال وصاحبها الموصول والمبتدأ محذوف أى وهو يعلم الصابرين كأنه قيل ولما تجاهدوا وأنتم صابرون .

﴿ ولقد كنتم تمنون الموت ﴾ أى تتمنون الحرب فإنها من مبادىء الموت أو الموت بالشهادة والخطاب للذين لم يشهدوا بدرا وكانوا يتمنون أن يشهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهدا لينالوا ما ناله شهداء بدر من الكرامة فألحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخروج ثم ظهر منهم خلاف ذلك ﴿ من قبل أن تلقوه ﴾ متعلق بتمنون مبين لسبب إقدامهم على التمنى أى من قبل

أن تشاهدوه وتعرفوا هوله وشدته وقرىء تلاقوه ﴿ فقد رأيتموه ﴾ أى ما تتمنونه من أسباب الموت أو الموت بمشاهدة أسبابه وقوله تعالى ﴿ وأنتم تنظرون ﴾ حال من ضمير المخاطبين وفى إيثار الرؤية على الملاقاة وتقييدها بالنظر مزيد مبالغة فى مشاهدتهم له والفاء فصيحة كأنه قيل إن كنتم صادقين فى تمنيكم ذلك فقد رأيتموه معاينين له حين قتل بين أيديكم من قتل من إخوانكم وأقاربكم وشارفتم أن تقتلوا فلم فعلتم مافعلتم وهو توبيخ لهم على تمنيهم الحرب وتسببهم لها ثم جبنهم وانهزامهم لا على تمنى الشهادة بناء على تضمنها لغلبة الكفار لما أن مطلب من يتمناها نيل كرامة الشهداء من غير أن يخطر بباله شىء غير ذلك فلا يستحق العتاب من تلك الجهة .

﴿ وما محمد إلا رسول ﴾ مبتدأ وخبر ولا عمل لما بالاتفاق لا نتقاض نفيه بإلا قوله تعالى ﴿ قد خلت من قبله الرسل ﴾ صفة لرسول منبئة عن كونه فى شرف الخلو فإن خلو مشاركيه فى منصب الرسالة من شواهد خلوه عليه الصلاة والسلام لا محالة كأنه قيل قد خلت من قبله أمثاله فسيخلو كما خلوا والقصر قلبي فإنهم لما انقلبوا على أعقابهم فكأنهم اعتقدوا أنه عليه الصلاة والسلام رسول لا كسائر الرسل فى أنه يخلو كما خلوا أو يجب التمسك بدينه بعده كما يجب التمسك بدينهم بعدهم فرد عليهم بأنه ليس إلا رسولا كسائر الرسل فسيخلوا كما خلوا ويجب التمسك بدينه كما يجب التمسك بدينهم وقيل هو قصر إفراد فإنهم لما استعظموا عدم بقائه عليه الصلاة والسلام لهم نزلوا منزلة المستبعدين لهلاكه كأنهم يعتقدون فيه عليه الصلاة والسلام وصفين الرسالة والبعد عن الهلاك فرد عليهم بأنه مقصور على الرسالة لا يتجاوزها إلى البعد عن الهلاك فلا بد حينئذ من جعل قوله تعالى قد خلت الخ كلاما مبتدأ مسوقا لتقرير عدم براءته عليه الصلاة والسلام من الهلاك وبيان كونه أسوة لمن قبله من الرسل عليهم السلام وأياما كان فالكلام يخرج على خلاف مقتضى الظاهر ﴿ أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ إنكار لارتدادهم وانقلابهم عن الدين بخلوه بموت أو قتل بعد علمهم بخلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكا به وقيل الفاء للسببية

والهمزة لإنكار أن يجعلوا خلو الرسل قبله سببا لانقلابهم بعد وفاته مع كونه سببا فى الحقيقة لثباتهم على الدين وإيراد الموت بكلمة أن مع علمهم به البتة لتنزيل المخاطبين منزلة المترددين فيه لما ذكر من استعظامهم إياه وهكذا الحال فى سائر الموارد فإن كلمة إن فى كلام الله تعالى لا تجرى على ظاهرها قط ضرورة علمه تعالى بالوقوع أو اللاوقوع بل تحمل على اعتبار حال السامع أو أمر آخر يناسب المقام وتقديم تقدير الموت مع أن تقدير القتل هو الذى ثار منه الفتنة وعظم فيه المحنة لما أن الموت فى شرف الوقوع فزجر الناس عن النكوص(١) عنده وحملهم على التثبت هناك أهم ولأن الوصف الجامع بينه وبين الرسل عليهم السلام وهو الخلو بالموت دون القتل . روى أنه لما التقى الفئتان حمل أبو دجانة فى نفر من المسلمين على المشركين فقاتل قتالا شديداً وقاتل على بن أبى طالب رضى الله عنه قتالا عظيما حتى التوى سيفه وكذا سعد بن أبى قاص فقتلوا جماعة من المشركين وهزموهم فلما نظر الرماة إليهم ورأوا أنهم قد انهزموا أقبلوا على النهب ولم يلتفتوا إلى نهى أميرهم عبد الله بن جبير فلم يبق منهم عنده إلا ثمانية نفر فلما رآهم خالد بن الوليد قد اشتغلوا بالغنيمة حمل عليهم فى مائتين وخمسين فارسا من المشركين من قبل الشعب وقتلوا من بقى من الرماة ودخلوا خلف أقفية المسلمين ففرقوهم وهزموهم وحملوا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقاتلوهم حتى أصيب هناك نحو ثلاثين رجلا كل منهم يجثو بين يديه ويقول وجهى لوجهك وقاء نفسى لنفسك فداء وعليك سلام الله غير مودع ورمى عبد الله بن قمئة الحارثى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر فكسر رباعيته وشج وجهه الكريم فذب عنه مصعب بن عمير رضى الله عنه وكان صاحب الراية حتى قتله ابن قمئة وهو يزعم أنه قتل النبى صلى الله عليه وسلم فقال قتلت محمدا وصرخ صارخ قيل إنه إبليس ألا أن محمدا قد قتل فانكفأ الناس وجعل الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو إلى عباد الله قال كعب بن مالك

---

(١) فى ط : الانقلاب .

كنت أول من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسلمين فناديت بأعلى صوتى يامعشر المسلمين هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فانحاز إليه ثلاثون من أصحابه وحموه حتى كشفوا عنه المشركين وتفرق الباقون وقال بعضهم ليت ابن أبى يأخذ لنا أمانا من أبى سفيان وقال ناس من المنافقين لو كان نبياً لما قتل ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم فقال أنس بن النضر وهو عم أنس بن مالك ياقوم إن كان قتل محمد فإن رب محمد حى لا يموت وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا كراما على مامات عليه ثم قال اللهم إنى أعتذر إليك مما يقول هؤلاء وأبرأ إليك مما جاء به(١) هؤلاء ثم شد بسيفه وقاتل حتى قتل وتجويزهم لقتله عليه الصلاة والسلام مع قوله تعالى (والله يعصمك من الناس) لما أن كل آية ليس يسمعها كل أحد ولا كل من يسمعها يستحضرها فى كل مقام لاسيما فى مثل ذلك المقام الهائل وقد غفل عمر رضى الله عنه عن هذه الآية الكريمة عند وفاته عليه الصلاة والسلام وقام فى الناس فقال إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى(٢) وأن رسول الله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأقطعن أيدى رجال وأرجلهم يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات ولم يزل يكرر ذلك إلى أن قام أبو بكر رضى الله عنه فحمد الله عز وجل وأثنى عليه ثم قال أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لايموت ثم تلا (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) الآية قال الراوى والله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تلاها أبو بكر وقال عمر رضى الله عنه والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر رضى الله يتلوها فعقرت حتى ماتحملنى رجلاى وعرفت أن

---

(١) المروى : مما صنع .. مما فعل . (٢) فى ١١ قد مات .

رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات ﴿ ومن ينقلب على عقبيه ﴾ بإدباره عما كان يقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر الجهاد وغيره وقيل بارتداده(١) عن الإسلام وما ارتد يومئذ أحد من المسلمين إلا ما كان من المنافقين .

﴿ فلن يضر الله ﴾ بما فعل من الانقلاب ﴿ شيئاً ﴾ أى شيئا من الضرر وإنما يضر نفسه بتعريضها للسخط والعذاب ﴿ وسيجزى الله الشاكرين ﴾ أى الثابتين على دين الإسلام الذى هو أجل نعمة وأعز معروف سموا بذلك لأن الثبات عليه شكر له وعرفان لحقه وفيه إيماء إلى كفران المنقلبين . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد بهم الطائعون لله تعالى من المهاجرين والأنصار وعن على رضى الله عنه أبو بكر وأصحابه رضى الله عنهم وعنه رضى الله عنه أنه قال أبو بكر من الشاكرين ومن أحباء الله تعالى وإظهار الاسم الجليل فى موقع الإضمار لإبراز مزيد الاعتناء بشأن جزائهم .

﴿ وما كان لنفس أن تموت ﴾ كلام مستأنف سيق للتنبيه على خطئهم فيما فعلوا حذرا من قتلهم وبناء على الإرجاف بقتله عليه الصلاة والسلام ببيان أن موت كل نفس منوط بمشيئة الله عز وجل لا يكاد يقع بدون تعلقها به وإن خاضت موارد الحتوف واقتحمت مضايق كل هول ومخوف وقد أشير بذلك إلى أنها لم تكن متعلقة بموتهم فى الوقت الذى حذروه فيه ولذلك لم يقتلوا حينئذ لا لإحجامهم عن مباشرة القتال وكلمة كان ناقصة اسمها أن تموت وخبرها الظرف على أنه متعلق بمحذوف .

وقوله تعالى ﴿ إلا بإذن الله ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأسباب أى وما كان الموت حاصلا لنفس من النفوس بسبب من الأسباب إلا بمشيئته تعالى على أن الإذن مجاز منها لكونها من لوازمه أو إلا بإذنه لملك الموت فى قبض روحها وسوق الكلام مساق التمثيل بتصوير الموت بالنسبة إلى النفوس بصورة

---

(١) فى ١١ بردته .

الأفعال الاختيارية التى لا يتسنى للفاعل إيقاعها والإقدام عليها بدون إذنه تعالى أو بتنزيل إقدامها على مباديه أعنى القتال منزلة الإقدام على نفسه للمبالغة فى تحقيق المرام فإن موتها حيث استحال وقوعه عند إقدامها عليه أو على مباديه وسعيها فى إيقاعه فلأن يستحيل عند عدم ذلك أولى وأظهر وفيه من التحريض على القتال ما لا يخفى ﴿ كتابا ﴾ مصدر مؤكد لمضمون ما قبله أى كتبه الله كتابا ﴿ مؤجلا ﴾ مؤقتا بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر ولو ساعة وقرىء موجلا بالواو بدل الهمزة على قياس التخفيف وبعد تحقيق أن مناط(١) الموت والحياة محض مشيئة الله عز وجل من غير أن يكون فيه مدخل لأحد أصلا أشير إلى أن توفية ثمرات الأعمال دائرة على إرادتهم ليصرفوها عن الأغراض الدنيئة إلى المطالب السنية فقيل .

﴿ ومن يرد ﴾ أى بعمله ﴿ ثواب الدنيا نؤته ﴾ بنون العظمة على طريق الالتفات ﴿ منها ﴾ أى من ثوابها ما نشاء أن نؤتيه إياه كما فى قوله عز وجل (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد) وهو تعريض بمن شغلتهم الغنائم يومئذ وقد مر تفصيله ﴿ ومن يرد ﴾ أى بعمله ﴿ ثواب الآخرة نؤته منها ﴾ أى من ثوابها ما نشاء من الأضعاف حسبما جرى به الوعد الكريم ﴿ وسنجزي الشاكرين ﴾ نعمة الإسلام الثابتين عليه الصارفين لما آتاهم الله تعالى من القوى والقدر إلى ما خلقت هى لأجله من طاعة الله تعالى لا يلويهم عن ذلك صارف أصلا والمراد بهم إما المجاهدون المعهودون من الشهداء وغيرهم وإما جنس الشاكرين وهم داخلون فيه دخولا أوليا والجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبله ووعد بالمزيد عليه وفى تصديرها بالسين وإبهام الجزاء من التأكيد والدلالة على فخامة شأن الجزاء وكونه بحيث يقصر عنه البيان مالا يخفى وقرىء الأفعال الثلاثة بالياء .

﴿ وكأين ﴾ كلام مبتدأ ناع عليهم تقصيرهم وسوء صنيعهم فى صدودهم

---

(١) فى ط : مدار

عن سنن الربانيين المجاهدين فى سبيل الله مع الرسل الخالين(١) عليهم السلام وكأين لفظة مركبة من كاف التشبيه وأى حدث فيها بعد التركيب معنى التكثير كما حدث فى كذا وكذا والنون تنوين أثبتت فى الخط على غير قياس وفيها خمس لغات هى إحداهن والثانية كائن مثل كاعن والثالثة كأين مثل كعين والرابعة كيئن بياء ساكنة بعدها همزة مكسورة وهى قلب ما قبلها والخامسة كأن مثل كعن وقد قرىء بكل منها ومحلها الرفع بالابتداء وقوله تعالى ﴿ من نبى ﴾ تمييز لها لأنها مثل كم الخبرية وقد جاء تمييزها منصوبا كما فى قوله

أطرد اليأس بالرجا فكأين آملا حم يسره بعد عسر

وقوله تعالى ﴿ قاتل معه ربيون كثير ﴾ خبر لها على أن الفعل مسند إلى الظاهر والرابط هو الضمير المجرور فى معه وقرىء قتل وقتل على صيغة المبنى للمفعول مخففة ومشددة والربى منسوب إلى الرب كالربانى وكسر الراء من تغييرات النسب وقرىء بضمها وبفتحها أيضاً على الأصل وقيل هو منسوب إلى الربة وهى الجماعة أى كثير من الأنبياء قاتل معه لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه علماء أتقياء أو عابدون أو جماعات كثيرة(٢) فالظرف متعلق بقاتل أو بمحذوف وقع حالا من فاعله كما فى القراءتين الأخيرتين إذ لا احتمال فيهما لتعلقه بالفعل أى قتلوا أو قتلوا كائنين معه فى القتال لا فى القتل قال سعيد بن جبير ما سمعنا بنبى قتل فى القتال وقال الحسن البصرى وجماعة من العظماء لم يقتل نبى فى حرب قط وقيل الفعل مسند إلى ضمير النبى والظرف متعلق بمحذوف وقع حالا منه والرابط هو الضمير المجرور الراجع إليه وهذا واضح على القراءة المشهورة بلا خوف أى كم نبى قاتل كائنا معه فى القتال ربيون كثير وأما على القراءتين الأخيرتين فغير ظاهر لا سيما على قراءة التشديد وقد جوزه بعضهم وأيده بأن مدار التوبيخ انخذالهم للإرجاف بقتله عليه السلام أى كم من نبى قتل كائنا معه فى القتل أو فى القتال ربيون الخ وقوله تعالى :

---

(١) فى ط : الخالية .

(٢) فى ١١ كثيرون .

﴿ فما وهنوا ﴾ عطف على قاتل على أن المراد به عدم الوهن المتوقع من القتال كما فى قولك وعظته فلم يتعظ وصحت به فلم ينزجر فإن الإتيان بالشىء بعد ورود ما يوجب الإقلاع عنه وإن كان استمرارا عليه بحسب الظاهر ولكنه بحسب الحقيقة صنع جديد مصحح لدخول الفاء المرتبة له على ما قبله أى فما فتروا وما انكسرت همتهم ﴿ لما أصابهم ﴾ فى أثناء القتال وهو علة للمنفى دون النفى نعم يشعر بعلته قوله تعالى ﴿ فى سبيل الله ﴾ فإن كون ذلك فى سبيله عز وجل مما يقوى قلوبهم ويزيل وهنهم وما موصولة أو موصوفة فإن جعل الضميران لجميع الربيين فهى عبارة عما عدا القتل من الجراح وسائر المكاره المعترية للكل وإن جعلا للبعض الباقين بعد ما قتل الآخرون كما هو الأليق(1) بمقام توبيخ المنخذلين بعد ما استشهد الشهداء فهى عبارة عما ذكر مع ما اعتراهم من قتل إخوانهم من الخوف والحزن وغير ذلك هذا على القراءة المشهورة وأما على القراءتين الأخيرتين فإن أسند الفعل إلى الربيين فالضميران للباقين منهم حتما وإن أسند إلى ضمير النبى كما هو الأنسب بالتوبيخ على الانخذال بسبب الإرجاف بقتله عليه الصلاة والسلام فهما للباقين أيضا إن اعتبر كون الربيين مع النبى فى القتل وللجميع إن اعتبر كونهم معه فى القتال ﴿ وما ضعفوا ﴾ عن العدو وقيل عن الجهاد وقيل فى الدين ﴿ وما استكانوا ﴾ أى وما خضعوا للعدو وأصله استكن من السكون لأن الخاضع يسكن لصاحبه ليفعل به ما يريده والألف من إشباع الفتحة أو استكون من الكون لأنه يطلب أن يكون لمن يخضع له وهذا تعريض بما أصابهم من الوهن والانكسار عند استيلاء الكفرة عليهم والإرجاف بقتل النبى صلى الله عليه وسلم وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم حين أرادوا أن يعتضدوا بابن أبى المنافق فى طلب الأمان من أبى سفيان ﴿ والله يحب الصابرين ﴾ أى على مقاساة الشدائد ومعاناة المكاره فى سبيل الله فينصرهم ويعظم قدرهم والمراد بالصابرين إما المعهودين والإظهار

---

(١) فى ط الأنسب .

فى موضع الإضمار للثناء عليهم بحسن الصبر والإشعار بعلة الحكم وإما الجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا والجملة تذييل لما قبلها .

﴿ وما كان قولهم ﴾ كلام مبين لمحاسنهم القولية معطوف على ما قبله من الجمل المبينة لمحاسنهم وقولهم بالنصب الفعلية خبر لكان واسمها أن وما بعدها فى قوله تعالى ﴿ إلا أن قالوا ﴾ والاستثناء مفرغ من أعم الأشياء ما كان قولا لهم عند أى لقاء العدو واقتحام مضايق الحرب وإصابة ما أصابهم من فنون الشدائد والأهوال شىء من الأشياء إلا أن قالوا ﴿ ربنا اغفر لنا ذنوبنا ﴾ أى صغائرنا ﴿ وإسرافنا فى أمرنا ﴾ أى تجاوزنا الحد فى ركوب الكبائر أضافوا الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين برآء من التفريط فى جنب الله تعالى هضما لهم واستصغارا(١) لهممهم وإسنادا لما أصابهم إلى أعمالهم وقدموا الدعاء بمغفرتها على ما هو الأهم بحسب الحال من الدعاء بقولهم ﴿ وثبت أقدامنا ﴾ أى فى مواطن الحرب بالتقوية والتأييد من عندك أو ثبتنا على دينك الحق ﴿ وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ تقريبا له إلى حيز القبول فإن الدعاء المقرون بالخضوع الصادر عن زكاء وطهارة أقرب إلى الاستجابة والمعنى لم يزالوا مواظبين على هذا الدعاء من غير أن يصدر عنهم قول يوهم شائبة الجزع والخور والتزلزل فى مواقف الحرب ومراصد الدين وفيه من التعريض بالمنهزمين ما لا يخفى وقرأ ابن كثير وعاصم فى رواية عنهما برفع قولهم على أنه الاسم والخبر أن وما فى حيزها أى ما كان قولهم حينئذ شيئا من الأشياء إلا هذا القول المنبىء عن أحسن(٢) المحاسن وهذا كما ترى أقعد بحسب المعنى وأوفق بمقتضى المقام لما أن الإخبار بكون قولهم المطلق خصوصية قولهم المحكى عنهم مفصلا كما تفيده قراءتهما أكثر إفادة للسامع من الإخبار بكون خصوصية قولهم المذكور قولهم لما أن مصب الفائدة وموقع البيان فى الجمل الخبرية هو الخبر فالأحق بالخبرية ما هو أكثر إفادة وأظهر دلالة على الحدث وأوفر اشتمالا على نسب خاصة بعيدة

---

(١) فى ط : واستقصارا .

(٢) فى ط : أحاسن .

من الوقوع فى الخارج وفى ذهن السامع ولا يخفى أن ذلك ههنا فى أن مع ما فى حيزها أتم وأكمل وأما ما تفيده الإضافة من النسبة المطلقة الإجمالية فحيث كانت سهلة الحصول خارجا وذهنا كان حقها أن تلاحظ ملاحظة إجمالية وتجعل عنوانا للموضوع لا مقصودا بالذات فى باب البيان وإنما اختار الجمهور ما اختاره لقاعدة صناعية هى أنه إذا اجتمع معرفتان فالأعرف منهما أحق بالإسمية ولا ريب فى أعرفية أن قالوا لدلالته على جهة النسبة وزمان الحدث ولأنه يشبه المضمر من حيث أنه لا يوصف ولا يوصف به وقولهم مضاف إلى مضمر فهو بمنزلة العلم فتأمل .

﴿ فآتاهم الله ﴾ بسبب دعائهم ذلك ﴿ ثواب الدنيا ﴾ أى النصر والغنيمة والعز والذكر الجميل ﴿ وحسن ثواب الآخرة الحسن وهو الجنة والنعيم المخلد وتخصيص وصف الحسن به للإيذان بفضله ومزيته وأنه المعتد به عنده تعالى ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ تذييل مقرر لمضمون(١) ما قبله فإن محبة الله تعالى للعبد عبارة عن رضاه عنه وإرادة الخير به فهى مبدأ لكل سعادة واللام إما للعهد وإنما وضع المظهر موضع ضمير المعهودين للإشعار بأن ما حكى عنهم من الأفعال والأقوال من باب الإحسان وإما للجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا وهذا أنسب بمقام ترغيب المؤمنين فى تحصيل ما حكى عنهم من المناقب الجليلة .

من دستور الحرب

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ شروع فى زجرهم عن متابعة الكفار ببيان استتباعها لخسران الدنيا والآخرة إثر ترغيبهم فى الاقتداء بأنصار الأنبياء إفضائها(٢) إلى فوزهم بسعادة الدارين وتصدير الخطاب بالنداء والتنبيه لإظهار الاعتناء بما فى حيزه ووصفهم بالإيمان لتذكير حالهم وتثبيتهم عليها بإظهار

---

(١) فى ١ : يقرر مضمون .

(٢) فى ط : إفضائه .

مباينتها لحال أعدائهم كما أن وصف المنافقين بالكفر فى قوله تعالى : ﴿ إن تطيعوا الذين كفروا ﴾ لذلك قصدا إلى مزيد التنفير عنهم والتحذير عن طاعتهم قال على رضى الله عنه نزلت فى قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا فى دينهم فوقوع قوله تعالى : ﴿ يردوكم على أعقابكم ﴾ جوابا للشرط مع كونه فى قوة أن يقال إن تطيعوهم فى قولهم ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا فى دينهم يدخلوكم فى دينهم باعتبار كونه تمهيدا لقوله تعالى : ﴿ فتنقلبوا خاسرين ﴾ أى للدنيا والآخرة غير فائزين بشىء منهما واقعين فى العذاب الخالد على أن الارتداد على العقب علم على انتكاس الأمر ومثل فى الحور بعد الكور وقيل المراد بهم اليهود والنصارى حيث كانوا يستغوونهم ويوقعون لهم الشبه فى الدين ويقولون لو كان نبيا حقاً لما غلب ولما أصابه وأصحابه ما أصابهم وإنما هو رجل حاله كحال غيره من الناس يوما عليه ويوما له وقيل أبو سفيان وأصحابه والمراد بطاعتهم استئمانهم والاستكانة لهم وقيل الموصول على عمومه والمعنى نهى المؤمنين عن طاعتهم فى أمر من الأمور حتى لا يستجروهم إلى الارتداد عن الدين فلا حاجة على هذه التقادير إلى ما مر من البيان .

﴿ بل الله مولاكم ﴾ إضراب عما يفهم من مضمون الشرطية كأنه قيل فليسوا أنصاركم حتى تطيعوهم بل الله ناصركم لا غيره فأطيعوه واستعينوا به عن موالاتهم وقرىء بالنصب كأنه قيل فلا تطيعوهم بل أطيعوا الله ومولاكم نصب على أنه صفة له ﴿ وهو خير الناصرين ﴾ فخصوه بالطاعة والاستعانة ﴿ سنلقى ﴾ بنون العظمة على طريقة الالتفات جريا على سنن الكبرياء لتقوية(١) المهابة وقرىء بالياء والسين لتأكيد الإلقاء ﴿ فى قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ بسكون العين وقرىء بضمها على الأصل وهو ما قذف فى قلوبهم من الخوف يوم أحد حتى تركوا القتال ورجعوا من غير سبب ولهم القوة والغلبة وقيل ذهبوا إلى

---

(١) فى ط : لتربية .

مكة فلما كانوا ببعض الطريق قالوا ما صنعنا شيئاً قتلنا منهم ثم تركناهم ونحن قاهرون ارجعوا فاستأصلوهم فعند ذلك ألقى الله تعالى فى قلوبهم الرعب فأمسكوا فلابد من كون نزول الآية فى تضاعيف الحرب أو عقيب انقضائها[1]

وقيل هو ما ألقى فى قلوبهم من الرعب يوم الأحزاب ﴿ بما أشركوا بالله ﴾ متعلق بنلقى دون الرعب وما مصدرية أى بسبب إشراكهم به تعالى فإنه من موجبات خذلانهم ونصر المؤمنين عليهم وكلاهما من دواعى الرعب ﴿ ما لم ينزل به ﴾ أى بإشراكه ﴿ سلطانا ﴾ أى حجة سميت به لوضوحها وإنارتها أو لقوتها أو لحدتها ونفوذها وذكر عدم تنزيلها مع استحالة تحققها فى نفسها من قبيل قوله :

* ولا ترى الضب بها ينجحر *

أى لاضب ولا انجحار وفيه إيذان بأن المتبع فى الباب هو البرهان السماوى دون الآراء والأهواء الباطلة .

﴿ ومأواهم ﴾ بيان لأحوالهم فى الآخرة إثر بيان أحوالهم فى الدنيا وهى الرعب أى ما يأوون إليه فى الآخرة ﴿ النار ﴾ لاملجأ لهم غيرها ﴿ وبئس مثوى الظالمين ﴾ أى مثواهم وإنما وضع موضعه المظهر المذكور للتغليظ والتعليل والإشعار بأنهم فى إشراكهم ظالمون واضعون للشىء فى غير موضعه والمخصوص بالذم محذوف أى بئس مثوى الظالمين النار وفى جعلها مثواهم بعد جعلها مأواهم نوع رمز إلى خلودهم فيها فإن المثوى مكان الإقامة المنبئة عن المكث وأما المأوى فهو المكان الذى يأوى إليه الإنسان ﴿ ولقد صدقكم الله وعده ﴾ نصب على أنه مفعول ثان لصدق صريحا وقيل بنزع الجار أى فى وعده نزلت حين قال ناس من المؤمنين عند رجوعهم إلى المدينة من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله تعالى بالنصر وهو ما وعدهم على لسان نبيه عليه السلام من النصر

---

(١) فى ط : انقضائه .

حيث قال للرماة لا تبرحوا مكانكم فلن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم وفى رواية أخرى لا تبرحوا عن هذا المكان فإنا لا نزال غالبين ما دمتم فى هذا المكان وقد كان كذلك فإن المشركين لما أقبلوا جعل الرماة يرشقونهم والباقون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا والمسلمون على آثارهم يقتلونهم قتلا ذريعا وذلك قوله تعالى :

﴿ إذ تحسونهم ﴾ أى تقتلونهم قتلا كثيرا فاشيا من حسه إذا أبطل حسه وهو ظرف لصدقكم وقوله تعالى : ﴿ بإذنه ﴾ أى بتيسيره وتوفيقه لتحقيق أن قتلهم بما وعدهم الله تعالى من النصر وقيل هو ما وعدهم بقوله تعالى (إن تصبروا وتتقوا) الآية وقد مر تحقيق أن ذلك كان يوم بدر كيف لا والموعود بما ذكر إمداده عز وجل بإنزال الملائكة عليهم السلام وتقييد صدق وعده تعالى بوقت قتلهم بإذنه تعالى صريح فى أن الموعود هو النصر المعنوى والتيسير لا الإمداد بالملائكة وقيل هو ما وعده تعالى بقوله سنلقى الخ وأنت خبير بأن إلقاء الرعب كان عند تركهم القتال ورجوعهم من غير سبب أو بعد ذلك فى الطريق على اختلاف [فى](١) الروايتين وأياً ما كان فلا سبيل إلى كونه مغيا بقوله تعالى ﴿ حتى إذا فشلتم ﴾ أى جبنتم وضعف رأيكم أو ملتم إلى الغنيمة فإن الحرص من ضعف القلب ﴿ وتنازعتم فى الأمر ﴾ فقال بعض الرماة حين انهزم المشركون وولوا هاربين والمسلمون على أعقابهم قتلا وضربا فما موقفنا ههنا بعد هذا وقال أميرهم عبد الله بن جبير رضى الله عنه لا نخالف أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فثبت مكانه فى نفر دون العشرة من أصحابه ونفر الباقون للنهب وذلك قوله تعالى :

﴿ وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ﴾ أى من الظفر والغنيمة وانهزام العدو فلما رأى المشركون ذلك حملوا عليهم من قبل الشعب وقتلوا أمير الرماة ومن معه من أصحابه حسبما فصل فى تفسير قوله تعالى (أفإن مات أو قتل انقلبتم

---

(١) سقطت من ط

على أعقابكم) وجواب إذا محذوف وهو منعكم نصره وقيل امتحنكم ويرده جعل الابتلاء غاية للصرف المترتب على منع النصر وقيل هو انقسمتم إلى قسمين كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ منكم من يريد الدنيا ﴾ وهم الذين تركوا المركز وأقبلوا على النهب ﴿ ومنكم من يريد الآخرة ﴾ وهم الذين ثبتوا مكانهم حتى نالوا شرف الشهادة هذا على تقدير كون إذا شرطية وحتى ابتدائية داخلة على الجملة الشرطية وقيل إذا اسم كما فى قولهم إذا يقوم زيد يقوم عمرو وحتى حرف جر بمعنى إلى المتعلقة بقوله تعالى صدقكم باعتبار تضمنه لمعنى النصر كأنه قيل لقد نصركم الله إلى وقت فشلكم وتنازعكم الخ وعلى هذا فقوله تعالى ﴿ ثم صرفكم عنهم ﴾ حتى حالت الحال ودالت الدولة وفيه من اللطف بالمسلمين ما لا يخفى ﴿ ليبتليكم ﴾ أى يعاملكم معاملة من يمتحنكم بالمصائب ليظهر ثباتكم على الإيمان عندها ﴿ ولقد عفا عنكم ﴾ تفضلا ولما علم من ندمكم على المخالفة ﴿ والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله ومؤذن بأن ذلك العفو بطريق التفضل والإحسان لا بطريق الوجوب عليه أى شأنه أن يتفضل عليهم بالعفو أو هو متفضل عليهم فى جميع الأحوال أديل عليهم إذ الابتلاء أيضا رحمة والتنكير للتفخيم والمراد بالمؤمنين إما المخاطبون والإظهار فى موقع الإضمار للتشريف والإشعار بعلة الحكم وإما الجنس وهم داخلون فى الحكم دخولا أوليا ﴿ إذ تصعدون ﴾ متعلق بصرفكم أو بقوله تعالى : ليبتليكم أو بمقدر كما ذكروا والإصعاد الذهاب والإبعاد فى الأرض وقرىء بثلاثى أى فى الجبل وقرىء تصعدون من التفعل بطرح إحدى التاءين وقرىء تصعدون من يصعدون بالالتفات إلى الغيبة .

﴿ ولا تلوون على أحد ﴾ أى لا تلتفتون إلى ما وراءكم ولا يقف واحد منكم لواحد وقرىء تلون بواو واحدة بقلب الواو المضمومة همزة وحذفها تخفيفا وقرىء يلوون كيصعدون ﴿ والرسول يدعوكم ﴾ كان عليه الصلاة والسلام يدعوهم إلى عباد الله أنا رسول الله من يكر فله الجنة وإيراده عليه السلام بعنوان الرسالة للإيذان بأن دعوته عليه السلام كانت بطريق الرسالة من جهته

سبحانه إشباعا فى توبيخ المنهزمين ﴿ فى أخراكم ﴾ فى ساقتكم وجماعتكم الأخرى ﴿ فأثابكم ﴾ عطف على صرفكم أى فجازاكم الله تعالى بما صنعتم ﴿ غما ﴾ موصولا ﴿ بغم ﴾ من الاغتمام بالقتل والجرح وظفر المشركين والإرجاف بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم وفوت الغنيمة فالتنكير للتكثير أو غما بمقابلة غم أذقتموه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعصيانكم له ﴿ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم ﴾ أى لتتمرنوا على الصبر فى الشدائد فلا تحزنوا على نفع فات أو ضر آت وقيل لا زائدة والمعنى لتتأسفوا على ما فاتكم من الظفر والغنيمة وعلى ما أصابكم من الجراح والهزيمة عقوبة لكم وقيل الضمير فى أثابكم للرسول صلى الله عليه وسلم أى واساكم فى الاغتمام فاغتم بما نزل عليكم كما اغتممتم بما نزل عليه ولم يثربكم على عصيانكم تسلية لكم وتنفيسا لكم لئلا تحزنوا على ما فاتكم من النصر وما أصابكم من الجراح وغير ذلك ﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ أى عالم بأعمالكم وبما أردتم(١) بها .

﴿ ثم أنزل عليكم ﴾ عطف على قوله تعالى فأثابكم والخطاب للمؤمنين حقا ﴿ من بعد الغم ﴾ أى الغم المذكور والتصريح بتأخر الإنزال عنه مع دلالة ثم عليه وعلى تراخيه عنه لزيادة البيان وتذكير عظم النعمة كما فى قوله تعالى (ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا) الآية ﴿ أمنة ﴾ أى أمنا نصب على المفعولية وقوله تعالى ﴿ نعاسا ﴾ بدل منها أو عطف بيان وقيل مفعول له أو هو المفعول وأمنة حال منه متقدمة عليه أو مفعول له حال من المخاطبين على تقدير مضاف أى ذو أمنة أو على أنه جمع آمن كبار وبررة وقرىء بسكون الميم كأنها مرة من الأمن وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لما مر غير مرة من الاعتناء بشأن المقدم والتشويق إلى المؤخر وتخصيص الخوف من بين فنون الغم بالإزالة لأنه المهم عندهم حينئذ لما أن المشركين لما انصرفوا كانوا يتوعدون المسلمين بالرجوع فلم يأمنوا كرتهم وكانوا تحت الحجف متأهبين للقتال فأنزل الله تعالى

---

(١) فى ط : قصدتم .

عليهم **الأمنة** فأخذهم النعاس . قال ابن عباس رضى الله عنهما أمنهم يومئذ بنعاس تغشاهم بعد خوف وإنما ينعس من أمن والخائف لا ينام وقال الزبير رضى الله عنه كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم حين اشتد الخوف فأنزل الله علينا النوم . والله إنى أسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشانى ما أسمعه إلا كالحلم يقول لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ههنا وقال أبو طلحة رضى الله عنه رفعت رأسى يوم أحد فجعلت لا أرى أحدا من القوم إلا وهو يميد تحت حجفته من النعاس . قال وكنت ممن ألقى عليه النعاس يومئذ فكان السيف يسقط من يدى فآخذه ثم يسقط السوط من يدى فآخذه وفيه دلالة على أن من المؤمنين من لم يلق عليه النعاس كما ينبىء عنه قوله عز وجل :

﴿ يغشى طائفة منكم ﴾ قال ابن عباس هم المهاجرون وعامة الأنصار ولا يقدح ذلك فى عموم الإنزال للكل والجملة فى محل النصب على أنها صفة لنعاسا وقرىء بالتاء على أنها صفة لأمنة وفيه أن الصفة حقها أن تتقدم على البدل وعطف البيان وأن لا يفصل بينها وبين الموصوف بالمفعول له وأن المعهود أن يحدث عن البدل دون المبدل منه ﴿ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ﴾ أى أوقعتهم فى الهموم والأحزان أو ما بهم إلا هم أنفسهم وقصد خلاصها من قولهم همنى الشىء أى كان من همى وقصدى والقصر مستفاد بمعونة المقام وطائفة مبتدأ وما بعدها إما خبرها وإنما جاز ذلك مع كونها نكرة لاعتمادها على واو الحال كما فى قوله :

سرينا ونجم قد أضاء فمذ بدا محياك أخفى ضوءه كل شارق

أو لوقوعها فى موضع التفصيل كما فى قوله :

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق وتحتى شقها لم يحول

وإما صفتها والخبر محذوف أى ومعكم طائفة أو وهناك طائفة وقيل تقديره ومنكم طائفة وفيه أنه يقتضى دخول المنافقين فى الخطاب بإنزال الأمنة

وأيا ما كان فالجملة إما حالية مبينة لفظاعة الهول مؤكدة لعظم النعمة فى الخلاص عنه كما فى قوله تعالى (أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم) وإما مستأنفة مسوقة لبيان حال المنافقين وقوله عز وجل ﴿ يظنون بالله ﴾ حال من ضمير أهمتهم أو من طائفة لتخصصها بالصفة أو صفة أخرى لها أو خبر بعد خبر أو استئناف مبين لما قبله وقوله تعالى ﴿ غير الحق ﴾ فى حكم المصدر أى يظنون به تعالى غير الظن الحق الذى يجب أن يظن به سبحانه وقوله تعالى ﴿ ظن الجاهلية ﴾ بدل منه وهو الظن المختص بالملة الجاهلية والإضافة كما فى حاتم الجود ورجل صدق وقوله تعالى :

﴿ يقولون ﴾ بدل من يظنون لما أن مسئلتهم كانت صادرة عن الظن أى يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم على صورة الاسترشاد ﴿ هل لنا من الأمر ﴾ أى من أمر الله ووعده من النصر والظفر ﴿ من شىء ﴾ أى من نصيب قط أو هل لنا من التدبير من شىء وقوله تعالى ﴿ قل إن الأمر كله لله ﴾ أى إن الغلبة بالآخرة لله تعالى ولأوليائه فإن حزب الله هم الغالبون أو أن التدبير كله لله فإنه تعالى قد دبر الأمر كما جرى فى سابق قضائه فلا مرد له وقرىء كله بالرفع على الابتداء وقوله تعالى ﴿ يخفون فى أنفسهم ﴾ أى يضمرون فيها أو يقولون فيما بينهم بطريق الخفية ﴿ ما لا يبدون لك ﴾ استئناف أو حال من ضمير يقولون وقوله تعالى قل إن الأمر الخ اعتراض بين الحال وصاحبها أى يقولون ما يقولون مظهرين أنهم مسترشدون طالبون للنصر مبطنين الإنكار والتكذيب وقوله تعالى ﴿ يقولون ﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ مما قبله كأنه قيل أى شىء يخفون فقيل يحدثون أنفسهم أو يقول بعضهم لبعض فيما بينهم خفية ﴿ لو كان لنا من الأمر شىء ﴾ كما وعد محمد عليه الصلاة والسلام من أن الغلبة لله تعالى ولأوليائه وأن الأمر كله لله أو لو كان لنا من التدبير والرأى شىء ﴿ ما قتلنا ههنا ﴾ أى ما غلبنا أو ما قتل من قتل منا فى هذه المعركة على أن النفى راجع إلى نفس القتل لا إلى وقوعه فيها فقط ولما برحنا من منازلنا كما رآه ابن ابى ويؤيده تعيين مكان القتل وكذا قوله تعالى :

﴿ قل لو كنتم فى بيوتكم ﴾ أى لو لم تخرجوا إلى أحد وقعدتم بالمدينة كما تقولون ﴿ لبرز الذين كتب عليهم القتل ﴾ أى فى اللوح المحفوظ بسبب من الأسباب الداعية إلى البروز ﴿ إلى مضاجعهم ﴾ إلى مصارعهم التى قدر الله تعالى قتلهم فيها وقتلوا هنالك البتة ولم تنفع العزيمة على الإقامة بالمدينة قطعا فإن قضاء الله تعالى لا يرد وحكمه لا يعقب وفيه مبالغة فى رد مقالتهم الباطلة حيث لم يقتصر على تحقيق نفس القتل كما فى قوله عز وجل (أينما تكونوا يدرككم الموت) بل عين مكانه أيضا ولا ريب فى تعين زمانه أيضا لقوله تعالى (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) روى أن ملك الموت حضر مجلس سليمان عليه الصلاة والسلام فنظر إلى رجل من أهل المجلس نظرة هائلة فلما قام قال الرجل من هذا فقال سليمان عليه السلام ملك الموت قال أرسلنى مع الريح إلى عالم آخر فإنى رأيت منه مرأى هائلا فأمرها عليه السلام فألقته فى قطر سحيق من أقطار العالم فما لبث أن عاد ملك الموت إلى سليمان عليه السلام فقال كنت أمرت بقبض روح ذلك الرجل فى هذه الساعة فى أرض كذا فلما وجدته فى مجلسك قلت متى يصل هذا إليها وقد أرسلته بالريح إلى ذلك المكان فوجدته هناك فقضى أمر الله عز وجل فى زمانه ومكانه من غير إخلال بشىء من ذلك وقرىء كتب على البناء للفاعل ونصب القتل وقرىء كتب عليهم القتال وقرىء لبرز بالتشديد على البناء للمفعول ﴿ وليبتلى الله ما فى صدوركم ﴾ أى ليعاملكم معاملة من يبتلى ما فى صدوركم من الإخلاص والنفاق ويظهر ما فيها من السرائر وهو علة لفعل مقدر قبلها معطوفة على علل لها أخرى مطوية للإيذان بكثرتها كأنه قيل فعل ما فعل لمصالح جمة وليبتلى الخ وجعلها عللا لبرز يأباه الذوق السليم فإن مقتضى المقام بيان حكمة ما وقع يومئذ من الشدة والهول لا بيان حكمة البروز المفروض أو الفعل مقدر بعدها أى وللابتلاء المذكور فعل ما فعل لا لعدم العناية بأمر المؤمنين ونحو ذلك وتقدير الفعل مقدما خال عن هذه المزية .

﴿ وليمحص ما فى قلوبكم ﴾ من مخفيات الأمور ويكشفها أو يخلصها من الوساوس ﴿ والله عليم بذات الصدور ﴾ أى السرائر والضمائر الخفية التى لا تكاد تفارق الصدور بل تلازمها وتصاحبها والجملة إما اعتراض للتنبيه على أن الله تعالى غنى عن الابتلاء وإنما يبرز صورة الابتلاء لتمرين المؤمنين وإظهار حال المنافقين أو حال من متعلق الفعلين أى فعل ما فعل للابتلاء والتمحيص والحال أنه تعالى غنى عنهما محيط بخفيات الأمور وفيه وعد ووعيد ﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ﴾ وهم الذين انهزموا يوم أحد حسبما مرت حكايتهم ﴿ إنما استزلهم الشيطان ﴾ أى إنما كان سبب انهزامهم أن الشيطان طلب منهم الزلل ﴿ ببعض ما كسبوا ﴾ من الذنوب والمعاصى التى هى مخالفة أمر النبى صلى الله عليه وسلم وترك المركز والحرص على الغنيمة أو الحياة فحرموا التأييد وقوة القلب وقيل استزلال الشيطان توليهم وذلك بذنوب تقدمت لهم فإن المعاصى يجر بعضها إلى بعض كالطاعة وقيل استزلهم بذنوب سبقت منهم وكرهوا القتل قبل إخلاص التوبة والخروج من المظلمة ﴿ ولقد عفا الله عنهم ﴾ لتوبتهم واعتذارهم ﴿ إن الله غفور ﴾ للذنوب ﴿ حليم ﴾ لا يعاجل بعقوبة المذنب ليتوب والجملة تعليل لما قبلها على سبيل التحقيق وفى إظهار الجلالة تربية للمهابة وتأكيد للتعليل ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا ﴾ وهم المنافقون القائلون ولو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ههنا وإنما ذكر فى صدر الصلة كفرهم تصريحا بمباينة حالهم لحال المؤمنين وتنفيراً عن مماثلتهم آثر ذى أثير وقوله تعالى .

﴿ وقالوا لإخوانهم ﴾ تعيين لوجه الشبه والمماثلة التى نهوا عنها أى قالوا لأجلهم وفى حقهم ومعنى أخوتهم اتفاقهم نسباً أو مذهباً ﴿ إذا ضربوا فى الأرض ﴾ أى سافروا فيها وأبعدوا للتجارة أو غيرها وإيثار إذا المفيدة لمعنى الاستقبال على إذ المفيدة لمعنى المضى لحكاية الحال الماضية إذ المراد بها الزمان المستمر المنتظم للحال الذى عليه يدور أمر استحضار الصورة . قال الزجاج إذا ههنا تنوب عما مضى من الزمان وما يستقبل يعنى أنها لمجرد الوقت أو يقصد

بها الاستمرار وظرفيتها لقولهم إنما هي باعتبار ما وقع فيها بل التحقيق أنها ظرف له لا لقولهم كأنه قيل قالوا لأجل ما أصاب إخوانهم حين ضربوا الخ ﴿ أو كانوا ﴾ أى إخوانهم ﴿ غزا ﴾ جمع غاز كعفى جمع عاف قال :

ومغبرة الآفاق خاشعة الصوى لها قلب عافى الحياض أجون

وقرىء بتخفيف الزاى على حذف التاء من غزاة وإفراد كونهم غزاة بالذكر مع اندراجه تحت الضرب فى الأرض لأنه المقصود بيانه فى المقام وذكر الضرب فى الأرض توطئة له وتقديمه لكثرة وقوعه على أنه قد يوجد بدون الضرب فى الأرض إذ المراد به السفر البعيد وإنما لم يقل أو غزوا للإيذان باستمرار اتصافهم بعنوان كونهم غزاة أو بانقضاء ذلك أى كانوا غزا فيما مضى وقوله تعالى ﴿ لو كانوا عندنا ﴾ أى مقيمين ﴿ ما ماتوا وما قتلوا ﴾ مفعول لقالوا دليل على أن هناك مضمراً قد حذف ثقة به أى إذا ضربوا فى الأرض فماتوا أو كانوا غزا فقتلوا وليس المقصود بالنهى عدم مماثلتهم فى النطق بهذا القول بل فى الاعتقاد بمضمونه والحكم بموجبه كما أنه المنكر على قائليه ألا يرى إلى قوله عز وجل :

﴿ ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم ﴾ فإنه الذى جعل حسرة فيها قطعا وإليه أشير بذلك كما نقل عن الزجاج أنه إشارة إلى ظنهم أنهم لو لم يحضروا القتال لم يقتلوا وتعلقه بقالوا ليس باعتبار نطقهم بذلك القول بل باعتبار ما فيه من الحكم والاعتقاد واللام لام للعاقبة كما فى قوله تعالى (ليكون لهم عدوا وحزنا) أى قالوا ذلك واعتقدوه ليكون حسرة فى قلوبهم والمراد بالتعليل المذكور بيان عدم ترتب فائدة ما على ذلك أصلا وقيل هو تعليل للنهى بمعنى لا تكونوا مثلهم فى النطق بذلك القول واعتقاده ليجعله الله تعالى حسرة فى قلوبهم خاصة ويصون منها قلوبكم فذلك كما مر إشارة إلى مادل عليه قولهم من الاعتقاد ويجوز أن يكون إشارة إلى مادل عليه النهى أى لا تكونوا مثلهم ليجعل الله انتفاء كونكم مثلهم حسرة فى قلوبهم فإن مضادتكم لهم فى القول والاعتقاد مما يغمهم

ويغيظهم ﴿ والله يحي ويميت ﴾ رد لباطلهم(١) إثر بيان غائلته أى هو المؤثر فى الحياة والممات وحده من غير أن يكون للإقامة أو للسفر مدخل فى ذلك فإنه تعالى قد يحي المسافر والغازى مع اقتحامهما لموارد الحتوف ويميت المقيم والقاعد مع حيازتهما لأسباب السلامة ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ تهديد للمؤمنين على أن يماثلوهم وقرىء بالياء على أنه وعيد الذين كفروا وما يعملون عام متناول لقولهم المذكور ولمنشئه الذى هو اعتقادهم ولما ترتب على ذلك من الأعمال ولذلك تعرض لعنوان البصر لا لعنوان السمع وإظهار الاسم الجليل فى موقع الإضمار لتربية المهابة وإلقاء الروعة والمبالغة فى التهديد والتشديد فى الوعيد .

﴿ ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم ﴾ شروع فى تحقيق أن ما يحذرون ترتبه على الغزو والسفر من القتل والموت فى سبيل الله تعالى ليس مما ينبغى أن يحذر بل مما يجب أن يتنافس فيه المتنافسون إثر إبطال ترتبه عليهما واللام هى الموطئة للقسم وما فى قوله تعالى ﴿ لمغفرة من الله ورحمة ﴾ لام الابتداء والتنوين فى الموضعين للتقليل ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة للمبتدأ وقد حذفت صفة رحمة لدلالة المذكور عليها والجملة جواب للقسم ساد مسد جواب الشرط والمعنى أن السفر والغزو ليس مما يجلب الموت ويقدم الأجل أصلا ولئن وقع ذلك بأمر الله تعالى لنفحة يسيرة من مغفرة ورحمة كائنتين من الله تعالى بمقابلة ذلك ﴿ خير مما يجمعون ﴾ أى الكفرة من منافع الدنيا وطيباتها مدة أعمارهم وعن ابن عباس رضى الله عنهما خير من طلاع الأرض ذهبة حمراء وقرىء بالتاء أى مما تجمعونه أنتم لو لم تموتوا والاقتصار على بيان خيريتهما من ذلك بلا تعرض للإخبار بحصولهما لهم للإيذان بعدم الحاجة إليه بناء على استحالة التخييب منه تعالى بعد الإطماع وقد قيل لا بد من حذف آخر أى لمغفرة لكم من الله الخ وحينئذ يكون أيضاً إخراج المقدر مخرج الصفة دون الخبر لنحو ما ذكر من ادعاء الظهور والغنى عن الإخبار به وتغيير الترتيب الواقع فى قولهم

---

(١) فى ط : لقولهم الباطل

ما ماتوا وما قتلوا المبنى على كثرة الوقوع وقلته للمبالغة فى الترغيب فى الجهاد ببيان زيادة مزية القتل فى سبيل الله وإنافته فى استجلاب المغفرة والرحمة وفيه دلالة واضحة على ما مر من أن المقصود بالنهى إنما هو عدم مماثلتهم فى الاعتقاد بمضمون القول المذكور والعمل بموجبه لا فى النطق به وإضلال الناس به .

﴿ ولئن متم أو قتلتم ﴾ أى على أى وجه اتفق هلاككم حسب تعلق الارادة الإلهية وقرىء متم بكسر الميم من مات ﴿ لإلى الله ﴾ أى إلى المعبود

السلام أى يؤمنون بالكتب وبالأنبياء أو الملائكة قال مكى أى ويؤمنون بالملائكة الذين صفتهم إقامة الصلاة لقوله تعالى (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) وقيل عطف على الكاف فى إليك أى يؤمنون بما أنزل إليك وإلى المقيمين الصلاة وهم الأنبياء وقيل على الضمير المجرور فى منهم أى لكن الراسخون فى العلم منهم ومن المقيمين الصلاة وقرىء بالرفع على أنه معطوف على المؤمنون بناء على ما مر من تنزيل التغاير العنوانى منزلة التغاير الذاتى وكذا الحال فيما سيأتى من المعطوفين فإن قوله تعالى ﴿ والمؤتون الزكوة ﴾ عطف على المؤمنون مع اتحاد الكل ذاتا وكذا الكلام فى قوله تعالى ﴿ والمؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ فإن المراد بالكل مؤمنوا أهل الكتاب قد وصفوا أولا بكونهم راسخين فى علم الكتاب إيذانا بأن ذلك موجب للإيمان حتما وأن من عداهم إنما بقوا مصرين على الكفر لعدم رسوخهم فيه ثم بكونهم مؤمنين بجميع الكتب المنزلة على الأنبياء ثم بكونهم عاملين بما فيها من الشرائع والأحكام واكتفى من بينها بذكر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة المستتبعين لسائر العبادات البدنية والمالية ثم بكونهم مؤمنين بالمبدأ والمعاد تحقيقا لحيازتهم الإيمان بفطرته وإحاطتهم به من طرفيه وتعريضا بأن من عداهم من أهل الكتاب ليسوا بمؤمنين بواحد منهما حقيقة فإنهم مشركون بالله سبحانه بقولهم عزير ابن الله(١) وبقولهم لن تمسنا النار إلا أياما معدودة كافرون باليوم الآخر وقوله تعالى ﴿ أولئك ﴾ إشارة إليهم باعتبار اتصافهم بما عدد من الصفات الجميلة وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم فى الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿ سنؤتيهم أجراً عظيما ﴾ خبره والجملة خبر للمبتدأ الذى هو الراسخون وما عطف عليه والسين

إثر قوله تعالى وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما لكن المؤمنون منهم سنؤتيهم أجراً عظيما وأما ماجنح إليه الجمهور من جعل قوله تعالى (يؤمنون بما أنزل إليك) الخ خبرا للمبتدأ ففى كمال السداد أنه غير متعرض لتقابل الطرفين وقرىء سيؤتيهم بالياء مراعاة لظاهر قوله تعالى والمؤمنون بالله

رد على أهل الكتاب

﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ﴾ جواب لأهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله عليه الصلاة والسلام أن ينزل عليهم كتابا من السماء واحتجاج عليهم بأنه ليس بدعا من الرسل وإنما شأنه فى حقيقة الإرسال وأصل الوحى كشأن سائر مشاهير الأنبياء الذين لا ريب لأحد فى نبوتهم والكاف فى محل نصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى إيحاء مثل إيحائنا إلى نوح أو على أنه حال من ذلك المصدر المقدر معرفا كما هو رأى سيبويه أى أوحينا الإيحاء حال كونه مشبها لإيحائنا(١) الخ ومن بعده متعلق بأوحينا وإنما بدىء بذكر نوح لأنه أبو البشر وأول نبى شرع الله تعالى على لسانه الشرائع والأحكام وأول نبى عذبت أمته لردهم دعوته وقد أهلك الله بدعائه أهل الأرض ﴿ وأوحينا إلى إبراهيم ﴾ عطف على أوحينا إلى نوح داخل معه فى حكم التشبيه أى وكما أوحينا إلى ابراهيم ﴿ واسمعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ﴾ وهم أولاد يعقوب عليهم السلام ﴿ وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان ﴾ خصوا بالذكر مع ظهور انتظامهم فى سلك النبيين تشريفاً لهم وإظهارا لفضلهم كما فى قوله تعالى (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال) وتصريحا بمن ينتمى إليهم اليهود من الأنبياء وتكرير الفعل لمزيد تقرير الإيحاء والتنبيه على أنهم طائفة خاصة مستقلة بنوع مخصوص من الوحى .

﴿ وآتينا داود زبورا ﴾ قال القرطبى كان فيه مائة وخمسون سورة ليس فيها

---

(١) فى ط . بإيحائنا .

حكم من الأحكام وإنما هى حكم ومواعظ وتحميد وتمجيد وثناء على الله تعالى وقرىء بضم الراء وهو جمع زبر بمعنى مزبور والجملة عطف على أوحينا داخل فى حكمه لأن إيتاء الزبور من باب الإيحاء أى وكما آتينا داود زبورا وإيثاره على وأوحينا إلى داود لتحقيق المماثلة فى أمر خاص هو إيتاء الكتاب بعد تحقيقها فى مطلق الإيحاء ثم أشير إلى تحقيقها فى أمر لازم لهما لزوما كليا وهو الإرسال فإن قوله تعالى ﴿ورسلا﴾ نصب بمضمر يدل عليه أوحينا معطوف عليه داخل معه فى حكم التشبيه كما قبله أى وكما أرسلنا رسلا لا بما يفسره قوله تعالى ﴿قد قصصناهم عليك﴾ أى وقصصنا رسلا كما قالوا وفرعوا عليه أن قوله تعالى قد قصصناهم على الوجه الأول منصوب على أنه صفة لرسلا وعلى الوجه الثانى لا محل له من الإعراب فإنه مما لا سبيل إليه كما ستقف عليه وقرىء برفع رسل وقوله تعالى ﴿من قبل﴾ متعلق بقصصنا أى قصصنا من قبل هذه السورة أو اليوم .

﴿ورسلا لم نقصصهم عليك﴾ عطف على رسلا منصوب بناصبه وقيل كلاهما منصوب بنزع الخافض والتقدير كما أوحينا إلى نوح وإلى رسل الخ والحق أن يكون انتصابهما بأرسلنا فإن فيه تحقيقا للمماثلة بين شأنه عليه الصلاة والسلام وبين شؤون من يعترفون بنبوته من الأنبياء عليهم السلام فى مطلق الإيحاء ثم إيتاء الكتاب ثم فى الإرسال فإن قوله تعالى إنا أوحينا إليك منتظم لمعنى آتيناك وأرسلناك حتما كأنه قيل إنا أوحينا إليك إيحاء مثل ما أوحينا إلى نوح ومثل ما أوحينا إلى إبراهيم ومن بعده وآتيناك الفرقان إيتاء مثل ما آتينا داود زبورا وأرسلناك إرسالا مثل ما أرسلنا رسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا آخرين لم نقصصهم عليك من غير تفاوت بينك وبينهم فى حقيقة الإيحاء وأصل الإرسال فما للكفرة يسألونك شيئا لم يعطه أحد من هؤلاء الرسل عليهم السلام ومن ههنا اتضح أن رسلا لا يمكن نصبه بقصصنا فإن ناصبه يجب أن يكون معطوفا على أوحينا داخلا معه فى حكم التشبيه الذى يدور فلك الاحتجاج على الكفرة ولا ريب فى أن قصصنا لا تعلق له بشىء من الإيحاء والإيتاء حتى

يمكن اعتباره فى ضمن قوله تعالى إنا أوحينا إليك ثم يعتبر بينه وبين المذكور مماثلة مصححة للتشبيه على أن تقديره فى رسلا الأول يقتضى تقدير نفيه فى الثانى وذلك أشد استحالة وأظهر بطلانا .

﴿ وكلم الله موسى ﴾ برفع الجلالة ونصب موسى وقرىء على القلب وقوله تعالى ﴿ تكليما ﴾ مصدر مؤكد رافع لاحتمال المجاز قال الفراء العرب تسمى ما وصل إلى الإنسان كلاما بأى طريق وصل ما لم يؤكد بالمصدر فإذا أكد به لم يكن إلا حقيقة الكلام والجملة إما معطوفه على قوله تعالى (إنا أوحينا إليك) عطف القصة على القصة لا على آتينا وما عطف عليه وإما حال بتقدير قد كما ينبىء عنه تغيير الأسلوب بالالتفات والمعنى أن التكليم بغير واسطة منتهى مراتب الوحى خص به موسى من بينهم فلم يكن ذلك قادحا فى نبوة سائر الأنبياء عليهم السلام فكيف يتوهم كون نزول التوراة عليه عليه السلام جملة قادحا فى صحة نبوة من أنزل عليه الكتاب مفصلا مع ظهور أن نزولها كذلك لحكم مقتضيه لذلك من جملتها أن بنى اسرائيل كانوا فى العناد وشدة الشكيمة بحيث لو لم يكن نزولها كذلك لما آمنوا بها ومع ذلك ما آمنوا بها إلا بعد اللتيا والتى وقد فضل الله تعالى نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم بأن أعطاه مثل ما أعطى كل واحد منهم صلى الله عليهم وسلم تسليما كثيرا ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين ﴾ نصب على المدح أو بإضمار أرسلنا أو على الحال بأن يكون رسلا موطئا لما بعده أو على البدلية من رسلا الأول أى مبشرين لأهل الطاعة بالجنة ومنذرين للعصاة بالنار ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة ﴾ أى معذرة يعتذرون بها قائلين لولا أرسلت إلينا رسولا فيبين لنا شرائعك ويعلمنا ما لم نكن نعلم من أحكامك لقصور القوة البشرية عن إدراك جزئيات المصالح وعجز أكثر الناس عن إدراك كلياتها كما فى قوله عز وجل (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك) الآية وإنما سميت حجة مع استحالة أن يكون لأحد عليه سبحانه حجة فى فعل من أفعاله بل له أن يفعل ما يشاء كما يشاء للتنبيه على أن المعذرة فى القبول عنده تعالى بمقتضى كرمه ورحمته لعباده بمنزلة الحجة القاطعة

التى لامرد لها ولذلك قال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) قال النبى صلى الله عليه وسلم ما أحد أغير من الله تعالى ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن وما أحد أحب إليه المدح من الله تعالى ولذلك مدح نفسه وما أحد أحب إليه الإعذار(١) من الله تعالى ولذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب فاللام متعلقة بأرسلنا وقيل بقوله تعالى (مبشرين ومنذرين) وحجة اسم كان وللناس خبرها وعلى الله متعلق بمحذوف وقع حالا من حجة أى كائنة على الله أو هو الخبر وللناس حال على الوجه المذكور ويجوز أن يتعلق كل منهما بما تعلق به الآخر الذى هو الخبر ولا يجوز التعلق بحجة لأن معمول المصدر لا يتقدم عليه وقوله تعالى .

﴿ بعد الرسل ﴾ أى بعد إرسالهم وتبليغ الشرائع إلى الأمم على ألسنتهم متعلق بحجة أو بمحذوف وقع صفة لها لأن الظروف يوصف بها الأحداث كما يخبر بها عنها نحو القتال يوم الجمعة ﴿ وكان الله عزيزاً ﴾ لا يغالب فى أمر من أموره ومن قضيته الامتناع عن الإجابة إلى مسئلة المتعنتين ﴿ حكيما ﴾ فى جميع أفعاله التى من جملتها إرسال الرسل وإنزال الكتب فإن تعدد الرسل والكتب واختلافها فى كيفية النزول وتغايرها فى بعض الشرائع والأحكام إنما هو لتفاوت طبقات الأمم فى الأحوال التى عليها يدور فلك التكليف فكما أنه سبحانه وتعالى برأهم على أنحاء شتى وأطوار متباينة حسبما تقتضيه الحكمة التكوينية كذلك تعبدهم بما يليق بشأنهم وتقتضيه أحوالهم المتخالفة واستعداداتهم المتغايرة من الشرائع والأحكام حسبما تستدعيه الحكمة التشريعية وراعى فى إرسال الرسل وإنزال الكتب وغير ذلك من الأمور المتعلقة بمعاشهم ومعادهم ما فيه مصلحتهم فسؤال تنزيل الكتاب جملة اقتراح فاسد إذ حينئذ تتعاقم التكاليف فيثقل على المكلف قبولها والخروج عن عهدتها وأما التنزيل المنجم الواقع حسب الأمور الداعية إليه فهو أيسر قبولا وأسهل امتثالا ﴿ لكن الله يشهد ﴾ بتخفيف النون

---

(١) فى ط : العذر .

ورفع الجلالة وقرىء بتشديد النون ونصب الجلالة وهو استدراك عما يفهم مما قبله كأنهم لما تعنتوا عليه بما سبق من السؤال واحتج عليهم بقوله تعالى (إنا أوحينا) الخ قيل إنهم لا يشهدون بذلك لكن الله يشهد ﴿بما أنزل إليك﴾ على البناء للفاعل وقرىء على البناء للمفعول والباء صلة للشهادة أى يشهد بحقية ما أنزل إليك من القرآن المعجز الناطق بنبوتك وقيل لما نزل قوله تعالى (إنا أوحينا إليك) قالوا ما نشهد لك بذلك فنزل لكن الله يشهد .

﴿أنزله بعلمه﴾ أى ملتبسا بعلمه الخاص الذى لا يعلمه غيره وهو تأليفه على نمط بديع يعجز عنه كل بليغ أو بعلمه بحال من أنزله عليه واستعداده لاقتباس الأنوار القدسية أو بعلمه الذى يحتاج إليه الناس فى معاشهم ومعادهم فالجار والمجرور على الأولين حال من الفاعل وعلى الثالث من المفعول والجملة فى موقع التفسير لما قبلها وقرىء نزله وقوله تعالى ﴿والملائكة يشهدون﴾ أى بذلك مبتدأ وخبر والجملة عطف على ماقبلها وقيل حال من مفعول أنزله أى أنزله والملائكة يشهدون بصدقه وحقيته ﴿وكفى بالله شهيدا﴾ على صحة نبوتك حيث نصب لها معجزات باهرة وحججا ظاهرة مغنية عن الاستشهاد بغيرها ﴿إن الذين كفروا﴾ أى بما أنزل الله تعالى وشهد به أو بكل ما يجب الإيمان به وهو داخل فيه دخولا أوليا والمراد بهم اليهود حيث كفروا به ﴿وصدوا عن سبيل الله﴾ وهو دين الإسلام من أراد سلوكه بقولهم ما نعرف صفة محمد فى كتابنا وقرىء صدوا مبنيا للمفعول ﴿قد ضلوا﴾ بما فعلوا من الكفر والصد عن طريق الحق ﴿ضلالا بعيدا﴾ لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال ولأن المضل يكون أعرق فى الضلال وأبعد من الإقلاع عنه .

﴿إن الذين كفروا﴾ أى بما ذكر آنفا ﴿وظلموا﴾ أى محمدا صلى الله عليه وسلم بإنكار نبوته وكتمان نعوته الجليلة ووضع غيرها مكانها أو الناس بصدهم عما فيه صلاحهم فى المعاش والمعاد ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾ لاستحالة تعلق المغفرة بالكافر ﴿ولا ليهديهم طريقا إلا طريق جهنم﴾ لعدم استعدادهم للهداية إلى الحق والأعمال الصالحة التى هى طريق الجنة والمراد بالهداية المفهومة

من الاستثناء بطريق الإشارة خلقه تعالى لأعمالهم السيئة المؤدية بهم إلى جهنم عند صرف قدرتهم واختيارهم إلى اكتسابها أوسوقهم إليها يوم القيامة بواسطة الملائكة والطريق على عمومه والاستثناء متصل وقيل خاص بطريق الحق والاستثناء منقطع ﴿ خالدين فيها ﴾ حال مقدرة من الضمير المنصوب والعامل فيها ما دل عليه الاستثناء دلالة واضحة كأنه قيل يدخلهم جهنم خالدين فيها الخ وقوله تعالى ﴿ أبدا ﴾ نصب على الظرفية رافع لاحتمال حمل الخلود على المكث الطويل ﴿ وكان ذلك ﴾ أى جعلهم خالدين فى جهنم ﴿ على الله يسيرا ﴾ لاستحالة أن يتعذر عليه شيء من مراداته تعالى .

أمر بالإيمان

﴿ يا أيها الناس ﴾ بعد ما حكى لرسول الله صلى الله عليه وسلم تعلل اليهود بالأباطيل واقتراحهم الباطل تعنتا ورد عليهم ذلك بتحقيق نبوته عليه الصلاة والسلام وتقرير رسالته ببيان أن شأنه عليه الصلاة والسلام فى أمر الوحى والإرسال كشئون من يعترفون بنبوته من مشاهير الأنبياء عليهم السلام وأكد ذلك بشهادته سبحانه وشهادة الملائكة أمر المكلفين كافة على طريق تلوين الخطاب بالإيمان بذلك أمرا مشفوعا بالوعد بالإجابة والوعيد على الرد تنبيها على أن الحجة قد لزمت ولم يبق بعد ذلك لأحد عذر فى عدم القبول وقوله عز وجل ﴿ قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم ﴾ تكرير للشهادة وتقرير لحقية المشهود به وتمهيد لما يعقبه من الأمر بالإيمان وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة لتأكيد وجوب طاعته والمراد بالحق هو القرآن الكريم والباء متعلقة بجاءكم فهى للتعدية أو بمحذوف وقع حالا من الرسول أى ملتبسا بالحق ومن أيضا متعلقة إما بالفعل وإما بمحذوف هو حال من الحق أى جاءكم به من عنده تعالى أو جاءكم بالحق كائنا من عنده تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين للإيذان بأن ذلك لتربيتهم وتبليغهم إلى كمالهم اللائق بهم ترغيبا لهم فى الامتثال بما بعده من الأمر والفاء فى قوله عز وجل ﴿ فآمنوا ﴾ للدلالة على إيجاب ما قبلها لما بعدها أى فآمنوا به وبما جاء به من الحق وقوله

تعالى ﴿ خيرا لكم ﴾ منصوب على أنه مفعول لفعل واجب الإضمار كما هو رأى الخليل وسيبويه أى اقصدوا أو ائتوا أمرا خيرا لكم مما أنتم فيه من الكفر أو على أنه نعت لمصدر محذوف كما هو رأى الفراء أى آمنوا إيمانا خيرا لكم أو على أنه خبر كان المضمرة الواقعة جوابا للأمر لا جزاء للشرط الصناعى وهو رأى الكسائى وأبى عبيدة أى يكن الإيمان خيرا لكم ﴿وإن تكفروا﴾ أى أن تصروا وتستمروا على الكفر به ﴿فإن الله ما فى السموات والأرض﴾ من الموجودات سواء كانت داخلة فى حقيقتهما وبذلك يعلم حال أنفسهما على أبلغ وجه وآكده أو خارجة عنهما مستقرة فيهما من العقلاء وغيرهم فيدخل فى جملتهم المخاطبون دخولا أوليا أى كلها له عز وجل خلقا وملكا وتصرفا لا يخرج من ملكوته وقهره شىء منها فمن هذا شأنه فهو قادر على تعذيبكم بكفركم لا محالة أو فمن كان كذلك فهو غنى عنكم وعن غيركم لا يتضرر بكفركم ولا ينتفع بإيمانكم وقيل فمن كان كذلك فله عبيد يعبدونه وينقادون لأمره ﴿ وكان الله عليما ﴾ مبالغا فى العلم فهو عالم بأحوال الكل فيدخل فى ذلك علمه تعالى بكفرهم دخولا أوليا ﴿ حكيما ﴾ مراعيا للحكمة فى جميع أفعاله التى من جملتها تعذيبه تعالى إياهم بكفرهم .

زجر النصارى

﴿ يا أهل الكتاب ﴾ تجريد للخطاب وتخصيص له بالنصارى زجرا لهم عما هم عليه من الكفر والضلال ﴿لا تغلوا فى دينكم﴾ بالإفراط فى رفع شأن عيسى عليه السلام وادعاء ألوهيته وأما غلو اليهود فى حط رتبته عليه السلام ورميهم له بأنه ولد لغير رشدة فقد نعى عليهم ذلك فيما سبق ﴿ ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾ أى لا تصفوه بما يستحيل اتصافه به من الحلول والاتحاد واتخاذ الصاحبة والولد بل نزهوه عن جميع ذلك ﴿إنما المسيح﴾ قد مر تفسيره فى سورة آل عمران وقرىء بكسر الميم وتشديد السين كالسكيت على صيغة المبالغة وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿عيسى﴾ بدل منه أو عطف بيان له وقوله تعالى ﴿ابن مريم﴾

صفة له مفيدة لبطلان ماوصفوه عليه السلام به من بنوته لله تعالى وقوله تعالى ﴿ رسول الله ﴾ خبر للمبتدأ والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل النهى عن القول الباطل المستلزم للأمر بضده أعنى الحق أى إنه مقصور على رتبة الرسالة لا يتخطاها ﴿ وكلمته ﴾ عطف على رسول الله أى مكون بكلمته وأمره الذى هو كن من غير واسطة أب ولا نطفة ﴿ ألقاها إلى مريم ﴾ أى أوصلها إليها وجعلها(١) فيها بنفخ جبريل عليه السلام وقيل أعلمها إياها وأخبرها بها بطريق البشارة وذلك قوله تعالى (إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم) وقيل الجملة حال من ضميره عليه السلام المستكن فيما دل عليه وكلمته من معنى المشتق الذى هو العامل فيها وقد مقدرة معها .

﴿ وروح منه ﴾ قيل هو الذى نفخ جبريل عليه السلام فى درع مريم فحملت بإذن الله تعالى سمى النفخ روحا لأنه ريح تخرج من الروح ومن لابتداء الغاية مجازا لا تبعيضية كما زعمت النصارى يحكى أن طبيبا حاذقا نصرانيا للرشيد ناظر على بن حسين الواقدى المروزى(٢) ذات يوم فقال له إن فى كتابكم ما يدل على أن عيسى عليه السلام جزء منه تعالى وتلا هذه الآية فقرأ الواقدى (وسخر لكم ما فى السموات والأرض جميعا منه) فقال إذن يلزم أن يكون جميع تلك الأشياء جزءا منه تعالى علوا كبيرا فانقطع النصرانى فأسلم وفرح الرشيد فرحا شديدا ووصل الواقدى بصلة فاخرة . وهى متعلقة بمحذوف وقع صفة لروح أى كائنة من جهته تعالى جعلت منه تعالى وإن كانت بنفخ جبريل عليه السلام لكون النفخ بأمره سبحانه وقيل سمى روحا لإحيائه الأموات وقيل لإحيائه القلوب كما سمى به القرآن لذلك فى قوله تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا) وقيل أريد بالروح الوحى الذى أوحى إلى مريم بالبشارة وقيل جرت العادة بأنهم إذا أرادوا وصف شىء بغاية الطهارة والنظافة قالوا إنه روح فلما كان عيسى عليه السلام متكونا من النفخ لا من النطفة وصف بالروح وتقديم كونه

---

(١) فى ط : وحصلها .

(٢) فى ط : الروزى خطأ .

عليه السلام رسول الله فى الذكر من تأخره عن كونه كلمته تعالى وروحا منه
فى الوجود لتحقيق الحق من أول الأمر بما هو نص فيه غير محتمل للتأويل
وتعيين مآل ما يحتمله وسد باب التأويل الزائغ .

﴿ فآمنوا بالله ﴾ وخصوه بالألوهية ﴿ ورسله ﴾ أجمعين وصفوهم بالرسالة
ولا تخرجوا بعضهم عن سلكهم بوصفه بالألوهية ﴿ ولا تقولوا ثلاثة ﴾ أى
الآلهة ثلاثة الله والمسيح ومريم كما ينبىء عنه قوله تعالى (أأنت قلت للناس
اتخذونى وأمى إلهين من دون الله) أو الله ثلاثة إن صح إنهم يقولون الله جوهر
واحد ثلاثة أقانيم أقنوم الأب وأقنوم الإبن وأقنوم روح القدس وأنهم يريدون
بالأول الذات وقيل الوجود وبالثانى العلم وبالثالث الحياة ﴿ انتهوا ﴾ أى عن
التثليث ﴿ خيرا لكم ﴾ قد مر وجوه انتصابه ﴿ إنما الله إله واحد ﴾ أى
بالذات منزه عن التعدد بوجه من الوجوه فالله مبتدأ وإله خبره وواحد نعت
أى منفرد فى ألوهيته ﴿ سبحانه أن يكون له ولد ﴾ أى أسبحه تسبيحا من أن
يكون له ولد أو سبحوه تسبيحا من ذلك فإنه إنما يتصور فيمن يماثله شىء ويتطرق
إليه فناء والله سبحانه منزه عن أمثاله وقرىء أن يكون أى سبحانه ما يكون له
ولد وقوله تعالى ﴿ له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ جملة مستأنفة مسوقة
لتعليل التنزيه وتقريره أى له ما فيهما من الموجودات خلقا وملكا وتصرفا
لا يخرج عن ملكوته شىء من الأشياء التى من جملتها عيسى عليه السلام فكيف
يتوهم كونه ولدا له تعالى ﴿ وكفى بالله وكيلا ﴾ إليه يكل الخلق أمورهم وهو
غنى عن العالمين فأنى يتصور فى حقه اتخاذ الولد الذى هو شأن العجزة المحتاجين
فى تدبير أمورهم إلى من يخلفهم ويقوم مقامهم ﴿ لن يستنكف المسيح ﴾
استئناف مقرر لما سبق من التنزيه والاستنكاف الأنفة والترفع من نكفت
الدمع إذا نحيته عن وجهك بالأصبع أى لن يأنف ولن يترفع .

﴿ أن يكون عبداً لله ﴾ أى عن أن يكون عبدا له تعالى مستمرا على عبادته
وطاعته حسبما هو وظيفة العبودية كيف وأن ذلك أقصى مراتب الشرف
والاقتصار على ذكر عدم استنكافه عليه السلام عنه مع أن شأنه عليه السلام
المباهاة به كما يدل عليه احواله ويفصح عنه أقواله أو لا يرى أن أول مقالة قالها

للناس قوله (إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا) لوقوعه فى موقع الجواب عما قاله الكفرة . روى أن وفد نجران قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم تعيب صاحبنا قال ومن صاحبكم قالوا عيسى قال وأى شىء أقول قالوا تقول له عبد الله قال إنه ليس بعار أن يكون عبد الله قالوا بلى فنزلت وهو السر فى جعل المستنكف عنه كونه عليه السلام عبدا له تعالى دون أن يقال عن عبادة الله ونحو ذلك مع إفادة فائدة جليلة هى كمال نزاهته عليه السلام عن الاستنكاف بالكلية فإن كونه عبدا له تعالى حالة مستمرة مستتبعة لدوام العبادة قطعا فعدم الاستنكاف عنه مستلزم لعدم الاستنكاف عن عبادته تعالى كما أشير إليه بخلاف عبادته تعالى فإنها حالة متجددة غير مستلزمة للدوام(١) يكفى فى إتصاف موصوفها بها تحققها مرة فعدم الاستنكاف عنها لا يستلزم عدم الاستنكاف عن دوامها .

﴿ ولا الملائكة المقربون ﴾ عطف على المسيح أى ولا يستنكف الملائكة المقربون أن يكونوا عبيدا لله تعالى وقيل أن أريد بالملائكة كل واحد منهم لم يحتج إلى التقدير واحتج بالآية من زعم فضل الملائكة على الأنبياء عليهم السلام وقال مساقه لرد النصارى فى رفع المسيح عن مقام العبودية وذلك يقتضى أن يكون المعطوف أعلى درجة من المعطوف عليه حتى يكون عدم استنكافهم مستلزما لعدم استنكافه عليه السلام وأجيب بأن مناط كفر النصارى ورفعهم له عليه السلام عن رتبة العبودية لما كان اختصاصه عليه السلام وامتيازه عن سائر أفراد البشر بالولادة من غير أب وبالعلم بالمغيبات وبالرفع إلى السماء عطف على عدم استنكافه عن عبوديته تعالى عدم استنكاف من هو أعلى درجة منه فيما ذكر فإن الملائكة مخلوقون من غير أب ولا أم وعالمون بما لا يعلمه البشر من المغيبات ومقارهم السموات العلا ولا نزاع لأحد فى علو درجتهم من هذه الحيثية وإنما النزاع فى علوها من حيث كثرة الثواب على الطاعات وبأن الآية ليست للرد على النصارى فقط بل على عبدة الملائكة أيضا فلا اتجاه لما

---

(١) فى ١٠ : لا تستلزم الدوام .

قالوا حينئذ وإن سلم اختصاصها بالرد على النصارى فلعله أريد بالعطف المبالغة باعتبار التكثير والتفصيل لا باعتبار التكبير والتفضيل كما فى قولك أصبح الأمير لا يخالفه رئيس ولا مرءوس ولئن سلم إرادة التفضيل فغاية الأمر الدلالة على أفضلية المقربين منهم وهم الكروبيون الذين حول العرش أو من هو أعلى منهم رتبة من الملائكة عليهم السلام على المسيح من الأنبياء عليهم السلام وليس يلزم من ذلك فضل أحد الجنسين على الآخر مطلقا وهل التشاجر إلا فيه ﴿ ومن يستنكف عن عبادته ﴾ أى عن طاعته فيشمل جميع الكفرة لعدم طاعتهم له تعالى مما لا سبيل لهم إلى إنكار اتصافهم به إن قيل لم عبر عن عدم طاعتهم له تعالى بالاستنكاف عنها مع أن ذلك منهم كان بطريق إنكار كون الأمر من جهته تعالى لا بطريق الاستنكاف قلنا لأنهم كانوا يستنكفون عن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهل هو إلا استنكاف عن طاعه الله تعالى إذ لا أمر له عليه الصلاة والسلام سوى أمره تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) ﴿ ويستكبر ﴾ الاستكبار الأنفة عما لا ينبغى أن يؤنف عنه وأصله طلب الكبر لنفسه بغير استحقاق له لا بمعنى طلب تحصيله مع اعتقاد عدم حصوله فيه بل بمعنى عد نفسه كبيرا واعتقاده كذلك وإنما عبر عنه بما يدل على الطلب للإيذان بأن مآله محض الطلب بدون حصول المطلوب وقد عبر عن مثل ذلك بنفس الطلب فى قوله تعالى (يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا) فإنهم ما كانوا يطلبون ثبوت العوج لسبيل الله مع اعتقادهم لاستقامتها بل كانوا يعدونها ويعتقدونها معوجة ويحكمون بذلك ولكن عبر عن ذلك بالطلب لما ذكر من الإشعار بأن ليس هناك شىء سوى الطلب والاستكبار دون الاستنكاف المنبىء عن توهم لحوق العار والنقص من المستنكف عنه .

﴿ فسيحشرهم إليه جميعا ﴾ أى المستنكفين ومقابليهم المدلول عليهم ذكر عدم استنكاف المسيح والملائكة عليهم السلام وقد ترك ذكر أحد الفريقين فى المفصل تعويلا على إنباء التفصيل عنه وثقة بظهور اقتضاء حشر أحدهما لحشر الآخر ضرورة عموم الحشر للخلائق كافة كما ترك ذكر أحد

الفريقين فى التفصيل عند قوله تعالى (فأما الذين آمنوا بالله) الآية مع عموم الخطاب لهما اعتمادا على ظهور اقتضاء إثابة أحدهما لعقاب الآخر ضرورة شمول الجزاء للكل وقيل الضمير للمستنكفين وهناك مقدر معطوف عليه والتقدير فسيحشرهم إليه يوم يحشر العباد لمجازاتهم وفيه أن الأنسب بالتفصيل الآتى اعتبار حشر الكل فى الإجمال على نهج واحد وقرىء فسيحشرهم بكسر السين وهى لغة وقرىء فسنحشرهم بنون العظمة بطريق الالتفات .

﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ بيان لحال الفريق المنوى ذكره فى الإجمال قدم على بيان حال ما يقابله إبانة لفضله ومسارعة إلى بيان كون حشره أيضا معتبرا فى الإجمال وإيراده بعنوان الإيمان والعمل الصالح لا بوصف عدم الاستنكاف المناسب لما قبله وما بعده للتنبيه على أنه المستتبع لما يعقبه من الثمرات ﴿ فيوفيهم أجورهم ﴾ من غير أن ينقص منها شيئا أصلا ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ بتضعيفها أضعافا مضاعفة وبإيفاء ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ وأما الذين استنكفوا ﴾ أى من عبادته عز وجل ﴿ واستكبروا فيعذبهم ﴾ بسبب استنكافهم واستكبارهم ﴿ عذابا أليما ﴾ لا يحيط به الوصف ﴿ ولا يجدون لهم من دون الله وليا ﴾ يلى أمورهم ويدبر مصالحهم ﴿ ولا نصيرا ﴾ ينصرهم من بأسه تعالى وينجيهم من عذابه ﴿ يا أيها الناس ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى كافة المكلفين إثر بيان بطلان ما عليه الكفرة من فنون الكفر والضلال وإلزامهم بالبراهين القاطعة التى تخر لها صم الجبال وإزاحة شبههم الواهية بالبينات الواضحة وتنبيه لهم على أن الحجة قد تمت [عليهم](١) فلم يبق بعد ذلك علة لمتعلل ولا عذر لمعتذر .

﴿ قد جاءكم ﴾ أى وصل إليكم وتقرر فى قلوبكم بحيث لا سبيل لكم إلى الإنكار ﴿ برهان ﴾ البرهان ما يبرهن به على المطلوب والمراد به القرآن الدال على صحة نبوة النبى عليه الصلاة والسلام المثبت لما فيه من الأحكام التى

---

(١) سقطت من ط .

من جملتها ما أشير إليه مما أثبتته الآيات الكريمة من حقية الحق وبطلان الباطل . وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن النبى عليه الصلاة والسلام عبر عنه به لما معه من المعجزات التى تشهد بصدقه وقيل هو المعجزات التى أظهرها وقيل هو دين الحق الذى أتى به وقوله تعالى :

﴿ من ربكم ﴾ إما متعلق بجاءكم أو بمحذوف وقع صفة مشرفة لبرهان مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أى كائن منه تعالى على أن من لابتداء الغاية مجازا وقد جوز على الثانى كونها تبعيضية بحذف المضاف أى كائن من براهين ربكم والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لإظهار اللطف بهم والإيذان بأن مجيئه إليهم لتربيتهم وتكميلهم ﴿ وأنزلنا إليكم نورا مبينا ﴾ أريد به أيضا القرآن الكريم عبر عنه تارة بالبرهان لما أشير إليه آنفا وأخرى بالنور النير بنفسه المنور لغيره إيذانا بأنه بين بنفسه مستغن فى ثبوت حقيته وكونه من عند الله تعالى بإعجازه غير محتاج إلى غيره مبين لغيره من الأمور المذكورة وإشعاراً بهدايته للخلق وإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان وقد سلك به مسلك العطف المبنى على تغاير الطرفين تنزيلا للمغايرة العنوانية منزلة المغايرة الذاتية وعبر عن ملابسته للمخاطبين تارة بالمجىء المسند إليه المنبىء عن كمال قوته فى البرهانية كأنه يجىء بنفسه فيثبت أحكامه من غير أن يجىء به أحد ويجىء على شبه الكفرة بالإبطال وأخرى بالإنزال الموقع عليه الملائم لحيثية كونه نورا توفيرا له باعتبار كل واحد من عنوانيه حظه اللائق به وإسناد إنزاله إليه تعالى بطريق الالتفات لكمال تشريفه هذا على تقدير كون البرهان عبارة عن القرآن العظيم وأما على تقدير كونه عبارة عن الرسول صلى الله عليه وسلم أو عن المعجزات الظاهرة على يده أو عن الدين الحق فالأمر هين وقوله تعالى إليكم متعلق بأنزلنا فإن إنزاله بالذات وإن كان إلى النبى صلى الله عليه وسلم لكنه منزل إليهم أيضا بواسطته عليه الصلاة والسلام وإنما اعتبر حاله بالواسطة دون حاله بالذات كما فى قوله تعالى : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس)

ونظائره لإظهار كمال اللطف بهم والتصريح بوصوله إليهم مبالغة فى الإعذار وتقديمه على المعقول الصريح مع أن حقه التأخر عنه لما مر غيرة من الاهتمام بما قدم والتشويق إلى ما أخر وللمحافظة على فواصل الآى الكريمة .

﴿ فأما الذين آمنوا بالله ﴾ حسبما يوجبه البرهان الذى أتاهم ﴿ واعتصموا به ﴾ أى عصموا به أنفسهم مما يرديها من زيغ الشيطان وغيره ﴿ فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ﴾ قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هى الجنة وما يتفضل عليهم [به](١) مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وعبر عن إفاضة الفضل بالإدخال على طريقة قوله * علفتها تبنا وماء باردا * وتنوين رحمة وفضل تفخيمى ومنه متعلق بمحذوف وقع صفة مشرفة لرحمة ﴿ ويهديهم إليه ﴾ أى إلى الله عز وجل وقيل إلى الموعود وقيل إلى عبادته ﴿ صراطا مستقيما ﴾ هو الإسلام والطاعة فى الدنيا وطريق الجنة فى الآخرة وتقديم ذكر الوعد بإدخال الجنة على الوعد بالهداية إليها على خلاف الترتيب فى الوجود بين الموعودين للمسارعة إلى التبشير بما هو المقصد الأصلى قيل انتصاب صراطا على أنه مفعول لفعل محذوف ينبىء عنه يهديهم أى يعرفهم صراطا مستقيما .

حكم الكلالة

﴿ يستفتونك ﴾ أى فى الكلالة استغنى عن ذكره بوروده فى قوله تعالى ﴿ قل الله يفتيكم فى الكلالة ﴾ وقد مر تفسيرها فى مطلع السورة الكريمة والمستفتى جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه ، يروى أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طريق مكة عام حجة الوداع فقال إن لى أختا فكم آخذ من ميراثها إن ماتت وقيل كان مريضا فعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إنى كلالة فكيف أصنع فى مالى . وروى عنه رضى الله عنه أنه قال عادنى

---

(١) سقطت من ط .

رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مريض لا أعقل فتوضأ وصب من وضوئه على فعقلت فقلت يا رسول الله لمن الميراث وإنما يرثنى كلالة فنزلت وقوله تعالى ﴿إن امرؤ هلك﴾ استئناف مبين للفتيا وارتفع امرؤ بفعل يفسره المذكور وقوله تعالى :

﴿ليس له ولد﴾ صفة له وقيل حال من الضمير فى هالك ورد بأنه مفسر للمحذوف غير مقصود فى الكلام أى إن هلك امرؤ غير ذى ولد ذكرا كان أو أنثى واقتصر على ذكر عدم الولد مع أن عدم الوالد أيضا معتبر فى الكلالة ثقة بظهور الأمر ودلالة تفضيل الورثة عليه وقوله تعالى ﴿وله أخت﴾ عطف عطف على قوله تعالى ليس له ولد أو حال والمراد بالأخت من ليست لأم فقط فإن فرضها السدس وقد مر بيانه فى صدر السورة الكريمة ﴿فلها نصف ما ترك﴾ أى بالفرض والباقى للعصبة أولها بالرد إن لم يكن عصبة ﴿وهو﴾ أى المرء المفروض ﴿يرثها﴾ أى أخته المفروضة إن فرض هلاكها مع بقائه ﴿إن لم يكن لها ولد﴾ ذكرا كان أو أنثى فالمراد بإرثه لها إحراز جميع ما لها إذ هو المشروط بانتفاء الولد بالكلية لا إرثه لها فى الجملة فإنه يتحقق مع وجود بنتها وليس فى الآية ما يدل على سقوط الإخوة بغير الولد ولا على عدم سقوطهم وإنما دلت السنة الشريفة على سقوطهم فى الأب(١) ﴿فإن كانتا اثنتين﴾ عطف على الشرطية الأولى أى اثنتين فصاعدا ﴿فلهما الثلثان مما ترك﴾ الضمير لمن يرث بالأخوة والتأنيث والتثنية باعتبار المعنى قيل وفائدة الإخبار عنها باثنتين مع دلالة ألف التثنية على الإثنينية التنبيه على أن المعتبر فى اختلاف الحكم هو العدد دون الصغر والكبر وغيرهما ﴿وإن كانوا﴾ أى من يرث بطريق الأخوة ﴿أخوة﴾ أى مختلطة ﴿رجالا ونساء﴾ بدل من أخوة والأصل وإن كانوا إخوة وأخوات فغلب المذكر على المؤنث ﴿فللذكر﴾

---

(١) فى ط دلت على سقوطها السنة الشريفة فى

أى فللذكر منهم ﴿ مثل حظ الأنثيين ﴾ يقتسمون التركة على طريقة التعصيب وهذا آخر ما أنزل من كتاب الله تعالى فى الأحكام ، روى أن الصديق رضى الله تعالى عنه قال فى خطبته ألا إن الآية التى أنزلها الله تعالى فى سورة النساء فى الفرائض فأولها فى الولد والوالد وثانيها فى الزوج والزوجة والأخوة من وثانيها فى الزوج والزوجة والأخوة من الأم والآية التى ختم بها السورة فى والآية التى ختم بها سورة الأنفال أنزلها فى أولى الأرحام .

﴿ يبين الله لكم ﴾ أى حكم الكلالة أو أحكامه وشرائعه التى من جملتها حكمها ﴿ أن تضلوا ﴾ أى كراهة أن تضلوا فى ذلك وهذا رأى البصريين صرح به المبرد وذهب الكسائى والفراء وغيرهما من الكوفيين إلى تقدير اللام ولا فى طرفى أن أى لئلا تضلوا وقال الزجاج هو مثل قوله تعالى : (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) وقال أبو عبيد رويت للكسائى حديث ابن عمر رضى الله تعالى عنهما وهو لايدعون أحدكم على ولده أن يوافق من الله إجابة أى لئلا يوافق فاستحسنه وليس ما ذكر من الآية والحديث نصا فيما ذهب إليه الكسائى وأضرابه فإن التقدير فيهما عند البصريين كراهة أن تزولا وكراهة أن يوافق الخ وقيل ليس هناك حذف ولا تقدير وإنما هو مفعول يبين أى يبين لكم ضلالكم الذى هو من شأنكم إذا خليتم وطباعكم لتحترزوا عنه وتتحروا خلافه وأنت خبير بأن ذلك إنما يليق بما إذا كان بيانه تعالى تعيين على طريقة مواقع الخطأ والضلال من غير تصريح بما هو الحق والصواب وليس كذلك .

﴿ والله بكل شىء ﴾ من الأشياء التى من جملتها أحوالكم المتعلقة بمحياكم ومماتكم ﴿ عليم ﴾ مبالغ(١) فى العلم فيبين لكم ما فيه

---

(١) فى ١٠ : بليغ فى العلم .

مصلحتكم ومنفعتكم . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة النساء فكأنما تصدق على كل مؤمن ومؤمنة ورث ميراثا وأعطى من الأجر كمن اشترى محررا أو برىء من الشرك وكان فى مشيئة الله تعالى من الذين يتجاوز عنهم والله أعلم .

تم بحمد الله تعالى طبع الجزء الأول من تفسير العلامة أبى السعود
ويليه الجزء الثانى وأوله سورة المائدة

فهرس موضوعى

للجزء الأول من تفسير
أبى السعود بن محمد العمادى الحنفى

فهرس موضوعى

للجزء الأول من تفسير أبى السعود

الصحيفة الموضوع
تقديم المحقق
عالم الروم أبو السعود العمادى
مناهج فهم القرآن الكريم
تفسير أبى السعود
كلمة أخيرة
١ مقدمة المؤلف
٧ سورة فاتحة الكتاب
٨ معنى فاتحة الكتاب وأسمائها
٨ هل البسملة من القرآن
١١ تفسير البسملة
١٦ الحمد والمدح والشكر
٢٥ سر وجوب قراءة الفاتحة فى الصلاة
٢٧ العبادة والعبودية والاستعانة
٢٨ أجناس الهداية
٣٠ النعم ومن الذين أنعم الله عليهم
٣٣ حكم قراءة آمين فى الصلاة
٣٤ سورة البقرة
آراء فى الحروف المقطعة
٣٨ هل الحروف آيات ؟ إعرابها
٤٣ الهدى والضلال
٤٨ معانى التقوى ومراتبها
٥٢ الإيمان

الصفحة الموضوع

٥٥ هل يدخل الحرام فى الرزق ؟
٥٧ إنزال الكتب السماوية
٦١ أحوال الكفر والكفار
٦٨ من علامات النفاق
١٠١ تحريض المؤمنين على العبادة
١٠٥ المراد بالتقوى
١١٠ دلائل أن القرآن من عند الله
١١٨ بشارات المؤمنين
١٢٧ حكمة ضرب المثل فى القرآن
١٣١ صفات الفاسقين
١٥٦ قصة خلق آدم وإسجاد الملائكة له ورفض إبليس السجود
١٦٣ عناصر كفر بنى إسرائيل
٢٤١ اليهود والنصارى يكفر بعضهم بعضا
٢٤٣ شناعة تخريب المساجد
٢٤٧ موقف اليهود والنصارى من بعثة النبى صلى الله عليه وسلم
٢٤٩ تذكير بنى إسرائيل بنعم الله عليهم
٢٤٩ رسالة النبى صلى الله عليه وسلم وشريعة الخليل عليه السلام
٢٦٣ وصية إبراهيم ويعقوب لأولادهم باتباع الإسلام
٢٦٧ شعار أتباع محمد صلى الله عليه وسلم وعقيدتهم
٢٧٣ موقف اليهود من تغيير القبلة
٢٨٩ تهديد الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى
٢٩٢ من دلائل عظمة الله وقدرته
٣٠٥ البر وعناصره
٣٠٨ القصاص والوصية
٣١٣ تشريع الصيام
٣٢٠ أمر بقتال المعتدين فى الشهر الحرام

الصفحة الموضوع

٣٢٥ تشريع الحج
٣٣٣ عود إلى تقريع بنى إسرائيل
٣٣٧ حكم القتال فى الأشهر الحرم
٣٣٩ الخمر والميسر
٣٤٣ أحكام اليتامى ونكاح المشركات
٣٤١ الإيلاء من الزوجات
٣٥٥ من أحكام الطلاق والرضاع والعدة
٣٧٠ عود إلى شناعات بنى إسرائيل
٣٨٠ فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرسل
٣٨٩ محاجة إبراهيم الذى كفر
٣٩١ بعث عزير بعد موته
٣٩٦ طلب إبراهيم دليلا عمليا على إحياء الموتى
٣٩٩ دعوة إلى الصدقة
٤١١ الربا والتجارة
٤١٥ أحكام الديون
٤٢٢ إيمان الرسول صلى الله عليه وسلم ومن تبعه

٤٣٠ سورة آل عمران

من دلائل قدرة الله تعالى
٤٣٩ المحكم والمتشابه فى القرآن
٤٤٩ حقارة شأن الدنيا وزينتها
٤٥٥ الدين واحد وهو الإسلام ، وسبب اختلاف الناس فيه
٤٦٠ مناجاة النبى صلى الله عليه وسلم لله تعالى
٤٦٦ اصطفاء الله تعالى للأنبياء عليهم السلام
٤٧٩ اصطفاء مريم
٤٨٢ ولادة عيسى عليه السلام
٤٨٨ عيسى والحواريون

الصفحة الموضوع

٤٩٨ عناصر دعوة الإسلام
٥٠٢ خيانة أهل الكتاب فى المال
٥١٢ خير الصدقات
٥١٦ فضل الكعبة المشرفة
٥٢٢ من خصائص الإسلام
٥٣٤ أهل الكتاب والإسلام
٥٤٤ غزوة بدر
٥٥٥ جهاد النفس وجهاد العدو
٥٦٠ عود إلى جهاد الأعداء
٥٦١ تحريض المؤمنين على القتال
٥٧٥ من دستور الحرب
٥٨١ المنافقون والحرب
٥٩٤ فى الهزيمة عبرة
٥٩٨ مكانة الشهداء عند ربهم
٦٠٥ استدراج الكفار
٦١١ البخل والبخلاء
٦٢١ من دلائل عظمة الله تعالى
٦٢٤ من دلائل الإيمان والمؤمنين

٦٣٧ سورة النساء

دعوة إلى الإيمان بالله تعالى
٦٤٠ من أحكام أموال اليتامى
٦٤٣ تعدد الزوجات
٦٥١ من أحكام الميراث
٦٦٢ أحكام تتعلق بالنساء
٦٦٩ المحرمات من النساء

الصفحة الموضوع

٦٨٠ نكاح الإماء
٦٩١ أسباب امتياز الرجال فى الميراث
٦٩٤ حقوق الوالدين و الأقارب
٦٩٩ الطهارة وأحكامها
٧٠٥ تحريف أهل الكتاب لكتبهم وعرض لقبائحهم
٧٢٠ تشريعات للمؤمنين
٧٢٤ تعجب من أحوال الكفرة والمنافقين
٧٣٧ تحريض المؤمنين على الجهاد
٧٥١ تحذير المؤمنين من المنافقين
٧٦٣ المعفون من الجهاد
٧٦٩ الصلاة فى الضرورات
٧٧٦ وجوب الحكم بما أنزل الله
٧٨٥ الأعمال والثواب
٧٨٨ طاعة الله على أهل السماء والأرض
٧٨٩ أحكام فى معاشرة النساء
٧٩٦ خطاب للمسلمين جميعاً
٨٠١ من علامات النفاق
٨٠٦ عود إلى اليهود
٨١٤ رد على أهل الكتاب
٨٢٠ زجر النصارى
٨٢٥ أمر بالإيمان
٨٢٧ حكم الكلالة